جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية اللغة العربية
فرع الأدب

الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة في الأدب العربي

إعداد
شاهر عوض الكفاوين

اشراف الاستاذ الدكتور
حسن محمد باجودة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

شكـــــر وتقديـــــر

أحمدك اللهم وأشكرك على جزيل انعامك وعظيم فضلك . أنت الموفق لكل خير ، والميسر لكل عسير . وأصلي وأسلم على نبيك محمد وعلى آله وصحبه وبعد :

فعملا بالتوجيه النبوي الكريم القائل : (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) (١) فانني أقدم خالص شكري وعظيم تقديري للقائمين على جامعة أم القرى الفتيّه ، الذين لا يدّخرون وسعا في العمل على الارتقاء بالجامعة وتطويرها من مختلف الجوانب .

واعترافا بالفضل لأهله ، ووفاء بالجميل لمن أسداه أزجي عظيم الشكر لأساتذتي الذين أفدت منهم ، وأخص أستاذي الدكتور/ حسن محمد باجوده رئيس قسم الدراسات العليا العربية بجامعة أم القرى ، والمشرف على هذه الرسالة . الذي واكب مسيرة هذا البحث موجها ومرشدا ، ومنحني من وقته الثمين وعلمه الغزير ما أعانني على انجاز هذا البحث . فجزاه الله خير الجزاء وبارك فيه ونفع بعلمه .

كما أشكر جميع من بذل لي المساعدة العلميه أو أسدى الي نصيحة خالصة أو وجه نقدا بنّاء . ونسأل الله أن يوفق الجميع لما فيه الخير والرشاد ...

---

(١) الحديث في مسند أحمد : ٢٤٦/٣ ، سنن أبي داود : ٢٥٥/٢ .

مفتاح الرموز

ق : قسم

ع : عدد

مج : مجلد

ج : جزء

د.ت: دون تاريخ طبع

ط : مكان الطبع

المقدمـــــــة

الحمد لله الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، كتب على المخلوقات الفناء واستأثر بالبقاء . أحمده سبحانه وأشكره على انعامه وتوفيقه ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أفصح من نطق ببيان ، وأعظم من جاهد لاحقاق الحق وقمع الطغيان ، وعلى آله وصحبه الذين هجروا الأوطان - على حبها - طمعا فى الجنان ومغفرة الرحمن .

أما بعد ، فان الشعر الذى يستحق الخلود والعناية ، ويقع الاعتزاز به فى كل أوان ، هو الذى يمثل وجدان الأمة فى التعبير عن أحاسيسها وعواطفها وأفكارها فى خضم ملاحم البقاء وهو - أيضا - المرآة الدقيقة الصادقة التى تعكس أغوار النفس البشرية ومافيها من صور وانفعالات . أما الشعر التائه الذى لا يعرف له هدف ، ولا يدفعه الى الوجود سوى حب الظهور فسرعان مايسقط فى زاوية الاهمال والموت ، ذلك لأنه مجرد من الفكرة التى هى شريان حياته الرئيس ، وأى جناية على الأدب أكبر من سلبه رسالته بفصله عن غمار الحياة ، واتخاذه زينة وترفا وتحفا مزخرفة ان بعض أبناء العربية من الأدباء والنقاد المحدثين استهوتهم النظرية التى ابتدعها نقاد الغرب ، والتى تترجم بعبارة " الفن للفن " أى أن الشعر هدف فى ذاته ، يقول بودلير : "ليس للشعر غاية وراء نفسه ، فان اتجه الشاعر نحو غاية خلقية فقد أنقص من قوته الشعرية . "(١) ويقول برادلى : " فى الشعر الخالص تنمو القصيدة بشكلها ، ومحتواها معا بين يدى صاحبها وتتم خلقا وابداعا ، فاذا سألت مامعناها ؟ قيل لك انها تعنى نفسها " (٢) .

---

(١) احسان عباس ، فن الشعر : ١٧٢ .

(٢) المرجع نفسه : ١٧٥ .

ومن هذا يتضح أن قيمة الفن عند هؤلاء تنحصر فى قدرته على اثارة اعجابنا بواسطة وسائله التعبيرية والأسلوبية بقطع النظر عن الأهداف والغايات .
واذا كان هذا الفريق من شعراء الغرب وأدبائه قد لجأوا الى هذا ردا على تنكر جمهورهم لهم ، وضياع أصواتهم وسط ضجيج الحضارة فأى مبرر لوجود هذه الفكرة فى الأدب العربى الذى لم يواجه رجاله شيئا مما واجهه أضرابهم فى الغرب ؟ : لاشك أنه التقليد غير المتروى الناتج عن الاعجاب بالجديد والغريب والا فأى قيمة للأدب فى ذاته ، ان قيمته الحقيقية تكمن فى مدى قدرته على تفسير الحياة والسمو بها عن طريق مزج القيمة الجمالية فيه بالقيم الأخرى السياسية والاجتماعية والخلقية ، واخراجها فى ثوب واحد .

ان الالتزام فى الشعر العربى قديم قدم الفن نفسه ، وبالنظر الى مختلف عصور الأدب يتضح ذلك جليا ، فشعراء القبائل فى الجاهلية منذ أن أدركوا تميزهم على الباقين بسلاح الشعر شعروا بتبعة النضال الفنى الذى يقع عليهم تجاه قضايا الجماعة ، فوقفوا أشعارهم على الفخر بأحساب تلك القبائل وشجاعتها ، وعلى ذكر حروبها الظافرة ، ثم مدح المقاتلين بصفات الحمية والبأس ورثاء من قتل منهم ، وظلوا ملتزمين بهذا النهج مدى حياتهم .

وربما التزم الشاعر بمسايرة وضع سائد ، وتأييد نظام مقرر على الناس الذين يعيش بينهم كأن يعجب بنظام سياسى أو اجتماعى ويرى فيه تحقيق ماتصبو اليه أمته ، فيصرف فنه الشعرى الى بيان ذلك والدفاع عنه طائعا مدفوعا بحرصه على تحسس مايدفع بمجتمعه الى درجات الرقى . وآفة الالتزام فى الشعر أن يتحول الى الزام ، بمعنى أن يفرض على الشاعر فرضا وتحت رقابة شديدة ممارسة فنه من خلال مبدأ معين أو مذهب يختار له ، والشعر الناتج فى هذه الحالة - بلاشك - زيف لا يلبث أن يضمحل حين تخف الضرورات التى كانت سبب فرضه .

ولعل اللبس الذى يقع من عدم التفريق بين الالتزام والالزام هو السبب فى نفور الكثيرين من الأدب الملتزم حيث ينظرون اليه على أنه مقيد ضمن دائرة ضيقة من المعانى والأفكار وماهو كذلك .

وايمانا منى بضرورة الالتزام فى الشعر ، فقد جعلت موضوع رسالتى للدكتوراه فى جانب من جوانب هذا الشعر هو رثاء الدول والأمصار (١) . وقد دفعنى الى الكتابة فى هذا الموضوع سببان هما :-

أولا : عزوف الباحثين فى الأدب العربى عن التعرض لهذا الفن الأصيل بالدراسة أو التحليل أو القيام بجمع نصوصه الشعرية المتناثرة فى بطون أسفار التاريخ وكتب الرحلات ، ومعاجم البلدان ولست أدرى - سبب هذا العزوف ، أهو النسيان ؟ أم الزهد على اعتبار أن هذا الشعر يمثل الجانب السلبى فى حياة الأمة عبر القرون ؟ : لعل السبب الأخير هو الأرجح ، لأننا نلاحظ أن مؤرخى الأدب - وخاصة أدب الأندلس - عندما يؤرخون لعصور الأدب هناك ويصلون الى هذا الفن الجديد الذى أذكته المحن والنكبات المتوالية ، يقفون عنده وقفة قصيرة مشيرين الى قصيدة أبى البقاء الرندى ، وبعض قصائد المعتمد بن عباد ثم ينصرفون بسرعة ليسهبوا فى وصف شعر الطبيعة والورود والأزهار ثم شعر الخمريات والغراميات ، ثم الموشحات ومجالس الغناء . حتى انطبعت هذه الصورة المشوهة بالميوعة عن طبيعة الأدب الأندلسى

---

(١) المصر : كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفئ والصدقات من غير مؤامرة للخليفة .

والمصران كانت تطلق على الكوفة والبصرة ./ انظر اللسان مادة (مصر) .

والحياة الأندلسية فى أذهان الكثير من الدارسين والباحثين ناهيك عن الجمهور العام . وقد أردت بتناول هذا الموضوع سدّ تلك الثغرة بابراز جانب مشرق من جوانب الشعر العربى تظهر فيه الصورة الصادقة الدافقة للواقع الذى كان يسود المجتمعات بعيدا عن البهرجة والزخرف أما القول بسلبية هذا الشعر ، فيمكن أن يطلق على القصائد التى تقتصر على البكاء والندب ، وتشيع جوا من اليأس والتشاؤم الانهزامى فى نفوس الناس ، والتى يكون شعراؤها بعيدين عن الانفعال الحقيق والتأثر الوجدانى ، وهذا اللون من القصائد قليل جدا فى هذا البحث . أما غالبية القصائد ففيها الاحساس الصادق الناتج عن تجربة ومعاناة فكثير من الشعراء الذين رثوا مدنهم عندما سقطت كانوا من المواكبين لحركة الجهاد والمشاركين فيها بشعرهم ، فألهبوا الحماس وتغنوا بالبطولات ، ثم رفعوا أصواتهم مستغيثين بمن حولهم من المسلمين فى ساعات الشدة والحصار ، ثم جاء الرثاء من تلك النفوس الثائرة فى نهاية المطاف .

ثانيا : ان الناظر فى الوضع الذى تعيشه الأمة الاسلامية فى الوقت الحاضر يرى أن هذا البحث قد جاء فى أوانه ، فالضعف الشديد والفرقة القاتلة ، والتطاحن المدمر والتغاضى عن أصوات الحق المخلصة التى تنبعث من هنا وهناك . . . . هذه الأمور التى تسود دول العالم الاسلامى الآن تذكرنا بالفترات التاريخية المشابهة لها التى مرّت بنا فى هذا البحث ، ونتج عنها أوخم العواقب وخير مثال على ذلك عصر ملوك الطوائف فى الأندلس ، حيث انقسمت البلاد الى ممالك كثيرة فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر ، وسرعان ماتلبدت سماء تلك الممالك

بغيوم المنافسة والعداوة نتيجة للأطماع والرغبة فى السيطرة فاستمرت الحرب بينها ، فوجد بذلك العدو النصراني فرصته فأخذ يبتلعها الواحدة تلو الأخرى ، فكان ذلك العصر المشؤوم أول خطوة فى سلّم ذهاب الأندلس كلها . ونحن هنا لا نريد أن نحفر قبورا لآمال الأمة التى تسعى جاهدة فى تحقيقها ، ولكن لعل الاطلاع على شعر الرثاء والنكبات التى قيل فيها يعتبر من أبلغ أساليب التنبيه ، ولفت النظر الى الأوضاع المتردية التى قد تؤدى الى ماأدت اليه مثيلاتها فى السابق فالتاريخ يعيد نفسه .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى ثلاثة أبواب مسبوقة بتمهيد ومختومة بخاتمة .

مهدت لهذا البحث بذكر الأوطان ومكانتها فى نفوس الشعراء باعتبارهم أقوى الناس شعورا بالصلة التى تربطهم بها ، وأكثرهم احساسا بالوحشة والشوق عند مفارقتها ، حتى أصبح الحنين الى الأوطان غرضا شعريا مستقلا فى أدبنا العربى ، وبينه وبين الرثاء صلة وثيقة ، فكلاهما يصدر عن تجربة صادقة وعاطفة متأججة اضافة الى التشابه فى المعجم الشعرى الى حد كبير .

الباب الأول : رثاء الدول والأمصار فى المشرق .

ويتألف هذا الباب من أربعة فصول تسير وفق تسلسل زمنى : تحدثت فى الفصل الأول عن رثاء الممالك فى الجاهلية ، وأوردت عدة قصائد ومقطوعات فى رثاء القصور والحصون الحميرية والكسروية التى كان الشعراء آنذاك ينظرون اليها بعين العظمة والاجلال بالاضافة الى طائفة من الشعر الداعى الى أخذ العبرة من تقلب الدنيا بأهلها .

أما الفصل الثانى فكان فى رثاء الدولة الأموية ، وقد ذكرت بايجاز ملابسات سقوطها على يد العباسيين ، ثم وقفت عند القصائد التى قيلت فى رثائها ومن أهمها سينيتان لأبى العباس الأعمى وأبى عدى العبلى يمكن أن نعتبرهما نواة للقصائد السينية الرثائية التى جاءت بعدهما حيث تجلت فيهما قوة العاطفة التى غذاها حب هذين الشاعرين لتلك الدولة وولاؤهما لها حتى بعد زوالها وجعلت الفصل الثالث لرثاء الدول والأمصار حتى عصر السلاجقة . وقد اشتمل على ثلاثة مباحث الأول : فى رثاء المدن التى دمرت بسبب الثورات والفتن الداخلية فى الدولة العباسية .

وأهم تلك الفتن ، فتنة الأمين والمأمون ، وصراعهما على الحكم ، والتى نتج عنها تدمير بغداد وازهاق آلاف الأرواح البريئه . هال الشعراء هذا الأمر فراحوا يفرغون انفعالاتهم شعرا باكيا حينا ، وعنيفا ساخطا حينا آخر ويذكر فى هذا المجال أبو يعقوب الخزيمى ورائيته الطويلة التى تنضح بالصدق ، وتكشف عن معاناة صاحبها الذى كان يمضغ آلامه بعيدا عن بلاطات الحكام . ومن الثورات التى حصلت فى هذا العهد - أيضا - ثورة الزنج ، نسبة للزنوج الذين قاموا بها وهى ثورة عارمة استمرت سنين طويلة ونتج عنها دمار كثير من المناطق ونهبها ، وعلى رأس تلك المناطق مدينة البصرة التى اجتاحوها اجتياحا ماحقا ودمروها تدميرا شنيعا وحرقوا جامعها بمن فيه ، وقد بكاها ابن الرومى بلوعة صادقة تحسها من خلال التكرار المتفجع الذى ظل يعيش فى دوامته طيلة القصيدة ، كما رثاها شاعر آخر من أهلها يعرف بالسدوسى بقصيدة جيدة يغلفها الحزن والألم النفسى لفداحة الخطب وتشرد الناس .

أما المبحث الثاني فقد خصصته برثاء الدولة الطولونية والفاطمية ، وقد أوضحت بنبذة تاريخية موجزة عن كيفية قيام كل منهما ، ثم عرضت لضعفهما وسحقهما نهائيا ، وقد كان بلاط ابن طولون في مصر مرتعا خصبا للشعراء ولذلك نجد في رثاء دولته وخاصة قصره المسمى بالميدان شعرا كثيرا ، وماهذا الذى وصلنا منه الا جزء يسير مما ذهب . أما الدولة الفاطمية فمراثيها قليلة بالنظر الى ضخامة سلطانها وربما يعود ذلك لطبيعتها المذهبية ، فلا نجد في رثائها الا قصيدة شاعرها المخلص عمارة اليمنى الذى ظل يعمل لارجاع سلطان الفاطميين عن طريق التحريض والمؤمرات حتى ظفر به وأعدم .

وجعلت المبحث الثالث لرثاء بيت المقدس عندما سقط بيد الصليبيين في نهاية القرن الخامس الهجرى . وقد كان لسقوطه رنة حزن عميقة في أرجاء العالم الاسلامي نظرا لقدسيته ، ولبشاعة الجرائم التى ارتكبها الصليبيون فيه ، فقد أفرغوا نار حقدهم على أهله فقتلوا منهم مايفوق الحصر ، كما قاموا بتدنيس المسجد الأقصى بكل وسيلة ، تماما كما يفعل اليهود في هذه الأيام ووقف العالم الاسلامي آنذاك مكتوف الأيدى مشغولا بنزاعاته وتفاهاته كمايقف اليوم دون انصات لنداء الجهاد والكرامة الذى يطلقه المخلصون .

وقد تجاوبت أصداء أصوات الشعراء في مختلف البقاع ، فجاء صوت أبى المظفر الأبيوردى من بغداد يصرخ داعيا للجهاد ، وناعيا على الأمة تفريطها في هذا المعلم الاسلامي ، ومصورا غضب الرسول -صلى الله عليه وسلم- لانتهاك مسراه . ثم جاءت قصائد مجهولة القائل من هنا وهناك ترثى حال المستضعفين الذين عذبوا وشردوا وتدعوا الى افتكاك أسرهم .

الفصل الرابع : تناولت فيه تدمير بغداد والشام على يد التتار ورثاء الشعراء لهما ، وقد أوضحت سبب زحفتهم الماحقة وتدميرهم الدولة الخوارزمية ، ثم زحفهم على بغداد وسحقها سحقا وحشيا جعلها أطلالا وقد كثر الباكون على هذه المدينة نظرا لكونها مقر الخلافة ومنار العلم والأدب ولكن الملاحظ على تلك القصائد اسرافها فى الصنعة البلاغية تمشيا مع أسلوب العصر .

ثم عرضت لتوجههم الى الشام وتدميرهم بعض مدنها ثم تقدمهم الى مصر حيث رجعوا خائبين بعد هزيمتهم فى عين جالوت على يد المماليك . ولكنهم عاودوا الكرة ثانية على الشام فى أوائل القرن التاسع الهجرى فدمروا مدنها وأهلكوا الحرث والنسل ، وسلطوا النصارى على المسلمين فسأموهم سوء العذاب وقد أذكت هذه الفجائع جمرة الشعر فانطلق يصور واقع الأمة المؤلم ويشارك فى تخليد المعالم والمقدسات التى دمرها الأعداء .

الباب الثانى : رثاء الدول والأمصار فى الأندلس والمغرب .

وتحت هذا الباب تندرج أربعة فصول مسبوقة بتوطئة أوضحت فيها أن الأندلس بحكم موقعها كانت ثغرا حربيا مجاورا للعدو النصرانى المتربص ، فهى بحاجة الى قوة واستعداد دائم للدفاع والهجوم وقد حدث هذا فعلا فى عصورها الأولى أيام عبد الرحمن الداخل ومن تبعه حتى غدت الأندلس من القوة بمكان جعل كل الدول التى حولها تسعى لكسب رضاها ، ثم يحل القرن الخامس الهجرى ويبدأ معه عصر ملوك الطوائف وتدخل الأندلس فى طور جديد من الضعف والتفكك ، وتبدأ نذر السقوط تلوح فى الأفق .

الفصل الأول : رثاء المدن : وأول المدن المدمرة فى آواخر حكم الدولة العامرية هى مدينة قرطبة حيث نشبت فتنة بين بقايا الأمويين وأبناء الأسرة

العامرية واستعان الطرفان بطوائف من البربر الذين دخلوا المدينة واستباحوها وطمسوا كل معالمها الحضارية ، وقد رثاها ابن شهيد الأندلسى بقصيدة طويلة تقليدية ، كما رثاها عدد من الشعراء المجاهيل محذرين من عواقب الاختلاف والفرقه ناسجين على منوال الوعظ والارشاد .

ثم تأتى أول النكبات بسقوط بربشتر بيد النصارى ، ولما كان هذا أول انتصار لهم فقد فعلوا بالمدينة وأهلها أفعالا مروّعه تحدث عن بعضها بايجاز ، وقد رثاها الفقيه ابن العسال بقصيدة انهال فيها على ملوك الطوائف ووصمهم بالجبن ، ثم ثنى بالناس موبخا اياهم على فعل المعاصى التى جرت عليهم البلاء ، وقد استشعر أهل الأندلس الخطر بعد سقوط هذه المدينة فقام الفقهاء بدور الوساطة لجمع الكلمة وتوحيد الصف ، ولكن هيهات أن يسمع الانتهازيون نداء المصلحة العامة ، فسقطت طليلة التى كانت حلما يراود النصارى من مئات السنين ، وعلى الفور حولت الى مدينة نصرانية واتخذت عاصمة لهم لمناعتها وجودة أرضها . وقد رثيت بقصيدة طويلة لمجهول بكى فيها محنة الاسلام وأظهر انعدام الثقة من قبل الأمة بحكامها وتشوّفها الى حاكم يكون قائد معركة وبطل انتصار .

وبعد ذلك تدخل الأندلس عهدا جديدا من الأمن والمنعة فى ظلال سيوف المرابطين والموحدين حتى أوائل القرن السابع الهجرى اذ أخذت تتغير الأحوال وخاصة بعد معركة العقاب التى تحطمت فيها قوة الموحدين وبدأ نجمهم فى الأفول . عندئذ تحرك النصارى بخطة جديدة لاقتسام الأندلس ، فتحرك ملك أراجوان نحو بلنسية وحاصرها طويلا ، ولم يستطع اقتحامها لصمود أهلها ، وتم الأمر فى النهاية على تسليمها صلحا حين نضبت أقواتها ولم تصلها النجدات . ولقد كانت بلنسية أما لكثير من الشعراء أمثال ابن الأبّار وابن

عميرة المخزومى وغيرهما فلا عجب أن تحظى بجطة وافرة من المراثى الشعرية والنثرية التى تفيض مرارة ولوعة .

وفى المقابل تحرك ملك قشتاله صوب اشبيلية بجيش لجب ، وأمده البابا بنجدات متوالية لأن المدينة كانت ، من المنعة والتحصين بمكان مكين ، فضرب النصارى حولها حصارا خانقا مدة خمسة عشر شهرا حتى اضطرت الى التسليم فى النهاية ، وقد فعل بها القشتاليون أفاعيل شنيعة صورها الشعر أصدق تصوير .

وقد ختمت هذا الفصل بالحديث عن رثاء صقلية ومدن المغرب . وخير من رثى صقلية بعد سقوطها بيد النورمان ورحيل الاسلام عنها بعد أن عمرها قرنين ونصف ، شاعرها ابن حمديس بأسلوب يتدفق حماسة وقوة ، ويشف عن ألم نفسى شديد يكوى فؤاده لما لاقاه من الخذلان لدى من راح يستغيث بهم .

وأما المدن المغربية فأشهرها القيروان التى دمرت ونهبت على يد القبائل الهلالية التى زحفت اليها من الصعيد المصرى فى القرن الخامس الهجرى وقد كانت آنذاك فى أوج عزها الحضارى والعلمى والأدبى ، وكانت حلقة وصل بين المشرق والأندلس .

وقد رثيت بقصائد كثيرة لشعرائها المشهورين الذين شردوا منها فيما بعد كابن رشيق ، وابن شرف والحصرى القيروانى وغيرهم ، وشعرهم يمتاز بالصدق وحرارة العاطفة ، وشكوى الغربة ، والحنين الدائم الى القيروان ، - على الرغم مما وجده بعضهم من الحظوة فى البلاد التى نزح اليها .

ونجد - أيضا - قصيدة للسان الدين ابن الخطيب فى رثاء مراكش عاصمة المرابطين والموحدين من بعدهم ، وذلك أنه عندما تغلب المرينيون على

الموحدين وثلوا عرشهم انتقلوا عن مراكش الى فاس فأصاب الأولى الخـــــراب وطواها الاهمال فاعتبر ابن الخطيب بهذا الانقلاب والتحول ، وأطلـــــق زفرته على تلك الأطلال .

الفصل الثانى : تحدثت فيه عن شعر الاستصراخ الذى ظهر فى الأندلس ابّان تحرك النصارى لمحاصرة المدن الاسلامية التى ذكرناها فى الفصــــل السابق . وقد أدى الشعراء دورا ايجابيا فى سبيل الدفاع عن بلادهــم فنظموا القصائد الحماسية التى تحض على الجهاد ، وتذكر بوجوب نصـــرة المسلمين وانقاذ بلادهم ، وتوجهوا الى المغرب وقاموا بحركة استنفــار عامة ، وكللت مساعيهم بالنجاح فى أغلب الأحيان ، وقد ظل شعر الاستصراخ مستمرا بعد سقوط الأندلس حيث كان المسلمون الذين يواجهون التنصـــير يرسلون صريخهم الى السلطان العثمانى والمملوكى . وقد تميزت قصائـــد الاستصراخ بطولها وتخلصها من المقدمات ، والاكثار من الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المناسبه .

الفصل الثالث : عقدت هذا الفصل لرثاء الممالك أو الامارات الـــتى أنشأها ملوك الطوائف فى الأندلس ، وقوض أركانها المرابطون ضمن خطتهــم لتوحيد الأندلس وشحنها بالجنود لتكون جبهة قوية تقف فى وجه النصـــارى ومن أهم تلك الامارات : امارة بنى عباد فى اشبيلية ، وامارة بنى الأفطس فــى بطليوس ، وامارة آل صمادح فى المرية . وقد كان التنافس بين هذه الامــارات على أشده فى مجال تزيين البلاط بفطاحل الشعراء والكتاب ، فكانت تغــدق عليهم الصلات وتقرر لهم الأرزاق ، ومما زاد الاهتمام فى هذا الأمر ، كون بعض أولئك الحكام من الشعراء الفحول أو الخطباء والنقاد الكبار ، ويكفى أن يقف الدارس عند سيرة المعتمد بن عباد ليتبين مقدار اتساع سلطان الأدب فــى

عهده . ولهذا ما أن انتهت دولته وسيق أسيرا حتى ارتفعت أصوات الشعراء بالبكاء وتهويل الخطب بوصف المآثر العظيمة التى احتوتها القيود وكبلها الذل ووصف بنيات ابن عباد بالجوع والخوف والانكسار الأمر الذى جعلهم يكسبون عطف التاريخ على قضية ابن عباد ، فراح كثير من المؤرخين والأدباء يكيلون التهم والسباب للمرابطين تحت تأثير سحر ذلك الشعر وقد ناقشت هذه القضية وحاولت وضعها فى الاطار الصحيح .

أما آل الأفطس فقد رثاهم وزيرهم ابن عبدون بقصيدته المشهورة بالبسامة ، والتى بدأها بمقدمة تاريخية طويلة عن الأمم العظيمة التى هلكت فى الدهر منذ أقدم العصور وحتى عصره ثم أفاض فى ذكر مآثر قومه ، وأبرز عظمتهم فى كل جوانب الحياة .

ورثى أبو الحسن بن الحاج بنى صمادح بمخمسة ذكر فيها أمجادهم ، وتأسف على فراقهم ، وانقطاع معروفهم عنه .

الفصل الرابع : أوردت فى هذا الفصل القصائد التى قيلت فى رثاء الأندلس بصفة عامة وقد قسمت هذه القصائد الى قسمين : القسم الأول يشمل القصائد التى قيلت على أثر سقوط قواعد الأندلس الهامة كقرطبة وبلنسية واشبيلية ، وكأن شعراء هذه القصائد يستشفون من هذا السقوط المتسلسل النتيجة الحتمية للأندلس كلها ، فراحوا يبكونها ، ويندبون معالم الاسلام فيها ، وأشهر قصيدة فى هذا الجانب نونية أبى البقاء الرندى .

أما القسم الثانى فيشمل القصائد التى قيلت بعد غروب شمس الأندلس نهائيا بسقوط غرناطة فى آخر القرن التاسع الهجرى وأهمها قصيدة طويلة لشاعر مجهول صور بها محنة الأندلس أصدق تصوير ، وبكاها أحر البكاء منتقلا من مدينة الى أخرى واصفا ماحل بها من الويلات ، ومحللا للأحداث وأسبابها .

الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأمصار .

ويحتوى على ثلاثة فصول : الفصل الأول رثاء الدول والأمصار بين التأثير والتأثير . عرضت فيه لأقوال الباحثين بنشوء هذا الفن فى الأندلس ، ثم تأثر المشرق به بعد ذلك كما عرضت للآراء التى تصف رثاء المشرق بضعف العاطفة أو انعدامها . وبينت اجحافها ، وقد توصلت الى أن القول بسبق الأندلس فى هذا المجال يحتاج الى اعادة نظر ، لأن دواعى هذه المراثى موجودة فى كل زمان ومن غير الممكن تحديد مكان نشأتها الأولى .

الفصل الثانى : دراسة لشكل قصيدة الرثاء ، ويشمل أربعة مباحث .

المبحث الأول : مقدمة القصيدة ، فقد تنوعت المقدمات حسب حالة الشاعر الانفعالية وقوة شاعريته ، فبعضهم تقليدى يبدأ بالوقوف على الأطلال ، وآخر يفتتح قصيدته بذكر الأجل المحتوم أو بذكر القضاء والقدر أو بوصف حالته وما داخله من حزن وغم ، وثالث يدخل فى موضوع الرثاء مباشرة .

المبحث الثانى : الألفاظ ، بينت فيه دور الألفاظ المتناسقه فى اشاعة الجو الذى يريد الشاعر أن يبثه فى نفوس السامعين ، كما لاحظت اختيار الشعراء للألفاظ المشبعة بالحركة والجرس والتى توحى بمعان كلية متداخلة تفهم بمجرد سماع اللفظ وتتعذر تجزأتها .

المبحث الثالث : الأوزان والقوافى : تبينت من خلال دراستى لأوزان الشعر الذى مر فى هذا البحث أن شعراء الرثاء نظموا فى معظم البحور تقريبا ، ولكن الملاحظ كثرة دوران البحور ذات التفاعيل الكثيرة كالطويل والبسيط ثم الكامل والوافر .... وقد ذكرت تعليلا لهذه الظاهرة أما القوافى فقد برزت القافية المطلقة التى تلائم مد الصوت بالصراخ والتفجع

كمابرز أيضا الروى المكسور الذى تؤدى كسرته دور النائحـه .

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين ، فقد أكثر شعراء الرثاء كثرة ملحوظه من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، كما ضمنوا قصائدهم كثيرا من أبيات الشعر المشهورة ، وهذا غير كونه وسيلة لاظهار الثقافة يعطى القصيدة قوة تزيد من تأثيرها فى نفوس السامعين .

الفصل الثالث : دراسة لمضمون قصيدة الرثاء . ويشمل أربعة مباحث أيضا .

المبحث الأول : الواقعية ، فالشاعر فى مجال رثاء دولته أو مدينته يصدر عن واقع يعيشه ويصف أحداثا تجرى أمامه ، فلايجد مجالا للخيال المجنح ، وليس معنى هذا أن يقف الشاعر دائما عند حدود النقل المباشر للحوادث فيكون سطحيا ، لكنه يرسم صورا ملونة بمشاعره وعواطفه تؤثر فى السامع ولاتخرج عن الواقع ، وهذه هى الواقعية الروحية التى يعنى بها الشعراء .

المبحث الثانى : التكرار ، وهذه الظاهرة تلاحظ فى معظم القصائد التى وردت فى هذا البحث فنجد الشاعر يكرر بيتا أو شطرا أو عبارة وما الى ذلك ، ولعل هذا التكرار وسيلة من وسائل التنفيس عن نفس الشاعر التى تتمزق بفعل جيشان الانفعالات ، أو لعله أثر من آثار الألم النفسى الشديد الذى يجعل الشاعر فى حالة هذيان ، وبخاصة عندما يكرر اسم المدينة المرثية . وللتكرار أيضا دوره فى تقوية موسيقى القصيدة وتناسقها ، ويمكن ملاحظة ذلك فى الجناس ورد العجز على الصدر .

المبحث الثالث : الروح الجماعية : فالشاعر ابن بيئته ووليد مجتمعه ، يعيش وسط جمهور تربطه به علاقات ووشائج ، فهو يحس بمايحسون ، ويتلمس همومهم وآلامهم ليعبر عنها ، فهو لسان حالهم ، ففى مابين أيدينا من مراث

نجد الشعراء يصبون اهتمامهم على بيان ماحلّ بالناس من قتل وتشريد وهتك ويأخذون في تحليل النفسيات المحطمة ، وبخاصة عند النساء والأطفال والعاجزين ومن جانب آخر فان بكاء الشعراء على المساجد والمحاريب والمنابر المدمرة أو المغيرة هو نوع من الروح الجماعية ، فتلك المعالم المقدسة ينغرس حبها في نفس كل فرد في المجتمع الاسلامي .

المبحث الرابع : أسباب النكبات ، تطالعنا في شعر رثاء الدول والأمصار ظاهرة تلمس الشعراء للأسباب التي أدت الى حدوث الكوارث ، ولكن الأسباب التي يوردونها لا تمثل جوهر الحقيقة الا نادرا فهم يلجأون الى ذكر العين الحاسده ، وذنوب الأمة ، وحكم القدر المحتوم مع علمهم أن السبب الحقيقي يكمن في ضعف الحاكم وجبنه وخيانته ولكنهم يكتمون ذلك خوفا من سياط العذاب التي تصب على كل منتقد أو معارض .

وفي الخاتمة ذكرت بعض النتائج الهامة التي توصلت اليها من دراستي لشعر رثاء الدول والأمصار . هذا وقد جعلت من منهجي في هذا البحث الوقوف عند النصوص ودراستها من داخلها بعد الاحاطة بالظروف التاريخية التي تلقي ضوءا على ملابسات الحادث الذي هزّ الشاعر ودفعه الى القول ، وقد حرصت على ايراد ماأمكن من النصوص الهامة التي تدعم هذا الفن محاولا وضعها في متناول القارئ بعد أن كانت في طي النسيان . وقد يلاحظ المتتبع لفصول هذه الرسالة وبخاصة القسم الأندلسي منها شيئا من التكرار في المادة التاريخية ، وهذا أمر لا يستطيع الباحث تفاديه لتداخل الأحداث وتشابكها ، وقد حاولت التخفيف من ذلك مااستطعت . ولا أدعي أنني بلغت الكمال في هذا البحث ، فذلك بعيد من عمل الانسان ولكني أرجو أن أكون قد أضفت شيئا جديدا لأدبنا العربي .

والله الموفق والهادي الى سواء السبيل ،،،

شاهر الكفاوين

غرة جمادى الآخرة - ١٤٠٤هـ .

التمهيد : الأوطان ومكانتها في نفوس الشعراء .

لقد أودع الله ـ تعالى ـ في النفس البشرية مجموعة من العواطف تمكنها من تحديد تعاطها مع الأشياء المحيطة بها ، وتتشكل هذه العواطف عند الانسان ـ في العادة ـ من جراء تعاطه مع الأشياء وتكرار اتصاله بها وردود الفعل الناتجة عن ذلك . ويأتي على رأس العواطف الانسانية عاطفتان رئيستان هما : عاطفة الحب وعاطفة الكره . فاذا كانت الردود الانفعالية الناتجة عن الاحتكاك بشئ ماسارة تكونت عاطفة الحب والا كان العكس .

ومادام الأمر كذلك ، فأى شئ أقرب وأحب الى نفس الانسان من موطنه الذى ضمه بين أحضانه منذ أن رأى النور لأول مرة على ظهر هذه الأرض ثم ثم درج على تربه ، وتنفس هواءه ، وشرب ماءه ، حتى أصبح جزءا من نفسه لا يمكن أن يستغنى عنه أو يفارقه بسهولة . بل ان الشوق والحنين تبدأ لواعجه تعصف بالنفس منذ اللحظة الأولى التى تختفى فيها معالم ذلك الوطن عن عيني المغترب أو المهاجر .

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ فى كتابه الكريم مقدار حب الانسان لوطنه وتعلقه به فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليل منهم .....) (١) .

فقرن الخروج من الديار ومفارقتها بقتل النفس ومفارقة الروح لجسدها ، ولا شئ أشق على الانسان من قتل نفسه ، ولذلك عقب فى الآية بقوله :

---

(١) سورة النساء ، الآيه ٦٦ .

(مافعلوه الا قليل منهم) وقال أيضا : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكـــم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كساد هـــا ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حـــتى يأتى الله بأمره ......) (١) .

فقد عدد فى الآية كل مايحبه الانسان ومايتعلق به فى هذه الحيـــاة ، كالأقارب والعشيرة ، والأموال والتجارات ثم عطف عليها المساكن التى هـــى جزء من الوطن الكبير .

وحب الوطن والحنين اليه غير قاصر على أمة من الأمم أو ملة من الملل ، بل ان هذا موجود عند بعض أصناف الحيوانات ، ويروى عن الأصمعى أنه قال : " قالت الهند ثلاث خصال فى ثلاثة أصناف من الحيوان : الابل تحن الـــى أوطانها وان كان عهدها بعيدا ، والطير الى وكره وان كان موضعه مجدبا ، والانسان الى وطنه وان كان غيره أكثر له نفعا " (٢) .

ولعل المشاهد والمعروف عن أكثر الحيوانات أنها تدافع عن مأواهـــا اذا هوجم حتى الموت . أما حب الوطن عند غير العرب فهو يدعو الى الدهشة حقا ، فقد بلغوا فيه مبلغا عظيما ، فهو عند اليونان يولد مع الانسان ، يقول بعض فلاسفتهم : " فطرة الرجل معجونة بحب الوطن " (٣) ويروى عن جالينـــوس طبيبهم وحكيمهم قوله : " يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببـــل القطـــر " (٤) .

أما الهنود (٥) فقالوا : " حنين الرجل الى وطنه من علامات الرشد " وقالـــوا أيضا : " حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لأن غذاءك منهما وغذاءهما منه " (٦) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٤ .

(٢) السخاوى ، المقاصد الحسنة : ١٨٣ .

(٣) الراغب الأصفهانى ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : ٤/ ٦٢٠ .

(٤) رسائل الجاحظ : ٢/ ٣٨٧ .

(٥) العسكرى ، ديوان المعانى : ٢/ ١٨٧ .

(٦) رسائل الجاحظ : ٢/ ٣٨٥ .

ويروى أن سابور ملك الفرس أسر في إحدى معاركه ببلاد الروم واعتل هناك فقالت له بنت الملك ـ وقد عشقته ـ ماتشتهي ؟ فقال : شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر ، فحملا اليه فبرأ . (١)

وبغض النظر عن صحة هذه الرواية أو عدمها الا أنها تدل على مايكنه ذلك الملك لوطنه من عظيم الحب والتقدير ، فهو لم يطلب أهلا ولا مالا وانما شربة من ماء وحفنة تراب من ثرى وطنه ليشمه ، فيشعر بارتباطه القوي بهذا التراب الذي التصق به زمنا ، وكان مهدا لتطوراته النفسية والفكرية .

وهذا الأسكندر المقدوني الذي جال في البلدان وخرّب الأقاليم ، وأباد الخلق ، مرض بحضرة بابل فلما أشفى على الموت أوصى وزراءه وحكماءه أن يحملوا جثته في تابوت من ذهب الى بلده ليتزل بتراب وطنه . (٢) وهكذا لو استمررنا في استقصاء الأمم القديمة لوجدنا نماذج رائعة لحب الوطن ومكانته في نفوس أبنائه ، ولكن المجال لا يتسع لذلك .

أما العرب فهم أمة شاعرة تميزت برفاهة الحس وتدفق العاطفة ، كما عرف عنهم الحب الشديد للوطن والشوق والحنين اليه في حالات البعد والفراق ولا أدل على ذلك من افتتاحهم لقصائدهم بذكر الديار الغابرة التي قطنوها في يوم من الأيام .

فالشاعر الذي يضطر الى ترك وطنه والنزوح عن داره ، تزدحم في نفسه أمواج الشوق والحنين والحزن ، ولكنه لا يسكبها دمعا كغيره ، وانما يترجمها الى عمل فني صادق ينبع من قرارة وجدانه فتحس حرارته حين تسمعه أو حين تقرؤه ولو بعد مئات السنين .

---

(١) الأصفهاني ، المصدر السابق : ٤ / ٦٢١ . وسابور هو التاسع من ملوك الفرس الساسانية . انظر : الطبري : ٢ / ٦٢ .

(٢) رسائل الجاحظ : ٢ / ٤٠٦ .

انظر الى قول الأعرابى يحن الى وطنه منعج (١) :

ألم تعلمي يادار ملحاء أنـــه * اذا أجدبت أو كان خصبا جنابها .
أحب بلاد الله مابين منعـــج * الـيّ وسلمى أن يصوب سحابهـا .
بلاد بها حل الشباب تميمـتي * وأول أرض مسّ جلـدى ترابهـا .

وهذا الحب للوطن الأول ، الذى كان مهدا لذكريات الطفولة والشباب صاغه أبو تمام (٢) :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيـب الأول .
كم منزل فى الأرض يعشقه الفـتى * وحنينـه أبـدا لأول مـنزل .

ولعل قائلا يقول : كيف نمت عاطفة الحنين الى الأوطان ، واشتدت فى البادية العربية مع أنه لم يكن هناك للقبائل العربية مايمكن أن نطلق عليه وطنا بمعنى السكن والاقامة الدائمة ؟ فالعرب ـ كماهو معلوم ـ كانوا رحّالا ينتجعون مناطق عديدة سعيا وراء الماء والكلأ . ولكنهم كانوا يقطنون فى بعض المواضع حقبة من الزمن فيكون هذا المكان هو وطنهم ، ثم يضطرون الى تركه ، وقد خلفوا فيه ذكريات خالدة وأياما جميلة ، تثير فى أنفسهم الحنين اليه كلما مروا به ، وخاصة عندما تطمس الآثار التى عهدوها فيه وتصبح رسوما وأطلالا ومن هنا جاءت سنة الوقوف بالأطلال وبكاء الرسوم ، والدعاء لها بالسقيا التى استمرت منهجا للشعر العربى قرونا طوالا .

وقد أشار الى هذا ابن رشيق (٣) بقوله عن العرب : " وكانوا أصحاب خيام ينتقلون من موضع الى آخر ، فلذلك أول ماتبدأ أشعارهم بذكر الديار ، فتلك ديارهم .

---

(١) ياقوت الحموى ، معجم البلدان : مادة (منعج) ومنعج واد لبنى أسد ، ومن أيام العرب يسمى يوم منعج وهو لبنى يربوع بن حنظلة بن تميم على كلاب .
(٢) ديوانه : ٣/١٥٧ .
(٣) العمدة : ١/١٨٨ .

"كما أشار اليه ـ أيضا ـ الدكتور شوقي ضيف بقوله (١) :

" ومابكاء الديار والأطلال الا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذى نما معهم (أى العرب) على مرّ الزمن واختلاف المنازل والأمكنه . "

واذا كان الشاعر البدوى يحن الى أطلاله ورسومه فان الشاعر الحضرى أشد حنينا لكونه ألف واستقر وعرف قيمة الوطن . فلدينا شعراء من أهل الحضر ـ فى العصر الجاهلى ـ لهم شعر رقيق فى الحنين لأوطانهم التى أرغموا على مغادرتها . يقول عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر فى الحنين الى مكة (٢) :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر .
ولم يتربع واسطا فجنوبه * الى السر من وادى الأراكة حاضر .
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر .
وكنا ولاة البيت من بعد نابت * نطوف بباب البيت والخير ظاهر .
فان تنثنى الدنيا علينا بحالها * فان لها حالا وفيها التشاجر .
فأخرجنا منها المليك بقدرة * كذلك ياللناس تجرى المقادر .

الى أن يقول : فساحت دموع العين تبكى لبلدة * بها حرم آمن وفيها المشاعر .

وتظهر لوعة الشاعر وحنينه الى أيامه السابقة التى أمضاها فى ربوع وطنه من خلال استرجاعه لسجل حياته الماضية ، ومقارنته بما آل اليه الآن من الغربة والتشرد . فبينما كان فى وطنه من السادة المجاورين لبيت الله بمكة اذا به فى دار غربة جائعا يتهدده العدو فحق له أن تسح دموعه ، ويخفق قلبه عند الذكرى .

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر : ٢٦٣ .

(٢) محمد ابراهيم حوّر ، الحنين الى الوطن فى الأدب العربى : ١٤٦ .

ثم يأتي الاسلام فيؤكد هذه العاطفة ، ويجعل حب الوطن من الايمان ، كما يجعل الدفاع عنه فرض عين على المسلم في بعض الأحوال .

ولقد كان المسلمون يحملون في قلوبهم حبا عظيما لوطنهم الأول مكة ، على الرغم مما نالهم فيها من العذاب بأيدي المشركين فمجرد أن هاجروا منها ووصلوا الى المدينة ، حتى بلغ منهم الشوق كل مبلغ . فعن عائشة رضي الله عنها ـ قالت : (1) (لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : ياأبت كيف تجدك ؟ ويابلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر اذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله * والموت أدنى من شراك نعله .

وكان بلال اذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة * بواد وحولي إذْخِرٌ وجليل (٢)

وهل أردن يوما مياه مجنة * وهل يبدون لي شامة وطفيل (٣)

قالت عائشة ، فجئت رسول الله فأخبرته فقال : اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حماها فاجعلها في الجحفة) .

فمن هذين البيتين نلاحظ مدى حب الوطن والارتباط به مهما نال الانسان فيه من العنت فبلال رضي الله عنه ـ تكون أمنيته الأخيرة أن يبيت ليلة في بطاح مكة ليشم رائحة اذخرها الذكيه ، ويشاهد معالمها الخالدة . والرسول عليه الصلاة والسلام ـ كان لا يقل عن أصحابه حنينا الى مكة ولولا أن أهلها

---

(١) صحيح البخاري : ٥/ ٨٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية : ٣/ ٢٢١ .

(٢) الاذخر حشيشة طيبة الرائحة ، الجليل : نبات قصير لا يطول . انظر : ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث : ١/ ٣٣ .

(٣) مجنه : موضع بأسفل مكة ، شامة وطفيل : جبلان . انظر معجم البلدان ، المواد ، (مجنة) (شامة) ، (طفيل) .

(١)
أخرجوه منها ماخرج ، وفى الحديث : (وفد أصيل الغفارى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يضرب الحجاب ، فقالت له عائشة : كيف تركت مكة ؟ قال : تركتها وقد أخضرت جنباتها ، وأبيضت بطحاؤها ، وأعذق اذخرها ، وانتشر سلمها ، فقال النبى ويها يا أصيل دع القلوب تقر .) وفى رواية أخرى أنه قال : حسبك يا أصيل لا تحزني .

واذا ماانتقلنا الى حنين الشعراء نجد أنه يتخذ طابعا مميزا من حيث رهافة الشعور ودقة الاحساس ، فالشاعر عندما يعصف به الشوق يدفعه الى تصوير ذلك الوطن بصورة تجعل منه جنة تحوى جميع الخيرات ومعانى الجمال ، فتربته مسك وكافور وماؤه شهد أو خمر الى غير ذلك مما يجعله يتمنى أن يستنشق هواءه ، ويشرب ماءه ويكتحل بترابه . يقول الشاعر نبهان العبشمى : (٢)

يقر بعينى أن أرى من مكانه * ذرى عقدات الأبرق المتقاود . (٣)
وأن أرد الماء الذى شربت به * سليمى وقد مل السرى كل واخد . (٤)
وألصق أحشائى ببرد ترابها * وان كان مخلوطا بسم الأساود .

فقرة عين هذا الشاعر أن يلصق أحشاءه بتراب وطنه ليشفى غلته بذلك الاحتضان ولو كان فيه الهلاك .

وهذا الشاعر أبو قطيفة الأموي (٥) كان يعيش فى المدينة المنورة ، متقلبا

---

(١) العجلونى ، كشف الخفا ومزيل الألباس : ١/ ٤١٤ .

(٢) المبرد ، الكامل : ٣١ .

(٣) العقد : المتراكم من الرمل ، اللسان (عقد) ، المتقاود : المستطيل على وجه الأرض . المصدر نفسه (قود) .

(٤) الوخد سرعة السير للابل / انظر ، القالى ، الأمالى : ١/ ٦٣ .

(٥) هو عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط القرشى ، شاعر رقيق الشعر جلى المعانى عاش فى المدينة ، ومات قريبا من سنة سبعين للهجرة / الأغانى : ١/ ٤ ومابعدها . ابن قتيبه : عيون الأخبار : ١/ ٢٣٠ .

فى نعمائها ثم يأمر ابن الزبير بنفيه الى الشام مع من نفى عندما أعلن الخروج على بنى أمية ، وخلع طاعة يزيد بن معاوية ، فشق الأمر على الشاعر ومزقه الشوق ، فقال فى ذلك عدة مقطوعات تذوب رقة وصبابة ، كانت احداها من المائه صوت التى أختارها صاحب الأغانى وذلك قوله :

(١)
القصر والنخل فالجماء بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون .

ومما قاله فى الحنين الى المدينة :

(٢)
ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا * جبوب المصلى أم كعهدى القرائن ؟
(٣)
وهل أدور حول البلاط عوامر * من الحى أم هل بالمدينة ساكن ؟
اذا برقت نحو الحجاز سحابة * دعا الشوق منى برقها المتيامن .
فلم أتركها رغبة عن بلادها * ولكنه ماقدر الله كائن .
أحن الى تلك الوجوه صبابة * كأنى أسير فى السلاسل راهن .

وله أيضا :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا * قباء وهل زال العقيق وحاضره ؟
وهل برحت بطحاء قبر محمد * أراهط غرّ من قريش تباكره ؟
لهم منتهى حبى وصفو مودتى * ومحض الهوى منى وللناس سائره .

ان هذه الأبيات تصدر عن عاطفة شفها الوجد ، ونفس أضناها الحنين فالشاعر كلما طال مقامه فى الشام زاد اشتياقه للمدينة ، فنراه يسبح فى

---

(١) الأغانى : ١/٨ ، القصر والنخل : مواضع بالمدينة لسعيد بن العاص واليها من قبل معاوية ، جيرون : من أبواب دمشق / معجم البلدان (جيرون) .

(٢) القرائن : دور متلاصقة لسعيد بن العاص ، سميت بالقرائن لاقترانها معجم البلدان : (القرائن) .

(٣) البلاط : موضع بالمدينة مبلّط بالحجارة بين المسجد النبوى وسوق المدينة / معجم البلدان "بلاط" .

شبه أحلام يقظة يناجي نفسه ويسائلها عن تلك المعالم التي كان يرتادها كقباء والعقيق والقرائن وغيرها ، وعن تلك الرفقة القرشية التي منحها خلاصة حبه ، هل هم كما كانوا أم تغير كل شيء بعده . ان البرق الخافق من صوب الحجاز يثير شجنه ويحرك فؤاده ، فيئن أنين الأسير من القيود والسلاسل .

ويقول أيضا :

(١)

ليت شعري وأين مني ليت * أعلى العهد يلبن فبرام ؟

أم كعهدي العقيق أم غيرته * بعدي الحادثات والأيام ؟

وبأهلي بدّلت عكا ولخما * وجذاما ، وأين مني جذام ؟

وتبدلت من مساكن قومي * والقصور التي بها الآطام .

(٢)

كل قصر مشيد ذي أواس * يتغنى على ذراه الحمام .

اقر مني السلام ان جئت قومي * وقليل لهم لدي السلام .

ان الشاعر يعيش حالة من الاضطراب والقلق النفسي ، فكل شيء يألفه قد ذهب ، فيدل بأهله أقواما لا عهد له بصحبتهم من قبائل عك وجذام أنطاز معاوية من أهل الشام ومساكنه بدل قصورا شامخة ، ولكنه يحاول أن ينسى هذا الواقع ويتجه بمشاعره نحو مغانيه الأولى جبال المدينة ووديانها ، وكأني بالشاعر قد يئس من العودة اليها ثانية ، ولهذا فهو يفتتح جميع مقطوعاته التي مرت بنا بالتمني المشرب باليأس (ليت شعري) ، ثم نراه يرسل بسلامة من بعيد كوداع أخير لا لقاء بعده .

---

(١) يلين : جبل أو غدير قرب المدينة / معجم البلدان (يلين)

برام : جبل في ديار بني سليم عند الحرة من ناحية البقيع / المصدر نفسه (برام) .

(٢) أواس : جمع آسية وهي الأساس أو الأصل . انظر : ابن واصل : تجريد الأغاني : ١/ ٢٢ .

ويروى أن ابن الزبير عندما سمع هذه الأبيات قال (١) : " حن والله أبو قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله ، من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع . " وماكاد الخبر يطرق سمع شاعرنا حتى أغذ السير من فوره الى المدينة ليطوف " جمرة وجده ، ولكنه توفى قبل أن يصل اليها .

وهذا الامام الشافعى ـ رحمه الله ـ يحن الى مسقط رأسه مدينة غزة " على الرغم من أنه غادرها صغيرا ، وجال فى أقطار كثيرة وأصبح علما من أعلام الفقه الاسلامى ، ومع ذلك بقى حبه لوطنه الأول مشتعلا لا يستطيع كتمانه . يقول (٢) :

وانى لمشتاق الى أرض غزة * وان خانني بعد التفرق كتمانى .
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت به من شدة الشوق أجفانى .

ويقول ابن الرومى (٣) :

ولى وطن آليت أن لا أبيعه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا .
فقد ألفته النفس حتى كأنه * لها جسد ان بان غودرت هالكا .
وحبب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاها الشباب هنالكا .
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا .

فهذه صورة جميلة لتعلق الشاعر بوطنه ، فهو ينظر اليه على أنه جسد يحتضن روحه ، فالعلاقة علاقة عطف وامتزاج لا يمكن معه الانفكاك ، وكيف لا ، والوطن سجل لحياة الشاعر منذ بدايتها ، ينظر فى مغانيه فيذكره عهود الصبا ومآرب الشباب .

---

(١) الأغانى : ١/٣٠ .

(٢) معجم البلدان / (غزة) ، وغزة مدينة بفلسطين المحتلة تقع على البحر المتوسط ، تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ، وفيها قبر هاشم بن عبد مناف / الحميرى ، الروض المعطار / (غزه) .

(٣) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٢/٧ .

أما ابن أبى السمط (١) فيقول فى حنينه الى نجد وقد كان ببغداد (٢) :

سقى الله نجدا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على النأى والبعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها لعلى أرى نجدا وهيهات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتى ولا شئ أحلى من زيارتهم عندى

والأبيات ـ كما هو ملاحظ ـ طافحة بالشوق العارم ، فالشاعر يكرر اسم وطنه (نجد) فى كل بيت مرة أو مرتين فى وله يشبه هذيان المحموم .

وربما رحل بعض أهل البادية الى الحضر وأقام ماشاء هناك ورأى البيئة الحضارية تختلف رقتها وتوفر متطلبات العيش الرغيد فيها عن خشونة البادية وشظف عيشها ، ولكن لا يستهويه ذلك ولا ينسيه منازله فى البادية (٣) فيقول :ـ

لعمرى لنور الأقحوان بحائل * ونور الخزامى فى ألاء وعرفج .
أحب الينا ياحميد بن مالك * من الورد والخيرى ودهن البنفسج .
وأكل يرابيع وضب وأرنب * أحب الينا من سمانى ودرج .
ونص القلاص الصهب تدمى أنوفها * يجبن بنا مابين قوّ ومنعج .
أحب الينا من سفين بدجلة * ودرب متى مايظلم الليل يرتج .

---

(١) هو أبو السمط مروان بن يحيى بن مروان بن أبى حفصة ، ويعرف بمروان الأصغر تمييزا له عن جده الشاعر المشهور . كان أبو السمط ينادم الخليفة المتوكل ويتقرب اليه بالطعن على العلويين ، ويقال أن جده كان يهوديا وأسلم على يد عثمان رضى الله عنه ـ وهو من الشعراء المشاهير الذين مدحوا عددا من الخلفاء العباسيين ، توفى سنة ٢٤٠ هـ .

انظر : / ابن قتيبه ، ٢/ ٧٦٣ ، طبقات ابن المعتز : ٣٩٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك : ١١/ ٦٨ .

(٣) معجم البلدان : (قو) ، وقو ، ومنعج أسماء أماكن بن اليمامة وهجر .

فالعيش مهما طابت لذاذاته ، وتقلب الانسان فيه كيف ماشاء في غير وطنه لا بد أن يتذكر أنه في غريب الدار بعيد عن الأحباب فيأخذه الحنين والشوق (١) ورحم الله شوقي حين قال :

وطني لو شغلت بالخلد عنه * نازعتني اليه في الخلد نفسي

فانظر الى هذه الوطنية الصادقة ، والحب الكبير للوطن الذي يصدر من قلب شاعر بعيد عن وطنه في المنفى ، ولكن البعد لا ينسى بل يزيد العاطفة اشتعالا حتى انه لو كان في جنان الخلد ـ التي هي أعز أمل ومطلب ـ لاشتاقت نفسه الى تراب وطنه .

وهذا عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ الذي فر من أعدائه العباسيين وحيدا طريدا ثم عبر البحر الى الأندلس واستطاع بدهائه وحسن سياسته أن يجند الأجناد ويمصر الأمصار ويقيم دولة ذات حضارة عظيمة تضاهي حضارة المشرق ان لم تفقها ، رأى يوما نخلة فريدة في منية الرصافه بقرطبه أول نزوله بها أميرا ، فهاجت شجنه وتذكر بلده في المشرق فنفث بهذه (٢) الأبيات : ـ

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة * تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل

فقلت : شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة * فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل

فالأمير الداخل رغم عزه ومجده وتربعه على كرسي الملك بالأندلس أهاجت وجده نخله لأنه رأى فيها مايشبه حالته لأن الأندلس ليس ببلاد

---

(١) انظر الشوقيات : ٢/ ٤٦ .

(٢) أبن الأبار ، الحلة السيراء : ١/ ٣٧ ، وأنظر أخبار الداخل في : ابن عذاري ، البيان المغرب : ٢/ ٤٠ .

نخل لذلك نراه يحنو عليها ويدعو لها بالسقيا ، وهكذا الشاعر ذو العاطفة الرقيقة يحس بتفاعله مع أجزاء الكون ويصبغ عليها صفات الأحياء لأنه يحس أنها تشاركه حزنه وحنينه ، فاذا طلعت الشمس ـ مثلا ـ أعتبرها تحية أزجاها وطنه البعيد اليه ، واذا هبت الريح نقلت اليه أخبار بلده وأهله واذا لمع البرق وخفق خفق قلبه لأنه يشعر بأن البرق اشارة من وطنه تدعوه للعودة .

وهكذا كان حال الشاعر أبي عبد الله التلمساني (١) الذي فارق وطنه تلمسان في بلاد المغرب الى غرناطة في الأندلس يقول :ـ

سل الريح ان لم تسعد السفن آنواء * فعند صباها من تلمسان أنباء .
وفي خفقان البرق منها اشارة * اليك بما تنمى اليها وايماء .
تمر الليالي ليلة بعد ليلة * وللأذن اصغاء وللعين اكلاء (٢) .
وأهدي اليها كل يوم تحية * وفي رد اهداء التحية اهداء .
وأستجلب النوم الغرار ومضجعي * قتاد كما شاءت نواها وسلاء (٣) .
لعل خيالا من لدنها يمر بي * ففي مره بي من جوى الشوق ابراء .
واني لمشتاق اليها ومنبئ * ببعض اشتياقي لو تمكن انباء .

---

(١) هو محمد بن عمر بن خميس التلمساني الحجري . كان يسبح وحده زهدا وانقباضا وأدبا ، عالما بالمعارف القديمة طبقة الوقت في الشعر وأقدر الناس على اجتلاب الغريب . كان كاتبا لبني زيان ملوك تلمسان ثم قصد لاقراء العربية بحضرة غرناطة وكان كثير التجوال ، توفي قتيلا بغرناطة سنة ٧٠٨ هـ . أنظر : ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة : ٥٢٨/٢ ، المقرى : نفح الطيب : ٣٦٢/٥ ، درة الحجال : ٢٧/٢ ، الدرر الكامنة : ١١٣/٤ .

(٢) الاكلاء : ترديد البصر

(٣) السلاء : الشوك / انظر لسان العرب ، مادة (كلأ) ، ومادة (سلأ) .

ان الشاعر قد برّح به الشوق وكأني به قد يئس من رؤية بلده ثانية فلجأ الى طريقه أخرى هي استجلاب النوم أو التناوم ولو في ذلك المضجع المقلق الذي كأن مهاده الشوك . يفعل هذا لعل طيف بلاده يمر به في هذه السنه فيخفف مرآة مابه من جوى الشوق وشدة الوجد . ولعل هذه الصورة البديعة تذكر ببيت مجنون ليلى : -

(١)
وانى لأستغشى ومابى نعسة * لعل خيالا منك يلقى خياليا .

ولعله من الجدير بالذكر هنا القول بأن حنين الأندلسيين جاء قويا وصادقا ومتميزا . ولا أريد أن أقارن بينهم وبين المشارقة في هذا المقام لان لكل عاطفته ومؤثراته النفسية والبيئيه . والذى يبدو أن الذى عمّق احساسهم بالحنين والشوق هو كثرة رحيلهم وتجوالهم داخل الأندلس نفسها أو خارجها الى بلاد بعيدة وراء الرزق والعيش الأفضل ، وربما لمجرد الرحلة والاستجمام ، فهم في حنين دائم الى حياة جميلة فارقوها ولذات متعددة عاشوها ، وقوم يهفو القلب ويتوق لمجالسهم والحديث معهم ، وأهم من ذلك طبيعة الأندلس الجميلة التى تأسر القلوب ، فهى كما قال الشاعر :-
(٢)

أنهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها ، والدّرر حصباء .
وللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء .
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتشار لآلي الطلّ أنداء .
وانما أرج الندّ استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه أرجاء .
وأين يبلغ منها ماأصفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء .
قد ميزت من وجهات الأرض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء .
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهى حسناء .

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢/ ٥٧٣ .

(٢) الأبيات في النفح : ١/ ٢١٠ . والشاعر هو ابن سفر المريني ولم أعثر له على ترجمه .

لذلك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللأغصان اصغاء .

فيها خلعت عذاري مابها عوض * فهي الرياض وكل الأرض صحراء .

فهي اذن جنة الدنيا حتى ان الهواء بها له تأثير على طبائع البشر فيجعل من قسى قلبه يرق وتبدو صبابته فماذا يستطيع الشاعر المتيم بحبها اذن أن يحصى من مناقبها التى فاقت كل حصر ووصف ، انه لا يملك الا أن يفضلها على جميع بقاع الدنيا ولا يرضى عنها بديلا أبدا وكيف يستبدل بالجنات القفار والصحارى ؟ .

والملاحظ على شعر الأندلسيين أنهم يذكرون محاسن الأندلس كبلد واحد وليس على شكل مدن وأمصار وهناك وصف آخر لجمال الأندلس وروعتها لشاعر الوصف المشهور فى الأندلس ابن خفاجه (١) حيث يقول :-

ان للجنة بالأندلس * مجتلى مرأى وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب * ودجى ظلمتها من لعس

فاذا ماهبت الريح صبا * صحت وأشواقى الى الأندلس

وهذا المعتمد بن عباد أشهر ملوك الطوائف بالأندلس كان عاملا على مدينة شلب (٢) أيام حكم أبيه المعتضد وهى مدينة جميلة فسيحة على مرمى البصر

---

(١) النفح : ١/١٧٠ ، ١١٠ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسيه : ١/٢٤٣ .

(٢) شلب : مدينة أندلسيه تقع جنوب مدينة باجه لها بسائط فسيحة وبطائح عريضة ولها جبل عظيم كثير المياه أكثر نباته شجر التفاح العجيب يتضوع منه روائح العود اذا أحرق ، والبحر منها فى الغرب على بعد ثلاثة أميال وهى مدينة حسنة الهيئة بديعة البناء مرتبة الأسواق وأهلها عرب من اليمن وهم فصحاء يقولون الشعر ، انظر : الروض المعطار ومعجم البلدان : (شلب) .

من المحيط الأطلنطي وكان قصر الشراجيب من معالمها (١) وكانت للمعتمد فيها خلوات ولهوات فهي معهد شبابه وملتقى أحبابه ، ولما تولى الملك بعد أبيه عام واحد وستين وأربعمائة اختص بها أحب شعرائه اليه آنذاك أبا بكر بن عمار عاملا عليها متفقدا لأحوالها فلما ودّعه أهاجته الذكرى وظبه الشوق فأرسل التحية الى شلب مع واليها الجديد يقول (٢) :

ألا حي أوطاني بشلب أبا بكر * وسلهن : هل عهد الوصال كما أدري ؟
وسلم على قصر الشراجيب من فتى * له أبدا شوق الى ذلك القصر .
منازل آساد وبيض نواعم * فناهيك من غيل وناهيك من خدر .
ليال بسد النهر لهوا قطعتها * بذات سوار مثل منعطف البدر .

فرغم أن المعتمد أصبح ملك اشبيلية التي هي أجل المدن الأندلسية وأهمها فانه لم ينس المدينه التي جرت فيها أفراس صباه وماخلف فيها من ذكريات جادة ولاهيه فبعث اليها أحب الرجال اليه حبا لها ووفاء بعهدها .

ومما يثير العجب حقا من مقدار مايبلغ الشوق والحنين بالانسان ذي الشعور الشفاف ، مايرويه ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعاده أنه دخل مدينة طليطله مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي قال : فسألنا من أين فقلنا : من قرطبه ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا

---

(١) يقول فيه الفتح بن خاقان : وقصر الشراجيب هذا متناه في البهاء والاشراق مباه لزوراء العراق ركضت فيه جياد راحاته وأومضت بروق أمانيه في ساحاته .... الخ قلائد العقيان : ٣٦ .

(٢) عنان ، تراجم اسلامية : ٢٨٣ ، الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية : ٢٣٢ - ٢٣٣ ، بلنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي : ٩٠ .

منها ، فقال : قربا الى أشم نسيم قرطبه ، فقربنا منه ، فشم رأس وقبلّه ،
وقال لي اكتب :- (١)

أقرطبة الغراء هل لي آيبة * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد .
سقى الجانب الغربي منك غمامة * وقعقع في ساحات دوحاتك الرعد .
لياليك أسحار وأرضك روضة * وتربك في استنشاقها عنبر ورد .

ومن شاقه الحنين الى قرطبة أيضا أبو الوليد ابن زيدون فقد نشأ لها محبا لما ناله فيها من سعادة ومكانة فقد كان وزيرا لأبي الحزم ابن جهور فعاش في رغد وخفض وقد كان على علاقة حب وغرام مع ولادة بنت المستكفي الأدبية المشهورة في تاريخ الأندلس ، وكانت هذه الحبيبة مصدر الهامه الشعري ماجعله ينفث بغرر القصائد ، ولكن سرعان ماقلب الدهر له ظهر المجن بدسائس الوشاه فاتهم بتآمره على أميره مما أضطره الى الهروب الى اشبيلية ، وفي الطريق صادق حلول عيد الأضحى "فثاربه الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينيه تلك الظباء الاوانس والآرام " ، فذكر أعياده بها ومتقلب نزهاته ، فمضى يسترجعها مهبطا وراء آخر قائلا : (٢)

خليلي لا فطر يسرّ ولا أضحى * فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى .
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل * أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا .
ومانفك جوفي الرصافة مشعري * دواعي بث تعقب الأسف البرحا .
ويهتاج قصر الفارسي صبابة * لقلبي لا يألو زناد الأسى قدحا .
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته * فان لم يكن ميعاده العيد فالفصحا .

---

(١) المراكشي ، الذيل والتكمله : ١/١١٦ .
(٢) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، ، الجزء الأول : ٤٢٣ .

معاهد لذات وأوطان صبوة * أجلت المعلى فى الآمانى بها قدحا
الاهل الى الزهراء أوبة نازح * تقضى تنائيها مدامعه نزحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتها * فخلنا العشايا الجون أثناءها صبحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه * اذا عزّ أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

انها دمعة محزون ونفثة مصدور من نفس أرقها الشوق الى الوطن (قرطبه) ومايتبعها من أماكن كان له فيها أيام وصل وأيام عز أثناء تظله فى مقاصير الملك ، ويتساءل فى شئ من الارتياب هل من الممكن أن تكون هناك أوبة الى ذلك البلد الذى يذكره بجنة الخلد ، حيث كان لا يظمأ فيها ولا يضحى .

ولعلنا نلاحظ فى هذا المجال نزعة الغلو عند الشعراء فكل منهم يحاول أن يجعل من بلده أو وطنه مثلا أعلى للجمال والحسن ، فهم يشبهونه بالجنة ، وترابه بالمسك والعنبر وأنهاره بالفضة وغير ذلك كما أن الشاعر عند مقارنة وطنه بالبلاد الأخرى يجعل بلاده رياضا ونعيما بينما البلاد الأخرى صحراء جرداء ، وهو فى هذا انما يصدر عن العاطفة المشبوبه المفعمه بحب الوطن ، وهذا موجود عند الأندلسيين والمشارقة الا أنه عند الأندلسيين أقوى وأظهر .

انظر الى قول البهاء (١) زهير فى حبه (٢) لموطنه مصر :

---

(١) ولد سنة ٥٨١ هـ بمكة المكرمه ولكنه غادرها صبيا الى قوص حيث نشأ وتعلم على علمائها ومكث فترة فى خدمة أميرها ثم رحل الى القاهرة حيث التحق بخدمة الملك مسعود بن الكامل ثم بالصالح نجم الدين وتولى له ديوان الانشاء وكان يحب مصر حبا جما توفى سنة ٦٥٦ هـ . أنظر ديوانه : ١٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبى : ٢٥٢ .

وكم رأت عيني بلادا كثيرة * فلم أر فيها مايَسرّ ومايرضى .
ولم أر مصرا مثل مصر تروقني * ولا مثل مافيها من العيش والخفض .
وبعد بلادى ، فالبلاد جميعها * سواء فلا أختار بعضا على بعض .

ويقول أيضا (١) :

سقى واديا بين العريش وبرقة * من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى اذا سرى * هنا لك أوطانا اذا قيل أوطان
بلاد متى ماجئتها جئت جنة * لعينك منها كل ماشئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها * وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فياساكنى مصرا تراكم علمتم * بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
ومافى فؤادى موضع لسواكم * ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا * فتهدأ أحشاء وترقأ أجفان
علىّ بذاك اليوم صوم نذرته * وعندى على رأى التصوف شكران

ورغم الذى ذكره وتغنى به البهاء زهير من جمال مصر وتفضيله اياها على كثير من البلدان التى رآها ولم يجد فيها مايرضى ولا يسر فان ابن سعيد الأندلسى (٢) عندما رحل اليها ـ وكان قد سمع عنها الشىء الكثير ـ لم يجد فيها

---

(١) الديوان : ٣٤٦ .
(٢) هو على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد ، صاحب كتاب " المغرب فى حلى المغرب " أديب ومؤرخ مشهور عرف بكثرة الترحال وسعة الأفق توفى سنة ٦٨٥ هـ .
انظر : المغرب : ٢/١٧٢ - ١٧٣ ، الاحاطة : ٢/٢٨٣ .

بغيته ولم ترقه فاشتاق الى الأندلس وأيامه بها فقال (١) :

هذه مصر ، فأين المغرب * مذ نأى عني دموعي تسكب

فارقته النفس جهلا انما * يعرف الشئ اذا ما يذهب

أين حمص (٢) ؟ أين أيامي بها * بعدها لم ألق شيئا يعجب

كم تقضى لي بها من لذة * حيث للنهر خرير مطرب

وحمام الأيك تشدو حولنا * والمثاني في ذراها تصخب

أي عيش قد قطعناه بها * ذكره من كل نعمى أطيب

ولكم بالمرج لي من لذة * بعدها ما العيش عندي يعذب

والنواعير التي تذكارها * بالنوى عن مهجتي لا يسكب

بلدة طابت ودرب غافر * ليتني مازلت فيها أذنب

أين حسن النيل من نهر بها * كل نغمات لديه تطرب

الى أن يقول :

هذه حالي وأما حالتي * في ذرى مصر ففكر متعب

أسمعت أذني محالا ليتها * لم تصدق ويحها من يكذب

وكذا الشئ اذا غاب انتهوا * فيه وصفا كي يميل الغيب

ها أنا فيها فريد مهمل * وكلامي ولساني معرب

وأرى الألحاظ تنبو عندما * أكتب الطرس ، أفيه عقرب ؟

فابن سعيد في هذه الأبيات يعرض لنا حياته السابقة في الأندلس حيث الطبيعة الجذابة من مروج تشدو أطيارها وبطاح تجرى أنهارها ، تلك الأنهار التي يطربه خريرها وشتان بينها وبين نيل مصر فهو لا يكاد يذكر اذا ما ذكرت لجمالها ورقتها ، أما حالته في مصر فيرثى لها فهو فيها مهمل لا يؤبه له

---

(١) بلنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي : ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) حمص : قصد بها اشبيلية ، لأنها كانت تسمى بذلك من أيام بني أمية .

بالرغم كونه مزهى الكلام واللسان فهو أديب شاعر وكاتب تاريخ مشهور ، وربما ظن أن ينال شهرة عريضة فى مصر ، ولكن لكونه غريبا لم يحفل عليه أحد أو يأخذ عنه ، حتى تمنى أنه لم يرحل عن بلده وان كانت ذنبه تزداد كل يوم لأنه فى "بلدة طيبة ورب غفور" وهناك كاتب وشاعر أندلسى آخر مر بنفس التجربة حيث ارتحل الى الشرق فجال فى العراق وأقام فى حلب بالشام ، وذلك عندما نبت به بلده قرطبة عند تقلب دولها وشمول ملكوها ، وذلك فى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى والشاعر هو : أبو بكر محمد بن القاسم الملقب "اشكنهاده" يقول : (١)

أين أقصى الغرب من أرض حلب * أمل فى الغرب موصول التعب
حن من شوق الى أوطانه * من جفاه صبره لما اغترب
جال فى الأرض لحاجا حائرا * بين شوق وعناء ونصب
كل من يلقاه لا يعرفه * مستفيشا بين عجم وعرب
لهف نفسى أين هاتيك الملا * وأضياعاه وياغبن الحسب
والذى قد كان ذخرا وبه * أرتجى المال وادراك الرتب
صار لى أبخس ماأعددته * بين قوم مادروا طعم الأدب
ياأحبائى اسمعوا بعض الذى * يتلقاه الطريد المغترب
مايكن زجرا لكم عن غربة * يرجع الرأس لديها كالذنب

---

(١) من أهل وادى الحجارة يعرف باشكنهاده وهى تعنى بلسان أهل الأندلس "ماهذا" جال فى الشرق ثم رجع الى الأندلس وحل بحضرة دانيه عند ملكها مجاهد العامرى ونال من بلوغ الآمال ماليس عليه مزيد . انظر النفح : ٢/٢٩٨ ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب : ٢/٣١ ، الذخيرة : القسم الأول ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

ان القارئ لهذه الأبيات يشعر فعلا بالمراره التى كانت تقلق نفس الشاعر الغريب فهو يمشى فى الأرض مستوحشا حائرا فاقد الصبر من شدة الغربة وشدة الشوق الى الوطن فهو يعيش بين هاتين النارين ، وسبب ذلك أنه ضاع قدره فى هذا المجتمع الذى لا يعرفه وكسدت بضاعته من شعر ونثر تلك البضاعة التى جاء يعرضها فى الشرق ليكسب فيها الأموال وادراك الرتب لذا نراه يوجه نصيحة لأحبائه من الأندلسيين بأن لا يفكروا فى الغربة التى تضيع الحسب والكرامة وهذا كقول القائل : "عسرك فى دارك أعز لك من يسرك فى غربتك" (١) .

وقد يطرد بعض الناس من أوطانهم لسبب من الأسباب فيبتسم له الحظ ويجد راحة واكراما وأمنا - وخاصة اذا كان ملكا أو أميرا - ولكن هذه النعم التى يتقلب فيها لا يشعر بطعمها ، وهى لا تساوى عنده جلسة واحدة فى ذرى وطنه ومع أحبابه . وهذا ماحصل مع الأمير الغرناطى ابن الأحمر (٢) حين أخرجه بنو عمه من ملوك بنى الأحمر النصريين خوفا على سلطانهم منه "وذلك لأجل واش مردود ومتملق بذلك غير ودود ، يظهر لهم النصيحة حاليه ويخوفهم مما وقع فى الأيام الخاليه ...." فيخرج الى بر العروة عند

---

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوئ : ١/٤٩٠ .

(٢) هو اسماعيل بن يوسف بن محمد بن أبى سعيد المدعو بالأحمر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢٥هـ ، وكان الفرع الذى ينتمى اليه هذا الأمير قد اضطرب بسبب الخلاف حول الملك فاصطدم اسماعيل بن فرج (خامس ملوك بنى الأحمر) بهذا المذكور ووالده وأخيه ففروا الى فاس بالمغرب انظر ترجمته : ابن القاضى المكناسى ، جذوة الاقتباس : ١/١٦٦ ، محمد بن مخلوف ، شجرة النور الذكية : ٢٣٨ ، ابن القاضى ، درة الحجال : ١/٢١٣ .

ملوك المغرب وقد أمطروا علينا سحائب كرمهم ، وحسنت الأحوال ، وذهبت الأهوال ، وطاب المقام ، ونجم الأمن واستقام ومع ذلك اشتاق الى وطنه (١) فقال :

فؤادي يشتكي داءً دفينا * لبعدي عن مزار الظاعنينا
وأكبادي من الأشواق ذابت * ووجدي بعدهم ألف الشجونا
ورب البيت لا أنس هواهم * وكيف ؟ وهم بطي ساكنونا
لعمري ما النوى الا عذاب * وأني قد بليت به سنينا
يهيج زفرتي تذكار أرضي * ويفجعني ويستهفي الجنونا
حنيني ما حييت لها عظيم * ومابسوى محبتها بلينا
فاصبر وان بعدت بباق * كذا سنن الكرام الماجدينا
ومابمراد نفسي كان عنها * بعادي ، لا ورب العالمينا

وبعد هذا قال " فلولا أن هدر الملوك بنوعى بوطني دمى لسرت اليه على رأسي لا على قدمي " (٢) ، وبعد ، فمن خلال هذه الأمثلة التي قدمناها ـ وماهي الا قطرة من بحر شعر الحنين الى الأوطان ـ يتضح لنا مدى ما للوطن من عظيم حب في نفوس أبنائه ولا سيما الشعراء منهم فهم اللسان الناطق المعبر عن العاطفة الجياشة بالحب والحنين لتراب الوطن ، وقد يتغنى الشاعر بوصف بلاده ويمجدها أشد التمجيد ، الا أنه عندما يغترب عنها يزيد حبها بشدة في نفسه وتستهويه مغانيها ويبدأ يتذكر أيام الشباب والطفولة السعيدة فتثور نفسه وتشرئب فتجود قريحته عندئذ بقصائد في منتهى الرقة والجمال تقطر بالأسى وصدق العاطفة بعيدة عن التكلف وتعمد الزخرفة

---

(١) اسماعيل ابن الأحمر ، نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان : ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦ .

اللفظية والمحسنات المعنوية لأن المجال لا يسمح بذلك فالشاعر فى حالة أشواق ثائرة وحنين مقلق وهو يحاول أن ينفس عما يجده عن طريق الشعر ، كما ينفس المحزون عن نفسه بالبكاء والسرور عن فرحه بالضحك . . . وهكذا .

واذا كان الشاعر يفعل هذا اذا كان فى غربة قد تطول مدتها وقد تقصر فيعود الى وطنه وتهدأ نفسه وتطمئن ، فما بالك بالشاعر ذى العاطفة الرقيقة الذى يكون شاهدا على نكبة بلده واحتلالها من قبل الأعداء وتدمير حضارتها ، وآمال أهلها . لاشك أن النكبة ستطك عليه نفسه وجوانحه وتؤثر عليه سلبا وايجابا فينطلق بقصائد أقوى عاطفة وتأثيرا فى السامعين من شعر الحنين . وهذا مانراه فى الفصول التاليه ان شاء الله تعالى ....

الباب الأول

رشا الدول والأمصار في المشرق

الفصـــل الأول

رثاء الدول والأمصار في العصر الجاهلـي

الرثاء فن من الفنون الشعرية الجميلة ، يجمع بين روعة الخيال وعمـق العاطفة وحرارة المشاعر ممزوجة بجلال الحقيقة وصدق الواقع . فالشاعـر المبدع عندما يعيش تجربة الحزن والأسى ، تتحول دموعه ولوعته الى صـور بيانية ذات روعة شجية تنطبع في نفس السامع أو القارئ تاركه أثرا عميقا .

ولعل صدق المشاعر هذا ، وانتفاء أي غرض أو منفعة من وراء القصيـدة هو الذي جعل الرثاء أشرف أغراض الشعر عند العرب .

واذا كان رثاء الأشخاص بشكل عام يحتل هذه المنزلة الرفيعة ـ لأنـه هو الغالب ـ فما بالك برثاء أعظم وأشمل ، ذلك هو رثاء الدول والأوطـان التي عاشت حينا من الدهر وازدهرت ، ونعم أهلها في ظلالها ، ثـم طرقتها يد الحدثان ، فأودت بها بشكل أو بآخر .

لاشك أن العواطف ستتدفق وتنتج شعرا فياضا بالأسف والحزن يعـبر عن مشاعر الجماهير المصابة وينطق بلسانها . فهل كان في العصر الجاهلي الذي لم يعرف العرب فيه الاستقرار في الحواضر شيئا من هذا الشعر ؟ هذا ماسنعرفه في هذا الفصل ان شاء الله .

ان أول نص نجده في العهد الجاهلي هو قصيدة الشاعر يعرف بذي جدن (١)

---

(١) لم أجد له ترجمة تفصيلية ، ولكن السهيلي يذكر أنه لقب بذي جـدن لحسن صوته ، والجدن الصوت بلغتهم ، وهو أول من غنّى في اليمـن انظر : الروض الأنف : ١/٢٢٨ .

الحميرى يرثى فيها دولة قومه الحميريين فى اليمن والتى دمرت على يـــد الأحباش وهدّمت حصونها وقصورها التى لم يكن فى الناس مثلها كغمـــدان (١) وسلحين وغيرها يقول :

هونك ليس يردّ الدمـع مافاتـــا * لا تهلكى أسفا فى ذكر من ماتـــا

أبعد بينون لا عين ولا أثـــــر * وبعد سلحين يبنى الناس أبياتـــا (٢)

ويقـول أيضا :

دعينى لا أبالك لن تطيقـــى * لحاك الله قد أنزفـــت ريقـــى

لدى عزق القيان اذا انتشينا * واذ نسقى من الخمر الرحيـــق

وشرب الخمر ليس علىّ عـــارا * اذا لم يشكنى فيهـــا رفيقـــى

فان الموت لا ينهاه نــــاه * ولو شرب الشفاء مع النشـــوق (٣)

ولا مترهب فى أسطـــوان * يناطح جدره بيض الأنـــوق (٤)

---

(١) تم ذلك عندما أغار ذو نواس ملك حمير ـ وكان يهوديا ـ على أهل نجران ـ النصارى ـ وقتل منهم مقتلة عظيمة لعدم قبولهم اليهودية ، وأفلـت منهم رجل يقال له " دوس ثعلبان " وذهب الى قيصر الروم يستنجد بـه لكن قيصر لم يستطع امداده بالجنود لبعد الشقة ، فكتب الى مـلك الحبشة بذلك ، وكان نصرانيا ، فبعث هذا سبعين ألف مقاتل مـن الأحباش بقيادة أرياط ، وأمره أن يقتل ثلث رجال حمير ، ويخـرب ثلث بلادهم ، ويسبى ثلث نسائهم وأبنائهم ، ففعل ذلك وأكـثر ولم يطق ذو نواس ذلك فانتحر بالقاء نفسه فى البحر / انظر ، الطـبرى : ٢/١٢٦ .

(٢) بينون وسلحين : من حصون اليمن العظيمة للملوك التبابعة / معجـم البلدان : (بينون) ، (سلحين) .

(٣) النشوق : مايشم عن طريق الأنف / اللسان (نشق) .

(٤) الأنوق : الرخم ، ويقال فى المثل لما لا يوجد : أعز من بيض الأنوق .

وغمدان الذى حدثت عنـــه * بنوه مسكا فى رأس نيـــق (١)

بمنهمة وأسفـــله جـــروب * وحر الموحل اللثق الزليـــق (٢)

مصابيح السليط تلوح فيـــه * اذا يمسى كتوماض البـــروق

ونخلته التى غرست اليـــه * يكاد البسر يهصر بالعـــذوق

فأصبح بعد جدته رمـــادا * وغير حسنه لهب الحريـــق

وأسلم ذو نواس مستميتـــا * وحذر قومه ضنك المضـــيق

والشاعر يبدأ قصيدته على نسق عمود الشعر القديم حيث يزجر صاحبتـــه التى أفرطت فى لومه على تهالكه على شرب الخمر وسماع القيان ، ليمهـــد بذلك لذكر الفناء الذى يلحق كل شئ على هذه الأرض مهما بلغ من القـــوة والمنعة ، فهذا قصر غمدان مقر ملوك اليمن العظام ، الذى كان مضرب المثل فى الجلال ومتانة البناء يهوى صريعا بفعل الهدم والحرق ويفر عنـــه صاحبه ذو نواس الى غير رجعة ، ويسلم رعيته للقتل والأسر .

والقصيدة لا يبدو فيها احساس أو تأثير بالحدث نفسه الذى أودى بالدولة وان كانت لا تخلو من نغمة أسى لاستشعارها الفناء الشامل الأكيد .

---

(١) غمدان : قصر باليمن بنى على أربعة ألوان ، وله سبعة سقوف بـــين كل سقفين منها أربعون ذراعا وفى أعلاه مجلس مبنى بالرخام الطيـــون وعلى كل ركن من أركانه تمثال أسد ، وكانت تسرج فيه المصابيح ليـــلا فيلمع من ظاهره كالبرق ، هدم آخر الأمر أيام عثمان بن عفان رضى اللـــه عنه وقيل : ان سليمان عليه السلام ـ أمر الشياطين فبنوا فى صنعـــاء ـ لبلقيس ـ ثلاثة قصور هى غمدان وبينون وسلحين / معجم البلدان / (غمدان) .

(٢) اللثق الزليق : اختلاط التراب بالماء ، المنهمة : موضع الرهبـــان ، جروب : حجارة سوداء / انظر القصيدة ومعانيها فى : ابن هشـــام ، السيرة النبوية : ١/ ٣١ - ٣٢ .

ومن رثى دولة حمير ـ أيضا ـ حين دمرها الأحباش الشاعر المسمى بابن الذئبه (١) يقول :

لعمرك ماللفتى من مفر * مع الموت يلحقه والكبر .
لعمرك ماللفتى صحرة * لعمرك ما ان له من وزر . (٢)
أبعد قبائل من حمير * أتوا ذا صباح بذات العبر .
بألف ألوف وحرابة * كمثل السماء قبيل المطر .
يصم صياحهم المقربات * وينفون من قاتلوا بالزّمر . (٣)
سعالى كمثل عديد الترا * ب ييبس منهم رطاب الشجر .

وفى هذه الأبيات نجد تقريبا ـ المعانى نفسها التى مرت فى القصيدة السابقة الا أنها أكثر تفصيلا للحادثه ، وأشد عاطفة ، فبعد أن يؤكد الشاعر على النهاية الحتمية لكل حى عن طريق التكرار الذى ينبئ عن جو حزين بعيشه الشاعر ويريد اشاعته بعد ذلك يصف لنا الالاف المؤلفه من جيش الأحباش التى انهالت على الحميريين ويرسم لهم صورة مرعبة يستشف منها النتيجة التى حصلت بالفعل . فهم سعالى يزحفون على الأخضر واليابس ولهم عجيج وضجيج يصم الآذان .

---

(١) هو ربيعة بن عبد ياليل بن سالم بن جشم بن قسى ، والذئبة اسم أمه / انظر : السيرة النبوية : ٣١/١ ، البكرى ، سمط اللآلى ٧٩٩/٢ .

(٢) صحرة : متسع ، الصحاح (صحر)
وزر : ملجأ ، المصدر نفسه (وزر) .

(٣) المقربات : الخيل العتاق التى تربط قريبا من البيوت ، وتكون معدة للحرب . الصحاح (قرب) .
الزمر : الجماعات / اللسان (زمر) .

ويقول الأعشى فى رثاء قصر ريمان الفخم الذى بناه تبع اليمن وزخرفه ثم دمر على يد الأحباش والفرس الذين تعاقبوا على اليمن قبل الاسلام : (١)

يامن يرى ريمان أمـ * ـسى خاويا خربا كعابه
أمسى الثعالب أهله * بعد الذين هم مآبه
من سوقة حكم ، ومن * ملك يعد له ثوابه
بكرت عليه الفرس بعـ * ـد الحبش حتى هدّ بابه
فتراه مهدوم الأعا * لى ، وهو مسحول ترابه
ولقد أراه بغبطة * فى العيش مخضرا جنابه
فخوى وما من ذى شبا * ب دائم أبدا شبابه

فالأعشى يرثى قصرا لم يعش فى فنائه ولم تربطه به روابط وثيقة وذكريات قديمة وانما قد يكون عاج عليه لغرض من أغراض الشعراء ، ثم زاره تارة أخرى فرأى ماحل به من التدمير ، أو ربما سمع عن خرابه فقال فى رثائه تلك الأبيات ولهذا لا نرى عاطفة قوية مشبوبة بالحزن ، وانما الأبيات تجرى مجرى الحكمة والدعوة الى التدبر فى تقلبات الأيام ، فهذا القصر الشامخ أمسى أطلالا لا تسكنه الثعالب بعد أن غدا مهدوم الأعالى والأسافل ، ويختم أبياته بتلك الحكمة التى تشير الى سنة الحياة فى التغيير الدائم لكل ناطيها .

ومن الشعر الذى يرثى القصور والمنازل بصفة عامة قول رجل من كندة (٢) :

أولم ترى ريدان (٣) أسلم أهله * وأتى الحوادث رأس قلة معنق .
بعد أن عادا ثم عدن عليهم * وثمود أجساد بهضبة أغلق .

---

(١) ديوانه : ٢١ - ٢٢ .

(٢) القصيدة بتمامها في : البحترى ، الحماسة : ١١٥ - ١١٦ .

(٣) ريدان : بلد باليمن وهو قصر مملكة ظفار / الحميرى ، الروض المعطار : (ريدان) .

فأرى المشقر كان يحرس بابه * ألف وألف من يرمه يخلق . (١)

ثبت اذا طاف العدو ببابه * نصلت معاوله وليس بمرتقى .

وأصبن أبرهة الذى سجدت له * صم الفيول صوامتا لم تنطق .

والأسد ممسكة على أبوابه * فاذا الملوك تحزبوا لم يفرق .

وأصبن كسرى وابن كسرى بعده * والمرء قيصر وأنتحين لمورق . (٢)

وأصبن نوحا بعد ما بلغت به * أفق البلاد سفينة لم تغرق .
(٣) (٤)

ويقول عدى بن زيد العبادى فى رثاء الممالك الزائله :

أيها الشامت المعير بالدهـ * ـر أأنت المبرأ الموفور .

أم لديك العهد الوثيق من الـ * أيام أم أنت جاهل مغرور .

من رأيت المنون خلدن أم مـن * ذا عليه من أن يضام خفير .

أين كسرى كسرى الملوك أبو سا * سان أم أين قبلة سابور .

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـر * وم لم يبق منهم مذكور ..

---

(١) المشقر : قصر عظيم بالبحرين ، وقيل هى مدينة عظيمة فى وسطها قلعة / المصدر نفسه (المشقر) .

(٢) مورق : موضع ببلاد فارس ./ المصدر السابق (مورق) .

(٣) هو عدى بن يزيد بن حماد التميمى العبادى ، من أهل الحيرة ، شاعر مجيد ، وكان يحسن العربية والفارسية وهو أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى أنو شروان . توفى مقتولا سنة ٣٥ قبل الهجره على يد النعمان بن المنذر انظر / ابن الأثير : اللباب : ٢/ ١١٣ ، الأغانى ٢/ ٩٧ .

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

وأخو الحضر اذ بناه واذ دجـ * ـلة تجبى اليه والخابور . (١)
شاده مرمرا وجلله كلـ * ـسا فللطير فى ذراه وكور .
وتبين رب الخورنق اذ أشـ * ـرف يوما وللهدى تفكير . (٢)
سره حاله وكثرة مايمـ * ـلك والبحر معرضا والسدير . (٣)
فارعوى قلبه فقال : وماغبـ * ـطة حى الى الممات يصير .
ثم بعد الفلاح والملك والـ * ـامة وارتهم هناك قبور . (٤)
ثم أضحوا كأنهم ورق جف * ف فألوت بها الصبا والدبور .

ان هاتين القصيدتين تسيران على نمط واحد هو الحديث عن عصف الدهر ، واطاحته بالأمم منذ عهد نوح -عليه السلام- مرورا بقوم عاد ثم ثمود أهل القوة والمنعة ثم الأحباش والفرس والروم .... الخ وكيف أصبح جميعهم أحاديث وعبر ويضرب لنا الشاعر العبادى مثلا لهوان الدنيا بالملك النعمان بن المنذر صاحب قصر الخورنق المشهور ، اذ أنه لما اجتمعت لذات الدنيا لديه أنعم فيها النظر ببصيره فرآها زائلة لا دوام لها ، ولا تأتى سعادة الا ويعقبها نكد وشقاء ، فترك القصور ، وخلع حلل الملك ، ولبس مسوح الرهبان والزهاد ، وساح فى الأرض . (٥)

---

(١) أخو الحضر : صاحبه ، والحضر مدينة بناها الساطرون الجرمقى على نهر الثرثار بين دجلة والفرات انظر / الروض المعطار (حضر) .
الخابور : نهر شرقى دجلة يصل بينه وبين الرقه / المصدر نفسه (الخابور) .
(٢) الخورنق : قصر للنعمان بن المنذر بالحيرة .
(٣) السدير : قصر قريب من الخورنق ، وقيل نهر بناحية الحيره / انظر حماسة البحترى : ١٢٢ .
(٤) الامة بكسر الهمزة : النعمة وغضارة العيش / الصحاح . (أمم) .
(٥) المقدسى ، البدء والتاريخ : ٣/١٩٩ .

ولعله من الملاحظ اكثار العبادى من الحديث عن الفرس وحلفائهم المناذره بشكل خاص وذلك لعيشه فى الحيرة ومخالطته لهم عن قرب .

والواقع أن لدينا قصائد كثيرة تسير على هذا النهج (١) فتذكر الفرس والروم ومن دار فى فلكهم وتشيد بعزهم وسلطانهم ، بينما لا نجد ذكرا لتماثل العرب الا على ندرة شديدة (٢) والسبب يتضح من الفرق الشاسع فى الحضارة والعمران والملك بين الأمم المذكورة والعرب ، ولا أدل على ذلك من ايوان كسرى المشهور الذى ظل الشعراء العرب يذكرونه ويتخذونه مثلا أعلى لعزة الملك والسلطان حتى فى العصور الاسلامية الزاهرة .

وربما كان السبب فى تشابه هذه القصائد هو التقليد والاتباع ، لأننا نجد تأثيرها فى النفس قليلا ، فأما أن يكون الشعراء قد وجدوا فى هذا الفن لونا جديدا طريفا ينظمون فيه الشعر ، واما أن يكون الغرض من ذلك اظهار الحكمة والحنكة من خلال مرور الحوادث على نفس الشاعر ، وذلك لما كان للانسان المجرب ـ وبخاصة الشاعر ـ من قيمة فى أوساط قبيلته . وربما يكون أقرب الأدلة على هذا ، الشاعر المشهور الأعشى ميمون بن قيس الذى كان مولعا بالخمر الى درجة كبيرة ، حتى انه صده عن اعتناق الاسلام فيما يروى (٣) . ومع ذلك نجد له عدة قصائد فى رثاء الممالك وتقلب الدهر ، ومخاطبة السامعين بالعظة والعبرة مذكرا بالموت والفناء موصيا بالحذر من الدنيا والتقلل منها .

---

(١) انظر حماسة البحترى : ١٢٨ قصائد الأعشى ، وقصائد لبيد فى المصدر نفسه : ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) انظر قصيدة الأسود بن يعفر النهشلى فى المفضليات : ٤٤٥ ـ ٤٥١ وهو شاعر جاهلى فحل كان ينادم النعمان بن المنذر / انظر ترجمته : ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٣٢ ـ ٣٤ .

(٣) البكرى ، سمط اللآلى : ١/ ٢٢١ .

وفى السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية نجد قصيدة فى رثاء الحيرة (١) لأحد أبنائها يدعى ابن بقيلة (٢)، وذلك عندما غزاها خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ وقت منصرفه من حروب الردة فى اليمامة وبعد القضاء على مسيلمة الكذاب زعيم المرتدين، وعندما وصل خالد اليها طلب رجلا من عقلاء أهلها ليفاوضه، ويعرض عليه الاسلام أو الجزية أو الحرب. فخرج اليه ابن بقيلة هذا وكان آنذاك كبير السن، وعندما تكلم أعجب خالد بحكمته وحسن جوابه وانتهى الأمر بالصلح مقابل دفع الجزيه.

وعندما دخل المسلمون المدينة أخذ الحزن نفس الرجل فقال (٣) :-

أبعد المنذرين أرى سواما * تروّح بالخورنق والسدير.

وبعد فوارس النعمان أرعى * قلوصا بين مرة والحفير. (٤)

تحاماه فوارس كلّ قوم * مخافة ضيغم عالى الزئير.

فصرنا بعد هلك أبى قبيس (٥) * كجرب المعز فى اليوم المطير.

---

(١) هى مدينة صغيرة جاهلية حسنة البناء طيبة الثرى، على ثلاثة أميال من الكوفة وبها منازل ملوك بنى لخم ونصر وهم آل النعمان بن المنذر الروض المعطار : (حيره).

(٢) هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس، وبقيلة اسمه ثعلبه أو الحارث، وسمى بذلك لأنه خرج فى بردين أخضرين على قومه فقالوا له : ماأنت الا بقيلة فسمى بذلك. وقد أدرك ابن بقيلة الاسلام ولكنه بقى على نصرانيته وعمّر طويلا / انظر : أمالى المرتضى : ١/٢٦٢، تاريخ الطبرى ٣/٣٤٥.

(٣) الأبيات فى معجم البلدان / تحت كلمة (خورنق) و(سدير).

(٤) مرة أو مريرة : ماء لبنى عمرو بن كلاب / المصدر السابق (المريره). الحفير : ماء لباهله بينه وبين البصرة أربعة أميال / المصدر نفسه (الحفير).

(٥) هو أبو قابوس، أحد ملوك الحيرة المشهورين من المناذره / انظر تاريخ اليعقوبى : ١/٢١١.
ولعله شبهه هنا بجبل أبى قبيس بمكة المكرمه لعزته ومنعة دولته.

تقسمنا القبائل من معــــد * علانية كأيســـار الجــزور .

وكنا لا يرام لنا حريـــــــم * فنحن كضرة الضرع الفخــور . (١)

نؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظـة والنضير .

كذاك الدهر دولته سجـــال * فيوم من مساة أو ســـــرور .

وهذه القصيدة كما يبدو أوفر حظا من حيث العاطفة وصدق الشعــــور مما سبقها من القصائد وذلك لأنه يتحدث عن تجربة واقعية مر بها ، فالمدينــة مدينته ، وأهلها قومه . ورغم أن المدينة لم تدمر ولم تصب بأذى الا أنه أعتبر دفع الجزية مقابل دفاع المسلمين عنها نوعا من ضربات الدهر القاصمه ، فـــراح يتذكر ملوكها العظام أرباب الخورنق والسدير ، الذين هلكوا فأصبح النـــاس بعدهم نهبا للقبائل قد مسهم الذل ولا يجدون ملجأ فهم (كجرب المعــز في اليوم المطير) وهذه الصورة تدل على الحزن والكلم النفسي الذي يعانيه الشاعر . لكنه يستسلم لحكم الدهر لأن دولته سجال ومن سره زمن ساءتـــه أزمان .

وقد وضعت هذه القصيدة ضمن العصر الجاهلي رغم أنها قيلت بعـــد مجيء الاسلام لأن قائلها جاهلي رفض الاسلام ، ولأنها تسير على النمـــط الجاهلي في الرثاء الذي مر سابقا .

---

(١) ناقة فخور : هي العظيمة الضرع الضيقة الأحاليل فلا يخرج لبنهـــا الا بصعوبة / الصحاح : (فخر) وقد قصد في البيت القوة والهيبـــة وشدة المحافظــة .

الفصل الثاني

رثاء الدولة الأموية

اذا أنتقلنا من العصر الجاهلى الى العصر الاسلامى ، نلاحظ أنه فى بداية هذا العصر ـ أى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ـ لا يوجد شعر فى رثاء الدول أو المدن وذلك لأن هذا العهد كان عهد قوة ، وفتح للأقاليم المعادية للاسلام لتحطيم رؤوس الكفر وطواغيته وليفسح المجال أمام الشعوب لتدخل فى دين الله مختاره ، بعد أن أزيلت من طريقها الحواجز وبالرغم من حصول كثير من الفتن فى هذه الفترة ، وبخاصة فترة خلافة الامام على ـ كرم الله وجهه ـ وحروبه مع معاويه ـ رضى الله عنه ـ وسيطرة أحد الفريقين على بعض ما بأيدى الفريق الآخر من الأرض والمدن فى بعض الأحيان ، فانه وجد خلال ذلك شعر فى رثاء الأشخاص وتمجيد بطولاتهم وشجاعتهم ، ولم يوجد رثاء مدن لأن الأمر لا يتعدى تغيير وال بآخر مع حاشيته وكلهم يدينون بالاسلام فلا تتغير معالم المدينه ، ولا يرحل عنها أهلها ولا يستباحون الا فى النادر .

تمخضت الأحداث السالفة الذكر عن ولادة الدولة الأموية برئاسة معاوية ابن أبى سفيان ثم أفضت بعده الى ابنه يزيد وهكذا أصبحت ملكا وراثيا وكان هذا أول انحراف عن سنن الراشدين ، ولعل هذا الأمر هو الذى عجل بانقراض دولة بنى أمية اذ أن قانون الوراثة هذا جعل الخلافة من حق ولى العهد مهما كان صبيا صغيرا ، أو ماجنا عابثا ، فانغمس هؤلاء فى الترف وتركوا أمور البلاد الشاسعة ، والترف ـ كما هو معروف ـ داء الدول العضال الذى لا يبدأ الا بالانقراض والزوال . ومما زاد الطين بلّة التنازع الشديد الذى كان يقوم داخل البيت الأموى الحاكم نفسه على السلطة فكل

يحاول أن يستأثر بها دون الآخرين ويحتكرها فى أولاده دون اخوانه وأقاربه . وهذا ماصوره الشاعر الأموى أبو عدى العبلى (١) فى قصيدة يحذر فيها بنى أمية من الخلاف وتجريد السيوف فى وجوه بعضهم وقصيدته هذه تجمع بين التحذير والتعنيف والبكاء يقول (٢) :

مابال عينك جائلا أقذاؤها * شرقت بعبرتها فطال بكاؤها
واعتادها ذكر العشيرة بالأسى * فصلاحها ناب بها ومساؤها
شركوا العدا فى أمرهم فتفاقمت * منها الفتون ومزقت أهواؤها
ظلت هناك ومايعاتب بعضها * بعضا فينفع ذا الرجاء رجاؤها
الا بمرهفة الظبات كأنها * شهب تقل ـ اذا هوت ـ أخطاؤها
وبعسل زرق يكون خضابها * علق النحور اذا تفيض دماؤها
فبذاكم أمست تعاتب بينها * فلقد خشيت بأن يحم فناؤها

ان الشاعر وان كان لا يرضى عن تصرفات بنى قومه الأمويين كسب علىّ ـ رضى الله عنه ـ وآله ومعاملتهم تلك المعاملة القاسية التى فيها كثير من الاهانة ناهيك عن القتل والتشريد . رغم ذلك فانه يحزن عليهم ويجذبه الرحم وهتاف العشيرة فيقف باكيا وراثيا وداعيا لهم بالرشاد :

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن على بن عدى ، يكنى أبا عدى . شاعر مجيد من شعراء قريش ومن مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، كان فى أيام بنى أمية يميل الى بنى هاشم ، ويذم قومه بنى أمية ، فلم يكن منهم اليه صنيع جميل فسلم بذلك أيام العباسيين ، ثم خرج على أبى جعفر المنصور مع محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، ووضعه واليا على الطائف ، ثم هرب الى اليمن بعد القضاء على الثورة ولعله مات هناك / انظر الأغانى : ١١/ ٢٩٤ ، مصطفى الشكعة ، رحلة الشعر من الأموية الى العباسية : ٤١٢ .

(٢) الأغانى : ١١/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

ماذا أؤمل ان أمية ودعت * وبقاء سكان البلاد بقاؤهـا .

غيث البلاد هم وهم أمراؤهـا * سرج يضوء دجى الظلام ضياؤها .

فلئن أمية ودعت وتتايعت * لغواية حميت لها خلفاؤهـا .

ليودعن من البرية عزهـا * ومن البلاد جمالها وبهاؤهـا .

ومن البلية أن بقيت خلافهم * فردا تهيجك دورهم وخلاؤهـا .

هلا نهى تنهى الغوى عن التى * يخشى على سلطانها غوغاؤها .

وتقى وأحلام لها مضروبة * فيها اذا تدمى القلوب دواؤها .

وبعد هذا الزجر وتذكيرهم بتقوى الله ثم تحكيم العقل فى أمر المصلحة العامة ، وردع السفيه الباغى ، لا يجد الشاعر ملجأ الا الله فيتوجه اليه متضرعا بأن يصلح ذات البين :-

لما رأيت الحرب توقد بينهـا * وبشب نار وقودها أذكاؤهـا

نوهت بالملك المهيمن دعوة * ورواح نفسى فى البلاد دعاؤهـا .

ليرد ألفتها ويجمع شملهـا * بخيارها فخيارها رحماؤهـا .

فبنو أمية خير من وطىء الثرى * شرفا وأفضل ساسة أمراؤهـا .

والذى يبدو أن هذه القصيدة بالرغم من جودتها الأسلوبية وسبكها المحكم ، وتلمسها لحساسيات النفوس ، فانها لم تجد أذنا صاغية ، فلم يكف القوم عما هم فيه فازدادت الأوضاع ترديا واضطرابا ، وانتهز العباسيون الفرصة السانحة فى مثل هذه الظروف وقام محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالدعوة لآل البيت وان الخلافة حق من حقوقهم المغتصبة وبث رسله فى خراسان ليكون أبعد عن مركز الخلافة الأموية بدمشق . وكانت الدعوة سرية والاعتماد فيها على غير العرب من الفرس وغيرهم ، وربما كان هذا لعدم معرفة العجم للعربية فيكون اطلاعهم على الأمر لا يكشف سرا ، وثانيا عاطفتهم الدينية

القوية بحب آل البيت والميل اليهم وبخاصة أن دعاة العباسيين ماكانوا لا يدعون لا مام بعينه بل للرضا من آل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يلبث محمد بن على هذا أن مات وكان قد عهد بالا مامة بعده الى ابنه ابراهيم فاتخذ هذا له مقرا بالحميمة وهى منطقة فى جنوب الأردن على طريق الحاج واصطنع الرجال والموالى وكان من أشهرهم أبو مسلم الخرسانى الداهيه الذى أستطاع أن يفرق رسله فى كور خراسان وأصبح لديه من القوة والأتباع ماأشعر والى الأمويين بخراسان نصر بن سيار بالخطر الداهم ، فكتب الى الخليفة مروان بن محمد يخبره بالأمر :- (١)

أرى خلل الرماد وميض جمر * فيوشك أن يكون لها ضرام .
فان النار بالعودين تذكى * وان الحرب أولها الكلام .
فان لم تطفئوها تجن حربا * مشمرة يشيب لها الغلام .
فقلت من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام .
فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام .
ففرى عن رحالك ثم قولى * على الاسلام والعرب السلام .

فكتب اليه مروان : " ان الشاهد يرى مالا يرى الغائب فاحسم الثؤلول فقال نصر عند ماوصله كتاب مروان مخاطبا من حوله : " أما صاحبكم فقد أعلمكم ألا نصرة عنده . وعندئذ وجه نصر بن سيار همه لجمع وحدة الصف واخماد الفتن التى كانت ثائره بين المضرية واليمانية فى خراسان ومرو وغيرهما ويحذرهم من العدو الداخل اليهم قائلا : (٣)

---

(١) الأزدى ، تاريخ الموصل : ١٠٦ ـ ١٠٧ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد : ٤٧٨/٤ .

(٢) تاريخ الموصل : ١٠٧ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٣٧/٢ .

أبلغ ربيعة فى مرو واخوتهم * فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب .
ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا حربا يحرق فى حافاتها الحطب .
مابالكم تلحفون الحرب بينكم * كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب .
وتتركون عدوا قد أظلكم * مما تأشب لا دين ولا حسب .
قد ما يدينون دينا ماسمعت به * عن الرسول ولم تنزل به الكتب .
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم * فان دينهم أن تقتل العرب .

فالشاعر هنا يحاول لفت انتباه القبائل الى العدو المشترك ثم هو يكشف عن حقيقة هذا العدو ـ وهو يعنى أبا مسلم ومن تبعه من قومه الفرس ـ فهم قوم ذوو حقد دفين على العرب ، فالدولة الأموية ـ كما هو معروف ـ كانت دولة عربية صرفة لم يبلغ الأعاجم فيها أى مرتبة حساسه ، فاستغل هؤلاء ـ أيضا ـ اعتماد الامام ابراهيم بن محمد عليهم وابعاده للعرب ، فأظهروا ما بأنفسهم ، فيروى عن أبى مسلم بعد تمكنه أنه لم يترك طبقة من طبقات المجتمع الا قتل منها بادئا بالقادة والوزراء ثم القضاة والعلماء والخبر ... (١) ... الخ .

كما تروى عن ابراهيم فى هذا الشأن روايات منها مايرويه ابن عساكر قال : (٢)

"كان أبو مسلم يكاتب ابراهيم فقدم على ابراهيم رسول أبى مسلم ، فسأله فاذا هو رجل من عرب خراسان ، فصيح ، ففمه ذلك . فكتب الى أبى مسلم ألم أنهك عن أن يكون رسولك عربيا . يطلع مثل هذا على أمرك ، فاذا أتاك فاقتله ...." وتضيف الرواية أن الرسول قرأ الكتاب فأتى به مروان بن محمد فأرسل من جنده الى ابراهيم فجاءوا به فحبس ثم قتل فى سجنه سنه اثنتين وثلاثين ومائه .

---

(١) انظر : المقدسى ، البدء والتاريخ : ٦/ ٩٣ .
(٢) تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ٢/ ٢٦٤ ، ومابعدها .

ويروى الطبرى أيضا : " .... وكان ابراهيم بن محمد كتب الى أبى مسلم - فيما قالوا - الا يدع بخراسان أحدا يتكلم العربية الا قتله " (١) .

وربما كان فى هذه الروايات شئ من المبالغة أو الزيادة ولكنها ذات دلالة على فقدان ثقته فى العرب ، وتخوفه من موالاتهم لحكامهم من بنى أمية الذين لا تأخذهم رحمة ، ولا هوادة فيمن ظنوا به سوءا .

ومهما يكن الأمر فقد اشتد أمر أبى مسلم حتى استولى على خراسان كلها وهرب نصر بن سيار وولده حتى مات بساوة بين الرى وهمذان ثم أقبلت الجيوش من خراسان رافعة السواد شعار العباسيين ، وبدأت شمس الدولة الأموية بالأفول ، وكانت النهاية المحتومة حين قتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بعد معركة الزاب الكبير وقامت دولة بنى العباس ، وبويع أبو العباس السفاح أول خليفة . وممن بكى الدولة الغاربة شعرا الشاعر الأموى الآنف الذكر أبو عدى العبلى حيث قال : (٢)

تقول أمامة لما رأت * نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومى على مضجعى * لدى هجعة الأعين النعس .
أبى ، ماعراك ؟ فقلت الهموم * عرون أباك فلا تبلسى . (٣)
عرون أباك فحبسنه * من الذل فى شر ما محبس .
لفقد العشيرة اذ نالها * سهام من الحدث المبئس .
رمتها المنون بلا نكل * ولا طائشات ولا نكس . (٤)
بأسهمها الخالسات النفوس * متى ماأقتضت مهجة تخلس .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٧/٢ .
(٢) الأغانى : ٢٤٨/١١ - ٢٤٩ ، رحلة الشعر : ٤٢٢ .
(٣) تبلسى : من الابلاس وهو الحيرة واليأس وقطع الرجاء من رحمة الله . اللسان مادة (بلس) .
(٤) النكس : سهم نكس : انكسر فوقه فجعل أعلاه أسفله . الزمخشرى ، أساس البلاغة مادة (نكس) .

ان عاطفة الحزن تصبغ هذه الأبيات وتظللها ، فالمصيبة قد عمت بفقد عشيرة الشاعر ذات المجد العريق ، لذلك فهو مهموم ومضطرب لم يبق له سند من الناس بعد أن رمت المنون دولة قومه بأسهمها المصميات فبدلت عزهم ذلا ونعيمهم بؤسا ، ويبلغ الشاعر ذروة تأثيره الحزين عندما يتكلم عن البلاء الذى حل بقومه بشئ من التفصيل :-

فصرعاهم فى نواحى البلاد * تلقى بأرض ولم ترمس . (١)

كريم أصيب وأثوابه * من العار والذام لم تدنس .

وآخر قد طار خوف الردى * وكان الهمام فلم يحسس .

ان العباسيين عند قيام دولتهم تتبعوا الأمويين فى كل مكان يقتلونهم أينما وجدوهم حتى الذين أعطوهم الأمان كسليمان بن هشام بن عبد الملك ورهط معه من بنى قومه ، رجعوا فقتلوهم صبرا . ويروى أن شاعرا كان يحقد (٢) على بنى أمية ويؤلب عليهم ، دخل يوما على أبى العباس السفاح فرأى فى مجلسه قوما ممن بقى من بنى أمية فصاح على الفور مخاطبا الخليفة السفاح (٣) :

---

(١) ترمس : تدفن / اللسان مادة (رمس) .

(٢) الشاعر هو سديف بن ميمون . مولى بنى العباس وشاعرهم . كان مولى لامرأة من خزاعة ، وكان زوجها من اللهبيين فادعى سديف بذلك ولاء بنى هاشم . وكان أديبا بارعا ، وخطيبا مصقعا . تشيع لبنى على الخارجين على المنصور ، فظفر به عامل المنصور على مكة وقتله سنة ١٤٦هـ انظر ، ابن قتيبه ، الشعر والشعراء : ٤٧٩ ، تهذيب ابن عساكر : ٦٨/٦ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٤٠ .

لا يغرنك ماترى من رجـــال * ان تحت الضلوع داء دويـــا .

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويـــا .

فألهبت هذه الأبيات غضب الخليفة ، وأثارت كوامن حقده ، فأمـــر بضرب كل من حضر من الأمويين ، وقيل أنه بسط الانطاع عليهم وأمر بغدائه فتناوله فوقهم وان بعضهم لا يزال يتحرك أو يئن . واذا كان الأمر مرعبـــا ومفزعا الى هذا الحد فما حال من بقى بعد قتل الرجال ؟ يجيب العبلى :

فكم غادروا من بواكى العيو * ن مرضى ومن صبية بؤس .

اذا ماذكرنهم لم تنـــم * لحرّ الهموم ولم تجلـــس .

يرجعن مثل بكاء الحمـــا * م فى مأتم قلق المجلـــس .

فذاك الذى غالنى فاعلمـــى * ولا تسأليني فتستنحســـى .

وأشياء قد ضفننى بالبـــلاد * ولست لهن بمستحلـــس . (١)

ان نفس الشاعر يعتصرها الألم والحزن لحالة الأطفال والنساء الذيـــن أصبحوا يعيشون فى مأتم دائم وحزن متواصل لفقد العائل . وبعد ذلـــك يذهب العبلى ليعدد الأماكن التى قتل فيها بنو أمية ، وهى كثيرة ومتعددة فيزيد تفجعه لبيان شمول النكبة وكأنه يقول ، لا أدرى لمن أبكى ؟ ألهؤلاء ، أم لأولئك ؟ .

أفاض المدامع قتلى كُـــدىً * وقتلى بكثوة لم ترمـــس . (٢)

وقتلى بوج وبالابتـــين * من يثرب خير ماأنفـــس . (٣)

---

(١) المستحلس : المقيم الذى لا يبرح / اللسان : ماده (حلس) .

(٢) كدى : موضع بأسفل مكه وهو الذى دخل منه الرسول ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ يوم فتح مكه / البكرى ، معجم مااستعجم ١١١٧/٤ ، كثـــوة : موضع بعينه لم تحدده المعاجم / معجم البلدان (كثوه) .

(٣) وج : هو الطائف ، أو واد بها / الروض المعطار : (وج) .

وبالزابيين نفوس ثــــوت * وقتلى بنهر أبي فطـــرس . (١)

أولئك قوم تداعت بهـــــم * نوائب من زمـــن متعس .

أذلت قيادى لمن رامـــنى * وألزقت الرغم بالمعطس .

فما أنس لا أنس قتلاهـــم * ولا عاش بعدهم من نسى .

وبعد ، فالشاعر وفق كل التوفيق فى رسم صورة حزينة بائسة لفناء قومـــه وزوال ملكهم ومجدهم ، وقد أشرك نفسه معهم فى الصوره ، غير أنهم ذهبوا أعزاء وبقى هو على آثارهم يقاسى الأسى والذل راغم الأنف . وقد كانت عاطفة الشاعر من الصدق بمكان ، فابتعد عن التكلف والزخرفة اللفظية والمعنويـــة بل كان شعره ينساب سهلا بشكل حوار حزين ينفعل فيه الشاعر وتعـــروه الهموم السوداء وتملك عليه نفسه .

وقد جاء روى القصيدة ـ السين المكسورة ـ مناسبا كل المناسبة لهـــذه القصيدة فالسين حرف هامس يناسب النفس الحزينة التى هدّها النبأ الفاجـع .

ولعل هذه القصيدة تفتح بابا جديدا من أبواب الشعر العربى الاسلامى وهو باب رثاء الدول ، وذلك لأن هذه القصيدة من أوائل القصائد التى قيلت فى هذا الموضوع ان لم تكن هى الأولى . ولعل القصائد الأسبانية التى ستمـــر بنا فى هذا الموضوع تأثرت أو احتذت هذه القصيدة ، فكأنها أصبحت نموذجـــا

---

(١) الزابيان أو الزابان : نهران أسفل الفرات ، هما الزاب الأعلـــى ، والأسفل يأتيان من بلاد أرمينيه ويصبان فى دجله ، ومدينة الـــزاب بينهما / المصدر السابق (الزاب) .

نهر أبى فطرس : اسم نهر قرب الرطة بفلسطين / معجم البلدان (فطرس) .

للرثاء الصادق لما توفر فيها من جودة البناء والسبك . ومن الشعراء الذين رثوا دولة بني أمية الشاعر أبو العباس الأعمى (١) الذى كان يوالى بنى أمية أشد الولاء ويحبهم حبا جما ولا يشرك معهم أحدا فى هذا الحب حتى انه كان يعادى آل بيت النبى -صلى الله عليه وسلم- لمناوأتهم للأمويين ،

فعندما يشتد الخطب على الدولة الأموية وتبدأ بالانهيار التدريجى ، يجد الأعمى من واجبه أن يذهب الى الشام ليقف على منازل الأحباب عند مروان بن محمد الذى كانت الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت لما يرى من تناقص أطراف مملكته يوما بعد يوم فينشده الأعمى :-

ليت شعرى أفاح رائحة المسـ * ـك وما ان اخال بالخيف انسى .

حين غابت بنو أمية عنـــه * والبهاليل من بنى عبد شمس ..

خطباء على المنابر فرسـا * ن عليها وقاله غير خرس .

لا يعابون صامتين وان قـا * لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس .

بحلوم اذا الحلوم تقضت * ووجوه مثل الدنانير ملس (٢) ..

ومن عجيب المصادفة أن يلتقى شاعرنا بأبى جعفر المنصور وهو فى طريقه الى الشام ويخبره بوجهته وينشده هذه الأبيات التى هى رثاء مشوب بالمدح

---

(١) هو السائب بن فروخ المكى . مولى لبنى جذيمة بن عدى ، كان هجاء خبيثا فاسقا مبغضا لآل الرسول مائلا الى بنى أمية ، أكثر شعره فى هجاء آل الزبير غير مصعب لأنه كان يحسن اليه ، سمع عبد الله بن عمرو وروى عنه عطاء ، وعمرو بن دينار ، ووثقه أحمد ، وروى له البخارى ومسلم وأصحاب السنن مات مابين ١٣٦ - ١٤٠ هـ .

انظر : ترجمة : الصفدى ، نكت الهميان : ١٥٤ ، الأعلام : ٣/١١٠ .

(٢) الأغانى : ١٦/٢٩٩ - ٣٠٠ ، ط دار الكتب .

والثناء على الأمويين ، فهم الفرسان وأهل الفصاحة والعقول الراجحة ..... الخ ، وماهي الا فترة زمنية بسيطة حتى تسقط دولة الأمويين وتقوم دولة العباسيين ويتولى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد السفاح ويخرج حاجا في احدى سنوات خلافته فيبصر بالأعمى واقترب منه ، وقال له : أنا رفيقك وأنت تريد الشام أيام مروان ، فيتنهد أبو العباس وينشد بألم وحسرة :- (١)

آمت نساء بني أمية منهم * وبناتهم بمضيعة أيتام .
نامت جدودهم وأسقط نجمهم * والنجم يسقط والجدود تنام .
خلت المنابر والأسرة منهم * فعليهم حتى الممات سلام .

ان الخليفة العباسي قد قصد من كلامه مع الأعمى اختيار ولائه لمواليه الأول وهل كان حبه لهم للعطاء فقط ؟ وماموقفه من الدولة الجديدة ؟ فيكون جواب الشاعر هذه الأبيات التي تقطر حزنا وأسى لفقد أولئك القوم عندما خانهم الحظ وفارقهم السعد ، ثم يثبت الشاعر أنه لا يزال وفيا لهم حتى بعد موتهم ، وسيبقى كذلك حتى الممات . الأمر الذي جعل المنصور يسأله متعجبا : "كم كان مروان أعطاك بأبي أنت" ؟ فيقول : أغناني أن أسأل أحدا بعده فيغتاظ المنصور ويهم بضرب عنقه غير أنه يتذكر حق الصحبة فيمسك عنه ويغيب الشاعر عن الخليفة زمنا ثم يطلبه فلا يعثر له على أثر ، وكأنما البيداء بادت به .

ان أبيات أبي العباس ـ رغم قلتها ـ تدل على شاعرية فذه ، وشكيمة قوية وقد تميز أسلوبه بالسلاسة مع الفخامة وقوة الجرس .

وقال عثمان بن الوليد بن عماره القرشي ، يذكر فعل الدهر ببني أميه : (٢)

---

(١) الأبيات والأخبار الوارده معها في المصدر نفسه ص ٣٠٠ .
(٢) حماسة البحتري : ص ١٢٦ .

من يأمن الدهر ممساة ومصبحه * فى كل يوم له من معشر جزر .
بعد ابن مروان أودى بعد مقدرة * دانت لهيبتها الأمصار والكور .
ثم الوليد فسل عنه منازله * بالشام والشام محمول له خضر .
تجبى اليه بلاد الله قاطبة * أخلافها ثرة لأ سره درر (١) .
وفى سليمان آيات وموعظة * وفى هشام لأهل العقل معتبر .
واذكر أبا خالد ولى بمهجته * ريب المنون وولى قبله عمر .
وفى الوليد أبى العباس موعظة * لكل من ينفع التجريب والفكر .
دانت له الأرض طرا وهى داخرة * لا يدفع الذل من أقطارها قطر .
بينا له الملك مافى صفوة كدر * اذ عاد رنقا وفيه الشوب والكدر (٢) .
كانوا ملوكا يجرون الجيوش بما * يقل فى جانبيه الشوك والشجر .
فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم * قفوا سوى الذكر والآثار ان ذكروا .

ان الشاعر القرشى فى هذه الأبيات يضرب المثل لفعل الدهر وصنيعه بالأمم ببنى أمية أولئك الذين ملكوا الدنيا ، وأطاعتهم أقطار الأرض طوعا وكرها فبنوا القصور العظيمة بالشام وغيرها وتربعوا على سدة الحكم ملوكا لا يرام حماهم ، ومكثوا على هذه الحالة شطرا من الدهر حتى رماهم بقواصمة فبادوا كأن لم يكونوا شيئا يذكر .

والشاعر هنا يختلف عن سبقه من الشعراء الذين مرّ ذكرهم من حيث العاطفة والأسلوب فهو هنا يقصد الى الاعتبار بالموت المؤكد لكل انسان مهما بلغ شأنه فى هذه الحياة . وعباراته دالة على ذلك كقوله : "وفى هشام لأهل العقل معتبر ، "لكل من ينفع التجريب والفكر" .

---

(١) الأخلاف : جمع خلف وهو الضرع ، ثرّة : غزيره / لسان العرب : (خلف) (ثرر) .

(٢) الرنق : الكدر ومايكون فى الماء من الطين اللسان : مادة (رنق) .

أما عاطفته فهى حزينة ولا شك ولكنها غائمة اتسعت الذكر عدد غير قليل من الخلفاء الأمويين وذكر عزهم ومجدهم ثم ما آلوا اليه من الهلاك والفناء ، ولم تنصب عاطفته بحراره على الحدث الأهم أو الرئيس فى رثاء الدول وهو الكارثة التى أودت بالدولة فقضت على الحكام وكل من كان من بنى قومهم وخربت البيوت والقصور وهتكت الحرمات وسيقت النساء المترفات الناعمات أسيرات سبايا ، والأطفال ذاقوا مرارة اليتم وما الى ذلك من الأجزاء المهمه التى عندما تجتمع تكون الصورة الحزينة التى توشح قصيدة الرثاء . ولعل هذا الصدق فى العاطفة هو الذى يميز بين قصيدة وأخرى من حيث التأثير فى نفوس السامعين أو القراء وهذا ماجعل شعر العبلى وأبى العباس الأعمى فى غاية الجوده والتأثير فالأول أموى يبكى عشيرته والثانى مخلص محب يرى الوفاء لهم دينا عليه حتى يوارى فى رمسه .

الفصــل الثالـث

رثـاء الدول والأمصار حتى عصر السلاجقـــه

المبحث الأول : الثورات والفتن الداخلية فى الدولة العباسية :

بعد أن قضى العباسيون على دولة بنى أميه وتتبعوا كل من يمت اليهـــم بولاء ، اتجهوا الى تثبيت أركان دولتهم والعناية بشئونها السياسية والادارية والاقتصادية والعلمية ، فجندوا الجيوش العظيمة لحماية البلاد من غـارات الروم وللغزو والجهاد فى سبيل الله وفتح البلدان ، وكانت موارد الدولـــة عظيمة الحجم ، فعاش الناس فى رخاء ونعيم واتجهوا تبعا لذلك الـــــــى العمران والترف وكثرت الجوارى والمغنيات من الرقيق المجلوب حتى كان لهـن سوق خاصة فازدهر الغناء ازدهارا كبيرا وشجع ذلك كثرة الشعراء الذيـــن ينظمون للقيان ماشئن من الشعر ذى الأوزان والبحور الغنائيه ، كما بلـــغ العلم والعلماء مرتبة عظيمة فى الدولة العباسية وممازاد فى نموه كون الخلفـــاء أنفسهم من العلماء والأدباء كالمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم وكانوا يجزلـون الهبات للعلماء والشعراء بالاضافة الى ظهور الترجمة ونقل علوم الأمم الأخـرى الى اللغة العربية نتيجة امتزاج الشعوب ببعضها فى المجتمع العباسى الـذى أصبح يحوى أجناسا مختلفة من البشر وخاصة الجنس الفارسى، وقد ازدهــرت بغداد عاصمة الخلافة ازدهارا عظيما ، وذاع صيتها فى الشرق والغرب ،وأصبحت قبلة العلماء والأدباء والشعراء يغدون عليها من أقصى البقاع ليجد كـــل بغيته فيها .

واستمر الحال هذا مده قرن من الزمان تقريبا حتى توفى هارون الرشـــيد سنة ثلاث وتسعين ومائه حينئذ أطلت الفتنة المظلمة بقرنيها ، أعنى بها الفتنة

التى وقعت بين الشقيقين الأمين والمأمون ومزقت البلاد ودمرت عاصمة الخلافة بغداد وأصابها من أمر الله ما أصابها .

وترجع البداية الأولى لهذه الفتنة الى عهد الرشيد نفسه ، اذ أنه لما حج البيت فى عام سته وثمانين ومائه (١) أخذ البيعة لابنه محمد ولقبه بالأمين ليكون وليا لعهده ثم بايع لابنه عبد الله ولقبه بالمأمون ليكون وليا لعهد الأمين . وكتب بذلك كتابا وأشهد فيه أكابر أهل الاسلام ووجوه الكتاب والقواد وسائر أركان الدولة وعلقه فى الكعبه . وشرط عليهما فيه ان هو جاءه الأجل المحتوم أن تكون بغداد ، والعراق ، والحجاز واليمن ، والجبال وفارس تحت حكم الأمين ويكون هو الخليفة ، وأن تكون الرى ، وطبرستان وخراسان ، والترك تحت حكم المأمون ويكون ولى عهد المسلمين .

ومما يذكر هنا أن المأمون كان أكبر سنا وأرجح عقلا وأكثر حنكة من الأمين ، وانما قدم الأمين اكراما لأمه زبيده بنت جعفر بن المنصور بنت عم هارون الرشيد . (٢)

وقد كان الناس بين متفائل ومتشائم وكان من المتشائمين شاعر حصيف قال عندما سمع النبأ : لقد ألقى بأسهم بينهم ، وأنشد :- (٣)

رأى الملك المهذب شر رأى * بقسمته الخلافة والبلادا .
رأى مالو تعقبه بعلم * لبيض من مفارقه السوادا .
أراد به ليقطع عن بنيه * خلافهم ويبتذلوا الودادا .

---

(١) انظر الطبرى : ٢٧٧/٨ ومابعدها ، وقد أورد نص الكتاب الذى كتبه الرشيد وعلقه فى الكعبة .

(٢) ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء : ٧٦ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٢٧٧/٨ .

فقد غرس العداوة غير آل * وأورث شمل ألفتهم بدادا .
وألقح بينهم حربا عوانا * وسلس لاجتثاثهم القيادا .
فويل للرعية ، عن قليل * لقد أهدى لها الكرب الشدادا .
ستجرى من دمائهم بحور * زواخر لا يرون لها نفادا .
فوزر بلائهم أبد عليه * أغيا كان ذلك أم رشادا .

ولقد كان احساس الشاعر صادقا ، فلقد حصل ماتوقعه وأكثر ، فمنذ أن توفى الرشيد وبويع الأمين بالخلافة أخذ يسعى فى خلع المأمون من ولاية العهد وجعل ولده موسى مكانه .

وكان يزين له هذا الأمر اثنان من أكابر قواده ومستشاريه وهما : الفضل بن الربيع ، وعيسى بن ماهان . وبالفعل أمر الأمين بقطع الدعاء للمأمون والدعاء لابنه الطفل موسى الذى لقبه بالناطق بالحق ، وطلب من المأمون أن يخلع نفسه ويأتيه فى بغداد فلما سمع المأمون بذلك رفض الأمر وأسقط اسم الأمين من الطراز ، وقطع عنه البريد .(١)

فاعتبر الأمين ذلك خروجا عن الطاعة ، وأرسل للمأمون جيشا كبيرا بقيادة عيسى بن ماهان فندب المأمون لمحاربته طاهر بن الحسين الذى سار بجيشه حتى التقى بجيش عيسى بالرى فاقتتلوا قتالا شديدا كان النصر فيها حليف طاهر فقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه ، واستباح عسكره . وبعد ذلك أمره المأمون بالتوجه الى بغداد فتوجه اليها بجيشه حتى أحاط بها ونزل ببساتينها وفرت أمامه جيوش الأمين وعساكره واستطاع طاهر أن يستميلهم اليه باعطائهم الأمان والهبات الكبيرة ، فتبعه منهم كثيرون عندئذ شدد طاهر الحصار على بغداد ونصب المجانيق التى تقذف الحجارة فى كل الاتجاهات ـ

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ٦/٢٢٧ .

ولا يبالى رماتها من أصابت وفى ذلك يقول الوراق :- (١)

يارماة المنجنيق * كلكم غير شفيق .

ماتبالون صديقا * كان أو غير صديق .

ويلكم تدرون ماتر * مون مرار الطريق .

كما استعمل أيضا من آلات الدمار العرادات والسفن البحرية التى تقذف النفط والنيران . واستعملت هذه الالات أيضا من قبل جيش الأمين المحاصر الأمر الذى جعل الأرباض والمنازل والأسواق هى ميدان المعركة ومواقع الجند ، فكثر القتل والتدمير والخراب حتى درست محاسن بغداد والتهمتها النيران وفى هذا يقول الوراق أيضا : (٢)

من ذا أصابك يابغداد بالعين * ألم تكونى زمانا قرة العين .

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم * وكان قربهم زينا من الزين .

صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا * ماذا لقيت بهم من لوعة البين .

أستودع الله قوما ماذكرتهم * الا تحدر ماء العين من عينى .

كانوا ففرقهم دهر وصدعهم * والدهر يصدع مابين الفريقين .

ان الشاعر هنا يرجع سبب البلاء الذى حل ببغداد الى العين أو الحسد ففرق أهلها شيعا بعد أن كانوا ينعمون فيها بجمعهم والشاعر واحد منهم فهو يتذكر تلك الأيام ويسكب الدمع توجعا لفراق أولئك القوم .

---

(١) هو عمرو بن عبد الملك العترى أصله من البصره شاعر ماجن ، اشتهر فى أيام الرشيد له شعر كثير ، توفى نحو ٢٠٠ هـ / المرزبانى ، معجم الشعراء : ٢١٨ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٨/٤٤٧ .

ونلاحظ هنا أن الشاعر قد شغل نفسه بالزخرفة اللفظية كالجناس الـذى عم معظم الأبيات ، والذى صرف الشاعر عن قوة التأثير فى السامعين ،وصرفه أيضا عن تفصل الحادثة ومالاقته بغداد من الدمار ، فكأنه هنا يقف على أطلال باليه يخاطبها لا على مدينة عظيمة هى حاضرة العالم فى ذلك الزمان .

وتستمر هذه الحال مدة من الزمان لم يعد الناس يحتملونها ،ولا يطيقـون معها صبرا فكان لا بد لهم من ترك بغداد والنزوح عنها ، فخرجوا منهـا زرافات ووجدانا ، حتى أوحشت بغداد وخاف الناس أن تبقى خرابا . وفـى ذلك يقول الخليع :- (١)

أتسرع الرحلة أغـذاذا * عن جانبى بغداد أم ماذا ؟
ألم تر الفتنة قـد ألفـت * الى أولى الفتنـة شـذاذا
وانتقضت بغداد عمرانها * عن رأى لا ذاك ولا هـذا
هدما وحرقا قد أبيد أهلها * عقوبة لاذت بمـن لاذا

ان الشاعر مندهش لشدة الهول الذى لحق بالناس فجعلهم يسرعـون فـى الرحيل عن بغداد ويتركونها نهبا لأولى الفتنة من الحثالات والشذاذ يسلبون وينهبون ويفتكون ، ...... فمن وجد سبيلا الى الهرب ناجيا بنفسه فعـل

---

(١) هو الحسين بن الضحاك بن ياسر المعروف بالخليع ، مولى بأهلـه ، وأصله من خراسان ولكنه ولد بالبصرة سنة ١٦٢ ونشأ فيها . وهو شاعـر ماجن له مع أبى نواس أخبار معروفة ، ورد بغداد وأقام فيها دهـرا ينادم الخلفاء وخاصة الأمين حتى اذا قتل فر الى البصرة حتى أفضت الخلافة الى المعتصم عاد فمدحه ومدح الواثق من بعده . وهو شاعـر مطبوع ، حسن الافتنان فى ضروب الشعر / انظر الأغانى : ١٤٧/٧ - ٢٢٨ ، الوفيات ، ١٦٤/٢ ، تاريخ بغداد : ٥٤/٨ ،والأبيـات فى الطبرى : ٤٤٧/٨ .

حتى لم يبق فى دار السلام الا العاجزون أو المجرمون . يقول الوراق فـــى ذلك :ـ (١)

لم يبق فى بغداد الا امـــرؤ * حالفه الفقر كثير العيـــال .

لا أم تحمى عن حماهلــــا ولا * خال له يحمى ولا غير خـــال .

ليس له مال سوى مطـــــــرد * مطرده فى كفه رأس مـــال .

هان على الله فأجرى علـــى * كفيه للشقوة قتل الرجـــال .

ان صار ذا الأمر الى واحـــد * صار الى القتل على كل حال .

ومادام الأمر قد وصل الى ماوصل اليه من الدمار والاستهتار بالدمـــاء والأعراض فحق اذن لأهل بغداد الذين ذاقوا فيها حلاوة العيش أن يبكوهـــا من قلوبهم عند تبدل حالها ، يقول بعض فتيانها :

بكيت دما على بغــــداد لمـــا * فقدت غضارة العيش الأنيق . (٢)

تبدلنـــا همومـــا من ســــرور * ومن سعة تبدلنا بضيـــق .

أصابتها من الحســـاد عـــين * فأفنت أهلها بالمنجنيـــق .

ثم يأخذه فى تفصيل مصائر القوم قائلا :

فقوم أحرقوا بالنار قســـرا * ونائحة تنوح على غريـــق .

وصائحة تنادى واصباحـــــا * وباكية لفقدان الشفيـــق .

وحوراء المدامع ذات دل * مضمخة المجاسد بالخلـــوق .

تفر من الحريق الى انتهـــاب * ووالدها يفر الى الحريـــق .

وسالبة الغزالة مقلتيهـــــــا * مضاحكها كلألأة السبروق .

حيارى كالهدايا مفكـــــرات * عليهن القلائد فى الحلوق .

ينادين الشفيق ولا شفيـــــق * وقد فقد الشقيق من الشقيق .

---

(١) المصدر السابق : ٤٦٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٥٧ .

وقوم أخرجوا من ظل دنيا * متاعهم يباع بكل سوق .

ومغترب غريب الدار ملقى * بلا رأس بقارعة الطريق .

توسط من قتالهم جميعا * فما يدرون من أى الفريق ».

فلا ولد يقيم على أبيه * وقد هرب الصديق بلا صديق .

أن قائل هذه الأبيات يرسم صورة حيه ناطقة لتلك المشاهد الحزينة التى خلفتها هذه الفتنة العمياء التى أججها نكث العهود المبرمة ، ودسائس الوزراء الغششة التى تكن صدورهم الكيد والحقد للمسلمين ، وقد وشى الشاعر صوره باطار أسود نابع من شدة حزنه وبكائه وهو يسمع النائحات الثكالى على ذويهن الذين أحرقوا بالنار أو ألقوا فى الأنهار ، وهو يرى النساء الغيد ، ربات الخدور يؤخذن سبايا وينتهبن كالسلع والمتاع ، وقد بحت حلوقهن من الصراخ والاستغاثة .... ولكن لا مغيث ولا ناصر ، وكأن الناس فى يوم القيامة فلا ولد يعرف أباه ، ولا الصديق صديقه أو أخاه .

ومازاد الأمر سوءا والوضع تفجرا كون الخليفة الأمين ماجنا متهتكا لا يتوقف عن شرب الخمر مع غلمانه وجواريه المغنيات حتى فى أحلك الظروف فما كان منه فى أيامه الأخيرة وعندما حصر بقصره المسمى بقصر الخلد الا أن أطلق أيدى الذعار والشطار والعيارين وأهل السجون ، واللصوص والأفارقة الزنوج فى بغداد وأصبح هؤلاء هم السادة ووضع لهم رئيسا يسمى الهرش فلا تسأل عما أحدثه هؤلاء من البلاء والرعب الشديد بأهل بغداد حتى انهم كانوا يسلبون البيوت كل مافيها ثم يدمرونها ويحرقونها لا لشئ الا رغبة فى الفساد والفوضى ، ويصف الطبرى مافعله هؤلاء الأوباش بقوله : " .... فكان منهم فى ذلك مالم يبلغنا أن مثله كان فى شئ من سائر بلاد

الحروب " . وقد أمر الأمين الهرشي ومن معه من الأشرار بمهاجمة الكرخ ، والكناسه وأرباض المدينه ، كما بعث معهم غلاما له يسمى زويحا وأمره بتتبع الأغنياء وجمع أموالهم لينفقها سيده الخليفة على لهوه ولعبه ، ففعل ذلك وجمع أموالا كثيرة ففر الناس وخاصة الأغنياء من تلك المناطق بعلة أنهم يريدون الحج ، فقال بعضهم :- (٢) (١)

أظهروا الحج وما ينوونه * بل من الهرش يريدون الهرب .
كم أناس أصبحوا في غبطة * وكل الهرش عليهم بالعطب .
كل من راد زويح بيته * لقى الذل ووافاه الحرب ".

وقد هزت الفتنة العظيمة الشاعر الكبير أبا يعقوب الخريمي (٣) فقال في ذلك قصيدة عصماء بلغت حوالي سته وثلاثين ومائه بيت ، وتعتبر هذه القصيدة من أوائل النصوص الشعرية المتكاملة التي قيلت في رثاء مدينة دمرت .

---

(١) تاريخ الطبري : ٨/٤٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٦٣ .

(٣) هو اسحاق بن حسان بن قوهي ، أصله من الصغد وهي كوره عاصمتها (سمرقند) ، تنقل في البلاد حتى ظفر بعثمان بن خريم القائد الشجاع فلازمه ومدحه حتى نسب اليه ، ثم نزل بغداد أيام الرشيد واتصل بأشهر أدبائها وبقي فيها الى أن شهر فتنة الأمين والمأمون ثم توفي سنة ٢١٤ هـ ، وهو شاعر متقدم مطبوع ، وكلامه عذب حسن قال عنه ابن المعتز : كان الخريمي شاعرا مطبوعا مقتدرا على الشعر ، وقال عنه أيضا أنه من المشهورين .

طبقات ابن المعتز : ٢٩٣ . وانظر ، الجراح ، الورقة : ١٠٩ ، ديوان الخريمي : ٥ ، البيان والتبيين : ١/١١٥ .

وقصيدته بطولها في الطبري : ٨/٤٤٨ وما بعدها .

يمهد الخريمى لقصيدته الطويله بذكر حال بغداد قبل أن يطرقها حدثان الدهر فيقول :ـ

قالوا : ولم يلعب الزمان ببغـ * ـداد وتعثر بها عواثرها .
اذ هى مثل العروس باطنها * مشوق للفتى وظاهرها .
جنة خلد ودار مغبطة * قل من النائبات واترها .
درت خلوف الدنيا لساكنها * وقل معسورها وعاسرها .
وانفرجت بالنعيم وانتجعت * فيها بلذاتها حواضرها .
فالقوم منها فى روضة أنف * أشرف غب القطان زائرها .
دار ملوك رست قواعدها * فيها ومرت بها منابرها .
أفراخ نعمى فى ارث مملكة * شد عراها لها أكابرها .

ومما يلفت النظر فى مطلع هذه القصيدة أن الشاعر بدأها بقوله : قالوا وكأنه يريد أن يتحدث عن قصة قديمة رغم كونه من شهود الفتنة ، وممن حضروا الحرب فى ميدانها حيث كان يقيم فى بغداد .

ولعله أراد من ذلك اظهار مقدار الدمار والخراب الذى حل ببغداد وماصاحب ذلك من قتل وتشريد لأهلها وبالتالى بيان حزنه وألمه الشديد فكان لسان حاله يقول : كانت هنا مدينة اسمها بغداد وكانت من الحسن والجمال كأنها جنة وكأنها .... الخ فهو يتنهد ويطلق زفراته الحزينة من أول القصيدة للمفارقة الحاصلة بين ماضى تلك المدينة الزاهر فهى دار الملوك وموطن الأكابر الذين شدوا عرى الدولة وساسوها بالحكمة ، كما هى أيضا مرتع خصب لأصحاب اللذات والعيش الرغيد .

بينما حالها بعد أن تولى أمور الملك سفهاؤها تبدل وحدث ماحدث يقول :

فلم يزل والزمان ذو غير * يقدح فى ملكها أصاغرها .
حتى تساقت كأسا مثلة * من فتنة لا يقال عاثرها ؛
وافترقت بعد ألفة شيعا * مقطوعة بينها أواصرها .

ثم يبين أن سبب هذه الفتنة التى لا تقال عثرتها هم الملوك الذين اتبعوا أهواءهم ، وغلب عليهم حب الحياة ، وحب الملك والسيطره ، ولو كان ذلك على حساب رعيتهم . أضف الى ذلك أنهم لم يجدوا الناصح الأمين التقى الذى يزجرهم عن غيهم :

ياهل رأيت الأملاك ماصنعت * اذ لم يرعها بالنصح زاجرها .
أورد أملاكنا نفوسهم * هوة غى أعيت مصادرها .
ماضرها لو وفت بموثقها * واستحكمت فى التقى بصائرها .
ولم تسافك دماء شيعتها * وتبتعث فتية تكابرها .
تبغى فضول الدنيا مكاثرة * حتى أبيحت كرها ذخائرها .

ويستمر هؤلاء الملوك فى غيهم حتى تحتدم الحرب الطاحنة التى تكاد تقضى على كل مظاهر الحياة فى بغداد ، فالجنان الزاهره أصبحت رمادا والقصور الشاهقة أقفرت من سكانها فأصبحت :

قفرا خلاء تعوى الكلاب بها * ينكر منها الرسوم زائرها .
وأصبح البؤس مايفارقها * الفا لها والسرور هاجرها .
فأين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وجابرها .
أين الجرادية الصقالب وال * أحبش تعدو هدلا مشافرها . (١)
أين الظباء الأبكار فى روضة ال * ملك تهادى بها غرائرها .
أين غضاراتها ولذتها * وأين مجبورها وجابرها .

---

(١) يشير فى هذا البيت الى الأنواع المجلوبة من الموالى والفتيان الذين امتلأت بهم بغداد .

وهكذا يمضى الشاعر فى بكائه وتفجعه على ما أصاب عاصمة الخلافة من الدمار والبوار فذهب فتيانها واماؤها ورقاصها وزامرها .... الخ وهو يكرر كلمة (أين) ليدلل على شدة حزنه وصدق عاطفته ، كما يدلل أيضا على التحول الخطير فى حالة المدينة فقد ذهب منها كل شئ حتى انها :

أمست كجوف الحمار خالية * يسعرها بالجحيم ساعرها .
كأنما أصبحت بساحتهم * (عاد) وستهم صراصرها . (١)

ويضيف الخريمى سببا آخر للفتنة وهو فساد الناس وبعدهم عن الدين واستحلالهم .. ماحرم الله - تعالى - فعاقبهم الله بالجوع والخوف والهلاك جزاء كفرهم بنعمه يقول :-

يابؤس بغداد دار مملكة * دارت على أهلها دوائرها .
أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبائرها .
بالخسف والقذف والحريق وبال * حرب التى أصبحت تساورها .
كم قد رأينا من المعاصى ببغدا * د ، فهل ذو الجلال غافرها .
حلت ببغداد وهى آمنة * داهية لم تكن تحاذرها .
طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها .
رق بها الدين واستخف بزى ال * فضل ، وعز النساك فاجرها . (٢)
وخطم العبد أنف سيده * بالرغم ، واستعبدت حرائرها .
وصار رب الجيران فاسقهم * وابتز أمر الدروب ذاعرها .

فهذه هى سنة الله - تعالى - يمهل ولا يهمل ، وهكذا كان الحال بالنسبة لبغداد وأهلها فقد أتاهم الله بسطة فى الرزق والنعم ، ولكنهم تمادوا

---

(١) صراصرها : هى ريح جافة مهلكة بعثها الله على قوم عاد ، قال تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه) . الحاقه آيه ٦ .

(٢) عزّ : غلب . / اللسان (عزز) .

فى اقتراف المعاصى والكبائر فأرسل الله عليها هذا العذاب من حيث لا تشعر

ثم يعرض الشاعر لحالة بعض الأحياء من بغداد كمحلة الكرخ ، وهذه المحلة كانت بؤرة فساد وانحلال ، فكان فيها سوق الجوارى وسوق النخاسة وسوق الخمر والفواحش وغير ذلك .

فسلط الله عليها من لصوصها وعياريها ، وعراتها من يسومها سوء العذاب . يقول :ـ

والكرخ أسواقها معطلة * يستن عيارها وعائرها . (١)
أخرجت الحرب من سواقطها * اساد غيل غلبا تساورها .
من البوارى تراسها ومن الـ * خوص اذا استلأمت مغافرها . (٢)
تغدو الى الحرب فى جواشنها الـ * صوف اذا ماعدت أساورها . (٣)
كتائب الهرش تحت رايته * ساعد طرّارها مقامرها .
لا الرزق تبغى ولا العطاء ولا * يحشرها للقاء حاشرها .
فى كل درب وكل ناحية * خطارة يستهل خاطرها .
بمثل هام الرجال من فلق الصخـ * ـر يزود المقلاع بائرها .

---

(١) يستن : يضطرب / اللسان (سنن) .

(٢) البوارى : جمع بارية ، وهى الحصير المنسوج ، فارسية معربة / الصحاح (بور) .

استلأمت : ليست لامة الحرب وهى الدرع / المغافر : جمع مغفر ، زرد يلبس تحت القلنسوه .

(٣) الجواشن : جمع جوشن ، وهو الدرع / الصحاح ، (جشن) .

وهؤلاء الأشرار الذين يذكرهم الخريمي ، قد أوتوا من الشجاعة الفائقة والتفنن في ضروب القتال ماجعلهم يصمدون في وجه جيش طاهر بن الحسين فترة طويلة ، ويؤخرون سقوط بغداد في يده مايقارب من ثلاث سنوات ، على أنهم لم يكونوا يملكون من السلاح الا الحجارة والمقلاع الذى يقذفها ، وترسا من الخوص ، وكانوا عراة من الملابس الا بعض الجواشن من الصوف وفيهم يقول الشاعر : ـ (١)

كم بصير غدا بعينين كوبيـ * ـصر ماحالهم فعاد بعين .
ليس يخطون مايريدون مايعـ * ـد راميهم سوى الناظرين .

وهؤلاء القوم لابد أن يكونوا قد نشأوا نشأة فيها كثير من الفقر والحرمان بجانب الغنى المفرط في المجتمع العباسي المفتوح ، فحملوا في أنفسهم غيظا ، وحقدا على هذا المجتمع وتمنوا خرابه . وقد حانت فرصتهم عندما شبت نار هذه الفتنة ، فاهتبلوها وأصبحوا هم السادة المسيطرين وتبلغ عاطفة الشاعر الحزينة ذروتها عندما يأخذ في تصوير حالة النساء اللواتي أخرجتهن الحرب سافرات والهات لايجدن ملجأ ولا يهتدين سبيلا ، كما يصور لنا أحوال الأمهات اللواتي ثكلن أولادهن بطريقة واقعية فنية تجعل الدمع يقفز من عيون القاسية قلوبهم ، يقول :

كل رقود الضحى مخبأة * لم تبد في أهلها محاجرها .
بيضة خدر مكنونة برزت * للناس منشورة غدائرها .
تعثر في ثوبها وتعجلها * كبة خيل ريعت حوافرها .
تسأل : أين الطريق ؟ والهة * والنار من خلفها تبادرها .

---

(١) الشاعر هو الوراق ، الطبري : ٨/ ٤٦٦ ، وانظر أخبارهم وقصة حروبهم مع أصحاب طاهر وغيرهم في المصدر السابق ص ٤٥٨ .

لم تجتل الشمس حسن بهجتها * حتى اجتلتها حرب تباشرها .

ياهل رأيت الثكلى مولولة * فى الطرق تسعى والجهر باهرها .

فى اثر نعش عليه واحدها * فى صدره طعنة يساورها .

تنظر فى وجهه وتهتف بالثكـ * ـل وجارى الدموع حادرها .

غرغر بالنفس ثم أسلمها * مطلولة لا يخاف ثائرها .

ان شعراء رثاء الدول والمدن فى الشعر العربى دائما يركزون على المرأة وما أصابها من ذل ومهانة من جراء فقدها للمعيل ، ووقوعها فى يد العدو ومايجر اليه ذلك ، وهم فى هذا يضربون على أوتار القلوب الحساسه لدى السامعين أو القارئين الذين يتفاعلون مع القصيدة بدورهم ، لما للعرض والشرف من المنزلة فى نفس العربى أو المسلم ، وبهذا يكون الشاعر قد وفق لنقل الصورة التى فى نفسه الى نفوس الآخرين .

وفى المقطع الأخير من القصيدة يتشبث الشاعر بحبل الرجاء فى أن يلتئم الشمل وتعود البلاد الى ماكانت عليه من الازدهار :

ياليت شعرى والدهر ذو دول * يرجى وأخرى تخشى بوادرها .

هل ترجعن أرضنا كما غنيت * وقد تناهت بنا مصائرها .

ولا بد له من أن يقف من المأمون ـ الذى أصبح خليفة ، وبويع له بعد أن قضت الفتنة على الأمين (١) ـ موقف الناصح والمادح فقد أصبح هو أمل الأمة المرتجى لما يتحلى به من صفات كريمة كالتقى والعدل وحسن السياسة

---

(١) هلك الأمين سنة ثمان وتسعين ومائه ، واحتز رأسه وبعث الى المأمون ودخل طاهر بن الحسين بغداد ، وأخذ البيعة للمأمون فى خبر طويل / انظر الطبرى : ٨/٤٧٨ ـ ٤٨٧ .

والأدب ، كما لا ينسى الشاعر أن يمدح وزيره الحكيم ، ومدبر دولته الداهيه المسمى بذى الرئاستين (١) يقول :ـ

من مبلغ "ذا الرياستين" رسـالا * تأتى للنصح شاعرهـا .
بأن خير الولاة ، قد علم النـ * ـاس ، اذا عددت مآثرهـا .
خليفة الله فى بريته الـ * مأمون منتاشها وجابرهـا .
سمت اليه آمال أمتـه * منقادة برهـا وفاجرهـا .
شاموا حيا العدل من مخايلـه * وأصحرت بالتقى بصائرهـا .
واستجمعت طاعة برفقك للـ * مأمون نجديها وغائرهـا .
وأنت سمع فى العالمين لـه * ومقلة مايكل ناظرهـا .
أصبحت فى أمة أوائلهـا * قد فارقت هديها أواخرها .
وأنت سرسورها (٢) وسائسهـا * فهل على الحق أنت قاسرهـا .
أدب رجالا رأيت سيرتهـم * خالف حكم الكتاب سائرهـا .
وأمدد الى الناس كف مرحمـة * تسد منهم بهـا مفاقرهـا .

فهو هنا يشير الى اجتماع أهل الأقطار على طاعة المأمون ووزيره ويصفهم بالحنكة فى تدبير الأمور ومتابعتها ، كما يخضهم على قسر الأمة على الحـق

---

(١) هو الفضل بن سهل . وسمى بذى الرياستين ، رياسة الحرب ورياسة التدبير سماه بذلك المأمون عندما عقد له لواء الولاية على المشرق من جبل همذان الى التبت طولا ، ومن بحر فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا وذلك سنة ١٩٦ هـ ، بعد مقتل على بن عيسى قائد جيش الأمين على يد طاهر بن الحسين / انظر الطبرى : ٨/٤٢٤ .

(٢) السرسور : الفطن العالم الذى يقوم بالأمور / اللسان مادة (سرر) .

قسرا ذلك لأنها قد فارقت هدى الصالحين الأوائل فى كثير من أمورهـــا ، وبرز فيها قوم تجافوا عن هدى الكتاب العزيز فهم بحاجة الى التأديـــب والضرب على أيديهم ، ثم يوجه خطابه الى ذى الرياستين مذكرا أياه بحـــق القرابة والتوءام الذى بينهما ولعله أراد بذلك الأصل الفارسى الذى يجمعهما ويهدى اليه قصيدته هذه التى اعتبرها فى مقام النصيحة لوجه الله ـ تعالى ـ فلم يقلها طامعا فى مغنم ولا شهوة فى قول الشعر وانما هى زفرة نفس بهـــا عما يجده فى صدره :ـ

كم عندنا من نصيحة لك فى اللـ * ـه وقربى عـزت زوافرهــا .
وحرمة قربت أواصـرهـــا * منك ، وأخرى هل أنت ذاكرها .
دونك غراء كالوذيلــة (١) لا * تفقد فى بلدة سوائرهــا .
لا طمعا قلتها ولا بطـــرا * لكل نفس هـوى يؤامرهــا .
سيرها الله بالنصيحـــة والـ * ـخشية فاستحصدت مرائرهــا . (٢)
جاءتك تحكى لك الأمور كمــا * ينشر بز التجـــار ناشرهــا .

وبعد ، فلقد عاش الخريمى هذه التجربة المريرة المؤلمة ، وأحسها بقلبه ومشاعره وعواطفه ، فكانت النتيجة هذه الرائية الرائعة التى صورت الحوادث الداميه أوضح تصوير وأصدقه ، فلقد كان الشاعر ينتقل من مشهد الى مشهد في سلسلة المآسى فى واقعية بعيدة عن الخيال لأنه كان يصف حوادث تجـــرى أمام عينيـــه ، لذلك تراه يكثر من استعمال "ياهل رأيت" فقد أتى بها نحـــوا من ست مرات فى قصيدته ، وتكشف القصيدة عن شاعرية الخريمى الفذة ، وطول

---

(١) الوذيله : المرآة ، أو القطعة من الفضة / أساس البلاغة : (وذل) .
(٢) المرائر : الحبال القوية المفتلة على أكثر من طاق / اللسان (مرر) .

نفسه فى الشعر ، فان الذى ينظم مثل هذه القصيدة لابد أن يكون قد قال الكثير من أمثالها وان كان لم يصلنا من شعره الا اليسير ، يذكر ابن النديم أن للخريمى ديوانا فى مائتى ورقه . (١)

كما نتبين أيضا أسلوب الشاعر الجزل مع السهولة ، فالخريمى شاعر مطبوع يبتعد عن أى تكلف أو استكراه ، ولا نكاد نحس بشئ من ذلك فى قصيدته بالرغم من طولها وبيدو أنه يميل الى مذهب البداوة فيأتى ببعض الكلمات الصعبة التى تحتاج الى تفسير ، وهى ذات دلالة فى ـ الوقت نفسه ـ على سعة محفوظة من مفردات العربية وتراكيبها . فالخريمى ـ بلا شك ـ شاعر فذ مغلق، ألقى قصيدة عصماء تعتبر دعامة أساسية لفن رثاء الدول والمدن فى الشعر العربى .

وهناك قصيدة أخرى فى رثاء بغداد وبكاء أهلها أثناء فتنة الأمين والمأمون لشاعر يعرف بعلى بن أبى طالب ويلقب بالأعمى (٢) . وهى لا تخرج فى مضمونها ومعانيها عما تقدم من القصائد التى أوردناها وبيدأها متأسفا على ذهاب حسنها ويرد ذلك الى حكم القدر ، فيقول :

كأن لم تكن بغداد أحسن منظرا * ولهى رأته عين لاه وناظر .
بلى ، هكذا كانت فأذهب حسنها * وبدد منها الشمل حكم المقادر .
وحل بهم ماحل بالناس قبلهم * فأضحوا آحاديثا لباد وحاضر .

ثم يقف الشاعر وقفة تأمل واستعبار ويخاطب بغداد التى غدت أطلالا بعد أن كانت دار الملوك أهل المواكب الفخمة ودار القضاة والشعراء والأدباء ...

... الخ .

---

(١) انظر الفهرست : ١٦٤ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب : ٣/٤١٠ .

أبغداد يادار الملوك ، ومجتنى * صنوف المنى ، ياستقر المنابر .
وياجنة الدنيا ، ويامطلب الغنى * ومستنبط الأموال عند المتاجر .
أبينى لنا : أين الذين عهدتهم * يحلون فى روض من العيش زاهر .؟
وأين الملوك فى المواكب تغتدى * تشبه حسنا بالنجوم الزواهر .؟
وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لورد أمور مشكلات الأوامر ؟
أو القائلون الناطقون بحكمة * ورصف كلام من خطيب وشاعر .

وهكذا يمضى الشاعر يندب أهل بغداد من شتى الأصناف ويسائل عنهم ربوعهم ونواديهم مكررا كلمة " أين " الدالة على الدهشة والتساؤل الحزين ... ولكن لا مجيب الا الذكريات والعبر وفى نهاية القصيدة ـ بعد أن يذكر قصور الملوك وجواهرها ، وأرضها المرشوشة بالمسك وماء الورد ـ بعد هذا ينحى باللوم على الملوك الذين أهملوا أمر الدولة واكتفوا بمجدهم القديم الذى بناه آباؤهم فعاشوا فى سكرة الماضى ولم يفيقوا الا على طبول الحرب تزلزلهم :ـ

فما للملوك الغر من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمفاخر .
يرحون فى سلطانهم وكأنهم * يرحون فى سلطان بعض العشائر .
تخاذل عما نالهم كبراؤهم * فنالهم بالكره أيدى الأصاغر .
فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لذلّت لها خوفا رقاب الجبابر . (١)

الثورة على المتوكل وقتله :ـ

فى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين توفى الخليفة العباسى الواثق بالله ، (٢)
وبويع بعده لجعفر بن محمد بن هارون الملقب بالمتوكل على الله ، وهو

---

(١) القصيدة طويلة بلغت سبعة وثلاثين بيتا أوردت هنا بعضها .
(٢) الطبرى : ١٥٤/٩ .

عاشر خليفه عباسى فى مدة قرن من الزمان فقام بالأمر بحزم ورتب الدواوين وعزل وولى ، وشدد قبضته على القواد الأتراك الذين كانوا هم أولى الأمر فى أيامه وأيام من سبقه منذ عهد المعتصم تقريبا ، ووجههم الى الغزو فاستطاع بذلك أن يصون بلاده من غارات الروم المتكرره كما استطاع بدهائه أن يقمع الخارجين على سلطانه فى أنحاء المملكة الواسعة وأن يحافظ على غزوتى الصائفة والشاتية كما أحدث المتوكل أمرا جديدا بالنسبة للنصارى - أهل الذمه - فأمرهم بلبس الطيالسه العسلية والزنانير والقلانس التى تخالف قلانس المسلمين ، وأن يضع كل واحد منهم رقعه على صدره وأخرى على ظهره وأن يكون لونهما عسليا ، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسموره تفريقا بينها وبين منازل المسلمين ، وهدم بيعهم المحدثه وأخذ العشر على منازلهم ومنعهم من اظهار الصليب فى أعيادهم . ونهى عن الاستعانة بهم فى الدواوين وأعمال السلطان لكى لا تجرى أحكامهم على المسلمين ، ونهى أيضا عن أن يتعلم صبيانهم فى كتاتيب المسلمين وغير ذلك . (١)

ومن ناحية أخرى فقد كان المتوكل محبا للأدب والشعر والغناء كما كان وزيره الفتح ابن خاقان كذلك . فازدهرت الآداب والعلوم فى عصره ، وكان يجزل الهبات للشعراء ويقربهم من مجلسه ، فقد كان نديمه وشاعره الخاص أبا عبادة البحترى الشاعر العباس المشهور . ويروى عنه أنه كان يعفو عن بعض الثائرين عليه عندما يعلم أن عنده أدبا حسنا (٢) وكان المتوكل كلفا

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٧٠ ، انظر قصته مع ابن البعيث الثائر .

بالعمران والبناء ، فقد عقد العزم سنة خمس وأربعين ومائتين على أن يبنى له مدينة تخلد اسمه وتنسب اليه فاختار موضعا يقال له الماحوزه ، وبنى مدينة الجعفرية (١) ، وبنى بها قصورا فخمة أشهرها قصره الجعفرى الذى قتل به ، وانتقل اليها سنة سبع وأربعين ومائتين ونقل اليها الدواوين ، وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفى ألف دينار ، وجمع فيها القراء فقرأوا ، ثم حضر أصحاب الملاهى فوهب لهم أموالا كثيرة . وقد مكث بها قرابة تسعة أشهر وثلاثة أيام ثم قتل . أما سبب قتله فكان السبب نفسه الذى اشتعلت به الفتنة بين الأمين والمأمون وهو ولاية العهد . ففى سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة محمد وسماه المنتصر ، والزبير ولقبه المعتز وابراهيم ولقبه المؤيد ، وقسم البلاد بينهم ، ولم يأخذ العبرة ماصنع الرشيد من قبله وما آل اليه الأمر بل كتب بذلك كتابا وأشهد عليه وجعل ولاية عهد المسلمين لمحمد ثم للمعتز ومن بعده للمؤيد ، ولكن وزراء المتوكل كالفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى كانوا يميلون الى المعتز أكثر من المنتصر فمازالا بالمتوكل حتى أقنعاه بأن يصلى المعتز بالناس الجمعه وقد كان المتوكل قد عهد الى المنتصر بذلك حيث كان هو يشكو من وعكة وضيق صدر فوافق على ذلك وتم ماأراد الوزراء ، ثم أمر المتوكل أن يضرب اسم المعتز على السكه ، فكانت هذه ارهاصات لتقديم المعتز على المنتصر بولاية العهد الأمر الذى أوغر صدر المنتصر على أبيه فراح يدبر الأمر للتخلص منه ، وبالفعل اتفق مع القواد الأتراك أمثال باغر التركى وبغا الشرابى ، وغيرهم ، وثبوا عليه فى مجلسه ليلا فقتلوه وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان ، وبويع المنتصر فى اليوم التالى بالخلافة ، وخلع أخويه من ولاية العهد وانتقل الى سامراء وأمر بمدينة الجعفرية والقصر الجعفرى أن يهدما ، فخربت تلك القصور ونقض

---

(١) ابن رسته فى الأعلاق النفسية : ٧ / ٣٦٦ - ٣٦٧ .

بنيانها وهجرها الناس وفى هذا يقول البحترى : (١)

تغير حسن الجعفرى وأنسه * وقوض بادى الجعفرى وحاضره .
تحمل عنه ساكنوه فجاءة * فأضحت سواء دوره ومقابره .
ولم أر مثل القصر اذ ريع سربه * واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره .
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أستاره وستائره .
اذا نحن زرناه أجد لنا الأسى * وقد كان قبل اليوم يَبْهجُ زائره .
ووحشته حتى كأن لم يقم به * أنيس ولم تحسن لعين مناظره .
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة * بشاشتها والملك يشرق زاهره .
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها * وبهجتها والعيش غض مكاسره .
فأين الحجاب الصعب حين تمنعت * بهيبتها أبوابه ومقاصره .

ان البحترى عندما يقف باكيا على أثار القصر الجعفرى فانه يؤدى بذلك حقا ودينا عليه لولى نعمته الخليفة المتوكل ، ومن ثم فهو لا يقف على أثر دارس ، ولا يبكيه من بعيد ، بل هو يرثيه عن خبرة به ، فلطالما تردد على بلاطه ، ودبج المدائح فى فنائه ، ونال جوائزه وصلاته . فالشاعر كان يعزى نفسه أثناء رثائه للقصر الذى أصبح حطاما ورحل عنه من كان يعمره من أهله وخدمه وغلمانه وجواريه . . . . ، وما أسرع مادب اليه الخراب فلم يعش أكثر من سنة واحدة ، ثم هتكت أستاره وستائره ، فهو مظلم موحش بعد أن كان يتلألأ ببهجة الخلافة وبشاشتها . ثم يشتد الحزن بالشاعر عندما يذكر سيده الخليفة وكيف صرع فيقول :-

وأين عميد الناس فى كل نوبة * تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره .
تخفى له مغتاله تحت غرة * وأولى لمن يغتاله لو يجاهره .

---

(١) ديوانه : ٢/١٠٤٥ ومابعدها .

صريع تقاضاه السيوف حشاشة * يجود بها الموت حمر أظافره . (١)

وبعد هذه الصورة المؤلمة التى يرسمها الشاعر للخليفة المغتال غدرا والتى يحاول فيها اثارة أهل الدم للثأر من القتله المتآمرين ، يعود لنفسه فيذكر أن رأس هذه الشرذمة هو ابن الخليفة ووليه ، وهو القائم بالخلافة بعده ، فلابد اذن أن يذهب دم المتوكل هدرا .

فحق للشاعر أن يهلك عليه أسى ، وأن يبكيه عمره كله ، فيقول بانفعال غاضب :ـ

حرام علىّ الراح بعدك أو أرى * دما بدم يجرى على الأرض مائره . (٢)
وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر * يد الدهر والموتور بالدم واتره .
أكان ولى العهد أضمر غدره * فمن عجب أن ولى العهد غادره .
فلا ملى الباقى تراث الذى مضى * ولا حملت ذاك الدعاء منابره . (٣)
ولا أوال المشكوك فيه ، ولا نجا * من السيف ناضى السيف غدرا وشاهره . (٤)
لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر * هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره .

والملاحظ على الأبيات الأخيرة أن الشاعر يحمل حملة عنيفة وجريئة على ولى العهد فيدعو عليه بأن يلقى نفس المصير الذى صير أباه اليه ، وكأن الشاعر قد أذهلته المصائب عن التفكير فى العواقب ، وقد صاغ ذلك كله بأسلوبه العذب ، وديباجته الناصعة البعيدة عن الغموض والتكلف .

---

(١) تقاضاه : تطالبه . اللسان (قضى) ، الحشاشة : بقية الروح . اللسان (حشش) .

(٢) المائر : السائل / المصدر نفسه (مور) .

(٣) ملى : متع / المصدر السابق (ملا) .

(٤) وأل : نجا أو التجأ . المصدر السابق (وأل) .

وما دمنا بصدد الحديث عن شعر البحترى فى رثاء المدن والقصور التى خلت من أنيسها واندثرت بعد ازدهار واشتهار ، فلا بد أن نعرض لوقفته على ايوان كسرى ، ذلك الأثر الحضارى الذى بقى أمدا طويلا شاهدا على روعة البنيان ورفعة الحضارة .

ولعل الشاعر قال هذه القصيدة الرائعة بعد مقتل المتوكل وخراب قصوره يفرغ فيها أحزانه ، ويتأسى بالعظماء الذاهبين ، فذكره للايوان وما أصابه يخفف من حزنه على الجعفرى وذكره لكسرى ومصرعه يهون من ألمه لمصرع المتوكل . هذه الحالة النفسية ، ونظرة العظمة التى يراها فى المتوكل هى التى حطت البحترى على الوقوف على الايوان دون غيره من آثار الماضيين ويبدأ قصيدته السينية بوصف حالته المتغيرة التى أوصلته اليها الأيام الجاهدة فى محاربته والحاق التعاسة به ، ولكنه يتجلد ، وهو بهذا يرفع من شأن نفسه لأن الأيام لا تحارب الا من له خطر . يقول : (١)

صنت نفسى عما يدنس نفسى * وترفعت عن جدا كل جبس . (٢)
وتماسكت حين زعزعنى الدهـ * ـر التماسا منه لتعسى ونكسى .
وكأن الزمان أصبح محمو * لا هواه مع الأخس الأخس .
واشترائى العراق خطة غبن * بعد بيعى الشآم بيعة وكس . (٣)
لا ترزنى مزاولا لاختبارى * بعد هذى البلوى فتنكر مسى . (٤)
وقديما عهدتنى ذا هنات * آبيات على الدنيات شمس . (٥)

---

(١) ديوانه : ٢/١١٥٢ - ١١٦٢ .
(٢) الجبس : الجبان اللئيم / اللسان (جبس) .
(٣) الوكس : النقصان والخساره / المصدر نفسه (وكس) .
(٤) ترزنى : تجربنى / المصدر السابق (روز) .
(٥) هنات : خصال ، شمس : عنيدة لا تزل / انظر الآمدى ، الموازنه : ٢/٢٣٤ .

ان الشاعر يحس انقلابا فى حياته ، فالدهر يلعب به ، والأحباب والأقارب يقلبون له ظهر المجن ، ويعاملونه بجفاء ، ونفسه لا تقبل الاقامة على الذل ، فلابد له اذن من الرحيل الى حيث الايوان الداثر ليسلوا عما به . وهو هنا من الناحية الفنية يسير حسب تسلسل قصيدة المدح المعروف بعمود الشعر العربى ، فبعد شرح حالته جاءت الرحله يقول :

وإذا ماجفيت كنت جديـــرا * أن أرى غير مصبح حيث أمسى .
حضرت رحلى الهموم فوجهـــ * ـت الى "أبيض المدائن" عنسى . (١)
أتسلى عن الحظوظ وآســى * لمحل من آل ساسان "درس" .
ذكرتنيهم الخطوب التوالــى * ولقد تذكر الخطوب وتنسى .

وعندما يقف الشاعر على محل آل ساسان يرجع بذاكرته الى العهود الخوالى يصف حالهم أيام العز والمجد ، فيقول :

وهم خافضون فى ظل عــال * مشرف يحسر العيون ويخسى .
مغلق بابه على جبل القبـــ * ـق الى دارتى "خلاط" و"مكس" (٢)
حلل لم تكن كأطلال سعدى * فى قفار من البسابس ملـس .
ومساع لولا المحاباة منــى * لم تطقها مسعاة عنس وعبس . (٣)

---

(١) أبيض المدائن : قصر الأكاسره ، كان من عجائب الدنيا لم يزل قائما الى أيام الخليفة المكتفى بالله فى حدود سنة ٢٩٠ هـ فانه نقض وبنى بشرفاته التاج الذى بدار الخلافة / معجم البلدان (المدائن) .

(٢) جبل القبق : جبل ضخم يمثل آخر حدود أرمينيه ، يقال أن طوله خمسمائه ميل / معجم البلدان / (القبق) .
خلاط : هى قصبة أرمينية الوسطى ، تشتهر ببحيرتها ، وكثرة فواكهها المصدر نفسه : (خلاط) .
مكس : موضع بأرمينية من ناحية البسفور / المصدر السابق (مكس) ، ـ وانظر : المعرى ، عبث الوليد : ١٢٢ .

(٣) عنس : قبيلة يمنية قحطانية / انظر عمر كحالة ، معجم قبائل العرب : ٨٤٧ ، ٧٣٨/٢ .
عبس : قبيلة عدنانية نجدية ، ومراده من البيت العرب كافة .

نقل الدهر عهدهن عن الجد * دة حتى رجعن أنضاء لبس .

لقد كان القوم فى رغد من العيش وسعة من الرفاهية فى ظل ملكهم الشامخ بجباله وسهوله وأنهاره وشتان بينهم ـ فى ذلك ـ وبين العرب أهل الصحراء والتقشف والعيش الصعب ، كما أن أعمال الفرس ومساعيهم الجليلة لا تقوم بازائها أعمال العرب البسيطة ، ولكنها المحاباة من جانب الشاعر العربى تجعله يقارن هذه بتلك . ثم ينتقل الى حالة الايوان الراهنة المحزنة فيصفها بقوله :

فكأن الجرماز من عدم الأنـ * س واخلاله بنية رمس . (١)

لو تراه علمت أن الليالى * جعلت فيه مأتما بعد عرس .

وهو ينبيك عن عجائب قوم * لا يشاب البيان فيهم بلبس .

واذا مارأيت صورة "أنطا * كية" ارتعت بين روم وفرس .

والمنايا مواثل وأنوشر(٢) * وان يزجى الصفوف تحت الدرفس .

فى اخضرار من اللباس على أصـ * فر يختال فى صبيغة ورس .

وعراك الرجال بين يديه * فى خفوت منهم واغماض جرس .

من مشيح يهوى بعامل رمح * ومليح من السنان بترس .

تصف العين أنهم جد أحيا * ء لهم بينهم اشارة خرس .

يغتلى فيهم ارتيابى حتى * تتقراهم يداى بلمس .

---

(١) الجرماز : الايوان (معربة عن كرمازى الفارسية) . حاشية ديوان البحترى : ٢/ ١١٥٥.

(٢) أنوشروان : هو كسرى ملك الفرس .

(٣) الدرفس : العلم الكبير . (معرب عن (درفش) الفارسيه . المصدر السابق : ١١٥٦ .

يصف الشاعر فى هذه الأبيات الايوان وصفا حسيا نابضا بالحركة ، يضع البحترى على رأس شعر الوصف ، فهو عند ما يصف الجرماز من ناحية هيكله الخارجى يضفى عليه شيئا من الكآبة والوحشة ، وكأنه مقبرة أو مأتم ، ولكنه اذا تأملته عن قرب ينبيك عن تاريخ أمة مجيدة كانت سمع العالم وبصره ثم نرى الشاعر يفتن فى تصوير المشاهد التى يجدها فى جنبات الايوان وكأنه رسام ماهر الريشه ، فهذا منظر مهيب مرعب للحرب بين الفرس والروم فى أنطاكية (١) حيث كسرى أنو شروان يقف بكبرياء تحت اللواء الضخم ينظم صفوف جنده المرججين بالسيوف والرماح والتروس ، ومن خلال الوصف يجعلك تشاهد حركة الجند السريعة ، وتسمع أصواتهم وهمساتهم فلا تكاد تلتقط أنفاسك لشدة متابعتك للحركات المتوالية بسرعة . ويبلغ القمة فى الدقة حينما يبين أن حقيقة هذا المشهد قد عميت عليه بين الحقيقة والظل . حتى يكشف عن ذلك باللمس .

وبعد هذا تفتم نفس الشاعر لذهاب هؤلاء القوم ، فيهرب الى كأس خمر يبدو فيها الأسى :

قد سقانى ولم يصرد أبو الغو * ث على العسكرين شربة خلس . (٢)

---

(١) كانت تسمى أنطوخيا نسبة الى أنطخين اليونانى الذى بناها ، وهى مدينة حسنة الموضع ، كان يقال أنه ليس فى أرض الاسلام ولا أرض الروم مثلها ، وتمثل الآن مايسمى بلواء الأسكندرونه ، انظر صبح الأعشى : ٤/ ١٢٩ . نزهة المشتاق : ١٦٥ ، محمد الغزالى ، هموم داعيه : ٩٧ .

(٢) أبو الغوث : هو يحيى بن البحترى / معجم الأدباء : ٢٠ / ٢٥٦ ، يصرّد : يقلل .

أفرغت فى الزجاج من كل قلـب * فهى محبوبة الى كل نفســو ٠
وتوهمت أن "كسرى أبـرويـــ * زمعاطى ،و" البلهبذ " أنسى ٠ (١)
حلم مطبق على الشك عيـــنى * أم أمان غيرّن ظـــنى وحرسى ٠

وبعد هذا الشرود الخيالى الذى جعل كسرى ينادم الشاعر ،والبلهبـــذ يشجيه بألحانه وأغانيه ، يفيق من سكرته ليجد أنه كان يغرق فى بحر مـــن الأحلام والأمانى فتعاوده الهموم والأحزان فيصبها أوصافا معنويـــة لشـــئ محسوس ، فيجعل الايوان كئيبا مزعجا لفراق الأهل والأحباب ٠ وهذا اللـــون من الوصف يبعث الحياة فى الجمادات ويعطيها روحا تحس ، وتكــــــــون صلة عطـف واشفاق ـ مع الشاعر الذى يرثيها ٠ يقول :ـ

وكأن " الايوان " من عجب الصنعـ * ـة جوب فى جنب أرعن جلبـــس ٠ (٢)
يتظنى من الكآبة اذ يبـــــــ * ـدو لعينى مصبح أو ممســــــى ٠
مزعجـــا بالفراق عن أنس الـــــف * عزّ ، أو مرهقـا بتطليق عـــرس ٠
عكست حظـه الليالى ، وبات الـــ * مشترى فيه وهو كوكب نحـــس ٠ (٣)

اننا هنا نشعر بفعالية اللغة من خلال الألفاظ التى يستخدمهـــــــا الشاعر ، فالجو الذى رسمته كلمات : الكآبة ، ومصبح وممسى ٠ مزعجا بالفراق ٠٠٠٠٠ مرهقا بتطليق عرس ٠ يوحى بالبؤس ويرسم على صفحة الايـــــوان خطوطا من الحزن والتشائم الدائمين ، فهو منكمش على المدى ، قد ولـــت

---

(١) البلهبذ : هو مغنى كسرى أبرويز ونديمه / انظر معجم البلدان (قصر شيرين) ٠

(٢) الجوب : الخرق أو النحت فى الجبل ، الأرعن : الجبل ، الجلـــس : العالى / انظر الثعالبى ثمار القلوب : ١٤٣ ٠

(٣) المشترى : كوكب من المجموعة الشمسية وهو كوكب سعد عند العرب ٠

زهرة شبابه ، وباتت سعوده نحوسا ، ولم يعد ينفعه التجلد ما دام الدهر قد أناخ بكلكله عليه :

فهو يبدى تجلدا وعليه * كلكل من كلاكل الدهر موسى .

ان الشاعر ـ فيما يبدو ـ فى حالة اضطراب نفسى ، مصحوبة باعجاب لا يجعله يفارق هذا الأثر الحضارى الرائع ، فنراه بعد أن وصف مأتم الايوان يعود مرة آخرى ليذكر أيام هذا الايوان الزاهره ، وماكان يجده كسرى من التعظيم فى رحابه :ـ

ليس يدرى أصنع انس لجن * سكنوه أم صنع جن لانس .
غير أنى أراه يشهد أن لم * يك بانية فى الملوك بنكس .
فكأنى أرى المراتب والقو * م اذا مابلغت آخر حسى .
وكأن الوفود ضاحين حسرى * من وقيوف خلف الزحام وخنس .
وكأن القيان وسط المقاصير * ر يرجعن بين حو ولعس .

ثم بعد ذلك يعود للوقوف عليه فى حالة اندثاره مبينا سبب وقوفه وبكائه :ـ

عمرت للسرور دهرا فصارت * للتعزى رباعهم والتأسى .
فلها أن أعينها بدموع * موقفات على الصبابة حبس .
ذاك عندى وليست الدار دارى * باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى .
غير نعمى لأهلها عند أهلى * غرسوا من زكائها خير غرس .
أيدوا ملكنا وشدوا قواه * بكماة تحت السنور حمس . (١)
وأرانى من بعد أكلف بالأشـ * ـراف طرا من كل سنخ وأس . (٢)

---

(١) السنور : السلاح الحديدى ، أو الدرع . وهو معرب / انظر الجواليقى المعرب : ٢٠٠ .

(٢) السنخ والأس : الأصل / الصحاح (سنخ) ، (أسس) .

ان الشاعر يقف على ايوان كسرى ، ويبكيه بدموع غزار بالرغم من أنه ليس بداره ، كما أن ساكنيه وملوكه الذين فنوا ليسوا بأهل الشاعر ولا من بني قومه ولكن عاطفة الشاعر الانسانية هي التي تدفعه الى أن يوفي أولئك القوم - الفرس - مالهم من حقوق على دولة بني العباس ، فعلى أكتافهم قامت منذ البداية ، ثم اشتد عودها بفضل القاده والجيوش الضخمه التي قدمت من خراسان وغيرها واستطاعت أن تقمع كل مقاومة حتى ثبت الملك على أساس قوي ، وبما أن الشاعر يعتبر نفسه من بيت الخلافة ولاء وهو لا يقدر على تقديم شيء يذكر لأهل الايوان لفنائهم فلا أقل اذن من أن يقف على آثارهم .

وسبب آخر لوقوف الشاعر على هذا الايوان هو ولعه بالأشراف والساده الكرام عامه ، بغض النظر عن جنسهم ولونهم ، وكأنه يريد - من وراء ذلك - أن يبين لنا منزلته ، وأي رجل هو .

أما القصيدة فهي في الذروة من الشعر العربي ، صاغها الشاعر بأسلوبه السلس السهل وان كان أحيانا يعمد الى الفخامة حينما يتطلب الموقف ذلك ولكن في غير توعر ولا تقعر ، فألفاظه حلوة الجرس لا تكاد تحس فيها غلظه وقد وشى البحتري قصيدته بألوان من المحسنات ، وبخاصة الطباق والمقابلة التي وقعت في مواضعها أحسن موقع لأنها جاءت من غير تعمل ، كقوله " ولقد تذكر الخطوب وتنسى " ، وقوله : " وهم خافضون في ظل عال ....." . كما أنه وفق لروي مناسب للقصيدة " السين المخفوضة " اذ أنه حرف هامس يناسب موقف الرثاء والحزن ، وأدت الكسرة - أيضا - دورها في زيادة التأثير .

يقول ابن المعتز عن البحتري : " لو لم يكن له الا قصيدته في ايوان كسرى فليس للعرب سينيه مثلها - وقصيدته في بركة المتوكل لكان أشعر الناس " (١) .

---

(١) طبقات الشعراء : ٢٨٦ .

ومن سبق البحتري بزمن طويل في الوقوف على بقايا ايوان كسرى الشاعر آدم (١) ابن عبد العزيز ، ومقطوعته التى وصلت الينا قليلة الأبيات ولكنها ذات معان كبيرة .

يقول : (٢)

أقول وراعني ايوان كسرى * برأس معان أو أدرو سفان .
وأبصرت البغال مربطات * به من بعد أزمنة حسان .
يعز على أبى ساسان كسرى * بموقفكن فى هذا المكان .
شربت على تذكر عيش كسرى * شرابا لونه كالزعفران .
ورحت كأننى كسرى اذا ما * علاه التاج يوم المهرجان .

ان الشاعر ـ كما يبدو لى ـ يتخذ من الوقوف على ايوان كسرى تعلة للبكاء على ملك قومه الأمويين الذى أحيط به ، وأصبح عبرا وأحاديث ، ونظرا للوضع الذى كان يعيش فيه الشاعر عبّر بالتلميح بدل التصريح . ويتألم آدم بن عبد العزيز لما حل بهذا الايوان الضخم من نوائب الدهر ، حتى أصبح مربطا للبغال ، من بعد أن كان مقرا للحسان ، ومرتعا للظباء .

---

(١) هو آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان . كان بالشام حين ذهب ملك قومه الأمويين ، وأراد العباسيون قتله مع من قتلوا بنهر أبى فطرس ، ولكنه استعطفهم فتركوه . وقيل لقرابته من عمر بن عبد العزيز ، ثم عاش بعد ذلك فى العراق ، فهو من مخضرمى الدولتين . وقد كان ماجنا خليعا فى أول حياته ثم نسك بعد ماعمر ومات على طريقة محموده سنة ١٦٠ هـ / انظر الأغانى : ١٥/ ٢٨٧ ، الشكعه ، رحلة الشعر : ٤٩٥ .

(٢) الأغانى : ١٥/ ٢٨٤ .

وهذا الوضع المؤسف مايحزن ويؤلم كسرى ـ صاحب الايوان ـ الذى يتقمص الشاعر شخصيته وينطق بلسانه معبرا عن شعوره ، وعندما يأخذ الشاعر الأسف والحسرة على ذهاب هذا الأثر العظيم يلجأ الى تناسى ذلك بكأس خمر يعب منها ، فتجعله كسرى جديدا يتألق تاجه فى مواسم الفرح .

ولعلنا هنا نلاحظ الشبه فى هذه الصورة المتخيلة ـ لفعل الخمره ـ عند كل من آدم والبحترى فالبحترى جعل كسرى ينادمه ، والبلهذ يغنيه أما آدم فتصور نفسه كسرى بذاته . فهل يعنى هذا أن آدم قد أوحى الى البحترى بهذه الصوره ـ لكونه أسبق منه اليها ؟ ربما كان الأمر كذلك . ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام ، القول بأن هذه الصوره لفعل الخمر بشاربها ونقله مماهو فيه من هموم وحضيض الى السعادة والقمة موجودة منذ القديم فى شعر الشعراء . يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه ـ : ـ (١)

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأسدا ماينهنهنا اللقاء .

ويقول المنخل : (٢)

فاذا سكرت فاننى * رب الخورنق والسدير .

واذا صحوت فاننى * رب الشويهة والبعير .

---

(١) ديوان حسان : ١/١٧ .

(٢) هو المنخل بن عبيد بن عامر اليشكرى . شاعر جاهلى قديم / ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ١/٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

رثاء البصرة حين تدميرها على يد الزنج :-

من الثورات الخطيرة والعنيفة التي وقعت في العصر العباسي الثاني ، وكادت تودي بالخلافة العباسية -لولا لطف الله- الثورة المسماة بثورة الزنج ، لأن معظم جيشها كان من الغلمان والزنوج والعبيد . ولقد شغلت هذه الثورة الدولة العباسية مايزيد على أربع عشرة سنة ، فقد كانت البداية الأولى لها في سنة خمس وخمسين ومائتين حينما ظهر رجل في فرات البصرة يدعي أنه علوي ، وأن اسمه علي بن محمد بن أحمد بن زيد (١) .... الى أن يصل الى علي بن أبي طالب . ثم لم يلبث أن رحل الى البحرين (٢) ، ودعا الناس فيها الى اتباعه وبيعته -بوصفه أحق بالخلافة من بني العباس- فتبعه خلق كثير من أهلها ولقي فيها من التعظيم والاجلال مايفوق الوصف ، حيث أحلوه من أنفسهم محل النبي فجبي له الخراج ، ونفذت أحكامه فيهم ولكنه لقي معارضة من قوم آخرين من سكان تلك النواحي ، فاشتعلت الحرب بين المؤيدين والمعارضين ، مما اضطره الى التحول عنهم الى البادية فاجتمع له بها جماعة كثيرة ، وزحف بهم الى موضع بالبحرين يقال له (الردم) فكانت بينه وبين أهلها وقعة كبيرة دارت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه

---

(١) ذكر أن اسمه الحقيقي هو علي بن عبد الرحيم من بني عبد القيس . من قرية من قرى الري يقال لها ورزنين . انظر : الطبري : ٩/٤١٠ ، ابن خلدون ، تاريخ العبر : ١٨/٤ .

(٢) البحرين : اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان وعدها قوم من اليمن ، وفيها عيون كثيرة في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء ، ولذلك سميت بالبحرين / معجم البلدان : (بحرين) .

فنفروا منه ، وكرهوا صحبته ، فحار فى أمره وأخذ يفكر بمنطقة أخرى يذهب اليها . يقول : (١)

" فأظلتنى سحابة فبرقت ورعدت ، واتصل صوت الرعد منها بسمعى ، فخوطبت فيه ، فقيل : أقصد البصرة ، فقلت لأصحابى وهم يكنفوننى ،انى أمرت بصوت هذا الرعد بالمصير الى البصرة " . فمضى اليها ودعا بها لنفسه ولكنه لم يجب ، وعلم بخبره واليها محمد بن رجاء الحضارى ، فوجه اليه حملة عسكرية ، ولكنه هرب منها حتى دخل ببغداد وكان يرافقه من أصحابه الذين اتبعوه فى البحرين يحيى البحرانى وسليمان بن جامع اللذان أصبحا فيما بعد من قادة جيوشه المفضلين ، ومكث فى بغداد قرابة العام ، حتى سمع بعزل ابن رجاء الحضارى عن البصرة ، ووقوع الفتن الطاحنة بين أهلها توجه اليها ونزل قصرا يعرف بقصر القرشى ، على نهر يعرف بعمود ابن المنجم ، وادعى أنه وكيل لولد الخليفة الواثق فى بيع السباخ (٢) ، وبدأ دعوته من هناك وسط الزنوج الذين كانوا يعملون بتلك السباخ حتى اجتمع اليه منهم جيش جرار . فنظمهم ورتب أمورهم وجعل عليهم قوادا منهم . ثم قام فيهم خطيبا فمناهم وبذل لهم الوعود بأنه سيقودهم الى امتلاك الأموال والضياع ، وحلف لهم بأغلظ الأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئا من الاحسان الا صنعه لهم ثم انه لدهائه وخبثه أمر الزنوج أن يأتوا بمواليهم فأتوا بهم مكتوفين ، ووبخهم قائلا : " قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وجعلتم عليهم مالا يطيقون ، فكلمنى أصحابى فيكم ، فرأيت اطلاقكم " ثم أمر قوما من غلمانه

---

(١) الطبرى : ٩ / ٤١١ ، وقد فصل أخبار الزنج وثورتهم فى هذا الجزء تفصيلا دقيقا .

(٢) واحدها سبخه : وهى الأرض المالحة التى لا تصلح للزراعة الا بعد كشطها الصحاح : (سبخ) .

أن يجلدوا مواليهم بالجريد خمسمائة جلدة ثم أطلقهم . وهذا العمل ثبت في نفوس الزنج أن حركتهم هذه ماهي الا ثورة العبيد ضد السادة الظالمين وان غلفت بغلاف ديني . عندئذ أخذ الزنج يغيرون على دور السلاح وينتهبونها ، كما انتهبوا بعض المراكب البحرية والزوارق ومالى ذلك حتى أصبحوا على استعداد تام لأى هجوم على أقوى الجيوش وأكبرها ، عندئذ حاصر البصرة وضيق عليها ، وحارب أهلها ، ولكنه لم يدخلها فى العام المذكور (٢٥٥) . وكأنه بذلك يريد اختيار القوة الموجودة فيها ، فلما رأى ضعفها صمم على اقتحامها . ففى سنة سبع وخمسين ومائتين ، وجه صاحب الزنج الى الأعراب الذين حول البصرة وأغراهم بالمال ، فأتاه منهم أفواج كثيرة ، فأمرهم بمهاجمة البصره ، ففعلوا . ثم هجم هو بقواته وغلمانه على المدينة من جهاتها المختلفة ، وكان ذلك والناس فى صلاة الجمعة ، فأخذ يقتل ويدمر ويحرق يومى الجمعة والسبت ، فأصاب الناس بلاء وجهد شديد ان يقول المسعودى : (١) "واختفى الناس ذعرا فى الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها وكذلك الفئران والسنانير ..... وكانوا اذا مات فيهم الواحد أكلوه ، كما عدموا مع ذلك الماء العذب ..." ولما هلك الناس وتشردوا خرج الى صاحب الزنج بعض القوم يطلبونه الأمان ، فأمنهم على أن يجتمع كل من يريد الأمان فى المسجد الجامع بالبصره (٢) ففعلوا، فما كان منه الا أن وضع فيهم السيف حتى أبادهم جميعا وأحرق المسجد الجامع ونهب أصحابه كل مايقدرون عليه من مال ومتاع ، وقيل ان عدد القتلى من أهل البصرة بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل . ولقد هال

---

(١) مروج الذهب : ٤/١١٩ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٩/ ٤٨١ - ٤٨٣ .

القتل والخراب الذى لحق بالبصرة صاحب الزنج نفسه ، حتى نسب ذلك الى فعل الملائكة التى كانت تؤيده -كمايزعم - فيروى عنه أنه قال (١) : " دعوت على أهل البصرة فى غداة اليوم الذى دخلها أصحابى ، واجتهدت فى الدعاء ، وسجدت وجعلت أدعو فى سجودى ، فرفعت الى البصرة فرأيتها ورأيت أصحابى يقاتلون فيها ، ورأيت بين السماء والأرض رجلا واقفا فى الهواء ، وقد خفض يده اليسرى ، ورفع يده اليمنى ، يريد قلب البصرة بأهلها فعلمت أن الملائكة تولت اخرابها دون أصحابى ، ولو كان أصحابى تولوا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم . وان الملائكة لتنصرنى وتؤيدنى فى حروبى ، وتثبت من ضعف قلبه من أصحابى . "

ويورد الطبرى عددا كبيرا من المعجزات والخوارق التى كان صاحب الزنج يذكرها لأصحابه ليطمئنهم بأنه ولى أو نبى مؤيد ، وبخاصة عندما ينوى خوض معركة كبيرة ، أو يكون قد انتهى من قتال يخشى بعده تزعزع ثقة قومه به ، فكان يشن على أسماع قومه غارة من الخرافات والبشارات الكاذبة وهم لجهلهم يصدقون ، قال فيه وفيهم المعتز ، وهى من أرجوزته الطويلة :- (٢)

مازال حينا يخدع السودانا * ويدعى الباطل والبهتانا .
وقال : سوف أفتح السوادا * وأملك العباد والبلادا .
وقال : انى أعلم الغيوبا * لم ير منهم عالما مجيبا .
صاحب قوما كالحمير جهلة * وكل شئ : يدعه فهو له .

على أن أهم مارثيت به البصرة من الشعر قصيدة ابن الروى الميمية الباكية التى تشعر عند قراءتها أن قائلها قد مسته النكبة وهزته المصيبة

---

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٤٨٧/٩ .
(٢) ديوان ابن المعتز : ٤٨٤ .

يقـول :- (١)

ذاد عن مقلتى لذيذ المنـام * شغلها عنه بالدموع السجـام .

أى نوم من بعد ماحل بالبصـ * ـرة ماحل من هنات عظـام .

أى نوم من بعد ماانتهك الزنـ * ـج جهارا محارم الاسـلام .

ان هذا من الأمور لأمـر * كاد أن لا يقوم فى الأوهـام .

لرأينا مستيقظين أمـورا * حسبنا أن تكون رؤيا منـام .

أقدم الخائن اللعين عليهـا * وعلى اللـه أيما اقـدام .

وتسمى بغير حق امامـا * لا هدى الله سعيه من امام .

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف وقع الحادث الأليم على نفسه ، فقد لهج بالبكاء واشتغل به عن النوم والراحة ، وهل هناك مجال للنوم من بعد أن دمرت البصرة ، وأحرقت ، وانتهكت فيها محارم الاسلام على يد أولئك الأوباش ، ثم يتعجب ابن الرومى من شدة الحدث ، وكأنه لا يصدق ، أولا يريد أن يصدق مايسمع من الأنباء التى لم يكن يتوقع وقوعها حتى فى الأوهام والأحلام . ولكن ذلك حدث حقيقة ، بفعل ذلك اللعين ـ صاحب الزنج ـ الذى لا يرعى الا ولا ذمة ، ولا تأخذه بالضعفاء شفقة ولا رحمة ، وهو مع ذلك يدعى أنه امام وأنه علوى ، وهل هذا فعل امام مسلم يريد الخير للأمة ؟ أما ماورد فى أرجوزة ابن المعتز السالفة الذكر من نسبة ذلك الدعى الى العلويه ، حين قال :

والعلـوى قائـد الفسـاق * وبائع الأحرار فى الأسـواق . (٢)

فلعله أراد من ذلك الاساءة الى آل على بن أبى طالب بنسبه هذا الفاجر

---

(١) ديوان ابن الرومى : ٤١٩ ، ٤٢٧ .

(٢) الموسوى الأصفهانى ، روضات الجنات : ١٠٣/٥ .

اليهم ، وجعله مثالا للثائرين منهم ، المطالبين بحقهم فى الخلافة المغصوبة مع علمه الأكيد أن آل على ، منه براء وأنه مدّع كاذب ، فيروى عنه أنه لما نزل (١) قريبا من الكرخ أتاه أهلها فسلموا عليه وأمدوه بما يحتاج ، وجاءه فيمن جاء رجل يهودى يقال له ماندويه فقبل يده ، وسجد له ـ زعم شكرا لرؤيته اياه ـ ثم سأله عن مسائل كثيرة فأجابه عنها ، فزعم أنه يجد صفته فى التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله علامات فى بدنه ذكر أنه عرفها فيه ، فأقام معه ليلته تلك يحادثه .

ثم يأخذ ابن الرومى فى التلهف والحسرة على هذه المدينة التى تعتبر من عواصم الاسلام فيقول :

لهف نفسى عليك أيتها البصـ * ـرة لهفا كمثل لهب الضرام .
لهف نفسى عليك يامعدن الـ * ـخيرات ، لهفا يعضنى ابهامى .
لهف نفسى عليك ياقبة الاسـ * ـلام ، لهفا يطول منه غرامى .
لهف نفسى عليك يافرضة البلـ * ـدان ، لهفا يبقى على الأعوام .
لهف نفسى لجمعك المتفانى * لهف نفسى لعزك المستضام .

ان هذا التكرار فى عبارات التلهف ، يدل على الألم الممض الذى ألم بالشاعر ، فمضى يحدث نفسه التى أخذها الذهول بمنزلة البصرة ، وماحل بها من النكبات العظام ، وكأنه بذلك يمنعها من الراحة أو السلوان .

وبعد هذه الزفرات الحارة التى يطلقها الشاعر الحزين ، يأخذ فى تفصيل الحادث ومجرياته ومآسيه ، ولعل هذا راجع لتأثير الفلسفة والمنطق الذى ألم ابن الرومى بطرف منه ، فأثر فى أسلوبه بعض الشئ ، فهو أجمل فى بداية القصيدة عند حديثه عما حل بالبصرة من المهنات العظام ، والآن يريد

---

(١) تاريخ الطبرى : ٩/٤٢٠ . الفرضه : العظيمة ، وفرضة البحر : محط السفن . اللسان (فرض) .

أن يفصل بعد الاجمال فيقول :-

بينما أهلها بأحسن حال * اذ رماهم عبيدهم باصطلام . (١)

دخلوها كأنهم قطع الليـ * ـل اذا راح مدلهم الظلام .

أى هول رأوا بهم ، أى هول * حق منه يشيب رأس الغلام .

اذ رموهم بنارهم من يمين * وشمال وخلفهم وأمام .

كم أغصوا من شارب بشراب * كم أغصوا من طاعم بطعام .

كم ضنين بنفسه رام منجا * فتلقوا جبينه بالحسام .

كم أخ قد رأى أخاه صريعا * ترب الخد بين صرعى كرام .

كم أب قد رأى عزيز بنيه * وهو يعلى بصارم صمصام .

كم مفدى فى أهله أسلموه * حين لم يحمه هنالك حامى .

كم رضيع - هنالك - قد فطموه * بشبا السيف قبل حين الفطام .

كم فتاة - بخاتم الله بكر - * فضحوها جهرا بغير اكتتام .

كم فتاة مصونة قد سبوها * بارزا وجهها بغير لثام .

صبحوهم فكابد القوم منهم * طول يوم كأنه ألف عام .

من رآهن فى المساق سبايا * داميات الوجوه للأقدام .

من رآهن فى المقاسم وسط الزنـ * ـج يقسمن بينهم بالسهام .

من رآهن يتخذن اماء * بعد ملك الاماء والخدام .

ان الشاعر فى هذه الأبيات يعدد - بمراره - صنوف العذاب التى أذاقها أولئك الزنوج لأهل البصرة ، الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الهجوم من عبيدهم وخولهم ، فقد أحاط بهم أولئك الأوغاد من جميع الجهات ، - وأعطوا فيهم السيف والقنا ، حتى أذهلوا الأخ عن أخيه ، والأب عن بنيه

---

(١) أصطلم الشئ : قطعه من أصله . لسان العرب : (صلم) .

فكل يريد النجاة بنفسه ، ولكن أين هو من ذلك ؟ ان القوم له بالمرصاد . كمافعلوا الأفاعيل الشنيعة بالنساء والفتيات الحرائر المصونات ، فأخذوهن سبايا حاسرات ، وانتهكوا منهن ماحرم الله جهرا بغير اكتتام ، وأقاموا سوقا لبيعهن يقول المسعودي : "كان ينادى فى عسكر الزنج على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس ابن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ، ومن سائر أبناء الناس ، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان ، ولكل زنجى منهن العشرة والعشرون والثلاثون ......" (١) كما كانت النساء يقسمن بينهم بالاستهام فيتخذون اماء وخدما لا يجدن من ذلك فكاكا ، فيروى أن امرأة هاشمية من ولد الحسن بن على أبى طالب كانت عند بعض الزنج ، الغلاظ واستغاثت بالخبيث صاحب الزنج أن ينقلها الى غيره أو يعتقها مما هى فيه ، فقال لها : "هو مولاك وأولى بك من غيره" . (٢)

ان هذه الصورة البائسة التى وصل اليها حال أهل البصرة لتضرم القلب نارا ، لما لاقاه أولئك الناس من الذلة والمهانة التى تعدى أثرها الى من سمع بها ومنهم شاعرنا ابن الرومى :-

ماتذكرت ماأتى الزنج الا * أضرم القلب أيما اضرام .
ماتذكرت ماأتى الزنج الا * أوجعتنى مرارة الارغام .
رب بيع هناك قد أرخصوه * طال ماقد غلا على السوام .
رب بيت هناك قد أخربوه * كان مأوى الضعاف والأيتام .
رب قصر هناك قد دخلوه * كان من قبل ذاك صعب المرام .

---

(١) مروج الذهب : ٤/١٢٠ .
(٢) المصدر نفسه : ١٢١ .

رب ذى نعمة هناك ومـــال * تركوه محالف الاعـــدام .
رب قوم باتـــوا بأجمع شمـــل * تركـــوا شملهم بغير نظـــام .

ان ابن الرومى شاعر أحتل الحزن من قلبه ومن شعره مكان لا يستهان بـه وذلك بعد أن اخترم الموت أولاده الثلاثة وزوجته ، فهو بذلك يجيد التفـنن فى البكاء والتفجـع ، وتراه اذا مارثى بكى بصدق وحرارة عاطفة ، وأتى بصور حقيقية للمرثى بعيدة عن التهويل والاغراق فى الخيال ، ففى هذه القصيـدة نجده يرثى البصرة وكأنه موجود بها ، وشاهد لما حدث لها من خـــراب ، وحزن عليها حزنا يشعر بصدقـه من يقرأ قصيدته ، مع أنه كان فى بغـــداد لا يفارقها الا قليلا .

ثم يعرض علينا الشاعر صورة للبصرة وقد هدمت دورها وقصورها ،وأسواقها واستحالت الى انقاض ، وتلال من الرماد من فعل الحريق يقول :-

عرجا صاحبى بالبصرة الزهـــــ * راء تعريج مدنف ذى سقـام .
فاسألا هـا ـ ولا جواب لديهـــا * لسؤال ـ ومن لها بالكـــلام . ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيهـــا * أين أسواقهـــا ذوات الزحـــام . ؟
أين فلك فيها ، وفلك اليهـــا * منشآت فى البحـر كالأعـــلام . ؟
أين تلك القصور والدور فيهـــا * أين ذاك البنيان ذو الاحكـــام . ؟
بدلت تلكم القصـــور تـــلالا * من رماد ومن تـــراب ركـــام .
سلط البثق والحريق عليهـــا * فتداعت أركانهـــا بانهـــدام . (١)
وخلت من حلولها ، فهى قفـــر * لا ترى العين بين تلك الآكـــام .
غير أيد وأرجل بائنــــات * نبذت بينهن أفـــلاق هـــام .
ووجـــوه قد رملتهـــا دمـــاء * بأبى تلكم الوجوه الدوامـــى .

---

(١) البثق ، بثق السيل موضع كذا : خرقة وشقه / الصحاح (بثق) .

وطئت بالهوان والذل قسرا * بعد طول التبجيل والاعظام .
فتراها ، تسفى الرياح عليها * جاريات بهبوة وقتام .
خاشعات ، كأنها باكيات * باديات الثغور ، لا لابتسام .

ان ابن الرومى فى هذا المشهد يجعل البصرة أطلالا ورسوما وذلك بعد أن سيطر عليها شحوب الموت وسكونه فسكتت ضوضاؤها ، وخلت أسواقها التجارية الشهيرة من الحركة ، ولم يعد يرى فيها الا الأشلاء المتناثره بين الركام ، هنا وهناك تسفى الرياح عليها لتغطى تلك الوجوه الحسان التى أذلت بعد طول عز ومجد . وما دامت المدينة أصبحت كذلك ، فانا نراه يسلك لذلك سبيل الوقوف على الأطلال المعروف فى الشعر العربى منذ أقدم عصوره ، فيطلب من صاحبيه أن يعوجا أو يعرجا على البصرة ، تعريج ذى العلة المدنف الذى قصمت ظهره الأرزاء والحوادث ، وقد أعطى وصفه للبصرة بالزهراء ، مع وصفه للمعرج بالسقم معنى جميلا ، يدل على شدة وجده وشوقه لتلك البلدة التى عهدها زاهرة فأضحت بائده . ثم يردف الوقوف بالسؤال ومناشدة الديار عن حالها وتغيرها وعيها عن الجواب . وهذا عين مايفعله الشعراء الجاهليون والمحافظون على عمود الشعر من بعدهم فى مطالع قصائدهم ، انظر الى قول الشاعر الجاهلى :

مابكاء الكبير بالأطلال * وسؤالى فهل ترد سؤالى . (١)

انه يقف بالأطلال ويسائلها ليجعل ذلك تمهيدا لغرضه الأصلى من القصيدة وهو المدح فى الغالب . أما ابن الرومى فانه يقف على مدينة زاهره ليرثيها ويتحسر على ماجرى لها من نوائب ومصائب فحسب ، فغايته هى الرثاء ولا يريد شيئا غيره ، وهذا هو الفرق بين الوقفتين .

---

(١) البيت مطلع قصيدة للأعشى ، أنظر ديوانه : ٢٩ .

ثم يطلب الشاعر من رفيقيه أن يزورا أهم معلم فى مدينة البصرة ، وهو مسجدها الجامع الذى أحرق بعد أن عاش دهرا طويلا موئلا للعلماء والعباد يقول :-

بل ألما بساحة المسجد الجا * مع ، ان كنتما ذوى المام .
فاسألاه ، ولا جواب لديه * أين عباده الطوال القيام .
أين عماره الألى عمروه * دهرهم ، فى تلاوة وصيام .
أين فتيانه الحسان وجوها * أين أشياخه أولو الأحلام .

انه فى هذه الأبيات لا يركز رثاءه وبكاءه للمسجد بذاته كمعلم اسلامى بقدر مايركز على أهل المسجد وعواده ، فيرسم لذلك صورة متخيله ، عندما يدعى كل من خذل أهل البصرة من المسلمين على رؤوس الأشهاد ليحاكم أمام الله ويحاسب على تقصيره فى الدفاع عن الحرمات فيندم ، ولكن ذلك لا يغنى عنه شيئا . يقول :-

كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد * وفقيه فى دينه علام .
واندامى على التخلف عنهم * وقليل عنهم غناء ندامى .
واحيائى منهم اذا ما التقينا * وهم عند حاكم الحكام .
أى عذر لنا ، وأى جواب * حين ندعى على رؤوس الأنام .
ياعبادى أما غضبتم لوجهى * ذى الجلال العظيم والاكرام . ؟
أخذلتم اخوانكم ، وقعدتم * عنهم - ويحكم - قعود اللئام . ؟
كيف لم تعطفوا على أخوات * فى حبال العبيد من آل حام . ؟
لم تغاروا لغيرتى ، فتركتم * حرماتى ، لمن أحل حرامى .
ان من لم يغر على حرماتى * غير كفء لقاصرات الخيام .
كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلا * وهو من دون حرمة لا يحامى ؟

ان الشاعر ـ كما يلاحظ من الأبيات ـ يحاول الضرب على وتر حساس فى نفوس الناس هو وتر العقيده والأخوة الاسلامية ، فهو يضيف الى الصورة الأولى . صورة أخرى فى نفس الموقف حين يتولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخاصمة المتقاعسين عن الجهاد وتوبيخهم لأنهم لم يراعوا حرمة النبى فينصروا من استغاث بـه :ـ

واحيائى من النبى اذا مـا * لاقى فيهم أشد الصـلام .
وانقطاعى اذا هم خاصمونى * وتولى النبى عنهم خصامى .
مثل مثلوا قوله لكم ـ أيها النا * س ـ اذا لا مكم مع اللـوام :
" أمتى : أين كنتم ـ اذ دعتنى * حرة من كرائم الأقـوام :
صرخت : " يامحمداه " فهـلا * قام فيها رعاة حق مقـامى .
لم أجبها اذ كنت ميتا ـ فلولا * كان حي أجابها من عظامى :

انه يصور النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد غضب أشد الغضب ، على أمته لخذلانهم اخوانهم فى العقيدة ، وهو يمهد بذلك لبث الحماس فى نفوسهم عندما يحرضهم فى آخر قصيدته على الثأر والانتقام من أولئك الطغام الذين استباحوا الحرمات فيخاطب الناس قائـلا :ـ

انفروا أيها الكرام خفافـا * وثقالا الى العبيد الطغـام .
أبرموا أمرهم ، وأنتم نيـام * سوءة سوءة لنوم النيـام .
صدقوا ظن اخوة أطمعوكـم * ورجوكم لنوبة الأيـام :
أدركوا ثأرهم ، فذاك لديهم * مثل رد الأرواح فى الأجسام .
لم تقروا العيون منهم بنصـر * فأقروا عيونهم بانتقـام .
أنقذوا سبيهم ـ وقل لهم ذا * ك ـ حفاظا ورعية للذمـام .
عارهم لازم لكم أيها النـا * س ، لأن الأديان كالأرحـام .

ان قعدتم عن اللعين فأنتم * شركاء اللعين فى الآثام .
بادروه قبل الروية بالعز * م ، وقبل الاسراج بالالجام .
من غدا سرجه على ظهر طرف * فحرام عليه شد الحزام .
لا تطيلوا المقام عن جنة الخـ * لد ، فأنتم فى غير دار مقام .
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد * نى وبيعوا انقطاعه بالدوام .

ان ابن الرومى يخرج فى آخر قصيدته الى الاستصراخ والاستغاثة مايؤكد تفاعله مع الحدث بصدق وايجابية ، فنراه ينهج نهجا خطابيا حماسيا مركزا على المعانى الاسلامية التى هى أهم الروابط التى تربط فئات الناس ببعضهم ، فى مجتمع كبير كالعباسى . كما أنه لا يجد أبلغ من العبارات القرآنية يذكر بها ويزجر أولئك الناس حاضا اياهم على الاسراع بالفتك باللعين صاحب الزنج ورهطه ، وافتكاك الأسرى والسبايا من أيديهم ، حفظا لكرامة اخوانهم الذين مضوا وعرضهم . لأن ذلك أقل مايبذل لاخوان العقيدة . فيطلب منهم أن ينفروا خفافا وثقالا للحرب والجهاد ، وأن يربأوا بأنفسهم عن قعود الجبناء اللئام ، فيكونوا عونا للزنج على جرائمهم ، وشركاءهم فى الآثام . ثم يذكرهم بالجنة ونعيمها الخالد الأبدى ، والفرق الشاسع بينهما وبين الدنيا الفانية ، ويدفعهم لبيع أنفسهم وماملكوا من عرض الدنيا لله ـ بالجهاد فى سبيله ـ لينعموا بتلك الجنان .

والذى يبدوا أن استغاثة ابن الرومى قد وجدت أذنا صاغية من الخليفة والحكام العباسيين وعامة الشعب ، حيث ندب الخليفة المعتمد على الله أخاه أبا أحمد الموفق طلحه ، وكان هذا داهية شجاعا ، أعد جيشا ضخما مجهزا بالمعدات البرية والبحرية ، واستطاع أن يلحق بالزنج هزائم متتالية وان يقتل منهم أعدادا كبيرة ، ويستنقذ كثيرا من البلدان والأسرى الذين

كانوا فى أيديهم . ولكنه توفى قبل أن يقضى عليهم تماما فى سنة خمس وستين ومائتين فخلفه على حربهم المعتضد بالله ابن الخليفة المعتمد ، وكان هذا ـ أيضا ـ شجاعا مقداما ، فأرهق الزنج بكثرة الغارات والحروب ، وحصرهم وضيق عليهم تضيقا شديدا ، مما اضطر أكثرهم أن يطلب منه الأمان ، ويحارب معه ضد الزنج واستمر على ذلك من نصر الى نصر حتى جاءت سنة سبعين ومائتين ، حيث استطاع أن يقضى على ثورة الزنج نهائيا وذلك بقتل العلوى رأس الثورة وأسر قائديه المشهورين سليمان بن جامع والمهلبى ، وبعث بهما الى بغداد حيث قتلا وصلبا هناك . (١)

ومن رثى البصرة أيضا شاعر يعرف بأبى ناظرة السدوسى (٢) ، وهو أحد أبناء البصرة الذين شهدوا خرابها على أيدى الزنج . يقول :- (٣)

أبى الصبر تذكار الديار التى خلت * مجالسها من سودد وخطوب .
ومغدى ذوى الحاجات فى كل شارق * الى كل مغشى الفناء مهيب .
وكل مطاع فى العشيرة ماجد * معين على ريب الزمان وهوب .
منازل فارقن العهود ولم تكن * معانا (٤) لناقوس ولا لصليب .
منازل قوم أسرع السيف منهم * الى كل وضاح الجبين نجيب .
وكل صميم من ذؤابه قومه * كريم لغايات الكرام طلوب .
أبوا أن يرى الله الهوادة منهم * لأعضة (٥) عن دين النبى نكوب .

---

(١) انظر الخبر فى تاريخ الطبرى : ٤/ ٦٠٢ ومابعدها .

(٢) يبدو أنه شاعر مغمور ، فلم أعثر له على ترجمه الا قول المبرد عنه : كان رجلا من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب ، وحسن التصرف فيه التعازى والمراثى : ٢٨٢ .

(٣) القصيدة بتمامها فى المصدر السابق : ٢٨٢ ـ ٢٨٨ .

(٤) معانا : مكانا . اللسان . (معن) .

(٥) الأعضة : المفترى . اللسان (عضه) .

فأودوا وقد عاشوا كراما أعفة * على فتن مرت بهم وحروب .
تفاديهم ضربا على الهام تارة * وذبحا بأقسى أنفس وقلوب .
فكم من رحى دارت وكم من مصيبة * توالت ومن يوم هناك عصيب .
على ألف ألف من ملوك وسوقة * شووا بين أبواب لهم ودروب .
مشققة هاماتهم وشريدهم * شماطيط (١) شتى أوجه وشروب .
الى غير راع يرتجى النصر عنده * ولا عطن يؤوى اليه رحيب .
عباديد (٢) من ناج على جذم بغلة * ومن رازح يشكو الكلال جنيب .
ومن راسب طاف على الماء شلوه * وذى ظمأ أودى به وسغوب (٣) .
فيا أرضهم أخلوك فابكى عليهم * وجودى عليهم باسماء وصوب .

يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع يتحسر فيه على دياره التي فارقها مرغما ويحاول أن يبدى شيئا من التجلد حينما يجول بفكره خاطر العودة من النزوح ولو عن بعد . ولكن هذا الصبر والتجلد لا يلبث أن ينهزم تحت طارق الشوق العارم الذى يبعثه تذكار المصاب الفادح . وأى صبر يبقى بعد دمار المدينة الشامخة التي كان خيرها للقريب وللبعيد شاملا ، فهى قبلة ذوى الحاجات ، يغشونها من كل صوب فينالون ما أرادوا لسماحة أهلها وكرمهم ، وكثيرا ما تكون الشهامة والعزة هى سبب المنية ، كما هو الحال عند

---

(١) شماطيط : أرهاط مختلفة ـ وهو جمع لا يفرد له واحد / اللسان ـ (شمط) .

(٢) عباديد : جماعات متفرقة . وهو جمع لا يفرد له واحد / أيضا اللسان (عبد) .

الرازح : الذى لا يقوى على النهوض ضعفا وتعبا ، اللسان (رزح) ،

الجنيب : المصاب بداء ذات الجنب (نوع من الأمراض) .

(٣) الشغوب : الجوع . اللسان (سغب) .

أهل البصرة ، فقد أبوا أن يستكينوا للذل والقهر ، فوقفوا بعزم أمام قوات الزنج الكاسحة على الرغم من ضعفهم ازاءها فقضوا بعزة وشرف .

وهنا نحس دفقة العاطفة عندما يستطرد الشاعر فى وصف المذبحة الرهيبة التى أقترفها وحوش الزنج ، فأمواج الدماء تقذف بالهامات المفلقة هنا وهناك ، ورحى الموت لا تزال تدور ، وتنتج الخراب والدمار والتشرد ، حتى هذه الزرافات من المشردين لا تدرى الى أين تتجه ، فقد قل النصير وعدم الأمن والمأوى فمن نجا منهم من الزنج ، ابتلعه النهر ، ومن عبر النهر قتله الجوع والظمأ .

وبعد هذه الصورة المفعمة بالحركة والضجيج والتى أشاعت فى جو القصيدة روحا من العنف والسفك ، وأضفت عليها ظلالا ملونة بشتى الألوان الصاخبه ، بعد ذلك نرى الشاعر يتملكه الأسى والشحوب حين تجسمت أمامه مصيبة المدينة ومن بقى من أهلها فيقول :-

أرى كل قوم لا يزال مظنة * منازلهم من آيب وصؤوب .

سوانا فانا حشو كل مدينة * وألقاؤها من نازح وقريب . (١)

ذوو أوجه فيها كواب وأعين * بواك وفقر ظاهر وشحوب . (٢)

فذو العز منا مستكين وذو الغنى * كأن لم يكن ذا رجلة وركوب .

فما حل بالاسلام مثل مصابنا * وسلطاننا للدين حق غصوب .

فلا المربد المعمور بالعز والنهى * وكل فتى للمكرمات كسوب . (٣)

---

(١) الألقاء : جمع لقى : وهو الملقى أو المطروح . اللسان (لقا) .

(٢) كواب : ذابله مسوده . اللسان (كبا) .

(٣) المربد : من أشهر محال البصره ، كان فيه يقوم سوق الابل قديما ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، ويبعد عن البصرة ثلاثة أميال . / معجم البلدان : (مربد) .

ولا قصر أوس والمناخ الـذى بـــه * وماحوله من روضـة وكثـيب . (١)

بمرتجع يوما ولا المسجـد الـــذى * اليه تناهى علم كل أديـب .

ولا قائم لله آناء ليلـــــــــة * به كل أواه اليـه منيـب .

ولا الشط ان فيه لنا الخير كلـــه * وان معتفاه ـ الدهر ـ غير جديب .

ودجلة أحمى جانبيها كليهمـــــا * كتائب زنج كالطنين دبـوب . (٢)

مؤللـة أسنانهـم وعيونهـــــم * توقد فى كهرورة وقطـوب . (٣)

ان اليأس والاستسلام هو العنصر البارز فى هذه الأبيات ، فالشاعـــر ينظر بواقعيه الى الواقع الماثل أمامه ، ومنه يستشف المصير المظلم الـذى ينتظر قومه بعد أن فقدوا كل أمل فى العودة الى مدينتهم . أما حالهـــم فى غربتهم القاتلة فيشرحها الشاعر بمرارة وألم ، مرارة العزة والكرامة الـتى تحولت الى ذلة وهوان ، فهم يعيشون هملا لا يؤبه لهم أينما حلوا وأقامـــوا ولا يعرف شريفهم من وضيعهم ، وكأن الشاعر هنا يشير الى الجحود وســوء المعاملة التى لقيها أولئك المشردون من أهل المناطق التى نزحوا اليهـــا حتى تغيرت ألوانهم وتلوحت وجوههم من الأسى والمهانة .

ثم يرجع السدوسى بذاكرته الى الأمس القريب وكيف كانت معالم المدينـة البارزة ومآلت اليه بعد الكارثة . فالمربد الذى كان يزدحم بالشعراء والخطباء وكأنه مدرسة تخرج النابهين فى كل فن أصبح خاليا من الأنيس ، صامتا صموت المقابر . والمسجد الجامع مأوى العلماء والمتبتلين أصبح أطلالا سوداء موحشة بعد أن أحرق ودمر .

---

(١) قصر أوس : ينسب لأوس بن ودبعة والى خراسان لبنى أمية ، وهو قصـر عظيم بنواحى البصرة وصفته الشعراء .
معجم البلدان : مادة (قصـر) .

(٢) دبوب : الذى يمشى على مهل لضخامته ، اللسان (دبب) ، الطنين : صوت الذباب / والشطر كناية عن الكثرة .

(٣) مؤللة : محددة الأطراف . الصحاح (ألل) ، كهرورة : عبوس وتحفز اللسان (كهر) ، القطوب هو العبوس أيضا .

أما الشط الذى كان مصدر رزق للبصرة ، فقد خلا من سفن الخير ، وماتحمله ، وأبدل بها كتائب زنج فاغرة الأفواه للقتل والسلب والتدمير . تمر بالشاعر هذه الحالة المنقلبة فيتصور أنه لم يبق فى الدنيا نعيم يطيب معه العيش :-

نعت أرضنا الدنيا الينا وأدبرت * بكل نعيم فى الحياة وطيب .
وماكانت الدنيا سوى البلد الذى * خلا اليوم من داع به ومجيب .
وماعيش هذا الناس بعد ذهابه * بعيش ولا مغناهم برغيب (١) .
اذا الدمع لم يسعد كئيبا فاننى * سأبكى وأبكى - الدهر - كل كئيب .
على دمن جرت بها الريح بعدنا * ذيول البلى من شمأل وجنوب (٢) .
وماكل بصرى شكا بمفند * ولا كل بصرى بكى بمصيب (٣) .
ولو أن بصريا بكى كنه شجوه * بكى بدم حتى الممات صبيب .

الى أن يقول :

فيابصركم من هالك مات حسرة * عليك ومن صب اليك طروب .
يظل شعاعا قلبه ومبيته (٤) * على سنن من رهمه ونجيب .
عليك سلام الله منا فاننا * نرى العيش الا فيك غير حبيب .

ان مدينة البصرة تمثل عالم الشاعر ودنياه ، فيها عرف السعادة وطيب العيش ، أما وقد انطفأت شعلتها ، وذوت نضارتها ، فانه قد نفض يديه من لقاء السعادة والتمتع بلذائذ الحياة . بل انه يقطع على نفسه

---

(١) المغنى : المنزل / الصحاح) (غنى) .

(٢) مأخوذ من قول امرئ القيس : فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمأل .

/ ديوانه : ٣٠ .

(٣) التفنيد : اللوم والتكذيب وتضعيف الرأى . الصحاح (فند) .

(٤) الشعاع : التفرق . الصحاح (شعع) .

عهدا بالبكاء المستمر ماداموا احياء ، وسيخلف لكل كئيب ثروة من الأحزان والآلام يستعين بها على استدرار الدمع على مر الأيام . وهو فى ذلك لا يلتفت الى لوم اللائمين ، بل يستهجن فعل كل من يعترض على شاكٍ أمثاله من أهل البصرة الذين خرجوا من جنتهم ، فلو بكوا دما وهلكوا وجدا لحق لهم ذلك دون عيب وانتقاص .

وبعد ، فالشاعر قد عاش تجربة مريرة ، تمثلت فى شهوده عن قرب للسقوط المروع لمدينته الحبيبة ، ثم تشرده فى الآفاق مع آلاف المشردين وقد استطاع الشاعر أن يعبر بصدق عن هذه التجربة ، وان كانت درجات الانفعال تتذبذب بين الشدة والخفوت عبر أجزاء القصيدة ، فتثور عاطفته عند تصوير القتلى والأسرى والغرقى ، والحيارى المضطربين الذاهلين وتهدأ عندما يكون هناك بعد زمنى يفصل بين حرارة الحادثة وبين ما هو بصدد الحديث عنه ، وذلك كوصفه لحالة المشردين الذين استقروا -فيما بعد- فى مختلف المدن والنواحى ، وغشيتهم سحائب الكآبة حين أيقنوا باستحالة الرجوع الى مدينتهم ثانية .

وقد استعمل الشاعر الأسلوب التقريرى المباشر فى نقل صور الأحداث فابتعد عن الخيال فجاء خطابه لأسماعنا وأبصارنا أكثر من خطابه لأعماقنا ووجداننا ، وقد جاءت القصيدة سهلة الألفاظ والتراكيب مع حسن الانتقال والترابط المحكم بين أجزائها ، على الرغم من طولها ، وهذا أمر لا يجيده الا أفذاذ الشعراء ، كما أنها خلت من المقدمات كشكوى الدهر أو بث هموم النفس وما الى ذلك .

والأمر الغريب الذى يمكن ملاحظته على القصيدة هو خلوها من الصوت القوى الذى يرتفع صارخا ومناديا للناس والحكام أن حى على الجهاد لانتكاك

الأرض والأرواح المسلمة من أيدى الزنج المجرمين ، كما فعل ابن الرومى من قبل . تخلو القصيدة من هذا على الرغم من مبالغة قائلها فى وصف النكبة حتى زعم أنه لم يحلّ بالاسلام مثلها ، ولعل سبب ذلك هو طول المدة التى عاشتها ثورة الزنوج ، وعنفهم المذهل فى التخريب والقتل والهتك حيث استقر فى النفوس أن لا طاقة لأحد بهم .

ومن الفتن التى حصلت فى العصر العباسى الثانى ، فى أيام الخليفة المعتمد ، ماوقع فى المدينة المنوره فى سنة أحدى وسبعين ومائتين ، حيث دخلها محمد وعلى ابنا الحسن بن جعفر بن موسى ...... بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، وقتلا جماعة من أهلها ، وطالبا أهلها بالأموال وأخذا شيئا من ذلك ، فانتشر الرعب فى المدينة وخربت حتى انه لم يصل فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربع جمع ، لا جمعة ولا جماعة فقال فى ذلك أبو العباس بن الفضل العلوى :ـ (١)

أخربت دار هجرة المصطفى البر * ر فأبكى خرابها المسلمين .
عين فابكى مقام جبريل والقبـ * ـر فبكى والمنبر الميمونا .
وعلى المسجد الذى أسه التقـ * ـوى خلاء أضحى من العابدينا .
وعلى طيبة التى بارك اللـ * ـه عليها بخاتم المرسلينا .

ان هذه الأبيات بالرغم من قلة عددها ، وبساطة أسلوبها فانها تدل على عاطفة جياشة مفعمة بالحزن والأسى لما أصاب مقدسات المسلمين من الخراب .

---

(١) الطبرى : ٧/١٠ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ٤١٣/٧ . ابن الجوزى ، المنتظم : ٨٠/٥ .

ان الوضع يختلف من حيث الرثاء بالنسبة لقيمة المدينة المرثية ، فهنا المرثية مدينة عظيمة فى نفوس المسلمين جميعا ، فلا تخص فئة دون أخرى ففيها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أسس على التقوى ، وفيها القبر الشريف ، والمنبر الميمون أى منبر النبى عليه الصلاة والسلام ، فعندما تدمر هذه المعالم الشريفة ويمسها الهجر والخراب يحق لكل عين أن تبكى وتبكى .

ماقيل من الشعر فى رثاء العواصم بعد انتقال الخلافة عنها :-

منذ أن بنى أبو جعفر المنصور - الخليفة العباسى الثانى - مدينة بغداد وهى مقر الخلافة العباسية وعاصمتها وقد أخذت تزدهر ازدهارا عظيما وخاصة فى عهد الرشيد حيث أصبحت جنة الدنيا وأمل المتمنى ثم جاء عهد الأمين فخربت بغداد عند وقوع الفتنة بين الأمين والمأمون التى انحاز فيها الفرس الى جانب المأمون ، والعرب الى جانب الأمين ، وعندما جاء المعتصم بعد المأمون أراد أن يتخلص من هذين الحزبين - الموالى الفرس والعرب - معا فوجه همه لجلب أعداد هائلة من الأتراك لأن أمه تركية (١) وبالفعل جلب منهم مايقرب من سبعين ألفا فضاقت بهم بغداد ، وكثرت حوادثهم فتذمرت العامة منهم ، فأمر المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين ببناء مدينة سامراء أو سر من رأى ، واختط فيها قصورا له ولوزرائه ، وبالغ فى تجميلها ، فساق اليها الساج والخشب والجذوع من البصرة ومن أنطاكية

---

(١) القلقشندى ، مآثر الانافة فى معالم الخلافة : ١/ ٢٢١ .
وعن بناء المدينة وصفتها انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ١١/ ٨٤ ، يونس السامرائى ، سامراء فى أدب القرن الثالث الهجرى : ٥٢ .

وسواحل الشام ، وساق اليها الرخام من اللاذقية كما حط اليها النخل والغروس من بغداد والشام وزرع الناس أصناف البقل والزرع والرياض .... الخ واتسع الناس في البناء بسر من رأى أكثر من اتساعهم ببغداد ، وبنوا المنازل الواسعة وتأنقوا فيها وارتحلوا عن بغداد بالمئات فأوحشت بغداد وهجرت لازدهار جارتها سامراء التي أصبحت هي دار الخلافة ، وقبلة الشعراء والأدباء ، وفي ذلك يقول ابن الزيات (١) راثيا حال بغداد : (٢)

الآن قام على بغداد ناعيها * فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على ما بها والحرب باركة * والهدم يغدو عليها في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة * فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيها
لزت بها حرة زهراء واضحة * كالشمس مكسوة درا تراقيها

---

(١) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة الزيات كان من أسرة غنية اشتهرت بتجارة الزيت ، ولد سنة ١٧٣ هـ بالكرخ شغف بمجالسة العلماء والأدباء في عهده كعمر بن سعدة ، سهل بن هارون والجاحظ ..... حتى تبحر في العلم وأصبح من أساطين الكتابة والشعر فبلغ بذلك الوزارة ، فوزر للمعتصم ثم للواثق ، وقتل في عهد المتوكل سنة ٢٣٣ هـ لامور كثيرة .
أنظر : شذرات الذهب : ٧٨/٢ ، الوفيات : ٩٤/٥ ، محمود الهجرسي ، محمد بن عبد الملك الزيات صاحب التنور : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) ديوان ابن الزيات : ٩٦ .

على أن هذا الازدهار الذى عاشته سامراء لم يدم طويلا ، حيث استفحل أمر الأتراك فى هذه المدينة وسيطروا على كل شئ حتى حجروا على الخليفة نفسه وحجبوه عن الناس ، ولم يبق له الا السلطة الاسمية والدعاء على المنابر ، فبدأت المحاولات من قبل الخلفاء للتحول عن سامراء وكان آخر هذه المحاولات ، ماقام به الخليفة المعتمد ، حين أمر بنقل عاصمة الخلافة الى بغداد فى سنة تسع وسبعين ومائتين ، وبذلك فقدت سامراء العنصر الأساسى فى وجودها وحياتها . فما كادت الخلافة ترحل عنها ، والدواوين والدوائر والجيوش تغادرها ، حتى أسرع اليها الخراب ودب الدمار والهلاك فى بنيانها الضخم ، فأخذ الناس ينقضون مابنوه فيها ، وينقلونه الى بغداد للبناء والاقامة هناك . فأصبحت تلك الأبنية والمنشآت الضخمة أطلالا خربه تستدر العطف وتستنزف العيون ، وتبعث فى النفس التذكر والعبره .....

ولعل خير من يصف ماحدث لها أبنها الذى ولد فيها ونشأ وترعرع عبد الله بن المعتز ، اذ يقول من رسالة الى صديق : (١)

" كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكان عمرانها يطوى وكان خرابها ينشر ، وقد وكلت الى البحر نواحيها ، واستحث باقيها الى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فمايجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف ، وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ماكانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار الملك .... " .

---

(١) معجم البلدان : ١٧٧/٣ .

وفى رثائها يقول :- (١)

قد أقفرت سر من را * وما لشئ دوام .

فالنقض يحمل منهـا * كأنه آجـام .

ماتت كما مات فيل * تسل منه العظام .

وفيها يقول أيضا ، وقد جعل الصدر له والعجز من شعر أمرئ القيس في معلقته :-

غدت سر من را في العفاء كأنها * (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) .

وأصبح أهلوها شبيها بحالها * (لما نسجتها من جنوب وشمأل) .

اذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله * (يقولون لا تهلك أسى وتجمل) .

اننا نلمس الصدق في عاطفة ابن المعتز من خلال أبياته التي يرثي فيها حال مدينته ، فهو يؤكد حتمية الموت والفناء لكل شئ وكأنه يتعزى بذلك ، ولكنه كان يعزو خراب سامراء الى بغداد لذلك نراه دائم الهجاء لبغداد وأهلها ، يقول من قصيدة يذكر فيها سامراء ويذم بغداد : (٢)

هاتيك دار الملك مقفرة * ما ان بها من أهلها شخص .

عهدى بها والخيل جائلة * لا يستبين لشمسها قرص .

والملك منشور الجناح ، ولم * يهتك قوادم ريشه قص .

ومعاشر وجدوا مشيئتهم * ومما تحب نفوسهم خصوا .

فمضى بذاك العيش آخرة * والهم مما سر مقتص .

والدهر يخبط أهله بيد * في كل جارحة له قرص .

---

(١) المصدر نفسه : ١٧٨ .

(٢) ديوان ابن المعتز : ٢٨٤ .

ثم يقول في بغداد :

أفما ترى بلدا أقمت بـــه * أعلى مساكن أهله خـص .

وولاته نبط زنادقـــة * ملأى البطون وأهلها خمص .

أسيافها خشب معلقـــة * مصنوعة ، وقرابها جص .

وجنود هم تحص رعيتهـــم * ولهم على أكباد هم رقـص .

غلبت خيانتهم أمانتهـــم * وطغى على تقواهم الحرص .

وهكذا تستمر القصيدة الى نهايتها وهي تمتلئ بالسباب والشتائم والقذف بكل ماهو قبيح لأهل بغداد على كافة طبقاتهم .

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن الحنين لم ينقطع لسامراء عنـــد الكثيرين ، فيروى عن الخليفة الراضي انه كان كثير التردد عليها ، والحـزن لخرابها وقال في ذلك : (١)

بسر من را بلاد الملك طاب كنا * معرش عيشه باللهو مذ مـوم .

أرض متى اختلست الحاظها نظرا * اهتاج ذو طرب وارتاح مهموم .

والحير والقصر والقاطول جنتهـا (٢) * والجعفري بكف الدهر مزمـوم .

منازل آنست دهرا فأوحشهـا * ظلم الزمان فمثلوم ومهـدوم .

عفت وغيرها وصل الرياح لهـا * والوصل منها بحبل الهجر مختوم .

---

(١) أحمد سوسه ، ري سامراء : ٢ / ٣٠٠ .

(٢) الحير : اسم قصر بسامراء بناه المتوكل ، القاطول : نهر كان في موضع سامراء قبل أن تعمر . / معجم البلدان : (الحير) ، (القاطول) .

المبحث الثانى

رثاء الدولة الطولونية والفاطمية :

كان قيام الدولة الطولونية بمصر يمثل أول محاولة للانفصال عن سلطة الخلافة فى بغداد . وقد قامت هذه الدولة على يد أحمد بن طولون التركى الأصيل ، وذلك عندما اشتدت سلطة الأتراك فى بغداد ، وتولوا أمور الدولة ، ففى عهد الخليفة الواثق بالله نال القائد التركى بايكباك ولاية مصر ، ولكنه آثر البقاء فى بغداد ، وأرسل اليها أحمد بن طولون واليا ينوب عنه فى ادارتها . فوصل اليها سنة أربع وخمسين ومائتين (١) ، وكان وكان داهية حسن التصرف ، قرن الى ذلك حسن الخلق والسيرة المحمودة عند الناس ، فاستغل هذه الثقة وأخذ يحسن الى الناس ويوزع فيهم الأموال الكثيرة ، ويظهر اخلاصه فى خدمتهم حتى تمكن ولاؤه من قلوبهم ، فبدأ بعزل عمال العباسيين ، وجمع فى يده مقاليد البلاد ، وصار هو الحاكم الادارى والمالى والعسكرى ، وكانت الخطوة التالية أن أعلن استقلاله بملك مصر عن الخلافة العباسية ، مستغلا الوضع السياسى المتدهور ، وثورة الزنج التى كانت على أشدها ، وكانت الجهود منصرفة لمقاومتها ، وكوّن على الفور - جيشا بلغ تعداده مائة ألف جندى عندئذ ظهرت قوته ، فاضطرت الخلافة الى أن تخطب ودّه ، وتتخذه مؤيدا لها ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الاغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام الذى كان يعرف آنذاك باقليم العواصم والثغور ، كما عهد الخليفة الى ابن طولون بولاية الثغور الشامية ، فبعث ابن طولون جزءا من جيشه وأسطوله للمرابطة فيها ، ولم

---

(١) الأتابكى ، النجوم الزاهرة : ٣/ ٥ ومابعدها أخبار الدولة الطولونية حتى سقوطها .

يلبث والى الشام التركى أن توفى سنة أربع وستين ومائتين ، فضم ابن طولون الشام كلها الى ملكه ، وصارت مصر والشام وحدة واحدة أدت واجبها فى الدفاع عن أرض الاسلام فى الوقت الذى عجزت فيه الخلافة عن فعل شىء يذكر فى هذا المجال . ولا أدل على تلك القوه من أن الروم راسلوا أحمد بن طولون لعقد هدنة معه تخوفا منه .(١) ومع هذه القوة كان ابن طولون يبعث الى خزينة الخلافة ببغداد مايرضى الخليفة وأعوانه من الأموال والمتاع ، وكأنه بذلك يضفى على ملكه صفة الشرعية ، كما كان يرصد الأموال للفقراء فى مصر وفى بغداد ، ويرضى أهل الثغور والعواصم والحرمين بما كان يحمل اليهم من المعدات والمؤن والثياب والأموال .

وفى سنة سبع وخمسين ومائتين بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع له ولغلمانه وجنوده ، وبنى فيها قصره ووسعه وحسنه ، وبنى فيه ميدانا حسنا يضرب فيه الصوالجه ، فسمى القصر كله بالميدان لأجل ذلك ، وقد عمل له أبوابا وسمى كل باب منها باسم فمنها : باب الميدان ، وباب الخاصه وباب الساج وهو أعظمها ومصنوع من الساج ، وباب السباع .... الخ وكان على باب السباع هذا مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع وعلى البحر ، وعلى باب المدينة وغيره وكان متنزها حسنا (٢) . وفى سنة تسع وخمسين ومائتين بنى ابن طولون مسجدا عظيما بالغ فى تحسينه ، وجلب اليه الصناع والبنائين المهره وأنفق عليه مايقارب عشرين ومائة ألف دينار ، من كنز يروى أنه وجده يحوى ألف ألف دينار . (٣) ثم مات أحمد بن طولون بعد

---

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون : ١٠٩ .

(٢) سيرة أحمد بن طولون : ٥٦ .

(٣) النجوم الزاهره : ٣/٧ .

أن حكم اثنتى عشرة سنه . وخلفه ابنه خمارويه ، وكان قويا كوالده ، فاهتم بمرافق الدولة ، واستطاع أن يهزم جيوش العباسيين التى أرسلت لمحاربته عند دمشق ، مما اضطر الخليفة العباسى المعتمد على الله أن يتزوج من ابنته " العباسة " تقربيا له ، وبقى على ذلك الى أن ذبح على يد خدمه (١) سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فخلف من بعده أمراء ضعاف كان أخرهم الأمير شيبان بن أحمد بن طولون الذى ثار على ابن أخيه هارون وذبحه سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وبلغت الدولة الطولونية فى هذا العام من الضعف والفوضى حدا بعيدا فاستغل هذا الوضع الخليفة العباسى المكتفى بالله ، وبعث محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش لمحاربة الطولونيين الذين لم يصمدوا طويلا فى وجهه فدخل مصر وقتل منها خلقا كثيرا ، وهدمها حتى أصبحت خرابا يبابا ، وفعل بها من النهب والسلب والهتك مالا يحله الله ، وبقيت مصر على هذه الحال أياما كثيرة حتى أمّن محمد بن سليمان آل طولون جميعا وساقهم معه الى بغداد بالأغلال ، فخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار ، وحل بهم الذل بعد العز ، وزالت الدولة الطولونيه وكانت من غرر الدول ، وخرّب الميدان والقصور التى كانت به والتى مدحها الشعراء .

ويبدو أن هذا الدمار الذى أصاب مصر والميدان خاصة قد أودى بكثير من الشعر الذى قيل فى بنى طولون ، لأن ماوقفنا عليه منه يعد يسيرا جدا بالنسبة لما يذكر عن كثرة شعرائهم .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢ ، وانظر ابراهيم العدوى ، التاريخ الاسلامى آفاقه السياسيه وأبعاده الحضاريه : ٣٦٣ - ٣٦٩ .

يروى صاحب النجوم الزاهره " قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب " حسن السيره فى اتخاذ الحصن بالجزيرة " رأيت كتابا قد رائشق عشرة كراسه مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون ، قال : فاذا كان اسم الشعراء فى اثنتى عشرة كراسه ، فكم يكون شعرهم ؟ : (١)

ومن الذين رثوا دولة بنى طولون بعد زوالها أبو يعقوب الكاتب (٢) اذ يقول :

ان كنت تسأل عن جلالة ملكهم * فارتع وعج بمراتع الميدان .

وانظر الى تلك القصور وماحوت * وأمرح بزهرة ذلك البستان .

وان اعتبرت ففيه أيضا عبرة * تنبيك كيف تصرف الحدثان .

ياقتل هارون اجتثثت أصولهم * وأشبت رأس أميرهم شيبان .

وهو يشير فى البيت الأخير الى السبب المباشر الذى أضعف الدولة ، وزاد فيها الفوضى والاضطراب ، وهو قيام شيبان بن أحمد بن طولون بقتل ابن أخيه هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، ليستولى على السلطة مكانه ، فكانت ولايته اثنى عشر يوما ثم سقطت الدولة بعد ذلك لفساده وسوء تدبيره .

---

(١) النجوم الزاهره : ٣/١٤٠ .

(٢) هو أحمد بن اسحاق بن جعفر المعروف باليعقوبى . مؤرخ وجغرافى كثير الأسفار ، كان جده من موالى المنصور العباسى ، وعاش هو وأقام فى بغداد ثم رحل الى أرمينية ثم الى المغرب وعاد الى بغداد ، وتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ من مؤلفاته : تاريخ اليعقوبى ، وكتاب البلدان ، وأخبار الأمم السالفة وغيرها . أنظر : معجم الأدباء : ٥/١٥٣ ، معجم المطبوعات : ١٩٤٨ .

وقال اسماعيل بن أبى هاشم فى رثائهم : (١)

قف وقفة بفناء باب الساج * والقصر ذى الشرفات والأبراج .
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم * بعد الاقامة أيما ازعاج .
كانوا مصابيحا لدى ظلم الدجى * يسرى بها السارون فى الادلاج .
كانوا ليوثا لا يرام حماهم * فى كل طحمة وكل هياج .
فانظر الى آثارهم تلقى لهم * علما بكل ثنية وفجاج .
وعليهم ماعشت لا أدع البكا * مع كل ذى نظر وطرف ساجى .

وقال أيضا :

يامنزلا لبنى طولون قد دثرا * سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا
يامنزلا صرت أجفوه وأهجره * وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا * أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟

وعند ما هدم قصر الميدان ، وبيعت أنقاضه ، قال فى ذلك محمد بن طسويه :- (٢)

من لم ير الهدم للميدان لم يره * تبارك الله ماأعلا وأقدره .
لو أن عين الذى أنشاه تبصره * والحادثات تعاديه لاكبره .

ومنها :

وأين من كان يحميه ويحرسه * من كل ليث يهاب الليث منظره .
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم * وحط ريب البلى فيه فدعثره .
وأخلق الدهر منه حسن جدته * مثل الكتاب محا العصران أسطره .
دكت مناظره واجتث جوسقه * كأنما الخسف فاجاه فدمره .
أوهب اعصار نار فى جوانبه * فعاد معروفه للعين منكرة .

---

(١) النجوم الزاهرة : ٣/١٤٠ ، ١٤٣ .

(٢) المقريزى ، الخطط القريزيه : ٢/١٠٩ - ١١٠ .

أين ابن طولون بانية وساكنة * أماتة الملك الأعلى فأقبره .

ماأوضح الأمر لو صحت لنا فكر * طوبى لمن خصه رشد فذكره .

وقال أيضا :

قف وقفة وانظر الى الميدان * والقصر ذى الشرفات والايوان . (١)

والجوسق العالى المنيف بناؤه * ماباله قفر من السكان ؟ :

أين الذين لهوبه وعنوا به * زمنا مع القينات والنسوان ؟ .

يجبى الخراج اليهم فى دراهم * لا يرهبون غوائل الحدثان .

فانظر الى ماشيدوا من بعدهم * هل فيه غير البوم والغربان ؟ .

كانوا ملوك الأرض فى أيامهم * كبراء كل مدينة ومكان .

فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم * تحت الثرى يبلون فى الاكفان .

الا أغيلمة أسارى بعدهم * فى دار مضيعة ودار هوان .

متذللين بأسرهم قد شردوا * ونفوا عن الأهلين والأوطان .

والله وارث كل حى بعدهم * وله البقاء وكل شىء فان .

والملاحظ على هذه المقطوعات الرثائية أنها بالاضافة الى اتحادها فى الدف تتحد تقريبا فى النهج والأسلوب ، فهى تتحدث عن تقلب الدهر وعصفه بالأمم والدول مع التأكيد على النهاية الحتمية لكل حى ، مقرونة بالحكمة والعظة لمن أراد الاتعاظ ألم يقل اليعقوبى :

وان اعتبرت ففيه أيضا عبرة * تنبيك كيف تصرف الحصران .

وقال ابن طسويه :

ماأوضح الأمر لو صحت لنا فكر * طوبى لمن خصه رشد فذكره .

ومع أننا نحس صدق العاطفة وخاصة فى قصيدة ابن أبى هاشم الذى سيظل يبكيهم أبدا ما عاش ، وفاء لحقهم وشكرا لنعمتهم عليه ، فاننا لا نجد فى هذا

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

الشعر صورا خيالية جميلة أوحاها الموقف المؤسف الحزين على اندثار الدولة وانهيار قصر خلافتها العظيم ، كما أن هذه المقطوعات ابتعدت عن ذكر تفاصيل الحادث المروّع ، كالقتل والنهب والاحراق .... تلك الأمور التى تضفى على قصيدة الرثاء صورا جميلة أثناء تفجع الشاعر واجتراره لها ولعل المطالع لهذا الشعر الذى نحن بصدده - يجد بوضوح صور الرثاء فى الشعر القديم فالوقوف على أطلال الميدان المحطمه أول مايدعوك الشاعر أن تقف عليها أو تعوج بها : " فارتع وعج بمراتع الميدان " ، " قف وقفة بفناء باب الساج ......" " وربوع قوم أزعجوا ..." " قف وقفة وانظر الى الميدان ...." .

ثم مسائلة القصر الخرب : بالله عندك علم من أحبتنا

أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟

وقول الآخر :

والجوسق العالى المنيف بناؤه * ماباله قفر من السكان ؟

وبعد ذلك الدعاء له بالسقيا على عادة شعراء الأطلال والدمن :-

يامنزلا لبنى طولون قد دثرا * سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا .

ثم يأخذ فى مدح بنى طولون ويصفهم بأنهم ليوث لا يرام حماهم ، وأنهم ملوك الأرض جميعا وشادوا المدن والقصور الفخمة ، وعمروها بالعز والمجد وغير ذلك من الأوصاف الحميدة الى أن صاح الزمان بهم ، وطرقتهم حوادثه فهلكوا وكأن الأرض قد خسفت بهم ، وغدا ماشيدوه مأوى للبوم والغربان لشدة ماأصابه من البلى ، ومن بقى منهم حيا فهو غارق فى ذله وأسره بعيد عن الأهل والوطن . ولكن الأبيات التى تشير الى مصرعهم لا تناسب ماأُخذوا به من الشدة والعنف كقول ابن طسويه :-

أين ابن طولون بانيه وساكنه * أماته الملك الأعلى فأقبره .

وقوله :

فتمزقوا ، وتفرقوا فهناك هم * تحت الثرى يبلون فى الأكفان .

ولعل السبب الذى جعله ينحو هذا النحو هو الخوف من العباسيين الذين تولوا القضاء على دولة بنى طولون . لذلك لا نجد تعنيفا أو لوما بسيطا فى هذه المقطوعات الشعريه للذين قاموا بالأفعال الشنيعة ليس ضد بنى طولون بعينهم وانما ضد غيرهم من الناس الذين كانوا تحت حكمهم فى مصر .

وهناك قصيدة أخرى بلغت مايزيد عن الأربعين بيتا لشاعر يسمى سعيد القاص يرثى فيها الدولة الطولونية : (١)

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف حالته الكئيبة وقلة صبره لما أصاب بنى طولون فيقول :-

جرى دمعه مابين سحر الى نحر (٢) * ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر .

وبات وقيدا (٣) للذى خامر الحشا * يئن كما أن الأسير من الأسر .

وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضحى على جمر .

تتابع أحداث يضيعن صبره * وغدر من الأيام والدهر ذو غدر .

أصاب على رغم الأنوف وجدعها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر .

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها * بفقد بنى طولون والأنجم الزهر .

وفقد بنى طولون فى كل موطن * أمر على الاسلام فقدا من القطر .

فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة * أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر .

---

(١) القصيدة بكاملها فى الخطط المقريزيه : ٢/١٠٧-١٠٨ .

(٢) السحر : الرئه ، والمقصود هنا مايحاذيها من الصدر / أساس البلاغه (سحر) .

(٣) وقيدا : أى موقدا يشتعل نارا . / اللسان (وقد) .

ان الشاعر يسكب الدمع ، ويئن أنين الأسير العانى ، وذلك لما رماه به الدهر من الأرزاء العظام التى لا يطيق لها صبرا ، وذلك أن الأيـــام الغادرة قد أودت بسادة الدنيا حماة الدين بنى طولون ، ويبدو أن الشاعر ذو عاطفة دينيه ، فهو يبكى بنى طولون لأنهم كانوا السد المنيع فى وجـــه أعداء الاسلام البيزنطيين ، الذين أرهقوا الخلافة العباسية بغاراتهـــم المتكرره . ثم يأخذ الشاعر فى تعداد محاسن الأمراء الطولونيين وماعطـــوا وأشادوا الى آخر القصيدة فمن أحمد بن طولون مؤسس الدوله يقـول :

كأن ليال الدهر كانت لحسنهـــا * واشراقها فى عصره ليلة القـــدر .
يدل على فضل ابن طولون همـــة * محلقة بين السماكين والغفـــر .(١)
فان كنت تبغى شاهدا ذا عدالة * يخبر عنه بالجلى من الأمـــــر .
فبالجبل الغربى خطة يشكـــر (٢) * له مسجد يغنى عن المنطق الهذر .
بناه بآجر وساج وعرعـــــر * وبالمرمر المسنون والجص والصخـر .
فسيح رحاب يحصر الطرف دونه * رقيق نسيم طيب العرف والنشـــر .
تخال سنا قنديلـه وضيـــاءه * سهيلا اذا مالاح فى الليل للسفر .

ثم يصف عينى الماء العذبة والملحة اللتين كانتا ملحقتين بالجامع حيـث الأولى للشرب والأخرى للطهاره يقـول :

وعين معين الشرب عين زكيـــة * وعين أجاج للرواة وللطهـــر .
بناء لو أن الجن جاءت بمثلـــه * لقيل لقد جاءت بمستفظع نكـر .

---

(١) الغفر : ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر وهى الميزان . / الصحـــاح ، (غفـر) .

(٢) خطة يشكر : اسم الجبل الذى بنى فيه الجامع ، وهو جبل يشكـــر بن جديله من لخم . أنظر ميخائيل شاروبيم ، الكافى فى تاريخ مصـــر القديم والحديث : ١/٢١٦ .

وتمضى القصيدة على هذا النحو ، تقف عند أعمال ابن طولون مسجلة لهـا فتصف المارستان واتساعه والحصن والقنطره والجسور ، ثم تنتقل الى توسيـع أحمد بن طولون على الناس فى الرزق والعطاء ... ثم تذكر من جاء بعـده من خلفائه وأولاده خمارويه أبى الجيش ، ثم ابنه هارون وغيرهما وكيف أتـت الحوادث عليهم . ثم يختم القصيدة بقوله :-

تذكرتهم لما مضوا فتتابعـوا * كما أرفض سلك من جبان ومن شذر .
فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله * لفقدهم فليبك حزنا على مصـر .
ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصـر .

ان الشاعر سلك سبيل تعداد مآثرهم وحسناتهم التى خلفوها للأمـة ولعاصمتهم مصر بالذات فقد كانت جنة الدنيا أيامهم ، وهو بذلك يحـاول التأثير فى نفوس السامعين أو القارئين ولكنه لم يتطرق للمصاب الجلل متعمقا ومحللا ، فكانت قصيدته أقرب الى قصائد المدح منها الى الرثاء ، ولم تبلـغ من التأثير مابلغته المقطوعات التى تحدثنا عنها قبلها .

رثاء الدولة الفاطميـــة :-

بلغت الدولة العباسية فى آواخر القرن الثالث الهجرى وبداية الرابـــع الغاية فى الفوضى والاضطراب ، والاستخفاف بالخلفاء من قبل العناصـــر المتسلطة وخاصة الأتراك الذين أصبحوا هم الحكام وقد شجعت هـــذه الحالة كثيرا من الولاة الطامعين فى الحكم على الانفصال عن عاصمة الخلافـــة بغداد . كما فعل ابن طولون فى مصر على ما أوضحناه سابقا - وشجعـــت هذه الحالة - أيضا - أصحاب الدعوات السريه المناوئه للعباسيين على الظهور والكشف عن أهدافهم واصرارهم على تحقيقها بالقوة . وهذا ما كان مـــن الفاطميين (١) الداعين الى المذهب الشيعى الباطنى ، الذين بدأوا هـــذه الدعوه فى وقت مبكر ، ولكنهم وجدوا عنتا شديدا من الخلافة العباسيـــه حيث كان الموت العاجل نصيب كل من يظفر به منهم ، فاستغلوا ما صـــارت اليه الخلافة من الضعف وبعثوا دعاتهم الى المغرب ، وافريقيـه (تونـــس) ونجحوا فى استمالة البربر سكان تلك المناطق ، وبذلك تمهد الطريق لاقامـــة دولة شيعية فى المغرب ، وبالفعل دخل داعى الشيعه المسمى عبيد اللــــه المهدى المغرب فى سنة ست وتسعين ومائتين ، واتخذ من مدينة رقـــاده جنوبى القيروان عاصمة له ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وأبطل اسم الخليفـــة العباسى من الخطبه ، وزاد فى الآذان عبارة " حىّ على خير العمل " . (٢)

---

(١) اختلف المؤرخون قديما وحديثا فى نسب الفاطميين فمن قائل أنهم مـن آل البيت من ولد الحسين بن على بن أبى طالب وقائل أنهم من ولد عبد الله بن ميمون القداح الأهوازى وأصله من المجوس ، ولم يصلوا الى رأى فاصـــل فى ذلك .

انظر : الخطط المقريزيه : ٢/١٥٠ - ١٥١ ، حسن ابراهيم حســـن ، تاريخ الدولة الفاطمية : ٥٧ - ٥٩ .

(٢) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب : ٢٧ .

وعبيد الله هذا هو رأس الدولة الفاطمية واليه تنسب فيقال دولة العبيديين وأخذ المهدى يحاول مد سلطانه على جميع المغرب ، فأزال دولة بنى الأغلب من تونس ، وأزال أو ساهم فى ازالة دولة الأدارسه ، وبذلك يكون قد مهد الطريق للمعز لدين الله الذى جاء بعده بنصف قرن أى نحو سنة ثمان وخمسين وثلاثمائه ، ووضع المغرب كله تحت لوائه ، وخطب للعبيديين على جميع منابر المغرب (١) ، ثم بدأ المعز محاولاته للسيطرة على مصر التى كان يحكمها الأخشيديون من قبل الدولة العباسية ، وقد كانت مصر فى آواخر حكم كافور الأخشيدى تعانى من القحط الشديد الذى سببه انخفاض النيل وأصاب الناس بلاء (٢) وجهد شديد حتى قيل انهم عجزوا عن تكفين موتاهم وزاد الطين بله غارات القرامطة المتوالية ، وموت كافور سنة سبع وخمسين وثلاثمائه ومجىء أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيد خلفا له ، وكان هذا غلاما لم يتجاوز الحادية عشره من عمره فعجز عن صد غارات المغيرين ، وعن انقاذ البلاد مما هى فيه من الاضطراب والشده .

فاستغل المعز الفاطمى هذا الوضع ، وأرسل قائده الطهم جوهر الصقلى على رأس جيش عرمرم بلغ تعداده مائة ألف جندى الى مصر ، فدخل الأسكندريه دون مقاومة تذكر ثم دخل الفسطاط وأمن الشعب ، ومنحهم الحرية التامه فى شعائرهم وجميع أمورهم . حتى اذا استتبت الأمور لجوهر دعا خليفته المعز ، فدخل هذا مصر سنة احدى وستين وثلاثمائه واتخذها عاصمة له ، واختط مدينة القاهرة وفصل مصر نهائيا من الخلافة العباسية ، ثم

---

(١) السلاوى ، الاستقصاء فى اخبار المغرب الأقصى : ١/٨٦ - ٨٧ .

(٢) الخطط المقريزية : ١/٣٣٠ .

أتبعها بعد ذلك بالشام والحجاز وغيرهما حتى غدت الدولة الفاطمية تمتـد من المحيط الأطلسى غربا الى البحر الأحمر شرقا ، وبلغت قوتها مبلغا عظيما ، ولكن هذه القوة وهذا الاتساع لم يغنيا عنها عندما بدأت نهايتها تلـوح فى الأفق ، فقد انقضى عهد الخلفاء الأقوياء وجاء دور الضعف - كما هى السنة المطرده فى قيام الدول وسقوطها - والتنازع وسيطرة الوزراء علـى الخلفاء وأصبح الوزير يأخذ لقب ملك ، وكثرت الأحزاب المتضاده المتناحـرة والأهم من ذلك هو غارات الصليبيين على أجزاء من الدولة الفاطمية واحتلالهـا ففى سنة تسع وأربعين وخمسمائه استولوا على عسقلان آخر معاقل الفاطميـة فى فلسطين ، ولم يمنعهم من احتلال مصر الا ظهور قوة نور الدين زنكـى فى الشام . ولكن السبب المباشر فى سقوط هذه الدوله الكبيره هو اغتيـال الخليفة الظافر ، وتولى ابنه الفائز وكان طفلا ، فاستنجد أهل القصـر بالأمير طلائع بن رزيك والى الأشمونين الذى لبى النداء وضبط الأمور بحكمه وولى بدوره رجلا يقال له شاور على الصعيد ، ولم يلبث الوزير طلائع أن قتـل بدسيسه من الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وتولى مكانه ابنـه العادل ، ولكن شاور خلعه وقتله ، فاستاء الناس من ذلك الفعل وخاصة أن شاور لم يستطع دفع الصليبيين الذين زحفوا الى مصر سنة أربع وستين وخمسمائه فلم يجد بدا من استصراخ نور الدين ، فبعث نور الدين معه بجيش كبير يقوده أسد الدين شيركوه فباغت الصليبيين وهزمهم ، ودخل القاهـرة دخول الفاتحين ، فخلع عليه الخليفة العاضد ، ولكن شاور بدا قلقـه من بقاء شيركوه فى مصر ، واتصل بالصليبيين يطلب العون ، ولكن شيركوه قبض عليه وقتله ، وأصبح هو وزير الخليفة العاضد الذى لم يعد يملك شيئا ، ولكـن شيركوه سرعان ماتوفى ، فخلفه فى الوزاره ابن أخيه صلاح الدين بن أيـوب

الذى عمل على توطيد مركزه بالحكمه ، وكسب رضى الشعب بما كان يتمتع به من الأخلاق والصفات الحميدة ، وبدأ بركز حملاته على الصليبيين فى الكرك والشوبك ، كما أنه دحرهم عندما غزوا دمياط فانهزموا مخذولين فلحقهم الى عقر دارهم ، الأمر الذى جعل المصريين من الشيعة والسنه يلتفون حوله ، ويجدون فيه الحامى الأمين لهم ، عندئذ استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين ، فقام بعزل الشيعة من المناصب الدينيه والفقهيه ، وتوليتها للسنيين (الشافعية) سنة سبع وستين وخمسمائه ، كما بدأ بزيل من الدولة والجيش العناصر غير الموثوق بها ، وأبطل زيادات الأذان التى وضعها الفاطميون ، وجميع شعائرهم كالأعياد وغيرها ، ثم أسقط اسم الخليفة العاضد من الخطبة رسميا بأمر نور الدين ، ودعى للخليفة العباسى المستضئ ، وكان العاضد مريضا آنذاك ، ومات وهو لم يعلم بهذا التغيير . (١)

وبذلك زالت الدولة الفاطميه بعد أن حكمت أكثر من قرنين من الزمان .

وأشهر من رثى الدولة الفاطمية شاعرها (٢) عمارة اليمنى الذى يقول (٣) :-

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ١١/١٤٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) هو أبو محمد عماره بن أبى الحسن الحكمى المذحجى . نشأ فى مدينة مرطان من تهامه ، ثم رحل الى زبيد سنة ٥٣١ فتفقه فيها على المذهب الشافعى ، وأخذ يقول الشعر من ذلك الحين ، قدم مصر سنة ٥٤٩ هـ أيام الخليفة الفائز . ووزيره ابن رزيك فأجزلا صلته ، وبالغا فى اكرامه فأطنب فى مدحهم وأحبهم ، وظل يحن الى الفاطميين بعد زوال دولتهم وانتهى به الأمر أن ائتمر مع عدد من المصريين للفتك بصلاح الدين ، ولكنهم كشفوا ، فأعدموا سنة ٥٦٩ هـ من تصانيفه : أخبار اليمن ، النكت العصرية فى اخبار وزراء الدوله المصريه . أنظر :- العماد الأصفهانى : خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٣/١٠١ - ١٠٢ ، المقدسى ، الروضتين فى أخبار الدولتين : ١/٢٢٤ ، أخبار اليمن ص ٢٢ .

(٣) القصيدة فى ديوانه : ١٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ١/٢١٢ - ٢١٦ .

رميت يادهر كف المجد بالشلل * وجيدة بعد حسن الحلى بالعطل .
سعيت فى منهج الدهر العثور فان * قدرت من عثرات الدهر فاستقل .
هدمت قاعدة المعروف عن عجل * سقيت ، مهلا أما تمشى على مهل .
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة * على فجيعتها فى أكرم الدول .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الوقور ، متبرما بأفعال الدهر الذى رمى قاعدة المعروف ، ومنية الآمال وأعظم الدول بقاصمة الظهر ، فزلزل أركانها وأذهب خلفاءها . ولكن الشاعر مع لهفته وتفجعه لا يبدو ثائر النفس ولا عنيف العبارة ، وذلك للحقيقة التى استقرت فى نفسه وهى أنه لا أحد يستطيع الهرب بما هو مقدر عليه ، بل ستأتيه به الأيام عاجلا أو آجلا .

ثم يبين الشاعر حبه للدوله الفاطميه لماناله على أيدى خلفائها من الحفاوة والتكريم حين قدم مصر :-

قدمت مصر فأولتنى خلائفها * من المكارم ماأربى على أملى .
ونلت من عظماء الجيش تكرمة * وخدمة حرست من عرض الخلل .
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة * لك الملامة ان قصرت فى عذلى .

ثم ينتقل الى البكاء على دولة الفاطمين ومعالمها الحضارية كالقصور التى أزعج أهلها عنها وبعضها هدم ، وبعضها الآخر سكنه أناس من غير أهله الذين عرفهم الشاعر :-

بالله زر ساحة القصرين وابك معى * عليهما لا على صفين والجمل .
وقل لأهلهما والله ماالتأمت * فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل .
مررت بالقصر والأركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل .
فملت عنها بوجهى خوف منتقد * من الأعادى ووجه الود لم يَمِل .
أسلبت من أسف دمعى غداةَ خلت * رحابكم وغدت مهجورة السُبُل .

والقصران اللذان يبكيهما الشاعر فى هذه الأبيات هما : القصر الكبير ،

وقصر اللؤلؤه حيث مقر الخلفاء الفاطميين ، وكانا يعجان بخزائن الأموال والعبيد والجوارى ، فوضع صلاح الدين يده على الأموال ، وباع وأعتق واستخدم ماشاء من أولئك العبيد والجوارى .(١)

ثم أعطى القصر الكبير للأمراء والقواد فسكنوه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب فى قصر اللؤلؤه ويزور الشاعر هذه القصور التى طالما رتع فى بلاطها ودبج المدائح فى أربابها ، فلا يرى تلك الوفود التى كانت تفعم بها عراص قصر الملك ورحابه ، فيخفق قلبه للذكريات الماضية ، ولكنه أشاح بوجهه عنها خوف الرقباء والأعداء ، وأسبل دمعة على تذكر الرحاب المهجورة ، والمكارم التى لاتزال آثارها تنبىء عنها :-

أبكى على مأثرات من مكارمكم * حال الزمان عليها وهى لم تحل .

دار الضيافة كانت أنس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل .

وفطرة الصوم اذ أضحت مكارمكم * تشكو من الدهر حيفا غير محتمل .

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست * ورث منها جديد عندهم وبلى .

وموسم كان فى يوم الخليج لكم * فيهن من وبل جود ليس بالوشل .

والأرض تهتز فى وشى وفى شبة * مثل العرائس فى حلى وفى حلل .

وماخصصتم ببر أهل ملتكم * حتى عممتم به الأقصى من الملل .

وماحطتم قرى الأضياف من سعة الـ * أطباق الا على الأكتاف والعجل .

كانت رواتبكم للوافدين وللضـ * ـيف المقيم وللطارى من الرسل .

---

(١) الخطط المقريزيه ٢/ ٢١٢ - ٢١٦ .

يذكر عمارة اليمنى فى هذه الأبيات - بحزن وألم - ماكان للفاطميين من المآثر العظيمة التى نال خيرها القريب والبعيد ، كدار الضيافة التى بناها الوزراء الفاطميون وجهزوها بكل مايلزم الساكن ، لتكون مأوى للوفود التى تقدم الى قصر الحكم من خارج الدولة أو داخلها ، كما كان من عادة الخلفاء والوزراء ومراسمهم اطعام الناس فى شهر رضان ، فكانوا يجلسون معهم على مائدة واحدة تسمى سماط شهر رمضان تحفل من أصناف الطعام والشراب مايعجز عنه الوصف ويبقى هذا الحال طيلة الشهر الكريم ، حتى اذا كان يوم العيد زيد فى الأطعمة ووزعت الهدايا والدنانير والأكسيه . ولهم موسم (١) كان يسمى بيوم الخليج ، وهو يوم ازدياد منسوب مياه النيل فيفرجون بذلك أشد الفرح ، ويخرج الخليفة والحاشية ويركبون القوارب المائيه الصغيره ، ثم ينزلون فى مكان معين على شاطئ النهر وقد ضربت لهم المضارب الفخمه واحتشد الناس احتشادا عظيما ، فيأتى القراء ، ويقرأون القرآن حتى يختموا ، ثم تقام صلاة الشكر لله على هذه النعمه يصليها الخليفة بالناس ، ويبيتون تلك الليلة فى ذلك المكان يكبرون حتى اذا جاء الصباح نثرت على الناس الأموال والثياب بغزارة ، ثم ينصرف الخليفة والوزراء وسط موكب فخم تزهو به الأرض . (٢)

وبعد هذه الأفعال الخيره التى كانوا يقومون بها ، وفقدت بعدهم يأخذ الشاعر فى مدحهم والثناء عليهم مركزا على مذهبهم الدينى مضفيا عليهم أوصاف الأولياء الصالحين من أئمة الهدى وأن الاعتصام بحبهم هو أصل الدين ونجاح السعى فى الدنيا والآخره يقول :-

---

(١) ، (٢) أنظر تفصيل هذه المواسم فى المصدر السابق : ص ٢٤١ ، ٢٢٢ ، ٣٥٧ .

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم * ولا نجا من عذاب النار غير ولى .
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ * من كف خير البرايا خاتم الرسل .
ولا رأى جنة الله التى خلقت * من خان عهد الامام العاضد بن على .
أئمتى وهداتى والذخيرة لى * اذا ارتهنت بما قدمت من عمل .
تالله لم أوفهم فى المدح حقهم * لأن حقهم كالوابل الهطل .
باب النجاة هم دنيا وآخرة * وحبهم فهو أصل الدين والعمل .
نور الدجى ومصابيح الهدى ومحل * ل الغيث ان ونت الأنواء فى المحل .
أئمة خلقوا نورا فنورهم * من نور خالص نور الله لم يفل .
والله لا زلت عن حبى لهم أبدا * ما أخر الله لى فى مدة الأجل .

اننا لنلمس صدق العاطفة ، والولاء والاخلاص لا ولئك القوم فى أبيات الشاعر هذه . كما نحس أيضا الاندفاع والثوره التى لم يستطع الشاعر ضبطها فهو فى الأبيات الثلاثة الأولى يعرض بوضوح بصلاح الدين وأصحابه الذين أزاحوا الخليفة العاضد ، وقضوا على الخلافة الفاطمية . ثم هذه المبالغات التى يضيفها ، والتى يوصلهم بها الى حد التقديس مع علمه بما كان من الاختلاف فى حقيقة نسبهم العلوى ، فهم عنده نور من نور الله الخالص الذى يجلو الدياجى ، وينير سبل الهدى وهو يؤكد فى ختام قصيدته على حبه الأبدى لهم ما أنسأ الله له فى الأجل .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أن عمارة اليمنى الذى قد يتوهم من شعره أنه على مذهب الشيعة الفاطميين كان سنيا شافعيا (١) . ويروى أن الملك الصالح طلائع بن رزيك الفاطمى بعث الى عماره الأبيات التاليه يدعوه

---

(١) أخبار اليمن : ٣١ .

فيها الى مذهبه الشيعى ، ومعها ثلاثة أكياس من الذهب فيها ثلاثة آلاف دينار :-

قل للفقيه عمارة ياخير من * أضحى يؤلف خطبة وخطابا .
اقبل نصيحة من دعاك الى الهدى قل حطة وادخل علينا البابا .
تلق الأئمة شافعين ولا تجد * الا لدينا سنة وكتابا .
وتعجل الالاف وهى ثلاثة * صلة وحقك لا تكون ثوابا .

فأبى عمارة وأنكر ذلك ، وأجاب داعيه مع رسوله :-

حاشاك من هذا الخطاب خطابا * ياخير أملاك الزمان نصابا .
لكن اذا ماأفسدت علماؤكم * معمور معتقدى وصار خرابا .
ودعوتم فكرى الى أقوالكم * من بعد ذاك أطاعكم وأجابا .
فاشدد يديك على صفاء مودتى * وأمنن على وسد هذا البابا .

ويقول عمارة - أيضا - فى رثاء الفاطميين ، وهو بذلك يستثير حفيظة أصحاب صلاح الدين :- (١)

لما رأيت عراص القصر خالية * من الأنيس وما فى الربع سادات .
أيقنت أنهم عن ربعهم رحلوا * وخلفونى وفى قلبى حزازات .
سألت أبله قلبى فى السلو وقد * يقال للبله فى الدنيا اصابات .
فقال رأى ضعيف لا يطاوعنى * كيف السلو وأهل القصر قد ماتوا .
يارب ان كان لى فى قربهم طمع * عجل بذاك فللتسويف آفات .

لقد ظل الشاعر وفيا لمن يرثيهم ، حتى بعد زوال دولتهم بزمن ، وقيام الدولة الأيوبية مكانها ، وكأنه لا يكاد يصدق أن تلك الدولة الواسعة العظيمة

---

(١) أخبار اليمن : ٣٣ - ٣٤ .

قد دالت دولتها ، حتى اذا مارأى خلو قصورهم من الأنيس أيقن برحيلهم فثارت فى نفسه الاحن والحزازات على أعدائهم . تلك الحزازات التى تمنع قلبه من السلو والنسيان ، وقد ساق لنا المحاورة بينه وبين قلبه بقالب خيالى جميل زاد فى توضيح ألمه لفراقهم وتصميمه على فعل شئ ما من أجلهم . وبالفعل فقد دفعه ذلك الحقد على الأيوبيين أعداء أحبابه الفاطميين الى أن يؤلب الناس على صلاح الدين وأن يشترك فى مؤامرة مع وجهاء المصريين وقضاتهم لارجاع الأمر الى الفاطميين ، واتصل هؤلاء المتآمرون (بأما لريك) ملك بيت المقدس الصليبى ، ووليم الثانى ملك النورمان بصقلية ، ولكن خابت آمالهم عندما اكتشفهم رجال صلاح الدين ، وقتلوهم ومنهم شاعرنا الذى استجاب الله دعوته - كما فى البيت الأخير - فألحقه بقومه على عجل . (١)

---

(١) انظر الخبر فى : وفيات الأعيان : ١/ ٣٧٦ ، عنان ، تراجم اسلامية : ٥٦ .

خراب المدن بالحوادث الطبيعية وماقيل فى ذلك من الشعر :-

لم يقف دور الشعر عند رثاء المدن والدول الساقطة والمدمرة بفعل الحروب والفتن بل تعدى ذلك الى متابعة الحوادث الطبيعية التى تصيب المدن بقضاء الله وقدره كالزلازل والأمطار وغير ذلك .

ولقد حدثت فى آواخر الدولة الفاطمية وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائه زلازل عنيفة فى بلاد الشام ، فانهدمت حماه وشيزر ، ومات من أهلهما وتشرد الكثير "ولو لم تدرك العباد والبلاد رحمة الله - تعالى - ولطفه ، ورأفته لكان الخطب الخطير ، والأمر الفظيع المزعج " . (١)

وفى ذلك يقول بعض الشعراء :-

روعتنا زلازل حادثات * بقضاء قضاه رب السماء .
هدمت حصن شيزر وحماة * أهلكت أهلها بسوء القضاء .
وبلادا كثيرة وحصونا * وثغورا موثقات البناء .
واذا ماررنت عيون اليها * أجرت الدمع عندها بالدماء .
واذا ماقضى من الله أمر * سابق فى عباده بالمضاء .
حار قلب اللبيب فيه ومن كا * ن له فطنة وحسن ذكاء .
وتراه مسبحا باكى العيـ * ـن مروعا من سخطة وبلاء .
جل ربى فى ملكه وتعالى * عن مقال الجهال والسفهاء .

والملاحظ على هذه الأبيات التسليم الكامل لقضاء الله ، وقدره الذى نزل بتلك البلاد فدمرها وأهلك أهلها ، فلا يسع الشاعر والحالة هذه الا أن يسكب دموعه فى صمت وخشوع ، ولعل الشاعر المجهول لم يكن من أهل هاتين المدينتين المذكورتين لأنه لم يذكر لنا تفاصيل الحادث وماحوى من هدم ، وهلاك ومالى ذلك .

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٤ .

ومن رثى شيرز بقصائد كثيرة باكية مؤثرة ابنها الأمير أسامة بن منقذ (١) ، وكان مبعدا عنها بأمر عمه أبى العساكر سلطانها آنذاك ، وقد كان فى بعده عنها ، الخير له ولأسرته اذ أنهم نجوا من الزلزال الذى دمر المدينة وقضى على بنى منقذ بأسرهم وأزال ملكهم .

يقول أسامه :- (٢)

أنظر منازل آل منقذ انها * عظة اللبيب وعبرة للناظر .
كانوا بها فى نعمة محروسة * بمكارم ، وذوابل ، وبواتر .
مارامها ملك ولا ذو قدرة * الا انثنى عنها بقلب طائر .
متلهفا مااسطاعها ومن الذى * يلج العرين على الهزبر الخادر .
فأصابها قدر فأهلك من بها * وأعاد شامخها كرسم دائر .
فاذا ذكرتهم مرتنى حسرة * تمرى سحائب دمعى المتبادر .

---

(١) هو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن منقذ ، ولد سنة ٤٨٨ بشيزر ، كان فارسا شجاعا حارب الفرنجة مع السلطان نور الدين زنكى ثم خرج الى القاهرة فأكرمه الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله سنة ٥٣٩ ، ولكنه تركها عائدا الى دمشق عندما كثرت الدسائس حوله وكان شاعرا وأديبا صنف عدة كتب منها " الاعتبار " " والمنازل والديار" وله ديوان شعر . توفى سنة ٥٨٤هـ / أنظر ترجمته فى : معجم الأدباء ١٨٨/٥ ، تهذيب ابن عساكر ٤٠٠/٢ ، الاعتبار : ١-٢ .

(٢) أسامه بن منقذ ، المنازل والديار : ٢/١ .

ان أمر شيزر يدعو لأخذ العظة والعبرة ، فبينما هى فى عز قوتهـــــا ومنعتها التى أعيت الملوك وأرتدوا عنها خائبين اذ ربما أصابها قدر اللـــه الذى لاراد له فأعادها أثرا بعد عين .

ويقــول أيضـــا :

غاضت دموعى فى المنازل وارعوى * صبرى وراجعنى الرقاد النافــر .
ان لم أسح بها سحائب أدمــع * ينجاب خشيتها الغمام الباكـــر .
أأحل الأطلال منـــة عـــارض * وسحاب دمعى مستهل ماطـــر .
انى اذا بشؤون عينى باخـــل * وبعهد من سكن المنازل غـــادر .

ان حادثة الزلزال وقعت على نفس الشاعر وقوع الصاعقة ، فلم يعـــد يطيق صبرا أو هجوعا وكيف لا ؟ والبلد مسقط رأسه والقوم عمومته وبنوهـــم والحادث لا يجدى معه دفاع أو مقاومه فلابد اذن من اهراق الدمع الغزيـــر الذى يستغنى به الشاعر عن السحاب لسقيا أطلال قومه ، لأنه يخشى أن يحمل أطلال الكرام منة جود السحاب فيكون بذلك قد غدر بعهدهم وهذه الصورة الجميلة تبين مدى حب الشاعر لوطنه وقومه رغم عداوتهم له ، كما تبين حزنـه الشديد وبكاءه المتواصل لفراقهم الأبدى ، وقد سلك فيها سبيل المبالغـــة التى يقبلها الموقف الشعرى .

وقال أيضا يبكى بلده شيزر :- (١)

حيا ربوعك من ربا ومنـــازل * سارى الغمام بكل هام هامـــل .
وسقتك يادار الهوى بعد النوى * وطفاء تسفح بالهتون الهاطل .
أبكيك أم أبكى زمانى فيك أم * أهليك أم شرخ الشباب الراحـل .
درست منازلهم وأوحش منهــم * مأنوس أندية وعـــز محافـــل .

---

(١) عمر موسى باشا ، أدب الدول المتتابعة : ٢٧٥ .

واها لهم من عالم ومعالـــم * ومنمات عقائل ومعاقــل .

ذهبوا ذهاب الأمس مامن مخبر * عنهم ، وزالوا كالظلال الزائل .

وبقيت بعدهم حليف كآبـــة * مستورة بتجمـــل وتحامل .

سعدوا براحتهم ، وها أنا بعدهم في شقوة تضنى وهم داخل .

انها لمصيبة عظمى منى بها الشاعر ، فهو يبكى ويتفجع على أشـــياء كثيرة ، على مدينته التى قضى فيها شطرا من حياته على أهلها الذين بــادوا ودرست منازلهم ، ولم يبق لهم أثر ، ولا عنهم مخبر واذا كانوا هم ماتــوا واستراحوا ، فقد أورثوا شاعرنا هما وشقوة قاتله ، وهو فى أســـلوبه وبخاصة فى هذه القصيدة يكثر من استعمال المحسنات كالجناس والطبـــاق والمقابلـة وغيرها ولعل هذا مراعاة لأسلوب الشعر الذى كان سائدا فى ذلـك الوقـت .

وله قصيدة أخرى باكيه يقول منها :-

مااستدرج الموت قومى فى هلاكهـم * ولا تخرمهم مثنى ووحـدانـا .

ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضـوا * هل ماترى ، تارك للعين انسانا .

لم يترك الموت منهم من يخبرنـــى * عنهم فيوضح مالا قوة تبيـانا .

هذى قصورهم أمست قبـــورهـــم * كذاك كانوا بها من قبل سكانا .

ويح الزلازل ، أفنت معشرى فاذا * ذكرتهم خلتنى فى القوم سكرانا .

أفنت على معشرى الأدنين فاصطلمت * منهم كهولا وشبانا وولـدانـــا .

لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبـــت * بأسا تناذره الأقران أزمانـــا .

بنو أبى ، وبنو عمى ، دمى دمهـــم * وان أرونى مناواة وشـــنآنـا .

يطيب النفس عنهم أنهم رحلـــوا * وخلفون على الآثار عجـلانـا .

وهو هنا يصور مصرعهم الرهيب الفاجع ، حيث هلكوا جميعا فى ساعـــــة واحدة ، فأصبحت القصور الشامخة قبورا لهم ، ولم تحمهم قلعتهم المنيعـــة حيث سقطت على السلطان أبى العساكر ومن معه من الأهل والحاشـــــية فأردتهم وهو فى البيت الأخير يستعجل اللحاق بهم .

المبحث الثالث : الشعر يرثى سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :-

لقد ظل احتلال بيت المقدس ، وارجاعه الى الهيمنة النصرانية الحلم الذى داعب خيال الافرنج قرونا طويلة تمتد الى أيام فتحه الأول فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه - فكانوا يعدّون العدة وينتهزون الفرص لتحقيق هذا الهدف الكبير ، ولاطفاء نار غيظهم بالانتقام من المسلمين . ولقد واتتهم الظروف فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، عندما كان العالم الاسلامى موزعا بين عدة قوى ومراكز فالأتراك السلاجقة يسيطرون على الشام بعد أن حلّوا محل بنى بويه فى بسط نفوذهم على الخلافة العباسية فى بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائه يقابلهم الفاطميون فى مصر حيث كان العداء مستحكما بين الدولتين بسبب الأطماع السياسية ، والخلافات المذهبية (١) وفى سنة تسع وثمانين وأربعمائه وردت الى البابا أوربان الثانى - صاحب السلطة الواسعة فى أوربا آنذاك - رسائل كثيرة تحمل شكاوى من معاملة السلاجقة الذين كانوا يحكمون بيت المقدس -للحجاج النصارى ، كما وصلت - أيضا - فى هذا الوقت رسل امبراطور الدولة البيزنطية " الكسيوس " تحمل رسائل الاستغاثه وتطلب المساعده العاجله الفوريه لانقاذ الامبراطوريه البيزنطيه (النصرانيه) من غزوات السلاجقه التى تكررت بعد انتصارهم فى معركة ملاذكرد سنة أربع وستين وأربعمائه حتى استطاعوا أن يقهروا هذه الدولة الكبرى ويفرضوا عليها جزية بلغت ثلاث مائة ألف دينار (٢) ، ومما جاء فى رسائل ذلك الامبرطور للبابا قوله : " ان من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان الى عواصم أوربا الغربية " .

---

(١) سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى : ٦٥ .
(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع : ص ١٣ (الترجمه العربيه .

كما لا ننسى الأطماع الماديه لدى الأوروبيين فى خيرات الشرق الوفيره وأطماع البابا نفسه بمد نفوذه على الكنيسة الشرقية ، وتكوين عالم مسيحى عظيم القوة متحد تحت حكم البابوات . لذلك استغل البابا أوربان اجتماع المجمع الدينى النصرانى الكبير فى مدينة كليرمون بفرنسا ، وكان يحضره ألوف من الفرسان بالاضافة الى رجال الدين والنبلاء وغيرهم . (١) وألقى فى هذا الجمع خطابا حماسيا ، عمل عمله فى اذكاء الروح القتاليه عند النصارى مما أدى الى خروجهم بمئات الالاف الى الشرق لانقاذ القبر المقدس من أيدى المسلمين ، حتى ينالوا رضى البابا ورضى الرب بالتالى ، وقد جعلوا شعارهم صليبا من القماش الأحمر يوضع على الكتف ، فعرفوا لذلك بالصليبيين (٢) وكان مما قاله البابا (٣) : "تقدموا الى البيت المقدس ، انتزعوا تلك الأرض الطاهره ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمنا وعسلا . انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ، وان خذلتم فستقضون حيث مات يسوع فتخلدون فى النعيم الدائم . اذهبوا الى القتال ، وسنرتب أموركم وأموالكم فى غيابكم ، سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التى زودنى بها الله .... فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسه ..... ان أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها هى فردوس المباهج ، ان المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لانقاذها ......" .

---

(١) فليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب المطول : ٢/٧٥٢ - ٧٥٣ .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام : ١/٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٣) محمد صبيح ، القدس معاركنا الكبرى : ١/٣٦٦ .

ثم أخذ بعد ذلك يطوف بنواحى فرنسا وايطاليا ويدعو الى الحرب ، ويخمد النزاع القائم بين الطوائف النصرانية ، وكان يهرع اليه الناس بالآلاف وبخاصة من الفرنسيين الذين كانوا فى أزمة اقتصادية شديدة ووجدوا فى هذه الحرب متنفسا يدعمون به أنفسهم ماديا . (١)

ولقد أسفرت جهود البابا بعد تسعة أشهر من العمل المتواصل عن تكوين حملة صليبية قوامها ثلاثون ألف جندى بقيادة ملوك أوروبا يرافقهم المندوب البابوى الذى يمثل الزعيم الروحى . وساروا حتى وصلوا سنة تسعين وأربعمائة الى أنطاكية * وحاصروها حصارا شديدا مدة تسعة أشهر هلك منهم فى ذلك خلق كثير ولم يستطيعوا اقتحامها الا بخيانة أحد الحراس وانه لمن المؤسف والمحزن أن تصل فى هذه الظروف التى يستبيح فيها الصليبيون أنطاكية (٢) سفارة من الأفضل بن بدر الجمالى وزير الدولة الفاطمية تحمل عروضا للاتفاق مع الصليبيين ضد السلاجقة على أن يكون القسم الشمالى من بلاد الشام للصليبيين ، والجنوبى (فلسطين) للفاطميين ، فتظاهر الصليبيون بالقبول وأرسلوا سفارة الى مصر تؤكد التعاون . عندئذ جرد الأفضل حملة قوية وحاصر بيت المقدس واحتله وطرد الحاكم السلجوقى وأتبع القدس لدولته وأناب فيه رجلا من قبله يعرف بافتخار الدولة وكان هذا الخائن لا يعلم أن الصليبيين يهدفون فى المقام الأول الى الاستيلاء على القدس . واستمر الصليبيون فى زحفهم نحو بيت المقدس وفى طريقهم عرجوا

---

(١) سعيد عاشور ، الحروب الصليبيه : ١/ ٣٤ .

* الأسكندرونه حاليا .

(٢) الأتابكى ، النجوم الزاهره : ٥/ ١٤٧ .

على معرة النعمان (١) فقاتلهم أهلها قتالا عنيفا ، ولكنهم دخلوها فى النهاية وأعملوا السيف فى رقاب أهلها فقتلوا منهم مايزيد على مائة ألف انسان ، وسبوا النساء ، وأقاموا فيها أربعين يوما يعطون الأعمال المروعه دون أن تجد نصيرا .

وقد رثى هذه المدينة الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر التنوخى بقوله (٢) :-

هذه صاح بلدة قد قضى اللـ * ـه عليها كما ترى بالخراب .

وقف العيس وقفة وابك من كا * ن بها من شيوخها والشباب .

واعتبر ان دخلت يوما اليها * فهى كانت منازل الأحباب .

ثم استمرت الحملة فى سيرها نحو القدس بعد أن أخضعت كل المدن التى مرت عليها وأخذت منها الجزية ، وفى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائه وصل الصليبيون الى أسوار بيت المقدس وضربوا حوله طوقا من الحصار دام شهرا ونصف الشهر ، ثم جاءوا ببرجين يطلان على سور المدينه فأحرق المسلمون أحدهما ، ولكنهم زحفوا بالآخر حتى ألصقوه بالسور ، ورموا من عليه بالمجانيق والسهام فانهزم المقاتلون من المسلمين ، ودخل الصليبيون المدينة دخولا مروعا وصبوا ما بأنفسهم من حقد على الاسلام والمسلمين على

---

(١) مدينة بالشام قديمة ، كبيرة كثيرة المبانى لها سبعة أبواب ، من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا يصل التفاف بساتين الزيتون والتين وأنواع الفواكه فيها مسافة طويلة ، وقيل أنها تنسب الى الصحابى النعمان بن بشير / انظر البلاذرى ، فتوح البلدان : ١٥٦ ، رحلة ابن جبير : ٢٥٤ .

(٢) اليافعى ، مرآه الجنان : ٣/١٥٤ .

رؤوس أهل هذه المدينة المقدسه فلم يفرقوا بين رجل وامرأة أو طفل وشيخ ، ثم انجفل الناس الى المسجد الأقصى يحتمون به ، فتبعتهم خيل الصليبيين الى داخله وأعطوا فيهم السيف ، فقتلوا فيه مايزيد على سبعين ألف إنسان منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف . (١) وقد هزت هذه الحادثة ضمائر الناس ونفوسهم فأطالوا البكاء والنحيب فقال بعضهم :-(٢)

أحل الكفر بالاسلام ضيما * يطول عليه للدين النحيب .
فحق ضائع ، وحمى مباح * وسيف قاطع ، ودم صبيب .
وكم من مسلم أمسى سليبا * ومسلمة لها حرم سليب .
وكم من مسجد جعلوه ديرا * على محرابه وضع الصليب .
دم الخنزير فيه لهم خلوق * وتحريق المصاحف فيه طيب .
أمور لو تأملهن طفل * لطفل فى عوارضه المشيب .
أتسبى المسلمات بكل ثغر * وعيش المسلمين اذا يطيب .
أما لله والاسلام حق * يدافع عنه شبان وشيب :
فقل لذوى البصائر حيث كانوا * أجيبوا الله ويحكم أجيبوا .

انها عبرة حزينة يذرفها الشاعر على ماحل بالبلد الشريف وأهله من القتل والحرق واستباحة الحمى ، وتحويل المساجد الى كنائس نصبت الصلبان على محاريبها ، وغابت عنها أصوات المؤذنين . كما مزقت المصاحف وديست وأحرقت الأمر الذى أحدث جرحا غائرا فى نفوس المسلمين، ويذكر المؤرخون

---

(١) انظر تفاصيل احتلال القدس فى : ابن الأثير ، الكامل : ١٠/٢٧٢ - ٢٧٧ .

(٢) النجوم الزاهره : ٥/١٥١ .

أن الصليبيين حولوا قبة الصخرة الى كنيسة ، وأعطوا قسما منها لفرسان الهيكل ليسكنوا فيه ، واتخذوا الأبنية السفلى اسطبلات لخيولهم ودعوها باسطبلات سليمان . (١)

وبعد أن يعدد الشاعر الأمور الشنيعة التي حلت بالمسلمين ، والتي يشيب لهولها الأطفال يرفع صوته صارخا بقوة ، مستشعرا لعزة الاسلام بأن حقوق الله والاسلام قد انتهكت من قبل الأعداء فأين الذين يعرفون هذه الحقوق من المسلمين ليهبوا لحمايتها أينما كانوا .

لقد كان للقدس - خاصة - منزلة عظيمة في نفوس المسلمين على اختلاف ديارهم فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، فمنذ أن تقدم الصليبيون لحصارها شعر أهل الشام بالخطورة والخسارة العظمى اذا أحتلت ، فتوجه وفد من الشام على رأسه قاضي دمشق الى بغداد ليستنجد بالخليفة العباسي المستظهر بالله باعتباره المسئول الأول عن حماية المسلمين فحضروا بين يديه ونقلوا له الأخبار التي تدمي القلوب وتبكي العيون ،فخرج الناس في الجوامع يستغيثون ويبكون حتى انهم كانوا صائمين وأفطروا لشدة وقوع الخبر عليهم (٢) ولكن الخليفة كان لا يقدر على شيء مايطلب ولا حول له ولا قوة ، كما أن سلطان السلاجقه آنذاك (بركياروق) لم يفعل شيئا يذكر فوقع التقاعس من الجميع ، فتمكن الصليبيون من البلد وأقاموا فيه مملكتهم

---

(١) محمود العابدي ، قدسنا : ص ٦٧ .

(٢) تاريخ أبي الفداء : ٢٢٢/٢ .

التى كانت حلما طالما تمنوا تحققه .

وفى هذا الموقف الرهيب والخذلان العجيب قال الأبيوردى :- (١)

مزجنا دماء بالدموع السواجم * فلم يبق منا عرضة للمراحم .

وشر سلاح المرء دمع يفيضه * اذا الحرب شبت نارها بالصوارم .

فايها بنى الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحقن الذرى بالمناسم .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الحزين الباكى الذى يمزج فيه الدم بالدمع ألما وحسرة على مايجرى للمسلمين بفعل الأعداء من جانب وبخذلانهم من قبل اخوانهم المسلمين من جانب آخر ، وبما أن الشاعر لا يستطيع أن يفعل شيئا فى الميدان الجهادى بمفرده فقد لجأ لسلاح العاجزين وهو الدمع الذى لا يغنى شيئا . ثم يتوجه الى بنى الاسلام فى بغداد وغيرها ويخاطبهم باسم الأخوة الاسلامية ليهبوا لنجدة اخوانهم فى الشام :-

أنائمة فى ظل أمن وغبطة * وعيش كنوار الخميلة ناعم .

وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم .

واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى أو بطون القشاعم .

تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم .

---

(١) القصيدة فى : السيوطى ، تاريخ الخلفاء : ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل : ١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٥ .

والأبيوردى هو أبو المظفر محمد بن أبى العباس يصل نسبة الى عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى ، كان شاعرا مشهورا وراوية ، ونسابة وأحد قراء أبيورد وهى مدينة بخراسان ، ومن آثاره : كتاب "تاريخ أبيورد ونسا " "والمؤتلف والمختلف " ، "تعلة المشتاق الى ساكنى العراق " وغيرها / انظر الوفيات : ٤/ ٤٤٤ ، السيوطى ، بغية الوعاه : ١/ ٤٠ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات : ٢/ ٩١ .

فكم من دماء قد أبيحت ومن دمى * توارى حياء حسنها بالمعاصم .
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا * وسمر العوالى داميات اللهازم .
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم .
وتلك حروب من يغب عن غمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم .

ان الشاعر يلجأ الى الأسلوب الخطابى والعبارات الجزلة ذات الوقع القوى على النفوس بغية أن تثير فيها الحماس وتدفعها الى الجهاد ، فهو يتساءل متعجبا ممن لا يزال يغط فى نومه آمنا ، ولا يبالى بتلك المصائب والفواجع النازلة بالمسلمين وديارهم ، والتى أطار ذكرها النوم من العيون ، وهل يجوز لمسلم أن ينام هانئا واخوانه فى بيت المقدس قد أخذتهم سيوف الصليبيين فهم بين قتيل مضرج بدمائه وبين أسير يرزح فى قيود الذل والهوان ، يقول القس رغيد الأجيلى ، وهو نصرانى وشاهد عيان للمذبحة المروعة : "وشاهدنا أشياء عجيبة اذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين ، وقتل غيرهم بالسهام ، وأرغموا أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وبعضهم عذب عدة أيام ثم أحرق ، وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الانسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل ..... والنساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب والأطفال يختطفون بأرجلهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تدق رؤوسهم بالعمد (1) وما دام الأمر على هذه الحال التى يذكرها هذا الصليبى ، فان الشاعر لا يلام على توبيخه المتقاعسين طلبا للسلامه وتذكيره اياهم بأنهم

---

(1) قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع ص ٢٥ .

سيندمون على ذلك أشد الندم ، ثم يبين أن أفعال هؤلاء المتقاعسين عن الجهاد قد أزعجت النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى كاد يصرخ مستنجدا :

سللن بأيدى المشركين قواضبا * ستغمد منهم فى الطلى والجماجم .
يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت ياآل هاشم .
أرى أمتى لا يشرعون الى العدى * رماحهم والدين واهى الدعائم .
ويجتنبون النار خوفا من الردى * ولا يحسبون العار ضربة لازم .
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى * وتغضى على ذل كماة الأعاجم .
فليتهم اذ لم يذودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم .
وان زهدوا فى الأجر ، اذ حمى الوغى فهلا أتوه رغبة فى الغنائم .
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى (١) * فلا عطسوا الا بأجدع راغم .

أن الشاعر يخاطب الناس على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - كما فعل ابن الرومى فى رثاء البصرة آنفا . فالنبى يحز فى نفسه أن يرى أمته قد دخلها الوهن ، فلم تعلن الحرب دفاعا عن الدين وانما ضنوا بأنفسهم وتحملوا فى سبيل ذلك الذل والعار ، سواء فى ذلك العرب ولعله أراد العباسيين أو العجم كالأتراك السلاجقه وغيرهم الذين لم تحركهم الحرقة على الاسلام والغيره على حرماته ، ولم يطمعوا أيضا - لجبنهم وعجزهم - بالغنائم والأسلاب .

ان الشاعر يبدو قوى النفس ذا عزيمة فهو لا يلجأ الى البكاء السلبى الانهزامى فى قصيدته وانما يقف وقفة شجاعة ، يستعمل فيها ما استطاع من وسائل التأثير

---

(١) البرى : مفردها براية وهى القوة ، والمقصود هنا الذل لقوة الأعداء.
انظر اللسان (برى) .

وبعث الحماس ، فهل من سامع مجيب ؟ والذى يبدو ويؤيده الواقع التاريخى أن استصراخه ذهب مع الريح ، وكأنه ينادى أمواتا . يقول فى ختام القصيدة :-

دعوناكم والحرب ترنو ملحة * الينا بألحاظ النسور القشاعم .

تراقب فينا غارة عربية * تطيل عليها الروم عض الأباهم .

فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم .

وبقى الصليبيون يجوسون خلال الديار ويدنسون الأقصى برجسهم مايقارب القرن من الزمان حتى قيض الله للأمة الاسلامية البطل صلاح الدين الأيوبى فجمع شتاتها ، ووحدها على الاسلام والقرآن ، ثم رفع راية الجهاد فى سبيل الله فانتصر على الصليبيين انتصارات ساحقه واستطاع أن يرجع الأقصى وبيت المقدس الى دائرة الاسلام ، وأن يغسل العار الذى لازم المسلمين حينا من الدهر ، وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائه ؛ فعاد للقدس اشراقه ونوره بعودة شعائر الاسلام الى رحابه ، ولكن خلفاء صلاح الدين فى الحكم لم يكن لهم قوته ، وسداد رأيه وذلك أنه فى سنة ست عشرة وستمائه شعر الصليبيون - الذين لم يرحلوا كليا عن الشام - بقوتهم فخرجوا وانتشروا فى البلاد ، فما كان من الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبى حاكم بيت المقدس آنذاك الا أن خرّبه خرابا شنيعا أوحش الناس منه فرغبوا عن السكنى فيه ، وذلك خوفا من وقوعه ثانية بأيدى الصليبيين ، فأصاب الناس غم شديد وبكوه أحر البكاء ، ورثاه الفاضل شهاب الدين يعقوب بن المجاور بقصيدة يقول فيها : (١)

---

(١) المقدسى ، الروضتين : ٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦ . والشاعر هو يوسف بن الحسين بن محمد ، أبو الفتح ، ابن المجاور فارسى الأصل من شيراز نشأ ومات فى دمشق . أديب وشاعر . كان معلما للعزيز بن صلاح الدين ثم وزر له بعد وفاة أبيه / أنظر : ابن سعيد ، الغصون اليانعه : ١٩ - ٢٥ ، الشذرات : ٧/ ٤٦ .

أعينى لا ترقى من العبرات * صلى فى البكا الآصال بالبكرات .
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها * توقد مافى القلب من جمرات .
وياقلب أسعر نار وجدك كلما * خبت بادكار يبعث الحسرات .
ويافم بح بالشجو منك لعله * يروح ماألقى من الكربات .

يشرح الشاعر حالته ومادخله من الهم والحزن الشديد الذى أشعل قلبه نارا ، فأرسل الدمع مدرارا يحاول به أن يطفئ ذلك اللهيب ، ولكن هيهات أن تخمد هذه النار مادام القلب يزيد اشتعالها بتذكره ماحصل للقدس - موطنه الحبيب - من الخراب والدمار فهو لذلك يظل حبيس كرباته ولاسيما عند تذكاره ماحبا الله - تعالى - به ذلك البلد :-

على المسجد الأقصى الذى جل قدره * على موطن الاخبات والصلوات .
على منزل الأملاك والوحى والهدى * على مشهد الأبدال (١) والبدلات .
على سلّم المعراج والصخرة التى * أنافت بما فى الأرض من صخرات .
على القبلة الأولى التى اتجهت لها * صلاة البرايا فى اختلاف جهات .
على خير معمور وأكرم عامر * وأشرف مبنى لخير بناة .
ومازال فيه للنبيين معبد * يوالون فى أرجائه السجدات .
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الر * رفيع العماد العالى الشرفات .
عفا بعد ماقد كان للخير موسما * وللبر والاحسان والقربات .
يوافى اليه كل أشعث قانت * لمولاة بر دائم الخلوات .
خلا من حنين التائبين وحزنهم * فمن بين نواح وبين بكاة .

---

(١) الأبدال : الأولياء والعباد . سموبذلك لأنهم كلما ماتمنهم واحد أبدل بآخر . اللسان : (بدل) .

ان المسجد الأقصى كان له فضل كبير وأثر مجيد فى تاريخ المسلمين فهو موطن الاسراء والمعراج ، وصلاة النبيين أجمع مأمومين بسيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام . وهو القبلة الأولى التى اتجه اليها المسلمون كما أنه كان طيلة العصور التى مرت به موئلا لأهل العلم والتقى المنقطعين فيه للعبادة ، والذين يأتون اليه من مختلف الأصقاع يجاورون فيه ، كما كان يحصل هذا - أيضا - فى حرم مكة والمدينة . لهذا فالأقصى لجميع المسلمين دون تخصيص فليبكوه اذن جميعا :-

لتبك على القدس البلاد بأسرها * وتعلن بالأحزان والترحات .

لتبك عليها مكة فهى أختها * وتشكو الذى لاقت الى عرفات .

لتبك على ماحل بالقدس طيبة * وتشرحه فى أكرم الحجرات .

ثم ينتقل الشاعر لينحى باللوم على من هدم القدس ويصفه بأنه أشمت بهذا الفعل امارات الصليبيين المقامة فى صور وعكا ، كما أنه لجهله وحمقه قد هدم مجد الأيوبيين الذى بناه عظيمهم صلاح الدين ، وتوجه بفتح القدس :

لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها * وياطالما غادتهما بشمات .

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها * وكل اجتماع مؤذن بشتات .

وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها وقد كان مجدا باذخ الغرفات .

وقد أخمدوا صيتا أشاره * لهم عظم ماوالوا من الغزوات .

أما علمت أبناء أيوب أنهم * بحسناته عدوا من السروات .

وان افتتاح القدس زهرة ملكهم * وهل ثمر الا من الزهرات .

وفى ختام القصيدة لا يطلب الشاعر الغوث والنجدة من المسلمين لأن الفاعل ليس عدوا أجنبيا ، وانما يطلب نوائح يندبن خراب القدس بأصوات شجية ليبقى الأسى متجددا والحزن مستمرا .

فمن لى بنّواح ينحن على الذى * شجانى بأصوات لهن شجـاة .

يردن بيتا للخزاعى قالـه * يؤبن فيه خيرة الخـيرات .

مدارس آيات خلت من تـلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصـات .

والمقصود بالخزاعى هو دعبل الشاعر الذى قال البيت الأخير من هـذه القصيدة يرثى فيه أهل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم :- (١)

ومن الجدير بالذكر أننى فى هذا الفصل اقتصرت على ايراد قصائـد الرثاء الخالص ولم أتعرض لأبيات الرثاء أو الحث على استنقاذ القدس التى تأتى ضمن قصائد المدح التى قيلت فى صلاح الدين أو فى سلاطين آل زنكى وغيرهم لأن ذلك خارج عن موضوع البحث من حيث الطبيعة والأسلوب .

---

(١) انظر الأغانى : ٢٠/١٥٢ - ١٥٣ .

الفصل الرابع : تدمير بغداد والشام على يد التتّار ، ورثاء الشعراء لهما :-

من أعظم المصائب والأخطار التى ابتليت بها الأمة الاسلامية وحضارتها عبر تاريخها الطويل الهجوم الكاسح الذى قامت به جموع التتّار المدمّره على الممالك الاسلامية واحكام السيطرة عليها وسط بحور من الدماء وجبال من الجثث والهام والأطراف الممزقة بالاضافة الى الخراب الشامل الذى لحق كل شئ وصلت اليه أيديهم ، ويصف المؤرخ ابن الأثير ذلك بقوله : (١) " الحادثة الكبرى والمصيبة العظمى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله آدم والى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا .... " وقد أعرض ابن الأثير فى بداية الأمر عن تدوين ما أحدثه التتّار من الحوادث الشنيعة فى البلاد الاسلامية الشرقية كالدولة الخوارزمية استفظاعا لذلك يقول : (٢) " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثه استعظاما لها ، كارها لذكرها فأنا أقدم اليها رجلا وأؤخر أخرى ، فمن يهون عليه ذكر ذلك ، ومن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى كنت نسيا منسيا " .

وقد كان خروج هذه الوحوش التترية فى سنة ست عشرة وستمائه من أطراف الصين ثم عبروا نهر جيحون الى الدولة الخوارزميه التى كانت أقوى وأكبر دولة اسلامية فى الشرق ، حيث قضت على سلطان السلاجقه ونفوذهم فى بغداد وأخذت الصفة الشرعية من الخليفة العباسى وكان حاكمها آنذاك

---

(١) الكامل فى التاريخ : ٣٥٨/١٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٥٩ .

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ، وكان شرها فى ابتلاع الدويلات التى تجاوره وضمها الى دولته ، حتى ان أطماعه وصلت الى بغداد نفسها لأن الخليفة الناصر لدين الله لم يأمر بذكر اسم هذا السلطان بعده على منابر بغداد ، فاعتنق المذهب الشيعى ، وحصل على فتوى من علماء دولته تقول ان العباسيين قد اغتصبوا الملك من العلويين فسلطانهم غير شرعى يجب ازالته ، فجهز جيشا كثيفا لغزو بغداد ، وجاء برجل علوى يسمى (علاء الملك) (١) ونادى به خليفة ، وخطب له وصك باسمه السكة . وسار بجيشه حتى اذا بلغ منتصف المسافة رمته العواصف والثلوج بقوارعها فأهلكت معظم جيشه فارتد الى بلاده ليجد الخطر التترى ماثلا أمامه . وهنا تقول بعض الروايات التاريخية ان الخليفة استنجد بجنكيزخان زعيم التتر لينقذه من بطش خوارزمشاه الذى أراد أن يقضى على الخلافة ، فكانت البلية العظمى بخروج جحافله الرهيبه .

يقول ابن الأثير عند كلامه عن الخليفة الناصر (٢) " وكان سبب ماينسبه العجم اليه صحيحا من أنه هو الذى اطمع التتر فى البلاد ، وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم " .

وقال المقريزى - أيضا - (٣) : " وفى خلافته خرب التتر بلاد الشرق حتى وصلوا همذان ، وكان هو السبب فى ذلك ، فانه كتب اليهم بالعبور الى البلاد خوفا من السلطان محمد علاء الدين خوارزمشاه لمّا هم بالاستيلاء على بغداد ......" .

---

(١) فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ : ٧١ .

(٢) الكامل : ٤ / ٣٦١ .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك : القسم الأول ، ج ١ ص ٢١٨ .

ولكن السبب المباشر فى غزو التتر مملكة خوارزم هو اعتداء أحمد ولاة خوارزمشاه على تجار المغول الذين يمرون بأرضه آمنين وقتلهم ونهب مامعهم (١) من متاع بحجة أنهم جواسيس ، وكان هذا الوالى خالا للشاه ، فرفض تسليمه للتتر لينال العقاب ، بناء على طلب جنكيزخان ذلك فوقع الخلاف والتهديد بينهما ، فعبروا النهر لقتال السلطان فبدأوا بذلك الوالى وقتلوه بطريقة بشعة ثم تقدموا نحو بخارى وسمرقند وأحدثوا بهما مذبحة كبرى (٢) فقد بلغ عدد القتلى فى سمرقند مايزيد على سبعين ألفا بعد أن أخذوا منها كل من يصلح للقتال ، ثم ساروا الى نيسابور فالرى حيث لاقتا نفس المصير ، وهرب السلطان خوارزم شاه ، ومات طيلا مغموما سنة عشرة وستمائه (٣) ثم وصل التتار الى مدينة جرجانيه عاصمة اقليم خوارزم فحاصروها بشدة وضربوها بالمجانيق ثم دخلوها ، وقتلوا جميع أهلها ثم هدموا السد المقام على نهر جيحون فأغرقوا المدينة بالماء فتهدمت وأصبحت أطلالا . ثم (٤) تركوها الى مدينة مراغة أعظم مدن بلاد أذربيجان ، وكانت محصنة وبها قلعه

---

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء : ٤٦٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٨٢/١٣ ومابعدها .

(٣) قاعدة خوازم العظمى على ضفة النهر يبلغ طولها تسعة أميال فى مثلها يحيط بها سور عظيم وبها أسواق كبيرة عامره وكانت مقر السلطان محمد خوارزم الشاه الذى سقطت فى عهده سنة ٦١٨ هـ / الحميرى ، الروض المعطار : (جرجانيه) .

(٤) بلدة مشهورة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان ، بناها مروان بن الحكم وهو والى على أرمينية وأذربيجان ثم صارت الى العباسيين أيام الرشيد منيعة الأسوار كثيرة الخيرات والغلات . معجم البلدان (مراغه) .

تقيم فيها المرأة التى كانت تحكم المدينة آنذاك ، فحاصروها مدة ثم دخلوها عنوة وقهرا ، فوضعوا السيف فى أهلها فقتل منهم مايخرج عن العد والاحصاء ونهبوا كل مايصلح لهم ، ومالا يصلح أحرقوه وتركوا المدينة أكواما من الرماد .

ونتيجة لهذه الأخبار المرعبة عن فظائع التتر وقسوتهم وضعت على الناس الذلة فلايدفعون عن أنفسهم اذ تأكد عندهم أن التتر لا يغلبون ، يقول ابن الأثير عن أهل مراغة : "سمعت من بعض أهلها أن رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فمازال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد يده اليه بسوء" (١) .

وفى رثاء مدينة مراغة قال أبو الحسن المراغى :- (٢)

حرمت جفونى من هدوء غرار * وصميم قلبى من نعيم قرار .

ونفاد دمعى من بكائى دائما * بمدامع حال البكاء غزار .

وعقود عمرى اليوم تمت خمسة * وبها تناهى أكثر الأعمار .

والشيب شامل عارضى ومفارقى * لطليعة طلعت بجيش بوار .

ماصار لولا تلك رأسى أغبرا * فالجيش يقدمه مثار غبار .

---

(١) الكامل ١٢/ ٧٨

(٢) هو عبد المجيد بن الحسن بن الخطاب المراغى ، من فضلاء أذربيجان غزير الحفظ عالما بالأدب مبرزا فى اللغة والشعر ، لم يكن فى زمانه من يضاهيه فيما يتعلق بالفنون الأدبية وصنعة النظم والنثر . من كتبه شرح اللمع ، شرح سقط الزند وغيرها ، استشهد سنة ٦٢٧ بقرية من قرى اربل . انظر : ابن الشعار الموصلى : عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان : ج ٤ لوحه ٣٩ والقصيدة فى المصدر نفسه : ج ٤ ، لوحه ٤٠ - ٤١ .

يذكر الشاعر فى مقدمة قصيدته الطويلة ما آلت اليه حالته النفسية من جراء هجوم الجيوش الغازية على موطنه ، فقد غزاه هو - أيضا - جيش من الغم والحزن أطار النوم من جفونه وأجرى دمعه مدرارا ، وأشاب رأسه مؤذنا اياه بالفناء ، وهو بشرح حالته هذه يمهد لتفصيل الحادثة الكبرى التى لا يستغرب معها ما أصابه من الحزن والألم . :-

أو ما رأيتم أن طوفان الردى * أخذ المراغة من هجوم تتار .
ان المراغة كالسفينة أغرقت * فى لجة من عسكر جرار .
فى النصف من يومين قد ظفروا بها * قهرا بحكم الواحد القهار .
فظهيرة الأحد ابتداء حصارهم * والأخذ فى الإثنين شر نهار .
هجموا وقد أخذوا أعالى سورها * بمجانق يمطرن بالأحجار .

ثم يمضى الشاعر على هذا النحو فى وصف الحجارة التى تصبها المجانيق على أسوار تلك البلدة المنكوبة حتى أحدثت فيه ثغرات وشقوقا فى أساسه الأمر الذى جعل الناس يتركون الأسوار منهزمين وسقط السور فى النهاية ودخل العدو . كل هذه الأحداث يسردها الشاعر بأسلوب قصصى واقعى ينقلك الى تلك المدينه ويجعلك تشاطره أحزانه وهمومه :-

بسقوطه ارتفع الغبار وراع أهـ * ـل الحق فانحدروا من الأسوار .
لما رأى الكفار سورا عاليا * وهوى ببرج تساقط منهار .
صعدوا اليه رافعين لواءهم * فصاد قل الزمرة الأبرار .
لجأت الى دار الهمام امام ديـ * ـن الله الآف من الأخيار .
فأجارهم ووقاهم فى داره * قاضى لحق اجاره وجوار .
وأطاب قلبهم بطيب وعوده * اذ قال أحميكم أنا فى دارى .
فحماهم يوما وليلا كاملا * عن ناب قوم كالكلاب ضوارى .

وغدا ..... استداروا حولها (١) * كاحاطة الهالات بالأقمار .
فسما غيث السهم تمطر داره * مطر السماء الصيب المطار .
وعلا ليمنعهم أعالي داره * فلهم تيسر فتح باب الدار .
دخلوا وقد ظفروا بمن في داره * من نسوة ومشايخ وذراري .
قتلوا جميعهم بأدنى غطة * مامن مجير عندهم ومجار .

يتحدث الشاعر هنا عن مشهد آخر من مشاهد المأساة وذلك بعد أن دخل التتر البلدة وحكموا السيف في الناس والنار في البيوت والمتاع ، هرع جمع كثير من الناس الى دار قاضي مراغه يحتمون بها ، ظنا منهم أن التتار يحترمون أهل الدين والعلم ، ولكن خاب ظنهم عندما حاصر الجنود الدار وأمطروها بالقذائف والسهام ، ثم اقتحموها وقتلوا جميع من فيها غير مفرقين بين شيخ كبير وطفل صغير وامرأة ثكلى جريح ، وهكذا كان ديدنهم في كل بلد يفتحونه وكأن مقصودهم افناء العالم وابادة النوع الانساني لا طلب الملك والمال . وهذا مايظهر من رسالة هولاكو عظيمهم الى ملك الشام حيث قال : "نحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام ، وملكنا لا يرام" (٢) وهكذا سقطت الدولة الخوارزميه ومدن الشرق الاسلامي العظيمه ودمرت . والملاحظ أن صدى هذا الغزو الصاعق قليل جدا في الشعر العربي أو ربما ضاع ذلك الشعر مع مافقد من التراث في تلك الأيام العصيبة .

وبعد ذلك توجهت أنظار التتر بقيادة زعيمهم الجديد هولاكو الذي تولى بعد موت جنكيزخان . الى احتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية وكان الخليفة آنذاك المستعصم بالله وكان رجلا دينا لين الجانب ولكنه كان مستضعف الرأي قليل الخبره بأمور المملكة (٣) يتكل فيها على غيره وقيل ان

---

(١) كلمة غير واضحة في المخطوط السابق لوحه ٤١ .
(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٧٤ .
(٣) ابن الطقطقى ، الفخري في الآداب السلطانية : ٢٩٠ .

وزيره مؤيد الدين بن العلقمى الشيعى هو الذى كاتب التتر ووصف لهم حال الدولة ومابلغت من الضعف وأطمعهم فى اجتياحها وملك بغداد . وذلك على أثر نقمته على الخليفة لما فعله ولده بالشيعة حينما نشب قتال بين الشيعة والسنة فى أواخر عهد المستعصم بالله بسبب الخلافات المذهبيه فأرسل الخليفه ابنه أبا بكر لفض النزاع ، فأغار هذا على مقر الشيعة فى الكرخ وارتكب كثيرا من الفظائع ، من قتل للرجال وسبى للنساء وهتك للأعراض والحرمات مما كان له أسوء الأثر فى نفوس الشيعة فنقموا على الخلافة وتمنوا زوالها . (١)

وفى سنة ست وخمسين وستمائه تحركت جحافل التتر نحو بغداد وتبودلت رسائل التهديد والوعيد بين هولاكو والخليفة المستعصم ، وكان مما وجهه به الخليفة لهولاكو قوله : (٢) " ان كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، فان لى ألوفا مؤلفه من الفرسان والرجاله وهم على أهبة الاستعداد للقتال " . ولعل الخليفة كان يقصد بهذا القول ارهاب هولاكو ، وارجاعه عما عزم عليه من السير الى بغداد ، والا فهو يعلم قبل غيره الحالة التى كان عليها العالم الاسلامى من الضعف والتفكك والهلع الذى ملأ قلوب الناس من فعل التتر . ولكن كلام الخليفة هذا أحنق هولاكو فسار على الفور حتى وصل الى ظاهر بغداد فلقيه جيش الخليفة فكان نصيبه الهزيمة المنكره ولم ينج منه الا القليل . ثم تقدم الى بغداد وأحكم الحصار حولها فى الثانى والعشرين من المحرم وأخذوا يفتحون الأبراج ويهدمون الأسوار ويطلقون يد التخريب فى المدينه ، فلما رأى الخليفه أن لا طاقة

---

(١) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر : ٢٠٢ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى ، جامع التواريخ (تاريخ المغول) : ٢٩٢/١ .

له بالمقاومه أراد الهرب ولكن ابن العلقمى الذى كان قد استوثق لنفسه من التتار خدعه وثناه عن عزمه وحسن له الخروج لطلب الأمان من هولاكو وفى الرابع من صفر خرج الخليفة وأولاده فاستقبلهم هولاكو ولاطفهم وطلب من الخليفة أن ينادى فى الناس بالقاء أسلحتهم والخروج من المدينة لاحصائهم ففعل ، وخرج الناس فقتلوا جميعا .

ثم أعلن هولاكو الهجوم العام على المدينة فدخلوها من الشرق وأقام جسرا على دجله وعبروا الى جهة المدينه الغربيه فأتوا على كل مافيها من الأحياء باستهتار بالغ حتى قدر عدد القتلى بثمانمئه ألف نسمه (١) ولم يسلم من الناس الا من اختفى فى بئر أو قناة أو مقبره ، ثم هدموا المساجد والقصور ونهبوا مافيها ثم أشعلوا النيران فى المدينه فأتت على الأخضر واليابس وغيرت معالمها الحضاريه ، وخربت أكثر الأبنية والمشاهد .. واستمرت هذه الغاره أربعين يوما ، ثم رحل هولاكو عن بغداد بعد أن تعفن هواؤها نتيجة الجثث الملقاة وفى أول مرحلة من سيره قتل الخليفة ثم قتل أولاده ومواليه وخواصه (٢) وبذلك انقضت الخلافة العباسية التى دامت قرابة خمسة قرون وربع القرن وقد أطال الناس البكاء على بغداد والخلافة التى كانت تجمع شمل المسلمين رغم ضعفها ، وقال فى ذلك الشعراء قصائد رثائية باكية ، ومنهم تقى الدين أبو اليسر التنوخى يقول :- (٣)

---

(١) البداية والنهاية : ٢٠٢/١٣ .

(٢) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعه والتجارب النافعه : ٣٢٧ .

(٣) هو اسماعيل بن ابراهيم ابن أبى اليسر المعرى الأصل الدمشقى . ولد سنة ٥٨٦ هـ ، كان متميزا فى كتابة الانشاء جيد النظم حسن القول دينا متصونا من بيت كتابة وجلاله ، كان جده كاتب الانشاء لنور الدين وكتب هو للملك الناصر صلاح الدين داود الأيوبى . توفى سنة ٦٧٢هـ / انظر : فوات الوفيات : ١٧٠/١ . تحقيق احسان عباس ، شذرات الذهب : ٣٣٨/٥ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان : ٣٨/٣ .

لسائل الدمع عن بغداد أخبار * فما وقوفك والأحباب قد ساروا :
يازائرين الى الزوراء لا تفدوا * فما بذاك الحمى والدار ديار .
تاج الخلافة والربع الذى شرفت * به المعالم قد عفاه اقفار .
أضحى لعصف البلى فى ربعه أثر * وللدموع على الآثار آثار .
يانار قلبى من نار لحرب وغى * شبت عليه ووافى الربع اعصار .

يبدأ الشاعر فى وصف حالة بغداد الكئيبه دون مقدمات فيذكر أنها أصبحت خاوية على عروشها من بعد أن كانت جنة الدنيا وقبلة الزائرين وطلاب الحاجات ، وقد هوى وزال عنها أجل ماكانت تفخر به وهو الخلافة العباسية التى بادت دولتها ولم يبق منها إلا الآثار التى تستجلب الدمع والأسى لما حل بمركزها - بغداد - من التدمير والاحراق الذى أحرق القلوب حسرة وأسفا وأذهل النفوس مافعله أولئك التتر بأهل الاسلام من القتل والسبى وغيره فنجد الشاعر يفصل لنا هذه الوقائع فى ذهول من وقع المصيبه الذى أصابته :-

علا الصليب على أعلى منابرها * وقام بالأمر من يحويه زنار .
وكم حريم سبته الترك غاصبة * وكان من دون ذاك الستر أستار .
وكم بدور على البدرية (١) انخسفت * ولم يعد لبدور منه ابدار .
وكم ذخائر أضحت وهى شائعة * من النهاب وقد حازته كفار .
وكم حدود أقيمت من سيوفهم * على الرقاب وحطت فيه أوزار .

---

(١) البدرية : نسبة الى بدر مولى المعتضد بالله ، والمراد بها قصور الخليفة المنصور ، جاء فى تاريخ بغداد : ١/ ١٠٥ " ... وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفه بالبدرية فى ذلك الوقت " .

نادبت والسبى مهتوك بجرهم * الى السفاح من الأعداء دعار .
وهم يساقون للموت الذى شهدوا * النار يارب نصلاها ولا العار .
والله يعلم أن القوم أغفلهم * ماكان من نعم فيهن اكثار .
فأهملوا جانب الجبار اذ غفلوا * فجاءهم من جنود الكفر جبار .
ياللرجال لأحداث تحدثنا * بما فدا فيه اعذار وانذار .

ان البيت الأول يشير الى ارتفاع الصليب وهو شعار النصارى ، والواقع أن التتر لم يكونوا نصارى ولكن كان للنصرانية انتشار بينهم ، ويروى أن زوجة هولا كو كانت نصرانية ، كمابيدو أنه كانت توجد صلات وتحالف بين الجانبين الأمر الذى دفع بعض المؤرخين الى القول ان حطة هولا كو طى العراق اتخذت سمات الحرب الصليبيه المغوليه . (١)

وقد ظهر أثر هذا التحالف عندما دخل التتر بغداد وعاثوا فيها قتلا وسلبا ..... فانهم لم يمسوا النصارى من أهلها بسوء ، بل ان بعض بيوتهم كانت مأمنا لجأ اليه أناس من المسلمين فنجوا من الهلاك والأمر الأكبر من ذلك كله أن هولا كو عندما دخل قصور الخليفة فى بغداد وهب أحدها لبطريرك النساطره ليتخذه مقرا وكنيسة ، وأغدق عليه العطايا والأحباس . (٢) ومثل هذا أيضا حصل عند فتح المغول للشام ، فقد كانت رسل هولا كو الى أهل البلاد من القسس والرهبان . (٣) يقول ابن تغريردى :

---

(١) هو فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ : ص ٢٨٢ .

(٢) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبيه : ٣/٥٢٢ - ٥٢٥ . الترجمه العربيـه .

(٣) النجوم الزاهره : ٥/٨٠ .

" وكان النصارى بدمشق قد شمخوا وتجرأوا على المسلمين ، واستذلوا بتردد التتار الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاكو وجاءوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم والاعتناء بأمرهم ودخلوا بالفرمان وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين ، ويرشون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد " .

هذه الرعاية من قبل التتار للنصارى في مقابل فعل الأفاعيل الشنيعة في المسلمين زادت غيظ قلوب المسلمين وحزنهم وخاصة ذوو العاطفة الشفافة والاحساس المرهف كشاعرنا أبي اليسر الذي يكاد يحترق بنار الأسى وهو يرى الحرم المصونات تنتهب وتنتهك علانية والسيوف تقطع أعناق الناس دون تمييز ، والقصور الشامخة المعروفه بالبدريه تحرق وتنتهب ثرواتها وذخائرها وترجع خرابا كان لم تغن بالأمس . في وسط هذا الرعب النازل ، يصرخ الشاعر مبينا أن سبب هذه النقم هو غفلة الناس عن أوامر الله ونسيانهم واجبات الاسلام حينما أبطرتهم النعم الوفيرة التي كانوا فيها ، فسلط عليهم جبار السماء جبابرة الأرض الذين لا يرحمون فجعلوهم عبرة لمن أراد الاعتبار .

ثم ينتقل الشاعر الى المقطع الأخير من القصيدة فيرثي آل بيت الخلافة من بني العباس يقول :-

من بعد أسر بني العباس كلهم * فلا أنار لوجه الصبح اسفار .
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا * شوق لمجد وقد بانوا وقد باروا .
ان القيامة في بغداد قد وجدت * وحدها حين للاقبال ادبار .
آل النبي وأهل العلم قد سبيوا * فمن ترى بعدهم تحويه أمصار ؟ :
ماكنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا * لكن أتت دون مااختار أقدار .

ان الشاعر يأخذه الحزن على فقد الخلافة التى كانت شعارا من شعارات الاسلام البارزه ونتج عن سقوطها أسر الخليفة العباسى المستعصم بالله وجميع أبنائه ونسائه الذين بلغوا سبعمائة شخص ، فاضطربت الأمور وماجت وكأن القيامة قد قامت فى بغداد ، فالناس غير الناس ، والبلاد غير البلاد ، فلا غرابة أن نجد الشاعر يتمنى الموت ، ويأسف لبقائه حيا بعد أن ذهبت عليه القوم من بنى العباس . ولعله من الملاحظ على القصيدة خلوها من الاستصراخ وطلب الغوث وذلك لأن حالة العالم الاسلامى لا يمكن معها ذلك فالدولة الخوارزميه القوية سقطت من قبل - كما ذكرنا - وفى الشام الدولة الأيوبية التى أصابها الهرم (١) وانقسمت الى سبعة أقسام صغيره متناحره بعضها استقل عن مصر وبعضها ظل تابعا لها اسميا ، وفى المغرب والأندلس صراعات وحروب داخلية بالاضافة الى مواجهة غزوات النصارى الصليبيين .

ورثى بغداد - أيضا - الشيخ شمس الدين الكوفى (٢) بقصيدتين احداهما نونيه والأخرى ميمية يقول فى قصيدته الأولى :- (٣)

ان لم تقرح أدمعى أجفانى * من بعد بعدكم فما أجفانى .
انسان عينى مذ تناءت داركم * ماراقه نظر الى انسان .
ياليتنى قدمت قبل فراقكم * ولساعة التوديع لا أحيانى .

---

(١) حافظ حمدى ، الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى : ١٣٠ .

(٢) هو محمود بن أحمد بن عبد الله الهاشمى الحنفى الكوفى ، كان أديبا فاضلا وعالما شاعرا ، ظريفا كيسا اشتغل بالتدريس والخطابه ، ولد سنة ٦٢٣هـ وتوفى ٦٧٥ . أنظر : فوات الوفيات : ١٠٢/٤ . تحقيق عباس .

(٣) القصيدة فى المصدر نفسه : ٤٩٩/١ - ٥٠١ . تحقيق محمد الدين عبد الحميد .

مالى وللأيام شتتشملهـا * حالى وخلانى بلا خلانـى .
مالِلمنازل أصبحت لا أهلهـا * أهلى ولا جيرانها جيرانـى .
وحياتكم ماحلها من بعدكـم * غير البلى والهـدم والنـيران .

ان أول ماتحسه عند قراءة هذه الأبيات هو صدق عاطفة الشاعـر واخلاصه للقوم المرثيين الذين فنوا وخلفوه من بعدهم رهين حزنه وانكساره فهو لا يرى أنه يوفيهم حقهم من البكاء والندب حتى تتقرح أجفانه ، بل انه يتمنى الموت ليستريح ممايلاقى من الأحزان . وكيف لا يتمناه من بعـد أن أودى الدهر بأحبائه ، وشتت شملهم ، فتلك هى منازلهم خالية من الأنيس ويد البلى تعيث فيها هدما واحراقا . ولعله من الملاحظ تكرر فكرة تمـنى الموت عند شعراء رثاء الدول وخاصة من يرثون الدول والمدن العظيمـه - كبغداد - عندما يحل بها الدمار الشامل والسقوط الذى ينتهى به عهـد وتنهار به حضاره . ثم ينتقل الشاعر الى الوقوف على ديار الراحلين وقـد تغيرت وخربت ويجرى معها حوارا آسيا ينقلك الى ذلك الجو ويجعلك تشاطره آلامه . يقـول :-

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكـم * ووقفت فيها وقفة الحـيران .
وسألتها لكن بغير تكلـم * فتكلمت لكن بغـير لسـان .
ناديتها يادار ماصنع الأولـى * كانوا هم الأوطـار فى الأوطان .
أين الذين عهدتهم ولعزهـم * ذُلاً تَخِرُّ معاقدُ التيجـان .
كانوا نجوم من اقتدى فعليهـم * يبكى الهدى وشعائر الأيمـان .
قالت : غدوا لما تبدد شملهـم * وتبدلوا من عزهـم بهـوان .
كدم الفصاد يراق أرذل موضـع * أبدا ويخرج من أعز مكـان .
أفنتهم غير الحوادث مثل مـا * أفنت قديما صاحب الايـوان .

لما رأيت الدار بعد فراقهم * أضحت معطلة من السكان .

مازلت أبكيهم وألثم وحشة * لجمالهم مستهدم الأركان .

حتى رثى لى كل من ماوجده * وجدى ولا أشجانه أشجانى .

ان الشاعر حيران قد ملكت عليه الدهشة كيانه . وذلك عندما وقف على ربوع بغداد وهى دراسة بلاقع ، بعدما كانت بالأمس القريب جنة غناء/ فراح يضغ الامه من طريق حوار صامت مع تلك الديار التى أجابته بواقع الحال لا بالمنطق والمقال . إن الذين كان عهده بهم ملوك الدنيا الأعزاء ، وقدوة أهل الخير والتقى قد تبدد شملهم شذر مذر وأصابهم الذل بعد العز فعليهم تبكى الدنيا والدين فما أشبههم بعد انحطاط قدرهم بدم الحجامة الذى يخرج من رأس الانسان ويراق فى الأماكن القذره ، عندئذ يتيقن الشاعر أن القوم قد ساروا الى غير رجعه فيخر على بقايا آثارهم باكيا ومقبلا بحرارة شديدة استدرت عطف كل من لا يعرف الوجد والشوق ، وفى غمار حالته هذه تسبح نفسه فى مايشبه أحلام اليقظة فيقول :-

أترى تعود الدار تجمعنا كما * كنا بكل مسرة وتهان .

اذ نحن نغتنم الزمان ونجتنى * بيد الأمان قطوف كل أمانى .

والدهر تخدمنا جميع صروفه * والوقت يعدينا على العدوان .

والعيش غض والدنو ممزق * بيد الوصال ملابس الهجران .

ولكنه بعد ذلك يصحو ليجد مايتمناه شيئا صعب التحقق لأن يد الحدثان قد أودت بالأحباب والاخوان فينقلب يائسا من الحياة لا يرى فيها نديما غير الحسرات والأحزان يقول :

هيهات قد عز اللقاء وسَدَّدت * طرقَ المزار طوارقُ الحدثان .

مالى أردد ناظرى ولا أرى الـ * أحباب بين جماعة الإخوان .

والهفتى واوحدتى واحـيرتى * واوحشتى وآحر قلبى العانـى .
سرتم فلاسرت النسيم ولا زهـا * زهد ولا ماست غصون البـان .
مالى أنيس بعدكم غير البكـى * والنوح والحسرات والأحـزان .
ياليت شعرى أين سارت عيسكم * أم أين مواطنكم من البلدان ؟.

وأسلوب الشاعر سهل بعيد عن التوعر فى المعانى والألفاظ تبرز من خلاله ثقافة الشاعر الأدبية ، وقد وشى قصيدته هذه بألوان من المحسنات كان أبرزها الجناس الذى استعمله تاما وناقصا ـ مشتقا ـ ويأتى بعد ذلك الطباق والمقابلة وغير ذلك ، ورغم اكثاره من هذه الأصناف فانك لا تجد فى القصيدة تكلفا ولا استكراها ، وقد بلغ الشاعر حدا كبيرا من التأثير ، واستطاع أن يطبع فى نفوس السامعين أو القارئين مايحس به هو فى نفسه كما أنه لم يخرج عن أسلوب عصره الأدبى الذى كان مقياس الجودة فيه مقدار مايأتى به الشاعر من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعيه وحسن الاقتباس والتضمين ، مع الاحاطة بالمعلومات والحوادث التاريخيه . من الجدير بالذكر هنا أننا لا نلاحظ أثر ثقافة الشاعر الدينيه ـ رغم كونه واعظا ـ فى هذه القصيدة فلم يأت فيها بأحاديث وقصص وعظية ، فى قالب شعرى ولعل اهتمامه بالزخرفة شغله عن ذلك .

أما قصيدته الميمية فيقول فيها :- (١)

عندى لأجل فراقكم آلام * فالام أعذل فيكم وألام .
من كان مثلى للحبيب مفارقا * لا تعذلوه فالكلام كلام .
نعم المساعد دمعى الجارى على * خدّىّ الا أنه نمـام .
وينيب روحى نوح كل حمامـة * فكأنما نوح الحمام حمام .

---

(١) فوات الوفيات : ٤٩٧/١ . تحقيق محى الدين عبد الحميد .

في هذا المطلع يبوح الشاعر بما في نفسه من الآلام لفقد الأحبة ، ويتبرم بلوم اللائمين والعذال الذين لا يقدرون حالته الحزينه ، التي يكشف عنهـــا دمعه الجاري ، وروحه التي تكاد تزهق عندما يهيج وجدها نوح الحمـــام وكما في قصيدته السابقة عندما انتقل من وصف حالته وحزنه الى الوقـــوف بالديار فانه يفعل هذا - أيضا - في قصيدته هذه فيقول :-

ان كنت مثلي للأحبـــة فاقـــدا * أو في فؤادك لوعة وغـــرام .

قف في ديار الظاعنين ونادهـــا * (يادار ماصنعت بك الأيام) . (١)

أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضـــوا * (لم يبق في بشاشة تستام) . (٢)

يادار أين الساكنون وأين ذيـــ * ـياك البهاء وذلك الاعظـــام .

يادار أين زمان ربعك مونقـــا * وشعارك الاجلال والاكـــرام .

يادار مذ أفلت نجومك عمنـــا * والله من بعد الضياء ظـــلام .

فلبعدهم قرب الردّى ، ولفقدهم * فقد الهدى وتزلزل الاسلام .

فمتى قبلت من الأعادى ساكنـــا * بعد الأحبة لاسقاك غمام .

ياسادتي أما الفؤاد فشـــيـــق * قلق وأما أدمعي فسجـــام .

والدار مذ عدمت جمال وجوهكـــم * لم يبق في ذاك المقام مقام .

لا حظ فيها للعيون وليس لـــلا * أقدام في عرصاتها اقـــدام .

ان الشاعر قد عظمت مصيبته بفقد أحبائه في بغداد فهو لذلك لا يفتأ يكرر ذكرهم وكأنه يتسلى بذلك ، وقد شغله مصير هؤلاء الأحبة المفجوع عن وصف الدمار والخراب والاحراق الذي لحق بالمدينة ذاتها ، فكان رثاءه رثاء أشخاص فنوا لا رثاء مدينة عظيمة هدمت ، وذوت حضارتها ، وحتى في وقوفـــه على أنقاض بغداد لم يصف تلك الانقاض وماحلّ بها ، وانما أعرض عنهـــا

---

(١) ، (٢) المعجزان لأبي نواس . الديوان : ٥٤ . وعنده فعلت بدل صنعت ، فيك بدل فيّ .

لذهاب بهائها وأقول نجمها برحيل أولئك الأحباب الذين كانوا هم نور الظلماء ، وكانت بهم بغداد روضا يانعا ، وقلعة الاسلام الحصينة ، وبعد هذا يعود الشاعر ليؤكد صدق مودته ووفائه بعهد الظاعنين الذى تركوه عليه فيقول :-

وحياتكم انى على عهد الهوى * باق ، ولم يخفر لدىّ ذمام .
فدمى حلال ان أردت سواكم * والعيش بعدكم علىّ حرام .
ياغائبين وفى الفؤاد لبعدهم * نار لها بين الضلوع ضرام .
لا كتبكم تأتى ولا أخباركم * تروى ، ولا تدنيكم الأحلام
أقصتكم الدنيا علىّ وكلما * جد النوى لعبت بى الأسقام .
ولقيت من صرف الزمان وجوره * مالم تخيله لى الأوهام .
ياليت شعرى كيف حال أحبتى * وبأى أرض خيموا وأقاموا . ؟

ان القصيدتين تتشابهان من حيث الأسلوب والبناء والأفكار ، فالسجع والجناس والطباق والتضمين وغيرها من المحسنات تزدحم فى أبياتهما ازدحاما شديدا بحيث يؤدى ذلك الى خفوت صوت العاطفة بعض الشئ ، فيذهب بعضهم الى وصف الشاعر بالتكلف ، وهو محق فى ذلك لأول وهلة ، ولكننا لا بد أن نعامل الشاعر حسب العصر الذى عاش فيه ، والنظر الى أسلوب ذلك العصر على أنه قيد قل من الشعراء من يستطيع الافلات منه ، وبهذا تكون أحكامنا أقرب الى الصواب فنشير الى صدق عاطفة شاعرنا الكوفى وحدة انفعاله الذى يظهر رغم كثافة الصنعه . أما من ناحية بناء القصيدتين فمطلعهما يبدأ بوصف الآلام والأحزان التى يكابدها الشاعر وربما نلاحظ بعض الضعف فى مطلع القصيدة الثانية الذى قد يكون السجع والجناس سببين فيه ، وهو قوله : عندى لأجل فراقكم آلام * فالام أعذل فيكم وألام .

فهذه المباشرة التى تخلو من الايحاء (عندى لأجل فراقكم آلام) تشبه أن تكون ادعاء للآلام وليس احساسا حقيقيا بها ، وقد جاء بهذا الشطر هكذا ليقع السجع بين آلام ، والام ، وألام ، ثم ينتقل الى الى الوقوف بديار الأحبة ويخاطبها ويبكى ويتلهف على رحيلهم .

ويختم القصيدتين بالاستفهام الذى يفيد التمنى المشرب باليأس من اللقاء :

ياليت شعرى أين سارت عيسكم * أم أين موطنكم من البلدان ؟ :

والثانية تختم بقوله :

ياليت شعرى كيف حال أحبتى * وبأى أرض خيموا وأقاموا ؟ :

أما أفكار القصيدتين فتتمثل فى حزن الشاعر واصراره على البكاء ،والاقامة على عهد المحبة والوفاء لأولئك الراحلين ، ثم ذكره لغير الحوادث وصروف الدهر التى قصمت ظهره ، وبددت آماله فى العودة الى حياته الأولى بين الأحباب .

رثاء الشام :

بعد أن فرغ هولاكو من تدمير بغداد وقتل أهلها مع خليفتهم المستعصم بالله العباسى صرف جهوده لاحتلال الشام . ففى رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة تحرك الجيش المغولى الكبير من أذربيجان قاصدا الشام (١) ، وما أن بلغ مشارفها حتى أرسل هولاكو رسله الى الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان حلب يطلب منه الاستسلام . ومما جاء فى كتابه الى السلطان : " .... أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعى المانعات ، ورجالى المقاتلات ...."

---

(١) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول : ٢٧٧ .

فلما سمع السلطان هذا الكلام خاف وهرب الى دمشق ، فتولى الأمر بعده الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، حيث رفض تهديد المغول وقال ليس لكم عندى الا السيف ، عندئذ تقدموا الى حلب وحاصروها ونصبوا حولها عشرين منجنيقا وأخذوا يمطرونها بوابل من القذائف ، حتى اضطرت الى التسليم ، فاستباحوها سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا ـ امتلأت بهم الطرقات وسبوا النساء والذرية ونهبوا الأموال وفعلوا أفاعيل تقشعر لها الأبدان وهزت هذه النكبة الشاعر الحلبى ابن العديم (١) فقال (٢) :-

هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم * وان رمت انصافا لديه فتظلم .

أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا * وأصمت لدى فرسانها منه أسهم .

وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم * ومامنهم الا مليك معظم .

وملك بنى العباس زال ولم يدع * لهم أثرا من بعدهم ، وهم هم .

وأعتابهم أضحت تداس وعهدها * تباس بأفواه الملوك وتلثم .

---

(١) هو كمال الدين عمر بن عبد العزيز الحلبى ، كان فقيها على مذهب الامام أبى حنيفة وشاعرا مجيدا ، عاش فى مدينته حلب ، ثم غادرها الى مصر ثم عاد اليها وقد خربها التتار ، وتوفى فيها سنة ٦٦١هـ ، ومن مصنفاته : بغية الطلب فى تاريخ حلب . انظر / تاريخ أبى الفداء : ٢١٥/٣ ، السخاوى ، الضوء اللامع : ٩٣/٦ - ٩٤ .

(٢) القصيدة فى تاريخ أبى الفداء : ٢١٥/٣ . وقد ذكر بأنها طويلة ولكنى لم أعثر على بقيتها فيما رجعت اليه من مصادر هذه الفترة من الزمن .

يبدأ ابن العديم قصيدته بداية الحكيم المجرب المعتبر بفعل الدهر في هدم أمجاد الأمم العظيمة ، ويأتي بأمثلة قديمة مثل دولة الفرس والروم وأمثلة معاصرة له كدولة بني أيوب ودولة بني العباس اللتين حكمتا العالم الاسلامي على اتساعه حينا من الدهر ثم فنيتا ولم يبق لهما أثر . ومنها :-

فيالك من يوم شديد لغامه * وقد أصبحت فيه المساجد تهدم .

وقد دوست تلك المدارس(١) وارتمت مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم .

وختمها بقوله :

ولكنما لله في ذا مشيئة * فيفعل فينا مايشاء ويحكم .

هذا هو مقدار ماوصلنا من القصيدة وليس فيها مايخص وقعة حلب سوى البيتين اللذين يصف فيهما شدة أهوال ذلك اليوم الذي هدمت فيه المساجد والمدارس وديست المصاحف الشريفة بكميات كبيرة الأمر الذي زاد المسلمين ألما فوق الامهم الكثيرة . ويروى(٢) أن " هيتوم " ملك أرمينية الصليبي الذي تحالف مع المغول هو الذي استغل هذه الفرصة وأحرق جامع حلب الكبير الذي جلّ عن الوصف في حسن الصنعة وبهائها .

وفي ختام قصيدته يرجع الأمر الى قضاء الله ومشيئته المتحققه لا محاله فهو - سبحانه - المتصرف في أمور عباده وبلاده . ثم تقدمت جيوش المغول نحو دمشق فأدرك أهلها أن لا طاقة لهم بالمقاومه . فتقدم وجهاء المدينة الى هولاكو بالطاعة والانقياد وسلّموه مفاتيح المدينه عندها دخل المغول المدينه دون اراقة دماء الا ماكان من قلعة دمشق فانها استعصت على

---

(١) المدارس المذكوره كانت بحلب ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الغربيه ، ومن فوقها غرف ومساكن ولا يقل بناؤها روعة عن بناء الجامع / أنظر : الروض المعطار : مادة (حلب) .

(٢) فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ : ٢٩٤ .

الفاتحين فدكوها بالمجانيق حتى استسلمت فقتلوا حاميتها ونهبوا جميع مافيها . ثم توجه هولاكو بجنوده نحو مصر ليتم له بفتحها السيطرة على العالم الاسلامى كله ، وأرسل -على عادته - الى السلطان المملوكى قطز خطاب التهديد والوعيد اذا هو نوى المقاومة والتصدى ، ولكن ذلك السلطان الشجاع بعد استشارة قواده وجنوده صمم على الجهاد وصد المغول ، فقتل رسل المغول وخرج بجيشه بقيادة الظاهر بيبرس والتقى بالجند المغولى بقيادة كتبغا نائب هولاكو الذى اضطرته ظروف مملكته فى أطراف الصين الى العودة اليها ، وكانت الوقعة العظيمة المسماه بمعركة عين جالوت (١) فى سنة ثمان وخمسين وستمائة فانهزم المغول هزيمة ساحقة لأول مرة فى تاريخهم بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصر عليهم . ووقع قائدهم فى الأسر فضربت عنقه ، ثم تابع السلطان قطز سيره بالجيش حتى دخل دمشق دخول البطل المنتصر وسط أروع مظاهر التقدير والاعزاز - وسار بيبرس الى حلب وطرد التتر منها وأذاقهم ماأذاقوه للمسلمين من قبل ، وأدب النصارى عملاء المغول على مااقترفت أيديهم من الآثام فى حق المسلمين . (٢)

وبذلك بقيت بلاد الشام ومصر فى مأمن من شر المغول ولكن الى حين عندما جدد المغول الكره فى سنة اثنتين وثمانمائة فى عهد تيمورلنك حفيد هولاكو الذى هاجم حلب فى جيش كثيف واستباحها وقتل مايقرب من عشرين ألف انسان ، ونهبها وهتك حرماتها فى المساجد ثم زحف الى حماة وفعل بها مثل ذلك ثم أرسل تيمورلنك الى نائب دمشق رسولا فقتله النائب قبل

---

(١) هى بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين حدثت قربها المعركة معجم البلدان مادة (عين) .

(٢) ابراهيم العدوى : العرب والتتار : ١٢١ .

أن يسمع كلامه فهاجم المغول دمشق واستباحوها وهدموا مغانيها وخاطب لهم على منابرها فقال فى ذلك بهاء الدين البهائى : (١)

لهفى على تلك البروج وحسنها * حفت بهن طوارق الحدثان .
لهفى على وادى دمشق ولطفه * وتبدل الغزلان بالثيران .
وشكا الحريق فؤادها لما رأت * نور المنازل أبدلت بدخان .
كانت معاصم نهرها فضية * والآن صرن كذائب العقيان (٢) .

يتحسر الشاعر على الدمار الذى حل بدمشق تلك البلدة الجميلة المبانى والمنازل والوديان والتى أشعل المغول فيها النيران فتغيرت صفحة وجهها وتبدل النور الساطع بالدخان المظلم وأصبحت الأنهار تجرى دما بعد أن كانت لجينا وذلك بسبب :-

وماذاك الا تركهم ولجت بها * فتخضبت منها بأحمر قان .
كرهت جداولها حوافر خيلهم * فتسابقت هربا كخيل رهان .

بعد ذلك ينتقل الى وصف ماحل بدمشق ومعالمها البارزة كالمساجد والقصور وغيرها فيقول :-

---

(١) هو على بن عبد الله الغزولى الدمشقى ، أصله مملوك تركى اشتراه من يسمى ببهاء الدين فنسب اليه أديب وشاعر تردد بين القاهره ودمشق وفيها مات سنة ٨١٥ هـ ، من مصنفاته : مطالع البدور ومنازل السرور . انظر السخاوى ، الضوء اللامع : ٢٥٤/٥ ، الياس الدبس ، تاريخ سوريا : ١٥٧/٦ .
والقصيدة فى : كرد على ، خطط الشام : ١٧٢/٢ - ١٧٣ .
(٢) العقيان : الذهب .

لو عاينت عيناك جامع تنكز * والبركتين بحسنها الفتـــان . (١)
وتعطش المرجين من أوراد ها * وتهدم المحـراب والايـوان .
لأتت جفونك بالدموع طوفـا * دمعا حكى اللؤلؤ على المرجان .
قطرات جفني ترجمت عن حرقتي فكأنهن قلائـد العقيــان .
أبني أمية أين يمن وليدكـم * والمغل تفتل في ذرى الأركان .
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا. ألقوا عرابدهم على النسوان .
لهفي على كتب العلوم ودرسها. صارت معانيها بغير بيـان .

ان مازاد حرقة الشاعر وألمه تركيز أولئك التتر الوحوش على ازالة معالم الاسلام ممثلة بالمساجد فقد أهدروا قدسيتها وكرامتها فهدموا محاريبهـا ومنابرها وخاصة الجامع الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك الخليفـة الأموي ورصعه بالجواهر الثمينة حلاه بالزخارف البديعه ، وقد اتخـذه المغول مجالا للسكر والعربدة بعدا احراق مصاحفه والقضاء على عبـاده والمجاورين في زواياه ولم يكتفوا بذلك بل أتلفوا كل ماوصلت اليه أيديهـم الخبيثة من كتب العلوم المختلفة التي كانت دمشق منارا يشع بها الـى العالم . وفي غمرة هذا المصاب الجلل يتذكر الشاعر ماجرى للمدن الشاميـة الأخرى كحماة وحلب فيقرنهما بدمشق لتكون دموعه أغزر عليهن معا :-

أعروسنا لك أسوة بحماتنـــا * في ذا المصاب فأنتما أختـان .
غابت بدور الحسن عن هالاتها * فاستبدلت من عزها بهـوان .
ناحت نواعير الرياض لفقدهـم * فكأنها الأفلاك فـي الدوران .
حزنى على الشهباء (٢) قبل حماتنا * هو أول وهي المحـل الثانـي .

---

(١) جامع تنكز : ينسب الى بانيه (تنكز) الذي كان واليا على دمشق من سنة ٧١٢ - ٧٣٨ هـ / خطط الشام : ٦/ ٧٤ .

(٢) الشهباء : هي حلب .

لا تدعى الأحزان ياشقرائــــا * السيف للشهباء فى الأحـــزان .
وقعت كلاب المغل فى غزلا نهـا * وتحكمت فى الحور والـــولدان .
لهفى عليك منازلا ومنازهـــا * ومقام فردوس وبان جنـــان . (١)

ان مدينة حلب الشهباء هى أول ماسقط فى أيدى المغول واستبيحت بفظاعة فهى أول مايبكيه الشاعر ثم تبعتها حماة التى ناحت نواعيرهــا الشهيرة على فقد أهلها وتبدل عزهم ذلا وقهرا ثم عظمت المصيبة بسقــوط دمشق ، وقد رثاهن الشاعر كوحدة متسلسله لا انفصال بينها وان كـــان رثاؤه لمدينة دمشق أشد وأعمق . وعلى العموم فأسلوبه سهل فيه رقه مـــع العناية بالصناعة والزخرفة .

ويقول الأوتارى (٢) فى رثاء دمشق أيضا (٣) :-

لك علم بماجرى ياسهـــادى * من جفونى على افتقاد رقادى .
لم أجد عند شدتى مؤنسالى * غير سهدى ملازما الســوادى .
وحبيب العين الرقاد جفاهـــا * مذ رآها حليفـــة الأنكـــاد .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع التقليدى الذى يشكو فيه ماأصابـــه من الهم والحزن حيث جفاه الرقاد ، ولازمه الأرق والسهاد حتى ألفه وصـــار يأنس به ، ومن حالته تلك يتوجه الى دمشق معزيا :-

---

(١) مقام فردوس : من أبواب دمشق ، باب جنان : من أبواب حلب / انظر الروض المعطار : ماده (دمشق) .
(٢) هو أبو الحسن علاء الدين الدمشقى ، قيل انه من قريش . كان يشتغل بصناعة الطب ، وله فى ذلك كتب ومؤلفات ، توفى فى آخر القرن العاشر انظر تاريخ سوريه : ٦/٢٢٨ .
(٣) القصيدة فى نهاية الأرب : ٢٢٧/٥ - ٢٢٩ ، عمر موسى باشـــا ، أدب الدول المتتابعه : ٥٢٩ .

أحسن الله يادمشق عــزاك * فى مغانيك ياعماد البلاد .

وبرستاق نيربيــك مـع المـزّ * ة مع رونق بذاك الـــوادى . (١)

وبأنس بقاسيــون ونـــاس * أصبحوا مغنما لأهل الفساد . (٢)

طرقتهم حوادث الدهر بالقتـ * ـل ونهب الأمـوال والأولاد .

وبنات محجبات عن الشمــ * ـس تناءت بهن أيدى الأعادى .

وقصور مشيدات تقضــت * فى ذراها الأيـام كالأعيـاد .

وبيوت فيها التلاوة والذكـ * ـر وعالى الحديث بالاسنـاد .

حرقوها وخربوها وبـادت * بقضاء الاله رب العبـاد .

ولكم سورها حوى من معـنى * مفرح القلب والحشى والفؤاد .

ان بكى لا يفيده أو تشكـ * ـى وجد المشتكى حليف سهـاد .

يشتكى فوق ما اشتكاه بأضعا * ف فيغدو وهمه فى ازديـاد .

فالغلا والجلا مع الجوع والعر * ى ونهب الأقـوات والأزواد .

والحصار الشديد والحبس والخو * ف مع السادة العراة المكـادى . (٣)

---

(١) رستاق نيرب : قرية مشهورة على نصف فرسخ من دمشق ، تقع فى أنزه موضع تحف بها البساتين ويقال أن فيها مصلى الخضر عليه السلام معجم البلدان : ماده (نيرب) .

المزة : قرية كبيرة غناء من قرى دمشق / المصدر نفسه (المزه) .

(٢) قاسيون : جبل يشرف على مدينة دمشق ، فيه عدة مغاور فيها آثار الأنبياء ، وفى سفحه مقبرة أهل الصلاح ، وأهل دمشق يعظمون هذا الجبل ، ويسكن فى كهوفه كثير من العباد والزهاد . / معجم البلدان مادة (قاسيون) .

(٣) المكادى : اللصوص والمحتالون ، والكدية فى اللغة تعنى الأرض الصلبه وسمى هؤلاء بذلك لصلابة وجوههم . / اللسان (كدى) .

اننا نحس أن الشاعر يرسل بتعزيته من بعيد ، فأسلوبه لم يكشف عن عاطفة قوية ، وانفعال يشعرك بالتأثر الحقيقي ، والانصهار في تمثل التجربة التي مر بها ، فهو دمشق وشاهد للحوادث المفجعة ورغم ذلك يقول : " أحسن الله يادمشق عزاك " فهو يعزي دمشق بقراها ومرافقها التي شملها الخراب ، ودمشق في الواقع هي المدمرة المستباحة التي كان الواجب على الشاعر أن يبكيها لا أن يعزيها . والشاعر في رثائه للناس الصالحين الأبرياء وفي أسفه للنسوة المصونات اللواتي وقعن في أيدي الأعادي ، وذقن الهوان والذل بعد العز في ذرى القصور الشامخات ، في ذلك كله لا يرسم صورا وظلالا من خلال شرحه لوحشية التتر واستهتارهم بالدماء والحرمات ، وانما يقول : " طرقتهم حوادث الدهر ..... " . وفي وصفه لحالة الناس المحاصرين داخل الأسوار نجده يقف عند المظاهر العامة كالجوع والشكوى والخوف والعري .... الخ ولم يحاول تحليل النفوس والدخول الى أغوارها ، وربما كان لاهتمامه بالصنعة البلاغية أثر في صرفه عن ذلك . ويبرز الجانب الديني عند الأوتاري بوضوح عندما يتحدث بحزن عن الأماكن ذات القدسية كجبل قاسيون أوعند ذكره لتلك البيوت التي كانت تعج بالآيات والأحاديث ثم أقفرت وخربت وسرعان مايرجع الى الحقيقة الأزلية المتمثلة بقضاء الله الذي يقدر مايشاء على من يشاء .

ثم تلتهب مشاعر الشاعر حينما لا يجد نصيرا الا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فيذهب يستشفع به في لون من الوجد الصوفي الملتهب :-

ياترى هل لكربنا من مجير * أم لتشديد أسرنا من فادي (١)

---

(١) تشديد الأسر : الشد بأسباب القوة ، وهو مقتبس من قوله تعالى : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) سورة الانسان ، الآية ٢٨ .

لست أرجو غير البشير شفيعـــا * عند ربى فى المن والانجـاد .
فهو الصادق الذى وعد الديـ * ن ينصر جار علـى الآبـاد .
غير أن الفساد يكســب ذلا * ويمحو الفساد طرق السداد .
وارتكاب الفساد يورث فقــرا * وخراب البيوت عقبى الفساد .
ياحبيب الاله قد مسنا الضـ * ر فجد بالاسعاف والاسعاد .
ياحبيب الاله تبنـا الى اللـ * ـه وأنت العماد حتى المعاد .
من الأسرى كسرى حيارى دهتهم * دهتهم جياد أهل العناد .
منهم الطفل والصبية والشـا * ب ينادى فمن يجيب المنادى .
وينادى عليهم برغيـف * وبنزر بخس بسوق الكساد .
عوضوا عن سرورهم بغـرور * وقصور البلاد سكنى البوادى .
وبأهل الوداد شـر أنـاس * وبلين المهاد شوك القتاد .
أى عين عليهم ليس تبكـى * أى قلب عليهم غير صادى .
فلأنت الرحيم قلبـا ولبـا * ولأنت الهادى لسبل الرشاد .
ولأنت البديع خلقا وخلقـا * ولأنت السميع للانشـاد . (١)

---

(١) كان الأولى أن يتوجه الشاعر بدعائه الى الله - سبحانه وتعالى - دون واسطه ، غير أن الصوفيين لغموض فلسفتهم يكثرون من التوسل بالرسول - عليه الصلاة والسلام - بغلو شديد ، حتى يتصوروا أنهم فى حضرتـه وأنه سامع لمايقولون وقادر على النفع والضرر فى هذه الدنيا على الرغم من وفاتـه واعتقادهم هذا مخالف لنصوص الاسلام الصحيحـه .

وهكذا يستمر فى مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم - الى نهاية القصيدة والشاعر هنا يشير الى الفساد الذى انغمس فيه الناس ، وتنكبهم لطرق الخير والسداد حتى جلبوا لأنفسهم الذل والعار والدمار ، ومع هذا فهو مطمئن الى أن عاقبة الدين الى نصر ، لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم - قد وعد بذلك اذا صلحت نفوس الناس وأعمالهم ، ولذلك نرى الأوتارى يبادر الى اعلان التوبة بين يدى الله سائلا اياه -بواسطة رسوله - أن يلطف بقومه الذين وقعوا فى أسر المغول وخاصة الأطفال والنساء والصبيان الذين يباعون كالرقيق بثمن بخس .

وأسلوب القصيدة سهل ، ومعانيها واضحة مطروقة ليس فيها ابتكار ، وقائلها لم يكن من الشعراء المشتغلين بالشعر ، وانما هو رجل شهد نكبة وطنه ، وتشرد قومه ، فهاله ذلك المشهد وجادت قريحته بهذه القصيدة .

البـــــاب الثانـــــى

الشعر العربى ورثاء الأندلس والمغرب

توطئه : منذ أن دخل عبد الرحمن الداخل الى الأندلس وأصبح أميرا لها فى سنة ثمان وثلاثين ومائه أخذ يخطط ويدبر لاقامة دولة أموية قوية منفصلة عن الخلافة العباسية فى كل شئ . وقد كان هذا الرجل ذا همة عالية وطموح وثاب مع عزم وحزم صارمين . فاستطاع أن يجند الجيوش الجراره لحماية امارته من العدوان الخارجى المتمثل بقوات الفرنج النصارى الذين أزعجهم أشد الازعاج قيام قوة فتية بجوارهم فأخذوا يتحينون الفرص لاضعافها ، واتخاذ الوسائل لمهاجمتها ، كما قاموا بتحريض العناصر الثائره فى الداخل ومدها بوسائل القوة الممكنة وقد تجلى ذلك عندما تمردت شرذمه من أهل مدينة سرقسطه على حكم عبد الرحمن الداخل وطلبوا معونة النصارى فجرد ملكهم شارلمان جيشا وغزا سرقسطه ولكن جيش الداخل تصدى له ورده خائبا . (١)

وبعد أن توطد أمر الحكم للداخل ، واستطاع أن يضبط أمور مجتمعه على اختلاف طبقاته وأجناسه انصرف الى الناحية العمرانية الحضارية فأنشأ فى قرطبه -عاصمته- دارا لضرب النقود الاسلامية وبنى فيها مسجدها الجامع الذى يعد من أبرز المنشآت العمرانية فى الأندلس عامة . (٢)

وانتشرت العلوم الاسلامية وازدهرت وبخاصة الفقه على مذهب الامام الأوزاعى ثم مذهب الامام مالك وظهر فى الأندلس جملة من الفقهاء كان لهم مكانة مرموقة فى الدولة وبين الناس . (٣)

---

(١) عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٢٢٥ .

(٢) عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس : ١/ ٨٥ ، ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/ ٢٢٦ .

(٣) انظر ، ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس : ١/ ٢٠٢ - ٢٠٤ .

وقد سار الأمراء الأمويون الذين خلفوا الداخل على نفس سياسته في القوة والحزم والاهتمام بمرافق الدولة المختلفة فشجعوا العلم والأدب فكثر العلماء والشعراء والكتاب وانتشرت معاهد التعليم ومدارسه وأصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة حتى في معاهد النصارى واليهود الذين (١) أسلم منهم الكثير بعد دراستهم للاسلام بلغته الأصلية . ثم تحولت الامارة في الأندلس الى خلافة على يد عبد الرحمن الناصر سنة ست عشرة وثلاثمائة وقد امتد حكمه أكثر من نصف قرن بلغت الأندلس خلاله أقصى ازدهارها السياسي والحضاري ، وغدت مركزا ترنو اليه الأنظار سواء في ذلك حكام الدول الأوربيه الذين سعوا الى كسب ود الأندلسيين ورضاهم أو طلاب العلم الذين وجدوا أنفسهم مشدودين نحوها بحثا عن فنون العلم المختلفة .

(٢)
قال ابن خلدون عن الناصر : " .... ومدت اليه الأمم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان ، وأوفدوا عليه رسلهم وهدايا هم من رومة والقسطنطينيه في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته ووصل الى سدته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وماينسب اليها من الثغور ، فقبلوا يده ، والتمسوا رضاه ...." .

(٣)
ويقول ابن الأبار - أيضا - " أذعن له ملوك الروم ورغبوا في مصاهرته " .

---

(١) اتخذ هذا الاجراء الأمير هشام الأول خليفة عبد الرحمن الداخل سنة ١٨٠ هـ أنظر : عنان ، دولة الاسلام في الأندلس : ٢٢٦/١ .

(٢) العبر : ٢٦٦/٤ .

(٣) الحلة السيراء : ٢٦٦/١ ، وفي النفح ٣٥٤/١ روايات مشابهه .

ثم توفى الناصر بعد أن ترك الأندلس مستقرة موحدة آمنة الحدود رضخ لقوتها حكام الشمال الأسبانى وغيرهم ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر فأكمل مشاريع البناء والازدهار ، وعرف بحبه الشديد للعلم وأهله وقد كان هو نفسه عالما كبيرا ، جلب الكتب من البلاد الاسلامية وبذل فيها الأموال الكثيرة وكان شجاعا يقود الجيوش بنفسه لرد المعتدين ، وبعد حكم دام ست عشرة سنه توفى الحكم وتولى بعده وليده هشام الملقب ب (المؤيد بالله) البالغ من العمر احدى عشرة سنة وذلك سنة ست وستين وثلثمائه وبخلافة هذا الصبى تتبدل أحوال الأندلس وتضطرب لعجز المؤيد عن النهوض بأعباء الحكم فى دولة كالأندلس . وكادت الفتن تعصف بالخلافة لولا أن قيض الله لها رجلا قويا هو المنصور بن أبى عامر الذى استطاع أن يحجر على هشام المؤيد ويكون هو الحاكم الفعلى للبلاد باسم هشام وكان رجلا حازما داهية يثنى عليه المؤرخون لشجاعته وكثرة غزواته (١) . وبعد موته حكم ابنه المظفر ثم ابنه عبد الرحمن الملقب ب (شنجول) وبمقتله تنتهى الخلافة فى الأندلس ويبدأ عهد الفوضى والتنازع ويبدأ الانهيار التدريجى لصرح المجد العظيم الذى شاده أبطال الاسلام . فمنذ بداية القرن الخامس الهجرى الذى يسمى فى الأندلس بعصر ملوك الطوائف بدأت خيوط المأساه تتضح بسقوط المدن الاسلامية بيد النصارى واستمر هذا التساقط خلال العصور التى تلت هذا العصر ليشمل معظم المدن والحصون وتأتى المرحلة الأخيرة المروعة بسقوط غرناطه آخر المدن الاسلامية فى نهاية القرن التاسع

---

(١) انظر : ابن خيره الاشبيلى ، ريحان الألباب وريعان الشباب ، لوحه : ١٣٩ . قال (والروم تعظم قبره لشجاعته) ، ابن بسام ، الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ص ٣٩ .

ويمكن القول انه تخلل هذه المدة التاريخية الطويلة المظلمة فترات مضيئة نعمت فيها الأندلس بالأمن والرخاء وخاصة فى عهد المرابطين والموحدين حيث استعيدت بعض المدن الأندلسية المحتلة ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا لوجود العدو المتربص (النصارى) الذى تدفعه روح صليبية لارجاع الأندلس الى النصرانية ، فكانت الغارات تتوالى بشدة على الأندلس من جهاتها المختلفة . الأمر الذى يتطلب وجود قوة كبيرة دائمه فى الأندلس وذلك من الصعوبة بمكان بالنسبه لحكام المغرب من المرابطين أو الموحدين أما قوة الأندلس الذاتية فهى قد وهنت بعد ذهاب الخلافة الأموية بسبب النزاع والحروب الداخلية بين الأمراء الطامعين الذين نالوا من قوة البلاد وساهموا فى سقوطها أكثر مافعله العدو الخارجى .

والواقع أن مأساة الأندلس من أشد المآسى التى وقعت فى التاريخ فهو تحطم حضارة زاهره ومعالم اسلامية ، وأمة فقدت سمات حياتها الدينيه والفكريه والحضاريه ، فقد مست النكبة كل شئ ، مست الأرض التى درج عليها قوم حرروها من الظلم والقهر ونشروا فيها نور الاسلام وضياءه ، الأرض التى تمكن حبها من أعماق الأندلسيين ، وامتزجت ظلالها وأنهارها ، وأشجارها وكل شئ فيها بأرواحهم ودمائهم . كما مست النكبة الدين فى معالمه الكثيرة ... فى مساجده ومآذنه ومحاريبه .... ومست معاهد النور والعلم ومراكز الاشعاع ، وحولتها الى أطلال ورسوم يؤمها الجهل والظلام . ومست الانسان الأندلسى من خلال تلك المذابح والمجازر الرهيبة التى كان يقوم بها العدو الصليبى ضد العجزة والأطفال والنساء . ولقد تتبع الشعر الأندلسى هذه المحن والنكبات مسجلا مراحلها ، مخلدا شعور الأندلسيين فيها ، معبرا بالدمع والدم عن تلك الاحساسات الصادقة العميقة التى قل نظيرها فى الأدب العربى ككل .

وتسهيلا للدراسة ، وحرصا على استقصاء المادة الشعرية قسمت أشعار الرثاء التى جمعتها الى رثاء مدن ، ورثاء ممالك ، وشعر استغاثة واستصراخ وشعر فى رثاء الأندلس عامه حينما غربت شمسها أو كادت ولم أراع فى هذا التقسيم التسلسل التاريخى لاختلاط الأحداث وتقاربها فربما سقطت امارة أو مملكة قبل مدينة أو سقطتا معا أو استرجعت مدينه بعد سقوطها ثم أخذت مرة أخرى ولهذا لجأت الى التقسيم حسب الموضوع ، فلاعجب أن تجد فى هذا الباب قصيدة فى رثاء مدينة سقطت فى القرن السابع تقدمت على رثاء امارة سقطت فى القرن الخامس وهكذا .

الفصل الأول : رثاء المدن :-

الفتنة البربرية وتدمير قرطبة : ذكرنا فيما تقدم كيف آل أمر الخلافة الأموية الى هشام المؤيد الذى كان صبيا صغيرا وكيف استطاع المنصور بن أبى عامر (١) أن يتولى الأمور فى قرطبه وأن يحجر على هشام ويستبد دونه حتى غدا هو الخليفة الفعلى وان لم يحمل هذا اللقب ، ولا نبعد عن الصواب ان قلنا ان حكمه يعتبر بداية لعهد جديد ودولة جديدة وخاصة عندما أصبح

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن عبد الملك المعافرى ، وجده عبد الملك هذا كان من أول الداخلين مع طارق الى الأندلس من المغرب ، تولى قضاء كورة ريه أيام الحكم بن الناصر فأبدى همة وعزيمة فأضيفت اليه ولاية الشرطة والسكة مقرونة بقضاء اشبيليه ، فعلت حالته وعمر بابه وكانت السيدة صبح زوجة الحكم تشمله برعايتها لحسن خدمته لها . فلما مات الحكم دعته ليكون وزيرا لابنها الضعيف هشام المؤيد ،فاستبد بالأمر بدهائه وتلقب (بالحاجب المنصور) وجعل الحكم فى أبنائه من بعده ، حتى كان هناك مايسمى بالدولة العامرية ضمن الخلافة المروانية . / الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

أبناؤه يتوارثون منصبه من بعده وبالرغم من قوة الرجل وشجاعته فى الجهاد وعدله وحسن سياسته واظهاره هيبة الأندلس التى كادت تعصف بها الحوادث برغم ذلك فانه وجد من يعارض حكمه ويعتبره مغتصبا للخلافة والحكم ولا أدل على ذلك من قول الشاعر يستثير بنى أمية ضده :- (١)

فيما أرى عجبا لمن يتعجب * جلت مصيبتنا وضاق المذهب .

انى لأكذب مقلتى فيما أرى * حتى أقول غلطت فيما أحسب .

أيكون حيا من أمية واحد * ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب .

تمشى عساكرهم حوالى هودج * أعواده فيهن قرد أشهب .

أبنى أمية أين أقمار الدجى * منكم ومالوجوهها تتغيب .؟ :

ان هذه الأبيات تظهر نوعا من التبرم بحكم ابن أبى عامر لدى الناس وبخاصة أنصار بنى أمية أصحاب الخلافة الشرعية . ولكن حزم ابن أبى عامر وكرمه الفياض واصطناعه للرجال كان حائلا دون النيل منه ومن خليفته عبد الملك المظفر ولده . ثم تولى بعدهما ولده الآخر عبد الرحمن الملقب ب (شنجول) وكان جاهلا عابثا اتخذ بطانة سوء أغرته بالتضييق على هشام المؤيد وطلب ولاية العهد منه وبالفعل تم له ما أراد وكتب الخليفة المستضعف كتابا بذلك أشهد فيه طبقات أهل قرطبة على تولية عبد الرحمن ولاية العهد ، وقرئ الكتاب على العامة ، فأحدث استياء بالغا جعل طبقات الشعب تبحث عمن يقودها لقلب الدولة العامرية وازهاقها وتم ذلك على يد أحد رجال الدولة الأموية وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/ ٢٨١ .

(٢) انظر أخبار هذه الفتنة فى المصدر السابق : ٣/ ٤٠ ومابعدها .

الملقب بالمهدى الذى استغل غيبة شنجول عن قرطبة فى غزوة الى نواحى طليطلة ودخل قرطبه بجيشه فأيده الناس ، فمضى بمن معه الى الزاهره مدينة ابن أبى عامر فنهبها ثم هدمها ودخل قصر الحكم بقرطبه وقبض على الخليفة المؤيد الذى سرعان ماتنازل عن الخلافة وبايع المهدى بها ثم تتابع الناس من بعده بالبيعة وانفضوا من حول شنجول ثم قبضوا عليه أخيرا وجزوا رأسه وطافوا به سنة تسع وتسعين وثلاثمائه وهكذا ينتهى نفوذ بنى عامر فى قرطبه،ولم تهدأ الأحوال بعد ذلك بل اشتعل الصراع داخل البيت الأموى نفسه حيث ظهر أموى آخر هو سليمان بن حكم بن الناصر وجمع حوله أشتاتا من البربر الذين رفض المهدى أن يقربهم ويجعلهم من جيشه لكراهية أهل قرطبه لهم ، فبايع هؤلاء سليمان بالخلافة ولقبوه ب " المستعين بالله " ووصل الأمر بهم الى الاستنجاد بالنصارى المتربصين بزعامة ملكهم (شانجه بن فردلند) الذى جهز جيشا كبيرا ودخل قرطبة مع البربر والمستعين وهزموا المهدى وولى هاربا ، واستغل النصارى هذه الفرصة فاستباحوا قرطبة ودمروها وقتلوا مايقرب من ثلاثين ألف انسان (١) فكانت هذه الوقعة أول ثارات النصارى من المسلمين ، كما كانت بداية سيئه لعصر جديد ساهم مساهمة فعاله فى ضياع الأندلس كلها ذلك هو عصر ملوك الطوائف الذى وصف مؤرخ الأندلس ابن حيان سنيه بقوله : " ...... سنينا شدادا نكدات ، صعابا مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحه ، قبيحات المنتهى والخاتمه ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ...." .

---

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق : ٣/ ٥١ .

(٢) الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ص ٣٦ .

وفى رثاء قرطبة المنكوبة يقول ابن شهيد الأندلسى (١) :-

مافى الطلول من الأحبة مخبر * فمن الذى عن حالها نستخبر ؟ (٢)

لا تسألن سوى الفراق فانه * ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا .

جار الزمان عليهم فتفرقوا * فى كل ناحية وباد الأكثر .

جرت الخطوب على محل ديارهم * وعليهم فتغيرت وتغيروا .

يقف الشاعر وقفة حزينة فى طلول أحبته التى أصبحت خاوية لا يجد فيها من يسأله عما حلّ بها وبأهلها ، وهو هنا انما يسائل نفسه لأنه على علم بماحصل لبلده - قرطبه - وانما فعل ذلك لبيان الذهول الذى أصابه عند مشاهدته لمدينته المدّمره . لذلك نراه يرجع الى نفسه ليستيقظ على الحقيقة الواقعة بأن ذلك من فعل الزمان الذى طرقت خطوبه المدينة فغيرت أحوالها من الازدهار الى الانهيار ، وفعل الفراق فعله فى تشتيت أهلها شذر مذر بعد أن فنى أكثرهم فلمثل هذه الحالة يحق للشاعر أن يستقل غزير البكاء ، وبخاصة أنه ذاق فى هذه البلدة حلاوة

---

(١) هو أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك بن شهيد ، من أشجع وهى بطن من قبيلة غطفان العربية ، كان جده عبد الملك وزيرا للخليفة عبد الرحمن الثالث ، وأول من تلقب بذى الوزارتين فى الأندلس . ولد أديبنا فى خلافة هشام المؤيد والأمر يومئذ بيد ابن أبى عامر فعاش فى كنفه عيشة راضيه شطرا من حياته حيث كان أبوه نديما خاصا لابن أبى عامر . نشأ محبا للأدب والشعر ، وبرع فى ذلك حتى أصبح فى الذروة من شعراء الأندلس وكتابها . من آثاره ديوان شعر ، "رسالة التوابع والزوابع" ، كتاب "كشف الدك وايضاح الشك" ، "وحانوت عطار" وغيرها . توفى بداء الفالج سنة ٤٢٦هـ / أنظر : الفتح بن خاقان مطمح الأنفس : ١٦ ، ابن دحيه ، المطرب : ١٧٤ ، ابن سعيد المغرب : ١/٧٨ .

(٢) القصيدة فى ديوان ابن شهيد : ١٠٩ - ١١١ .

العيش وتنعم فى ظل قصور الحكم أيام بنى عامر يقـول :-

فلمثل قرطبة يقل بكـاء مـــن * يبكى بعين دمعها متفجـر .

دار أقال الله عثرة أهلهــــا * فتبربروا وتغربوا وتمصـروا .

فى كل ناحية فريق منهـــم * متفطر لفراقها متحسـير .

عهدى بها والشمل فيها جامـع * من أهلها والعيش فيها أخضر .

ورياح زهرتها تلوح عليهـــم * بروائح يفتر منها العنـبر .

والدار قد ضرب الكمال رواقــه * فيها وباع النقص فيها يقصـر .

والقوم قد أمنوا تغير حسنهـــا * فتعمموا بجمالها وتـأزروا .

ياطيبهم بقصورها وخـدورهــا * وبدورها بقصورها تتخـدر .

والقصر قصر بنى أمية وافـــر * من كل أمر والخلافة أوفـر .

والزاهرية بالمراكب تزهـــر * والعامرية بالكواكب تعمـر . (١)

والجامع الأعلى يغص بكـل مـن * يتلو ويسمع مايشاء وينظـر .

ومسالك الأسواق تشهد أنهـــا * لا يستقل بسالكيها المحشـر .

يرجع الشاعر بذاكرته الى الماضى القريب حيث كان شمل الأحباب بقرطبة مجتمعا وعيشهم بها رغيدا يفتخرون بها على سائر البلاد ، فهى درة جبين الحضارة تزهو بعمرانها ومنشآتها العامة والخاصة وشوارعها الواسعة المضاءة بالقناديل (٢)، وحدائقها التى تتمايل مزهرة شذيه ولاعجب أن تكـون قرطبة كذلك فهى قصبة الملك ودار الخلافة فى وسطها يقع قصر الخلفـاء الأمويين الضخم وبقربها تقوم مدينة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامـر وبالغ فى تحسينها لتنافس قرطبة نفسها وفى هذه المدينة أطلق ابن شهيـد

---

(١) الزاهرية : قصد بها الزاهره ، وهى العامرية من مدن الدولة العامرية وقد أحرقهما البربر سنة ٤٠٣ هـ فى فتنة قرطبة . / ابن عذارى ، البيان المغرب : ٣/ ١٠١ .

(٢) انظر وصف قرطبة فى النفح : ١/ ٤٥٦ ، عبد الرحمن الحجى ، أندلسيات ٢/ ١٦١ .

لسانه فى المديح ، وجرّ رسنه فى البطالة واللهو . ولا ينسى فى هذا المجال جامع قرطبة الكبير الذى تتابع طيه الخلفاء بالزيادة والتحسين حتى غدا آية فى الروعة ومنارا للعلم والعبادة .

يقول ابن عذارى : "كانت قرطبة فى زمان الفتك الداخل الى الأندلس قد نسي بها بغداد فى زمان الرشيد ، وعظم بها ملكهم فاشتد أمرهم وضخم حالهم ، وأعظم ماكانت فى زمان الناصر ثم فى زمان الحكم واتصل ذلك لها الى آخر المنصور بن أبى عامر فتناهى بها كل فضل وكمل ،وذلك للادبار الذى يكون بعقب الاقبال ، والنقص الذى يوافى بعد الكمال فما من شئ كمل الا ودنا نقصه لا محاله ." وبقدر ماكان الحسن والازدهار أصبح الخراب والتدمير وانقلب كل شئ فيها الى نقيضه :

ياجنة عصفت بها وبأهلها * ريح النوى فتدمرت وتدمروا .
آسى عليك من الممات وحق لى * اذ لم نزل بك فى حياتك نفخر .
كانت عراصك للمهيمن مكة * يأوى اليها الخائفون فينصروا .
يامنزلا نزلت به وبأهله * طير النوى فتغيروا وتنكروا .

ان الشاعر يصف المفارقة الحاصله بين الحالتين اللتين عاشتهما المدينة بالحياة والموت فبينما كانت موضع الفخر فى حال حياتها اذ هى اليوم ميتة تستحق البكاء والأسى ، وهذه الصورة النابضة بالحياة جديدة فى شعر رثاء المدن أبدعها ابن شهيد وربما نجدها فى شعر من جاء بعده . ومادامت المدينة قد ذوت وماتت فانه يدعو لها بالسقيا لعلها تحيا من جديد وتزهر رياضها :-

جاد الفرات بساحتيك ودجلة * والنهل جاد بها وجاد الكوثر .
وسقيت من ماء الحياة غمامة * تحيا بها منك الرياض وتزهر .

ثم يعود بعد ذلك الى تأسفه وحزنه على أيامه الخوالي بها حين كان الأمر مجتمعا على أمير واحد حازم يخضع له الجميع ، ثم يمتد أسفه ليشمل أصنافا من الناس كالجند الحماة والعلماء والأدباء والحكماء يقول :

أيام كان الأمر فيها واحدا * لأميرها وأمير من يتأمر .

أيام كانت كف كل سلامة * تسمو اليها بالسلام وتبدر .

حزنى على سرواتها ورواتها * وثقاتها وحماتها يتكرر .

نفسى على آلائها وصفائها * وبهائها وسنائها تتحسر .

كبدى على علمائها ، حكمائها * أدبائها ، ظرفائها تتفطر .

لقد كانت قرطبة كعبة العلماء بأصنافهم ، والشعراء والأدباء ، وكان ابن شهيد من جملتهم ، كما كانت تزخر بالمدارس والجامعات والمكتبات ، حتى انه كان يحتج بعمل أهلها فى الأحكام يقول المقرى (١) : " واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب ، حتى انهم يقولون فى الأحكام هذا ماجرى به عمل قرطبة . "

ان ابن شهيد بالرغم من مقامه السياسى والاجتماعى فى العاصمة ـ قرطبة ـ وشهوده للفتنه عن كثب ، فان قصيدته جاءت دون المستوى الذى ينبغى لها من حيث حرارة العاطفة وصدق الاحساس وقوة التأثير ، ولعل شدة وقع المصاب عليه أفقده القدرة على التفاعل مع الأحداث ، فهو لم يعرض فى قصيدته الى رؤوس الفتنة ، ولم ينح باللائمة على أحد وانما أرجع سبب الدمار والهلاك الى فعل الدهر فأتى بضروب من العبارات الدالة على ذلك كقوله : "جار الزمان " ، " جرت الخطوب " " ريح النوى " ، " طير النوى " وأمثال

---

(١) النفح : ١/٥٥٦ .

هذه العبارات تبعث في النفس لونا من الحزن المشرب باليأس من أى مقاومة أو أمل في الانتعاش أضف الى ذلك أن الشاعر لم يتفنن في رسم الصور التفصيلية لما أصاب المدينة وأهلها ، ليجعل الموقف الشعرى في ذروة التأثير وانما أجمل اجمالا لا يغنى عن التفصيل في كثير من الأحيان ، فلم يتحدث عن الحقد الصليبى على المسلمين ولم يذكر التهافت على الحكم من قبل المتنازعين ولو على حساب مصلحة الأمة التى ذاقت الويلات قتلا وسلبا وأسرا من جراء ذلك . ان الشاعر كما يبدو استغل شعر الأطلال في رثائه لقرطبة فهو - كما يظهر من القصيده - كمن يقف بأطلال دائره لها ماض عريق فهو يستعمل قاموس الأطلال اللغوى كقوله "عهدى بها" "عهدت ربوعها" ، "يامنزلا" .... الخ كما أنه يدعو لتلك الأطلال بالسقيا والخصب الذى يكثر وروده في المقدمات الطلليه . وعلى هذا يكون رثاؤه أقرب الى السلبية والاستسلام . أما أسلوبه فلم يخرج عن أسلوب الشعر بعامه في القرن الخامس الهجرى في الأندلس حيث كان مدار الحسن عندهم ينبنى على مقدار مايستعمله الشاعر من المحسنات اللفظية والمعنوية وغيرها فهو عصر السجع بحق حتى اننا نجد معظم المؤلفات غير الأدبية - كالتاريخية والتراجم وغيرها فيه كتبت بطريقة مسجوعة تجعل الحصول على المعلومات منها في غاية الصعوبة أحيانا . لذا نجد ابن شهيد رغم كونه شاعرا مطبوعا وذا قريحة وقاده مخترعه وسباقه فانه حشد في قصيدته معظم أنواع البيان والبديع ، كالاستعارات والتشبيهات ، والجناس والطباق وغير ذلك .

وهناك - أيضا - عدة مقطوعات في رثاء قرطبه يسلك بعضها سبيل الوعظ وارشاد الناس الى الصراط القويم الذى اصابتهم المحن بسبب ابتعادهم عنه ، وزجرهم عن الغى الذى أعمى بصائرهم فلم يضعوا الأمور في نصابها

يقول بعضهم : (١)

أضعتم الحزم فى تدبير أمركم * ستعلمون معا عقبى البوار غدا .

فلو رأيتم بعين الفكر حالكم * بكيتم بدم أن دمتم بددا .

لكن سبل العمى أعمت بصائركم * فألبستكم ثيابا للبلى جددا .

ياأمة هتكت ستور سيئتها * ماكل من ذل أعطى بالصغار يدا .
(٢)
فى سورة الحشر آيات مفصلة * فى شأنكم أنزلت لم تعدكم أحدا .

نعم وفى الكهف فى العشرين خاتمة * تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا .

فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت * جميعكم محنة لا تنقضى أبدا .

ان هذه الأبيات - كمايبدو - صرخة تعنيف من عالم : قد عرف مكمن الداء وسبب الهلاك الذى أصاب الناس فى هذه الفتنة المبيرة وهو الابتعاد عن الجدية والحزم فى تصريف الأمور حتى غدت حالتهم تستوجب البكاء دما بعد التفرق والتشتت الذى لا يرجى بعده اجتماع . وهو يشير كذلك الى أمر هام زاد الأمة ذلا على ذلها وكشف ضعفها وهوانها وهو الاستنجاد بأعداء الدين النصارى على المسلمين فى سبيل تحقيق شهوات ومطامع خسيسه ، وذلك قوله " ماكل من ذل أعطى بالصغار يدا " . وفى الآيات التى ألمح اليها تفسير قوله هذا ، وبخاصة قوله تعالى عن الكفار (انهم ان يظهروا عليكم
(٣)
يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا .) .

---

(١) البيان المغرب : ٣/١١١ .

(٢) يريد الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الحشر .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الكهف .

ان هذه المقطوعة وان كنا نعدها من شعر الوعظ والزجر لا من شعر الرثاء الخالص - لخلوها من وصف ماحل بقرطبة من الدمار تفصيلا - الا أنها قد أدت غرضها بايجابية فى تنبيه الناس الغافلين ، وايقافهم على الواقع الماثل أمامهم ، فقد تميز صاحبها بصدق عاطفته والتهاب شعوره وحماسه .

ولبعضهم أيضا مقطوعة قصيرة فى رثاء عاصمة الخلافة (قرطبة) وهو يرجع مادهاها الى العين والحسد وهذا النوع من القول يتردد كثيرا فى شعر الرثاء ، كما لاحظناه فى رثاء بغداد أيام فتنة الأمين والمأمون .

يقول : (١)

أبك على قرطبة الزين * فقد دهتها نظرة العين .

انظرها الدهر باسلافه * ثم تقاضى جملة الدين .

كانت على الغاية من حسنها * وعيشها المستعذب اللين .

فانعكس الأمر فما ان ترى * بها سرورا بين اثنين .

فاغد و ودعها وسر سالما * ان كنت أزمعت على البين .

ان الشاعر - كما يبدو - ذو نزعة تشاؤمية انهزامية قادته الى البكاء والحزن على مدينته المدمرة دون أن يرفع صوته محذرا قومه أسباب الفتن والانقياد للحكام الخونه الذين هم رأس الداء وسبب البلاء . ولعل الخوف من البطش به هو الذى دفعه الى أن يجعل سبب خراب قرطبة ، وانعكاس حالها من الحسن والسرور الى البؤس والشقاء هو نظرة العين الحاسدة ، وتصاريف الدهر المتلونه التى قطعت الوشائج بين الناس . فلا عليهم الا أن يفارقوها مودّعين الى غير لقاء .

---

(١) البيان المغرب ، ٣/١١٠ .

ويقول الفقيه ابن القبرى :- (١)

ياليت شعرى والأيام تجمعنا * ونأخذ البين مغلوبا فنصفعه .
فى جنة الأرض أعنى أرض قرطبه * فكل شئ بديع فهى تجمعه .
استودع الله أهليها فانهم * كالمسك قد ملأ الدنيا تضوعه .

وهذه الأبيات أقرب الى الحنين منها الى الرثاء ، فهى تعبير عن أشواق قائلها الى أيامه الماضية بقرطبه حين كان الشمل ملتئما والفراق منهزما ، وكل مالذ وطاب موفورا فيها .

وفى حوالى سنة أربعين وأربعمائه جاء الشاعر المعروف بالسميسر (٢)

---

(١) هو عبد الواحد بن محمد بن موهب التجيبى يكنى بأبى شاكر ويعرف بابن القبرى . كان فقيها محدثا ، وخطيبا شاعرا ولد بقرطبه سنة ٣٧٧هـ ونشأ وتعلم بها ثم تحول بعد الفتنة الى شاطبه وولى بها الأحكام والمظالم وكان من أهل النبل والذكاء والتواضع ، توفى سنة ٤٥٦ بشاطبه ودفن ببلنسيه . انظر : بغية الملتمس ، ترجمه رقم ١١٠٧ ، القاضى عياض ، ترتيب المدارك : ٨١٨/٤ . والأبيات فى نفس المصدر والصفحه .

(٢) هو أبو القاسم خلف بن فرج الألبيرى ، من أعلام شعراء ألبيره ، وبيته فى غرناطه . أدرك الدولة العامرية وانقراضها ، اشتهر بالهجاء والاقذاع وألف فى ذلك كتابا سماه "شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض" قال فيه ابن بسام : "كان باقعة عصره ، وأعجوبة دهره ، له طبع حسن وتصرف مستحسن فى مقطوعات الأبيات وخاصة اذا هجا وقدح توفى سنة ٤٨٠هـ الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٣٧٢ ط القاهرة . وانظر ابن دحيه ، المطرب : ٩٣ ، ابن سعيد ، المغرب : ١٠٠/٢ .

الى قرطبه وجال فى عراصها وشاهد ماحلّ بها ثم انتقل عنها الى مدينة الزهراء المجاورة لها ، وكانت قد خربت وأصبحت أطلالا بعد أن كانت عاصمة الخلافة الأموية أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى جعلها زينة الدنيا لشدة مبالغته فى زخرفتها وتحسينها ، وذلك لتناسب مقام الخلافة الكبير ، فيروى أنه جلب اليها الرخام الأبيض من ألمريه ، والوردى والمجزع من افريقية وقرطاجنه ، وبنى فى وسطها مجلسه المسمى بقصر الخلافة ، وكانت فراقده من الذهب والفضة وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق . وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس . وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه فى الجاهلية ولا فى الاسلام . (١) فلما حدثت فتنة قرطبة هجم البربر على هذه المدينة ومعهم النصارى ونهبوا كل مافيها ودمروها بشناعة فلما وقف السميسر بها أخذ يناجيها باكيا ومستخرجا للعبرة ممآل اليه حالها . يقول :-

وقفت بالزهراء مستعبرا * معتبرا أندب أشتاتا . (٢)

فقلت : يازهرا ألا فارجعى * قالت وهل يرجع من ماتا ؟

فلم أزل أبكى وأبكى بها * هيهات يغنى الدمع هيهاتا .

كأنما آثار من قد مضى * نوادب يندبن أمواتا .

ان تبدل حال الزهراء وخرابها جدير أن تأخذ منه العبرة بأن مصير كل شئ على الأرض - مهما كان عظيما - الى الفناء والزوال ، ولقد أحسن الشاعر فى وقفته بأطلالها وبهذا الحوار الذى يجريه معها ويضفى عليها فيه صفات

---

(١) انظر وصف الزهراء فى : ابن خلدون ، العبر : ٤/١٤٤ ، عنان الآثار الباقية فى أسبانيا والبرتغال : ٣٥ ، عبد العزيز سالم ، قرطبه حاضرة الخلافة الإسلامية : ١/٢٢٩ .

(٢) نفح الطيب : ١/٥٢٧ .

الأحياء الذين يؤلون الى الموت " قالت : وهل يرجع من ماتا " أو يجعل الأطلال نوادب يندبن من عمروهن فيما مضى . وربما قال قائل : لماذا أعجبتنا وقفة السميسر بالأطلال رغم كونها سلبية فهو يبكى ويستبكى من حوله ولا غير ؟ والجواب على ذلك أن الشاعر جاء الى الزهراء بعد خرابها فيما يقارب عشرين عاما فلم يجد غير آثار وأطلال دراسه ، كما أنه لم يكن فى الأصل من أهلها ليكون قد شهد دمار قرطبة والزهراء فى الفتنة البربرية سنة أربع وأربعمائه .

عصـــر الطوائـف وبدايــــة السقــوط :

رأينا - فى ماتقدم - كيف اشتعلت الفتنــة البربرية وقوضت حكم العامريين ، ورجع الأمر الى بنى أمية بجهود أنصارهم من البربر والمرتزقة النصارى الذيـن لم يدخروا وسعا فى تدمير البلاد وافسادها . وظل الأمر كذلك فى الفـتـرة القصيرة التالية بسبب تعدد الفئات والأحزاب المتنازعة ، وتوالى الخلفـــاء من الأمويين والبربر حتى بلغ عددهم فى مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة أربعـة عشر خليفة (١) وكان من جراء هذه الفوضى العارمة أن تمزقت وحدة الدولـــة وخيم عليها شبح الكوارث المحرقه التى أصابت كل شىء ، وختمت هذه المحـن بانهيار صرح الخلافـة ، وأطيح بآخر الخلفاء الأمويين هشام المعتد باللـــه ونودى فى آخر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائه بأن لا يبقى فى قرطبـة وسائـــر أحيائها وأرباضها أحد من بنى أميه ولا يؤويهم أحد . وهكذا انقطع ذكـــر الأمويين من على منابر الأندلس الى الأبد (٢) . وعلى أثر ذلك أصبحت الفرصـــة سانحة أمام كل ذى قوة من الزعماء المحليين ليصبح ملكا على دويلة يقيمهـــا فى منطقته ، فاذا بنا أمام عشرين دويلـة مستقلة استقلالا تاما فى ادارتهـــا وجيشها وحياتها الفكريه والأدبيه ، وعرفت هذه الدويلات بدول الطوائــــف ورؤساؤها بملوك الطوائف . وهم مابين وزير سابق ، وشيخ للقضاء ، وحاكـــم لمدينه ، وقائد له نفوذ وأتباع (٣) ومن أشهرهم موالى بنى عامر مثل خيران العامرى وزهير العامرى فى شرق الأندلس أى فى (ألمرية ، ومرسية ، وبلنسية ، ودانية)

---

(١) ابن شهيد ، رسالة التوابع والزوابع : ١٢ .

(٢) عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس : ٣٦٣ ، عبدالكريم خليفه ، ابن حزم الأندلسى حياته وأدبه : ٥٠ .

(٣) عنان ، دول الطوائف : ١٤ .

وموالى الأمويين الجهاورة فى قرطبة ، وفى غرناطة ومالقة وبطليوس وطليطلة قام البربر بالحكم وهم : (بنو زيرى ، وبنو الأفطس وبنو ذى النون) وفى اشبيلية وسرقسطة والبونت حكم العنصر العربى وهم : (بنو عباد اللخميون ، وبنو هود الجذاميون ، وبنو القاسم الفهريون ، وبنو حمود الحسنيون) (١).

وهذه الممالك كانت تسلك - فى الغالب - نهجا سياسيا واداريا واحدا . فالملك وحده يستبد بأمور الدولة ويتخذ بطانة سوء على شاكلته لا تقبل شورى ولا معارضة . أما الاداره فتنظر فى المقام الأول الى جمع الأموال من الرعية المغلوبة على أمرها لتنفق على الجند المستأجر لحماية العروش المتهاويه وعلى الشعراء الذين حرص كل ملك منهم على استقطابهم ليدبجوا قصائد الملق ، وملاحم البطولات المزعومة لأولئك الأقزام . أما أنواع اللذات فقد أفتنوا فى اقتناصها وأنفقوا عليها بسخاء . ونستثنى منهم أبا الحزم بن جهور حاكم قرطبة فقد كان شهما عادلا حكم مملكته بالشورى وأعطى جزءا كبيرا من السلطة لفضلاء الناس فى مملكته فساعدوه على نشر الأمن ، وقاموا باصلاحات عظيمه انسدل بها الستر على أهل قرطبه (٢) وقد كانت العلاقات بين هذه الممالك علاقات خصام وتناحر وتحين للفرص من قبل كل ملك للانقضاض والتوسع على حساب ماجاوره من الممالك وقد كان هؤلاء الملوك يعتمدون فى حروبهم مع بعضهم اعتمادا كبيرا على قوات النصارى مقابل جزية عظيمة يدفعونها لهم . حتى أصبح للأذفنش ملك قشتاله النصرانى عمال (٣)

---

(١) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية : ٥٧ - ٥٨ .

(٢) انظر الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٦٠٣ - ٦٠٤ .

(٣) هو أذفونش بن فرذلند بن غرسيه بن شانجه ، من أشجع ملوك النصارى ، ويرد فى المصادر بلفظ الفونس . هلك بطليطله سنة ٥٠٢ هـ بعد أن ملك نيفا وخمسين سنه ./ انظر البيان المغرب : ٤/ ٥٠ - ٥١ ، السلاوى ، الاستقصاء : ١/ ١٢٤ .

يجبون له الجزيه من ملوك الطوائف ومع هذا الذل الذى كانوا يرزحون (١) تحت وطأته اتخذوا الألقاب الفخمة ، كالمقتدر والمعتضد والمعتمد والمستكفى والمتوكل .... مما دفع ابن رشيق القيروانى الى القول (٢) :-

مما يزهدني فى أرض أندلس * أسماء معتضد فيها ومعتمد .
ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد .

وقد أدى تفرق هؤلاء الملوك وانكارهم لكل صوت يدعو الى الوحدة والتكاتف الى جعلهم غنيمة سهلة للنصارى والنورمان الذين بدأوا تحركهم باحتلال مدينة بربشتر الأندلسيه سنة ست وخمسين وأربعمائه .

رثاء بربشتر : كانت بربشتر تحت حكم سليمان بن هود الملقب بالمستعين بالله حاكم سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان هذا قد قسم مملكته قبل موته بين أولاده الخمسه حيث أصبح كل منهم حاكما مستقلا بما تحت يده من البلاد . وسرعان ما بدأ التنافس ، وظهرت الرغبة فى السيادة والتوسع . وكان أشدهم أطماعا الأخ الأكبر أحمد المقتدر الذى استطاع بالحيلة والوعيد أن يتغلب على ثلاثة من اخوته ويستولى على أملاكهم ثم يودعهم السجن مع

---

(١) ابن أبى دينار ، المؤنس : ١٠٠ - ١٠١ ، عبد الكريم التوانى ، مأساة انهيار الوجود العربى فى الأندلس : ٣٠٩ .

(٢) العماد الأصفهانى ، الخريده ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٣) مدينة تقع على فرع صغير من أفرع نهر ابره ، فى الشمال الشرقى لسرقسطه وهى من أمهات مدن الثغر الفائقه فى الحصانة والامتناع / انظر الحميرى الروض المعطار : مادة (بربشتر) ، عنان ، دول الطوائف : ٢٧٥ .

التعذيب بيد أن أخاه الرابع الملقب بحسام الدولة كان له ندا وقف في وجهه وحد من أطماعه ، فوقعت الحرب بين الأخوين، وقد استغل النورمان الصليبيون هذه الظروف فزحفوا الى بربشتر سنة ست وخمسين وأربعمائه . تقول الرواية الاسلامية :[١] " ان الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) الى الأندلس فى جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد الا الله " وقيل ان جموعهم بلغت أربعين ألف فارس ، فضربوا حولها حصارا شديدا استمر أربعين يوما ، ودافع المسلمون عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، غير أن الأقوات فيها قد قلت ووقع التنازع بين أهلها فاستطاع النورمان أن يقتحموا المدينه الخارجية فتحصن الناس بالمدينة الداخلية وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة شخص ، ولكن النورمان اهتدوا أخيرا الى مكان سقيا المدينه الداخليه فهدموه ، فالتقى على المحاصرين العطش والجوع والخوف فطلبوا الأمان على أن يخرجوا من المدينة آمنين دون أموال ، فوافق النورمان . ولكن هؤلاء لا عهد لهم فدخلوا المدينة بوحشية وأخذوا يقتلون ويأسرون وينهبون كل مايجدون وخاصة الأبكار المسلمات يروى[٢] ياقوت الحموى أنه قد أهدى من أبكار الجوارى المسلمات ، وأهل الحسن منهن الى صاحب قسطنطينية سبعة آلاف بكر منتخبه . ويقول ابن حيان :[٣] " زعموا أنه صار لأكبرهم فى حصته نحو ألف وخمسمائه جاريه أبكار ، ومن أوقار الأمتعه والحلى والكسوة خمسمائه جمل " أما عدد القتلى والأسرى فهو أعظم من أن يوصف .

---

(١) مجهول ، الحلل الموشيه : ٥٤ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس : ٧١ .
(٢) معجم البلدان ، مادة (بربشتر) .
(٣) البيان المغرب : ٣/٢٥٥ سرح الحادثه بالتفصيل .

أو ينقص . وربما كان فى الأرقام المذكورة فى هذه الروايات شئ من المبالغة ، ولكنها تدل على فداحة الخطب والوحشية الصليبية التى ماتت فيها كل الصفات الانسانية . وقد حصل كل هذا والمقتدر بن هود لم يحرك ساكنا جبنا منه ونذاله ، ولأن هذه المدينة واقعة فى ملك أخيه الذى يناصبه العداء . وفى هذه الحادثة قال الزاهد الفقيه ابن العسال (١) يرثى المدينة وأهلها :-

(٢)
ولقد رمانا المشركون بأسهم * لم تخط لكن شأنها الاصماء .
هتكوا بخيلهم قصور عريمها * لم يبق لا جبل ولا بطحاء .
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها * فى كل يوم غارة شعواء .
ماتت قلوب المسلمين برعبهم * فحماتنا فى حربهم جبناء .
كم موضع غنموه لم يرحم به * طفل ولا شيخ ولا عذراء .
ولكم رضيع فرقوه من أمه * فله اليها ضجة وبغاء .
ولرب مولود أبوه مجدل * فوق التراب وفرشه البيداء .
ومصونة فى خدرها محجوبة * قد أبرزوها مالها استخفاء .
وعزيز قوم صار فى أيديهم * فعليه بعد العزة استخذاء .

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبى ، من أهل طليطله . شيخ فقيه ، وشاعر مؤلف ، وعالم بالتفسير واللغة والآداب توفى سنة ٤٨٧هـ . انظر ابن بشكوال ، الصلة : ١/ ٢٨٥ ، وفيات الأعيان : ٥/ ٢٧ - ٢٨ .

(٢) القصيدة ذكرها الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس : ٤٠ - ٤١ .

ان الشاعر فى هذه القصيدة يصل الى غرضه الأصلى مباشرة بدون مقدمات تمهيدية وذلك لأن الموقف يتطلب هذا ، فهو يصف حادثة مروّعة وقعت بالقرب منه ، وأثارت مشاعره وأحزانه فالنصارى قد احتلوا المدينة بقسوة شنيعة ، فدكوا البيوت وانتهكوا الحرمات وجاسوا خلال الديار . وبالرغم من أن تصويره للنكبة كان من النوع المألوف فى شعر الرثاء فانه أضاف الى ذلك تلمسه لسبب البلاء وهم الحكام الجبناء فقال فى صراحة " فحماتنا فى حربهم جبناء " وقد جرّ هذا الجبن والرعب الى اظهار قوة الأعداء بمظهر لا تجدى معه مقاومة مما أدى الى موت قلوب المسلمين وتخاذلهم عن نصرة اخوانهم . ويضيف ابن العسال سببا آخر للمصائب النازلة بالناس ، وهو الذنوب التى لحقتهم من جراء معاصيهم فيقول :-

لولا ذنوب المسلمين وانهم * ركبوا الكبائر مالهن خفاء .

ماكان ينصر للنصارى فارس * أبدا عليهم فالذنوب الداء .

فشرارها لا يختفون بشرهم * وصلاح منتحلى الصلاح رياء .

وهذا السبب الذى يرجع ابن العسال اليه النكبة وهو الاستهتار بالدين والمجاهرة بالكبائر يمثل الداء الحقيقى للنكبات الجماعية ، ويكثر وروده فى شعر رثاء الدول والمدن وخاصة فى الأندلس لكثرة لذاتها المحرّمه .

ولقد كان لهذه الحادثة أثر كبير فى الأندلس قاطبه حيث توجس الناس من امتداد هذا الشر الى باقى الممالك فقد أصبحت بربشتر ثغرا للنورمان داخل الأندلس يسهل عليهم التحرك منه الى حيث شاءوا يقول ابن حيان :(١)

"بلغ خبر استيلاء النورمانيين عليها قرطبة فى رمضان من ذلك العام ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلا يشغل

---

(١) الذخيرة ، ق ٣ ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

الناس فى التحدث به والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله ، ومن ثم بـدأت الجهود تبذل لاستعادتها ، وراح المخلصون من العلماء وغيرهم يحمسون الحكام لافتكاكها بالمديح تارة وبالتوبيخ أخرى ، وكان من أشهرهم أبو حفص الهوزنى (١) الذى آلمته النكبة فراح يستحث المعتضد بن عباد أكبر ملوك الطوائف ، وكان صديقه الحميم فبعث اليه بهذه الأبيات :-

أعباد جلّ الرزء والقوم هجـع * على حالة من مثلها يتوقـع . (٢)

فلـق كتابى من فراغك ساعـة * وان طال فالموصوف للطول موضع .

اذا لم أبث الداء رب دوائـه * أضعت ، وأهل للملام المضيـع .

وأردف الأبيات برسالة منها " .... وكتابى عن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد ، كما يخبر لورودها وجه الصعيد . بدؤها ينسف الطريف والتالد ، ويستأصل الوليد والوالد . تذر النساء أيامى ، والأطفال يتامى ..... طمت حتى خيف على عروة الايمان الانفصام ، وطمت حتى خشى على عمود الاسلام الانقصام .... ان حاربوا موضعا أرسلناه أو انتسفوا قطرا سوّغناه ، وان هذا الأمر له مابعده الا أن يسنى الله على يديك دفعه وصده " .

وقد أصم ابن عباد أذنيه عن هذه الرسالة بل اعتبرها نوعا من التوريط لاظهار عجزه وتقاعسه فى الدفاع عن حوزة الاسلام ، أو لكسر هيبته لدى ملوك

---

(١) هو عمر بن الحسن بن عبد الرحمن الهوزنى من أهل اشبيليه . عالم محدث رحل الى المشرق سنة ٤٤٤هـ . كان متفننا فى العلوم قد أخذ بطرف من كل منها مع ثقوب فهمه وصحة ضبطه ، قتل باشبيلية سنة ٤٦٠ هـ / انظر : ابن سعيد ، المغرب : ١/ ٢٣٤ ، النفح : ٢/ ٩٣ الصله : ١/ ٣٨١ .

(٢) الذخيرة ق ٢ ، ج ١ ص ٨٣ .

الطوائف اذا هو حارب وأخفق . لذلك أرسل للهوزني يحثه على المجيء الى اشبيلية . فلما جاء قبض عليه المعتضد وقتله بيده . (١)

وممن كان له دور في استنهاض الهمم الشاعر السميسر ، يقول موبخا الملوك والمتقاسمين :- (٢)

ناد الملوك وقل لهم * ماذا الذى أحدثتم ؟
أسلمتم الاسلام في * أسر العدا وقعدتم .
وجب القيام عليكم * اذ بالنصارى قمتم .
لا تنكروا شق العصا * فعصا النبي شققتم .

انه ينعى على هؤلاء الملوك تخاذلهم عن نصرة الاسلام وأهله الذين ساقهم العدو أسارى وفعل بهم الأعاجيب ، ويذكرهم أن القيام بنصرتهم واجبه . وفي الوقت نفسه ينكر على ملوك الطوائف عملهم الشائن وهو الاعتماد على قوة النصارى أعداء الله الأمر الذى فيه مخالفة صريحة لهدى النبي -عليه الصلاة والسلام .

وفي هذه المحنة -أيضا- كتب ابن عبد البر (٣) كتابا وزّع على أنحاء الأندلس

---

(١) الذخيره ، ق٢ ، ج ١ : ص ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ق١ ، ج ٢ ، ص ٨٨٥ .

(٣) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى، يكنى أبا عمر ، ولد بقرطبة سنة ٣٦٢ ، ونشأ بها وأخذ عن شيوخها ثم تحول عنها الى شرق الأندلس بلنسية وشاطبة وبها توفي سنة ٤٦٣هـ ، كان يعرف بشيخ علماء الأندلس لسعة حفظه في الحديث . له كتب كثيرة منها الاستيعاب وجامع بيان العلم وفضله / انظر : ابن فرحون ، الديباج المذهب : ٣٦٧/٢ ، عياض ، ترتيب المدارك : ٨٠٨/٤ ، بغية الملتمس : ٤٧٤ .

تعميما للشعور بالمشكلة ، جاء فيه " ..... فما ظنكم معشر المسلمين وقد سيقت النساء والولد ان مابين عارية وعريان قودا بالنواصي الى كل مكان طورا على المتون وطورا على البطون ، ومشيخة الرجال مقرنين بالحبال مصفدين فى السلاسل والأغلال ، مقتادين فى الشعور والسبال ، ان استرحموا لم يرحموا ، وان استطعموا لم يطعموا ، وان استسقوا لم يسقوا ، وقد طاشت أحلامهم وذهلت أوهامهم فياويلاه وياقرآناه ويامحمداه " . (١)

ويبدو أن هذه الأصداء قد وجدت من ملوك الطوائف أذنا صاغيه وفى مقدمتهم المقتدر ابن هود الذى شعر بتقصيره الشديد تجاه المدينة وكأنه أراد أن يمحو العار الذى لزمه من جراء ذلك ، فاستنفر الناس للجهاد فتجمع لديه عدد هائل من الفرسان والرماه من مختلف جهات الأندلس وسار بهم الى بربشتر فحاصروها بشدة ودكوا أسوارها ثم اقتحموها وفتكوا بالنصارى النورمان فتكة شديدة جبرت الصدع وأثلجت صدور المسلمين ، وكان استردادها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائه بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر . (٢)

رثاء طليطلة (٣) :-

أما النكبة الثانية التى حلت بالمدن الأندلسيه فى هذا العصر ، وكانت

---

(١) الذخيرة : ق٣ ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٢) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس : ٧٣ .

(٣) مدينة كبيرة حصينة تسمى مدينة الملوك ، كانت عاصمة مملكة القوط قبل فتح المسلمين لها عام ٩٢هـ تقع على ضفة النهر الكبير على مسافة ٩١ كم جنوبى غرب مدريد ، تحدق بها البساتين ، وتخترقها الأنهار ويحيط بها سياج من القلاع المنيعه فى مختلف جهاتها . / معجم البلدان ، والروض المعطار تحت كلمة (طليطله) .

نقطة تحول فى التاريخ الأندلسى عامة فهى سقوط مدينة طليطلة الشهيرة بيد الأذفونش ملك قشتاله ، وترجع أهمية هذه المدينة الى كونها من أكبر دول الطوائف بالاضافة الى موقعها الحربى الهام حيث تقع على مشارف الأندلس من الشمال متاخمة لحدود الممالك النصرانية . فهى بذلك تمثل حاجزا مانعا فى وجه أى عدوان من تلك الجهات فعرفت لذلك بالثغر الأوسط (١) . وقد كانت هذه المنطقة الشاسعه (طليطلة وماتبعها) غنما للبربر من بنى ذى النون بعد سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس .

وكان من أبرز حكامها يحيى بن اسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون الذى أقام فيها حضارة زاهره وبنى القصور الفخمه ومن أشهرها مجلسه المعروف (بالمكرم) (٢) ، غير أنه كان كباقى ملوك الطوائف يدفع الجزية للنصارى مقابل امداده بالمرتزقه ليقاتل بهم جيرانه بنى هود أصحاب سرقسطه وبنى عباد أصحاب اشبيليه واستطاع فى النهاية أن يحتل قرطبة من يد ابن عباد الذى كان قد أخذها من يد بنى جهور بعد أن قضى على حكمهم بخطة دنيئه سنة اثنتين وستين وأربعمائه ووضع عليها ولده سراج الدولة ودخل المأمون قرطبة سنة سبع وستين وأربعمائه دخول الفاتحين ولكنه لم يلبث أن مرض مرضا شديدا ثم توفى فى نفس العام . وفى عهد هذا الحاكم جاء الاذفونش لاجئا الى طليطلة بعد أن تغلب عليه أخوه سانشو واغتصب ملكه ، فأكرمه المأمون اكراما زائدا ربما نعتبره نوعا من الغفلة ، لأن الاذفونش كان فى تلك المدة يدرس أحوال المدينة من جميع نواحيها تمهيدا لاحتلالها فى المستقبل يقول

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ٩٤ .

(٢) انظر وصف المجلس فى : الطرطوشى ، سراج الملوك : ٥٤ .

ابن الخطيب : " وسكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذى أوجب تطلك النصارى بها " وقد كان المأمون يعتمد اعتمادا كبيرا على جهود شيخ الجماعة ابن الحديدى (٢) ولا يقطع أمرا دون مشاورته وقد أوصى حفيده الملقب بالقادر أن يشد يديه على ابن الحديدى ويستعين برأيه اذا هو ولى الملك ولكن القادر هذا كان حدثا قليل الخبرة ضعيف الرأى ، فلم تمض فترة قصيرة على حكمه حتى سعى اليه نفر من خاصته بابن الحديدى وأوغروا صدره عليه وأقنعوه بالتخلص منه حتى يكون حاكما فعليا فاستدعاه الى القصر ، وجمع له قوما من الحاقدين عليه ففتكوا به ، وانتهبوا دوره ومايملك (٣) .

ولم يلبث القادر أن أخذ يجنى ثمار جريمته وعقوقه عندما بدأ أولئك الأعيان الحاقدون الذين شاركوه فى الجريمة يحوكون الدسائس ضده ويثيرون الشعب عليه حتى ظهر شبح الثورة فى نواحى البلاد جليا . عندها لجأ القادر الى الاذفونش ملك قشتالة يلتمس حمايته ، فاشتط فى طلب المال ، وطلب بعض الحصون القريبة من الحدود وأخذ بعضها فعلا ، ولكن الثورة فى الداخل اضطرمت ففر القادر بأهله الى حصن من حصونه الشرقية هو

---

(١) أعمال الأعلام : ٢/ ٢٣٠ .

(٢) هو يحيى بن سعيد بن أحمد الحديدى ، يكنى أبا بكر من أهل طليطله ، كان نبيلا متفننا وفصيحا مقدما فى الشورى احتل مكانة عظمى فى دولة بنى ذى النون ، قتله القادر بالله سنة ٤٦٨ هـ . / انظر الصله : ٢/ ٦٦٩ ، المغرب : ٢/ ١٣ .

(٣) انظر أخبار الحديدى فى الذخيرة ق٤ ، ج١ ص١٥١ .

حصن وبذه[1] وبقيت طليطلة بلا أمير فاستدعى أهل الرأى منهم المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس فقدم الى طليطلة كارها وتولى أمرها الى حين ، وذلك أن القادر أخذ يراسل الاذفونش من ملجئه ويذكره بالأيدى البيضاء التى كانت لبنى ذى النون عليه فاستجاب له الاذفونش وهو فى الحقيقة يضمر فى نفسه الاستيلاء على المدينه ، فقدم اليه فى سرية من فرسانه ففر أمامه ابن الأفطس ورجع القادر الى عرش طليطلة تحت حماية الجيش النصرانى الذى نكل بأهل المدينة ، وأحرق ماحولها من الزروع والثمار واستمر على ذلك فترة طويلة ليضعف المدينة التى كانت من المنعة والحصانة بمكان . وفى هذه الآونة الخطيرة كان موقف ملوك الطوائف مخزيا ومثيرا للألم والحسرة ، فقد أسرع أعظمهم شأنا المعتمد بن عباد الى تقديم ولائه للاذفونش وأرسل اليه وزيره البارع ابن عمّار[2] حيث عقد معه معاهدة سرية تنص على أن يساعد الاذفونش المعتمد ضد الأمراء المسلمين ، مقابل أن يسكت الأخير على أعمال الأول ضد طليطلة ويمده بجزية كبيرة يدفعها بصغار تأباه نفس المسلم ولما شعر الاذفونش أن السبيل تمهد أمامه للهجوم على المدينة ، أخذ استعداده واقترب من المدينة فى سنة سبع وسبعين وأربعمائه وذلك بعد أربع سنوات كامله من الغارات المتواصله التى أهلكت الحرث والنسل . ثم أحكم الحصار حولها مدة تسعة أشهر أصاب الناس خلالها من الجوع والجهد واختلاف الرأى ، وانعدام النصير بلاء شديد اضطرهم الى تشكيل وفد لمفاوضة العدو المحاصر

---

(١) حصن بالأندلس على نهر جار بقرب مدينة اقليش ./ الروض المعطار : تحت كلمة (وبذه) .

(٢) عنان ، تراجم اسلاميه : ٢١٣ - ٢١٤ .

وعرضوا عليه شروطا لتسليم المدينة تظاهر بقبولها (١) ومنها أن تسلم المدينة وقصور الحكام وعدائقهم الى الاذفونش ويؤدون اليه ماكانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب ويخرج حاكم طليطلة القادر بالله الى بلنسيه ويتبعه من يشاء وأن يأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأن يبقى المسجد الجامع بأيدى المسلمين يقيمون فيه شعائرهم بحرية تامة وغير ذلك . وبعد الاتفاق دخل الاذفونش المدينه فى صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائه ونزل بقصر الحكم وعهد بحكم المدينة الى وزيره الداهيه (سسنندو) الذى عامل الناس باللين حتى استمال قلوب الكثيرين ولكن هذا لم يدم طويلا حيث نقض الاذفونش العهود المبرمة وراح "يأسر ويقتل ويحرق ويمثل وسما السعر ، وتفاقم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر ...... وقضى قضاءه باستباحة الحريم ، واستئصال الراحل والمقيم ....." (٢) وطفق أهل طليطلة يستصرخون ملوك الطوائف ، ولكن هيهات أن يستجيب الأموات ، الذين هم فى الحقيقة عمال يحكمون باسم الاذفونش وقد أدى هذا الخذلان الى تمادى النصارى فى تعذيب المسلمين وبدأوا يحولون المسجد الجامع الى كنيسه ويمدون أعينهم الى الممالك المجاورة لطليطله تنفيذا لسياسة الاستردادالصليبيه التى شجعتها الكنيسه (٣) . وهكذا سقطت طليطلة قاعدة الأندلس الكبرى وخرجت من قبضة الاسلام الى الأبد حيث لم تفلح كل الجهود التى بذلت لاسترجاعها ، ومن ذلك الحين تغدو طليطله عاصمة لمملكة قشتاله .

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ١١٣ .

(٢) انظر خبر استيلاء النصارى على طليطله فى الذخيره ق ٤ ، ج ١ ص ١٦١ - ١٦٣ .

(٣) على الجارم ، قصة العرب فى أسبانيا : ١٦١ - ١٦٣ .

وكان سقوطها يمثل نذير السقوط النهائى لجزيرة الأندلس ، فبدأ الناس يفكرون فى ايجاد حكم بديل . وبدأت أصوات الشعراء تنطلق محذرة بطش العدو الطامع وراثية المدينة الغاربة يقول ابن العسال :- (١)

يا أهل أندلس حثوا مطيكم * فما المقام بها الا من الغلط .
الثوب ينسل من أطرافه وأرى * سلك الجزيرة منسولا من الوسط .
ونحن بين عدو لا يفارقنا * كيف الحياة مع الحيات فى سفط .

وقال آخر بيتين تنحوان هذا المنحى وهما :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما * فى العرف عارية الا مردات .
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه * وشاهنا آخر الأبيات شهمات . (٢)

ان صوت ابن العسال هنا يختلف عما ألفناه منه فيما سبق حين كان فى نكبة بربشتر داعيا الى الجهاد ومحذرا من الغفلة عن مكائد الأعداء . أما هنا فصوته ينطلق بهذه الأبيات التى تشيع جوا من الانهزام واليأس ، فهو بدل أن يشجع الناس على التمسك والثبات فى أوطانهم يدعوهم الى هجرها بل والى الرحيل من جزيرة الأندلس كلها لأنها - كما يرى - أصبحت مهددة بالسقوط بعد أن حلّ الدمار فى وسطها ، والوسط هو أمنع جزء فيها ، أضف الى ذلك أن العدو قد ملك المدينة واستوطنها بالأهل والولد مما جعل الحياة مستحيلة فى هذه الظروف . ولكن هل يكون علاج المشكلة بهذه السلبية (الرحيل) فى الوقت الذى يجب فيه على الشاعر أن يتسامى فوق المصائب ليبعث فى النفوس بصيصا من الأمل ؟ اننا اذا أنعمنا النظر

---

(١) شهمات : أصلها مات الشاه (أى الملك) يقولها الغالب للمغلوب فى لعبة الشطرنج ويعنى ذلك انتهاء الدور انظر النفح : ٣٥٢/٤ ، الحاشيه .

(٢) المصدر نفسه : ٤٨٣/٤ .

فى الأبيات وربطناها بظروف سقوط طليطله تبينا مقدار الجرح الذى أصاب قلب الشاعر وهو يرى مدينته الحصينة الضخمة تتهاوى تحت معاول الصليبيين وسط الخضم الزاخر من ممالك الطوائف الذين لم يحركوا ساكنا ، فتعمد هذا اللون من التعبير السلبى ليكون أبلغ فى تذكيرهم ، وكأنه يقول تنبأوا بمصيركم ماترون أمامكم من النكبات التى ساهمتم فى حدوثها .

أما صاحب البيتين فهو قد حذا حذو ابن العسال ولكنه أفرط فى التشاؤم ودق ناقوس الخطر بتشبيهه بلاد الأندلس بالعارية المستردة التى حان وقت ارجاعها ولعل الجو النفسى الذى كان يعيشه الناس فى ظلال تلك الحروب والنكبات والنتيجة التى كان يؤكدها منطوق المعارك لعل ذلك هو السبب الذى أدى الى خلود مثل هذه الأبيات .

وقد نقل الينا المقرى قصيدة طويله لشاعر مجهول فى رثاء طليطله (١) يبدأها بقوله :-

لثكلك كيف تبتسم الثغور * سرورا بعد ما سبيت ثغور .
أما وأبى مصاب هد منه * ثبير الدين فاتصل الثبور .
لقد قصمت ظهور حين قالوا * أمير الكافرين له ظهور .
ترى فى الدهر مسرورا بعيش * مضى عنا لطيته السرور .
أليس بها أبى النفس شهم * يدير على الدوائر اذ تدور .
لقد خضعت رقاب كن غلبا * وزال عتوها ومضى النفور .
وهان على عزيز القوم ذل * وسامح فى الحريم فتى غيور .

---

(١) المصدر نفسه : ٤/ ٤٨٣ .

يمهد الشاعر لقصيدته بهذه الأبيات التى يظهر فيها عظم المصاب الذى ألمّ بالمسلمين بعد سقوط طليطله ، وبدّل سرورهم حزنا ملازما خيم على أنفسهم حتى انهم يعجبون اذا رأوا سرورا فى هذه الحياة ، وكيف لا ؟ وهم فى ذل وقهر خضعت له أنفسهم الأبيات ، فهان العزيز ، وأغضى على الضيم الغيور . والشاعر هنا يجمل ليبين بعد ذلك بتفجع التحول الخطير الذى وصلت اليه حالة المدينة الكبرى :

طليطلة أباح الكفر منهـا * حماها ، ان ذا نبأ كبـير .

فليس مثالها ايوان كسرى * ولا منها الخورنق والسدير .

محصنة محسنة بعيـد * تناولها ومطلبها عسـير .

ألم تك معقلا للدين صعبا * فذلله كما شاء القديـر .

وأخرج أهلها منها جميعا * فصاروا حيث شاء بهم مصير .

وكانت دار ايمان وعلم * معالمها التى طمست تنير .

فعادت دار كفر مصطفاة * قد اضطربت بأهليها الأمور .

مساجدها كنائس ، أى قلب * على هذا يقرّ ولا يطـير ؟ .

فيا أسفاه يا أسفاه حزنـا * يكرر ماتكورت الدهـور .

أديلت قاصرات الطرف كانت * مصونات مساكنها القصـور .

وكان بنا وبالقينات أولى * لو انضمت على الكل القبور .

لقد سخنت بحالتهن عين * وكيف يصح مغلوب قريـر .

انه لنبأ عظيم يفاجأ به الشاعر ويضطرب له قلبه . ذلك هو سقوط طليطله واستباحتها من قبل جيوش الكفر . ان هذه المدينة العظيمة لم تعد فى نفس الشاعر مجرد مدينة عادية داخل اطار البلاد الاسلامية بل يعتبرها رمزا كبيرا للحضارة الاسلامية . فهى معقل الدين ، ودار الايمان والعلم التى

يصفر بجانب عظمتها وحسنها ايوان كسرى المشهور وغيره . فكيف حال من يراها وقد تفرق أهلها شذر مذر وسكنها بعدهم الكفار الحاقدون الذين لا يطيقون رؤية المعالم الاسلامية الشامخه فأسرعوا فى تحويل المساجد الى كنائس ولم يتورعوا عن هتك الحرم المصونه ، الأمر الذى يذهب العقل ويطير القلب حتى ان الشاعر لشدة ماتلجلج فى صدره من الأسف والحسره التى لا انقضاء لها يتمنى لو حوت القبور جميع من شاهد هذه المأساة ، لأن الموت أهون من مكابدة هذه الحياة النكداء . ثم يحاول الشاعر تلمس أسباب هذه المصيبة فيدرك أنها عقاب من الله أرسله على الناس عندما طغوا وبغوا وأكلوا الحرام ثم يستغل هذه الفكره لينبّه من حوله ويحذرهم عاقبة الاسراف فى المعاصى فيقول :-

فان قلنا العقوبة أدركتهم * وجاءهم من الله النكير .
فانا مثلهم وأشد منهم * نجور وكيف يسلم من يجور .
أنأ من أن يحلّ بنا انتقام * وفينا الفسق أجمع والفجور .
وأكل للحرام ولا اضطرار * اليه فيسهل الأمر العسير .
ولكن جرأة فى عقر دار * كذلك يفعل الكلب العقور .
يزول الستر عن قوم اذا ما * على العصيان أرخيت الستور .

وبعد أن يزجرهم الشاعر عن الذنوب التى تجرهم الى مصير بئيس ، يهيب بهم - وبحماس - أن يعلنوا حرب الانتقام لفك أسر الاسلام واتباعه الممتحنين بل ويدعوهم الى الموت الكريم بدل أن يجوروا أو يجار عليهم .

خذوا ثأر الديانة وانصروها * فقد حامت على القتلى النسور .
ولا تهنوا وسلوا كل عضب * تهاب مضاربا منه النحور .
وموتوا كلكم فالموت أولى * بكم من أن تجاروا أو تجوروا .

أصبرا بعد سبي وامتحـــــان * يلام عليهما القلب الصبـــور .
فأم الثكل مذكـــار ولـــود * وأم الصقر مقلات نـــــزور .
نخور أذا دهينا بالرزايـــا * وليس بمعجب بقر يخـــور .
ونجبن ليس نزأر ،لو شجعنا * ولم نجبن لكان لنا زئـــــير .
لقد ساءت بنا الأخبار حتى * أمات المخبرين بها الخبـــير .
أتتنا الكتب فيها كل شــــر * وبشرنا بأنحسنا البشــــير .

ان عاطفة الشاعر قد جاشت حتى بلغت حد الثورة العارمه فراح يحمس الناس على تجريد السلاح وخوض الحروب وينعى على المتخاذلين الذين تذرعوا بالصبر ، وماذا يجدى الصبر ، والمسلمون يقتلون وتسبى نساؤهم وذراريهم ان هذا الصبر ماهو الا نوع من الجبن الذى يجلب النكبات . ثم يشبه الشاعر الأمة عندما يسيطر عليها الجبن بالبقر الذى يخور عند وقع الحوادث ان ثورة نفس الشاعر المستمدة من الواقع المرير الذى يعيشه هى التى جعلته يستعمل أمثال هذه العبارات اللاذعه "بقر نخور" ، "الكلب العقور" وهو فى حقيقة الأمر محق فى هذا لأنه لا يكاد يسمع بنخوة الشجعان الذين لهم زئير الأسود ولا يكاد يسمع خبرا يبعث فى النفس الأمل المنشود بل غاية ماهنا لك تناقل أخبار الهزائم النحسه والفرار وهجر الديار :ـ

وقيل تجمعوا لفراق شمـــل * طليطلة تملكها الكفـــور .
فقل فى خطة فيها صغـــار * يشيب لكربها الطفل الصغير .
لقد صمّ السميع فلم يعـــول * على بناء كماعمى البصـــير .

ثم ينتقل صاحب القصيدة الى تصوير مشهد آخر من حال الناس الذيـــن بلغوا من الذل مبلغا عظيما ونحن نحس بالألم القاسى الذى يعانيه الشاعـــر ويدفعنا الى مشاركته اياه وذلك أن الناس قد استمالهم الأعداء ، ورضـــوا

بالخضوع طمعا فى المال واستهانته بالدين :-

تجاذبنا الأعادى باصطناع * فينجذب المخول والفقير .

فباق فى الديانة تحت خزى * تثبطه الشويهة والبعير .

وآخر مارق هانت عليه * مصائب دينه فله السعير .

ان الشاعر بالرغم من الحزن والأسى الذى تطفح به نفسه وأبياته فانه لا يستسلم لليأس كما فعل غيره بل نراه يثور مدفوعا بالغيرة الاسلامية ، ويصب جام غضبه وتعنيفه على أولئك الذين يزينون للناس الرضى بالواقع المهزوم ويدعونهم لفكرة الاستسلام على حساب الحرية والشرف طمعا فى مكاسب دنيئه يقول :-

كفى حزنا بأن الناس قالوا * الى أين التحول والمسير .

أنترك دورنا ونفرّ عنها * وليس لنا وراء البحر دور .

ولا ثم الضياع تروق حسنا * نباكرها فيعجبنا البكور .

وظل وارف وخرير ماء * فلا قر هناك ولا حرور .

ويؤكل من فواكهها طرى * ويشرب من جداولها نمير .

يؤدى مغرم فى كل شهر * ويؤخذ كل صائفة عشور .

فهم أحمى لحوزتنا وأولى * بنا وهم الموالى والعشير .

لقد ذهب اليقين فلا يقين * وغرّ القوم بالله الغرور .

فلا دين ولا دنيا ولكن * غرور بالمعيشة ماغرور .

رضوا بالرق يالله : ماذا * رآه وماأشار به مشير . : :

ان الشاعر فى هذه الأبيات يشعر بالغربة الروحية فى أرضه وبين أولئك الناس من بنى قومه وذلك لأنه يحس بأن صوته قد ضاع وذهب بلاصدى أو أثر . فبينما هو يدعو جمهوره الى الجهاد والصمود والموت الكريم اذا بهم يركنون

الى حماية النصارى أعداء دينهم ويوالونهم ويدفعون لهم المغارم والعشور مقابل أن يبقوا فى دورهم ليتمتعوا بالضياع الرائقة والماء النمير والفواكه الطرية ولو كانت مغموسة بالذل . ولعل الذى دفع الناس الى هذا العمل هو فقد انهم الثقة بقدرة حكامهم الأقزام على فعل شئ من أجل طليطلة المنكوبة ويذكر المؤرخون أنه كان فى طليطلة جماعة كبيرة من أهلها يميلون الى الأذفونش ويعملون لمصلحته ، وهم الذين دعوه لاحتلال المدينة منذ بدء غزواته لها ، وتسمى الرواية القشتاليه هؤلاء القوم (بالحزب المدجن) أى الموالى لملك النصارى (١) . ثم يقف الشاعر عند هذه الحالة المؤسفة مطرقا كيف يرضى هؤلاء بالرق وغرهم بالله الغرور ؟ ثم يتبع تعجبه بزفرة حاره حين يقول :

مضى الاسلام فابك دما عليه * فما ينفى الجوى الدمع الغزيز .

ونح واندب رفاقا فى فلاة * حيارى لا تحط ولا تسير .

ولكنه لا يطيل الندب والتحسر لأن ذلك لا يغير من الواقع شيئا وانما الجهاد هو الكفيل برد الحق الى نصابه :

ولا تجنح الى سلم وحارب * عسى أن يجبر العظم الكسير .

أنعمى عن مراشدنا جميعا * وما ان منهم الا بصير .

ونلقى واحدا ويفر جمع * كما عن قانص فرت حمير .

ولو أنا ثبتنا كان خيرا * ولكن مالنا كرم وخير .

اذا مالم يكن صبر جميل * فليس بنافع عدد كثير .

وهو هنا يقارن بين واقع المسلمين وواقع أعدائهم ويعجب من انقلاب الوضع لصالح أعداء الله فهم مهصرون بينما الشاعر ورهطه قد عميت بصائرهم والأعداء

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ١١٠ .

ثابتون صابرون على الشدائد والآخرون منهزمون (كأنهم حمر مستنفره فرت من قسوره) لا صبر لهم ولا خير فيهم .

والشاعر هنا يستثير من حوله بهذا الأسلوب لعل النخوة والأريحية تدركهم فيهبون لمقارعة الأعداء . ولذلك نراه يتلفت باحثا عن قائد شجاع يحسن قيادة هذه الأمه لأن ذلك يمثل جانبا كبيرا من المشكله . يقول :

ألا رجل له رأى أصيـــل * به ممانحاذر نستجـير .
يكرّ اذا السيوف تناولتـه * وأين بنا اذا ولت كرور .
ويطعن بالقنا الخطار حتى * يقول الرمح ماهذا الخطير ؟ :
يبادر خرقها قبل اتساع * لخطب منه تنخسف البدور .
يوسع للذى يلقاه صدرا * فقد ضاقت بما تلقى صدور .

وفى ختام القصيدة يرينا الشاعر أن حياته قد تكدرت وعيشه فيها قد تنغص ولكنه مع ذلك لا يفقد الأمل فى النصر :

تنغصت الحياة فلا حياة * وودع جيرة اذ لا مجير .
فليل فيه هم مستكن * ويوم فيه شر مستطير .
ونرجو أن يتيح الله نصرا * عليهم انه نعم النصير .

وبعد فلقد أدت القصيدة هدفها فى تنبيه الناس وحثهم على الجهاد وبيان قيمة المدينة المرثيه ومالسقوطها من أثر على مابعده من بلاد الأندلس أما أسلوبها فهو سهل سائغ ولا عورة فيه ولا تكلف وقد ابتعد الشاعر عن المحسنات الا ماندر ، كما أنه التزم الواقع وتجافى عن الصور الخيالية لأنه ملتزم بقضية هامة ، فشعره صادق العاطفه ينبع من قلبه وليس لزخرفة اللسان فيه كبير عمل ، وهذا مايتضح من تلون مواقفه ، فهو تارة يبكى طليطله

وماحدث لأهلها وحرمها المصونات ويتفجع على ذلك حتى انه ليتمنى المـــوت للخلاص من جمرات قلبه ، وتارة نراه يثور ثورة عنيفة مطالبا بالجهاد وبـــذل النفوس فى سبيل انقاذ المدينة باعتبارها رمزا اسلاميا ولا ينسى من خـــلال ذلك أن ينهال على المتقاعسين والجبناء بسياط التوبيخ والتقبيح فيصفهـــم بالبقر الذى يخور وبالحمر المستفزه وهى من الأوصاف البليغة للعجز والفرار التى تدافع من وصمتهما الى التخلص منهما بفعل مادعا اليه الشاعر .

وفى بعض أجزاء القصيدة نجد الشاعر يسرد علينا الأخبار التاريخيـــة وأخبار الناس وأحوالهم بأسلوب قصصى يقترب فيه من النثر . ولعل الشـــئ المستغرب فى القصيدة أنها على - طولها - لم تتعرض للتفاصيل الدقيقـــه فى احتلال المدينة ومافعله الصليبيون بأهلها . وربما كان هذا لاشتغالـــه بأمور أهم من ذلك وأخطـــر .

والملاحظ أنه لا يوجد فى رثاء طليطله - على عظمها - من الشعر الا هـــذه القصيدة ، ويمكن أن نعزو ذلك الى أن الحرب لم تنته بعد ، وأن الأمـــل لا يزال واردا فى استردادها ، ولو درى شعراؤها أنها ستذهب الـــى الأبد وتصبح معقلا للعرب المنتصرين لرأينا سيولا من الدموع والمشاعـــر الانسانية الحزينه التى تظل ترثى كل بقعة من بقاعها ، وتتحدث عن كـــل ماهو جميل من خصالها .

أما بالنسبة لقائل هذه القصيدة فلم يتعرض أحد من الباحثين لذكـــر اسمه أو البحث عن شخصيته (١) . ولعلـه الشاعر أبو الوليد الوقشى ، فهـــو من أهل طليطلة وشهد نكبتها حيث يذكر أنه كان بها فى منتصف القـــرن الخامس الهجـرى (٢) .

---

(١) هو هشام بن أحمد بن هشام الكنانى يعرف بالوقشى ، من أهل طليطلة يكنى أبا الوليد ولد سنة ٤٠٨ هـ . كان شاعرا مجيدا ، وأحد رجـــال الكمال فى وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلـــوم من أعلم الناس بالنحو واللغه والعروض ومعانى الأشعار ، بصيرا بأصـــول الاعتقادات والفقــه ، واقفا على كثير من فتاوى فقهاء الأمصار توفى سنـــة ٤٨٩هـ / انظر الصله : ٢/٦٥٣ ترجمة رقم ١٤٣٧ .

(٢) ابن الأبار : التكملــه : ٢/٨٢٢ .

رثــاء بلنســيه :- (١)

كانت بلنسية ومايتبعها من المناطق تتبع مملكة طليطله طيلة حكم المأمون بن ذى النون ، وكان قد وضع عليها واليا من قبله يعرف بأبى بكر محمد بن عبد العزيز وكان عالما حازما ضبط المدينة بالعدل وأجزل العطاء للجند والعمال . ثم استغل فرصة موت المأمون وتولي القادر بالله حكم طليطله وقيام الثورات الداخلية ضده فأعلن استقلاله بحكم بلنسيه . ولما سقطت طليطلة بيد القشتاليين سنة ثمان وسبعين وأربعمائه وعد زعيمهم الاذفونش القادر بالله أن يوليه بلنسية التى كان ينازعه الأطماع فيها المستعين بن هود وبالفعل أرسل الاذفونش مع القادر سرية من الجند القشتالى تحت امرة القائد البرهانس حتى اذا وصلوا بلنسية أرسل القادر رسائله الى أهلها وفيها الوعود المعسوله ..... وانتهى الأمر بموافقة أهل المدينة على دخول القادر حاكما ، وخلع ابن عبد العزيز ومالبث القادر أن أبدى صولة الجبان الضعيف اذا تحكم ففرض على المدينة حكم طغيان شامل واشتد فى فرض الضرائب على الناس لارضاء مطالب الجنود القشتاليين الذين أخذوا يعيثون فسادا فى المدينة ، ويرهقون الأغنياء والأعيان بالمغارم حتى اضطروا

---

(١) مدينة مشهورة وقاعده من قواعد الأندلس ، تقع شرق قرطبه على نهر جار يسقى المزارع والبساتين التى تحف به ، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال فهى برية بحريه جامعة لخيراتهما ، كانت تعرف بمدينة التراب وأهلها يسمون عرب الأندلس . / انظر معجم البلدان (بلنسية) والروض المعطار تحت نفس الكلمه .

(٢) الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٣٦٨ .

(١)
الى الفرار من بلنسيه نجاة بأنفسهم . وفى هذه الأثناء كانت جيوش المرابطين قد وصلت الى الأندلس لاغاثة المسلمين ، وحطمت قوة النصارى القشتالين فى معركة الزلاقة المشهوره . على ماسنذكره فى فصل قادم - فتنفس أهل بلنسية الصعداء الى حين ، ذلك أن سياسة القادر الخرقاء أدت الى نشوب الاضطرابات فى مختلف نواحى البلاد وأعلن كثير من حكام الحصون العصيان . عندما شعر القادر أنه عاجز عن السيطرة على الموقف فاستنجد بالمستعين ابن هود صاحب سرقسطه المجاور لبلنسيه ، وكان المستعين يتوق الى افتتاح بلنسيه وضمها الى مملكته فلبى النداء مسرعا ولكنه لم يكن وحده بل كان يرافقه جيش قشتالى بقيادة السيد القمبيطور صديق المستعين وصديق (٢) أبيه وجده من قبل وكان هذا الفارس المغامر يعد من أشهر الفرسان وأوسعهم ذكرا عند الأسبان ، حيث صاغوا فى بطولاته الملاحم والقصص والأساطير الخيالية . وهو فى حقيقة أمره زعيم عصابة للنهب والسلب يؤجر نفسه ومن معه لمن يدفع له أكثر سواء كان من المسلمين أو النصارى ، ولعل شهرته ظهرت من مغامراته ببلنسية وربطه مصيره بها حتى هلك فى سبيلها ، وعندما وصل السيد والمستعين الى بلنسية أخمدا مابها من القلاقل وأرادا احتلال

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ٢٢٨ .

(٢) اسمه الأصلى رود ريجو ديازدا فيقار ، يلقب بالقنبيطور وتعنى (المحارب) ولد فى مدينة برغش عاصمة مملكة قشتاله وكان أبوه قاضيا لها سنة ١٠٤٣م . بدأ حياته فى خدمة ملوك قشتاله ثم قدم الى بلنسية وتملكها حتى هلك سنة ٤٩٣هـ . ويرد فى المصادر العربية بلفظ رذريق الكنبيطور ، والسيد القمبيطور / انظر . دائرة المعارف الاسلاميه ، (السيد) .

المدينة ، ولكن القادر اتصل بالسيد سرا ووعده بمبلغ كبير من المال مقابل حمايته له من سائر أعدائه فقبل ذلك وخابت بذلك آمال صديقه المستعين ورجع الى بلده سرقسطه ليبحث عن نصير آخر . عندها بدأ السيد بالتفكير فى امتلاك بلنسيه فأرسل الى سيده الاذفونش ملك قشتاله يخبره أنه ومن معه رهن اشارته وأنهم يحاربون " الكفرة " لا رجاع مجد الصليب (١) ، وذهب السيد نفسه الى هناك تأكيدا للولاء ، فأقره الملك وأذن له أن يجول بفرسانه كيفما شاء فى أرض المسلمين بل جعل له ماينتزعه منهم من الأرض ميراثا شرعيا لأولاده من بعده ، فعاد السيد من قشتالة وبصحبته سبعمائة فارس وأخضع ماحولها من الامارات من الشمال والجنوب وفرض على أصحابها مبالغ ضخمة من المال كجزية سنويه ، ثم زحف الى بلنسية وعسكر فى ضاحيتها الشماليه المعروفه "بالكدية " فبادره القادر بالأموال والهدايا ووضع نفسه تحت حمايته ، وتطورت الأمور باقتراب جيش المرابطين من سرقسطه وطلب صاحبها المستعين بن هود النجده من السيد فتوجه هذا اليها ومكث فيها يرتب أمورها ويخطط لملاقاة المرابطين يقول ابن بسام (٢) : " ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى الى وقتنا هذا على ثغر سرقسطه ، بعساكر أمير المسلمين تقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلبا من أكلب الجلالقة ، يسمى برذريق ويدعى بالكنبيطور ، وكان عقالا ، وداء عضالا له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكاره اطلاعات ومطالع " .

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ٢٣٦ .

(٢) الذخيرة ، ق٣ ، ج١ ص ٩٥ .

أدى اقتراب المرابطين من شرق الأندلس الى سريان روح الثورة عند أهل بلنسيه فقرروا تحطيم قيد الذل والاستعباد الذى فرضه السيد على المدينة وذلك بالتخلص من السيد والقادر معا وتزعم القاضي ابن جحاف (١) الثوره وقبض على القادر وقتله واستولى على ذخائره وجلس مكانه سنة خمس وثمانين وأربعمائه ، بانتخاب من أهل المدينة ، فأخذ فى حشد الجند وتحصين المدينة واتصل بالمرابطين طالبا عونهم (٢) فأمدوه بسرية من جندهم استعز بها وقويت شوكته . ولما علم السيد بالأمر الخطير جمع قواته وتوجه الى بلنسيه وضرب الحصار حولها وأخذ يحرق ويدمر الضياع والزروع التى حولها ، وقاومته قوات ابن الجحاف المكونه من المرابطين والبلنسيين فلم يستطع اقتحام المدينه ولكنه بقى محاصرا لها مدة عشرين شهرا حتى فتك الجوع بالناس وبلغ بهم الضيق منتهاه حتى أكلوا الجلود والجيف واستحكم الوباء فأفنى عددا كبيرا من الناس ، فاجتمع عندئذ من بقى الى القاضي ابن جحاف وأرغموه على اللجوء للصلح (٣) فوقع الاتفاق بين الطرفين على أن يبقى القاضي حاكما للمدينة ويؤمن جميع أهل بلنسيه على الأنفس والأموال والشرائع والأحكام مقابل أن يؤدى الجزية السابقه مع تسليم ذخائر القادر

---

(١) هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جحاف ، رئيس بلنسيه وآخر قضاتها من بنى جحاف أحرقه القنبيطور - لعنه الله - سنة ٤٨٨هـ بعد احتلاله بلنسيه . انظر : بغيه الملتمس : ترجمة رقم ٦١٥ . الذخيره : ق٣ ج١ ص٩٩ . الحلة السيراء : ٢/١٢٥-١٢٦ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٢/٢٠٣ .

(٣) عنان ، دول الطوائف : ٢٢٤ . وانظر تفاصيل الاستيلاء على بلنسيه فى البيان المغرب : ٣/٣٠٥ ومابعدها .

التى كانت عند ابن الجحاف . وفى سنة ثمان وثمانين وأربعمائه فتحت بلنسيه أبوابها للسيد وجنده وسرعان ما احتلوا أبراجها وجلس السيد فى القصر وبدأ ينقض شروط المعاهده وأخذ يعيث فى نواحى البلاد ويشتط على القاضى بطلب الأموال ثم اتهمه باخفاء أموال القادر وذخائره وهدده ان وجدها بالقتل ، وبعد البحث ، زعموا أنه عثر عليها فقبض على القاضى وعذبه عذابا شديدا ثم أضرم له نارا وأحرقه حيا "فأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ نارا ، وجلل سائر طبقاتها خزيا وعارا"(١) . ثم مال بعد ذلك على المسلمين بصنوف التعذيب والمغارم حتى غادرها كثير من أهلها واحتل النصارى دورهم وأحياءهم وغدا السيد باستيلائه على بلنسيه حاكم شرقى الأندلس كله الى أن مات سنة ثلاثه وتسعين وأربعمائه وتولت بعده زوجته (خمينا) التى لم تستطع الصمود أمام جيش المرابطين فأحرقت المدينة قبل تسليمها سنة خمس وتسعين وأربعمائه فدخلها المرابطون بقيادة الأمير مزدلى(٢) بعد أن أصبح معظمها أطلالا دارسه . وفى هذا الحادث يقول ابن خفاجه(٣) :

---

(١) الذخيره ، ق٣ ، ج١ ص٤٦ .

(٢) هو أبو محمد مزدلى بن تلكان اللمتونى البربرى ، ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . كان من أبرز قادة المرابطين وولاتهم . ولى تلمسان سنة ٤٩٧هـ ثم تولى قرطبه وغرناطه والمريه الى أن توفى سنة ٥٠٨ هـ . انظر الذخيره ق٣ ج١ ص١٠١ ، البيان المغرب ، ٤/٦٠ .

(٣) هو أبو اسحاق ابراهيم بن أبى الفتح بن عبيد الله بن خفاجه ، ولد فى جزيرة شقر من أعمال بلنسيه سنة ٤٥١ هـ وكانت أسرته على جانب من اليسار مكنه من طلب العلم ومجالسة الشيوخ فى مختلف مدن الأندلس وبخاصة شاطبه ومرسيه وبلنسيه غلب عليه الأدب والشعر حتى أصبح من الفحول . وقد ولع بشعر الطبيعة والأزهار حتى لقب بالجنان . وكان لا يتكسب بالشعر مدح كثيرا من أمراء المرابطين اعجابا بهم وتقديرا لشجاعتهم / انظر : قلائد العقيان : ٢٦٦ ، بغية الملتمس : ٢٠٢ ، رضوان الدايه ، ابن خفاجه : ٢٦ - ٢٨ .

عاثت بساحتك العدى يادار * ومحا محاسنك البلى والنار .

فاذا تردد فى جنابك ناظر * طال اعتبار فيك واستعبار .

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها * وتمخضت بخرابها الأقدار .

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها * لا أنت أنت ولا الديار ديار . (١)

يقف ابن خفاجة وقفة حزينة بساحة مدينته التى ذهبت محاسنها بفعل ماسلطته الأقدار عليها من التدمير والاحراق حتى خربت وأصبحت عينه تنكرها لتغير شكلها ولونها وهو فى وقفته بهذه الأبيات القليله - ان لم تكن جزءًا من كثير لم يصلنا - لا يتفجع على المدينة ولا يصور ماحل بها وهو شاعر الوصف ، وانما يردد ناظريه فى عرصاتها المدمره بخشوع وسكون معتبرا بذلك وداعيا الى الاعتبار ، كما أنه لم يسجل موقف قاضيها فى الدفاع عنها وكيف كان مصرعه المروّع بسبب " شدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده فى طلب النصره ..... رجاءً استمساك البلدة وابقاءً الكلمة . " (٢) ولعل شاعرنا قد هاله الأمر وأذهله فرجع الى العقل بدل العاطفه كما يمكن القول ان حياة ابن خفاجه المترفه وعيشه الناعم كان لها تأثير كبير فى شعره فنراه لا يجارى عندما يصف الأشجار والأزهار والأنهار ، أو يتغنى بمغانى بلنسيه وجمالها ، أما الرثاءً الذى لم يعتده فجاءً سلبيا متعثرا ، وكثير من الشعراءً يجيد فى جانب ويخفق اذا انتقل الى آخر . ولذلك نرى ابن خفاجه نفسه عندما يسمع بارجاع بلنسيه الى الاسلام على يد المرابطين يقول قصيدة

---

(١) ديوان ابن خفاجه : ٣٥٤ . والعجز الأخير لأبى تمام وبقيته " خف الهوى وتولت الأوطار " / ديوانه : ٢/ ١٦٦ .

(٢) البيان المغرب : ٤/ ٣٧ .

رائعته منها (١) :-

الآن سح غمام النصر فانهملا * وقام صغو عمود الدين فاعتدلا .

ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى * وكرّ للنصر عصر قد مضى فخلا .

من عسكر رجفت أرض العدو به * حتى كأن بها من وطئه وهلا (٢) .

مابين ريح طراد سميت فرسا * جورا وليث شرى يدعونه بطلا .

من أدهم أخضر الجلباب تحسبه * قد استعار رداء الليل فاشتملا .

واشقر قانئ السربال ملتهب * قد جال يوقد نار الحرب فاشتعلا .

الى أن يقول :

وأقشع الكفر قسرا عن بلنسية * فانجاب عنها حجاب كان منسدلا .

وطهر السيف منها بلدة جنبا * لم يجزها غير ماء السيف مغتسلا .

فى موقف يذهل الخل الصفى به عن الخليل وينسى العاشق الغزلا .

ترى بنى الأصفر البيض الوجوه به * قد راعها السيف فاصفرت له وجلا .

وفى احراق بلنسيه قال الأستاذ ابن خلصة البلنسى (٣) :-

وروضة زرتها للأنس مبتغيا * فأوحشتنى لذكرى سادة هلكوا .

تغيرت بعدهم حزنا وحق لها * مكان نوارها أن ينبت الحسك .

لو أنها نطقت قالت لفقدهم * "بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا (٤) " .

---

(١) ديوانه : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الوهل : الفزع . الصحاح ماده (وهل) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة الشذونى ، من النحويين المتصدرين ، والشعراء المجودين أخذ عن ابن سيده / انظر : جذوة المقتبس : ٥٤ ، بغية الوعاة : ١/ ١٠٠ .

(٤) تضمين من زهير ، وعجز البيت : " وزود وك اشتياقا أية سلكوا " ديوانه : ١٦٤ .

والملاحظ على مقطوعة ابن خلصه ، وقبلها مقطوعة ابن خفاجه ورود التضمين فى أحد أشطرها وهو مما ناسب المقام من شعر فحول المشرق كزهير وأبى تمام وذلك اظهار لسعة ثقافة الشاعر واطلاعه على شعر المشرق الذى كان يعتبره الأندلسيون هو الأصل ، وينظرون اليه باعجاب كبير ، كما أن أسلوب الشعر الأندلسى فى القرن الخامس ومابعده كان شديد التركيز على التضمين والاقتباس ، والأمثال ، والصنعة البلاغيه بحيث تقاس جودة القصيدة بماحوت من ذلك . والواقع أن ماوصلنا من الشعر فى رثاء بلنسيه فى هذه الحادثه قليل جدا بالرغم من كثرة شعرائها ، ولعله قد ضاع فى وسط ذلك المعترك المضطرم ، والقسوة البالغة التى كان يتبعها القمبيطور فى معاملة أهلها . ثم تأتى نكبة بلنسية الثانيه التى أصبحت بعدها مدينة نصرانيه فى منتصف القرن السابع الهجرى . وذلك بعد أن عاشت ردحا من الزمن فى كنف المرابطين نعمت خلاله بالأمن والاستقرار والرخاء . واستمرت على هذه الحال مايقرب من قرن خلال حكم الموحدين الذين قضوا على حكم المرابطين فى المغرب سنة احدى وأربعين وخمسمائه ودانت لهم الأندلس تبعا لذلك[1] وقد اعتنى الموحدون بالأندلس عناية فائقة فحكموها بواسطة حكام من أهلها ينوبون عنهم ، ووفروا لهم قوة دفاعية كافية . كما كان الخلفاء الموحدون يجوزون بأنفسهم على رأس الجيوش الضخمه من مراكش الى الأندلس لتأديب النصارى عندما يعتدون على الأراضى الأندلسيه ومن أبرز ذلك ماقام به الخليفة أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور - ثالث الخلفاء الموحدين - فى سنة احدى وتسعين وخمسمائه حيث توجه الى الأندلس بجيش كبير ليدفع عنها عادية القشتاليين الذين أخذوا يشنون الغارات على

---

(١) الحلة السيراء : ٢/١٩٩ .

نواحى الأندلس وخاصة منطقة اشبيليه عاصمة الأندلس آنذاك ، والتقى الجمعان عند حصن (الأرك)(١) وكان القشتاليون بقيادة طاغيتهم الفونش الثامن الذى جمع جموعا لم يجتمع له مثلها قط حتى ساءت ظنون الجيش الموحدى لما رأى من كثرة العدد(٢) . يقول الضبى عن هذا الجيش(٣) : "ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومئتى ألف راجل ، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا أموالا ، فهزمهم الله تعالى" . واشتبك الطرفان فى معركة فاصله أخلص الموحدون فيها النيه وثبتوا ثبات الشم الرواسى فمنحهم الله النصر فقتلوا من الكفار ثلاثين ألفا(٤) وفر الباقون مع قائدهم . وكانت هذه المعركة من أيام الاسلام المشهودة التى أعادت أمجاد الجهاد القديمه ، ولبثت القوات القشتاليه بعدها عدة سنوات صامته تتهيب لقاء الموحدين . ولم يلبث المنصور أن توفى سنة خمس وتسعين وخمسمائه وخلفه ولده الشاب محمد الناصر لدين الله الذى شغل عن الأندلس مايقرب من اثنتى عشرة سنة فى مقاومة الثورات التى قامت ضده فى المغرب فور ارتقائه عرش الخلافة(٥) مما دفع النصارى الى التفكير فى

---

(١) حصن منيع بالقرب من قلعة رباح ، وهو أول حصون الادفونش بالأندلس يقع على أحد فروع نهر آنه وتقوم اليوم على انقاضه كنيسه تعرف بكنيسة القديسه مريم صاحبة الأرك . / الروض المعطار : (الأرك) ، عنان عصر المرابطين .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٣٥٨ - ٣٥٩ / والموحدين فى المغرب والأندلس: ٢٠٣/٢ .

(٣) بغية الملتمس : ٤٥ - ٤٦ .

(٤) الروض المعطار : تحت كلمة (الأرك) ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ١٥٦ .

(٥) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢٨٣/٢ .

فى غزو الأندلس ليردوا اعتبارهم وكرامتهم التى ديست فى معركة " الأرك " ،
وبالفعل سار الفونش الثامن بجيشه نحو جيان وبياسه (١) فقتل وسبى وأهلك الزرع والضرع ، وكرر هذا الفعل سنتين متواليتين غير مكترث بقوة الأندلسيين الضعيفه ، فكان لابد لهؤلاء من الاستغاثة بالخليفة الناصر الذى انزعج لسماع هذه الأخبار وأعد على الفور جيشا عرمرما قاده بنفسه وعبر به البحر الى الأندلس حيث استقر فى اشبيليه فى آخر سنة سبع وستمائه وأخذ فى استنفار الحشود الأندلسيه وضمها الى جيشه حتى اجتمع لديه جيش لم يجتمع لحاكم مسلم قبله قط ، قيل ان تعداده بلغ خمسمائه الى ستمائة ألف مقاتل " واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه فى قلوب ملوكهم (٢) وأخذوا فى تحصين بلادهم ، واخلاء ماقرب من المسلمين من قراهم وحصونهم وكتب اليه أكثر أمرائهم يسألون سلامته ويطلبون منه عفوه " (٣) . وفزع الفونش الثامن ملك قشتاله الى البابا (انوصان الثالث) الذى كان يضطرم حقدا على المسلمين فبعث رسله من القسس والرهبان الى مختلف ملوك أوروبا من البرتغال الى القسطنطينيه يدعوهم الى حرب صليبيه فأجابوا دعوته وجمعوا مايقرب من سبعين ألف مقاتل مددا لجيوش الأسبان النصرانيه التى كانت

---

(١) جيان : مدينة فى وسط الأندلس موصوفه بالحصانة لوقوعها فى سفح جبل عالى ، كثيرة الجنات والمزارع ، ويتبعها آلاف من القرى تشتهر بتربية دود الحرير وينتمى الى جيان جلة من العلماء / الروض المعطار : (جيان) .

بياسه : بينها وبين جيان عشرون ميلا ، على النهر الكبير المنحدر الى قرطبة ، وهى مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وزراعات / المصدر نفسه (بياسه) .

(٢) السلاوى ، الاستقصاء : ١/ ١٩١ .

(٣) الأنيس المطرب : ١٥٥ .

تتألف من جيوش مملكة قشتاله ، ومملكة أراجون ومملكة ناقارا كما جاءت النجدات أيضا من الصليبيين الذين كانوا قد توجهوا الى الشرق الاسلامى فيما نسميه بالحملات الصليبيه التى تزامنت مع هذه الأحداث (١) . وفى سنة تسع وستمائـه التقى الجيشان فى موضع يعرف ب (العقاب) (٢) ودارت بينهما معركة حاميـه رجحت فيها كفة الموحدين فى البداية ولكن تغير مجراها فى النهايـة لصالح النصارى ، وانجلت عن عشرات الآلاف من القتلى ، وتمزق الجيـش الموحدى شر ممزق وفر الخليفة الناصر بمن بقى معه بعد أن كان واثقـا كل الثقة بالنصر لكثرة جيشه وعتاده . وأخذ النصارى يطاردون الفاريـن ويوقعون فيهم أشنع ضروب السفك والتقتيل حتى فنى أكثرهم ولقد كانـت هذه الهزيمة المروعه التى لم يقع مثلها فى تاريخ الأندلس كله وبالا وشؤمـا ينذر بسقوط دولة الموحدين وغروب شمس الأندلس ، وقد تحدث المؤرخـون عن أسباب هذا الانهزام (٣) وأفاضوا فى ذلك ، ومهما تكن تلك الأسباب والمبررات فقد اغتم الناصر غما شديدا أودى (٤) بحياته فى العام التالى للهزيمة . وقـد تردد صدى هذه الوقعة وما جرته على الأندلس نتائجها فى الشعر آنذاك فقال ابراهيم بن الدباغ الاشبيلى : (٥)

---

(١) البيان المغرب : ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) منطقة جبلية بالأندلس بين جيان وقلعة رباح وفى قمتها حصن يعـرف بحصن العقاب . / الروض المعطار (جيان) الأنيس المطرب : ١٥٩ .

(٣) المراكشى ، المعجب : ١٨٣ - ١٨٥ .

(٤) الحلل الموشيه : ١٢٢ .

(٥) نفح الطيب : ٤/ ٤٦٤ . ولم أعثر له على ترجمـه .

وقائلة أراك تطيل فكـــرا * كأنك قد وقفت لدى الحســاب .

فقلت لها أفكر في عقـــاب * غدا سببا لمعركـــة العقــاب .

فما في أرض أندلس مقـــام * وقد دخل البلا من كل بـــاب .

ولقد صدق حدس الشاعر بدخول أنواع البلاء الى الأندلس ، فلما توفـــى الخليفة الناصر بويع ولده يوسف المستنصر وكان فتى لم يجاوز السادســـه عشره من عمره فعكف على اللذات وأضاع الحزم في تدبير الملك وفوض الأمـــور الى غير أهلها (١) فاضطربت الأندلس وماجت بالفتن والحرب الأهليه بين الموحدين المتنافسين على السلطه وبين أبناء الأندلس أنفسهم أيضا وعادت الى الصـــورة التى كانت عليها أيام حكم ملوك الطوائف فتهيأ المجال للنصارى لكى يستثمروا نصرهم فبدأوا باحتلال الحصون والمناطق الاسلامية . في غرب الأندلس تمهيدا لاحتلال القواعد الكبرى وشجعهم على ذلك توالى الخلفاء الضعاف علـــى عرش الدولة الموحديه الذين لم يستطيعوا السيطرة على بلادهم نفسهـــا ناهيك عن الأندلس التى فسدت ادارتها وأصبحت المناصب تباع وتشـــرى بالأموال والرشاوى ، وكان الذين يشترونها يمتصون دماء الناس بشراهـه ،" فليس عجيبا أن يصبح الصياد أو الحائل بين عيشة وضحاها وزيرا أو أمـــيرا " (٢)

وفي تصوير هذه الحاله يقول الكاتب أبو عبد الله الفازازى :- (٣) .

الروم تضرب في البـلاد وتغنم * والجور يأخذ مابقى والمغرم .

والمال يورد كله قشتالـــة * والجند تسقط والرعية تسلم .

وذوو التعيين ليس فيهم مسلم * الا معين في الفساد مسلـم .

أسفى على تلك البلاد وأهلها * الله يلطف بالجميع ويرحـــم .

---

(١) تاريخ ابن خلدون (العبر) : ٦/١٦٩ .

(٢) ابن سعيد المغربى ، القدح المعلى : ١٤٣ .

(٣) نفح الطيب : ٤/٤٦٧ .

وقيل ان هذه الأبيات وجدت فى جيب صاحبها يوم موته ، ولما وقف عليها سلطان بلده قال بعدما بكى : صدق رحمه الله ، ولو كان حيا لضربت عنقه وهذا يدل على أن الحكام أنفسهم كانوا يعلمون الحالة المترديه التى وصلت اليها أمور الأندلس ، ولكنهم من جهة أخرى لا يسمحون لأى صوت ناقد أو معارض خوفا من ثورة جمهور الناس ضدهم . ولقد رسم قائل هذه الأبيات صورة صادقة لحالة البلاد والحكام الظالمين مع العدو فى ظلم الرعية التى أهلكتها المغارم وعصفت بها المجاعات ولا غرو أن تكون الأبيات على درجة كبيرة من التأثير لأن صاحبها قد مارس السياسه وعايش الحكام فقد كان أحد كتاب الخليفه الموحدى الناصر . (١)

وفى الوقت الذى كانت فيه أحوال الأندلس تتردى وتشلها الفوضى المدمره كانت أحوال ملوك النصارى المنتصرين على خير مايرام من الانسجام والتفاهم ، فاتفقوا على أن يسيطر كل واحد منهما على منطقة من الأندلس ويتحكم فى مصيرها فكان نصيب فرناند و الثالث ملك قشتالة وسط الأندلس وغربها ، ونصيب خايمى الأول ملك أراجون شرق الأندلس . فقام الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائه بمحاصرة قرطبه التى لم يكن عليها أمير بعد أن ثار شعبها بواليهم السيد أبى الربيع الموحدى وقتلوه ، ودام الحصار بضعة أشهر انتهى بتسليمها بعد مقاومة شديدة من أهلها كلفتهم الكثير من الدماء والضحايا . (٢) واضطروا بالتالى الى تركها وخناجر الحزن تنغمس فى قلوبهم كلما نظروا الى الصليب الضخم الذى علق على مئذنة جامعها الأعظم أو الاحتفالات الدينيه الصليبيه التى أقامها النصارى فى رحابه بعد أن أصبح

---

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢/٣٢٦ .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس : ٤٣٠ (الترجمه العربيه) .

كنيسه ، ولا نجد تفاصيل فى كتب التاريخ عن كيفية احتلال قرطبه ، كما لا نجد قصائد رنانه فى رثائها ، ولعل ذلك راجع لقلة شعرائها وكتابها فى ذلك الوقت . أما خايمى الأول فقد اتجه الى افتتاح جزائر الأندلس الشرقيه ليصل الى مدينة بلنسية عاصمة تلك النواحى ، فتقدم فى سنة خمس وثلاثين وستمائه وحاصر حصن أنيشة (١) المنيع الذى يعتبر خط الدفاع الأول عن بلنسيه ودافع عنه البلنسيون دفاعا بطوليا بقيادة أميرهم أبى جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الجذامى ولكنهم أصيبوا بهزيمة شنيعه فى النهايه ، وقتل منهم عدد كبير كان من جملتهم جماعة من علماء بلنسيه وصلحائها ، واستولى النصارى على الحصن وأصبح مركزا هاما لهم يغيرون منه على بلنسيه التى انهارت قواها الدفاعيه وأصبحت وشيكة السقوط . وفى السنة التاليه لسقوط الحصن نظم ملك أراجون قواته ، وتلقى تشجيعا من البابا جريجورى التاسع يحضه على سرعة مهاجمة بلنسيه وأمده بالآف من المتطوعة الفرنسيين والبرشلونيين حتى بلغت قواته المشتركه فى حصار بلنسيه عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل (٢) ، فضيق الخناق على المدينة بشده وضربها بالآلات المدمره فرأى أميرها الاستنجاد بدولة بنى حفص الفتيه التى قامت فى المغرب أثناء احتضار الدوله الموحديه وأرسل الى أميرها كاتبه الشهير ابن الأبار الذى أنشد بين يديه قصيدة رائعه سنعرض لها فى فصل الاستصراخ ، واستجاب الأمير الحفصى للنداء (٣) وبعث أسطولا مشحونا بالأسلحة والأطعمه والأموال ولكنه جاء متأخرا فلم يستطع الوصول الى المدينة لشدة الحصار البرى والبحرى فعاد

---

(١) أنيشه : موضع على مقربه من بلنسيه ، يبعد سبعة أميال عن شمالها وحصن أنيشه على جبل معترض عال على البحر والصعود اليه صعب جدا ويشرف على مرج بلنسيه وحدائقها / الروض المعطار : (أنيشه) .

(٢) عصر المرابطين والموحدين : ٢/ ٤٤٤ .

(٣) النفح : ٤/ ٤٦٠ .

الى افريقيه بعد أن أفرغ حمولته فى ثغر دانيه (١) بعيدا عن منطقة الحصار ،
وهكذا تركت بلنسيه تواجه مصيرها منفرده حتى اذا بلغ الجهد بأهلها
غايته اضطروا الى تسليم المدينة بعد خمسة أشهر من الحصار صلحا على
أن يغادرها البلنسيون حاملين ماشاءوا من أمتعتهم فى خلال عشرين
يوما . فخرج منها مايقرب من خمسين ألفا بقلوب مكلومة وعيون دامعة
فغيرت معالمها الاسلاميه على الفور وقسمت دورها وأموالها بين الأحبار
والأشراف والفرسان النصارى وأصبحت هذه الأملاك وراثيه فى ذريتهم . وهكذا
رجعت بلنسيه مدينة نصرانيه بعد أن استنارت بنور الاسلام مايزيد على
خمسة قرون . وقد أذكت هذه المحنة فجيعه الشعر والنثر معا ، فراح
أبناء بلنسيه يرثونها بطائفة من القصائد والرسائل المبكيه ، وسأقتصر
هنا على ذكر القصائد تمشيا مع موضوع البحث الا اذا احتوت الرسالة على قصيدة
فاذكر منها طرفا بسيطا كالرسالة الطويلة التى بعث بها ابن عميره (٢) الى ابن
الأبار يصف حادث بلنسيه قائلا : " ..... فيا لله لأتراب درجوا ، وأصحاب
عن الأوطان خرجوا قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وانما هو القتل أو الأسر

---

(١) مدينة بشرق الأندلس على البحر كثيرة الشجر والخصب ، وهى دار انشاء الأسطول الاسلامى ومنها كان يخرج للغزو . انظر : الروض المعطار " دانيه " .

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن عميره المخزومى . يكنى أبا المطرف ، ولد بجزيرة شقر سنة ٥٨٢ وعنى بالأدب حتى برع وعد من مجيدى النظم والنثر . كان كاتبا لزيان الجذامى والى بلنسيه ، ولما احتلت هاجر الى مراكش وكتب للموحدين ثم استقر أخيرا فى تونس ومات سنة ٦٥٦ هـ انظر : ابن فرحون ، الديباج الذهب : ١/٥٠٦ ، الاحاطة : ١/١٧٣ بلنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسى : ٣٠٥ .

أو تسيروا ، فافترقوا أيدى سبا ، وانتثروا على الوهاد والربا ، ففى كل جانب عويل وزفره وبكل صدر غليل وحسره ..... ومالبث أن أخرس من مسجدها لسان الآذان ، وأخرج من جسدها روح الايمان . فبرح الخفاء وقيل : على آثار من ذهب العفاء ..... ثم زحفت كتبه الكفر بزرقها وشقرها حتى أحاطت بجزيرة شقرها (١) ، فآها لمسقط الرأس هوى نجمه ، ولفادح الخطب سرى كلمه ، وبالجنة أجرى الله تعالى الأنهار من تحتها ، وروضة أجاد أبو اسحاق نعتها (٢) ..... " .

ويشفع ابن عميره رسالته بالقصيدة التاليه :-

أقلوا ملامى أو فقولوا وأكثروا * ملومكم عما به ليس يقصر .

وهل غير صب ماتنى عبراته * اذا صعدت أنفاسه تتحدر ..

يحن ومايجدى عليه حنينه * الى أربع معروفها متنكر .

ويندب عهدا بالمشقر فاللوى * وأين اللوى منه وأين المشقر .

تغير ذاك العهد بعدى وأهله * ومن ذا على الأيام لا يتغير .

وأقفر رسم الدار الا بقية * لسائلها عن مثل حالى تخبر .

فلم تبق الا زفرة اثر زفرة * ضلوعى لها تنقد أو تتفطر .

والا اشتياق لا يزال يهزنى * فلا غاية تدنو ولا هو يفتر .

---

(١) تطلق على الجزيرة الكبيرة الواقعه فى نهر شقر قبل مصبه فى البحر المتوسط جنوبى بلنسيه ، وهى من أجمل البقاع فى تلك المنطقه وهى مسقط رأس ابن عميره وأبى اسحاق بن خفاجه . / الاحاطه الحاشيه) : ١٧٩/١ .

(٢) الرسالة فى النفح : ٤٩٣/٤ وانظر رسائل أخرى فى المصدر نفسه : ٤٩٥ - ٤٩٦ ، الروض المعطار تحت كلمة (بلنسيه) .

وفى هذه الأبيات تبدو لنا حالة الشاعر النفسيه حيث سيطر عليه الحزن والبكاء وأخذ منه الحنين والشوق المتوهج كل مأخذ حتى غدا لا يلتفت الى كلام اللائمين مهما أبدأوا فيه وأعادوا وذلك لأنه أصبح طريدا شريدا يندب عهده السابق الذى تمتع فيه مع الأصحاب والأتراب فى ربوع وطنه قبل أن تطرقهم الحوادث وتفرق جمعهم ، وتترك رسوم الدار منهم مقفرة . وهو يرمز لبلنسيه بلفظ (المشقر ، واللوى) وفى قصيدة أخرى بلفظه (نجد) وهى مواضع معروفة فى جزيرة العرب تغنى بها الشعراء وحنوا اليها بعد الفراق ، ولعله هنا أراد البعد المعنوى ، فالأعداء يحولون بينه وبين الدخول على بلاده رغم قربه منها ، لذلك نراه يهتز شوقا وتجرى عبرته كلما رأى وميض البرق فيخاطبه :-

أقول لسارى البرق فى جنح ليلة * كلانا بها قد بات يبكى ويسهر .
تعرض مجتازا فكان مذكرا * بعهد اللوى والشئ بالشئ يذكر .
أتأوى لقلب مثل قلبك خافق * ودمع سفوح مثل قطرك يقطر .
وتحمل أنفاسا كومضك نارها * اذا رفعت تبدو لمن يتنور .
يقر بعين أن أعاين من نأى * لما أبصرته منك عيناى تبصر .
وأن يتراءاك الخليط الذين هم * بقلبى وان غابوا عن العين حضر .
كفى حزنا أنا كاهل محصب (١) * بكل طريق قد نفرنا وننفر .
وأن كلينا من مشوق وشائق * بنار اغتراب فى حشاه تسعر .

---

(١) المحصب : موضع بمكة معروف ، أو هو موضع رمى الجمار بمنى . / الروض المعطار (المحصب) معجم البلدان ، الماده نفسها .

ومخاطبة البرق وسؤاله عن الديار والأحبة غرض شعرى أفاض فيه شعراء الحنين منذ القديم . وشاعرنا هنا يشارك البرق وجدانيا فى ملامحه وهيئته فكلاهما خافق القلب منهمر الدمع ، واذا كان البرق يتميز بوميضه فان أنفاس الشاعر الملتهبة لا تقل عن ذلك لو ظهرت للعيان . ولا يكتفى الشاعر بذلك بل يحاول أن يمتزج بالبرق ليبصر من خلاله أحبابه النازحين بعيدا ، ويبصرونه هم أيضا بالطريقة نفسها اذ لا أمل فى اللقاء بعد أن سار كل فى طريق يكابد نار الشوق المضطرمة فى أحشائه ، وبعد هذه الصورة الجميلة ينتقل الى ذكر معاهد صباه متشوقا :-

ألا ليت شعرى والأمانى ضلة * وقولى ألا ياليت شعرى تحير .

هل النهر عقد للجزيرة مثلما * عهدنا وهل حصباؤه وهى جوهر .

وهل للصبا ذيل عليه تجره * فيزور عنه موجه المتكسر .

وتلك المغانى هل عليها طلاوة * بما راق منها أو بمارق تسحر .

ملاعب أفراس الصبابة والصبا * تروح اليها تارة وتبكر .

ويمضى الشاعر فى وصف الأنهار والجبال والخمائل والورود التى طالما تمتع بها وقضى أوقات لهوه بينها وبخاصة رحلات الصيد :

وكم قد هبطنا القاع نذعر وحشه * وياحسنه مستقبلا حين يذعر .

نقود اليه طائعا كل جارح * له منخر رحب وخصر مضمر .

اذا مارميناه به عبثت به * مؤللة الأطراف عنهن تكشر .

ويختم هذه القصيدة بهذين البيتين :-

كذاك الى أن صاح بالقوم صائح * وأنذر بالبين المشتت منذر .

وفرقهم أيدى سبا وأصابهم * على غرة منهم قضاء مقدر .

والملاحظ على هذه القصيدة خلوها من معانى الرثاء الا ماجاء فى البيتين الأخيرين . فهى مفعمة بالحنين والشوق الى الوطن بكل أجزائه ولم تتطرق الى سقوط المدينة بيد الكفار وذهاب صبغتها الاسلاميه ، ولعل الشاعر الكاتب استنفد هذه المعانى فى الرسالة التى ختمها بهذه القصيدة فجاء نثره أقوى تأثيرا وعاطفة من نظمه ، كما أننا لا نجد فى القصيده دعوة للجهاد أو استصراخا بأحد لانقاذ المدينه ، فقد سد اليأس على الشاعر كل الأبواب . ويقول من قصيدة أخرى (١) :-

ألا أيها القلب المصرح بالوجد * أمالك من بادى الصبابة من بعد .
وهل من سلو يرتجى لمتيم * له لوعة الصادى وروعة ذى الصد .
يحن الى نجد ، وهيهات حرمت * صروف الليالى أن يعود الى نجد .
فياجبل الريان (٢) لا رى بعدما * عدت غير الأيام عن ذلك الورد .
ويا أهل ودى والحوادث تقتضى * خلوى عن أهل يضاف الى الود .
ألا متعة يوما بعارية المنى * فانا نراها كلّ حين الى الرد .
أمن بعد رزء فى بلنسية ثوى * بأحنائنا كالنار مضرمة الوقد .
يرجى أناس جنة من مصائب * تطاعن فيهم بالمثقفة الملد (٣) ؟
ألا ليت شعرى هل لها من مطالع * فعاد الى ماكان فيها من السعد ؟
وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم * فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد ؟

---

(١) النفح : ١/٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) جبل فى ديار طئ يسيل منه الماء . معجم البلدان تحت (ريان) .

(٣) الملد : الناعمه المصقوله . الصحاح (ملد) .

وقصيدته هذه تسير على نهج سابقتها ، فهى حنين وصبابة يطفح بهما قلب الشاعر المتيم الذى يأبى السلو عن تذكر الوطن ومن فيه مهما اقتضت الحوادث خلوه واقصاءه عنه ثم نراه ينهزم فى معركته مع الأيام العادية فيتشاءم من الحياة ويرى كل مافيها من جمال ومتع : لا يعدو كونه عارية مآلها الى الرد ، ولا أدل على ذلك من الواقع الذى يعيشه الشاعر بعد أن رماه الدهر بقاصمة الظهر ، وأشعل قلبه نارا بضياع وطنه بلنسيه ، تلك الجنه التى نال فيها السعادة حقبة ، وبفقدها أظلم نهاره فأصبح ينظر الى الدنيا بمنظار قاتم لا يشاهد فيه الا المصائب النازلة بالناس حيث لا يستطيعون لها دفعا ولا منها هروبا .

وفى قصيدته الثالثه يقول :- (١)

مابال دمعك لا ينى مدراره * أم مالقلبك لا يقرّ قراره .

أللوعة بين الضلوع لظاعن * سارت ركائبه وشطت داره .

أم للشباب تقاذفت أوطانه * بعد الدنو وأخفقت أوطاره .

أم للزمان أتى بخطب فادح * من مثل حادثة خلت أعصاره

بحر من الأحزان عب عبابه * وارتج مابين الحشا زخاره .

فى كل قلب منه وجد عنده * أسف طويل ليس تخبو ناره .

يقدم الشاعر لرثاء مدينته بحوار داخلى يجريه مع نفسه التى تسائله عن سبب دمعه المنهمر وقلبه الخافق المضطرب . وهو يتخذ من ذلك تعلة لتعداد المآسى الكثيرة التى نجمت عن فقد الوطن الغالى فالأحباب سارت ركائبهم وبعدت دارهم ، وتفرق شملهم ، ومعاهد الشباب قد أناخ عليها الزمان بكلكله فمسخ صورتها ، فالشاعر يغرق فى بحر من الأحزان يغشى

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس : ٥١ - ٥٢ .

كل قلب مسته النكبة فيوقد فيه جمر الأسى . ثم ينتقل الى بلنسية وما آلت اليه حالها :-

أما بلنسية فمثوى كافر * حفت به فى عقرها كفاره .

زرع من المكروه حل حصاده * عند الغدو غداة لج حصاره .

وعزيمة للشرك جعجع بالهدى (١) * أنصارها اذ خانه أنصاره .

قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا آثاره أم كيف يدرك ثاره .؟

والشاعر هنا يذكر السبب الأهم الذى ضاعف حزنه وألمه ذلك أن بلنسيه عاصمة الاسلام فى شرق الأندلس قد أصبحت موطنا للكفار والمشركين الذين لم يدخروا وسعا فى التضيق على المسلمين بعد أن تأكدوا من انعدام ناصريهم أولئك الذين يصفهم الشاعر بالخيانة لخذلانهم دين الهدى ، وهنا تشتد عاطفة الشاعر الاسلامية قليلا . لكنه سرعان مايعود الى الحزن اليائس عندما يتذكر قوة الأعداء فى مقابل الضعف الشامل الذى يسيطر على المسلمين بحيث يصعب معه ادراك الثأر . ويعود ابن عميره بعد ذلك -كما هى عادته- الى التغنى بجمال بلنسية وكيف أظلم نهارها بالضلال بعد أن كان ليلها يضوء بالهداية والنور فيقول فى صوت كئيب :-

ماكان ذاك المصر الا جنة * للحسن تجرى تحته أنهاره .

طابت بطيب بهاره آصاله * وتعطرت بنسيمه أشجاره (٢) .

أما السرار فقد عداه وهل سوى * قمر السماء يزول عنه سراره .

---

(١) جعجع : حبس وضيق ، اللسان ، ماده (جعجع) .

(٢) السرار : سرر الشهر ، آخر ليلة منه ، وفيها يختفى القمر . اللسان ماده (سرر) .

قد كان يشرق بالهداية ليلـة ✱ والآن أظلم بالضلال نهـاره .
ودجا به ليل الخطوب فصبحه ✱ أعيا على أبصارنا اسفـاره .

وأسلوب الشاعر تغلب عليه السهوله الطونه بالمحسنات اللفظيه والبديعيه ولعل كونه ناثرا بارعا فى استخدام الزخرفه والتصنيع -كما يظهر من رسائله المشار اليها - أثّر بشكل ملحوظ فى شعره . ورغم ذلك فانه لم يأت بصور مبتكرة ذات ظلال وايحاء لابتعاده عن الخيال . أما عاطفته فجياشة يذكيها تذكره وحنينه الى جنته التى أخرج منها ، وشعره مفعم بالشكوى والتبرم والوجد . ففى قصائده التى مرت بنا كان يفتتحها بالدمع المدرار ، والقلب المصرح بالوجد ، ولغة فيها كثير من الانكسار وتكاد تخلو من الحماسة والاثارة وطلب الغوث ، فنراه يكثر من ذكر الأطلال والربوع الدارسة وهو بذلك يتكئ على شعر الأطلال فى مختلف عصوره فيذهب مع أولئك الشعراء ويذكر عهد (اللوى ، والمشقر) ويحن الى نجد ويخاطب جبل الريان كل ذلك تقليدا واتباعا . ولعله من الكثير أن نطالب ابن عميره بموقف ايجابى كالذى سلكه زميله ابن الأبار -كما سيأتى - ذلك أن ابن عميره قال قصائده بعد سقوط بلنسيه ومعها جملة من المدن والحصون الأندلسيه بل أصبحت الأندلس كلها تحت رحمة النصارى والدولة الموحديه كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وزاد الأمر سوءا اخفاق النجدة الحفصيه فى الوصول الى المدينه فغلف اليأس قلوب الناس فجاء تصوير ذلك على لسان أشدهم احساسا بذلك شاعرنا ابن عميره أما ابن الأبار فقد كانت قصائده كلها استصراخا واستغاثة لأن الأمل فى النصر لا يزال موجودا والمدينه لم تسقط بعد .

رثاء اشبيليه (١) :

بعد أن أنهى خايمى الأول ملك أراجون سيطرة المسلمين على ثغور الأندلس الشرقيه ، جاء دور فرناند و الثالث ملك قشتاله ليواصل فتوحه فى وسط الأندلس وجنوبها . وكانت أهم العقبات التى تقف فى طريقه هى قوة ابن الأحمر (٢) سلطان غرناطه الذى شكل دولة قوية فى جنوب الأندلس استطاعت سنة ست وثلاثين وستمائه أن تهزم القشتاليين غربى مدينة جيان . لذا فقد صمم الملك القشتالى على اخضاع ابن الأحمر لسلطته فجهز جيشا كثيفا وسار به نحو جيان وأخذ يخرب ماحولها وينتسف زروعها ، وكانت هذه المدينه من أخصب مناطق الأندلس وأمنعها لما تحوى من القلاع والحصون والأسوار ، فضرب حولها طوقا من الحصار الشديد لمدة شهر وهى صامدة تنتظر المدد ، ولكن ابن الأحمر عجز عن ذلك ، وقرر التفاوض مع القشتاليين وذهب من توه الى معسكرهم تحت أسوار جيان وقدم الطاعة والولاء لفرناندو ثم عقد معه معاهدة سلام (٣) لمدة عشرين عاما تحوى شروطا قاسيه من أهمها

---

(١) من أمصار الأندلس الجليله ، تقع على نهر الوادى الكبير وبينها وبين قرطبه ثمانين ميلا ، وهى قديمة البناء ، عظيمة الأسوار ، خصبة التربه تكثر حولها أشجار الزيتون وغيرها . / الروض المعطار (اشبيليه) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الخزرجى الأنصارى ، يلقب بالغالب بالله ولد سنة احدى وتسعين وخمسمائه وملك غرناطه سنة ٦٣٥ هـ ، دعا فى بداية أمره للعباسيين ثم للموحدين والحفصيين ثم نزع واستقل بذاته توفى فى ٦٧١هـ . / انظر ابن الخطيب : اللمحه البدريه : ٤٢ - ٤٨ . عنان : تراجم اسلاميه : ٢٥٨ .

(٣) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢/٤٦٨ .

تسليم المدينة المحاصره فى الحال ، ودفع جزيه سنويه مقدارها خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، وأن يحكم ابن الأحمر غرناطه باسم ملك قشتاله ويحضر اجتماع مجلس قشتاله (الكورتيس) باعتباره أحد الأمراء التابعين للعرش . والأهم من ذلك أن يشارك ابن الأحمر بقواته الجيش القشتالى فى حروبه ضد المسلمين . وهكذا سلم العرش الغرناطى المهزوز لابن الأحمر على حساب شرفه ودينه . ثم دخل النصارى جيان وطردوا أهلها ووزع ملكهم دورها على الأشراف والفرسان وحول مسجدها الى كنيسه وذلك سنة ثلاث وأربعين وستمائه . ولما رأى الملك القشتالى حصول جيان فى يده أخذ يتطلع الى اخضاع اشبيلية عاصمة قواعد جنوب الأندلس حيث لم يبق غيرها من الحواضر الكبرى بيد المسلمين ، وكانت هذه المدينة تتمتع باستقلال محلى رغم انضوائها تحت لواء هذا الأمير أو ذاك ، فقد خلعوا طاعة الدولة الموحديه وبايعوا ابن الأحمر ثم ثاروا عليه بعد مدة بسيطه ورجعوا الى طاعة الموحدين شكليا ، حيث كان الحكم الفعلى بيد الزعيم المحلى أبى عمرو ابن الجد الذى كان صديقا لملك قشتاله وتربطه به معاهده على نمط معاهدة الملك وابن الأحمر (١) وأخيرا قرر ابن الجد خلع طاعة الموحدين ومبايعة الأمير أبى زكريا الحفصى صاحب الدوله الناشئه فى تونس والتى تستطيع الانجاد فى أى وقت ، فبعث الحفصى من قبله من يشرف على شئون اشبيليه الى جانب ابن الجد (٢) ووعد أهل اشبيليه بالمعونة ولكن أولئك النفر الذين قدموا الى اشبيليه أساءوا السيره وأحدثوا كثيرا من المفاسد فطردهم أهل اشبيليه وقتلوا ابن الجد الذى كان السبب فى مجيئهم ، فغضب فرناندو القشتالى لمقتل

---

(١) عنان ، المرجع السابق : ٤٧٣/٢ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ العبر : ١٧١/٤ .

صديقه واتخذ ذلك ذريعة لاحتلال اشبيلية التى لم يعد لها من ينجدها بعد أن خلعت طاعة الموحدين ، والحفصيين ، ولكن مع هذا فان احتلالها لم يكن بالأمر السهل فهى محاطة بالقلاع والحصون المشحونة بالمقاتلين من مختلف جهاتها بالاضافة الى خصبها وكثرة خيراتها ، ووقوعها على نهر الوادى الكبير الذى يمكن بواسطته الاتصال بالمغرب . لذا فقد فزع فرناند و الى البابا يطلب المساعده ، فأصدر البابا قرارا يقضى بتخصيص ثلث ايرادات الكنيسة القشتاليه والليونيه للمساهمة فى الحرب (١) . وفى سنة أربع وأربعين وستمائه جمع فرناند و حشودا ضخمه وسار بهم نحو اشبيليه فاصطدم بحصن قرمونه (٢) المنيع فحاصره وأهلك ماحوله من الزروع ثم استوى عليه بعد ستة أشهر بمساعدة حليفه ابن الأحمر الذى وافاه بخمسمائة فارس وكان له دور كبير فى اقناع أهل الحصون بالتسليم كفعله مع أهل قلعة جابر حصن اشبيليه من الجنوب الشرقى (٣) ثم استمرت الجيوش المشتركه فى السير واحتلال القلاع حتى وصلت الى اشبيليه وحاصرتها برا وبحرا ، وضرب أهل اشبيليه أروع الأمثلة فى الصمود والدفاع المستميت عن بلدهم ، ولكن ضخامة النجدات النصرانيه التى كانت تأتى لتعزيز الحصار بقيادة الأساقفه والرهبان أفقدت المحاصرين كل أمل ، وبدأ شبح الجوع والضيق والارهاق يدب حثيثا الى المدينة

---

(١) عنان ، المرجع نفسه : ٢/ ٤٧٤ .

(٢) مدينة حصينه فى الشرق من اشبيليه ، تقع فى سفح جبل عال وتحيط بها الأسوار المنيعه التى تصعب على المحاربين وبها أسواق عامره ودار لصناعة السلاح ، فتحها الأمويون سنة ٣٠٥ هـ . / الروض المعطار : (قرمونه) .

(٣) انظر : ابن أبى زرع ، الذخيره السنيه : ٧٢ - ٧٣ .

فاضطر أهلها الى تسليمها بعد خمسة عشر شهرا من الحصار الخانق ، وخرج منها مايزيد على أربعمائه ألف نسمه بما لهم وسلاحهم وانتشروا فى مختلف الأقطار . ودخل فرناند و المدينة العظمى وجعل فيها مركز مطرانية ورفعت الصلبان والأجراس على منارة جامع اشبيليه ، واستقر فيها واتخذها عاصمة له بدلا من طليطلة ، وذلك سنة ست وأربعين وستمائه . وقد صور الشعر محنة هذه المدينة الصامده بعواطف صادقه ملتهبه تتراوح بين الحزن والبكاء وطلب الغوث والنجده عندما اشتد الحصار وقربت النهاية ، ومن ذلك قول أبى موسى هارون بن هارون :- (١)

ياحمص أقصدك المقدور حين رمى * لم يرع فيك الردى الا ولا ذمما .
جرت عليك يد للدهر ظالمــة * لا يعدل الدهر فى شئ اذا حكما .
ماكنت أحسب أن الحادثات اذا * همت بك السوء لا تلقى لك السلما .
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ * أصبت عوضت منه القبح والهرما .
ياجنة زجرتنا عن زخارفهــا * ذنوبنا فلزمنا البث والندما .

يقف الشاعر متأملا ومتعجبا من انقلاب حالة مدينته حيث أصابتها الحادثات التى لاترعى الا ولا ذمه ، فحولت حسنها قبحا وشبابها هرما ، وصار أهلها الى الاخراج منها والابعاد . يتجرعون لذلك غصص الحزن والندم الذى لا يجدى من أضاع وفرط شيئا ، والشاعر يرجع سبب هذه المحنه الى صروف الدهر الجائرة فى حكمها . ومعركة الشعراء مع الدهر قديمه قدم الشعر نفسه فالشاعر دائما يحمل الدهر تبعه مايلاقى الاخفاق والآلام ويرى فيه

---

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢/ ٤٨٢ وذكر أنه نقلها عن البيان المغرب : ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٤ ولكنى لم أجدها فى الموجود منه بين أيدينا فى الموضع المشار اليه .

عدوا يقف له بالمرصاد ، وقيدا يخنق حياته . ثم يصف الشاعر زحف جيش الأعداء وما أحدثه باشبيليه من البلاء :

ويمموا حمص فى جمع يضيق بـه * ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتتما .
واستوطنوا القبر فى الوادى وقام لهم جسر من الفلك لا تشكو به السأما .
فكم أسارى غدت فى القيد موثقة * تشكو من الذل أقداما لها حطما .
وكم صريع رضيع ظل مختطفا * عن أمه فهو بالأمواج قد فطما .
وكم بطريانة (١) أبقى الأسى ندبا * فى القلب يبعث وجدا كلّما كلما .
ياعين فابك على حمص وقل لها * منك البكاء اذا ماترسليه دما .
وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها * حقا وأصبح ركن الدين قد ثلما .
سطا بها الكفر اذ قل النصير بها * فمن معز بها الاسلام ماسلما .

ان معانى الشاعر ليس فيها جديد فهو يصف ضخامة الجيش الغازى وحصاره البرى والبحرى للمدينة ثم يرسل دمعه حزنا وأسفا على أولئك الأطفال الذين ابتلعتهم الأمواج بعد أن خطفهم الأعداء من غير ذنب ، وعلى أولئك الأسرى الموثقين بقيود الذل . والأكبر من ذلك أن هذه المدينة من قواعد الاسلام العظمى الباقيه بيد المسلمين ، فبسقوطها وتحولها الى دار كفر حدثت فى الاسلام ثلمة تدمى لها القلوب ، لذلك نرى الشاعر يتلفت حوله مذعورا باحثا عن منجد ونصير يعيد للاسلام عزه ومجده ،
ولا تطول حيرة الشاعر اذ سرعان مايوجه نداءه الى اخوان العقيدة فى

---

(١) حصن اشبيليه من الجنوب الغربى يفصلها عنها نهر الوادى الكبير وتصل بينهما قنطره ضخمه مقامه على ذلك النهر . الروض المعطار (بطريانه) .

عدوة المغرب قائـــلا :-

يا أهل وادى الحما بالعدوة انتعشوا * هذا الذماء فقد أشفى به سقما .

ماذا يبطئكم عنـــا وحولكـــم * أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما .

وحقنا واجب فالدين يجمعنـــا * مع الجوار الذى مازال منتظما .

وقد دعونا فأسمعنا علــى كثــب * بما قد استنفد القرطاس والقلما .

ولغة الشاعر فيها قوة لأنه يطالب بحق الاسلام الذى يجمع كل المسلمين ويجعلهم اخوة ووحدة متماسكه ، فهو يخص أهل العدوة على النجده ويعجب من تأخرهم فى ذلك رغم سماعهم صراخ جيرانهم أهل اشبيليه الذين أشرفوا على الهلاك ، وعلى الرغم من ذهاب صوت الشاعر أدراج الرياح ، ولم يستجب له أحد فانه يكون قد أدى واجبه بايجابية تراوحت بين الرثاء والحزن العميق على فقدان المدينة الاسلامية ، وبين السعى فى طلب المدد بأسلوب مؤثـر .

رثاء سهيل (١) :-

لا تمدنا المصادر التاريخيه بمعلومات دقيقه عن السنة التى سقطت فيها هذه القريه بيد النصارى ، وانما المؤكد أن ذلك حدث فى عصر الموحديـن (٢) حيث يقول ابن سعيد فى ترجمة الامام السهيلى الذى عاش من (٥٠٨ - ٥٨١)"

(١) هى قرية بالقرب من مدينة مالقه ، سميت باسم الكوكب (سهيل) لأنه لا يرى فى جميع الأندلس الا من جبل مطل عليها ، ووادى سهيل معروف بالأندلس وفيه قرى كثيرة . / معجم البلدان : (سهيل) ، ابن خلكان ، الوفيات : ١٤٤/٣ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب : ٤٤٨/١ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى السهيلى . كان عالما بالعربية واللغة والقراءات ، والتفسير والحديث ، حدّث بما لقة فاشتهر وبعد صيته ، من تصانيفه ، الروض الأنف فى شرح السيرة النبويه ، التعريف والاعلام بما فى القرآن من الأسماء والأعلام وغيرها . انظر : نكت الهيمان : ١٨٧ ، أبو البحر صفوان ، زاد المسافر : ٩٦ ، انباه الرواه : ١٦٢/٢ ، الروض الأنف : ٢٥/١ .

.... انه لما وقعت قريته (سهيل) بيد الفرنج وخرّبوها ، وقتلوا أهلها كان أهله وأقاربه ضمن من قتل ، وكان هو غائبا عنهم خارج القريه فاستأجر من أركبه دابة وأتى به الى سهيل فوقف بازائه وقال :-

يادار أين البيض والآرام * أم أين جيران على كرام ؟
راب المحب من المنازل أنه * حيى فلم يرجع اليه سلام .
لما أجابني الصدى عنهم ولم * يلج المسامع للحبيب كلام .
طارحت ورق حمامها مترنما * بمقال صب والدموع سجام .
" يادار مافعلت بك الأيام * ضامتك والأيام ليس تضام " .

والأبيات - رغم قلتها - مفعمة بعاطفة الحزن الجياشه التى تنبعث من قلب مكلوم بفقد الوطن والأهل ولعل المدقق فى الأبيات وفى وقفة الشاعر بالمنازل يحس أن قائلها لا يبصر فهو يعتمد على السماع فقط ولا يأتى بوصف شاهد للقرية المدمّره التى فعلت بها الأيام فعلها . فالصمت الموحش الذى لف المنازل وقضى على كل حركة فيها هو الذى فجر دمع الشاعر وجعله ينوح نوح الحمام .

رثاء صقلية ومدن المغرب :-

صقليه :- كانت جزيرة صقليه تتبع للدولة البيزنطيه المتمركزه فى (١)

---

(١) جزيره مثلثة الشكل من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، قصبتها مدينة (بلرم) وفيها مايقرب من ١٣٠ بلدا بين مدينة وقلعه ، وتشتهر بخصوبتها ، وزراعاتها الكثيرة بالاضافة الى أنواع المعادن المتعدده / معجم البلدان : (صقليه) .

القسطنطينيه والتى اتخذت هذه الجزيرة مركزا للسيادة على البحر ، فمنها كانت تغزو أفريقيا وتخرب الثغور وتنهب الأرزاق وتأسر المسلمين (١) . وقد بدأ التفكير فى فتحها مبكرا عند المسلمين ، فقد غزاها موسى بن نصير فاتح الأندلس ودحر قوى الروم بها وغنم غنائم كثيرة ، ولكنه رجع ولم يتم فتحها وربما كان ذلك لطول المسافه البحريه بينها وبين تونس ، وصعوبة ارسال المدد اذا ماعبرت جيوش الفتح الاسلامى الى أوربا ، وتتابعت المحاولات بعد ذلك من ولاة الأمويين على أفريقيا ولكنها انتهت بوقوع الصلح والرضا بالجزيه ، وبقى الحال على هذا الى أن جاءت الدولة العباسية ووضعت ابراهيم بن الأغلب واليا على افريقيه فاتخذ القيروان عاصمة له وأخذ يفاوض الخلافة العباسيه فى الانفصال ، فجاءته الموافقة على ذلك مقابل أن يعترف للعباسيين بالسياده ، ويدفع خراجا سنويا لخزينة الدولة يقدر بأربعين ألف دينار (٢) ، عندئذ أخذ ابن الأغلب يعمل بجد ونشاط عظيم لتكوين مملكة قويه ، وبالفعل تم له ماأراد حتى كانت القيروان من أزهى عواصم المسلمين . وأقواها . ثم توفى ابراهيم وخلفه ولده زيادة الله سنة ١٩٨ هـ وفى عهده كانت جزيرة صقليه تمر بمرحلة صراع وانقسام نتيجة الظلم والفساد الذى كان يمارسه ولاة الروم البيزنطيين ضد شعب صقليه ، اضافة الى الخلاف المستحكم بين الأمراء والقواد أنفسهم ، حيث اضطر بعضهم الى الاستنجاد بزيادة الله وحثّه على احتلال الجزيره مبينا له ضعفها وسهولة فتحها فاستحسن زيادة الله بن الأغلب ذلك وجهز أسطولا ضخما شحنه بالرجال

---

(١) الكامل فى التاريخ : ٦/٣٣٤ .

(٢) أحمد المدنى ، المسلمون فى جزيرة صقليه : ٥١ .

والعتاد ووجهه الى صقليه تحت قيادة القاضى أسد بن الفرات (١) ، فوصل اليها سنة اثنتى عشرة ومائتين ، والتقى بجيش كثيف من الروم بلغ مائة ألف جندى فهزمه هزيمة شديدة وفر قائد الروم المسمى "بلاطه" وتحصن بسرقوسه (٢) حيث قتل هناك على يد أحد خصومه ، وزحف الجيش الاسلامى بقيادة ابن الفرات وحاصر سرقوسه برا وبحرا ، ووصلته النجدات والمعونات من القيروان فاشتد عزمه وبعث فرقه من جيشه لمحاصرة عاصمة الجزيرة (بلرم) (٣) ، وفى الوقت نفسه وصل أسطول الروم بقوة ضخمه ، ودارت بين الجانبين معارك ضاريه امتدت من سرقوسه شمال الجزيره الى بلرم فى شمالها الغربى وكانت سجالا (٤) غير أن وباء شديدا وقع فى معسكر

---

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان ، يكنى أبا عبد الله . ولد بخراسان سنة ١٤٢ هـ ، رحل أبوه الى القيروان مع جيش ابن الأشعث وأخذه معه وهو طفل صغير ، فنشأ بتونس وتعلم بها ثم رحل الى المشرق وأخذ الحديث عن مالك بن أنس سنة ١٧٢ هـ ثم رجع الى القيروان وولى قضاءها سنة ٢٠٤ هـ ومن مصنفاته (الأسديه) فى فقه المالكيه وتوفى مجاهدا سنة ٢١٣ هـ أثناء غزوته على صقليه / معالم الايمان : ٢/ ٢-٣ ، تراجم اسلاميه : ١٣٠ .

(٢) مدينة كبيرة بينها وبين صقليه مجاز لطيف ، والبحر محدق بها من جميع جهاتها ، وعليها ثلاثة أسوار بمدخل واحد فى شمالها ، وتشتهر بأسواقها التجاريه ومبانيها الرائعه . / انظر : الروض المعطار : (سرقوسه) .

(٣) هى دار الملك بصقليه فى عهد الروم والمسلمين ، وهى على ساحل البحر وتحدق بها الجبال ، ومنها كانت تخرج الأساطيل للغزو ، وبها جامعها المشهور الذى بلغ فى القديم درجة عاليه من الهندسه والزخرفه / المصدر نفسه : (بلرم) .

(٤) عنان : تراجم اسلاميه : ١٢٤ .

المسلمين توفى على أثره عدد كبير ومنهم القائد البطل أسد بن الفرات سنة ثلاث عشره ومائتين ، وتولى القيادة بعده محمد بن أبى الجوارى الذى قرر الرجوع بالمسلمين الى افريقيا لما رأى ضعفهم وقوة الروم ، ولكن لم يتح له ذلك اذ أجبرهم الأسطول الرومى على خوض الحرب ، فماكان منهم الا أن احرقوا سفنهم وانطلقوا الى الجزيرة أسرابا يحاصرون قلاعها وقد عقدوا العزم على النصر أو الموت ، وساعدهم فى ذلك وصول الاسطول الأندلسى يحمل سرايا المجاهدين (١) ، وأصبح الجميع قوة واحدة فتحت على يدها معظم قواعد الجزيره ، ثم لم يلبث القائد ابن أبى الجوارى أن توفى ، ورجع الأسطول الأندلسى الى بلاده فرارا من الوباء الذى كان ينتشر بسبب عفونة الهواء (٢) ، وفساد المناخ ، فبعث زيادة الله زهير بن عوف مع ثلاثين ألف مقاتل لاكمال فتح الجزيره ، فاندفعوا نحو العاصمه (بلرم) وحاصروها بشده ، وواجهوا مقاومه عنيفه من الروم ولكنهم استسلموا فى النهاية وخرجوا منها ودخلها المسلمون واتخذوها مقرا لحكمهم فى الجزيره وانطلقوا فى مجال البناء والاصلاح ، فانتشرت فى أرجاء صقلية المساجد ، والقصور والحدائق ، وفاضت عليها أنوار الاسلام العلمية والحضاريه من المشرق والمغرب ، وبسقوط سرقوسه آخر معاقل الروم بالجزيره سنة أربع وستين ومائتين تكونت فيها دولة اسلاميه تتبع للأغالبه فى افريقيا ثم استقلت بعد زوالهم ، وكانت البعوث والحملات البحريه تخرج منها ، وتجوس خلال المياه الايطاليه ، وبقيت الجزيرة ترفل فى حلل الازدهار الى أن بسط

---

(١) المدنى : المسلمون فى جزيرة صقليه : ٦٤ .

(٢) انظر : معجم البلدان تحت كلمة (صقليه) .

الفاطميون نفوذهم على المغرب وافريقيا سنة سبع وتسعين ومائتين وأخذوا يرسلون الولاة من قبلهم الى صقليه ، فبدأ عهدهم بمذابح شنيعه بين مؤيدى حكم الأغالبه من العرب ومؤيدى الفاطميين من البربر وانحياز الولاة الى البربر وأوجدوا النعرات العنصريه التى مزقت الصف الاسلامى وحاولوا اجبار الناس على اعتناق المذهب الشيعى ، فقام أهل صقليه بثورة عارمة وقتلوا حاكمهم الفاطمى وخلعوا طاعة الفاطميين سنة احدى وثلثمائه ، فبعث اليهم عبيد الله المهدى الحاكم الفاطمى حملة قويه أهلكتهم وسبت حريمهم ، وارتكبت الفظائع أعظمها ماجعل الناس يفرون الى النصارى طلبا للحماية والنجاة (١) وفى هذا الوقت الذى يقتل فيه المسلمون بعضهم ، وتسبح فيه الجزيرة ببحر من الدم ، بدأ التحرك من قبل النصارى والنورمان نحو صقليه ، وأخذوا يغيرون وينهبون ويسلبون ، واستوطنت جماعة من النورمان ناحية من صقليه سنة سبع وعشرين وثلثمائه واتخذتها مركزا لقرصنتها البحريه ، وبهذا بدأ شبح القلق المرعب يسيطر على الجزيرة فاجتمع رأى أهلها على الاستنجاد بالمعز بن باديس الصنهاجى حاكم المغرب من قبل الفاطميين بعد انتقال عاصمتهم الى القاهره ، فأمدهم بأسطول من أربعمائة سفينه مثقلة بالرجال والخيل والسلاح ، ولكن عاصفة هوجاء (٢) أودت بالأسطول كله ، ولم ينج من أهله الا القليل ، عندها اشتد خطر النصارى الزاحفين فرأى أهل الرأى بالجزيره تقسيمها الى عدة نواحى على كل ناحية أمير ، وكان هذا من سوء تدبيرهم اذ سرعان مادب الخلاف بينهم وفر أحدهم ويدعى ابن الثمنة الى ملك النورمان رجار الأول واستغاث به على قومه

---

(١) المسلمون فى جزيرة صقليه : ١١٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ : ٣٢٣/٧ .

فأقبل هذا بجيوش ضخمه وأخذ يلتهم الجزيرة شيئا فشيئا والمسلمون يقاومونه بكل عنف وشجاعه سنينا طوالا الى أن استسلم آخر معاقلها قلعة (قصريانه)(١) سنة أربع وثمانين وأربعمائه . وبهذا ينتهي الحكم الاسلامى لصقلية بعد أن نعمت فى ظلاله زهاء سبعين ومائتى عام . (٢) وممن بكى الجزيرة الغاربه ابنها ابن حمديس الصقلى (٣) الذى كان دائم التذكار والشوق اليها يقول : (٤)

لأمر طويل الهم نزجي العرامسا * وتطوى بنا أخفافهن البسابسا . (٥)

وتذعر بالبيداء عينا شواردا * تذكر بالأحداق عينا أوانسا .

عذارى ترى الحسن البديع مطابقا * لأنواعها فى خلقه ومجانسا .

بذكر البيداء والجمال المزجاة فيها يبدأ الشاعر قصيدته ، ثم يذكر بعد ذلك الآرام النافره التى أهاجت ذكرياته ، وهذه البداية التى يسير بها على هدى مطالع القصائد القديمه لها دلالة واضحه على الشعور بالغربة والقلق والاستعداد للرحيل والنزوح الذى يورث الهم والحزن الطويل . ونرى الشاعر

---

(١) من أكبر مدن الروم بصقليه ، وأعظمها خصبا ، افتتحها المسلمون أيام بنى الأغلب سنة ٢٤٤ هـ وأخذوا منها غنائم كثيرة ، واستوطنوها لمناعتها / الروض المعطار : (قصريانه) .

(٢) اسماعيل شلبى : ابن حمديس الصقلى : ١٨ .

(٣) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى ، ولد فى سرقوسه سنة ٤٤٧ هـ ، شاعر مبدع مشهور رحل الى الأندلس سنة ٤٧١ هـ ومدح المعتمد بن عباد ونادمه ، ثم انتقل الى المغرب ومدح حكامها الصنهاجيين ، وتوفى سنة ٥٢٧ هـ فى جزيرة ميورقه / انظر : الوفيات : ٣/٢١٢ ، الذخيره : ق٤ ، ج١ ، ص ٣٢٠ ، المطرب : ٥٤ .

(٤) ديوانه : ٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٥) العرمس : الناقة الشديده ، البسبس : القفر . الصحاح (عرمس) ، (بسس) .

بعد ذلك يضيق بحزنه المكظوم فيطلق عبرته دون تحرج :-

أعاذل دعنى أطلق العبرة التى * عدمت لها من أجمل الصبر حابسا .
فانى امرؤ آوى الى الشجن الذى * وجدت له فى حبة القلب ناخسا (١) .
لقدرت أرضى أن تعود لقومها * فساءت ظنونى ثم أصبحت يائسا .
وعزيت فيها النفس لما رأيتها * تكابد داء قاتل السم ناحسا .
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت * مساجدها أيدى النصارى كنائسا .
اذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت * مع الصبح والامساء فيها النواقسا .

ان الشاعر يطلق عبراته وزفراته قوية يغذيها قلبه الذى أصبح ديدنه النبض بالشجن والألم ، عندما رأى موطنه يهوى تحت ضربات الأعداء ويذهب الى غير رجعه ، وينقطع كل أمل فى عودته اليه بعد أن سامه النصارى المسخ وحولوا مساجده الشامخه الى كنائس ينبعث منها رنين الأجراس . الذى ينزل على نفس الشاعر سما ناقعا . ثم يأخذ فى وصف ماآلت اليه صقليه بعد السقوط مقارنا ذلك بما كانت عليه أيام المسلمين الأقوياء ومن خلال ذلك تبدو المفارقه المرعبة المبكيه :

صقلية كاد الزمان بلادها * وكانت على أهل الزمان محارسا .
فكم أعين بالخوف أمست سواهرا * وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا .
أرى بلدى قد سامه الروم ذلة * وكان بقومى عزة متقاعسا .
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه * فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا .

---

(١) النخس : الوخز ، ومنه نخس الدابه اذا غرز جنبها بعود أو نحوه . / اللسان (نخس) .

عدمت أسودا منهم عربية * ترى بين أيديها العلوج فرائسا .

فلم ترعيني مثلهم في كتيبة * مضارب أبطال الحروب مداعسا .

ويارب براق النصال تخاله * من النقع ليلا مشرق الشهب دامسا .

وماخلت أن النار يبرد حرها * على سعف لاقته في القيظ يابسا .

أما ملئت غزوا قلورية بهم (١) * وأردوا بطاريقا بها وأشاوسا .

هم فتحوا أغلاقها بسيوفهم * وهم تركوا الأنوار فيها حنادسا .

وساقوا بأيدي السبي بيضا حواسرا تخال عليهن الشعور برانسا .

يخوضون بحرا كل حين اليهم * ببحر يكون الموج فيه فوارسا .

وحربية ترمي بمحرق نفطها * فيغشى سعوط الموت فيها المعاطسا .

تراهن في حمر اللبود وصفرها * كمثل بنات الزنج زفت عرائسا .

اذا عثنت فيها التنانير خلتها * تفتح للبركان عنها منافسا .

لقد كانت صقليه أيام عزها الغابر تحرس بأيدي المسلمين الأبطال الذين طالما داسوا بلاد الكفار وخضبوا سيوفهم من دماء كماتهم في البر والبحر ، فنرى الشاعر يطيل تذكر تلك الأيام ويكرر - بلذه - كلمة (كان) الداله على الماضي ، أما حال الجزيرة بعد أولئك الحماه فقد انقلب الى ضيعة وهوان يقول :

أفي قصر بني رقعة (٢) يعمرونها * ورسم من الاسلام أصبح دارسا .

ومن عجب أن الشياطين صيرت * بروج النجوم المحرقات مجالسا .

---

(١) مدينة بجزيرة صقليه ، كان يتحصن بها الروم لمناعتها ، وقد احتلها المسلمون بعد حملة قويه بقيادة ابراهيم بن الأغلب حاكم القيروان . / الروض المعطار : (قلوريه) .

(٢) هي قصريانه التي تقدم ذكرها .

وأضحت لهم سرقوسة دار منعة * يزورون بالديرين فيها النواوسا .

مشوا في بلاد أهلها تحت أرضها * وما مارسوا منهم أبيا ممارسا .

ولو شققت تلك القبور لأ نهضت * اليهم من الأجداث أسد عوابسا .

ولكن رأيت الفيل ان غاب ليثه * تبختر في أرجائه الذئب مائسا .

وهنا يتعجب الشاعر من فعل الزمان ، وتلونه بعد أن أقصى ظل الاسلام من الجزيره ، وسكنت شياطين الكفرة بالبروج التى كانت تقذفهم بالنار المحرقه فيما مضى ، وقد استباحوا - أيضا - مدينة سرقوسه مسقط رأس الشاعر ، واستأسد فيها الكلاب بعد غياب ليوثها .

وله فى بكائها من قصيدة أخرى :- (١)

ذكرت صقلية والأسى * يهيج للنفس تذكارها .

ومنزلة للتصابى خلت * وكان بنو الظرف عمارها .

فان كنت أخرجت من جنة * فانى أحدث أخبارها .

ولولا ملوحة ماء البكا * حسبت دموعى أنهارها .

ضحكت ابن عشرين من صبوة * بكيت ابن ستين أوزارها .

وهو فى هذه الأبيات يتذكر أيام شبابه التى قضاها مع أترابه فى موطنه الذى يمثل جنته التى أخرج منها ، لذا نراه يذرف الدمع بمراره كلما هاجته الذكرى ، وهزه الشوق . وأسلوب الشاعر فى رثائه قوى رصين مع ميل الى الصنعة والمحسنات ، وتبدو عنده قوة العبارة عند ما يصف أفعال أسلافه الأبطال مجدا ومخلدا ، ولعل نشأته الأولى فى صقليه حيث الحروب التى ربما اشترك فى بعضها صقلت موهبته واكسبتها شيئا من اللحن الحماسي ، أما معانيه فليس فيها جديد ، الا أن عاطفته الجياشه ، هى محور جودة رثائه .

---

(١) ديوانه : ١٨٣ ، أعمال الأعلام : ٣/ ٧٣ .

رثاء القيروان (١) :-

بنى عقبة بن نافع - رضى الله عنه - مدينة القيروان عند فتحه لأفريقيا فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وذلك ليتخذها مركزا للرباط والجهاد فى سبيل الله . وتوالى عليها الأمراء من قبل الدولة الأموية أمثال حسان بن النعمان ، وموسى بن نصير ، وعبيد الله بن الحباحب الذين عربوا دواوينها ، وأنشأوا فيها دارا لبناء السفن . وعندما انتقلت الخلافة الى العباسيين تبعتهم افريقيا اسميا ، حيث استطاع بنو الأغلب أن يؤسسوا فيها دولة قوية جعلوا القيروان عاصمة لها الى أن بسط الفاطميون سلطانهم على المغرب - كما أوضحناه سابقا - وعندما استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا اليها ، وضعوا على المغرب ولاة من البربر الصنهاجيين (٢) وأولهم يوسف بن بلكين الذى صرف همه الى توسيع رقعة دولته وتقويتها الى أن توفى ، وخلفه ولده باديس الذى سار على دربه ولكن عهده كان مشحونا بثورات البربر المتكرره بقيادة عمه حماد الذى كان ينازعه السلطان (٣) ، وظل الأمر كذلك الى أن توفى باديس سنة ست وأربعمائه وجاء بعده ولده المعز

---

(١) قاعدة بلاد أفريقيا ، وأم مدائنها ، عظيمة القدر ، كثيرة السكان والأموال يغلب على أهلها الصلاح والتفنن فى العلوم ، وفيها جامع عقبة المشهور بروعة بنائه ، واجتماع العلماء والطلاب فى فنائه ، وقد تم بناء القيروان سنة ٥٥ هـ / انظر : الروض المعطار (القيروان) ، - معجم مااستعجم : فصل القاف والياء .

(٢) أبو القاسم كرو ، عصر القيروان : ٢١ .

(٣) عبد الرحمن ياغي ، حياة القيروان : ٤٨ .

الذى استطاع أن يخمد الثورات ويزيل الخلافات ، وكانت ولايته فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله الذى سير للمعز الهدايا والخلع ولقبه بشرف الدوله ، ولكن المعز كان يكره مذهب الشيعه فأخذ يفكر فى الاستقلال عنهم وقطع دعوتهم فى افريقيا ، فتخلى عن نصرة الشيعة فى الثورة التى قامت ضدهم سنة خمس وثلاثين وأربعمائه وذبح منهم فيها أعداد كبيرة (١) ، الأمر الذى أثار حفيظة الخلافة الفاطمية فأرسل الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للمعز تهديدا وتوبيخا ، فما كان من المعز الا أن جاهر بخلع ولائه لهم وصرح بعدائهم ، ودعا للخليفة العباسى الذى وافاه بالتقليد والاعتراف باستقلاله فى افريقيا سنة أربعين وأربعمائه (٢) . وكانت الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت قد بلغت من الضعف حدا جعلها تقف عاجزه عن بعث قوة عسكريه لمحاربة المعز فلجأ وزيرهم (اليازورى) الى الانتقام بواسطة الأعراب الذين كانوا يقطنون صعيد مصر ، فساعدهم بالأموال ، وجعل لهم جميع مايستولون عليه من الغنائم فانتشرت جموعهم فى البلاد كالجراد تسلب وتنهب كل ماتقدر عليه . ولم يعبأ بهم المعز فى بداية الأمر وقرب زعيمهم (مؤنس الرياحى) الذى أخلص الطاعة والنصح ، فعندما طلب منه المعز أن يدعو قومه ليتخذ منهم بطانة رفض ذلك موضحا عدم صلاحيتهم ، وقلة وفائهم ، فاعتبر المعز ذلك منه احتكارا للسيادة والقربى دونهم ، فرضخ لطلب المعز ودعاهم فعاثوا فى الأرض فسادا ، فطلب اليه اخراجهم فاعتذر بعدم قدرته ، فعاقبه المعز بحبس أرزاقه وأهله ، فكان ذلك سببا للزحفة الماحقة سنة أربع وأربعين وأربعمائه (٣) حيث انكسر جيش المعز كسرة شنيعة ، وحاول أن يصالحهم ويزوج بناته من بعض أمرائهم ، ولكن ذلك لم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ٩/٢٥٦ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٣/٧٣ - ٧٤ .

(٣) محمد المرزوقى ، أبو الحسن الحصرى القيروانى : ١٢ .

يجد معهم نفعا فزحفت جموعهم الهائله على القيروان وخربوها تخريبا هائلا ، ودكوا حصونها وطمسوا معالمها ، فتشتت أهلها شرقا وغربا وتركوا مدينتهم نهبا للفوضى والخراب ، فلم يبق فيها دار الا دخلت عندئذ نادى المعز بالرحيل الى المهدية (١) ومكث فيها الى أن توفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائه . ولقد كانت القيروان أيام المعز فى أوج عزها العلمى والأدبى حيث كان هو شاعرا كبيرا ، وكان بلاطه عامرا بأهل الشعر والأدب بالاضافة الى العلوم الشرعية وغيرها ولقد صور شعراء القيروان نكبة بلادهم أروع تصوير وخلدوها بقصائد لا تبليها الأيام ومن ذلك قول ابن رشيق القيروانى (٢) يبكى ذوى الفضل من أهلها (٣) :-

كم كان فيها من كرام سادة * بيض الوجوه شوامخ الايمان .
متعاونين على الديانة والتقى * لله فى الاسرار والاعلان .
ومهذب جم الفضائل باذل * لنواله ولعرضه صوان .

---

(١) مدينة بساحل افريقيه بناها عبيد الله الشيعى الملقب بالمهدى سنة ٣٠٠هـ فسميت المهديه نسبة اليه . وبينها وبين القيروان ٦٠ ميلا ويحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ومدخلها من جهة الغرب ، وهو محط سفن المشرق والأندلس . / الروض المعطار (المهديه) .

(٢) هو أبو على ، الحسن بن رشيق القيروانى ، كان أبوه من موالى الأزد ، وولد الحسن فى المسيله سنة ٣٩٠هـ ، فلما نبغ فى الشعر والأدب رحل الى القيروان قبلة الطلاب والتقى فيها بالعلماء والفصحاء . ثم غادرها الى المهدية ثم الى صقليه حيث توفى هناك سنة ٤٦٣هـ . ومن آثاره الهامه ، كتاب العمدة ، قراضة الذهب ، الشذوذ فى اللغة وغير ذلك . انظر / الوفيات : ٢/ ٨٥ ، العمدة : ١/ ١٠ .

(٣) القصيدة فى ديوانه : ٢٠٤ - ٢١٢ ، مختارات من الشعر الأندلسى : ٢١١ - ٢١٣ .

وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا * سنن الحديث ومشكل القرآن .

علماء ان سألتهم كشفوا العمى * بفقاهة وفصاحة وبيان .

واذا الأمور استبهمت واستغلقت أبوابها وتنازع الخصمان .

حلوا غوامض كل أمر مشكل * بدليل حق واضح البرهان .

واذا دجا الليل البهيم رأيتهم * متبتلين تبتل الرهبان .

فى جنة الفردوس أكرم منزل * بين الحسان الحور والغلمان .

تجروا بها الفردوس من أرباحهم * نعم التجارة طاعة الرحمان .

وترى جبابرة الملوك لديهم * خضع الرقاب نواكس الأذقان .

لا يستطيعون الكلام مهابة * الا اشارة أعين وبنان .

خافوا الاله فخافهم كل الورى * حتى ضراء الأسد فى الغيلان .

تنسيك هيبتهم شماخة كل ذى * ملك وهيبة كل ذى سلطان .

أحلامهم تزن الجبال وفضلهم * كالشمس لا تخفى بكل مكان .

كانت تعد القيروان بهم اذا * عد المنابر زهرة البلدان .

وزهت على مصر وحق لها كما * تزهو بهم وغدت على بغدان .

يتأسف ابن رشيق على القمم الشامخه من العلماء الكرام الذين كانت تزخر بهم القيروان ثم بادوا بعد أن دمرت ، وهو لا يصرف همه بطول التأسف والتحسر بل يقوم برسم صورة واضحة مشرقه لأولئك الأبرار تشكل فى مجموعها المثالية المطلقه التى يمكن أن يصل اليها البشر . فهم قد جمعوا جل الفضائل بعلمهم القرآن والحديث مع الخوض فى مسائل الفقه والبيان . بحيث كانوا النور الذى يستضوء به الناس فيما أشكل عليهم ، وبالاضافة الى هذا العلم كانوا على جانب عظيم من التقوى والورع والعباده فأسبغ الله عليهم الهيبة والوقار التى لا تذكر معها هيبة ملك أو سلطان ، فحق للقيروان أن تفخر بهذا الذخر العظيم وأن تتيه به على أشهر مراكز العلم آنذاك بغداد ومصر .

والملاحظ على شعر ابن رشيق فى وصف هؤلاء العلماء ، الاحتواء على المعانى القرآنيه السامية التى تحث على العلم وتمتدح أهله وتحث أيضا على العبادة والتقى وارخاص النفس فى سبيل الله .

ثم ينتقل الى وصف الخراب والفتك الذى أصاب المدينة على يد الأعراب فيقول :-

حسنت فلما أن تكامل حسنها * وسما اليها كل طرف ران .
وتجمعت فيها الفضائل كلها * وغدت محل الأمن والايمان .
(١)
نظرت لها الأيام نظرة كاشح * ترنو بنظرة كاشح معيان .
حتى اذا الأقدار حم وقوعها * ودنا القضاء لمدة وأوان .
(٢)
أهدت لها فتنا كليل مظلم * واراد ها كالناطح العيدان .
(٣)
بمصائب من فادع وأشائب * ممن تجمع من بنى دهمان .
فتكوا بأمة أحمد أتراهم * أمنوا عقاب الله فى رمضان .
نقضوا العهود المبرمات وأخفروا * ذمم الاله ولم يفوا بضمان .
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا * سبى الحريم وكشفة النسوان .
ساموهم سوء العذاب وأظهروا * متعسفين كوا من الأضغان .

ان هذه المدينه لما بلغت أوجها وغدت محط الأنظار والآمال رمتها الأيام بقوارعها وفتنها المظلمة فما بعد الارتفاع الا الهبوط ، وكان ذلك على يد أولئك الفاتكين المتوحشين الذين لا يعرفون عهدا ولا ميثاقا ، ولا يحترمون جوارا ، ولا يرحمون ضعاف المسلمين ، ونساءهم اللواتى أخذن أسيرات .

---

(١) الكاشح : الذى يضمر العداوه . الصحاح (كشح) ، معيان : يصيب بعينه وهنا للمبالغة فى الضرر .

(٢) الناطح : الخطب الشديد ، العيدان : طوال النخل ./ الصحاح : (نطح) ، (عود) .

(٣) بنو دهمان : قصد بهم الأعراب وهم قبائل هلال ، ورياح وزغبه وغيرهم .

وتشتد عاطفة الحزن عند الشاعر عند ما يتحدث عما نال أهل القيروان من الأذى قائلا :-

والمسلمون مقسمون تنالهم * أيدى العصاة بذلة وهوان .

مابين مضطر وبين معذب * ومقتل ظلما وآخر عان .

يستصرخون فلايغاث صريخهم * حتى اذا سئموا من الارنان . (١)

خرجوا حفاة عائذين بربهم * من خوفهم ومصائب الألوان .

هربوا بكل وليدة وفطيمة * وبكل أرملة وكل حصان .

وبعد هذه الصورة الحيه النابضة بالحزن والأسى ، والتى نرى من خلالها مسلمى القيروان وقد سيموا الذل فهم بين معذب حائر أسير يصرخ مستغيثا فلا يجاب وبين قتيل ذهب ضحية الظلم والبغى .

كما نشاهد فى الصورة تلك الفئه التى خرجت هائمه تحمل معها الأطفال الصغار والنساء خوفا من العار والبلاء . وهذه الصورة المجسمة هى أجود مافى قصيدة ابن رشيق على طولها ، وبعدها ينتقل الى رثاء المسجد الجامع وهو من أبرز معالم القيروان :-

والمسجد المعمور جامع عقبة * خرب المعاطن مظلم الأركان .

قفر فما تغشاه بعد جماعة * لصلاة خمس لا ، ولا لأذان .

بيت به عبد الاله وبطلت * بعد الغلو عبادة الأوثان .

بيت بوحى الله كان بناؤه * نعم البنا والمبتنى والبانى .

---

(١) الارنان : الصراخ ، ورفع الصوت . الصحاح (رنن) .

ثم يبين قيمة مدينة القيروان بالنسبة للعالم الاسلامي كله من خلال ذكر ما أصاب الأقطار من الأسف والنكد والتزعزع لأجلها :

أعظم بتلك مصيبة ماتنجلي * حسراتها أو ينقضي الملوان . (١)

لو أن ثهلانا أصيب بعشرها * لتدكدكت منها ذرا ثهلان . (٢)

حزنت لها كور العراق بأسرها * وقرى الشام ومصر والخرسان .

وتزعزعت لمصابها وتنكدت * أسفا بلاد الهند والسندان .

وعفا من الأقطار بعد خلائها * مابين أندلس الى حلوان .(٣)

وأرى النجوم طلعن غير زواهر * فى أفقهن وأظلم القمران .

والأرض من وله بها قد أصبحت * بعد القرار شديدة الميلان .

وفى ختام القصيدة للشاعر رجاء مشوب بكثير من التوجس بأن يرجع عهد القيروان الزاهر ، وترجع اليها بشاشتها التى سلبتها الأيام الكاشحه .

أترى الليالي بعد ماصنعت بنا * تقضي لنا بتواصل وتدان ؟

وتعيد أرض القيروان كعهدها * فيما مضى من سالف الأزمان .

من بعد ماسلبت نضائر حسنها الـ أيام واختلفت بها فتتان .

وغدت كأن لم تغن قط ولم تكن * حرما عزيز النصر غير مهان .

أمست وقد لعب الزمان بأهلها * وتقطعت بهم عرا الأقران .

فتفرقوا أيدى سبا وتشتتوا * بعد اجتماعهم على الأوطان .

---

(١) الملوان : الليل والنهار / أساس البلاغه (ملو) .

(٢) ثهلان : جبل فى اليمن ، يضرب به المثل فى الثقل ./ المصدر نفسه (ثهلان) .

(٣) حلوان : مدينة سهلية جبلية على سفح الجبل المطل على العراق . / الروض المعطار (حلوان) .

أما أسلوب القصيدة فتغلب عليه السهوله فى الألفاظ والمعانى الى درجة تقربه من النثر فى كثير من المواضع ، والقصيدة تظهر مايتمتع به صاحبها من نفس طويل ، وشاعرية فذه ، وقد ركز رثاءه ، وبكاءه على أهلها مطنبا فى مدحهم ، ثم مبينا حالهم بعد أن فتك بهم الأعراب . أما المدينة ذاتها ومانالها من دمار فلم يفصله الا ماكان من أمر المسجد الجامع الذى لفّه سكون الموت بعد ذهاب عماره . غير أنه أجاد فى وصف وقع خرابها لا على بقاع العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب فحسب بل على النجوم التى لم تعد تزهر وتلمع، وعلى والقمرين اللذين انكسف ضياؤهما حزنا وغما ، أما الأرض فهى مضطربه مائده . وهذا العطف الرومنسى من جانب الكواكب ،والطبيعه على تلك المدينه البائسه يدل على مدى الحزن العميق الذى شف نفس الشاعر فجعله يتخيل مشاركة كل شئ له فى آلامه التى لا نهاية لها .

وممن رثى القيروان - وأطال فى ذلك - شاعرها ابن شرف القيرواني (١) اذ يقول فى اذلال أهل سوسه (٢) جالية القيروان (٣) :-

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامى القيروانى . شاعر رقيق ، وكاتب مترسل ، وناقد بارع . ولد بالقيروان سنة ٣٩٠ وتعلم فيها علوم المعقول والمنقول حتى برع . ألحقه المعز بن باديس حاكم القيروان بديوانه وخاصته ثم رحل الى الأندلس عند خراب القيروان حيث توفى باشبيليه سنة ٤٦١هـ وكانت بينه وبين ابن رشيق منافسه ومهاجاه . انظر : الخريده : ق ٤ ، ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ ، كرد على ، رسائل البلغاء : ٣٠٢ ، المطرب : ٦٦ ، فوات الوفيات : ٢/ ٢٠٤ .

(٢) مدينة قديمه على ساحل البحر ، كثيرة السكان والمساجد ، عامرة الأسواق وتشتهر بصناعة الثياب الرقيقه التى تنسب اليها . ويحيط بها سور حصين ، ومنها تحرك أسد بن الفرات لغزو صقليه ./ الروض المعطار (سوسه) .

(٣) الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

آه للقيروان أنة شجـــو * عن فؤاد بجاحم الحـزن يصلى .
حين عادت به الديار قبورا * بل أقتول الديار منهن أخلـى .
ثم لا شمعة سوى أنجم تخـ * ـبو على أفقها نواعس كسلى .
بعد زهر الشماع توقد وقدا * وهتان الذبال تفتل فتـلا .
والوجوه الحسان أشرق منهن * ن ويفضلنهن معنى وشكـلا .
لو رأيت الذين كان لهم سهـ * ـلك وعرا قد صيروا الوعر سهـلا .

يطلق ابن شرف زفراته الحزينه المعبره عما فى قلبه المعذب من الألـم المبرح نتيجة ماحل بأحبابه من البأس فهلك من هلك وتشرد الباقون فـى الأرض حتى عادت منازلهم منهم خلاء هى أشبه بالمقابر التى يخيم عليها شبـح الموت المظلم . ثم ينتقل الى مشهد آخر يرسم صورة رحيل أهل البلاد عنهـا فيقـول :-

بعد يوم كأنما حشـر الخلـ × * ق حفاة به عوارى رجلـى .
ولهم زحمة هنا لك تحكـــى * زحمة الحشر والصحائف تتلى .
وعجيج وضجة كعجيـج الـ * خلق يبكون والسرائر تبلـى .
من أيامى وراءهن يتامــى * ملئوا حسرة وشجوا وثكـلا .
وثكالى أراملا حامــلات * طفلة تحمل الرضاع وطفـلا .
وحصان كأنها الشمس حسـنا * كفنتها الأطمار نجلاء كحـلا .
بات كرسيها الجـلاء فأضحت * فى ثياب الجلاء للناس تجـلى .
جار فيهم زمانهم وأولـو الأمـ * ـر ففروا يرجون فى الأرض عدلا .
تركوا الربح والأثاث ومايثـ * ـقل لا حامل من الناس ثقـلا .
لبسوا الباليات من خشن الصـو * ف وعاد النبيه فى الناس غفـلا .
نادبات ، عفراء تسعد سعـدى * وسعاد تجيب بالنوح جمـلا .
ليس منهن من يودع جـارا * لا ، ولا حرمة تشيع أهـلا .

انها صورة رهيبة قوامها الحس والحركه والتجسيم الملون لتفاصيل المشهد الذى يشبهه الشاعر بمشهد الحشر يوم القيامة مستعينا بمعانى الآيات القرآنية ، والأحاديث النبويه الوارده فى أهوال ذلك اليوم . فالقوم حفاة عراة ، خرجوا من بلادهم هائمين على وجوههم ، قد غصت بهم الطرق والمسالك ، وكأنهم فى زحمة الحشر عند انتشار صحف الأعمال ، وقد اختلط ضجيجهم بالبكاء والنوح المنبعث من الثكالى واليتامى الذين مزقهم الحزن وملأت قلوبهم الحسرة فلم يعودوا يهتدون سبيلا ، ومن المحصنات اللواتى كشفن للعيان بعد الحجاب والستر .

ويلتقى الشاعر تبعة ماحصل لهؤلاء الناس من الذل والهوان على الزمان وعلى الحكام الظلمه الذين من جورهم هرب الناس من بلادهم رجاء أن يصيبوا عدلا فى أرض أخرى . وفى سبيل ذلك تركوا العيش الرغيد لاختلاطه بالمرارة والقهر ، ولبسوا البالى ، وسيطر عليهم الذهول ، فلا جار يودع جاره ، ولا امرأة تعرف أهلها ، ولكن هل وصل هؤلاء المهاجرون الى بر الأمان الذى ينشدونه ؟ كلا فلقد عرض لهم الأعراب ونهبوهم ، ومزقوهم كل ممزق ، والى ذلك يشير قائلا :-

فاذا القفر ضمهم فوق الدهـ * ـر لهم غير ذلك النبل نبلا .[(1)]

من ثعابين حاطين نيوبا * عصلا : ذابلا ونبلا ونصلا .

وشياطين رامحين يلاقو * ن بجون الفلا مساكين عزلا .

فترى للظهور تعتل عتلا * وتشق البطون تغسل غسلا .

فاذا مطمع أصابوه فى أحـ * ـشاء قوم عموا بذلك كسلا .

---

(١) الفوق : موضع الوتر من السهم ، وأفقت السهم ، أى وضعت فوقه فى الوتر لأرمى به انظر الصحاح (فوق) .

ان ابن شرف قد تفاعل مع هذه الصور - التى يرسمها بمهارة - تفاعلا حيويا نتج عن تجربة صادقة مرّ بها وعاشها فلقد كان بين المشردين الذين هجروا وطنهم (القيروان) واتجه الى الأندلس ، لذلك نراه يصدر عن عاطفة جياشه تلون شعره بالحزن والشحوب . فبعد أن عدت تلك الثعابين والشياطين على المساكين العزّل ، وضرستهم بأنيابها وشقت بطونهم بحثا عن المغانم المخبأة فيها . بعد هذا يعود ليبين حال من بقى حيا يتجرع غصص المذلة أينما اتجه فيقول :

فاذا نجت المقادير منهم * راحلا بالخلاص يحمل رحلا .
لقى الهون فى المذلة أنى * كان من سائر البلاد وحلا .
ليس يلقى الا امرأ مستطيلا * طالبا عنده حقودا وذحلا (١) .
فترى أشرف البرية نفسا * ناكسا رأسه يلاطف نذلا .
فهم كلما نبت بهم أر * ض مطايا الفراق خيلا ورجلا .
مزقوا فى البلاد شرقا وغربا * يسكبون الدموع هطلا ووبلا .
لا يلاقى النسيب منهم نسيبا * يتعزى به ولا الخل خلا .
ليت شعرى هل عودة لى فى الغيب الى ماأطال شجوى أم لا ؟

والشاعر هنا يتحدث عن مرارة الاغتراب التى ذاقها مع غيره من الناس ، فهو يشعر بالقلق الدائم والتوجس من الناس الذين لا يرى فيهم الا أعداء حاقدين يطلبون ثأرهم ، عند أولئك الغرباء ومن ثم اضطر الغرباء أولو الشرف والكرامة الى تملق الأنذال والتلطف اليهم فى سبيل العيش معهم ، بعد

---

(١) الذحل : الثأر . اللسان (ذحل) .

أن تمزق شملهم شرقا وغربا . أما تمنى الشاعر فى البيت الأخير فلم يتحقق فقد ظل يقاسى آلام الغربة حتى مات بعيدا عن وطنه .

وفى قصيدته الثانيه يصف خلاء القيروان وايحاشها فيقول (١) :-

كأن الديار الخاليات عرائس * كواسد قد أزرت بهن الضرائر .

اذا أقبل الليل البهيم تمكنت * بها وحشة منها القلوب نوافر .

ولا سرج الا النجوم وربما * تغطت فسدت جانبيها الدياجر .

ويمتد عمر الصوت فيها وربما * تجوب مرارا بالكلام المقابر .

فلو نطقت ماكان أكثر نطقها * سوى قولها أين الخليط المعاشر .

ألا منزل فيه أنيس مخالط * ألا منزل فيه أنيس مجاور .

لقد كانت نكبة القيروان عامة طامّة ، فانطفأت بخرابها وهدمها مصابيح حضارتها الزاهره وتغيرت صورتها المشرقه فغدت أطلالا موحشه تنفر منها القلوب لظلمتها ، وتتجاوب فى نواحيها الأصداء وتعوى بها الرياح حيث لا ساكن ولا أنيس . ولكن ياترى ماسبب هذا البلاء الذى حلّ بهذه المدينه ؟ هذا مايتساءل عنه الشاعر :

ترى سيئات القيروان تعاظمت * فجلت عن الغفران والله غافر ؟

تراها أصيبت بالكبائر وحدها * ألم تك قدما فى البلاد الكبائر ؟

هل كان سبب محنتها ذنوبها الكثيرة التى لم يتجاوز عنها الله -سبحانه-؟ ثم لماذا أصيبت وحدها بالمحن بالرغم من وقوع الكبائر والأوزار فى غيرها من البلدان الكثيرة ، ولعل هذا الاستفهام الذى خرج الى التعجب من قدر الله قادت اليه عاطفة الحزن الشديده التى لم يستطع الشاعر ضبطها ، والا ليس

---

(١) القصيده فى الذخيره : ق٤ ، ج١ ، ص ٢٣٥ .

لأحد أن يعترض على حكم الله فالله الخلق والأمر يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء . ثم يعود الشاعر لوصف حال أهل القيروان ومالاقوه من المشاق فى رحيلهم على نحو مافعل فى القصيدة السابقه :-

ترحّل عنها قاطنوها فلا ترى * سوى سائر أو قاطن وهو سائر .
تكشفت الأستار عنهم وربما * أقيمت ستور دونهم وستائر .
اذا جاذبت أستارها تبتغى بها * لاقدامها سترا تبدت غدائر .
تبيت على فرش الحصى وغطاؤها * دوارس أسمال زوار حقائر .

ثم يتمنى أن يعود الى مدينته التى قضى فيها ليالى السرور أيام اجتماع الشمل : (١)

فياليت شعر القيروان مواطنى * أعائدة فيها الليالى القصائر ؟
ويار وحتى بالقيروان وبكرتى * أراجعة روحاتنا والبواكر ؟
كأن لم تكن أيامنا منك طلقة * وأوجه أيام السرور سوافر .
كأن لم يكن كل ولا كان بعضه * سيمضى به عصر ويمضى المعاصر .

ويزداد الشوق عند ابن شرف لرؤية موطنه القيروان ، وتهيجه الذكريات فيطلق آهاته من بعيد من وراء البحر ، ويود لو كان طائرا لكى يطيل التحليق فى سمائها متأملا يقول :- (٢)

ياقيروان وددت أنى طائر * فأراك رؤية باحث متأمل .
آها وأية آهة تشفى جوى * قلب بنيران الصبابة مصطلى .
أبدت مفاتيح الخطوب عجائبا * كانت كوامن تحت غيب مقفل .
زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى * بذراك يصرخ كالحزين المثكل .

---

(١) هكذا جاء البيت فى المصدر السابق ص ٢٣٥ ولعل الصواب : فياليت شعرى ....

(٢) المصدر السابق : ١٨١ - ١٨٢ . ، ص ٢٣٣ .

ان الشاعر مهما بعد وطالت غربته ، ومهما لقى من الاحسان والتقدير فانه لن ينسى وطنه الأول يقول :

يالو شهدتم اذ رأيتك فى الكرى * كيف ارتجاع صباى بعد تكهل .

لاكثرة الاحسان تنسى حسرة * هيهات تذهب علة بتعلل .

واذا تجدد لى أخ ومنادم * جددت ذكر اخاء خل أول .

انه دائم الذكر لها والتشوق اليها ، فلما أسعده الحظ مرة برؤيتها فى المنام شعر بانتعاش وقوه وكأنه رجع الى طور الشباب بعد أن اكتهل ، وهى صورة جميلة لمدى التعلق بالوطن الذى انغرس حبه فى نفس الشاعر فمهما وجد من الخير والتكريم خارج هذا الوطن الغابر فان ذلك لا يعدو كونه تعلة وتسلية . أماكوا من الأحزان والحسرات فلم تبرح قلبه ، واذا ما اتخذ خلا جديدا فى غربته فان ذلك يذكّره باخوانه السابقين فهو بذلك يعيش فى الحاضر مستلهما ذكريات الماضى التى لا تنمحى .

وفى قصيدة أخرى يكرر الشاعر نفس الصوره وهى رؤية القيروان فى الكرى ومدى سعادته فى تلك اللحظه القصيره التى أورثته حزنا طويلا اذ حرم من رؤيتها حقيقة بسبب أولئك الأعراب الذين تملكوها يقول :- (١)

اذا كان للأحباب رسل فرسلنا * بروق الى أحبابنا ورياح .

ومن دون تلك الرسل أخضر زاخر * أجاج ومهجور الفجاج فياح .

وللسهم دون القيروان تسهم * وماشوكه الا ظبى ورماح .

وقرة قد قرت هناك عيونها * وزغبة ريشت زغبها ورياح . (٢)

---

(١) الذخيره : ق٤ ، ج ١ ، ص ١٨٤ . ، ص ٢٣٦ .

(٢) قره وزغبه ورياح هى قبائل الأعراب التى تولت خراب القيروان .

كأن لم يكن لى أمس فى عرصاتها * من العيش جد طيب ومزاح .
يخيلها زور الكرى لى فى الدجى * فأرغب فى ألا يلوح صباح .
كسيت قناع الشيب قبل أوانه * وجسمى طيه للشباب وشاح .

ان الشاعر هنا يستشعر الغربة والبعد المكانى بينه وبين أحبابه من أهل القيروان حيث بينهما البحار والقفار ، لذا فهو يزجى تحياته لهم فى طيات الرياح ولمعان البروق . كما أنه لاينسى البعد النفسى الذى يمنعه من الرجوع الى بلده ، وهو أولئك الأعراب الذين زرعوا أرض القيروان شوكا وخناجر ودماء .

وبعد فمن جملة هذه القصائد الرثائية يتضح لنا أسلوب الشاعر الذى تميز بالوضوح ودقة التصوير مع البعد عن التكلف ، فقد جاء رثاؤه نابعا من قرارة نفسه ووجدانه ، ولعب احساسه الواقعى بالمأساة دورا بارزا فى جيشان عاطفته والهابها فترجم ذلك الحزن والألم الى صور شعرية نابضة بالحركة تتحلى بالخيال أحيانا . ولعله فى هذا الجانب فاق زميله ومعاصره ابن رشيق القيروانى فى رثائه المتقدم . ومن ناحية أخرى فان شعر ابن شرف فى رثاء القيروان قد خلا تماما من الألفاظ والمعانى الحماسيه ومن الاستصراخ وطلب النجدة لانقاذ البلاد . فقد كان تفاعله مع النكبة ذاتيا فى حدود نفسه فتفنن فى استعمال معجم ألفاظ الحزن ، فنجد التأوه والزفرات الحاره ، والحسرات المؤلمه ، والقلب الذى اصطلى بنار الشوق والبعد ...... الخ . ولعل الشاعر سلك هذا السبيل لأنه لم يجد من يستنصره ، فقد كان يعيش فى الأندلس فى عصر ملوك الطوائف حيث الفوضى والصراع الداخلى بينهم ، والخارجى مع النصارى على أشده وكانوا جميعا أضعف من أن تمد اليهم الأيدى أو يرجى منهم خير . والخلافة العباسية قد

دب فيها الضعف بالاضافة الى بعد الشقة ، ووقوف الدولة الفاطمية في مصر حائلا بينها وبين القيروان .

ولأبى الحسن الحصرى (١) قصيدة فى رثاء القيروان وأهلها يقول فيها (٢) :-

موت الكرام حياة فى مواطنهم * فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا .

ياأهل ودى لا والله ماانتكثت * عندى عهود ولا ضاقت مودات .

لئن بعدتم وحال البحر دونكم * لبين أرواحنا فى النوم زورات .

مانمت الا لكى ألقى خيالكم * وأين من نازح الأوطان نومات . ؟

اذا اعتللنا تعللنا بذكركم * لو أحسنت برء علات تعلات .

ماذا على الريح لو أهدت تحيتها اليكم مثل ماتهدى التحيات . ؟

يفتتح الحصرى قصيدته بهذا المطلع الذى يحوى حكمة من مارس تجربة الاغتراب المريره وناله فيها ماناله من الضيم والأذى ، فقد كان أحد الذين هاجروا عند خراب القيروان الى المغرب ثم الى الأندلس حيث جال فى عدد كبير من نواحيها يمتدح ويتكسب . لذا نراه يعتبر الموت الكريم فى الوطن خيرا من الغربة التى تضيع فيها الهويه وينسى ذوى الفضل . ونراه - أيضا - يؤكد على صدق مودته لأهل بلده مهما طال الزمان وبعدت الشقة ، فهو لا ينام الا لكى يلقى خيال الأحبة فى المنام وتمتزج الأرواح فيشفى ذلك مابه من العلل . والملاحظ على هذه الأبيات أنها تحمل نفس الأفكار والمعانى التى

---

(١) هو على بن عبد الغنى الفهرى الضرير المعروف بالحصرى . شاعر أديب ، رخيم الشعر ، حديد الهجو ، كان عالما بالقراءات . رحل الى الأندلس عند خراب القيروان فلقى حظوة عند ملوك الطوائف ولما زالوا استقر بطنجة ومات فيها سنة ٤٨٨ هـ وهو ابن خالة أبى اسحاق الحصرى صاحب " زهر الآداب " / انظر ترجمته : الوفيات : ٣ / ٣٣١ ، الحلة السيراء : ٢ / ٥٤ ، جذوة المقتبس : ٣١٤ .

(٢) الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

جاءت في شعر ابن شرف السابق ذكره بل ان الأمر قد يصل الى الألفاظ . ألم يقل ابن شرف " هيهات تذهب علة بتعلل " وقال الحصرى " لو أحسنت بسرء علات تعلات " ومثل هذا كثير عند تأمله . فكلاهما يبعث تحياته مع الرياح وكلاهما يرى أطياف الأحبه فى الكرى وما الى ذلك . ولعل كونهما متعاصرين والشعر قيل فى موضوع واحد هو الذى جعل الحافر يقع على الحافر ، أو ربما هو التأثر والتأثير فى موقف معين .

ثم يبكى الشاعر أسفا عندما تهيج أشجانه ذكرياته الماضيه فى القيروان :-

أصبحت فى غربتى لولا مكاتمتى * بكتنى الأرض فيها والسموات .

كأننى لم أذق بالقيروان جنى * ولم أقل ها لأحبابى ولا هاتوا .

أبعد أيامنا البيض التى سلفت * تروقنى غدوات أو عشيات . ؟

أمرّ بالبحر مرتاحا الى بلد * تموت نفسى وفيها منه حاجات .

وأسأل السفن عن أخباره طمعا * وأنثنى وبقلبى منه لوعات .

هل من رسالة حب أستعين بها * على سقامى فقد تشفى الرسالات ؟

ان الشاعر يعيش فى قلق دائم ، ويؤس مستمر فلم تعد تروقه لذائذ العيش بعد أن ولت أيامه الجميله فى بلده الأول ، وانما همه الآن أن يسمع شيئا من أخبار القيروان ، فهو يناشد السفن القادمه من تلك الديار لعلها تحمل اليه مايشفى فؤاده السقيم المعذب . ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف مدينته الخربه - أيام عزها ، فيجعلها جنة ترابها المسك ، وحصاها الجوهر ، ويشبهها بالشمس التى لا يخفى نورها على أحد ومع ذلك يصيبها الكسوف فى بعض الأوقات :-

ألا سقى الله أرض القيروان حيا * كأنه عبراتى المستهلات . (١)

---

(١) الحيا : المطر الذى يحيى الأرض ويخصبها . الصحاح : (حيا) .

فانها لدة الجنات تربتها * مسكيه وحصاها جوهريات .

الا تكن فى رباها روضة أنف (١) * فانما أوجه الأحباب روضات .

أو لا يكن نهر عذب يسيل بها * فان أنهارها أيد كريمات .

أرض أريضة (٢) أقطار مباركة * لله فيها براهين وآيات .

لا يشمتن بها الأعداء ان رزئت * ان الكسوف له فى الشمس أوقات .

ولم يزل قابض الدنيا وباسطها * فيما يشاء له محو واثبات .

وفى ختام القصيدة نرى الحصرى الغريب وقد تجسمت مأساته فأصبح ليله زفرات وأنات ونهاره حسرات يقول :-

ما ان سجا الليل الا زادنى شجنا * فأتبعت زفراتى فيه أنات .

ولا تنفست أنفا فى الرياض ضحى * الا بدت حسراتى المستكنات .

هذا ولم تشج قلبى للرباب ربى * ولا تقضته من لبنى لبانات .

وكم دعيت لبستان فجدد لى * وجدا وان كان فى معناه سلوات .

ولو ترانى اذا غنت بلابله * أشكو البلابل لو تغنى الشكيات .

انى لأظمأ والأنهار جارية * حولى وأضحى (٣) ودون الشمس دوحات .

ما أرى الموت الا باسطا يده * من قبل أن يمكن المأسور افلات .

---

(١) الروض الأنف : الذى لم يرعه أحد . المصدر نفسه (أنف) .

(٢) أرض أريضه : زكيه . اللسان (أرض) .

(٣) أضحى : أبرز للشمس . الصحاح (ضحى) .

ان حب القيروان قد سكن قلب الشاعر ، فهو لا يتكلم الا عنه ، وكلما رأى منظرا جميلا فان وجده يثور أو يضطرم صبابة اذا ماسمع غناء بلابل الدوح فيذهب ليبثها مايجد ، فلاتسمع شكايته حتى ضاقت به السبل واضطرب حاله وتأكد لديه أن الموت سيدركه قبل أن يعود الى وطنه ويروى ظمأه .

وهناك قصص مرثية القيروان لعبد الكريم بن فضال (١) القيروانى منها (٢) :-

ليت شعرى وليت حرف تمن * ربما علل الفؤاد السقيما .

كيف ياقيروان حالك لما * نثر البين سلكك المنظوما .

كنت أم البلاد شرقا وغربا * فمحا الدهر وشيك المرقوما .

نحن أبناؤها ولكن عققنا * بعد ان لم نطق بها أن نقيما .

د من كانت البروج وكنا * أقمرا فى فنائها ونجوما .

وله أيضا :- (٣)

لله منزلنا بالقيروان محا * آياتها البين لا الأيام والقدم .

شققت ثوب شبابى بعد فرقتها * حزنا عليها ولا شيب ولا هرم .

---

(١) هو أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيروانى . كان يعرف بالحلوانى .
قال فيه ابن بسام : له كلام فى النسيب رائق ، ومتأخر سابق ، ومديحه أيضا عليه طلاوة ، وبالجملة ففى ألفاظ الحلوانى حلاوة .
انظر / الذخيرة : ق٤ ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، المطرب : ٥٩ .

(٢) الدباغ : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان : ١/١٤ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣ .

ان الحزن والانكسار هو أبرز مايغلف هذه الأبيات فالشاعر يستفتح سؤاله عن القيروان بالتمنى المشرب باليأس ، لأنه على علم بحالها المتردى بعد أن كانت أم البلاد شرقا وغربا . ثم نراه يصف أبناءها بالعقوق لأنهم تمتعوا بخيراتها أيام الرخاء فلما جاءت الشدائد ودهمتها الخطوب فرّوا منها وتركوها تواجه مصيرها بمعزل عنهم ، والأبيات تنم عن عاطفة شفافة صادقة تجلت عند الشاعر بشكل حزن عميق أخلق منه شبابه وهو لا يزال بعيدا عن سن الشيخوخة والهرم .

وبعد فهذا الوفاء من شعراء القيروان لمدينتهم جعلها تحظى بهذا العدد الوافر من قصائد الرثاء التى ربما لم تحظ به غيرها من المدن والدول على مر عصور الأدب العربى . وربما كان لهذا الأمر دلالة أخرى وهى قوة الحركة الأدبية والازدهار الثقافى فى القيروان قبيل نكبتها .

رثاء مراكش (١) :-

عندما تولى يوسف بن تاشفين زمام الأمور فى الدولة المرابطيه صرف همه الى الجهاد فى سبيل الله وفتح نواحى المغرب ونشر الاسلام بين قبائل البربر فأعد لذلك جيوشا ضخمه ، قاد بعضها بنفسه ، ولم تمض بضعة أشهر حتى سيطر على معظم نواحى المغرب الجنوبيه والوسطى وعاد الى عاصمته أغمات (٢) وقد عظم أمره وذاع صيته ، وفكر عندئذ فى اقامة مدينة تكون قاعدة

---

(١) أكبر مدن المغرب الأقصى ، تقع فى سهل من الأرض ليس حولها الا جبل صغير يسمى ايجليز ، وعلى ثلاثة أميال منها نهر صغير يسمى تانسيفت ، وهى كثيرة البساتين والجنات ، وذات أسواق تجاريه ضخمه / الروض المعطار (مراكش) .

(٢) مدينة بأرض المغرب بينها وبين مراكش ثلاثون ميلا ، سكانها من البربر ، وأغمات مدينتان أحدهما تسمى أغمات وريكه والأخرى أغمات هيلانه ، فى الأولى تسكن الأعيان وتنزل التجار ، وتخترقها المياه يمينا وشمالا مماساعد فى خصوبتها وكثرة زراعاتها . وبأغمات هيلانه يسكن اليهود لمنع المرابطين اياهم من دخول مراكش / المصدر نفسه (أغمات) .

لجيوشه ومركزا لادارة حكمه فاختط سنة أربع وخمسين وأربعمائه مدينة مراكش (١) وأقيمت فيها المساجد والقصور والأبنيه وأصبحت هى عاصمة الدوله المرابطيه وقد وسّعها على بن يوسف الذى تولى الحكم بعد أبيه ، وبنى سورها العظيم سنة ست وعشرين وخمسمائه ورحل اليها العلماء والفقهاء حتى ازدان بلاط على بن يوسف بعدد وافر منهم وبقيت كذلك الى أن سقط حكم المرابطين ودخلها الموحدون سنة احدى وأربعين وخمسمائه (٢) واتخذوها عاصمة لهم - أيضا - واهتموا بشأنها واصلاحها اهتماما كبيرا جعلها تغدو درة مدن المغرب ، وأعظم قاعدة لدولة مترامية الأطراف . ثم أقام بنو مرين دولة فى فاس ، واستغلوا مرحلة الضعف التى تمر بها الدولة الموحديه فجهز أبو يوسف المرينى جيشا قويا وسار به الى مراكش والتقى بجيش الموحدين فهزمه هزيمة منكرة ، وقبض على آخر الخلفاء الموحدين وهو المعروف بأبى دبوس واحتز رأسه وعلقه على سور مدينة فاس ، ودخل مراكش سنة ثمان وستين وستمائه (٣) واستقبله أهلها وبايعوه بالطاعه فأمنهم ، وطمأنهم ومكث فيها بضعة أشهر رجع بعدها الى حاضرته فاس ، وعلى أثر ذلك بدأت أهمية مراكش تقل شيئا فشيئا وأهمل المرينيون أمرها ، فسرى اليها الخراب ،

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس : ٨٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ : ٨/٢٩٩ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين : ٢/٥٧٠ .

وغزاها الدمار ، فقد دخل اليها ابن الخطيب(١) فى هذا العهد واعتبر بما صارت اليه من الاهمال(٢) فقال يرثيها :-

بلد قد غزاها صرف الليالى * وأباح الحريم منه مبيح .
فالذى خرّ من بناه قتيل * والذى خرّ منه بعض جريح .
وكأن الذى يزور طبيب * قد تأتى له به التشريح .
أعجمت منه أربع وطلول * طال قدما بها اللسان الفصيح .
كم معان غبت بتلك المغانى * وجمال أخفاه ذاك الضريح .
وملوك تعبدوا الدهر حتى * أصبح الدهر وهو عبد صريح .
دوخوا تارج البسيطة حتى * نال ماشاء نابل وصفيح .
حين شبت لهم من البأس نار * ثم هبت لهم من النصر ريح .
أثر يندب المؤثر لما * طال بعد الدنو منه النزوح .
فقلوب النجوم تخفق وجدا * وعيون السحاب حزنا تفوح .
ساكن الدار روحها كيف يبقى * جسد بعد ما تولى الروح .

---

(١) هو ذو الوزارتين ، محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى ، الغرناطى الأندلسى ، والمشهور بلسان الدين بن الخطيب . ولد بغرناطة سنة ٧١٣هـ ونشأ بها ، وهو وزير وشاعر وأديب لا يجارى . تولى الوزارة لأبى الحجاج سلطان غرناطه ثم لابنه الغنى بالله حتى ثار عليه أخوه سنة ٧٦٠ هـ وفر ابن الخطيب الى المغرب وحدثت بعد ذلك أمور يطول ذكرها أرجع بعدها ابن الخطيب الى غرناطه ، واتهم بالزندقه ، وأفتى بعض حساده من العلماء بقتله فدس عليه فى السجن من خنقه سنة ٧٧٦ هـ ودفن بفاس . وقد خلف لنا من الآثار مايقرب من ستين كتابا .
انظر : الاحاطه فى اخبار غرناطه : ١/١٨ - ٢٥ ، عنان ، لسان الدين ابن الخطيب : ص ١٠ ومابعدها ، جذوة الاقتباس : ٢/١٨٤ ، الدرر الكامنه : ٣/٤٦٦ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام : ٣٧٦ . وانظر نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب : ٢/٣٨٠ .

ان حال مراكش جدير بالتأمل وأخذ العبرة ، فقد كانت هذه المدينة قصبة منيعة لأكبر دولتين عرفهما المغرب الاسلامى عبر تاريخه ، وكانت قبلة أنظار المهاجرين ومأوى اللاجئين تزهو برونق الملك ، وتختال فى أثواب العز المنشورة فوق بلاط المرابطين ومن بعدهم الموحدين . ولكن هذه الدنيا لا يبقى فيها شئ على حاله ، وصروف الليالى كفيلة بتحطيم أمنع الأشياء فالشاعر يقف بمراكش وسط أكوام من البناء المتهدم والمتصدع وكأنه بين قتيل وجريح . وقد لف تلك الأطلال صمت رهيب بعد أن كانت مرتعا خصبا يجول به العلماء والأدباء . ثم يرجع الشاعر بذكراته الى الوراء قليلا ليتذكر الملوك العظام الذين كانوا بهذه البلاد ، والذين خضعت لصولتهم الممالك والدول ، وان التاريخ ليسطر بحروف من نور جهاد المرابطين والموحدين ودفاعهم المجيد عن الأندلس الاسلاميه ضد ممالك الأسبان الصليبيه ومن ورائها أوربا قاطبه . ثم ذهب هؤلاء الملوك ، وطواهم الردى وثكلتهم مراكش فهى تندبهم بخفقان نجومها وتبكيهم بماء سحابها ،فهم روحها وحياتها حيث أصبحت بعد ذهاب هذه الروح جسدا مهملا متداعيا .

ومن الجدير بالذكر أننا لا نجد شعرا فى رثاء دولة المرابطين أو الموحدين على سعة بلاطهم وكثرة شعرائهم وانما هناك شعر فى رثاء بعض الحكام والخلفاء وتخليد مآثرهم . ولعل ذلك راجع لأمور سياسيه تكمن فى العداء بين الدولة الجديده والدولة الغاربة ، وحرص الأولى على طمس أى فضيلة أو ذكر للثانيه .

الفصل الثانى : شعر الاستغاثه والحث على الجهاد .

يمكننا القول ان هذا اللون من الشعر أندلسى الطابع والصبغـــــه ، اذ اننا لا نجد منه فى شعر المشرق الا خيوطا ضئيله من أهمهـــا تلــك الأبيات التى أنشدها رسول صلاح الدين الأيوبى شمس الدين بن منقــذ بين يدى الخليفة الموحدى يعقوب المنصور يستنجد به على الصليبيين ســنة سبع وثمانين وخمسمائه ، وفيها يقـول :- (١)

ساشكر بحرا ذا عباب قطعتــه * الى بحر جود مالأخراه ساحــل .
الى معدن التقوى الى كعبة الندى * الى من سمت بالذكر منه الأوائل .
اليك أمير المؤمنين ولم تـزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحـل .
قطعت اليك البر والبحر موقنـا * بأن نداك الغمر بالنجح كافـل .
وحزت بقصديك العلا فبلغتهـا * وأدنى عطاياك العلا والفواضـل .
فلازلت للعلياء والجود بانيـا * تبلغك الآمال ماأنت آمـــل .

والأبيات - كما يلاحظ - تخلو من ذكر الغرض الرئيس الذى تهدف اليـــه وهو طلب النجدة والغوث ، فقائلها جعلها قصيدة مدح خالصة للخليفـــة الموحدى الذى ينعته بأمير المؤمنين ومحط الأنظار وكعبة الآمال المتصـــف بالتقوى مع طيب نسبه وأرومتـه . وانما سلك الشاعر سبيل المدح ليشعر الممدوح بقيمته وقدرته على الاغاثه ممهدا بذلك لتسليمه رسالة السلطان صلاح الديـن المتضمنه شرح الحالة ، وموضوع الطلب وماجاء فيها (٢) " ..... ولما كـــانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين الى دار السلام أولى من توجــه

---

(١) نفح الطيب : ١/٤٤٥ .
(٢) الرسالة فى الروضتين : ٢/ ١٧١ - ١٧٢ .

اليه الاسلام بشكواه وبثه ، واستعان به على حماية نسله وحرثه وكانت مساعيه ومساعى سلفه فى الجهاد الغر المحجلة ، الكاشفة لكل معضلة ، وكل بجهاده قد سكن الا السيوف فى أغمادها ، وقد أمن الا كلمة الكفر فى بلادها .... صرخنا اليه بهذا الاستدعاء فقد تحفل السحاب ولا تمطر الى أن تحركها أيدى الرياح . وقد لقيت الرسالة قبولا من الخليفة المنصور ولكنه كان فى شغل شاغل عن تلبية النداء اذ كان يعد خطة قوية لدحر الصليبيين فى الغرب الاسلامى ، الذين اشتدت وطأتهم على الأندلس ، واجتمعوا عليها من مختلف جهات أوربا حتى كان يصفها ذلك الخليفة باليتيمة وأهلها بالأيتام (١) . وعندما أكمل المنصور استعداداته جاز الى الأندلس والتحم مع النصارى فى معركة " الأرك " المشهورة التى ذكرناها فى الفصل السابق ، والتى أمدت فى عمر الأندلس وعمر دولة الموحدين مايقرب من قرن من الزمان .

أما فى الأندلس فقد ترعرع هذا الفن ، وأصبح من الأغراض الشعرية الثابتة التى فجرت ينابيعه النكبات المتلاحقة بدءا بسقوط الخلافة الأموية والى آخر عهد الأندلس الاسلامى ، فالمعارك الخارجية والفتن الداخلية ظلت مستمرة الأوار طيلة هذه الفترة الطويلة ، وقد كانت صبغة حرب النصارى للاسلام تتخذ السمة الدينية الكنسية للقضاء عليه ، ومحو آثاره الساطعة من جزيرة الأندلس ، فكان يجتمع على حرب المسلمين كل من اعتز بالصليب ، وآمن بالنصرانية . وتجاه هذا الخطر الداهم كان لابد لمسلمى الأندلس أن تمتد أيديهم لطلب العون والاستغاثة من اخوان العقيدة فى المغرب وافريقية وغيرهما . وكان الشعر هو الرسول الفصيح الذى ينطلق بسرعة عبر الأسوار

---

(١) أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين : ٢/١٦٧ . الترجمه العربيه .

والحصار ، وفوق البحار ليشحن نفوس المستغاث بهم حماسة واقداما ، ويحثهم على انقاذ قواعد الاسلام التى وهت بسبب تكالب الكفار عليها . بالاضافة الى المدح واثارة النخوة التى هى من خصائص هذا الشعر . ففى عهد الطوائف بالأندلس شعر النصارى بخطورة موقع جزيرة ميورقه (١) ، حيث كانت الأساطيل الاسلاميه تخرج منها وتغير على الشواطئ الايطاليه ، فعقد الطليان حلفا مع أمير برشلونة (رامون برنجير الثالث) سنة ثمان وخمسمائه على غزو ميورقه ، وبارك البابا هذا الحلف (٢) ، فخرج فى تلك السنة من المياه الايطاليه أسطول كبير يحوى ثلاثمائة سفينه بالاضافة الى وحدات بحريه أخرى من برشلونة وفرنسا ، ولما علم بذلك أمير الجزيرة (مبشرين سليمان) سعى فى طلب الصلح فلم تفلح مساعيه ، عندئذ أخذ فى تحصين ميورقه واستعد للقتال حتى النهايه ، وأقبل الأسطول النصرانى وحاصر المنطقه بآلات الحصار الضخمة ، وقاسى المسلمون الجوع والألم ، ومات منهم الكثير وعلى رأسهم الأمير مبشر ، فاقتحم النصارى الأسوار ودخلوا المدينة فعاثوا فيها وخربوها ، وأضرموا فيها النيران وفى هذه الأثناء انطلقت أصوات الاستغاثة نحو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين فى مراكش (٣) . الذى اهتز للمصاب وأدرك الخطورة المترتبه على سقوط الجزيره

---

(١) جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، وهى عاصمة جزر الأندلس الشرقيه المعروفة بجزائر البليار ، وتقع بين بجاية من الجنوب وبرشلونه من الشمال ، وقد فتحها المسلمون سنة ٢٩٠ هـ وبقيت الى سنة ٦٢٧ هـ حيث ملكها النصارى / انظر الروض المعطار (ميورقه) .

(٢) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٢١١ .

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس : ١٠٥ .

فجهز على الغور أسطولا ضخما ، وهاجم الجزيرة ففر النصارى بماغنموه وتركوا الجزيرة أطلالا فدخلها المرابطون سنة تسع وخمسمائه وشرعوا في تعميرها ، ووضعوا عليها حاكما مرابطيا يتبع دولتهم . ومن أشهر الأصوات المستغيثة صوت الفقيه الحافظ ابن عطيه (١) الذى أرسل بقصيدة يقول فيها (٢) :-

ونحو أمير المسلمين تطامحت * نواظر آمال وأيدى رغائب .
من الناس تستدعى حفيظة عدله * لصدمة جور فى ميورق ناصب .
مقيم فان لم يرغم السعد أنفه * ألمّ فوافى جانبا بعد جانب .
لقتل وسبى واصطلام شريعة * لقد عظمت فى القوم سوء المصائب .

ان صاحب الأبيات يحاول أن يستثير همة أمير المسلمين (٣) ويبعثه على الحماس والجهاد عن طريق وصف الحادثة المرعبة التى ألمّت بالجزيرة ، والتى سيعم خطرها ، ويمتد شرها اذا لم يبادر أمير المسلمين الى كبح جماحها فهو القادر على ذلك ، واليه توجهت الأنظار .

ثم يأخذ فى مدحه بصفات الشجاعة والكرم والنجده فيقول :-

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى . من أهل غرناطة . ولد سنة ٤٨١ هـ ، وهو أحد القضاة والفقهاء المشهورين بالأندلس ، وكانت له اليد الطولى فى اللغة والأدب والشعر ، وكان مجاهدا يكثر الغزو فى جيوش المرابطين حتى توفى سنة ٥٤٦ هـ . / انظر فهرس ابن عطيه : ٧ ، فهرس الفهارس : ٨٦٢ ، ابن الأبار ، معجم الصدفي : ٢٦٩ .

(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان : ٢٤٥ .

(٣) كان المرابطون يتسمون بأمير المسلمين تواضعا عن مقام أمير المؤمنين الخليفة العباسى القرشي .

لنا اللته والملك الذى ترتجى بـه * من الزمن المذناب رجعة تـائـب .

هو الغوث فاعطفه علينا بنظـرة * من الحزم تحثو فى وجوه النوائـب .

أليس الذى لم ينجب الدهر مثلـه * أغرّ صباح الدين صدق المضارب .

عهدناه يقرى الضيف قبل نزولـه * ويلبس وقت السلم درع المحارب .

ويغزو فلا شئ يقوم لعزمـه * ولو أنه يسرى به فى الكـواكب .

فلازال جيش النصر يقدم جيشـه * وتلقاه بالبشرى وجوه العواقـب .

والقصيدة تمتاز بحرارة العاطفه ، وصدق الشاعر التى انبعثت من حادث مفزع وقع أمام عين الشاعر لذا نراه يلحّ فى طلب الغوث ، ويبالغ فى المدح ليهزّ أريحيّة الأمير الذى كان فعلا من المجاهدين وأولى الحزم ، فكان منه ماسبق الحديث عنـه .

والملاحظ أن الشعر الذى استصرخ به المرابطون قليل جدا بالنظر الى كثرة غزواتهم وجهادهم الطويل فى الأندلس . فلا نكاد نجد الا هذه القصيده ، وبعض الأبيات المتفرقه ولعل سبب ذلك هو عدم تذوقهم للشعر بلغته العربيه الأصلية لكونهم من البربر .

بالاضافة الى ميلهم للعلماء والفقهاء - خاصة - أكثر من الشعراء ، فكان طلاّب نجدتهم - فى الغالب - من أهل الفقه والقضاه . وفى القصيدة التى بين أيدينا دليل على ذلك .

وفى نهاية القرن الخامس الهجرى اشتدت وطأة النورمان على جزيرة صقليه - كماتقدم - وأخذوا يتوغلون فى أطرافها ويقتلعون نواحيها الواحدة تلو الأخرى . ففر الشاعر الصقلى ابن حمديس الى الأندلس وهناك اتصل بالمعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف فيها حوالى سنة احدى وسبعين (١)

---

(١) على المصراتي : ابن حمديس الصقلى : ٨٨ .

وأريحاته طالما نجدته ، ومحركا همته لانقاذ الوطن الصقلي المهدد ويبدو أنه لم يجد عنده بغيته فتركه الى غيره من حكام الأندلس فلم يكن منهم شيء يذكر فأخذ عندئذ يرسل الصرخات الحماسيه الى بني وطنه في صقليه ، ويدفعهم الى الصمود والمقاومه حتى النهايه فيقول (١) :-

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي * اذا لم أصل بالعرب منكم على العجم .
دعوا النوم اني خائف أن تدوسكم * دواه وأنتم في الأماني مع الحلم .
وكأس بأم الموت يسعى مديرها * الى أهل كأس حشها بابنة الكرم .
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة * مصرحة في الروم بالثكل واليتم .
تهيل من النقع المحلق بالضحى * على الشمس ماهالته ليلا على النجم .
وصولوا ببيض في العجاج كأنها * بروق بضرب الهام محمرة السّجم (٢) .
ولا عدمت في سلها من غمودها * ظهورا فقد تخفي الجداول بالرّجم (٣) .
وقرع الحسام الرأس من كل كافر * أحبّ الى سمعي من النقر في البمّ (٤) .
ولله منكم كلّ ماض كمضربه * يسيل الى الهيجاء متقد العزم .
يحدّث بالاقدام نفسا كأنما * يطير الى الحرب اشتياقا عن السلم .
ويسطو بمحجوب الظبات اذا بدا * جلا ماجلا الاصباح من ظلمة الظلم .
له دخلة في الجسم تخرج نفسه * قبيل خروج الحدّ منه عن الجسم .
ومايفتدي منه بلحم ولا دم * ولكن بما في العظم بالبري للعظم .
له عين ضرغام هصور ، فقلبه * بتصريف فعل الجهل منه على علم .

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٤١٦ .
(٢) السجم : سيلان الدماء أو الدمع . اللسان (سجم) ، والمقصود هنا اصطباغ السيوف بالدم .
(٣) الرّجم : الحجارة الضخام المجتمعه . اللسان (رجم) .
(٤) البمّ : الوتر الغليظ من أوتار المزهر . / الصحاح (بمّ) .

أن الشاعر يصرخ فى صدق محذرا من الخطر الزاحف من أوروبا على صقلية والشاطئ الاسلامى وهو ينتهج الأسلوب الخطابى الحماسى الملتهب وكأنه واقف فى أتون المعركة ، فيحذر من الغفلة واللهو ، ويدعو الى الجهاد والاقدام بطريقة فنية تصويريه تستفز الهمم الفاتره وتبعث العزيمة فى قلوب الجبناء وذلك عندما يصور سطوة بنى قومه فى الحرب وقد غطى عجاج خيولهم قرن الشمس الساطعه وبأيديهم سيوف كالشهب اللامعه وسط ذلك الظلام اذا صبت على الأعداء ازهقت نفوسهم على عجل فلا يبقى منها شئ لمضائها وشدة بأس حامليها .

والأبيات تشف عن قوة شكيمة الشاعر ، وصدق عاطفته التى تظهر من خلال مشاركته الوجدانيه لقومه عندما يتلذذ بذكر الحرب المستعره ، والسيوف المرهفه التى تطيح برؤوس الكفار ويعتبر ذلك نشوة تفوق سماع الأوتار والمعازف .

ثم ينتقل الشاعر الى فكرة التمسك بالوطن والتحذير من الهجرة والاغتراب القائل :-

ولله أرض ان عدمتم هواءهـا * فأهواؤكم فى الأرض منثورة النظـم .
وعزكم يفضى الى الذل والنـوى * من البين ترمى الشمل منكم بماترمى .
فان بلاد الناس ليست بلادكـم * ولا جارها والحلم كالجار والحلـم .
أعن أرضكم تغنيكم أرض غيركـم * وكم خالة جدا‌ء لم تغن عن أم (١) .
أخلى الذى ودى بود وصلتـه * لدى كمانيط الولى الى الوسمى (٢) .

---

(١) جدا‌ء : صغيرة الثدى ، قليلة اللبن . الصحاح (جدد) .
(٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والولى المطر الذى يلى الوسمى . اللسان ، (وسم) .

تقيّد من القطر العزيز بموطـــــن * ومت عند ربع من ربوعك أو رســـم .

واياك يوما أن تجرب غربـــــــة * فلن يستجيز العقل تجربة السّم .

انه يحذر من ترك الوطن ويهوّل ذلك الأمر ليزيد من رباطة جـــــأش المدافعين ولينزع من النفوس أيّ تفكير فى الاستسلام طلبا للسلامة لما ينتج من ذلك من العواقب الوخيمة ، وأهمها تمزق الشمل وانفراط العقد فيشتغل كلّ فرد بأمره الخاص بعيدا عن الاخر ، قابعا يتقلب فى ذله وسط خضـــم ينكره ولا يأبه له ، ثم تراه يتساءل منكرا ومتعجبا ممن ظن أرض الناس مهمـــا كان عطفهم تغنيه عن أرضه التى نبت فيها لأنها بمثابة الأم التى لا يغنى عـن حنانها عطف الخالة وحدبها . وفى ختام القصيدة يوجه الشاعر نصيحـــة مخلصة لبنى قومه بأن يتمسكوا بتراب الوطن وأن يلبثوا فيه مهما كـــانت الظروف حتى يموتوا فى ربوعه . وهى نصيحة رجل قد عاش الغربة وجربها ، فهى فى رأيه اقدام على شرب السم المهلك لما فيها من ذل ونكد ، واضطـرار الى التملق .

وله أيضا مشيدا بشجاعة قومه وجهادهم :- (١)

زبانية خلقوا للحـــروب * يشبّون نيرانهـــا بالوقـــود .

مساعرهم مرهفـــات بنـــين * لهد الجماجم من عهد هود .

هم المخرجون خبايا الجسوم * اذا ضربوا بخبايا الغمـــود .

هم المائلون على الحاقديـن * صدور رماحهم بالحقـــود .

نجوم مطالعها فى القنــــا * ولكن مغاربهـــا فى الكبـــود .

تخط الحوافر من جردهـــم * محاريب منقوشة فى الصعيد .

تخرّ رؤوس العدى فى الوغى * لها سجدا ، ياله من سجود .

---

(١) ديوانـه : ١١٥ - ١١٦ .

انه يضفى على قومه أبلغ الصفات الحماسية ، والخصائص الحربيه ،فهم بنو الحرب قد عرفوها واعتادوا خوض غمارها منذ زمن بعيد بسيوفهم الصوارم ورماحهم الصم التى يشهد لفعلها الأعداء الحاقدون . أما خيولهم المجربه فهى تطحن رؤوس العدى تحت حوافرها القويه ، والشاعر فى هذا الوصف يرسم الصورة المثاليه للفارس العربى المحنك بجميع مستلزماتها .

ثم ينتقل الى الدعاء بالسقيا لتلك الديار التى أنبتت الأبطال المجاهدين فيقول :-

وبرق تألق ايماضه * كخفق جناح فؤاد عميد .
(١)
يريك التواء قسى الرماة * اذا ماحذين بنزع شديد .
سقى الله منه الحمى عارضا * يقهقه ضاحكه بالرعود .
مكرّ الطراد ،وثغر الجهاد * ومجرى الجياد ، ومأوى الطريد .
بحيث تقابل شوسا بشوس * وغرّا بغرّ وصيدا بصيد . (٢)
وأجسام أحيائهم فى النعيم * وأرواح أمواتهم فى الخلود .

ولعل هذه الأبيات تظهر براعة الشاعر ، وقدرته على الانتقال من موضوع الى آخر دون التحول عن غرض القصيدة الأصلى ، فالبرق المتألق يشبه فى خفقانه انعطاف القسى عندما ينزع الرماة الأوتار بشده ، وتمنى السقيا لأرضه لكونها ميدان الجهاد الذى يتقابل به الأقران فى حومة الوغى بين كرّ وفرّ . فالمعانى الجهاديه والحربيه هى الخيط الذى يربط جزئيات القصيدة كلها .

---

(١) أحذى : أعطى . أحذيته من الغنيمة : أعطيته منها / الصحاح (حذا) .

(٢) الأشوس : الجرئ على القتال الشديد ، اللسان (شوس) ، الغرّ : غير المجرب . المصدر نفسه (غرر) .
الصيد : جمع الأصيد ، وهو الذى يرفع رأسه كبرا والمقصود بالبيت الشجعان ./ اللسان (صيد) .

وأسلوب الشاعر جزل رصين ، تغلب عليه الألفاظ الفخمة الرنانة التى تناسب موسيقى الحرب الحاده ، وقد أبدع الشاعر فى وصف الحرب والا تهما وغاص فى نفسيات المجاهدين وسبر أغوارها فأتى بمايناسبها من القول مع الجنوح الى الخيال والمبالغة فى وصف الشجاعة والبأس . الأمر الذى يتطلبه موقف الشاعر الثائر المتحمس . وفى شعر ابن حمديس ميل واضح الى الصنعة فقصيدته الثانيه -على وجه الخصوص- مثقلة بأنواع الزخرفة اللفظيه والمحسنات البديعيه كالجناس والطباق والمقابله كما تحوى شيئا من الاستعارات والتشابيه الجميله وعلى كل حال فقد أدى ابن حمديس دوره بايجابية ، فقد شارك قومه المجاهدين بالسنان الجهاد باللسان ، وكم من قصيدة فعلت فى النفوس مالم يفعله كبير الجهد .

وفى عهد الموحدين تدخل الأندلس فى مرحلة جديدة من الجهاد اذ كان على أمير المؤمنين الموحدى أن يتصدى لهجمات النصارى المستمره على نواحى الأندلس ، وأن يقوم بنفس الدور الذى قام به المرابطون .

وبالفعل فقد كانت الجيوش الموحديه تعبر الى الأندلس باستمرار وبقيادة الخلفاء أنفسهم (١) ، وتوقع بالنصارى ضربات قاسيه ، وكان هذا الجهاد المتواصل بحاجة الى مدد لا ينقطع من الفرسان والرجاله فرأى عبد المؤمن بن على الخليفة الموحدى الأول أن يستقطب قبائل العرب التى قدمت من الصعيد المصرى أيام الفاطميين (٢) ، وخربت القيروان وماجاورها من البلاد ، وظلت تموج فى البلاد يسترضيها الحكام بنصف غلات البلاد . فاستجاب أولئك

---

(١) انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامه : ٤٦٧ ومابعدها .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٣٩٤ .

العرب لنداء الخليفه بعد أن أقطع رؤساءهم بعض النواحي ، ودخل بعضهم في جيش الموحدين . ولما توفي عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وخلفه ولده أبو يعقوب يوسف سار على نفس سياسة والده في تقريب تلك القبائل من هلال ابن عامر وغيرهم ممن ينتمون الى قيس عيلان . فعندما (١) أراد العبور الى الأندلس في سنة خمس وستين وخمسمائه استنفر تلك القبائل ، واستثار حماسها بقصيدة من انشاء كاتبه وطبيبه الخاص ابن طفيل (٢) جاء (٣) فيهـا :-

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب * لغزو الأعادي واقتناء الرغائب .
وأذكوا المذاكي العاديات على العدى * فقد عرضت للحرب جرد السلاهب (٤) .
فلا تقتني الآمال الا من القنا * ولا تكتب العليا بغير الكتائب .
ولا يبلغ الغايات الا مصمّم * على الهول ركاب ظهور المصاعب .
يرى غمرة الهيجاء أعذب مشرب * وان أعرضت زرقا جمام المشارب .
ويأنف الا مكسبا من حسامه * ويعرض عزا عن جميع المكاسب .
ألا فابعثوها همة عربية * تحف بأطراف القنا والقواضب .

---

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢/١١٧ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن طفيل القيسي . ولد قبل سنة ٥٠٦ هـ وأصله من وادي آشي ، كان طبيبا في غرناطه وكاتبا لعاملها ، ثم علا أمره حتى أصبح طبيبا للخليفه أبي يعقوب يوسف وحظي عنده بمكانة عظيمه ، وهو فيلسوف وشاعر . توفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ ، ومن مؤلفاته رسالة (حي بن يقظان) / انظر : روض القرطاس : ٧٦ ، المن بالامامه : ٤٣٥ . تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٤٨ .

(٣) القصيدة في المن بالامامة : ٤٣٦ - ٤٤٢ ، عنان ، تراجم اسلاميه : ٣١٦ - ٣١٧ .

(٤) السلاهب : واحدها سلهب وهو الطويل من الخيل . اللسان (سلهب) .

يدخل الشاعر فى الموضوع مباشرة لأن الأمر لا يحتاج الى مقدمات ، فيبدأ على الفور بحث القوم على الغزو ، والاستعداد للحرب مثيرا فى أنفسهم الهمة العربيه العاليه التى ترى العز والمجد يكتب بأسنة الرماح ، كما أن المكسب الشريف الذى يرتضيه العربى هو هو مايجلبه بحد سيفه من أعدائه ولعله هنا يعرّض بسلك هؤلاء الأعراب فى الاكتساب عن طريق السلب والنهب ويطمعهم فى المكاسب التى سينالونها اذا خاضوا الحرب بصدق وعزم . ثم يحضهم على نصرة الاسلام واصفا اياهم بحماة الدين ، وأهل النبى وآله الذين أظهروا دينه منذ بداية أمره :-

أفرسان قيس من هلال بن عامر * وماجمعت من طاعن ومضارب .
لكم قبة للمجد ، شدوا عمادها * بطاعة أمر الله من كل جانب .
دعوناكم نبغى خلاص جميعكم * دعاء بريئا من جميع الشوائب .
نريد لكم مانبتغى لنفوسنا * ونؤثركم زلفى بأعلى المراتب .
فلاتزهدوا فى نيل حظكم الذى * لكم فيه فوز من جميع المطالب .
بكم نصر الاسلام بدأ فنصره * عليكم وهذا عوده جدّ واجب .
فقوموا بماقامت أوائلكم به * ولا تغفلوا احياء تلك المناقب .
وقد جعل الله النبى وآله * ومهديّه منكم بلا عيب عائب .
وفزتم بتخصيص الخليفة بعده * ونسبته الدنيا بزلفى الأقارب .
وطائفة المهدىّ منكم ، وانها * لتحنو عليكم باتصال المناسب .
ومن ذا الذى يسمو ليبلغ شأوكم * اذا كنتم فوق النجوم الثواقب .
نصحناكم والنصح فى الدين واجب * بما لكم فيه صلاح العواقب .

وفى هذه الأبيات يدخل الشاعر الى نفوس تلك القبائل عن طريق تذكيرهم بأصولهم الراسخه فى الاسلام ، وماقام به أجدادهم فى سبيل الاسلام ، ذلك الواجب الذى يجب عليهم الآن اكماله والشاعر يسلك سبيل النصيحة الواجبه

بين المسلمين فهولا يريد من استنفارهم للجهاد الا فوزهم بطاعة اللـــه وحصولهم على أعلى المراتب عنده . ولعل هذا التودد والنصح من ابـــن طفيل نابع من كونه من نفس قبيلة قيس التى ينتمى اليها المخاطبون ، ولهذا كان هو المختار فى مخاطبتهم دون غيره من الشعراء . كما أننا نلاحـــظ أن الموحدين وعلى رأسهم مؤسس دولتهم الأول المهدى بن تومرت (١) يحاولـــون الانتساب الى القبيلة المذكوره لكسب التأييد السياسى وقد نجح هذا الأمـــر الى حد كبير . فقد استجاب عدد ضخم من الأعراب ـ فى نهاية الأمـــر ـ للخليفة الموحدى وأصبحوا من جيشه فرتبهم فى نواحى قرطبة واشبيليـــة ، وزاد فيهم من جاء بعده حتى أصبح بالأندلس من زغبة ورياح وجشم مايزيـــد على خمسة آلاف فارس غير الرجالـــة . (٢)

وفى نهاية القصيدة يحذرهم من الاعراض عن نداء الجهاد فانه تضييـــع للحزم واعراض عن طاعة الله فيقـــول :-

هذا رفاعراض الفتى عن نجاتـــه * وتضييعه للحزم احدى المصايب .

وما الحزم الا طاعة اللـــه انهـــا * هى الحرم المنّاع من كل طالـب .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ، من قبيلة هرغـــه البربريه القاطنه بجبال درن (أطلس العليا) من اقليم السوس . وهـــو ينتسب الى آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى هذا النسب خـــلاف كبير . ولد حوالى سنة ٤٨٥هـ ورحل الى الشرق سنة ٥٠١ هـ والتقـــى بعلماء بغداد ، وحصّل طرفا صالحا من علم الشريعة ورجع الى المغرب وادعى المهدية ، ودعا الى التوحيد والرجوع الى الكتاب والسنه حـــتى كثر أتباعه وكانوا نواة دولة الموحدين فى المغرب / انظر : الوفيـــات: ٤٥/٥ ، سعد زغلول عبد الحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديـــد : ١٢ .

(٢) المعجب : ٣٩٥ .

نعدكم السيف الذى ليس ينثنى * اذا مابها سيف يراعة ضارب .
ونجعلكم صدر القناة اذا غدت * تأطر مابين الحشى والترائب .
وقد كان من أقوالكم ماعلمتم * فان كان فعل فالرجا غير خائب .
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى * ولكن فعل الحر أصدق خاطب .
وماخلق الأعراب اخلاف موعد * ولكن صدق الوعد خلق الأعارب .
ستعلم من أوفى ومن خاس عهده * ومن كان من آت الينا وذاهب .
وتظهر أحوال يروق سماعها * فيرغب فى أمثالها كل راغب .

وهو هنا يشيد بشجاعتهم واعتماد المسلمين عليهم فى دحر العدو فهم السيف الضارب القتّال الذى لا ينبو ، ثم يذكّرهم بأقوالهم ووعودهم السابقة للخليفة بالعون والنجده اذا ماشبت نار الحرب ويحضهم على الوفاء بذلك لأن الوفاء من أخلاق العرب وطبائعهم الحميده التى تنفر من الغدر والخيانه ، ويستبشر فى ختام القصيده باستجابتهم التى تدعو غيرهم لسلوك طريقهم .

والقصيدة سهلة الأسلوب ، واضحة المرامى والأهداف بعيدة عن الخيال كما هى سمات الشعر السياسى ، وقد أحسن ابن طفيل فى تركيب القصيدة المنطقى ، وابراز العوامل التى تؤثر فى نفوس المخاطبين .

ويبدو أن العرب أبطأوا قليلا عن النصرة فخاطبهم الخليفة بقصيده أخرى من نظم ابن عياش (١) يستعجلهم بها .

---

(١) هو عبد الملك بن عياش بن فرج بن هارون الأزدى القرطبى ، أصله من مدينة يابره بالأندلس . كان شاعرا وكاتبا ، اشتغل بالكتابه للموحدين حتى توفى سنة ٥٦٨هـ . / انظر : المن بالامامه : ١٦٠ ، ٢٢٤ ، المراكشى ، الذيل والتكملة : ١/٢٦ .

(١)
يقـول :-

أقيموا الى العليا ٔ هوج الرّواحــل * وقودوا الى الهيجا ٔ جرد الصواهل .
وقوموا لنصر الدين قومة ثائــر * وشدوا على الأعدا ٔ شدة صائــل .
وأسروا بنى قيس الى نيل غايــة * من المجد تجنى عند برد الأصائل .
فما العزّ الا ظهر أجرد سابــح * تموت الصبا فى شدّه المتواصــل .
وأبيض مأثور كـأن فرنــده * على الما ٔ محبوك وليس بسائــل .

وهذه القصيدة تسير على نهج القصيدة التى سبقتها فالمطلع واحـد يبدأ بفعل الطلب " أقيموا " تليه أفعال أخرى على نمطه تحض على نصرة الاسلام وجهاد الأعدا ٔ بالسيف لاكتساب المجد والشرف الخالد . ثم نرى الخليفة يستدعى تلك القبائل ، وينادبهم بعصبية النسب والقربى وأبنا ٔ العمومه ، فيقول شاعره :

بنى العمّ من عليا هلال بن عامـر * وماجمعت من باسل وابن باسـل .
تعالوا فقد شدت الى الغزونيــة * عواقبها مقصورة بالأ واثــل .
هى الغزوة الغـرّا ٔ والموعد الـذى * تنجّز فى أفق المدى المتطـاول .
بها تفتح الدنيا بها تبلغ المنى * بها ينصف التحقيق من كل باطـل .
عزمنا وأمر الله لا بـدّ واقــع * على وقعة تودى بدين القـواصـل (٢) .
بجيش يظل الطير فى عجراتـه * وتحجب عنه الشمس سحب القساطل (٣) .

---

(١) المعجب : ٢٩٤ - ٢٩٥ . وقد نسبها الى الخليفة عبد المؤمن بن على الموحدى ، ولكن ابن صاحب الصلاة المعاصر لابن عياش يثبتها لابن عياش . انظر المن بالامامه : ٤٤١ .

(٢) القواصل : جمع قصله وهى الطائفه من السفلة / اللسان (قصل) .

(٣) القسطل : الغبار . الصحاح (قسطل) .

وتحسر فيه الطرف من كل جانب * بحور دلاص(١) عاديات السواحل .
ويطلع ليل النقع فيه كواكبا * من البيض أو من مرهفات المناصل .
ويضحى به بحر الدماء مفجرا * بأسمر عسال وأبيض ناصل .
بأيدى رجال قد وفوا بعهودهم * ولا حيرتهم معضلات النوازل .

والشاعر يبين سبب هذا الاستعجال فى ندائهم بأن الخليفة قد عقد العزم على الجهاد فى سبيل الله ولانصاف المسلمين فى الأندلس من أعدائهم المتسلطين فى الأندلس من أعدائهم المتسلطين عليهم استغلالا لضعفهم لذا فهو يعد العدة لوقعة عظيمة تسمع بها الدنيا ، وتحطم راية الكفر ، فما أجدر أولئك الأعراب أن يكونوا من جندها . ثم يأخذ الشاعر فى وصف جيش الجهاد بأوصاف جليلة تؤكد ظفره - بأمر الله - كوسيلة اغراء تحث الأعراب على الاسراع فى اللحاق به . فهو خميس عرمرم يحجب غباره نور الشمس ، فلا ترى وسط ذلك العجاج المدلهم الا بروقا لامعة هى السيوف والنصال . ولعله هنا يحتذى قول بشار :- (٢)

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه .

وتلك السيوف والرماح تفجر بحورا من دماء الأعداء لكونها بأيدى رجال صادقين فى الحرب أوفوا بما عاهدوا عليه الله وأولى الأمر ، ولم ينتحلوا الحجج والأعذار وكأنه هنا يعرّض بتأخر الأعراب فترة من الزمن بعد دعوتهم الأولى بقصيدة ابن طفيل السابقة . وفى ختام القصيدة يضرب الشاعر على وتر حساس فى نفوس الأعراب وهو حبهم للمغنم والخيرات العاجلة فى الدنيا

---

(١) الدلاص : اللين البراق ، والمقصود هنا الدروع اللامعة . المصدر نفسه (دلص) .

(٢) ديوانه : ٣٢٥/١ .

فيهيب بهم لاجتناء الكثير منها قائلا :-

فطيروا اليها ياهلال بن عامر * ثقالا خفافا بين حاف وناعل .

ولا تخدعوا عن حظكم من اجابة * تبوؤكم فى المجد أسنى المنازل .

وتقطعكم صدر الندى اذا نهت * بمن لم يكن منكم صدور المحافل .

أهبنا بكم للخير ، والله حسبنا * وحسبكم والله أعدل عادل .

فماهمنا الا صلاح جميعكم * وتسريحكم فى ظل أخضر هاطل .

وتسويغكم نعمى يرف نضيرها * عليكم بخير عاجل غير آجل .

فلا تتوانوا فالبدار غنيمة * وللمدلج السارى صفاء المناهل .

ولا ريب أن القصيدة قد أدت دورها فى استنهاض الهمم والعزائم وذلك بتلونها ، واستخدام عدة وسائل مؤثره فى نفوس القوم . فهم عرب تهزهم عصبية النسب والقرابه ، وهم مسلمون يثيرهم الدفاع عن الدين والعقيدة ، وهم أعراب من طبعهم حب المغانم والميل الى الغزو والسلب وأسلوب القصيده سهل رصين كأسلوب القصيده السابقه ، وكأنهما من نظم شاعر واحد ، فالتشابه كبير حتى فى الألفاظ فابن طفيل يقول : "دعوناكم نبغى خلاص جميعكم" وابن عياش يقول : "فماهمنا الا صلاح جميعكم" وكذلك قول الأول "فلا تزهدوا فى نيل حظكم ....." وقول الأخير : "ولا تخدعوا عن حظكم ....." وغير هذا كثير وواضح ولعل سبب ذلك وحدة الظروف والهدف والمصدر . وقد كانت نتيجة هاتين القصيدتين ايجابيه وذلك باستجابة الأعراب للنداء (١) . يقول ابن صاحب الصلاة : "ولما وصلت

---

(١) المن بالامامه : ٤٤٣ - ٤٤٤ .

القصيدتان الى العرب بافريقيه والزاب والقيروان (١) ، وأوضحوا قراءتهما ، وتبينت لهم معانيهما ، ومافيهما من التحريض على جهاد الكفار ، ودفاع المنافقين أجابوا الى الطاعة بأكمل البدار فكان عدد الخيل الواصله من افريقيه أربعه الاف فرس ، ومائة وخمسين حملا من المال الصامت (٢) ، ووصل من تلمسان ألف فرس وخمسون حملا من المال الصامت . " فاشتد ساعد الموحدين بهذا الدعم الكبير ، فعبروا الى الأندلس ، وافتتحوها شرقا وغربا فى الفترة مابين سنة خمس وخمسين وخمسمائه الى سنة سبع وستين وخمسمائه ، واتخذوا مدينة أشبيليه مركزا لهم ، ومنطلقا لتحركاتهم العسكرية . وظلت الأندلس تنعم بالأمن فى ظل الموحدين الذين لم يدخروا وسعا فى رد غائلة النصارى ، الى أن حدثت معركة العقاب المشئومة سنة تسع (٣) وستمائه ، وتضعضع بعدها كيان الموحدين عامة فى المغرب والأندلس ، وبدأ النصارى ينتعشون ، ويتحدون للاستيلاء على الأندلس نهائيا ، ففى حوالى سنة أربعين وستمائه شعر والى اشبيليه الموحدى أبو عبد الله بن أبى عمران باقتراب الخطر الصليبى من منطقته فأمر من قبل الخليفة أن يستغيث ببنى

---

(١) مقاطعه على طرف الصحراء الجزائريه ، وتنقسم الى ثلاث مناطق الزاب الشرقى ، والصحراوى ، والقبلى ، وتكثر فيها الأنهار والعيون وأهم مدنها طبنه ، والمسيله وبسكره وغيرها / انظر الروض المعطار (الزاب) .

(٢) المال الصامت : الذهب والفضه . الصحاح (صمت) .

(٣) انظر . شوقى أبو خليل ، معركة العقاب : ٤٥ .

المعقل (١) وهم من القبائل العربيه التى نزحت الى شمال افريقيه فى القرون الخامس الهجرى . فأمر والى اشبيليه شاعره ابن سهل (٢) بتوجيه الصريخ اليهم فبادر الى ذلك وقال (٣) :

وردا فمضمون نجاح المصدر * هى عزة الدنيا وفوز المحشر .

نادى الجهاد بكم لنصر مضمر * يبدو لكم بين العتاق الضمّر .

خلوا الديار لدار خلد واركبوا * غمر العجاج الى النعيم الأخضر .

وتسوّغوا كدر المناهل فى السّرى * ترووا بماء الحوض غير مكدر .

وتجشموا البحر الأجاج فانه * سبب به تردون نهر الكوثر .

وتحطوا حرّ الهجير فانه * ظلّ لكم يوم المقام الأكبر .

---

(١) بنو المعقل من القبائل العربيه التى كانت تجاور بنى هلال بن عامر بتلمسان ، وهم يعدون من بطونهم ، وينسبون الى معقل بن ربيعه بن كعب من قضاعه أو الى الحارث بن كعب ، استعان بهم الموحدون فى حروبهم ، وكان لهم جهدٌ مذكور فى تاريخ المغرب . / انظر تاريخ ابن خلدون : ٦/٥٨ .

(٢) هو ابراهيم بن سهل الاشبيلى . كان من الأدباء الأذكياء الشعراء اشتهر بالغزل وخاصة بالمذكر . وكان يهوديا وأسلم ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وله قصائد اسلاميه فى الحض على الجهاد . توفى سنة ٦٤٩ هـ على أرجح الأقوال . وله ديوان شعر ، انظر : فوات الوفيات : ١/٢٠ ، المنهل الصافى : ١/٥١ ، الأعلام : ١/٤٣ .

(٣) ديوان ابن سهل : ١٤١ - ١٤٢ .

ينادى الشاعر العرب باسم الجهاد المقدس الذى يكسب المجاهدين عزا فى الدنيا وثوابا فى الآخره ولهذا فهو يسلك سبيل المقابلة بين مايفد ونه من المشقات التى يتطلبها الجهاد وبين النعيم المقيم والراحة الأبدية فى الجنة مقابل ذلك ، والشاعر بهذا يحقّر كل الصعاب فى نظرهم ليدفعهم الى الاقدام ، فماهم فيها من دار فانيه تقابلها دار خالده ومايحلق فوقهم من غبار مصحوب بضجيج وقعقعه يقابله نعيم الجنة الدائم وسط البسائط الخضر والظلال الوارفه . ومايصيبهم من المشقة لبعد المسافة واضطرارهم الى ركوب البحر المرعب سيكون تصريحا لهم بورود نهر الكوثر ، وحوض الرسول -صلى الله عليه وسلم- فى الجنه .

ثم يصفهم بالشجاعة والحمية فى نصر الاسلام منذ العهود القديمه فيقول :-

يامعشر العرب الذين توارثوا * شيم الحمية أكبرا عن أكبر .
ان الاله قد اشترى أرواحكم * بيعوا ، وهنكم ثواب المشترى .
أنتم أحقّ بنصر دين نبيكم * ولكم تمهد فى قديم الأعصر .
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا * ذاك البناء بكل ألمس أسمر .
لكم صرائم لو ركبتم بعضها * أغنتكم عن كلّ طرف مضمر . (١)
لو أنكم جهزتم عزماتكم * لهزمتم منها العدوّ بعسكر .
ولو أنكم سدّدتم همّاتكم * طعنتهم قبل القنا المتأطّر . (٢)
أضحى الهدى يشكو الظّما ولأنتم * ظلّ ورىً كالربيع الممطر .
وعلا الجزيرة غيهب وغمودكم * مطوية فوق الصباح المسفر .

---

(١) صرائم : جمع صرمه وهى القطعة من الابل نحو الثلاثين . الصحاح (صرم) ، الطرف : الكريم من الخيل . نفسه (طرف) .

(٢) تأطّر الرمح : تثنّى . اللسان (أطر) .

الذين نادكم وفوق سروجكم * غوث الصريخ صفية المستنصر .
لم يبق للاسلام غير بقية * قد وطنت للحادث المتنكر .

وهو هنا يحضهم على ارخاص أرواحهم فى سبيل الله طمعا فى ثوابه وخاصة أنهم أولو فضل سابق فى تدعيم بنيان الاسلام بما عرف عنهم من الشدة والبأس والعزيمة المتقدة التى لا تقاوم وهو يكرر كلمه "لو أنكم" ليشعرهم بقدرتهم على الاغاثه اذا أرادوا ، ويتبع ذلك بشرح حال الاسلام الذى هو فى أمس الحاجة الى الغوث ، فيصفه بأنه ظمآن وهم بمثابة الماء الذى يرويه ، وجزيرة الأندلس قد خيّم عليها ظلام الكفر اذا لم يدركها أولئك العرب فيكشفوه عنها بسيوفهم ، ويعيدوا اليها ضياء الاسلام الذى قرب من الاحتضار :-

والكفر ممتدّ المطالع ، والهدى * متمسك بذناب عيش أغبر .
البيض تقلق فى الغمود مضاضة * للحق أن يلقى يد المستصغر .
والخيل تضجر فى المرابط حسرة * ألا تجوس خلال رهط الأصفر .
كم نكروا من معلم ، كم دمروا * من معشر ، كم غيروا من مشعر .
كم أبطلوا سنن النبى وعطلوا * من حلية التوحيد ذروة منبر .
أين الحفائظ مالها لم تنبعث ؟ * أين العزائم مالها لا تنبرى ؟
أيهز منكم فارس فى كفه * سيفا ودين محمد لم ينصر ؟ :
أم كيف تفتخر الجياد بأعوج (١) * فيكم وتنتسب الرماح لسمهرى ؟ :
هزّوا معاطفكم لسعى تكتسى * فيه ثياب مثوبة أو مفخر .
جدّوا ، ونمّوا بالجهاد أجوركم * ماخاب قصد مشمّر ومشمّر .
عند الخطوب النكر يبدو فضلكم * والنار تخبر عن ذكاء العنبر .

---

(١) أعوج : اسم فحل لبنى هلال بن عامر تنسب اليه الخيول الأعوجيات .

لو صوّر الاسلام شخصا جاءكـم * عمدا بنفس الوامق المتحيّر (١) .

لو أنه نادى لنصر خصّكـم * ودعاكم ياأسرتى يامعشرى .

ثم يصور الشاعر مايلقاه الدين من أهوال على يد الكفر المحيد حتى ظهر ذلك على صورة ألم يقلق السيوف المغموده بدون حراك ، ويضجر الخيول المقيّدة فى المرابط والتى تريد فرسانا ينطلقون عليها لدحر الصليبيين الذين دمروا بلاد المسلمين وغيروا معالمها وشتتوا أهلهـا ، واعتدوا على الحرمات المقدسة ودنسوها برجسهم .

وازاء هذا الوضع المؤلم يصرخ الشاعر بصوت مسموع متعجبا من فتور الهمم والعزائم التى لم تتحرك " أين الحفائظ مالها لم تنبعث ؟ : أين العزائم مالها لا تنبرى ؟ : " وهو بهذا التساؤل يعطيهم دفعة من الحماس الممزوج بشيء من التوبيخ فكأنه يريد أن يقول : عار عليكم أن تتقلدوا السيوف وتفخروا بها وبالرماح والجياد المشهوره ، وأنتم لم تتحركوا لفك أسر دينكم الممتحن ، ويتبع توبيخه لهم بالتشجيع والحثّ على اكتساب المفاخر والثواب حيث آن أوان ذلك . وفى ختام القصيدة يركز على المعنى الاسلامى الذى بثه فى أبيات القصيده ، فيجعل هؤلاء العرب هم أهل الاسلام وحماته ، فلو صوّر شخصا لقصدهم دون غيرهم لأنهم أحبابه ومعشره الذين يحزّنونه .

والقصيدة تعبق بعاطفتها الصادقه الحاره فى طلب الغوث لنجدة الدين وأهله بالأندلس وقد أكثر من ذكر الثواب الأخروى لأن فيه دافعا قويا على الاقدام ، وتحمل المسافات الشاسعة التى تكتنفها الأخطار البرّية والبحرية والتى قد لا يجدى معها الترغيب فى المطمع الدنيوى .

---

(١) الوامق : المحب . اللسان (ومق) .

ولقد كان الشعراء الذين هم من أصل أندلسى ، وأتيح لهم الاتصال بالموحدين لا يتركون فرصة تمر دون أن يحضوا الخلفاء على الغزو والجهاد لقطع أمل النصارى فى الأندلس ، وافتكاك ما استولوا عليه منها . وهذا أحد هم وهو أبو جعفر الوقشى (١) يمدح الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ويحثه على الجهاد قائلا :- (٢)

ألا ليت شعرى هل يمد لى المدى * فأبصر شمل المشركين طريدا .

وهل بعد يقضى فى النصارى بنصرة * تغادرهم للمرهفات حصيدا .

ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب (٣) * بعيد عميد الكافرين عميدا .

ويلق على افرنجهم عبء كلكل * فيتركهم فوق الصعيد هجودا .

يغادرهم جرحى وقتلى مبرحا * ركوعا على وجه الفلا وسجودا .

ويفتك من أيدى الطغاة نواعما * تبدلن من نظم الحجول قيودا .

---

(١) هو الوزير أحمد بن عبد الرحمن الوقشى ، نسبة الى بلده وقش من نواحى طليطله . كان كاتبا وشاعرا متصرفا فى أفانين البيان وقد كان وزيرا لابراهيم بن همشك الثائر بشرق الأندلس (انظر أخباره فى الاحاطه ٣٠٥/١ - ٣١١) حتى اذا انهزم ابن همشك ودخل فى طاعة الموحدين سنة ٥٦٠ هـ وجه وزيره الوقشى الى مراكش نائبا عنه فى تقديم الطاعه ، وقد توفى ٥٧٤ هـ / انظر الحله السيراء : ٢٥٧/٢ - ٢٦٧ .

(٢) نفح الطيب : ٤٧٨/٤ .

(٣) قلعة حصينة بالأندلس فيها كنيسة عظيمه عند النصارى ويزعمون أنها مبنيه على جسد يعقوب الحوارى الذى قتل فى القدس وأدخله بعض تلاميذه فى مركب بحرى فجرى به حتى حط فى هذا الموضع فبنيت الكنيسة عليه . ولها عيد مشهور يقصدها فيه النصارى من رومه والقسطنطينيه . انظر الروض المعطار (شنت ياقوب) .

وأقبلن فى خشن المسوح وطالمـا * سحبن من الوشى الرقيق بـرودا .

وغبّر منهن التراب ترائبـــــا * وخدد منهن الهجير خــدودا .

ويالهف نفسى من معاصم طفلـــة * تجاور بالقدّ الأليم نهــــودا .

وياأسفا ماان يزال مـــــرددّا * على شمل أعياد أعيد بديـــدا .

وآها تمدّ الصوت منتحبـا علــى * خلوّ ديار لو يكـون مفيـــدا .

فالشاعر يتمنى أن يطول عمره لكى يرى النصارى طعاما لسيوف الاســلام المنتصره بقيادة أبى يعقوب والوقشى يرى ان ذلك لا يتم الا اذا غزا المسلمون وكر النصارى (شنت ياقب) الذى يحوى كبيرهم الدينى وأعظم كنائســهم ومقدساتهم التى فيها تحاك الخطط ضد المسلمين ، كما أن على الخليفــة الموحدى أن يحطم قوتهم ليفتك من أيديهم النساء المسلمات اللواتى أخـذن أسيرات ، فهن فى حالة تستدعى البكاء والأسف ، أبرزها الشاعر من خـــلال المفارقة الناتجــه من مقارنة حالتهن الراهنه بحالتهن الماضيه أيام العــز واجتماع الشمل ، فالحجول أصبحت قيودا ، والمسوح الخشنة البالية حلّـت محل البرود الرقيقـه ولعل الشاعر قد صب تركيزه على ماأصاب النساء مـــن الذل والهوان ليستثير حفيظة الخليفة من هذه الناحية الحساسة ، ويزيـده غيظا وحنقـا على النصارى فيسارع فى غزوهـم .

ابن الأبار والاستصراخ :

قدمنا في الفصل السابق الحديث عن سقوط بلنسية بيد النصارى والأسبان سنة ست وثلاثين وستمائه بعد دفاع مجيد من أهلها الذين أرهقهم الحصار العنيف دون أن يتلقوا مددا ، وفي أثناء الحصار وقبيل سقوط المدينه انطلق أبو عبد الله بن الأبار(١) مبعوثا من قبل أمير بلنسيه الى أبي زكريا الحفصي(٢) أمير الدولة الحفصيه التي كانت آنذاك في أوج قوتها مستغيثا به ، وحاملا اليه بيعة أهل بلنسيه . فقام بين يديه وأنشد سينيته(٣) الرائعة التي يقول فيها :-

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا .

وهب لها من عزيز النصر ما التمست * فلم يزل منك عزّ النصر ملتمسا .

وحاش مما تعانيه حشاشتها * فطالما ذاقت البلوى صباح مسا .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي . ولد سنة ٥٧٥ هـ ببلنسيه وتعلم فيها . كان فقيها محدثا نحويا ، ومن أكبر شعراء الأندلس وكتّابها ، رحل الى تونس عند احتلال بلنسيه وعمل كاتبا لأمرائها حتى قتل فيها سنة ٦٥٨ هـ وله آثار كثيره من أهمها : الحلة السيراء ، التكمله لكتاب الصله ، اعتاب الكتاب انظر الغبريني ، عنوان الدرايه : ٣٠٩ ، فوات الوفيات : ٤٠٤/٣ ، أزهار الرياض : ٢٠٤/٣ .

(٢) كان أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي (نسبه الى هنتاته احدى فروع قبيلة مصمودة البربريه في المغرب) واليا من قبل الموحدين على تونس منذ سنة ٦٢٥هـ ، وعندما رأى ضعف الدوله الموحديه أعلن استقلاله بتونس دون أن يجد معارضة وذلك سنة ٦٢٤ هـ ، وقد شملت هذه الدوله بالاضافة الى تونس ، طرابلس ، ومقاطعة قسنطينه من الجزائر انظر : أحمد بن عامر ، الدولة الحفصيه : ١٧ .

(٣) النفح : ٤٥٦/٤ .

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا * للحادثات وأمسى جدّها تعسا .

في كلّ شارقة إلمام بائقة * يعود مأتمها عند العدا عرسا .

وكل غاربة اجحاف نائبة * تثني الأمان حذارا والسرور أسى .

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم * الا عقائلها المحجوبة الأنسا .

وفي بلنسية منها وقرطبة * ماينسف النفس أو ماينزف النفسا .

مدائن حلها الاشراك مبتسما * جذلان ، وارتحل الايمان مبتئسا .

وصيّرتها العوادي العائثات بها * يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا .

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى غرضه الأصلي منها وهو الاستغاثة ، وذلك لأن واقع الحال أهم من أن يبدأ بالغزل أو وصف مشقات رحلته ، فهو ينطق على الفور بقوله " أدرك " وهو فعل مشعر بالخطر القريب المحدق فالقارئ يحسّ أن الشاعر يرتجف رعبا وهو يؤكد ضياع الأندلس ان لم تنصر بقوله : " ان السبيل الى منجاتها درسا " ولذا فهو يطلب النجدة السريعة من خيل الله لانقاذ مابقي من البلاد التي ابتليت بأصناف المحن والبلاء ، فالعدو محيط بها لا يفارقها وفي كل يوم له في نواحيها وقائع تجلب على أهلها القتل والأسر والسبي فهم في ضنك واضطراب دائم . ثم يخصص مدينته بلنسية التي لا تزال محاصرة ، ومدينة قرطبة التي سقطت منذ ثلاث سنوات لأن هاتين المدينتين من أعظم قواعد الأندلس الكبرى التي تعرضت للانتهاك والاستباحة ، وصيرت مدنا صليبية يستوحش منها الناظر الذي كانت محلّ أنسه قبل ذلك . ثم يأخذ في تفصيل ماجرى للأندلس على يد الصليبيين استثاره للهمم :-

يا للمساجد عادت للعدا بيعا * وللنداء غدا أثناءها جرسا .

لهفي عليها الى استرجاع فائتها * مدارسا للمثاني أصبحت درسا .

(١)

سرعان ماعاث جيش الكفر واحربا * عيث الدّبا في مغانيها التي كبسا .

وابتز بزتها مما تحيّفها * تحيف الأسد الضاري لما افترسا .

فأين عيش جنيناه بها خضرا * وأين عصر جليناه بها سلسا .

محا محاسنها طاغ أتيح لها * ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا .

ورجّ أرجاءها لمّا أحاط بها * فغادر الشمّ من أعلامها خنسا .

خلاله الجوّ فامتدت يداه الى * ادراك مالم تطأ رجلاه مختلسا .

وأكثر الزعم بالتثليث منفردا * ولو رأى راية التوحيد ماتبسا .

ان الأمر الذي كان يحرص عليه النصارى عند الاستيلاء على مدينه اسلاميه هو طمس المعالم الاسلامية البارزة فيها ، فكانوا قبل كل شيء يحولون المساجد الى كنائس ، وتعلق الأجراس والنواقيس على المنارات الشامخه ويوضع الصليب على محاريب التوحيد مبالغة المسلمين قهرا على قهرهم .

والشاعر يحاول ابراز هذه الناحيه ليستثير عاطفة السلطان ، فيصور الكفار وقد خلالهم الجو وأسكتوا جميع الأصوات الا صوت نواقيس التثليث المزعومه .

ثم يأخذ في مدح الأمير الحفصي ، واصفا اياه بالأمل المرجو ، ومحيي شعائر الهدى فيقول :-

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما * أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا

وأحي ماطمست منها العداة كما * أحييت من دعوة المهدي ماطمسا .

أيام صرت لنصر الحق مستبقا * وبتّ من نور ذاك الهدى مقتبسا .

---

(١) الدّبا : الجراد . أساس البلاغه : (دبأ) .

وقمت فيها بأمر الله منتصـــرا * كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسـا .

تمحو الذى كتب التجسيم من ظلم * والصبح ماحية أنواره الغلســا .

وتقتضى الملك الجبار مهجتـــه * يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسـا .

وهو يخاطبه بتودد بلفظ (المولى) ليضفى عليه هالة من الاحـــترام والعظمه التى تقوم على أساس دينى . ذلك أن الأمير الحفصى من أتباع محمد بن تومرت الذى ظهر أيام المرابطين وأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكـر ويطعن فى عقيدة المرابطين ويرميهم بالتجسيم والتشبيه وسمى أتباعه بالموحدين لأنهم يميلون الى التأويل ، وينزهـون الله عن كل تشبيه له بالخلق ، ثـم ادعى أنه المهدى المنتظر بعد أن كثر أتباعه ، وكفّر من لم يؤمن بــه ، وتمخضت حركته عن أطماع سياسيه تمثلت فى تشكيل نواة الدوله الموحديه التى قامت بعد ذلك على يد تلاميذه (١) .

ثم يتحدث الشاعر عن فضل هذا الأمير وان بلنسية قد ألقت اليه مقاليدها ، وخصته بصريخها دون غيره .

هذى رسائلها تدعوك من كثـب * وأنت أفضل مرجوّ لمن يئسـا .

وافتك جارية بالنّجح راجيــة * منك الأمير الرضى والسيد الندّسا (٢) .

خاضت خضارة (٣) يعليها ويخفضها * عبابه فتعانى اللين والشرسـا .

وربما سبحت والريح عاتيـــة * كما طلبت بأقصى شدّه الفرسـا .

تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى * حفص مقبلة من تربه القدسـا .

---

(١) انظر : ابن أبى دينار ، المؤنس : ١١١ - ١١٢ ، المراكشــى ، المعجب : ٢٥٤ ، عبد الله علام ، الدعوه الموحديه بالمغرب فى عهـد عبد المؤمن بن على : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) رجل ندس : فهم فطن . اللسان (ندس) .

(٣) يقصد البحر المتلاطـم .

ملك تقلدت الأملاك طاعتـــــه * دينا ودنيا فغشّاها الرضى لبسا .
من كلّ غاد على يمناه مستلمـــا * وكلّ صاد الى نعماه ملتمســـا .
مؤيّد لورمى نجما لأثبتـــه * ولو دعا أفقا لبّى وما احتبســا .
ماضى العزيمة والأيام قد نكلت * طلق المحيّا ووجه الدهر قد عبسا .
كأنه البدر والعلياء هالتـــه * تحفّ من حوله شهب القنا عرسـا .
قد نوّر الله بالتقوى بصيرتـــه * فما يبالى طروق الخطب ملتبسـا .
الى الملائك ينمى والملوك معـــا * فى نبعة أثمرت للمجد ماغرســا .
من ساطع النور صاغ الله جوهـره * وصان صيقله أن يقرب الدنســا .
له الثرى ، والثريا خطّتان فـلا * أعز من خطتيه ماسما ورســـا .

والشاعر يضفى على الأمير صفات تجعله فوق مستوى البشر ، وذلك عن طريق المبالغة التى يتطلبها الموقف ، فهو قد صيغ من نور الله الساطع الذى لا يقربه الدنس وكأنه من الملائكة الكرام ، وقد نوّر الله بصيرته بالتقوى ومنحه العزيمة الوقاده التى لا تنكل ، فهذه الصورة المثاليه التى جمعت الى عراقة الأصل والمنبت طيب الأخلاق ، تجعل السعيد من طرق باب صاحب هذه المكانة واستعان به لأنه سيدرك حاجته مهما كانت ، ومن هنا كان قدوم الشاعر :-

ان السعيد امرؤ ألقى بحضرتـــه * عصاه محتزما بالعدل محترســا .
فظلّ يوطن من أرجائها حرمـــا * وبات يوقد من أضوائها قبســا .
بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا * آماله ومن العذب المعين حسـا .
يا أيها الملك المنصور أنت لهـــا * علياء توسع أعداء الهدى تعسـا .
وقد تواترت الأنباء أنك مـــن * يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا .
طهرّ بلادك منهم انهم نجـــس * ولا طهارة مالم تغسل النجسـا .

وأوطئ الفيلق الجرّار أرضهم * حتى يطاطئ رأسا كلّ من رأسا .
(١)
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت * عيونهم أدمعا تهمى زكا وخسا .
(٢)
هم شيعة الأمر وهى الدار قد نهكت * داء متى لم تباشر حسمه انتكسا .
(٣)
فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها * جردا سلاهب أو خطّية دُعسا .

واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه * لعل يوم الأعادى قد أتى وعسى .

وقد حالف النجاح هذه القصيدة ، وأدت دورها فى تحويل همة الأمير لاغاثة المحاصرين يقول المقرى : "(٤) فهزت هذه القصيدة من الملك عطف ارتياح ، وحركت من جنابه أخفض جناح لشغفه بها ، وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد . "

وقد شحن الأمير الحفصى الأساطيل بالمدد لانقاذ بلنسيه ، ولكنها لم تستطع الوصول اليها لشدة الحصار فرجعت ، ورجع معها الشاعر ابن الأبار ليعيش فى تونس فى كنف ممدوحه ، واستسلمت بلنسية سنة ست وثلاثين وستمائه . وقد أعجب المقرئ نفسه بالقصيدة ، ووصفها بقوله : "(٥) .... السينية الفريده التى فضحت من بارأها ، وكبا دونها من جارها . " ولعل سبب اعجابه هو ارتياح الأمير لها وأمره بمعارضتها فالقصيدة من ناحية المعانى

---

(١) زكا : زوج ، خسا : فرد . اللسان (خسا) .
(٢) انتكس : انقلب رأسا على عقب ، اللسان (نكس) والمقصود الاستمرار والرجوع .
(٣) السلهب : الفرس الطويل . اللسان (سلهب) الخطّيه الدعسا : الرماح ، الصحاح (دعس) .
(٤) نفح الطيب : ٤/٤٥٩ .
(٥) النفح : ٤/٤٥٧ .

الرثائيه لا تضيف جديدا ، ولكن روعة القصيدة تكمن فى عاطفة الشاعر الملتهبه وأحاسيسه المرهفه التى وشحت القصيدة بلون من الأسى العميق أثناء حديثه عما أصاب الأندلس عامة من البلاء ، وتغير الأحوال بسبب العدو الملازم لهـا كما يحس القارئ المراره التى كان الشاعر يتجرعها وهو يستجدى العون لبلاده عن طريق المدح المبالغ فيه الى حد كبير أما الأسلوب فسهل مزخرف بالمحسنات اللفظيه والبديعيه التى جاءت من غير تكلف وطلب ، وقد أحسن فى اختيار القافيه مع ألف الاطلاق الداله على الفزع ومد الصوت بالصراخ ، كما أن موسيقى القصيدة تتراوح بين الشدة والخفوت ، فتشتد عند ذكر الحرب ، والفيالق الجرارة ، والخيل الجرد ..... وتخفت عند ذكر المآسى الجماعية والآلام .

ولابن الأبّار قصيدة أخرى طويلة فى نفس الغرض وموجهة الى الأمير الحفصى نفسه يقول فيها :- (١)

نادتك أندلس فلبّ نداءهـا * واجعل طواغيت الصليب فداءهـا .

صرخت بدعوتك العلية فأحبهـا * من عاطفاتك مايقى حوباءهـا (٢) .

وأشدد بجلبك جرد خيلك أزرهـا * تردد على أعقابها أرزاءهـا .

هى دارك القصوى أوت لايالـة * ضمنت لها مع نصرها ايواءهـا .

وبها عبيدك لابقاء لهم سـوى * سبل الضراعة يسلكون سواءهـا .

خلعت قلوبهم هناك عزاءهـا * لما رأت أبصارهم ماساءهـا .

دفعوا لأبكار الخطوب وعونهـا (٣) * فهم الغداة يصابرون عناءهـا .

---

(١) نسب المقرى فى النفح : ٤/٤٧٩ هذه القصيدة لمجهول ، ولكنها توجد بتمامها فى ديوان ابن الأبار المخطوط بالخزانة الملكية بالرباط من ورقه ١ - ٤ . والنقل عن النفح حيث النص محققا . ٤/٤٨٠ - ٤٨٣ .

(٢) الحوباء : النفس . الصحاح (حوب) .

(٣) الخطوب العون : التى تأتى مرة بعد مره . اللسان (عون) .

وتنكرت لهم الليالى فاقتضت * سرّاءها وقضتهم ضرّاءهــــا .

تلك الجزيرة لا بقاء لها اذا * لم يضمن الفتح القريب بقاءهــا .

رُش أيها المولى الرحيم جناحها * واعقد بأرشية النجاة رشاءهــا .

والقصيدة تحمل نفس الأفكار والمعانى التى وردت فى القصيدة السابقــة فهى تبدأ بنداء الأندلس الحار للأمير راجية نصره لها على الصليبيين ، وملقية مقاليدها اليها فهى بلاده ، وأهلها عبيده الذين يأتونه ضارعين كلمـــا دهمتهم الخطوب ، وتنكرت لهم الليالى ، فهو وحده المسؤول عن الدفـاع عنها ، واتخاذ الوسائل التى تكفل سلامتها ، ولهذا يخاطبه الشاعـــر قائلا :-

حاشاك أن تفنى حشاشتها وقـد * قصرت عليك نداءها ورجاءهـــا .

طافت بطائفة الهدى آمالهــــا * ترجو بيحيى المرتضى احياءهـــا .

واستشرفت أمصارها لا مـــارة * عقدت لنصر المستضام لواءهـــا .

ثم ينتقل الى وصف حال بلنسيه ومافعله الأعداء بها من الفســـاد والخراب فيقول متحسرا :

ايه بلنسية وفى ذكراك مـــا * يمرى العيون دماءها لا ماءهـــا .

كيف السبيل الى احتلال معاهـد * شبّ الأعاجم دونها هيجاءهـــا .

بأبى مدارس كالطلـــول دوارس * نسخت نواقيس الصليب نداءهـا .

راحت بها الورقاء تسمع شدوهــا * وغدت ترجع نوحها وبكاءهـــا .

عجبا لأهل النار حلوا جنّـــة * منها تمدّ عليهم أفياءهـــا .

أملت لهم فتعجلوا ماأمّلـــوا * أيامهم لا سوغوا املاءهـــــا .

أما العلوج فقد أحالوا حالهــا * فمن المطيق علاجها وشفاءهـا .

أهدى اليها بالمكاره جـــارح * للكفر كرّه ماءهـا وهواءهـــا .

وكفى أسى أن الفواجع جمـة (١) * فمتى يقاوم أسوها أسواءها .

مولاى هاك معادة أنباءها * لتنيل منك سعادة أبناءها .

والذى يبدو أن هذه القصيدة قد قيلت فى وقت متأخر عن القصيدة السابقة ، بعد أن فشل الأسطول الحفصى فى اغاثة أهل بلنسية المحاصرين وأصبحت المدينة وشيكة السقوط فى يد النصارى لأن الشاعر فى هذه الأبيات يعبر عما فى نفسه من الحسرات التى تهيج العبرات كلما تذكر بلنسيه التى حال العدو بينه وبينها ، وكلمة فى (ذكراك) الوارده فى البيت ، لها دلالة على البعد الزمنى الذى عمل فيه أهل الصلبان والنواقيس عملهم فى طمس معالم الهدى .

كما أن الشاعر فى البيت الأخير يشير بوضوح الى تكراره لأخبار بلنسيه على مسامع الأمير لعله يهب لنجدتها ، فهو يقول " هاك معادة أنباءها " وهذه الاعادة لابد أن يكون لها بداية ، وهى كمايتضح قصيدته السينيه . ويلاحظ على لغة الشاعر هنا شئ من الانكسار الذى ليس من طبيعته ، وذلك عندما يصف حال الحمائم التى غدت تنوح فى أدواح بلنسيه بعد أن كانت تشدو وتصدح ، وفى عجبه من أولئك الكفار كيف حلّوا جنة الدنيا وتنعموا بأفيائها وخيراتها حتى ضاق بهم هواؤها وماؤها ، ثم نراه يختصر تعداد المصائب والفواجع ، وكأنه لا يطيق ذلك فيقول : "كفى أسى أن الفواجع جمة " ولكن التفجع وذكر مافعله علوج النصارى بالمدينة ليس هو هدف الشاعر الذى يستصرخ ويبحث عن النصير ، المتمثل عنده بشخص الأمير يحيى الحفصى .

---

(١) الأسّ : أصل البناء . الصحاح (أسس) والمقصود هنا سيد المدينة أو حاكمها الذى يقدر على علاج الموقف .

لذا نراه يعود الى طريقته الحماسيه فينادى الأمير قائلا :-

جرّد ظباك لمحو آثار العدا * تقتل ضراغمها وتسب ظباءها .

واستدع طائفة الامام لغزوها * تسبق الى أمثالها استدعاءها .

أرسل جوارحها تجئك بصيدها * صيدا وناد لطحنها أرحاءها .

هبّوا لها يامعشر التّوحيد قد * آن الهبوب وأحرزوا عليا ءها .

أولوا الجزيرة نصرة ان العدا * تبغى على أقطارها استيلاءها .

نقصت بأهل الشّرك من أطرافها * فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها .

حاشاكم أن تضمروا الغاءها * فى أزمة أو تضمروا اقصاءها .

خوضوا اليها بحرها يصبح لكم * رهوا وجوبوا نحوها بيداءها .

دار الجهاد فلاتفتكم ساحة * ساوت بها أحياؤها شهداءها .

فهو يلحّ على الأمير أن يشرع سيفه لقتل الأعداء وأسرهم مستعينا بجيش التوحيد المتعطش للجهاد فى سبيل الله ، ويهوّل من التقاعس عن نصرة المسلمين فى الأندلس ويعتبر ذلك نقيصة يبرأ منها الحفص ، وهى طريقة جيده فى الحض على الاسراع للاستعداد الذى يحاول الشاعر أن يجعله حقيقة واقعه ، وكيف يجول فى خاطر الأمير المسلم النكوص عن مواجهة أهل الشرك الذين أخذوا يزحفون على أقطار جزيرة الأندلس وينقصونها من أطرافها :-

وكما فعل فى القصيدة السابقه من الاستبشار بالفتح واتباعه بالمدح المبالغ فيه يفعل هذا فى قصيدته هذه ويطيل فى ذلك الى مايزيد على ثلاثين بيتا تجتزئ منها مايفى بالغرض :

بشرى لأندلس تحبّ لقاءه * ويحبّ فى ذات الاله لقاءها .

صدق الرواة المخبرون بأنه * يشفى ضناها أو يعيد رواءها .

ملك أمدّ النيّرين بنوره * وأفاده لألاؤه لألاءها .

خضعت جبابرة الملوك لعزّه * ونضت بكفّ صغارها خيلاءها .

سل دعوة المهدى عن آثاره * تنبيك أنّ ظباه قمن ازاءها .

فغزا عداها واسترقّ رقابها * وحمى حماها واستردّ بهاءها .

قبضت يداه على البسيطة قبضة * قادت له فى قدّة أمراءها .

فعلى المشارق والمغارب ميسم * لهداه شرف وسمه أسماءها .

دانت له الدنيا وشمّ ملوكها * فاحتلّ من رتب العلا شماءها .

سامى الذوائب فى أعزّ ذؤابة * أعلت على قمم النجوم بناءها .

فئة كرام لا تكفّ عن الوغى * حتى تصرّع حولها أكفاءها .

وبعد هذا المدح المسهب الذى جعل الأمير الحفصى ملكا تخرّ له جبابرة البسيطة ساجدين يقف الشاعر فى آخر القصيدة معتذرا ، وطالبا الصفح من الأمير لأنه وقف عاجزا عن احصاء مناقبه ومكارمه :-

صفحا جميلا أيها الملك الرضى * عن محكمات لم نطق احصاءها .

تقف القوافى دونهن حسيرة * لا عيها تخفى ولا اعياءها .

والقصيدة غنية بمفرداتها وتراكيبها ، وهى بلاشك تظهر مدى احاطة الشاعر باللغة العربية وأساليبها كما أن طولها مع سابقتها يكشف عن شاعرية ابن الأبّار الفذة ، وعبقريته ، وطول نفسه وحسن تصرفه فى المواقف الشعرية المختلفة ، الا انه أسرف فى استخدام الصنعة البيانية ، فشاب معانيه بعض التعقيد ، وألفاظه شئ من الغرابة ، وانك لتحس التكلف واضحا فى كثير من الأبيات التى يحاول جهده فى تركيبها وجمع

---

(١) القدّة : سير يقد من جلد غير مدبوغ . الصحاح (قدد) .

شتات مفرداتها . وربما كان هذا التحمل راجعا الى نفسية الشاعر المضطربه التي لم تنطلق على سجيتها ، فهو في مجال حشد فيه كل طاقاته النفسية والأدبية والبلاغية ليحصل على النتيجة الكبيرة التي وفد من أجلها ولا يكون ذلك الا بالتأثير على نفس الأمير وانعاشها ، ولذلك ذهب الشاعر يبحث عن التأثير المنشود باظهار براعته باستخدام السجع والجناس والطباق وغيرها حينا ، وبالاطناب في المدح مع المبالغة الشديدة حينا آخر .

ومهما يكن من أمر فان الشاعر قد قام بواجبه نحو دينه ، وبلاده قياما ايجابيا فعالا سجله التاريخ بحروف ناصعة تختلف عمن شهد هذه الأحداث من الشعراء وقصر جهده على البكاء والعويل .

استصراخ الأندلسيين لبني مرين (١) :-

عندما كانت شمس الموحدين تميل تدريجيا نحو الغروب ، ظهرت في

---

(١) هم بطن من بطون قبيلة زناته البربرية الشهيره . وهم يرجعون نسبهم الى العرب المضريه بالانتساب الى قيس عيلان . وكانت القبائل المرينيه في بداية أمرها تتنقل في صحارى المغرب الأوسط وهضابه ، ثم توغلوا في المغرب ابان ضعف الموحدين ، واشتبكوا معهم وهزموهم عدة مرات حتى أزالوهم بالتالي . وملكوا المغرب مكانهم ، وكانت عاصمتهم مدينة فاس . / انظر : الذخيرة السنيه : ١٦ ، الاستقصاء : ٢/ ١٣ ، عنان ، نهاية الأندلس : ٩٥ .

المغرب دولتان قويتان هما : الدولة الحفصيه فى تونس (افريقيه) والدولة المرينيه فى فاس ، وقد ألمحنا الى ذكر الدولة الحفصيه فيما سبق . أمـــا المرينية فهى من أعظم الدول التى خلفت الموحدين اتساعا وقوه ، فقـــد كانت تحكم المغرب الأقصى كله بعد أن قضت على آخر الموحدين ودخلـــت عاصمتهم مراكش سنة ثمان وستين وستمائه (١) ، وقد قامت هذه الدولة الفتيـــه برسالتها فى الدفاع عمّا بقى من الأندلس ، وبخاصة مملكة غرناطـــــه ، ومثلت الدور الذى أداه قبلهـا المرابطـون والموحدون فى جهـاد النصـــارى . ففى سنة سبعين وستمائه وصل صريخ ابن الأحمر حاكم غرناطــه الى السلطـان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور ، وكان هــذا السلطان مولعــا بجهاد الكفار كلفا به (٢) ، فعلى الرغم من اشتغاله بحــروب أعدائه من القبائل الثائره فى تلمسان وغيرها ، فانه أرسل الى ابن الأحمر رسالة يعده فيها بالنصرة ويقول (٣) : " ... وانا لنرجو أن نصلكم بنفـــوس صلح جمهورها وسرّها ، ونقدم عليكم بمايبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لهـا الفرج من المكاره ، ويذّهب عسّرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعـــونه ..... " ثم جهز ولده فى خمسة آلاف مقاتل وأرسله الى الأندلس ، فعبر البحر ونفذ الى أرض النصارى وانتصر عليهم وعاد مثقلا بالغنائم والسبى وفى هذا الوقت كان السلطان نفسه قد استكمل أهبته فجاز الى الأندلس

---

(١) نهاية الأندلس : ٩٧ .

(٢) تاريخ ابن خالدون : ٧/١٩٤ .

(٣) الذخيرة السنيه : ١٦٢ .

فى جيش كثيف من البربر والعرب ، وظل يكتسح مافى طريقه الى أن وصل قريبا من قرطبه ، وهناك خرج اليه جيش نصرانى كبير بقيادة قائدهم الأشهر (ذننه) (١) ، والتقى الجيشان فى موقعة عظيمه بالقرب من (استجه) (٢) سنة أربع وسبعين وستمائه وصمد المسلمون بقيادة السلطان الذى لم يزل يحض جنده على الاستشهاد حتى انجلت المعركة عن نصر ساحق للمسلمين أعاد الى الأذهان ذكريات موقعة الزلاقة والأرك المجيدتين . وتقدر الرواية الاسلاميه عدد قتلى النصارى بثمانية عشر ألفا جمعت رؤوسهم وأذن عليها لصلاة العصر (٣) .

وكان مااستصرخ به السلطان المرينى قصيدة من نظم الشاعر ابن المرابط (٤) شاعر ابن الأحمر (٥) يقول فيها :-

هل من معيني فى الهوى أو منجدى * من متهم فى الأرض أو من منجد .

هذا الهوى داع فهل من مسعف * باجابة وانابة أو مسعد .

---

(١) مدينة قديمه تقع جنوبى غربى قرطبه ، محكمة البناء عظيمة الأسوار والآثار والرسوم ، فتحها المسلمون سنة ٩٢ هـ وهى خصبة التربة كثيرة الزرع والشجر ، واشتهر أهلها بمخالفة أولى الأمر والخروج عن الطاعه . / الروض المعطار " أستجه " .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ١٠٠ .

(٣) الذخيره السنيه : ١٧٣ .

(٤) هو محمد بن على بن عبد الرحمن المرادى ، شاعر مطبوع رقيق الشعر سلك مسلك المرقيقين ، وترك سبيل المتشدقين . وأخباره قليله جدا لا نكاد نقف منها على شىء من حياته الا أنه مات صغيرا ولم يتكسب بالشعر ، فلم يشتهر / الخريده : قسم شعراء الأندلس والمغرب : ٥٢٣/٢ .

(٥) تاريخ ابن خلدون : ١٩٨/٧ - ٢٠٠ .

هذى سبيل الرشد قد وضحت فهل * بالعدوتين من امرئ مسترشـد .
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو * يخشى المصير الى الجحيم الموقد .
يا آمل النصر العزيز على العـدا * أجب الهدى تسعد به وتؤيـد .
سر النجاة الى النجاة مشمـرا * ان الهدى لهو النجاة لمن هدى .
لا تغترر بنسيئة الأجل الـذى * ان لم يحن لك نقده فكأن قـد .
سفر عليك طويلة أيامـه * ولم تستعدّ لطوله فاستعـدد .
أو ماعلمت بأنه لا بدّ مـن * زاد لكل مسافـر فـتزوّد .
هذا الجهاد رئيس أعمال التقـى * خذ منه زادك لارتحالك تسعـد .
هذا الرباط بأرض أندلس فـرح * منه لما يرضى الهك واعتـد .

يبدأ الشاعر قصيدته بمقدمة وعظية يبين من خلالها قصر أجل الانسان في الحياة ، وأنه مهدد بالموت بين اللحظة والأخرى ، وبعد هذا المـوت والرحيل عن الدنيا تبدأ الرحلة الأخروية الشاقة حيث الحساب والعقـاب فالسعيد الفائز هو من اتبع الهدى ان هو سر النجاة الذى من تزود به رشد وسعد ، وهذا الهدى الذى يركّز الشاعر على ذكره يتبلور في الجهـاد الذى دقت ساعته ، فهو يشير اليه بهذا ليدلل على قربه ووقوعه ، فما على السلطان المخاطب الا أن يبادر الى كسب حظه منه ثم يتوجه الشاعر الـى السلطان المرينى ليشحذ همته عن طريق شرح حال الاسلام والمسلمين فـى الأندلس فيقـول :-

من ذا يطهـّر نفسه بعزيمـة * مشحوذة في نصر دين محمـد .
أتعزّ من أرض العدو مدائـن * والله في أقطارها لم يعبـد . ؟
وتذلّ أرض المسلمين وتبتلـى * بمثلّثين سطوا بكل موحـد .
كم جامع فيها أعيد كنيسـة * فأهلك عليه أسى ولا تتجلـد .

القسّ والناقوس فوق منـــاره * والخمر والخنزير وسط المسجد .

أسفا عليها أقفرت صلواتهـا * من قانتين وراكعين وسجـــد .

وتعوضت منهم بكل معانـــد * متكبر قد كان لم يتشهـــد .

كم من أسير عندهم وأسيـــرة * فكلاهما يبغى الفداء فمافـــدى .

كم من عقيلة معشر معقولـــة * فيهم تودّ لوانها فى ملحـــد .

كم من تقىّ فى السلاسل موثـــق * يبكى لآخر فى الكبول مقيـــد .

وماد ام مسلمو الأندلس بهذه الحالة المحزنه من الذل والقهر فــان أولى من يستغاث به هو الجار المسلم . فنجد الشاعر يناديه باسم الأخـوه الاسلاميه وباسم الجوار وحقوقه فيقول :-

أفلا تذوب قلوبكم اخواننـــا * ممادهانا من ردى أو من ردى ؟ :

أفلا تراعون الأذمة بيننــا * من حرمة ومحبة وتـودّد ؟ :

أكذا يعيث الروم فى اخوانكــم * وسيوفكم للثأر لم تتقلّـــد ؟ :

ياحسرتى لحمية الاسلام قـــد * خمدت وكانت قبل ذات توقد .

أين العزائم مالها لا تقتضـى * هل يقطع الهندىّ غير مجرد .

أبنى مرين أنتم جيراننـــا * وأحق من فى صرخة بهم ابتدى .

فالجار كان به يوصّى المصطفى * جبريل حقا فى الصحيح المسند .

وهو هنا يكثر من الاستفهام المفيد للتقريع ليكون أبلغ فى اشعارهـــم بالتقصير وتضييع حقوق الجار التى لها منزلة عظيمة فى الاسلام . وهــذا الأسلوب ربما كان أفضل ماينتهج مع قوم كالمرينيين الذين عرفوا بحبهـــم للجهاد ، وتفضيلهم له على سائر الأعمال فهو يلهب حماسهم عندما يقـــول " أكذا يعيث الروم فى اخوانكم ...." أو عندما يصف حمية الاسلام بأنهـــا

خمدت فى عهدهم وكانت من قبلهم مشتعلة . ثم يأخذ فى بيان فريضة الجهاد على المسلمين ككل ويخص أهل المغرب لقربهم من ميدان القتال :-

أبنى مرين والقبائل كلها * فى المغرب الأدنى لنا والأبعد .
كتب الجهاد عليكم فتبادروا * منه الى الفرض الأحق الأوكد .
وارضوا باحدى الحسنيين وأقرضوا * حسنا تفوزوا بالحسان الخرّد .
هذى الجنان تفتحت أبوابها * والحور قاعدة لكم بالمرصد .
لله فى نصر الخليفة موعد * صدق فثوروا لا نتجاز الموعد .
أنتم جيوش الله ملء فضائه * تأسون للدين الغريب المفرد .
ماذا اعتذاركم غدا لنبيكم * وطريق هذا العذر غير ممهد .
ان قال لم فرطتم فى أمتى * وتركتموهم للعدو المعتدى .
تالله لو أن العقوبة لم تخف * لكفى الحيا من وجه ذاك السيد .
اخواننا صلوا عليه وسلموا * وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد .
واسعوا لنصرة دينه يسقيكم * من حوضه فى الحشر أعذب مورد .

والملاحظ على القصيدة خلّوها من المدح الذى يلازم هذا النوع من الشعر ، فهى تقتصر على المعانى الاسلامية فحسب كبيان سبيل المجاهد الذى يفضى الى احدى الحسنيين : الشهادة أو النصر كما تشير الى عتاب النبى -صلى الله عليه وسلم- الشديد للذين خذلوا اخوانهم المسلمين وتركوهم فريسة للعدو الكافر ، ولعل سبب خلوها من المدح يرجع الى نفس المستنجد به الذى لا يريد أن يكون المديح هو دافعه للجهاد ، بل يريد أن يجعل نيته خالصة لله ، ومنه يرجو الثواب الجزيل . وسبب آخر ربما قصد اليه الشاعر عند كلامه عن الأخوة الاسلامية والجوار ، وهو اشعار السلطان المرينى بأن الأندلس بلاده ، والدفاع عنها واجب عليه ، فقيامه بهذا

الواجب المفروض لا يحتاج الى مدح .

أما أسلوب القصيدة فهو سهل بعيد عن التوعر ، يعتمد على الواقعيه فيما جرى ويجرى لأهل الأندلس من الفتن ، ويبعد عن الخيال ، والصور والظلال لأنه ينطلق من واقع شاهد يعيشه بعواطفه وأحاسيسه ، وهذه النفحات الانسانيه من الألم والحزن والرجاء هى معدن الجمال فى هذا الشعر .

وقد عارض هذه القصيدة ، وأجاب عما فيها من استفهام شاعر السلطان المرينى مالك بن المرحّل (١) وذلك بعد أن انتهت المعارك الحماسه التى دحر فيها السلطان النصارى ، وخضد شوكتهم وعقد العزم على الرجوع الى عاصمته فاس بعد أن مكث فى الأندلس ستة أشهر ، يقول ابن المرحل : (٢)

شهد الاله وأنت ياأرض اشهدى * أنا أجبنا صرخة المستنجد .
لمّا دعا الداعى وردّد معلنا * قمنا لنصرته ولم نتردد .
نسرى له بأسنّة قد جرّدت * من غضبها والصبح لم يتجرّد .
لولا الأسنة والسنابك مادرى * أحد بسير خيولنا فى الفرقد .
والخيل تشكونا ولا ذنب سوى * أنا نروح بها وأنّا نغتدى ..

---

(١) هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المرحّل المصمودى نسبا ، والسبتى بلدا . ولد بمالقه سنة ٦٠٤ هـ . برع فى الشعر والأدب وعلوم اللغه والفقه . تولى القضاء بجهات غرناطه ، ثم رحل الى فاس وكتب للسلطان المرينى المنصور ثم لولده يوسف . وتوفى ابن المرحل سنة ٦٩٩ هـ بفاس أنظر : عبد الله كنون ، ذكريات مشاهير رجال المغرب : ٦/٨ .

(٢) رضوان الدايه ، مختارات من الشعر الأندلسى : ١٨٢ - ١٨٤ .

لو أنها طمعت بنا فى قصدنا * كانت تطاير بنا ولم تتردد .

الله يعلم أننا لم نعتقد * الا الجهاد ونصر دين محمد .

وهو هنا يبين استجابتهم لصريخ الأندلس ، وسرعة استعدادهم للجهاد فى سبيل الله ولاعزاز دين محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو بهذا يجيب نداء ابن المرابط فيما سبق حينما قال :

من ذا يطهر نفسه بعزيمة * مشحوذة فى نصر دين محمد .

ثم يسترسل الشاعر فى وصف رحلة الجهاد ، وخوض البحر لانقاذ الاخوان المقيدة :-

ثم اعترضنا البحر وهو كأنه * ملك تقدم فى الجيوش لمرصد .

فترامت الخيل العطاش لورده * هيهات ما الماءُ الأجاج بمورد .

ياخيل ان وراءنا منا ءً رِوًى * ومشاربا ، ومزارعا لم تحصد .

وأحبة بين الفواقد أصبحوا * يتوقعون الموت ان لم ننجد .

من مطلق العبرات الا أنه * تجرى دموع جفونه لمقيّد .

ومُفجّع لا يستلذ بمطعم * ومروّع لا يستقرّ بمرقد .

إخواننا فى ديننا وودادنا * ولهم مزيد تحبّب وتودّد .

نسرى بأجنحة البُزاة الى العدا * مثل الحمام الحائمات السوّد .

واستقبلت بحر الزقاق بعصبة (١) * نفذت عزائمها ولم تتعدّد .

فاستبشروا فى أفقهم بطلوعنا * كالشمس يوم طلوعها للأسعُد (٢) .

حتى بغتنا القوم فى أوطانهم * إن الحوادث لا تجئ بموعد .

ثم التقينا بالذين استصرخوا * منا بكل مؤيد ومسدد .

---

(١) بحر الزقاق : هو البحر الأبيض المتوسط ، أو مضيق جبل طارق .

(٢) الأسعد : هى الكواكب العشره التى يقال لكل واحد منها سعد . اللسان (سعد) .

ولا شك أن المجاهدين قد تجشموا عناء كبيرا فى سبيل الوصول الى الأندلس ، فالبحر الهائج هو أول مايعترض الطريق وهو عقبة تحتاج الى عزيمة لاقتحامها . ثم يصور منظر الخيل المجهدة العطشى وشوقها الى الماء ولكن هيهات أن يكون هذا موردها وغاية منتهاها ، فماهذا البحر الأجاج الا بداية الطريق للوصول الى الماء العذب ، والزرع اليانع فى ديار الأحبة البائسين الذين لم يعودوا يستلذون المطاعم والمشارب ، ولا يذوقون طعم النوم لما دهاهم على يد العدو من القتل والأسر واضطراب الأحوال الأمر الذى لا يحتمل التأخير عن نصرتهم وعونهم . فكانت البشرى فى نهاية الأمر حيث عبرت جنود الجهاد وباغتت العدو ، وأوقعت به مالم يكن يتوقع ، وفرّج الله بهم كرب اخوانهم . والشاعر يصف مجرى الحوادث وصفا واقعيا وبدون تفصيل كثير لأجزاء المشاهد الحربيه ، وبدون مدح أو فخر لأنه كان يهدف من قصيدته اجابة ابن المرابط ومعارضته ، أما ماجرى من صدق الجهاد فقد شاهده الأندلسيون بأعينهم مما لا يحتاج معه الى بيان أو تفصيل .

ولقد كان مالك بن المرحل يقوم فى المغرب بحركة واسعة تدعو لانقاذ الأندلس المحتضره ، فقد نظم فى سنة اثنتين وستين وستمائه قصيدة طويله (١) يستنفر فيها المجاهدين من بنى مرين وغيرهم وكان آنذاك كاتبا للسلطان المرينى أبى مالك بن يعقوب ، وقد قرئت القصيدة بصحن جامع القرويين فى فاس بعد صلاة الجمعه ، فبكى الناس ، وانتدب كثير منهم للجهاد . ومماجاء فى القصيدة : (٢)

---

(١) شارك فى هذه الحركه أناس آخرون بأساليب متنوعه . انظر / عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٤٣٥/٢ .

(٢) كنون ، ذكريات مشاهير رجال المغرب : ٢٧/٨ - ٢٩ .

استنصر الدين بكم فاستقدموا * فانكم أن تُسلِموه يُسلَمُ .

لا تسلموا الاسلام يا اخواننا * وأسرجوا لنصره وألجموا .

لانت بكم أندلس ناشدةً * برحم الدين ونعم الرَّحِمُ .

فاسترحمتكم فارحموها إنّه * لا يرحمُ الرحمن من لا يَرْحَمُ .

ماهى الا قطعة من أرضكم * وأهلها منكم وأنتم منهم .

لكنها حدّت بكل كافر * فالبحر من حدودها والعجم .

لهفا على أندلس من جنة * دارت بها من العدا جهنم .

استخلص الكفار منها مدنا * لكل ذى دين عليها ندم .

قرطبة هى التى تبكى لها * مكةُ حزنا والصّفا وزمزم .

وحمص وهى أخت بغداد وما * أيامها الا صِبا والحُلُم .

استخلصوها موضعا فموضعا * واقتدروا واحتكموا وانتقموا .

وقتّلوا ومثّلوا وأسروا * واحتطوا وأيتموا وأيّموا ..

يستصرخ الشاعر أهل المغرب باسم الاسلام لأنه الرحم القويه التى تجمع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ويدفعهم الى التضحية وبذل النفوس متميزة بذلك عن الروابط الأخرى التى سرعان ماتزول عند وقوع الخطر ومن هذا المنطلق فقد جاءت الأندلس تطلب صلة هذه الرحم ، راجية نصرة المجاهدين على الكفار الذين حولوا جناتها الى جحيم ، واقتطعوا منها أجزاء غالية كقرطبة واشبيلية عاصمتى الاسلام فى الأندلس ، وساموا المسلمين فيهما أنواع العذاب . وهم لم يفعلوا ذلك الا لأنهم ظنوا أن - لا ناصر لها :-

ظنوا وكان الظن منهم كاذبا * أن ليس لله جنود تُقْدِمُ .

ماصدّقوا أن وراء البحر مَنْ * يغضب للاسلام حين يُظلم .

ولا دروا أن لديكم حُرمـــة * يحفظها شبابكم والهـرم .

لو عرفوا قبائل العُدوة ما * عدوا على جيرانهم واجترموا .

اليوم يدرى كلُّ شيطان بهـا * أن قد رمتهم بالشعاع الأنجم .

ووهو هنا يستثير عزائمهم بوصفهم بجنود الله الذين يغضبون لحرماته عندما تنتهك ، كما يرفع من شأنهم بحمايتهم للجار وصيانته ، فمابالك وقد اعتدى الكفار على جيرانهم ، وعاثوا فى ديارهم ، ان الدفاع قد وجب عليهم ولا شك . ثم يحاول دفعهم الى ساحات الجهاد من جانب آخر وذلك أن غيرهم قد سبقهم فى هذا المجال ، وأدى دوره ، وفاز بالأجر والمغنم :-

ياأهل هذى الأرض ماأخركم * عنهم وأنتم فى الأمور أحزم .

تسابق الناس الى مواطن * الأجر فيها وافر والمغنم .

وقامت الحرب على ساق فما * زلت لأهل الصدق منهم قدم .

باعوا من الله الكريم أنفسا * كريمة ففاض منها الحكم .

دعاهم الله الى رحمته * وحيّهم بين يديه يخدم .

أخرجه من بيته ايمانه * وحبه فى فعل مايُقدّم .

ماهمّه الا قتال أمة * يُكفّرُ عيسى قولهم ومريم .

لم يثنه عن عزمه أهل ولا * مال ولا خوف نعيم يعدم .

ومادامت عاقبة الجهاد عظيمة ، والقوم أولى ايمان وحزم فقيم القعود اذن ؟ :

إخواننا ماذا القعود بعدهم * أفى ضمان الله مايتّهم .

هل هى إلا جنةٌ مضمونة * أو عودة صاحبها مكرم .

حُدّوا السلاح انفروا وسارعوا * الى الذى من ربكم وُعدتم .

ان أمام البحر من اخوانكم * خلقا لهم تلفت اليكم .
ونحوكم عيونهم ناظرة * لا تطعم النوم وكيف تطعم ؟ .
والروم قد همت بهم ومالهم * سواكم رد ، فأين الهمم .
كلهم ينظر فى أطفاله * ودمعه من الحذار يسجم .
أين المفر لا مفر انما * هو الغياث أو اسار أو دم .

والقصيدة سهلة فى أسلوبها ، واضحة فى أفكارها ومعانيها ليس فيها تعمل ولا صنعه ، وذلك لأنها كانت موجهة الى عامة المسلمين فى دولة بنى مرين ، وقد انطلق فيها صوت الشاعر الثائر معبرا عن عاطفته الاسلامية القويه يحث على الذب عن الاسلام الذى جاء مسترحما مايلاقى من الشدة وداعيا الى استخلاص ماأخذ من أراضى الأندلس طلقيا تبعة ذلك على من يخاطبهم لأن أرض المسلمين واحده وان حالت الحواجز دون اتصالها .

فما أصاب قرطبة أبكى مكة وحرمها وفى ذكر الأماكن المقدسة على هذه الصورة من الحزن دفعة قوية لهم القوم وعزائمهم نحو الجهاد .

لسان الدين بن الخطيب ودوره فى استصراخ بنى مرين :-

فى منتصف القرن السابع الهجرى عاد شبح الفناء يخيم على الأندلس من جديد ، فقد أخذت قواعدها الكبرى كقرطبة وبلنسية واشبيلية تسقط تباعا فى يد النصارى ، واجتاحت الفتن والثورات المحليه أجزاء أخرى حتى كاد يرجع عصر الطوائف من جديد . وتمخضت هذه الفوضى بالتالى عن ولادة مملكة اسلامية جديدة فى جنوب الأندلس هى مملكة

غرناطة التى (١) عاشت حوالى قرنين ونصف فى صراع مرير مع النصارى المتربصين مما اضطر حكامها فى كثير من الأحيان الى عقد صلح جائر الشروط مع النصارى وذلك بدفع المبالغ الماليه الضخمه كجزية سنويه ، مع التنازل عن كثير من المدن والحصون (٢) . ولعل موقعها الجغرافى كان له أكبر الأثر فى صمودها هذه المدة الطويله فهى تقع وراء القواعد والثغور الجنوبيه المنيعه ، ويفصلها عن أسبانيا النصرانيه نهر الوادى الكبير ، وفى الوقت نفسه كانت قريبه من عدوة المغرب حيث الدولة المرينيه التى كانت الساعد الأيمن لهذه المملكة .

وقد كان لسان الدين بن الخطيب يشغل منصب الكتابة والوزارة فى هذه المملكه أيام سلطانها يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجى المكنى بأبى الحجاج الذى توفى سنة أربع وثلاثين وسبعمائه (٣) ثم لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالغنى بالله الذى تحرك النصارى صوب غرناطة فى أيامه ، فبعث وزيره ابن الخطيب مستنجدا بالسلطان المرينى أبى عنان فارس فقال بين يديه : (٤)

---

(١) أسسها محمد بن يوسف بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى . من سلالة سعد بن عباده رضى الله عنه - ولد سنة ٥٩٥ هـ بأرجونه (بلدة صغيره تقع شمال غربى مدينة جيان) وعرفت دولتهم باسم الدولة النّصريّه وهى آخر معاقل المسلمين فى الأندلس . / انظر : الاحاطة : ١٥٨/١ ، عنان : نهاية الأندلس : ٣٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ١١٠/٧ .

(٣) ابن الخطيب ، اللمحه البدريه : ١٠٣ - ١٠٤ .

(٤) المقّرى : ازهار الرياض : ٢٠٦/١ .

خليفة الله ساعد القدر * علاك مالاح فى الدّجى قمر .

ودافعت عنك كفّ قدرته * ماليس يستطيع دفعه البشر .

ليس لنا ملجأ نؤمّله (١) * سواك أنت الثمال والوزر .

وجهك فى النائبات بدر دجى * لنا وفى المحل كفّك المطر .

والناس طرا بأرض أندلس * لولاك ماأوطنوا ولا عمروا .

وجملة الأمر أنه وطن * فى غير عليائك ماله وطر .

ومن به مذ وصلت حبلهم * ماجحدوا نعمة ولا كفروا .

وقد أهمتهم نفوسهم * فوجهونى اليك وانتظروا .

والأبيات كلها مدح للسلطان بصفات الشجاعة والكرم ، مع التأكيد على ولاء أهل الأندلس له واعترافهم بفضله السابغ وطلبهم المزيد منه . وقد أجاد الشاعر الوزير فى اختيار الألفاظ التى تصلح لهذا المقام ماجعل السلطان يهتز لهذه الأبيات ، ويقول لابن الخطيب قبل أن يجلس ، ماترجع اليهم الا بجميع طلباتهم (٢) . ثم أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ماطلبوه .

وقد شغل شعر الاستغاثة ، والحث على الجهاد ومدح المجاهدين من السلاطين المسلمين حيزا كبيرا من حياة ابن الخطيب وشعره ، وذلك بحكم منصبه الخطير ، وحرصه على سلامة بلاده . فله من قصيدة وجهها لكافة المسلمين بالمغرب من أهل الأندلس عند كلب العدو الكفور ، وظهوره على بعض الثغور (٣) :

---

(١) الثّمال : الملجأ ، والغياث . الصحاح (ثمل) ، الوزر : الجبل الذى يعتصم به ، وهو السلاح أيضا . اللسان (وزر) .

(٢) الاحاطه : ١/٢٣ .

(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصّيب والجهام : ٦٢٨ - ٦٣٠ .

اخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا * فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا .
وان بلغ الماء الزّبا فتداركوا * فقد بسط الدين الحنيف لكم كفّا .
تحكم فى سكان أندلس العدا * فلهفا على الاسلام مابينهم لهفا .
وجاشت جيوش الكفر بين خلالها * فلا حافرا أبقت عليها ولا ظلفا .
أنوما واغفاء على سنة الكرى * ومانام طرف فى حماها ولا أغفا .
أحاط بنا الأعداء من كل جانب * فلا وزرا عنهم وجدنا ولا كهفا .

يوجه الشاعر خطابه الى اخوانه فى العقيدة ملتمسا فضلهم وعونهم لنصرة الاسلام الذى يمدّ يديه مستغيثا بعد أن تحكم الأعداء فى بلاده ، وأحاطوا بأتباعه من كل جانب وفعلوا بهم الأفاعيل :-

فمن معقل حل العدوّ عقاله * ومن مسجد صار الضلال به وقفا .
ومن صبيه حمر الحواصل أصبحت * تقلّب ذعرا بين أعدائها الطّرفا .
ومن نسوة أضحت أيامى حواسرا * يعاين فى أعيانها الوهن والضعفا .
وسيلتنا الاسلام ، وهو أخوة * من الملأ الأعلى تقربنا زلفا .
فهل ناصرٌ مستبصر فى يقينه * يجير من استعدى ويكفى من استكفا .
ومنتجز فينا من الله وعده * فلا نكث فى وعد الاله ولا خلفا .
وهل بائع فينا من الله نفسه * فلا مشتر أولى من الله أو أوفا .

ثم يتوجه الى أهل المغرب من المرينين وغيرهم مستثيرا عواطفهم الاسلاميه بشئ من المدح المشوب بالعتاب لتأخرهم عن الجهاد بعض الشئ قائلا :

أفى الله شك بعد ما وضح الهدى ؟ * وكيف لضوء الصبح فى الأفق أن يخفا .
وكيف يعيث الكفر فينا ودوننا * قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا .
غيوث نوال كلما سئلوا الندى * ليوث نزال كلّما حضروا الزحفا .
اذا كاتبت يوما فأقلامها القنا * وان أرسلت كانت صفائحها الصّحفا .

فقوموا برسم الحقّ فينا فقد عفا * وهبّوا لنصر الدين فينا فقد أشفا (١) .
وهانحن قد لذنا بعز حماكم * ونرجو من الله الإدالة (٢) واللّطفا .

انه يخاطب قوما مسلمين أدركوا قيمة الجهاد ، وخاضوا غماره فى الأندلس مرات عديدة ، وظفروا بالعدو ، وأغاثوا اخوانهم . فلذلك نرى نبرته الحماسية القويه التى تستنكر أن يعربد الكفر ويصول بالأندلس المسلمه ، ومن ورائها الالاف من ليوث أهل المغرب المرهوبة الجانب .

أما أسلوب ابن الخطيب فتغلب عليه الصنعة البلاغية بمختلف ألوانها ، ويستوى فى ذلك شعره ونثره (٣) ، وذلك لأن السجع والزخرفه كان هو طابع الأساليب الأدبيه فى الأندلس منذ القرن الخامس الهجرى الى القرن التاسع وقد كان شاعرنا علما من أعلام الأدب فى هذا المجال ، أما عاطفته فهى ثائرة دفاقة تشف عن همة عالية تتسامى فوق الجراح والمصائب . فقد كان ابن الخطيب يرى بثاقب بصره ، ومن مجريات الأحداث النتيجة الحتمية التى سيؤول اليها أمر الأندلس المضطرب ، ولكنه ظل يحث على الجهاد فى حماس ويمدح المجاهدين ، حتى انه عندما انهزم سلطانه ابن الأحمر وساعده السلطان أبو الحسن المرينى فى معركة طريف (٤) لم يعدها هزيمه - مع ضخامتها -

---

(١) أشفى : شارف ، وقرب . الصحاح (شفى) .

(٢) الادالة : النصر والغلبه . المصدر نفسه (دول) .

(٣) انظر رسائله النثريه فى استنجاد بنى مرين فى النفح : ٤/٤٠٤ ومابعدها .

(٤) طريف : جزيرة على البحر المتوسط ، يتصل غربيها بالمحيط الأطلسى وتقع فى أول المجاز من المغرب الى الأندلس وهى تنسب الى طريف بن مالك مولى موسى بن نصير أول من وطئت قدماه الجزيره حينما بعثه موسى بحملة استطلاعيه قبل الشروع فى فتح الأندلس ./ الروض المعطار (طريف) . ومعركة طريف حدثت سنة ٧٤١هـ فى هذا الموضع عندما =

وراح يشبّهها بمعركة أحد ، متوعدا النصارى بالثأر القريب قائلا (١) :-

ان الحروب سجال طالما وهبـت * فى اليوم فرصتها واسترجعت لغد .

لا يغرر الروم مانالـوا ومافعلوا * فان ذلك املاء الى أمـد .

فللقلوب من الغماء منصـرف * بما تقدم فى بدر وفى أحـد .

وان دون طلاب الثأر أسـد وغى * من قومك الغرّ أو آبائك النّجـد .

قد أقطعوا كلّ مشحوذ الغرار (٢) الى * شنّ الغوار وسلّوا كلّ ذى ميد (٣) .

والعزم باد وصنع الله مرتقـب * والفتح منتظر ان لم يحن فقـد .

وعادة النصر لا تستبطـ مقدمهـا * ان لم توافك فى سبت ففى أحـد .

استمر لسان الدين بن الخطيب فى وزارة أبى الحجاج الى أن توفى قتيلا فى سنة خمس وخمسين وسبعمائه ، وخلفه ولده محمد الغنى بالله فثبت ابن الخطيب فى وزارته ورفع من منزلته وفوّض اليه كثيرا من أمور الدوله ، حتى أصبح الرجل المشار اليه فى حمراء غرناطه (٤) . ولكن هذا المجد لم يدم طويلا اذ سرعان ماتطورت الأمور وحدثت فى غرناطة ثورة أطاحت بالغنى

= حشد النصارى جموعا كبيره للاستيلاء على مابقى للمسلمين بالأندلس . فاستنفر أهل الأندلس السلطان المرينى فجاء بنفسه فى أساطيل عظيمه وجاء ابن الأحمر بقوات الأندلس . ولكن الله قضى عليها بالهزيمة وحطمت معظم مراكبها البحريه ، وأسر ابن السلطان وحريمه واستشهد فيها والد ابن الخطيب وأخوه الأكبر . / انظر تاريخ ابن خلدون : ٧ / ٢٦١ ، النفح : ٤/ ٣٨٦ .

(١) القصيدة فى ديوان ابن الخطيب السابق : ٤١٠ - ٤١١ .

(٢) الغرار : حد السيف ، اللسان (غرر) .

(٣) الميد : الميل والاضطراب . أساس البلاغه (ميد) والمقصود هنا الرماح .

(٤) انظر : أزهار الرياض : ١/ ٦٢ .

بالله ووزيره ، وزج بهما في المعتقل سنة ستين وسبعمائه (١) . وكانت تربط السلطان المخلوع علاقة موده وصداقه بملك المغرب أبي سالم المريني ، وكان أبو سالم قد لجأ اليه حينما تغلب عليه أخوه ونفاه الى الأندلس فأكرم الغني بالله مثواه . فرعى السلطان المريني هذه اليد ، وأرسل الى غرناطة سفيرا يسعى لدى الحاكم الجديد في السماح للغني بالله ووزيره ابن الخطيب بالجواز الى المغرب فنجحت المهمنه ، وعاد السفير وصحبته من كان يبغى ، فاستقبلهما أبو سالم أجمل استقبال في فاس ، واحتفل بقدومها في يوم مشهود ، وفي هذا الحفل أنشد ابن الخطيب قصيدة طويلة يدعو فيها لنصرة سلطانه يقول (٢) :-

سلا هل لديها من مخبرة ذكر * وهل أعشب الوادى ونمّ به الزهر .

وهل باكر الوسميّ دارا على اللوى * عفت آيها ، الا التوهّم والذكر .

بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى * بأكنافها والعيش فينان مخضرّ .

وجوّ الذى ربّى جناحى وكره * فها أنذا مالى جناح ولا وكر .

---

(١) قام بهذه الثورة أخو الغني بالله ، اسماعيل الذى كان معتقلا في بعض أبراج الحمراء ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الأنصار وعلى رأسهم صهره المكنى بأبي عبد الله ، وفي الثامن والعشرين من رمضان من السنة المذكوره استغل هؤلاء القوم تحول السلطان الغني بالله الى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقى الحمراء ، وابتعاده عن دار الملك وهاجموا حصن الحمراء ونفذوا الى قصر الحاجب المسمى رضوان وقتلوه ، ودقوا الطبول ونادوا باسماعيل أميرا على غرناطه . / انظر : ابن الخطيب ، اللمحة البدريه : ١٢٠ .

(٢) القصيده في المصدر السابق : ١٢٢ - ١٢٥ ، تاريخ ابن خلدون : ٣٠٧/٧ . النفح : ٨٦/٥ .

نبت بى لاعن جفوة وملالـــــــة * ولا نسخ الوصل الهنىّ بها هجــر .

ولكنها الدنيا قليل متاعهـــــــا * ولذّاتها دأبا تزور وتــــــــــزورّ .

فمن لى بقرب العهد منها ودونها * مدى طال حتى يومه عندنا شهــر .

ولله عينا من رآنـا وللأســـــى * ضرام له فى كل جانحـــة جمــر .

وقد بددت درّ الدموع يد النـوى * وللشوق أشجان يضيق لها الصدر .

أقول لأظعانى وقد غالهـا السرى * وآنسها الحادى وأوحشها الزجـر .

رويدك بعد العسر يسر ان أبشرى * بانجاز وعد الله قد ذهب العسـر .

يسير الشاعر فى قصيدته هذه على نهج عمود الشعر العربى القديـــم أو قريبا منه . فهو قد استفتح بذكر الديار التى عفت ودرست ولم يبـــق الا ذكرها ، ويستعين بذكر مستلزمات هذا الاستفتاح كذكر اللوى الذى أصبح رمزا للحنين الى الديار استعطه الشعراء عبر عصور الشعر منذ أن بدأ بذلـك امرؤ القيس فى الجاهليه . كما يذكر العفاء ، والتوهّم ، والذكر وما الى ذلـك من الأمور الدالة على شوقه لبلاده التى أخرج منها كرها من غير ملل منـــــه أو جفاء ، ثم يعلل ذلك بأن هذه هى سنة الدنيا التى يتذبذب فيها الخــير والشر ، وبعد أن وقف بالديار نراه يحث الأظعان التى أنهكها الســـــرى كما يقتضيه ترتيب قصيدة المدح الجاهليه والا أية أظعان يحدو بها الحـــادى فى الأندلس : ثم يختم تخلصـــه من وصف الرحلة المضنيه بالاستبشار بالفـــرج بعد الشده حيث الحلول فى ديار السلطان الكريم :

زجرنا بابراهيم برء همومنـــــــا * فلما رأينا وجهه صدق الزجـــر .

بمنتخب من آل يعقـوب كلمـــا * دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر .

تناقلت الركبان طيب حديثـــه * فلما رأته صدّق الخبر الخـــبرُ .

ندى لو حواها البحر لذّ مذاقــه * ولم يتعقب مدّه أبدا جـــزر .

وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى * وترفل فى أثوابه الفتكة البكر .
(١)
أطاعته حتى العصم فى قنن الربا * وهشت الى تأميله الأنجم الزهر .
قصدناك ياخير الملوك على النوى * لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر .
كففنا بك الأيام عن غلوائها * وقد رابنا منها التعسف والكبر .
ولما أتينا البحر يرهب موجه * ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر .
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها * فايمانه لغو وعرفانه نكر .
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه * اذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر .

وهكذا يأخذ الشاعر فى مدح السلطان بأسلوب جزل فخم ، فهو فرع من دوحة بنى مرين العريقه وقد سمع بذكره ، وجوده الغمر القاصى والدانى وعم ذلك الآفاق . وهو أيضا مثال الشجاعة والبأس الذى يرهبه الجميع حتى الموت نفسه ، ودان له الدهر وأصبح من عبيده ، وهذا من عظيم المبالغه لأن الدهر فى نظر الشعراء دائما يرمز الى البلاء المتسلط ، والعدو الذى لا يهزم أبدا . وقد وضعه ابن الخطيب بهذه المنزله ، ليهوّن أمر استرداد سلطان سيده الغنى بالله من تلك الشرذمه الضعيفه اذا ماشدّ الممدوح عزيمته . ثم يسترسل الشاعر فى المدح واصفا خلافة المرينى بأنها عز للاسلام وأهله الذين كانوا يتمنون . منذ القديم تولى أبى سالم لها :

ومدّت الى الله الأكفّ ضراعة * فقال لهن الله : قد قضى الأمر .

وبعد ذلك يصل الشاعر الى غايته وهى طلب مساعدة سيده فى ارجاع ملكه المغتصب :

---

(١) العصم : الوعول ، قنن الربا : قمم الجبال ./ انظر الصحاح (عصم) ، (قنن) .

وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه * مهيض ومن علياك يلتمس الجبر .
غريب يرجي منك ماأنت أهله * فان كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر .
ففز ياأمير المؤمنين ببيعة * موثقة قد حلّ عروتها الغدر .
ومثلك من يرعى الدخيل ، ومن دعا * بيا لمرين جاءه العزّ والنصر .
وخذ ياامام الحقّ بالحق ثأره * ففى ضمن ماتأتى به العزّ والأجر .
وأنت لها ياناصر الحق فلتقم * بحق ، فما زيد يرجى ولا عمرو .
يكف بك العادى ويحيا بك الهدى * ويبنى بك الاسلام ماهدم الكفر .
أعده الى أوطانه عنك راضيا * وطوّقه نعماك التى مالها حصر .
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها * فقد صدهم عنه التغلب والقهر .
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة * تحاولها يمناك مابعدها خسر .

ثم يعود بعد هذه الأبيات الى مدح بنى مرين رهط السلطان ، واصفا اياهم بالشجاعة وحب الجهاد واكتساب الثناء العاطر ببذل النفوس ، والصدق فى المعارك ، كما يصفهم بالأخلاق الحميده وتذوقهم للشعر :

وان مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم * نشاوى تمشت فى معاطفهم خمر .

أما عن مدى تأثير هذه القصيدة فى نفوس سامعيها ، فيقول ابن خلدون الذى كان من شهود ذلك الحفل حيث كان من أكابر رجال الدولة المرينية وكتابها - يقول : ان ابن الخطيب قد أبكى سامعيه تأثرا وأسى (١) ، ويقول ابن الخطيب نفسه : ان الناس كانوا يرتجفون تأثرا لأقواله وتسيل منهم العبرات (٢) .

---

(١) تاريخ ابن خلدون : ٧/٣٠٦ .

(٢) الاحاطه : ٢٦/١ ، وانظر نفاضة الجراب : ١٠٣ ومابعدها .

ولعل سبب هذا التأثير راجع الى صدق عاطفة الشاعر الذى مسته النكبة شخصيا فجرد من منصبه واستئصلت أمواله وضياعه ، وأصبح هو وسلطانه الغنى بالله بعد العزّ غريبين لا يملكان شيئا من الدنيا .

آخر أصوات الاستغاثة :-

فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى كانت مملكة غرناطه تعيش ظروفا قاسية جدا من الاضطراب والانقسام . فمنذ أن تولى الحكم فيها السلطان أبو الحسن على بن الأحمر سنة ثمان وستين وثمانمائه نازعه أخوه الأمير محمد بن سعد المعروف (بالزغل) أى الشجاع الذى كان واليا على منطقة مالقه (١) وأيده فى ذلك مجموعة من القواد والأجناد ، فأعلن الحرب على أخيه (٢) ، وكانت النتيجة انقسام المملكه الى شطرين متخاصمين وفى هذه الآونة التى اشتغل المسلمون فيها ببعضهم ، كانت أسبانيا النصرانيه فى آخر مراحل الاتحاد النهائى ، وتم ذلك بزواج فرناند و ابن ملك أراجون من ايسابيلا أخت ملك قشتاله ثم اعلانهما ملكين لقشتاله وأرجون سنة اثنتين وثمانين وثمانمائه (٣) ،

---

(١) مدينة بالأندلس على شاطئ البحر غربى غرناطه ، وهى قديمة البناء تحيط بها الأسوار الصخرية المنيعة وتشتهر بكثرة أشجار التين الذى كان يحمل منها الى الشام والعراق لجودته . وكان يتبعها فى آخر عهدها الاسلامى عدد من المدن والحصون / انظر الروض المعطار (مالقه) .

(٢) العربى الفاسى ، مرآة المحاسن : ١٤٢ .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ١٩٤ .

وبذلك أصبحت الأندلس - مع ماتعانيه من ضعف - تواجه أعظم قوة واجهتها فى تاريخها الطويل ، وبدا من تحركات الملكين الكاثوليكيين فرناند و وايسابيلا عزمهما على تسديد ضربة قاضية لآخر معقل اسلامى فى الأندلس أعنى غرناطه وهنا كان لابد لمسلمى الأندلس من طلب النجده من اخوانهم المسلمين فى المغرب كما هى عادتهم منذ زمن طويل ، ولكن هذا غير ممكن الآن ، حيث خبت قوة الدولة المرينيه ودخلت فى طور الانحلال ، وكان ذلك فى عهد آخر حكامهم السلطان عبد الحق الذى تولى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائه ولم يكن فى حزم أسلافه العظام فأهمل أمور الدوله ماجعل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسى يستبد بالأمر ، ويحاول نقل السلطنه الى قومه بنى وطاس (وهم بطن من بطون مرين) ولما اشتد أمره قبض عليه السلطان وقتله مع رهط من أنصاره ، وأسلم عبد الحق زمام الدولة للرعاع وبخاصة اليهود الذين عاثوا فى البلاد وبغوا ، فثار الشعب وعزل عبد الحق وقتله سنة تسع وستين وثمانمائه وبه انقرضت دولة بنى مرين ، وقام على أثرهم بنو وطاس فى حكم المغرب ، حيث استطاع زعيمهم محمد الشيخ بن زكريا ان يستولى على فاس سنة ست وسبعين وثمانمائه ثم يضم اليها سائر الجهات والقبائل ويكون الدولة الوطّاسية ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تعبر البحر لانقاذ الأندلس كالمرينيه (١) . فاستقر رأى أهل الأندلس على الاستنجاد بالمماليك حكام مصر ، فلما وصل رسل الأندلس الى القاهره قدموا كتاب الاستغاثه الى سلطانها الظاهر جقمق سنة أربع وأربعين وثمانمائه ، فرد عليهم بأنه سيبعث الى ابن عثمان سلطان القسطنطينيه أن ينجد الأندلس ولكنهم طلبوا منه عون مصر نفسها ، فاعتذر ببعد الشقه والاحتياج لكثرة المراكب والعدة . (٢)

---

(١) السلاوى ، الاستقصا : ١١٨/٤ - ١١٩ .

(٢) انظر السلوك : ق٣ ، ج ٤ ، ص ١٢١٩ ، الضوء اللامع : ٦٧/٥ .

ولم تسفر هذه الرحلة عن نتيجة ، مما شجع النصارى على المضى فى تحقيق أهدافهم بالقضاء على مملكة غرناطة قبل أن تكون نواة لخطر اسلامى داهم ينساب من وراء البحر ممثلا فى العثمانيين ، وساعدهم على ذلك قيام أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن بثورة على أبيه وعزله وتولى الحكم مكانه فى غرناطة وكان هذا السلطان ضعيفا ، حيث حاول أن يغزو النصارى ، فوقع فى أسرهم فاشترطوا لاطلاقه أن يخضع لهم ، ويجبب الصلح معهم عند المسلمين ، ويدفع جزية كبيرة مع اطلاق الأسرى النصارى ، وأن يقدم ولده رهينة حتى يتم وفاء بشروطه فلما أطلق رجع الى غرناطه حيث كان عمه الزغل قد جلس مكانه (١) فى الحكم ، فأخذ أبو عبد الله يحرض الناس على الثورة بعمه يعدهم بالسلامة والأمن الذى سيعم من جراء عقد الصلح مع ملكى اسبانيا وبالفعل انصاع الناس لأقواله وثاروا فى وجه الزغل الذى ارتد الى (وادى آش) (٢) ليستعد للحرب الذى شنها عليه ابن أخيه ، وفى غمرة هذه الأحداث تحرك الجيش القشتالى الى مالقه ليمنع باحتلالها أى مدد يأتى من البحر ، وضرب عليها الحصار فى سنة اثنتين وتسعين وثمانمائه ، وصمد أهلها صمودا رائعا ، وأوقعوا بالمحاصرين خسائر كبيره ، ولكنهم اضطروا الى التسليم عندما فتك بهم الجوع والمرض بعد ثلاثة أشهر وفرض النصارى على أهل المدينة شروطا قاسيه من أهمها : اعتبار جميع أهل مالقه رقيقا يجب عليهم افتداء أنفسهم ، مع دفع الغرامات الباهظه ، ولا يسمح لمن خرج منها أن يقيم فى غرناطه بل فى قشتاله (٣) .

---

(١) مجهول ، أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر : ١٥ .

(٢) مدينة كبيرة بالقرب من غرناطه ، تكثر فيها المياه والأنهار التى تنحط اليها من جبل شليد الواقع فى شرقها ، وعلى ضفافه تكثر الأشجار المتنوعه ، وينسب الى وادى آش كثير من العلماء . انظر الروض المعطار : (وادى آش) .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ٢١٧ .

وازاء هذا الحادث أرسل الزغل سفارة أخرى الى مصر لشرح أحوال المسلمين بالأندلس وطلب النجدة من السلطان الأشرف قايتباى (١)، وتشير بعض الروايات الى اتفاق سلطان مصر مع بايزيد الثانى العثمانى على أن يغزو الأسطول العثمانى صقليه ليشغل الأسبان عن الأندلس مقابل أن يرسل قايتباى أسطولا آخر عن طريق افريقيا يشترك فى الدفاع ومقاومة النصارى . وربما كان مثل هذا الاتفاق مستبعدا بعض الشئ لأن العلاقات بين البلدين فى هذه الآونه علاقات جفاء وقطيعة ، وتوجس شديد لدى المماليك فى مصر من تحركات العثمانيين نحوهم . وعلى فرض صحة هذه الروايه فاننا لا نجد أى أثر فعلى لأى من الطرفين المذكورين فى اغاثة الأندلسيين المحاصرين .

والذى تذكره المصادر التاريخية أن جواب قايتباى كان بارسال سفارة (٢) مصريه الى البابا والى الملكين الكاثوليكيين ، واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى أحدهما القس أنطونيوميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وزودهما بكتب تحمل استنكاره لفعل النصارى وعدوانهم على المسلمين واحتلال أرضهم ، فى حين أن رعاياه من النصارى فى مصر والقدس يعيشون فى أمن وحريه كامله ، ولهذا فانه يطلب من الملكين الكف عن البطش بالمسلمين والرحيل عن ديارهم ، ورد ما أخذ منها والا فانه سيضطر الى اتباع سياسة العنف والتنكيل مع نصارى بلاده ويهدم كنائسهم ومعابدهم . وماكانت هذه السفارة لتثنى عزم ملكى اسبانيا عن متابعة احتلال الأراضى الاسلامية وخاصة أنهما أصبحا على وشك الظفر النهائى ولكنهما مجاملة للسلطان وسله ردا بأنهما

---

(١) على محمد حموده ، تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى : ص : ٣٠٢ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ووقائع الدهور : ٣/٢٤٦ .

لا يفرقان فى المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يطيقان الصبر على ترك أرض الآباء والأجداد بيد غيرهما (١) . وذهبت هذه السفارة صيحة فى واد . ولم ينفذ السلطان وعيده ، ربما لانشغاله بتحركات العثمانيين ، وترك الأندلس تواجه مصيرها منفرده . ففى سنة خمس وثمانين وثمانمائة أرسل الملكان الى أبى عبد الله حاكم غرناطة يطلبان منه تسليم المدينه التى كانت تموج بما يزيد على أربعمائة ألف نفس من الذين هاجروا اليها عند سقوط مدنهم وحاول أبو عبد الله اقناعهم بالعدول عن ذلك ، ومذكرا اياهم بمحالفته لهم ضد بنى دينه ووطنه ، ولكن هيهات أن تستمع القوة الى كلام الضعفاء والجبناء فقرر عندئذ المقاومه واشتبك مع النصارى فى حرب غير متكافئه ، اضطر على أثرها الى التحصن داخل المدينه . فضربوا حولها حصارا شديدا مدة سبعة أشهر أنهكوا خلالها قوة المدافعين فلجأوا الى التسليم سنة سبع وثمانين وثمانمائه على ستة وخمسين شرطا (٢) من أهمها أن تسلّم قلاع الحمراء وابراجها وجميع أبواب غرناطة الى الملكين أو مندوبهما فى ظرف ستين يوما ، ويتعهد الملكان بتأمين السلطان وشعبه بكافة طبقاته على الأرواح والأموال والدين فلا يمنعوا من تأدية شعائرهم ، ولا تهدم مساجدهم ، ولا يجبر من أسلم من النصارى على الرده ، كما يحكم بين المسلمين فى المنازعات قضاة منهم ، من أراد الهجرة الى المغرب فله ذلك بكامل عدته وأمواله وبسفن النصارى . ومن أراد العودة من المغرب فكذلك . أما الضرائب فلا يدفع أهل غرناطه أكثر مما كانوا يدفعونه لحكامهم فى السابق - والى آخر هذه الشروط التى لم يكن يحلم بها أهل غرناطه

---

(١) نهاية الأندلس : ٢٢٢ .

(٢) نفح الطيب : ٤/٥٢٥ .

ولكن هل نفذ منها شئ ؟ ان فرناند و رجل الفرصة السانحه لا يحفل بوعـــد ولا عهد متى واتتـه الظروف ، كما ان ايسابيلا كانت تضطرم حماسة لعقيدتهـــا الكاثوليكيه وتستجيب لطلبات القسس الحاقدين الذين كانوا يلحون فى طلـــب القضاء على المسلمين وتشريدهم . وماهى الا سنوات قلائل حتى بدأ الطاغيـــة الكاثوليكى بنقض الشروط واحدا واحدا ، وأخذ يعد العدة لتذويب الشخصية الاسلاميه الأندلسية نهائيا وذلك بطرد المسلمين وارغامهم على الهجـــره وتنصير من بقى منهم بالأندلس قسرا، وكانت بداية هذا الأمر سنة أربع وتسعمائه (١) ، وقد قام المسلمون فى ضواحى غرناطـه بالثورة ردا على هذا القرار ، ولكنهـــم كانوا عزلا فقمعوا بوحشيه وقسوه ، وأسس بعد ذلك فى غرناطـه مايسمى بديوان التحقيق أو " محاكم التفتيش " (٢) وكان يقوم على هذا الديوان اثنان من الرهبـــان المجرمين المتعصبين وهما الكردينال " خمنيـس " رأس الكنيسه الاسبانيـــــه ، والدون " ديجو ديسا " المحقق العام ، وقد قام هذا الديوان باكراه المسلمين على الدخول فى النصرانيه ، ونبذ الاسلام بكافة شعائره وعبادته وارغمـــــوا على الحضور الى الكنيسه لحضور أعياد النصارى ، وترك الصلاه والصيام ، وذكـــر الرسول عليه الصلاة والسلام والتوجه الى القبلـه والتسمى بالأسماء العربيـــــه والاسلاميه ...... الخ وكل من يخالف هذه الأوامر يعذب بألوان العـــذاب الأليم ، ثم يحرق حيا . وقد تنصرت أعداد هائله من المسلمين ظاهريا خوفـــا من البطش ، ويبالغ المقرى (٣) فى ذلك عندما يقول : عن أهل غرناطـه : " وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضره ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا النـاس .... فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا ....." .

---

(١) المقرى ، أزهار الرياض : ١/٦٨ .

(٢) عنان ، مواقف حاسمه فى تاريخ الاسلام : ٢٣٢ .

(٣) النفح : ٤/٥٢٧ .

وقد عرف هؤلاء الذين تنصروا - فى التاريخ الأندلسى - بالموريسكيين وهى تعنى (العرب الأصاغر) (١) . وفى هذه الآونه التى يصطلى فيها المسلمون بجحيم العذاب ، أوفد فرناند ورسولا الى سلطان مصر سنة سبع وتسعمائه ليؤكد له مايلقاه المسلمون فى الأندلس من الرعاية والاحترام فى ظل حكم الملكين الكاثوليكيين ، وكان هذا الرسول هو (بهترو مارتيرى) مستشار فرناند و ، وكاتبه ومؤرخه الكبير ، ولما وصل الى مصر وحاول سلطانها جان بلاط استقباله ضج الشعب وثار ، فاضطر الى استقباله سرا ، فقام مارتيرى بشرح بطلان المزاعم التى تنسب الى ملكيه من الاستيلاء ظلما على أرض المسلمين ، وقهرهم على التنصير ، واستطاع ببراعته وذلاقة لسانه أن يقنع السلطان المملوكى بأن المسلمين يتمتعون بكامل حرياتهم الدينيه وغيرها وقدم شهادات من بعض حكام الثغور المغربيه تفيد بأن المسلمين المهاجرين الى المغرب يصلون مع نسائهم وأولادهم فى أمن وسلام ، ويلقون من مندوبى الملكين كل رعايه . وتمكن الرسول الداهيه تحقيق مطالبه فى اعفاء نصارى بيت المقدس من جملة من المغارم والفروض (٢) . ومع هذا الخذلان الذى لقيه أهل الأندلس من اخوانهم المسلمين ، فانهم كانوا يرون فى العثمانيين خير من يستطيع المساعدة والضغط على ملكى اسبانيا لاحترام شروط تسليم غرناطه على الأقل . ولذلك فقد وجّه الموريسكيون آخر استغاثاتهم الى السلطان العثمانى بايزيد الثانى الذى حكم حتى سنة ثمانى عشرة وتسعمائه ، وكانت استغاثتهم تحوى قصيدة طويلة تبدأ بقول الشاعر :- (٣)

---

(١) عنان ، نهاية الأندلس : ٢٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ٢٧٢ ، محمد حتامله ، التنصير القسرى لمسلى الأندلس: ١٠٠ .

(٣) القصيده كامله فى أزهار الرياض : ١٠٩ - ١١٥ .

سلام كريم دائم متجـدد * أخص به مولاى خير خليفة .
سلام على مولاى ذى المجد والعلا * ومن ألبس الكفار ثوب المذلة .
سلام على مولاى من دار ملكه * قسنطينة (١) اكرم بها من مدينة .
سلام على من زين الله ملكه * بجند وأتراك من أهل الرعاية .
سلام على القاضى ومن كان مثله * من العلماء الأكرمين الأجلة .
سلام على أهل الديانة والتقى * ومن كان ذا راى من أهل المشورة .
سلام عليكم من عبيد تخلفوا * بأندلس بالغرب فى أرض غربة .
أحاط بهم بحر من الروم زاخر * وبحر عميق ذو ظلام ولجة .
سلام عليكم من شيوخ تمزقت * شيوبهم بالنتف من بعد عزة .
سلام عليكم من وجوه تكشفت * على جملة الأعلاج من بعد سترة .
سلام عليكم من عجائز أكرهت * على أكل خنزير ولحم لجيفة .
نقبل نحن الكل أرض بساطكم * وندعو لكم بالخير فى كل ساعة .

ولعله مما لا يحتاج الى بيان الذلة الشديدة ، والانهزام النفسى اللذان يغلفان منطق الشاعر وسلامه المكرر على السلطان ، والقضاة والعلماء ، وأهل الديانة الذين يمكن أن يجد عندهم بعض مايصبو اليه .

ولا عجب أن نجد هذا الانكسار فى لغة الشاعر فهو قد ذاق ألوانا من الذل والعذاب النفسى والحسى أمدا ليس بالقصير ، وهو يرى أمام عينيه كل يوم مايفعله النصارى باخوانه المسلمين صغارا وكبارا من التعذيب والقتل والاكراه على فعل المحرمات زيادة فى النكاية والالام ، وهو يفصل حروبهم مع النصارى ومآلت اليه النتيجة ، لعدم اغاثة المسلمين لهم بقوله :-

---

(١) هى القسطنطينيه التى أصبحت عاصمة العثمانيين بعد فتحها على يد محمد الفاتح سنة ١٣٥٤م .

شكونا لكم مولاى ماقد أصابنـــا * من الضرّ والبلوى وعظم الرزيـــة .
غدرنا ونصرّنا وبدّل ديننـــا * ظلمنا وعوملنا بكلّ قبيحـــة .
وكنا على دين النبى محمـــد * نقاتل عمال الصليب بنيـــة .
ونلق أمورا فى الجهاد عظيمـة * بقتل وأسر ثم جوع وقلـــة .
فجاءت علينا الروم من كل جانب * بسيل عظيم جملة بعد جملـــة .
ومالوا علينا كالجراد بجمعهـم * بجد وعزم من خيول وعـــدة .
فكنا بطول الدهر نلق جموعهم * فنقتل فيها فرقة بعد فرقـــة .
وفرسانهم تزداد فى كلّ ساعـة * وفرساننا فى حال نقص وقلـــة .
فلما ضعفنا خيّموا فى بلادنـــا * ومالوا علينا بلدة بعد بلـــدة .
(١)
وجاءوا بأنفاط عظام كثـــيرة * تهدم أسوار البلاد المنيعـــة .
وشدوا عليها فى الحصار بقـوة * شهورا وأياما بجد وعزمـــة .
فلما تفانت خيلنا ورجالنـــا * ولم نر من اخواننا من اغاثـــة .
وقلّت لنا الأقوات واشتد حالنـا * أطعناهم بالكره خوف الفضيحـة .
وخوفا على أبنائنا وبناتنـــا * من ان يؤسروا أو يقتلوا شر قتلـة .

والشاعر هنا يبرر سقوط الأندلس بيد النصارى ، بأنه أمر خارج عن قـدرة أهلها المسلمين الذين لم يدخروا وسعا فى الجهاد والدفاع عن الحوزه مـدة طويله ، حتى اذا ضعف عزمهم ، وقل زادهم وعتادهم ، واستنصروا فلـم ينصروا ، انهال عليهم الأعداء بأعداد ضخمة ، وقوة كبيرة ، وامداد متواصـل فاضطروا الى التسليم خوفا من الأسر أو الموت المحتوم ، والشاعر يحـاول ، أن يشعر السلطان بايزيد بمسئوليته وتقصيره لعله يفعل شيئا من أجل أولئك

---

(١) آلات ضخمه تقذف الصخور الملتهبه على الأسوار والمواضع فتحـرق ماوقعت عليه ./ أخبار العصر : ٢٢ .

المضطهدين فى دينهم . والقصيدة تعتبر وثيقة دقيقه لمجريات الأحداث السياسيه فهى بعد أن ذكرت وقوع الاستسلام تتحدث عن شروط الأمان الذى منحه فرناند وايسابيلا للمسلمي غرناطه :

على أن نكون مثل من كان قبلنا * من الدّجن (١) من أهل البلاد القديمة .
ونبقى على آذاننا ، وصلاتنا * ولا نتركن شيئا من أمر الشريعة .
ومن شاء منا البحر جاز مؤمنا * بما شاء من مال الى أرض عدوة .
الى غير ذلك من شروط كثيرة * تزيد على الخمسين شرطا بخمسة .
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم * لكم ماشرطتم كاملا بالزيادة .
وأبدى لنا كتبا بعهد وموثق * وقال لنا هذ أمانى وذمتى .
فكونوا على أموالكم ودياركم * كما كنتم من قبل دون أذيّة .

ولكن هذه الشروط التى رضيها المسلمون لم تكن أكثر من خدعة هدفها الاسراع فى تسليم المدينة ليرفع فوقها الصليب :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم * بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة .
وخان عهودا كان قد غرّنا بها * ونصرنا كرها بعنف وسطوة .
وأحرق ماكانت لنا من مصاحف * وخلّطها بالزّبل أو بالنجاسة .
وكل كتاب كان فى أمر ديننا * ففى النار القوه بهزء وحقرة .
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم * ولا مصحفا يخلى به للقراءة .
ومن صام أو صلى ويعلم حاله * ففى النار يلقوه على كل حالة .

---

(١) الدّجن : مأخوذ من الألفة والاقامه ، والمقصود هنا هم المسلمون الذين ظلوا على دينهم بين النصارى منذ منتصف القرن السابع الهجرى أيام ذهاب بلنسيه واشبيليه ، وكانوا آمنين حتى اذا سقطت غرناطه آلوا الى مآل اليه الموريسكيون .

ومن لم يجئ منّا لموضع كفرهم (١) * يعاقبه اللّباط شرّ العقوبة .
وفى رمضان يفسدون صيامنا * بأكل وشرب مرة بعد مرة .
وقد أمرونا أن نسبّ نبينا * ولا نذكرنه فى رخاء وشدة .
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت * بأسماء أعلاج من أهل الغباوة .
الى غير هذا من أمور كثيرة * قباح وأفعال غزار رديئة .

لقد كانت النزعة الصليبية الحاقدة هى المحرك الأول للرهبان والقسس الذين كانوا يسيّرون سياسة اسبانيا النصرانيه ، وكان كلّ مايدور فى خلدهم هو جعل غرناطة عوضا عن القسطنطينيه التى احتلها المسلمون ، ولهذا فقد سعوا الى محو كل أثر للاسلام فى تلك الديار وخاصة المصحف الشريف والكتب الاسلاميه ، وتروى الروايات أن الكردينال خمنيس عندما بدأ تنصيره لأهل (٢) غرناطه أمر بجمع كل مايستطاع جمعه من الكتب الاسلاميه من المدينة وماحولها فجمع منها أعداد كبيره ومن بينها كثير من المصاحف المزخرفه ، فوضعت فى أكبر ساحات غرناطة وأشعلت فيها النيران بهمجية بالغة أعدمت خلاصة تراث الفكر الاسلامى فى الأندلس ، وقد استثنى منها مئات من كتب الطب والعلوم ليقيم عليها الكردينال جامعته فى مدينة ألكالا ، وبالاضافة الى احراق الكتب فرض على أبناء المسلمين تعلم الدين النصرانى فى الكنائس ، وذلك لقطع كل صلة لهم بالاسلام منذ صغرهم وهذا مايشير اليه الشاعر متأوها باكيا :-

وآها على أبنائنا وبناتنا * يروحون للّباط فى كلّ غدوة .
يعلمهم كفرا وزورا وفرية * ولا يقدروا أن يمنعوه بحيلة .

---

(١) هو الكردينال خمنيس زعيم محاكم التفتيش .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ٣١٦ .

ثم يذكر حالة المسخ الشامل الذى أصاب البلاد عامة ، وخص المساجد بالنصيب الأوفر :

وآها على تلك المساجد سوّرت * مزابل للكفّار بعد الطهارة .

وآها على تلك الصوامع علّقت * نواقيسهم فيها نظير الشهادة .

وآها على تلك البلاد وحسنها * لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة .

وصارت لعبّاد الصّليب معاقلا * وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة .

وصرنا عبيدا لا أسارى فنفتدى * ولا مسلمين نطقهم بالشهادة .

فلو أبصرت عيناك ماصار حالنا * اليه لجادت بالدموع الغزيرة .

فياويلنا ، يابوس ماقد أصابنا * من الضّر والبلوى وثوب المذلّة .

وبعد أن يوضح الشاعر الحالة المزرية التى صار اليها المور يسكيون يتوجه الى السلطان بضراعة وتوسل يستجدى عونه :-

سألناك يامولاى بالله ربّنا * وبالمصطفى المختار خير البرية .

وبالسادة الأخيار آل محمد * وأصحابه أكرم بهم من صحابة .

وبالسيد العباس عمّ نبيّنا * وشيبته البيضاء أفضل شيبة .

وبالصالحين العارفين بربهم * وكلّ ولى فاضل ذى كرامة .

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا * لعل الله العرش يأتى برحمة .

فقولك مسموع وأمرك نافذ * وماقلت من شئ يكون بسرعة .

ودين النصارى أصله تحت حكّمكم * ومن ثمّ يأتيهم الى كل كسورة .

فبالله يامولاى منّوا بفضلكم * علينا برأى أو كلام بحجة .

فأنتم أولو الافضال والمجد والعلا * وغوث عباد الله فى كل آفة .

فسل بابهم أعنى المقيم برومة (١) * بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة .

---

(١) هو البابا انوصان الثامن آنذاك .

ومالهم مالوا علينا بغدرهم * بغير أذى منا وغير جريمة .

وجنسهم المغلوب فى حفظ ديننا * وأمن ملوك ذى وفاء أجلّه .

ولم يخرجوا من دينهم وديارهم * ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة .

وهو يلحّ فى سؤال السلطان لأنه يعلم قدرته على الاغاثه ، فهو يملك الأسباب التى يستطيع بها الضغط على النصارى ، أليس هو حاكم القسطنطينيه مركزهم الأول ، وتحت حكمه منهم كثير فيمكنه أن يتخذ من تهديدهم وسيلة لكبح جماح البابا وزبانيته وارجاعهم الى ماارتضوه من الشروط التى من أهمها حفظ الدين والحرمات .

ثم تكشف القصيده عن ورود كتاب من بايزيد الثانى الى الملكين الكاثوليكيين متضمنا الشفاعه للموريسكيين وكان نصيبه الاهمال ، وربما كان هذا الكتاب نتيجة استغاثة أخرى قبل هذه القصيدة .

كما تذكر القصيدة أيضا وصول رسل سلطان مصر الى ملكى أسبانيا وكيف استطاعا خداعهم :-

وقد بلغ المكتوب منكم اليهم * فلم يعلموا منه جميعا بكلمة .

ومازادهم الا اعتداء وجرأة * علينا واقداما بكل مساءة .

وقد بلغت أرسال مصر اليهم * ومانالهم غدر ولا هتك حرمة .

وقالوا لتلك الرّسل عنا بأننا * رضينا بدين الكفر من غير قهرة .

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم * ووالله مانرضى بتلك الشهادة .

لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم * علينا بهذا القول أكبر فريه .

ولكنّ خوف القتل والحرق ردّنا * نقول كماقالوه من غير نية .

ودين رسول الله مازال عندنا * وتوحيدنا لله فى كل لحظة .

(١)
ووالله مانرضى بتبديل ديننا * ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة .

ثم يقول فى آخر القصيده مؤملا النجدة :-

فها نحن يامولاى نشكو اليكم * فهذا الذى نلناه من شر فرقة .

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا * كماعاهدونا قبل نقض العزيمة .

والا فيجلونا جميعا من أرضهم * بأموالنا للغرب دار الأحبة .

فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا * على الكفر فى عز على غير ملّة .

فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم * ومن عندكم تقضى لنا كلّ حاجة .

ومن عندكم نرجو زوال كروبنا * ومانالنا من سوء حال وذلة .

فأنتم بحمد الله خير ملوكنا * وعزتكم تعلو على كلّ عزة .

وثّم سلام الله تتلوه رحمة * عليكم مدى الأيام فى كل ساعة .

والقصيدة فى جملتها ركيكة الألفاظ والتراكيب ، الا أنها معبرة ، وصادقة التأثير ، وشاملة للحوادث التاريخية التى عاصرتها ، ولعل سبب ركاكتها هو العسف والبطش الاسبانى الذى شمل كل مايمت الى الاسلام والعربية بصلة فخمدت جذوة الشعر والأدب بسرعة عجيبة اذ أن هذه القصيدة قيلت بعد مرور عشر سنين على حملة التنصير ان لم يكن أقل ، فهى موجهة الى بايزيد الذى دام حكمه حتى سنة ثمانى عشرة وتسعمائه ، ولابد أن تكون قد وجهت اليه قبل هذا التاريخ . وقد أشرنا فيما سبق الى أن التنصير بدأ سنة أربع وتسعمائه .

أما الشاعر الذى قال هذه القصيدة فهو شاهد عيان جرى عليه ماجاء فى قصيدته من المآسى ، ومن غير المتوقع أن نجد اسمه فى أى مصدر من مصادر

---

(١) هى الأقانيم الثلاثه التى يقوم عليها دين النصارى المحرّف وهى (الأب ، والابن والروح القدس) . تعالى الله من ذلك .

تلك الفترة الرهيبه ، وذلك لأن مثل هذه القصيدة تعنى أن صاحبها يأتمر مع الدول الاسلاميه عدوة أسبانيا النصرانيه ، فحكمه الموت المؤكد على يد محاكم التفتيش لمجرد أن تنسب اليه .

أما بالنسبة لصدى هذه القصيده فهو صدى الاستغاثات السابقه ، فلم يرد مايشير الى أن السلطان بايزيد الثانى قد فعل شيئا ، وله فى ذلك بعض الأعذار التى لا تعفيه من تحمل جزء من تبعة ضياع الأندلس من يد المسلمين ومن هذه الأعذار الظروف الصعبه التى واجهها بايزيد منذ بداية توليه ، فمنذ أن توفى والده محمد الفاتح سنة ست وثمانين وثمانمائه ، وتحمل هو أعباء الحكم أعلن أخوه (جم) العصيان ، وطالبه بتقسيم الدولة العثمانيه الى شطرين أوروبى وآسيوى ، فحاربه بايزيد واضطره الى الفرار حيث لجأ الى المماليك فى مصر ، ثم الى أوروبا طالبا العون ضد شقيقه ولكنه مات هناك سنة تسع وتسعين وثمانمائه ، وبعد ذلك كانت الجيوش العثمانيه (١) مشتغلة بصد غارات البولنديين على بعض أقاليمها ، وكانت فى الوقت نفسه تشن هجوما على البندقيه ، وتخوض حربا فى المجر الى أن انتهى الأمر بالاتفاق على الصلح لمدة سبع سنوات وذلك سنة تسع وتسعمائه ، وبعد هذا التاريخ بقليل توقفت فتوحات العثمانيين فى أوروبا ، واتجهت نحو الشرق (٢) حيث المماليك فى مصر والشام ، والدولة الصفويه فى ايران . ولا ندرى سبب هذا الاتجاه وترك الأندلس لمصيرها ؟

---

(١) محمد كمال الدسوقى ، الدولة العثمانيه والمسألة الشرقيه : ٤١ .

(٢) المرجع السابق : ٥٠ - ٥١ .

ولقد كان بايزيد نفسه ضعيفا محبا للسلم والاشتغال بالعلوم فى وقت كانت الدولة المترامية الأطراف بحاجة الى رجل شديد الحزم والقوة ، وفى سنى حكمه الأخيره أظهر أولاده التمرد عليه ، واضطرمت نار الحرب الداخلية بينهم ، وكادت تمزق الدوله لولا قوتها الكبيره ، وأخيرا سار ولده سليم الأول الى بعض نواحى الدولة وأعلن نفسه سلطانا عليها ، واستطاع أن يكسب تأييد الانكشاريه الذين لم يلبثوا أن طلبوا من بايزيد التنازل عن الحكم لولده سليم ، فقبل ذلك وتنازل سنة ثمانى عشرة وثمانمائه حيث توفى بعد ذلك بزمن يسير . (١)

الخصائص العامة لشعر الاستغاثة :-

من خلال مطالعتنا لشعر الاستغاثه يمكن أن نلاحظ الخصائص التاليه :-

أولا : الدخول المباشر فى الغرض الأصلى للقصيده ، وتجنب المقدمات التى لا تحتملها نفس الشاعر الثائره ، وخاصة عندما تكون القصيدة خلال الحصار ، والأمل فى الانقاذ لايزال موجودا .

ثانيا : حرارة العاطفة ، وصدق المشاعر عند شعراء هذا الفن لأنهم فى الغالب يرون بأعينهم وطنهم يهدد وأهليهم يستباحون .

ثالثا : التركيز على المعانى الاسلاميه كالأخوة ، وحق الجوار ، وفرضية الجهاد للدفاع عن أرض الاسلام ، بحيث يشعر المستغاث به أنه مسؤول ومحاسب أمام الله ، وكثيرا ماصور الشعراء ببراعه وقوف النبى - صلى الله عليه وسلم - خصما لمن تخاذل فى الدفاع عن أمته .

---

(١) محمد فريد المحامى ، تاريخ الدوله العليه العثمانيه : ٣٨ .

رابعـــا : المبالغة فى مدح المستغاث به مع التركيز على الأمور الحساســـه فى نفسه كذكر أصله العريق اذا كان يفتخر بذلك أو تمجيـــد شجاعته وأعماله فى الدفاع عن الاسلام والاخلاص فى جهاد الأعـــداء ابتغاء ثواب اللـــه وجنتـــه .

خامسا : عدم التعرض لدور الحكام الخونه الذين يمالئون الأعداء ضـــد شعوبهم وبلادهم ويرهقون رعاياهم بدفع الضرائب لتصرف علـــى شهواتهم ومرتزقتهـــم ، وسبب هذا الاعراض هو الخوف من عقـــاب أولئك الحكام الذين لا يسمحون لأى صوت أن يرتفع منتقدا ، وسبب آخر هو الخـــوف من تقليل حماس المرجو نصره اذا سمع أن بـــلاء الناس من حكامهم وأنفسهم .

سادسا : ابراز الدمار والخراب الذى ألحقه العدو بالمدن الاسلاميـــه وخاصة المساجد ومدارس التعليم اذ سرعان مايحولها الى كنائـــس تغص بالصلبان والنواقيس ، لتبعث الشرك والجهل مكان نور الهداية والعلم ، فيقرنون الى حربهم العسكريـــه حربا فكريـــه .

سابعـــا : استخدام الأسلوب الخطابى والألفاظ الجزلـه مع البعد عن الخيال المجنّح والتراكيب المعقده . كمايلاحظ كثرة ركوبهم للبحور الشعريه ذات التفاعيل الكثيره كالطويل مثلا لاتساعها لهمومهم وزفراتهـــم التى يطلقونها ممتده عبر القافية المطلقه التى دأبوا علـــى استعمالها .

الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسيه :-

سنتناول فى هذا الفصل الأشعار التى قيلت فى رثاء امارات ملوك الطوائف عند ما استولى عليها المرابطون فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وأصبحت الأندلس كلها بعد ذلك تتبع دولة المرابطين فى المغرب . والواقع أننى لا أعتبر زوال ملوك الطوائف ، وانقضاء عهدهم النكد نكبة ألمت بالأندلس ، بقدر ماهو نصر من الله منّ به كرب الشعب الأندلسى على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، وأشهر هذه الامارات الغاربة امارة بنى عباد فى اشبيليه ، وامارة بنى الأفطس فى بطليوس ، وامارة آل صمادح فى المريّه وهناك بعض الامارات الأخرى استولى عليها بعض ملوك الطوائف من جيرانهم بالخديعة حينا وبالحرب حينا آخر ، وكان ذلك قبل الفتح المرابطى . ومن أمثلة هذا النوع الأخير الذى استعمل فيه المكر واستغلال الضعف امارة "مربيطر" (١) وكان أبو عيسى بن لبّون الذى كان يشغل منصب القضاء فى بلنسيه أيام حاكمها (٢)

---

(١) بلدة جبلية حصينه بالقرب من طرطوشة ، وعلى بعد عشرين كيلا الى الشمال من بلنسيه ، وهى تطل على البحر ، وتكثر فيها الأشجار وأصناف الثمار ./ الروض المعطار (مربيطر) .

(٢) هو ذو الوزارتين لبّون بن عبد العزيز بن لبّون . كان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذى النون صاحب طليطله وكان قائدا عسكريا وشاعرا مجودا زهد فى الدنيا بعد فقد امارته وعاش خاملا الى أن مات بسرقسطه .

انظر : الحلة السيراء : ٢/١٦٧ ، المغرب : ٢/٢٧٥ - ٢٧٦ .

أبى بكر بن عبد العزيز ولما توفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائه اضطرب حبلها وانقسم أهلها الى قسمين قسم مال الى تصييرها لبنى هود أصحاب سرقسطه وقسم مال الى اسلامها لبنى ذى النون حكام طليطله واستغل القمبيطور هذا الوضع فعسكر عليها وأرهقها بالضرائب . عندئذ تركها ابن لبّون ولجأ الى مربيطر الحصينة وحكمها الا أنه لم يسلم من وطأة القمبيطور ، وعندما رأى أنه لا يستطيع الصمود لهذا الارهاق ، وأنف من مفاوضة القائد النصرانى آثر اللجوء الى جاره أبى مروان عبد الملك بن رزين حاكم شنتمريه (١) ويسلّمه امارته وحصنه مقابل حمايته واجراء الرزق عليه فوافق ابن رزين وتسلّم الحصن واستقدم ابن لبّون وذويه الى بلاده وأنزلهم فى كنفه ، ولكنه سرعان مافاوض القمبيطور بالابقاء على مربيطر مقابل امداد جنوده بما يحتاجون من المؤن فوافق ، عندها أخذ ابن رزين يضيّق على أبى عيسى ويقتر عليه حتى اضطره الى الخروج من شنتمريه بعد أن سلب ملكه يندب حظه ويرثى امارته قائلا : (٢)

خليلى عوجابى على مسقط اللوى * لعل رسوم الدار لم تتغيرا .
فأسأل عن ليل تولى بأنسنا * وأندب أياما تقضت وأعصرا .
ليالى اذ كان الزمان مسالما * واذ كان غصن العيش فينان أخضرا .
وقد ضربت أيدى الأمان قبابها * علينا وكفّ الدهر عنا وأقصرا .

---

(١) مدينة بالأندلس على المحيط الأطلسى ، تشتهر بالتجارة البحريه ، بها دار صناعة الأساطيل ، وهى حصينة عظيمة الأسوار ، وكثيرة الخصب ، واليها ينسب الأعلم الشنتمرى العالم المشهور . / الروض المعطار (شنتمريه) .

(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان : ١١٤ .

فماشئت من لهو وماشئت من (١) ددن * ومن مبسم يجنيك عذبا مؤلـــرا .

وماشئت من عود يغنيك مفصحـــا * (سما لك شوق بعد ماكان أقصرا) (٢) .

وبعد أن يعوج الشاعر الحزين على رسوم داره ويتأملها برفق ، يسبح من خلالها فى بحر من الذكريات السارة التى عاشها أيام الأمان بين النساى والعود ، ولكن دوام هذه الحال السعيدة محال اذ سرعان ماتنقلب السعادة الى شقاء وبؤس ، لأن هذا هو ديدن الحياة :-

ولكنها الدنيا تخادع أهلهـــا * تغرّ بصفو وهى تطوى تكدّرا .

لقد أوردتنى بعد ذلك كلـــه * موارد ماألفيت عنهن مصدرا .

وكم كابدت نفسى لها من ملمة * وكم بات طرفى من أساها مسهّدا .

خليلىّ مابالى على صدق عزمتى * أرى من زمانى ونية وتعــذّرا .

لئن ساء تمزيق الزمان لدولـــتى * لقد ردّ عن جهل كثير مبصّـرا .

وأيقظ من نوم الغرارة نائمـــا * وكسّب علما بالزمان وبالـــورى .

والشاعر رغم ماجرّعه الدهر من الغصص بتمزيق دولته وتشريده فانه لم يهن ولم تضعف همته وعزيمته بل ازداد تبصرا وعلما بالحياة وبالناس ، ولعله فى البيت الأخير يلمح الى غدر صديقه به الذى لم يكن يتوقعه . والأبيات فى جملتها تسلك سبيل الحكمة والعظة ، ويبدى فيها الشاعر تجلده للخطوب أكثر من حزنه على وطنه فالبلاد كلها عنده سواء فهو القائل (٣) :-

وكنت اذا مابلدة لى تنكـــرت * شددت الى أخرى مطىّ ابائـــى .

وسرت ولا ألوى على متعـــذر * وصمت لا أصغى الى النصحـــاء .

كشمس تبدت للعيون بمشـــرق * صباحا وفى غرب أصيل مســـاء .

---

(١) الدد : اللهو واللعب : الصحاح (دد) .

(٢) الشطر لامرئ القيس ، وعجزه " وحلّت سليمى بطن قوّ فعرعرا . انظر : ديوانه : ٣٠ .

(٣) القلائد : ١١٥ .

وهذا التجوال فى البلاد من قبل الحكام الذين يفقدون ملكهم نجده كثيرا فى هذا العصر المضطرب فاذا مااستولى أحدهم على ملك الآخر ، فر المغلوب طالبا النجدة من النصارى أو من غيرهم من المرتزقه مقابل أموال ووعود فيغير هؤلاء على مدينة أو حصن وينصبون صاحبهم حاكما عليه ، ومن هنا كانت الجذور التى تربط هؤلاء الأمراء بالبلاد ليست عميقه ، وصلاتهم مع الشعوب غير وثيقة بسبب التسلط والقهر .

رثاء امارة بنى عباد :-

بنو عباد من البيوت العريقه فى الأندلس ، فهم ينتسبون الى قبيلة لخم العربية اليمانية (١) ، وكان أجدادهم من الداخلين الى الأندلس مع جيوش الفتح ، ولكن نجمهم لم يلمع الا فى آواخر الدولة الأمويه عندما كان الحكم بيد الحاجب المنصور بن أبى عامر الذى عيّن رأس هذه الأسرة آنذاك أبا الوليد اسماعيل بن عباد قاضيا لمدينة اشبيليه (٢) ، وكان هذا القاضى على درجة كبيرة من الورع وحسن الخلق اضافة الى الدهاء والسخاء ، وبذلك استطاع أن يستميل قلوب الناس اليه حتى اذا انقضى حكم بنى عامر ، وبدأت الاضطرابات والانقلابات تجتاح الأندلس أخذ يعمل فى صمت وهدوء على جمع خيوط الرئاسة فى يده فتم له تكوين النواة الأولى لدولة عبادية فى اشبيليه ، ثم توفى (٣) وخلفه ولده أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد سنة أربع عشرة وأربعمائه واستبد بالأمر وحشد الرجال والسلاح ، وحاول أن يوسع امارته فاشتبك مع جيرانه أصحاب بطليوس البربر وغيرهم وكانت الحروب سجالا يتخللها أحيانا

---

(١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب : ٣٩٨ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء : ٢/٣٦ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣٤ .

استيلاء أحدهم على بعض مافى يد الآخر . وهكذا ظل ابن عباد فى حروب مستمره حتى توفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائه بعد أن هزم هزيمة شنيعه قتل فيها ولده الذى كان يقود جيوشه ثم ولى الأمر بعد ذلك ولده الآخر أبو عمرو عباد بن محمد الملقب بالمعتضد بالله وكان هذا داهية سفاحا عظيم الفتك حتى بأقرب الناس اليه (١) ، وكان أيضا يضطرم حماسة للحرب والتوسع فمنذ أن اعتلى العرش الاشبيلى وضع خطته للقضاء على امارات غرب الأندلس وضمها الى بلاده ، فجهز لذلك الجيوش وبدأ بغزو تلك الامارات الصغيره وارهاقها ، وحاول أمراؤها دفع خطره بدفع الجزية له ، ولكنه رفض حتى تم تسليمها الواحده تلو الأخرى فى حوادث يطول شرحها (٢) ، وماهى الا سنوات قليله حتى أصبحت دولته تشمل سائر الأراضى الممتده من شاطئ نهر الوادى الكبير غربا حتى المحيط الأطلسى ، ولم يقنع المعتضد بهذا الفتح بل دعته شهوة الحكم السيطرة الى ضم الامارات البربريه الصغيره القائمه فى جنوب الأندلس شرقى الوادى الكبير ، وسلك المعتضد مع زعماء هذه الامارات فى البدايه سبيل الصداقة والود ، وتبادل الهدايا ليستفيد منهم فى حرب أعدائه ، أو ليكسب حيادهم على الأقل ، وهو فى أعماق نفسه يضمر لهم الكيد ، ويتحين الفرص لاستئصال جذورهم ، وفى سنة خمس وأربعين وأربعمائه (٣) دبّر المعتضد لأمراء البربر مكيدة قضى بها عليهم وأهلكهم ، وذلك عندما دعاهم لزيارته باشبيليه فلبوا ومعهم وفد من رؤساء قبائلهم ، فاستقبلهم المعتضد بحفاوه ، ولكنه فى اليوم التالى انفرد بالأمراء وأخذ يوبخهم على

---

(١) الذخيره : ق٢ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢) البيان المغرب : ٣/ ٢٩٥ - ٢٩٨ .

(٣) عنان ، المرجع السابق : ٤٥ .

على تقصيرهم فى مساعدته أثناء حربه لأعدائه ، ثم أمر بالقبض عليهم وادخالهم الحمام واضرام النار فيه حتى احترقوا ، ثم سار بعد ذلك بجيوشه ونازل تلك الامارات فاستولى عليها تباعا وأهمها أركش (١) وقرمونه ورنده ، وبهذا أصبحت اشبيليه عاصمة لامارة شاسعة المساحه ، غنية الموارد ، عظيمة القوة الحربيه وبدا المعتضد - برغم قسوته وخساسة وسائله - أمير أمراء الأندلس ، ودولته أعظم ممالك الطوائف ، وأفسح فناء للشعراء والأدباء ونظم بعضهم فى سلك وزارته ، كابن زيدون الشاعر المشهور ، وكان المعتضد نفسه شاعرا أديبا .

يقول الحميرى (٢) : "كان أبو عمرو بن عباد صاحب اشبيليه ، من أهل الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والمحبة لذوى المعارف ، وقد رأيت له سفرا صغيرا فى نحو ستين ورقة من شعر نفسه " .

ورغم هذا المجد الذى بناه المعتضد على حساب جيرانه من ملوك الطوائف والبلاط الفخم الذى اتخذه ، وشدة البطش التى عرف بها رغم ذلك كله كانت هناك نقطة سوداء غضت من مكانته ، وهى دفعه الجزية لملك قشتاله النصرانى فرناند و الأول مقابل سكوته عن غزوه والتعرض لامارته ، وظل

---

(١) أركش : مدينة حصينه بالأندلس ، على نهر وادى لكه ، قديمة البناء ، خربت مرارا وعمرت ، وتشتهر بانتاج الزيتون . / الروض المعطار (أركش) .

قرمونة : تقدمت ترجمتها فى الفصل الأول من هذا الباب ، عند رثاء اشبيليه .

رنده : مدينة قديمة فى جنوب الأندلس ، عظيمة الحصانة والامتناع ، تقع على نهر ينسب اليها ، ويصب فى نهر لكه ، وتكثر حول رنده العيون والقرى . / الروض المعطار (رنده) .

(٢) جذوة المقتبس : رقم ٧٦٢ .

المعتضد يؤديها صاغرا لفرناند و ثم لولده سانشو من بعده حتى توفى سنة احدى وستين وأربعمائه (١) . وتولى الحكم بعده ولده أبو القاسم محمد الملقب بالمعتمد على الله .

وكان أسمح من أبيه وألين جانبا الا أنه كان مولعا بالخمر منغمسا فى اللذات (٢) ، عاكفا على البطاله وقد خاض المعتمد مثل أبيه سلسلة من الحروب والأحداث كان من نتائجها المهمة الاستيلاء على قرطبه وضمها لاشبيليه سنة اثنتين وستين وأربعمائه (٣) ، ثم اشتغل المعتمد بحرب البربر أصحاب امارة غرناطه وعلى رأسهم عبد الله بلقّين وأخوه تميم حاكم مالقه ، ولما أرهقهم المعتمد بن عباد بغاراته المتكرره فكر الأمير عبد الله بالاستعانة بالنصارى ، وتم ذلك على أن يدفع جزية سنوية محددة ، مقابل أن يمده النصارى بسرية من الجند لمحاربة المعتمد ، فقويت بذلك شوكته وعاث فى أرض اشبيليه واسترد بعض الحصون التى كان المعتمد قد استولى عليها من قبل . عندئذ رأى المعتمد أن يسلك طريق خصمه فأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار الى الاذفونش ملك النصارى بقشتاله وعقد معه معاهدة تقضى بأن يدفع ابن عباد الجزيه ويلزم الصمت ازاء مايفعله الاذفونش بالامارات الاسلاميه وخاصة طليطله التى قرب سقوطها بيده ، ويتعهد الاذفونش مقابل ذلك بمساعدة المعتمد فى حروبه ضد ملوك الطوائف عامة ، وقد تحدثنا عن هذه المعاهدة وآثارها فى الفصل الأول من هذا الباب عند ذكر سقوط طليطله . وقد كانت هذه المعاهدة الدنيئه وبالا ليس على المعتمد وحده بل على الأندلس عامه ودلت على استهتار

---

(١) البيان المغرب : ٣/٢٨٤ .

(٢) الحلة السيراء : ٢/٥٤ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٦١ .

المعتمد بالدين وتضحيته بالمسلمين وأوطانهم مقابل جلوسه على عرش مزعزع مهزوز . فقد أصم أذنيه عن صريخ اخوانه المسلمين فى طليطلة ، وقعد عن نصرتهم أو امدادهم بشئ من المؤن حتى اضطروا الى التسليم ، وذهبت كبرى حواضر الأندلس من قبضة الاسلام الى الأبد ، ولم يدرك المعتمد فداحة جرمه وخطئه الا بعد أن تمكن النصارى من المدينة وبعث اليه الاذفونش سفارته المعتاده لتحصيل الجزية وكان على رأس هذه السفاره وزير الاذفونش (ابن شاليب اليهودى) (١) وكان شديد الغطرسة والحقد على المسلمين ، فرفض الذهب الذى قدم اليه زاعما أنه من عيار زائف وطلب تغييره ، وتسليم بعض الحصون زيادة على ذلك ، كما نقل الى ابن عباد رغبة سيده الاذفونش بالسماح لزوجته أن تقيم بمدينة الزهراء قرب قرطبة لتتمتع بطيب هوائها ، ومن هناك تختلف الى جامع قرطبة لتضع حملها فى الجانب الغربى منه لأن ذلك الموضع كانت تقوم عليه كنيسة معظّمة عندهم ألحقها المسلمون بالجامع. وزاد اليهودى فى طلباته بجفاء وغلظة ، فغضب المعتمد من ذلك وأمر بقتله وصلبه والقبض على من معه وزجهم فى السجن (٢) . ولما علم الاذفونش بذلك استشاط غيظا ، وأقسم على غزو اشبيلية والانتقام من المعتمد وبدأ على الفور باعداد جيوش جرارة لالتهام امارات الطوائف جميعا ، وعسكر بجيشه على ضفة نهر الوادى الكبير قبالة قصر المعتمد وكتب اليه يقول (٣) : "

.... وقد أبصرتم منازل بطليطلة وأقطارها وما حاق بأهلها حين حصارها . فأسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدّعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل

---

(١) الروض المعطار (الزلاقة) .
(٢) وفيات الأعيان : ٥/٢٨ .
(٣) الحلل الموشيه : ٢٩ .

الوقوع فى الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ووارده ، لكن الأقدار تقطع الأعذار ، ولا يعجل الا من يخاف الفوت فيما يرومه ، ويخشى الغلبة على مايسومه ..... " وقد رد المعتمد على هذه الرسالة بكتاب فيه كثير من الجرأة والحزم ومنه : " .... انما كانت سِنَةَ سعد أيقظ منها منا ديك ، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخة الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت فى أثنائها ليس ، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم أنحاؤه ، ولا حُسن انتحاؤه ، واعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا فى العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وحيل الانسان ، وحماة الشجعان ، يوم التقى الجمعان رجال تدرعوا بالصبر ، وكرهوا القبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، ويمنعاهم المنام فى القفار .... والذى جرأك على طلب مالا تدركه قوم كالحمر ، ظنوا المعاقل لا تعقل ، والدول لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ، ماأوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه فى أنفسنا ، وفيهم من ترك الحزم واسلامهم لأعاديهم ..... " ويلاحظ فى هذه الرسالة اظهار المعتمد لندمه على مافرّط من قبل فى اخوانه المسلمين أهل طليطله ، ثم أخذ المعتمد يفكر فى طلب النجدة من المرابطين فيما وراء البحر لعلمه بحماسهم للجهاد ومقارعة الكفار ، ولكنه وجد من ابنه الرشيد بعض المعارضة لتخوفه من عبور المرابطين

---

(١) المصدر نفسه : ٤٠ .

الى الأندلس واستيلائهم عليها ، فشرح له المعتمد خطورة الموقف ، وقوة النصارى ، وضعف ملوك الطوائف وتخاذلهم بحيث لا عون يرجى منهم ، فلا مناص من استدعاء المرابطين ثم قال : "أى بنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى ، فتقوم علىّ اللعنة فى منابر الاسلام مثل ماقامت على غيرى . أرعى أن أكون راعى الجمال من أن أكون راعى الخنازير" (١) وانضم الى المعتمد فى رأيه ذلك عدد من ملوك الطوائف الذين أحسوا بالخطر ومنهم أميرا غرناطة وبطليوس ، واتفقوا جميعا على ارسال سفارة مكونة من قضاة قرطبه وغرناطة وبطليوس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عاهل المرابطين ، ولما وصلوا اليه استقبلهم بحفاوة بالغه اذ عرف بحبه وتعظيمه للعلماء والفقهاء (٢) وسلّموه كتاب الاستغاثة من ابن عباد الذى جاء فيه (٣) : "..... ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقه على نصرة جاره ، ولا أخيه ، ولو شاؤوا لفعلوا الا أن الهوان منعهم من ذلك ، وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الآمال وأنت - أيدك الله - ملك المغرب أبيضه وأسوده ، وسيد حمير (٤) ، وملكها الأكبر ، .... نزعت بهمتى اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيوا شريعة الاسلام ، وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ......" .

---

(١) الإشبيلى ، ريحان الألباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب : لوحه ٤٠م .

(٢) الحلل الموشيه : ٨٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٦ .

(٤) يخاطبه المعتمد بالنسب الحميرى ليقرب النسب بينه وبين يوسف إذ كل منهما من القبائل اليمانيه القحطانيه .

وكتاب آخر من ابن الأفطس صاحب بطليوس يقول فيه (١) : "لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك وسبيل الخير سبيلك .... وصح العلم بأنك لدولة الاسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى لما أعضل الداء ، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها ، تُلاطف بالاحتيال وتُستنزل بالأموال ولم يزل دأبها الشطط والعناد ، ودأبنا الاذعان والانقياد ... وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن ، وأضرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم .... وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله فانكم له أتلى ، ولا بما فى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانكم الى معرفته أهدى ....." وعلى الفور جهز يوسف جيوشه وعبر بهم الى الأندلس ، ولقيه ملوك الطوائف وفى مقدمتهم المعتمد أجمل لقاء وقدموا مايستطيعونه ، من المؤونة والأموال والهدايا ، وساروا مع جيوش المرابطين تتبعهم جيوش الأندلس الى بسيط من الأرض شرقى بطليوس يعرف بالزلاقة وهناك دارت معركة عنيفة حاسمة بين المسلمين والنصارى ، انهزم فيها النصارى هزيمة شديدة قطعت تشوفهم الى الأندلس مدة طويلة ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة عف عنها أمير المسلمين وآثر بها ملوك الأندلس اذ أن مقصوده كان الغزو لا النهب ، فعظم قدره فى أعين الملوك والناس (٢) ، وكثر الدعاء له على المنابر ، ثم انه أقام فى الأندلس مدة من الزمن بعد الزلاقة اطلع من خلالها على حال المعتمد اللاهيه ، ووردت عليه الرعايا تشكو الظلم الذى تجده من حكامها وتدعوه لأخذ حقوقها ، فكان يقول لم نأت لهذا (٣) ، والسلاطين

---

(١) الحلل الموشيه : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) وفيات الأعيان : ٧/١١٧ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله بن بلقّين المسماة بكتاب التبيان : ١٠٧ .

أعلم بما يصنعون فى بلادهم " ولم تقتصر الشكوى على الرعيه فحسب بل ان الأمراء أنفسهم أخذوا يشكون اليه مايجدونه من بعضهم ، ولكنه أوصاهم بالاتفاق والائتلاف ووحدة الكلمة ورجع الى عاصمته مراكش فى آواخر سنة تسع وسبعين وأربعمائه وبقى الى سنة احدى وثمانين وأربعمائه حيث ورد عليه صريخ الأندلس مرة ثانيه ، وكان الصريخ هذه المره من منطقة شرق الأندلس بلنسية ومرسيه ، ولورقه وغيرها حيث كان القمبيطور يحاصر بلنسية ويهلك كل ماتصل اليه يده ، والنصارى القشتاليون اجتاحوا المنطقة الواقعة بين مرسية (١) ولورقة ، وعمدوا الى انشاء حصن ضخم على جبل شاهق بين المدينتين وشحنوه (٢) بالرجال والسلاح ، واتخذوه قاعدة للاغارة على ماحوله من المناطق حتى ضجت مما نزل بها من الضر وعجزت قوات الأندلس المحليه عن رد العدو وان وكان الأمل الوحيد هو أمير المسلمين ، وكان الرسول اليه هذه المره هو المعتمد (٣) نفسه اذ كان هو الحاكم الشرعى لتلك المناطق المهدده ، وان كانت حاليا قد استبد بها بعض القواد والوزراء ، وقد يكون جوازه للتضيق على هؤلاء كابن رشيق المستبد بموسيه بعد أن فتحها باسم المعتمد (٤) . وعلى أى حال

---

(١) مدينة أندلسية شهيره على نهر شقوره ، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وهى فى مستو من الأرض ، وحولها قرى عامره تشقها المياه . وتشتهر مرسيه بخصبها ، وصناعة البسط الرفيعه . / الروض المعطار (موسيه) .

(٢) من معاقل الأندلس الحصينة ، على ظهر جبل وبينها وبين مرسيه أربعون ميلا ، وهى ذات أسواق عامره وتوجد فيها أصناف من المعادن الثمينه وتتبعها قرى كثيرة عظيمة الخصب / المصدر السابق (لورقه) .

(٣) الحلل الموشيه : ٦٨ .

(٤) مصطفى عوض الكريم ، الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين : ٨ .

فقد أعد ابن تاشفين جنوده للجهاد ، وعبر بهم البحر الى الأندلس ،وطلب من ملوك الطوائف أن يوافوه عند الحصن المذكور ففعلوا ، وكان الحصن في غاية المنعة فحاصروه مدة أربعة أشهر ولم يستطيعوا اقتحامه ، وعلموا أيضا أن الاذفونش قد تحرك في جيش لانقاذ الحصن فانصرفوا عنه ، فقدم عليه فوجد قومه قد أنهكهم الحصار فأخرجهم منه وأحرقه . وقد اطلع أمير المسلمين في هذه الغزوة على فساد دخيلة أمراء الطوائف ، فقد أخرجوا أضغانهم الدفينة على بعضهم ، فهذا ابن عباد يشكو ابن رشيق الذى اغتصب منه مرسيه ويتهمه بالتعاون مع النصارى المحاصرين ، فيستفتي أمير المسلمين الفقهاء بشأنه فيرون سجنه (١) ، ثم يأتي عبد الله بن بلقين أمير غرناطه ليشكو أخاه تميما حاكم مالقه متهما اياه بسلبه ميراث أبيه ، وتنشب بعد ذلك المشاجرات بين الأميرين المتنافسين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح حاكم المريه وكان كل منهما يحاول أن يوغر صدر أمير المسلمين على الآخر بكشف مفاسده وخيانته ، وكان المعتصم يذكر ليوسف كبر ابن عباد واعجابه بنفسه وزعم أنه قال - وقد قال له المعتصم : طالت اقامة هذا الرجل بالجزيره - لو عوجت له اصبعي ماأقام بها ليلة واحده هو ولا أصحابه ..... وكأنك تخاف غائلته ، وأى شئ هذا المسكين وأصحابه ؟ انما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ، فاذا شبعوا أخرجناهم عنها الى بلادهم الى مثل هذه الأقوال من تحقيرهم (٢) . وجاءت الرعية - أيضا - يقدمها العلماء والقضاة الى أمير المسلمين تشكو اليه ثقل الضرائب والمغارم ، فأمرهم بعدم دفعها

---

(١) التبيان : ١١١ .

(٢) المراكشي ، المعجب : ٦٨ .

حتى أقفرت خزائن الأمراء ولم يستطيعوا فعل شيء مع الممتحنين (١) . كل هذه الأمور جعلت أمير المسلمين يغادر الأندلس مغضبا وقد تغيرت نفسه على أمراء الطوائف ، ورأى منهم وسمع مالم يرمعه مجالا لبقائهم حكاما للمسلمين (٢) ، ولما رأى أمراء الطوائف ذلك من أمير المسلمين سارعوا الى دفع الجزية للنصارى مقابل حمايتهم من المرابطين ، وكان أول من فعل ذلك منهم صاحب غرناطه . فلما وقف أمير المسلمين على ذلك اشتد حنقه وخاصة عندما ظفر بكتب ابن عباد الى الاذفونش طالبا حمايته أيضا .. عندئذ استفتى أمير المسلمين الفقهاء والقضاة فى الأندلس والمغرب بشأن أمراء الطوائف فأفتوا بعدم صلاحيتهم للحكم ووجوب انتزاع الأمر من أيديهم ، كماصارت اليه فتاوى أهل المشرق من الأعلام كالغزالى والطرطوشى مؤيدة للحكم السابق (٣) ، فعزم حينئذ على تخليص الأندلس منهم فجهز لذلك عدة جيوش تحت امرة ابن عمه سير بن أبى بكر وعبرت الى الأندلس فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائه ، حيث بدأت بغرناطه فاحتلتها وسيق أميرها عبد الله بن بلقين أسيرا هو وأخوه تميم حاكم مالقه الى المغرب حيث استقروا أخيرا فى مدينة أغمات ولا نجد شيئا من الشعر فى رثاء هذه الاماره ربما لكون الحكام من البربر فلم يهتموا بالأدب والشعر لقلة معرفتهم فيه ، ولكره الرعية لهم وتمنيها زوال حكمهم .

ثم سارت جيوش المرابطين نحو اشبيليه وحاصرتها بشده ، وأبدى المعتمد بسالة شديدة فى الدفاع عنها لو أبداها فى محاربة النصارى لحفظ ماء وجهه ، واقتحمت المدينة فى النهاية ، وقبض على المعتمد وذويه وأخذ أسيرا الى أغمات ودخل المرابطون اشبيليه سنة أربع وثمانين وأربعمائه . (٤)

---

(١) التبيان : ١٠٩ .

(٢) روض القرطاس : ٩٩ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ١٨٨/٦ .

(٤) الحلل الموشيه : ٧٣ .

ولقد كانت شهرة المعتمد كشاعر أكبر من شهرته كملك ، فشعره فى الأسر ومافيه من الآلام والحسرات هو الذى أثار عطف الناس على قضيته وأعماهم عن كل أخطائه السياسيه واستهتاره بالقيم الاسلاميه ، ولو أنه قتل عند دخول المرابطين مدينته لما سمعنا له ذكرا ، ومن جهة أخرى كان المعتمد راعى شعراء الأندلس كلها يتهافتون على فنائه تهافت الطير على الحب ، لما كانوا يجدونه منه من البذل السخى والهبات الوفيره والمجالس الخاصه التى تغص بأنواع اللهو والملذات ، ولذلك فاننا نجد شعرا كثيرا فى رثاء بنى عباد من شعرائهم الرسميين وغيرهم . فهذا ابن اللبانة (١) شاعر البلاط يقول (٢) :-

تبكى السماء بدمع رائح غادى * على البهاليل من أبناء عباد .
على الجبال التى هدّت قواعدها * وكانت الأرض منهم ذات أوتاد .
والرابيات عليها اليانعات ذوت * أنوارها فغدت فى خفض أوهاد .
عرّيسة دخلتها النائبات على * أساود لهم فيها وآساد (٣) .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل دانيه (على ساحل البحر) كان متكسبا بالشعر قصد الملوك ونال جوائزهم وانقطع للمعتمد بن عباد واللبانة والدته كانت تشتغل ببيع اللبن وشعره لطيف نبيل المأخذ رشيق الألفاظ رحل الى جزيرة ميورقه بعد موت المعتمد ومدح حاكمها وتوفى سنة ٥٠٧ / انظر الذخيره ق٣ ج ٢ ص ٦٦٦ ، البغيه : رقم ٢١٣ ، الوافى بالوفيات : ٤/٢٩٧ . المغرب : ٢/٤٠٩ - ٤١٦ . ، الخريده : ٢/١٠٧ . قسم شعراء المغرب والأندلس .

(٢) القصيده فى القلائد ص ٢٥ . ، محمد السعيد ، شعر ابن اللبانة الدانى : ٣٠٦ .

(٣) العرّيسة : مأوى الأسد . الصحاح (عرس) ، الأساود : الحيات العظيمه ، المصدر نفسه (سود) .

وكعبة كانت الآمال تعمرها * فاليوم لا عاكف فيها ولا باد .

لما دنا الوقت لم تخلف له عدة * وكل شئ لميقات وميعاد .

كم من دراري سعد قد هوت ووهت * هناك من درر للمجد أفراد .
(١)
نَوْر ونُور ، فهذا بعد نعمته * ذوى ، وذاك خبا من بعد ايقاد .

ان الشاعر هنا قد هزه المصاب الجلل بفقد أوليا نعمته الكرام ، فجعل كل شئ يشاركه حزنه فالسماء تسكب الدمع غزيرا ، والنجوم خبا نورها ، والزهر قد ذوى وذبل ، فالكون فى مأتم بعد أن كان فى عرس أيام عزهم ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد كانوا كعبة الآمال وبفقدهم تعطل كل شئ :-

ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ * فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد .

ويامؤمل واديهم ليسكنه * خف القطين وجف الزرع بالوادى .

ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر * لغير قصد ، فمايهديك من هادى .

وأنت يافارس الخيل التى جعلت * تختال فى عدد منهم وأعداد .

ألق السلاح وخل المشرفى فقد * أصبحت فى لهوات الضيغم العادى .
(٢)
"لا عطر بعد عروس" فى حديثهم * قد أقفر الحى من هند ومن عاد .

غابت عن الفلك الأرضى أنجمهم * فليس للسعد فيهم نور اسعاد .

فالمكرمات الواسعة قد اضمحلت ، والشجاعة والفروسية لم يعد يعرفها أحد بعد رحيلهم وذلك حكم المقادير التى لا تبقى على أحد مهما بلغ شأنه :-

هى المقادير لا تبقى على أحد * وكل ذى نفس فيها لآماد .

وأسوة لهم فى غيرهم حسنت * فما شماتة أعداء وحساد .

---

(١) النّور ، والنوّار : الزهر . اللسان (نور) .

(٢) مثل يضرب لمن لا يدّخر بعده نفيس . أنظر الميدانى ، مجمع الأمثال : ٢/٢١٢ .

(١)

أن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا * وقد خلت قبل حمص أرض بغداد .

نقول فيهم وهم أطلى برامكـــة * فالحال ذا الحال افساد كافساد .

كانت أسرّتها من فضلها بهـــم * مثل المنابر أعوادا بأعـــواد .

انّا الى الله فى أيامهم فلقـــد * كانت لنا مثل أعراس وأعيـــاد .

تبا لدنيا أذاقتهم حوادثهـــا * برح العذاب وما دانوا بالحـــاد .

ذلّو وكانت لهم فى العزّ مرتبـــة * تَحُط مرتبتى عاد وشـــداد .

كانوا ملوكا ملوك الأرض فانصرفـــوا * ومالهم حومة فيهـــا ولا نـــاد .

حموا حريمهم حتى اذا غلبـــوا * سيقوا على نسق فى حبل مقتـــاد .

تبدلو السجن بعد القصر منزلـــة * وأحدقوا بلصوص عوض أجنـــاد .

وأنزلوا عن متون الشهب واحتطـــوا * فويق دهم لتلك الخيل أنداد .

وحيث فى كل طوق من دروعهـــم * فصيغ منهن أغلال لأجيـــاد .

ترى نرى بعد أن قامت قيامتهـــم * من يوم بعث لهم فينا وميـــلاد ؟

وهو هنا يريد أن يقطع الطريق على الشامتين والحساد بضرب أمثلة لقـــوم بلغوا ذروة المجد ثم أتاهم القدر المحتوم فأصبحوا أثرا بعد عين ذلك هـــم البرامكـه وزراء الخليفة العباسى هارون الرشيد ووجه المقارنة هنا بينهـم وبين آل عباد أن المصير الذى لقيه كل منهما كان بسبب السعايات والدسائـــس المفسدة للمودة ، ثم نرى الشاعر يتأسف على أيامهم الماضية ويتأفف من فعـــل الدنيا بهم حيث صاروا فيها الى الذل والهوان بعد العز والشموخ ، وغـــدت السجون المظلمة تحويهم بعد أن كانوا يرفلون فى القصور الفخمة بين الحراس

---

(١) يشير البيت الى خلع بنى العباس واقفار بغداد قبل بنى عباد وهـــو خطأ اذ أن بنى العباس لم يخلعوا الا على يد التتار سنة ٦٥٦هـ عندما اجتاح بغداد . فربما كان البيت مدسوسا على القصيدة .

والأجناد والخدم ، كما أن دروعهم التى كانوا يعتزون بلبسها نزعت عنهم وصنعت منها القيود للخيول ، وهذا امعان فى الاذلال وتحطيم للنفوس ، ومن خلال هذه المفارقات التى يعيشها الشاعر والتى تمثل تحولا فى حياته ،يطلق زفرة بأمنية بعيدة المنال وهى أن يرجع الأحباب الى ماكانوا عليه ، وكأنهم ولدوا من جديد : ثم ينتقل الى وصف المشهد المؤثر الذى كان يوم رحيلهم فيقول :-

نسيت الا غداة النهر كونهم * فى المنشآت كأموات بألحاد .

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا * من لؤلؤ طافيات فوق أزباد .

حطّ القناع فلم تستر مخدّرة * ومزّقت أوجه تمزيق أبراد .

حان الوداع فضجت كلّ صارخة * وصارخ من مفداة ومن فاد .

سارت سفائنهم والنوح يصحبها * كأنها ابلّ يحدو بها الحادى .

كم سال فى الماء من دمع وكم حملت * تلك القطائع من قطعات أكباد .

انها صورة حية متحركة رسمها الشاعر المبدع لركوب أسياده البحر مصفدين كأنهم أموات فى اللحود ، فالسفن التى تحملهم تسير وسط عواصف من الصراخ والعويل والبكاء يطلقه أولئك الناس الذين ازدحم بهم شاطئا نهر اشبيليه (الوادى الكبير) وهو مشهد يثير آلام النفس وأشجانها ولا شك ، ويظهر مقدار الحب الذى يضمره الشعب لقائده المعتمد ، وهو موقف عمل فيه خيال الشاعر عمله ، اذ أن الحقيقة التاريخيه تخالف ذلك وتشير الى أن الناس قد ملّوا الدولة العبادية وتمنوا الراحة منها (١) . ثم يختم القصيدة بذكر كرمهم وانعامهم عليه :-

---

(١) نفح الطيب : ٢٤٧/٤ .

من لى بكم يابنى ماء السماء اذا * ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى .

وأين معتمد ، نعمى يقسمها * مرعى وماء لـــــزوار ورواد .
(١)

وأين يوضح لى هدى الرشيد ضحى * أجلو به فى ظلام الغى ارشادى .

وأين لى كنف المعتمد منزلة * طى احتفال من النعمى واعداد .

مكارم ومعال كنت بينهما * كأننى بين روضات وأطواد .

ان كان بعدكم فى العيش من أرب * فان فى غصص عيشى وأنكاد .
(٢)

ويقول ابن اللبانة من قصيدة أخرى عندما زار المعتمد فى سجنه ورأى قيوده :-

لكل شئ من الأشياء ميقات * وللمنى من منائيهن غايات .

والدهر فى صفة الحرباء منغمس * ألوان حالاته فيها استحالات .

ونحن من لعب الشطرنج فى يده * وطالما قمرت بالبيدق الشاة .

انفض يديك من الدنيا وساكنها * فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا .

وقل لعالمها السفلى قد كتمت * سريرة العالم العلوى أغمات .

طوت مظلتها لابل مذلتها * من لم تزل فوقه للعز رايات .

من كان بين الندى والبأس أنصله * هندية وعطاياه هنيدات . (٣)

رماه من حيث لم تستره سابغة * دهر مصيباته نبل مصيبات .

يبدأ الشاعر بمقدمة رزينة عن الغاية التى ينتهى اليها كل شئ فى هذا الوجود وهى الفناء ، ولكن لكل أجله . وقد جاءت هذه المقدمه مناسبة لنفس الشاعر التى أحست بالألم لما صار اليه أحبابها " ولكنها أعجز من أن تفعل

---

(١) الرشيد والمعتد هما من أبناء المعتمد بن عباد .

(٢) نفح الطيب : ٤/٢٢٢ - ٢٢٣ . ، القلائد : ٢٢ .

(٣) الهنيدة : المائه من الابل / اللسان (هند) .

شيئا ، لأن الناس جميعا لعب في يد الدهر يقلبها من سرور الى بؤس وكذا الحال مع المعتمد ، الرمز المشع لهذه الحياة في منظور الشاعر ، أما وقد انطفأ هذا الشعاع واكتتم نوره ، فالحياة كلها ظلام ووحشة تستدعي اليأس منها ونفض اليد . فقد انقلب كل شيء فيها الى كدر يجلب الهم والحزن فالشجاعة الفائقه والكرم الغامر كبلتهما القيود الثقيلة ورمتها السهام المصميه .

أنكرت الا التواءات القيود به * وكيف تنكر في الروضات حيات .
غلطت بين همايين (١) عقدن له * وبينها فاذا الأنواع أشتات .
وقلت هن ذؤابات فلم عكست * من رأسه نحو رجليه الذؤابات .
حسبتها من قناه أو أعنته * اذ ابها لثقاف المجد آلات .
دروه ليثا فخافوا منه عاديه * عذرتهم ، فلعدو الليث عادات .
لو كان يفرج عنه بعض آونة * قامت بدعوته حتى الجمادات .

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر وقد أدهشته المفاجأة حينما رأى القيود تعض بساقي سيده وكأنها الحيات ، فهو لا يريد أن يصدق مايرى ولذلك يفزع الى الشك والتخمين وتغليط نفسه فيما تعتقد فيحسب القيود همايين شدت على وسطه ، أو ذؤابات وعمائم لرأسه ولكنه - رغما عنه - يخرج من صراعه النفسي ليقف على واقع الأمر وحقيقة مايشاهد فيلتمس للثقاف عذرا يزيد صاحبه فخرا وعزة ، ذلك أنه ليث عاد تخشى فتكاته فيمن حوله لو كان طليقا وخوفا من رجوع دولته وصولته مرة أخرى اذ أن أتباعه ذوو عدد ووفاء .

---

(١) الهميان : كيس النقود ، أو نطاق يشد على الوسط . قال ابن دريد : أحسبه فارسي معرب . / اللسان (همى) .

ثم يتلهف على أيامهم الخاليه ومانال من حظوة لديهم :-

لهفى على آل عباد فانهم * أهلة مالها فى الأفق هالات .

تمسكت بعرى اللذات ذاتهم * يابئس ماجنت اللذات والذات .

راح الحيا وغدا منهم بمنزلة * كانت لنا بكر فيها وروحات .

أرض كأن على أقطارها سرجا * قد أوقدتهن بالأدهان أنبات .

(١)

وفوق شاطئ واديها رياض ربى * قد ظللتها من الأنشام دوحات .

كأن واديها سلك بلبتها * وغاية الحسن أسلاك وليات .

نهر شربت بعبريه على صور * كانت لها فىّ قبل الراح سورات .

معاهد ليت أنى قبل فرقتها * قدمت والتاركوها ليتهم ماتوا .

فجعت منها باخوان ذوى ثقة * فاتوا ، وللدهر فى الاخوان آفات .

والملاحظ هنا تركيزه على اللذات التى كان يقتنصها ابن عباد وصحبه ، ومن جملتهم شاعره ابن اللبانه فهو يقول بصراحه ان نفوسهم قد جبلت على حب اللهو وتمسكت به الى أن تسبب فى هلاكها .

والشاعر لا ينعى عليهم هذا ، لأنه يعتبره من سعة الملك وعزة السلطان فالبكر والروحات فى ظلال الأشجار وحول خرير الأنهار ، ومايتبع ذلك من الراح والريحان هى الحياة التى عاشها شاعرنا فى ظل سيده ، فهو عنها يتحدث ويصدر ، ولا يستطيع أن يخرج عن هذا الاطار فى وصفه لذكرياته ، ألا ترى أنه يتمنى الموت له ولبنى عباد لكونهم فارقوا هذا اللون من العيش .

وفى قصيدته الثالثه يقول ابن اللبانة :- (٢)

---

(١) الأنشام : شجر تتخذ منه القسي . اللسان (نشم) .

(٢) نفح الطيب : ٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

أفكّر فى عصر مضى بك مشرقـا * فيرجع ضوء الصبح عندى مظلمـا .

وأعجب من أفق المجـرّة اذ رأى * كسوفك شمسا كيف أطلع أنجمـا .

لئن عظمت فيك الرزيّة اننـا * وجدناك منها فى الرزية أعظمـا .

قناة سعت للطعن حتى تقصّمت * وسيف أطال الضرب حتى تثلمـا .

بكى آل عبّاد ولا كمحمـد (١) * وأولاده صوب الغمامة اذ همـى .

حبيب الى قلبى حبيب لقولـه * عسى طلل يدنو بهم ولعلّمـا .

صباحهم كنا بـه نحمد السّرى * فلمّا عدمناهم سرينا على عمـى .

وكنّا رعينا العزّ حول حماهـم * فقد أجدب المرعى وقد أقفر الحمى .

قصور خلت من ساكنيها فما بها * سوى الأدم (٢) تمشى حول واقفة الدّمى .

تجيب بها الهام (٣) الصّدى ولطالما * أجاب القيان الطائر المترنمـا .

كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى * بها الوفد جمعا والخميس (٤) عرمرمـا .

وهذه القصيدة لا تخرج فى أفكارها عما تقدمها من قصائد فهى استشعـار لما يحس به الشاعر من عمق النكبة التى بدلّت ضوء حياته ظلاما بعد أن أجدب الحمى الذى كان يرتع فيه آمنا ، وخلت القصور التى كانت دائمة الازدحـام بالوفود والحشود . ولهذا فالشاعر سيظل دائم الحزن والبكاء :-

---

(١) هو المعتمد .

(٢) الأدم : الظباء البيض تعلوهنّ غبرة . الصحاح (أدم) .

(٣) الهام : جمع هامة وهى من طير الليل كانوا يزعمون أنها روح القتيل الذى لا يدرك ثأره تصير هامة وتزقوا عند قبره تقول اسقونى اسقونى ، فـاذا أدرك ثأره طارت . وهى من خرافات العرب / الصحاح (هيم) .

(٤) الخميس : الجيش لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة والساق / الصحاح (خمس) .

حكيت وقد فارقت ملكك مالكـا * ومن ولهى أحكى عليك متمّمـا (١) .

مصاب هوى بالنيرات من العـلا * ولم يبق فى أرض المكارم معلمـا .

تضيق على الأرض حتى كأنمـا * خلقت واياها سوارا ومعصمـا .

تندبتك حتى لم يخلّ لى الأسـى * دموعا بها أبكى عليك ولا دمـا .

وانى على رسمى مقيم فان أمـت * سأجعل للباكين رسمى موسمـا .

وهذا البكاء الدائم الذى ألزم الشاعر به نفسه انما هو من قبيل الوفاء لسيده الذى هوى مجده بعد المنعمة وليس الشاعر وحده هو الذى يملكه الأسـى ، وتضيق عليه الأرض وانما يشاركه الكون كله ذلك :-

بكاك الحيا والريح شقت جيوبهـا * عليك وناح الرعد باسمك معلمـا .

ومزق ثوب البرق واكتست الضحـى * حدادا وقامت أنجم الجوّ أفعمـا .

وحار ابنك الاصباح وجدا فما اهتدى * وغار أخوك البحر غيضا فما طمـى .

وماحلّ بدر التمّ بعدك دارة * ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما .

قضى الله أن حطوك من ظهر أشقر * أشم وأن أمطوك أشأم أدهمـا .

سينجيك من نجىّ من السجن يوسفا * ويؤويك من آوى المسيح ابن مريما .

وتظهر هنا براعة الشاعر فى استخدام أجزاء الطبيعة فى صورة نابضـة بالحزن مشعرة بالحنو على موقفه الرثائى ، فالريح تشق الجيوب ، والرعـد يطلق صوته بالنواح مرددا اسم المعتمد ، أما البرق فقد خلع ثوبه اللامـع واكتسى مع الضحى والنجوم ثوبا حالكا ، وهذه الصورة الرائعه ترفع من قـدر

---

(١) هو متمم بن نويرة اليربوعى ، ومالك أخوه وقد أسلما أيام النبى -صلى الله عليه وسلم- ولكن مالكا ارتد بعد ذلك فقتله خالد بن الوليد . وكـان متمم دائم البكاء عليه والرثاء له . / انظر الاصابة : ٣/٣٢٦ - ٣٢٧ . ، جمهرة أشعار العرب : ٢/٧٤٧ .

الأمير المرثى حتى تقربه من منزلة الأنبياء الكرام الذين امتحنوا بالسجن والمطاردة من أعدائهم فأنجاهم الله ، ولهذا جاء ذكرهم فى البيت الأخير .

ولعل أهم ماتميز به شعر ابن اللبانة فى رثاء بنى عباد الصدق الفنى والعاطفة الدفاقه فقد رثى المعتمد كما يراه هو ويتصور بغض النظر عن الواقع الذى كان عليه ، وقد أتاح له هذا التصور مجالا واسعا لمد أطناب الرثاء وذكر الصفات الجليله التى احتوت عليها شخصية ابن عباد ، ولا ننسى فى هذا المقام الحب والوفاء الذى كان الشاعر يكنه لأميره مع شئ من الأمل فى رجوع عهده السابق ، هذه الأمور جعلت لغته فى الرثاء قويه ، تذكر بمواقف المدح التى كان يقفها فى ديوان سيده فيما مضى . وقد ألف ابن اللبانة ديوانا شعريا خاصا فى رثاء دولة بنى عباد سماه " السلوك فى وعظ الملوك " (١) ولكنه لم يصل الينا ، وأسلوبه يمتاز بالسهولة فى الألفاظ واللطافة فى المعانى التى يغلب عليها الابتكار ، مع ميل واضح الى الصنعة والزخرفة البديعية واللفظية .

أما بالنسبة لشعر المعتمد فى رثاء نفسه ودولته ، وأولاده فهو كثير يفيض بالعاطفة والبكاء والحنين (٢) ، وسنورد منه هنا مايحتمله البحث ، قال من قصيدة بعث بها الى شاعره ابن حمديس الصقلى (٣) :-

غريب بأرض المغربين أسير * سيبكى عليه منبر وسرير .
وتندبه البيض الصوارم والقنا * وينهل دمع بينهن غزير .
مضى زمن والملك مستأنس به * وأصبح منه اليوم وهو نفور .

---

(١) نفح الطيب : ٢٥٨/٤ .

(٢) انظر الذخيره ، ق ٢ ، ج ١ ص ٦٢ - ٧٥ .

(٣) قلائد العقيان : ٢٧ .

برأى من الدهر المضلل فاسد * متى صلحت للصالحين دهور ؟ :

أذل بنى ماء السماء زمانهم * وذل بنى ماء السماء كبير .

فياليت شعرى هل ابيتن ليلة * أمامى وخلفى روضة وغدير .

بمنبتة الزيتون مورثة العلا * يغنى حمام أو تدن طيور .

(١)
بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا * تشير الثريا نحونا ونشير .

ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده * غيورين والصب المحب غيور .

تراه عسيرا أو يسيرا مناله * ألا كل ماشاء الاله يسير .

وهذه الأبيات زفرة حارة من الأمير الأسير أطلقها عندما شعر بذلة الأسر فى المغرب ، وأيقن بفقدان الأمل فى صفو الدهر الغرور ، فراح يبكى ملكه المفقود الذى طالما دافع عنه بالصوارم والقنا ، وتمتع فى ظلاله بالعيش الرغيد ، وامتزج بطبيعته الساحره وسط روضات اشبيليه وحدائقها حيث كانت تقوم قصور المعتمد الشوامخ التى حوت من اللهو والطرب ، مالم يكن بحلب لبنى حمدان ولسيف بن ذى يزن فى رأس غمدان (٢) . ولما وصلت القصيدة الى ابن حمديس شد رحله الى أغمات حيث المعتمد قد أثقلته القيود فقال معارضا للقصيدة السابقه : (٣)

جرى بك جد بالكرام عثور * وجار زمان كنت فيه تجير .

لقد أصبحت بيض الظبا فى غمودها * اناثا لترك الضرب وهى ذكور .

تجئ خلافا للأمور أمورنا * ويعدل دهر فى الورى ويجور .

---

(١) الزاهر والزاهى من قصور المعتمد باشبيليه . المصدر السابق : ٢٤ .

(٢) النفح : ٤/٢٧٥ . وانظر مادة (غمدان) فى الروض المعطار .

(٣) ديوان ابن حمديس : ٢٦٨ .

أتيأس في يوم يناقض أمسه * وزهر الدراري في البروج تدور .
وقد تنتخي السادات بعد خمولها * وتخرج من بعد الكسوف بدور .
لئن كنت مقصورا بدار عمرتها * فقد يقصر الضرغام وهو هصور .
أغرّ الأساري أن يقال محمد * غريب بأرض المغربين أسير .

الى أن يقول :

ولما رحلتم بالندى في أكفكم * وقلقل رضوى منكم وثبير .
رفعت لساني بالقيامة قد أتت * الا فانظروا هذى الجبال تسير .

والشاعر يحاول أن يواسي سيده ويهون عليه ماهو فيه بنسبة ماأصابه الى الحظ العاثر ، والزمان الجائر الذي ربما يبتسم مرة أخرى فتعود البدور العبّادية الى لمعانها بعد الكسوف ، ولا عبرة بهذا الأسر والبعد عن الوطن اذ أنه لايفل عزيمة رجل كابن عباد . والشاعر في واقع الأمر غير مقتنع بهذا الأمل والتفاؤل وخاصة بعد أن قتل المرابطون ولدى ابن عباد بقرطبه ورنده عندما حاولا المقاومة والامتناع ، فنراه يصرخ يائسا قد فقد كل شيء حوله وكأن القيامة قد أزفت .

(١)
وفي رثاء قصوره ومنازله يقول المعتمد أيضا :-
(٢)
بكى المبارك في اثر ابن عباد * بكى على اثر غزلان وآساد .
بكت ثريّاه لاغمت كواكبها * بمثل نوء الثريا الرائح الغادي .
بكى الوحيد ، بكى الزاهي وقبته * والنهر والتاج ، كلّ ذلّه بادي .
ماء السماء على أفيائه درر * يالجة البحر دومي ذات ازباد .

---

(١) القلائد : ٢٦ .
(٢) هو قصر الحكم والامارة وكان يقع في شرق نهر الوادي الكبير . / عنان عصر الطوائف والمرابطين : ٥٥ .

والملاحظ هنا تكراره للفظ البكاء واسقاطه على القصور ، والنهر ، والتاج .... ليشعر السامع بروعة الملك وفخامة السلطان ، والتصاق ببانيه وشيد أركانه . ومن ناحية أخرى يمكن أن نتبين معجم ابن عباد الشعرى الذى مداره على الغزل والاستمتاع بالحياة والطبيعة ، فهو لا ينفك - حتى فى رثائه - يذكر الروض والغدير ، والسرير ، والثريا ، والقصور والطيور المغرده .... الخ أما ما نزل بقصوره من خراب واهمال وتبدل أحوال فيكتفى بذكر كلمة "بكى" لتعبر عن ذلك كله :

ومر على المعتمد وهو فى معتقله سرب من القطا يمرح فى الفضاء فهاج وجده الى حريته المفقوده فقال :- (١)

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بى * سوارح لا سجن يعوق ولا كبل .
ولم تك - والله المعيذ - حسادة * ولكن حنينا أنّ شكلى لها شكل .
فأسرح لا شملى صديع ، ولا الحشا * وجيع ولا عيناى يبكيهما ثكل .
هنيئا لها أن لم يفرّق جميعها * ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل .
وان لم تبت مثلى تطير قلوبها * اذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل .
وما ذاك مما يعتريه ، وانما * وصفت التى فى جبلة الخلق من قبل .
لنفسى الى لقيا الحمام تشوف * سواى يحب العيش فى ساقه كبل .
ألا عصم الله القطا فى فراخها * فان فراخى خانها الماء والظلّ .

وهو يتمنى الموت ليتخلص من حياة القيود التى تأنف نفسه منها ، وليغيب عن مشاهدة أولاده وهم يعيشون فى بؤس وشقاء بعد النعيم وفى ذلك يقول : (٢)

---

(١) نفح الطيب : ٤/ ٢٢١ - ٢٢٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٤/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ترى بناتك فى الأطمار جائعة * يغزلن للناس مايملكن قطميرا .
برزن نحوك للتسليم خاشعة * أبصارهن حسيرات مكاسيرا .
يطأن فى الطين والأقدام حافية (١) * كأنها لم تطأ مسكا وكافورا .
لا خد الا تشكى الجدب ظاهره * وليس الا مع الأنفاس ممطورا .
أفطرت فى العيد لاعادت مساءته * فكان فطرك للأكباد تفطيرا .
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا * فردك الدهر منهيا ومأمورا .
من بات بعدك فى ملك يسر به * فانما بات بالأحلام مغرورا .

ان الحزن والألم قد دخل الى نفس ابن عباد من جوانب كثيرة ، فهو يبكى فقد الملك ، ويبكى ذل الاسار الذى قيد حريته ومجده ونواله ، وهنا نراه يصف بعاطفة الأبوة منظرا حزينا لبناته عندما أقبلن لتهنئته بالعيد فرأى منهن مافطر قلبه وأدماه فالملابس بالية ، والأقدام حافية ، وأثر الجوع باد على الوجوه المنكسرة الخاشعة من الذل ، وهذه الصورة الحزينة الموحية وأمثالها من شعر المعتمد - وان كانت لا تخلو من المبالغه - هى التى جعلت نكبة المعتمد تأخذ الطابع الأسطورى على مر العصور ، وقد أحس المعتمد بذلك فقال متجاهلا مع الاحساس بالعظمة الكامنة فى نفسه :- (٢)

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا * بل قد عممن جهات الأرض اقلاقا .
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم * حتى أتت شرقها تنعاك اشراقا .
فأحرق الفجع أكبادا وأفئدة * وأغرق الدمع آماقا وأحداقا .

---

(١) يشير المعتمد هنا الى حادثة " يوم الطين " وذلك أن زوجته "اعتماد الرميكيه " رأت الناس يمشون فى الطين فاشتهت أن تفعل مثلهم ، فأمر المعتمد بسحق كميات من الطيب وعجنها بماء الورد حتى أصبحت كالطين فخاضته مع جواريها ، أنظر : المصدر السابق : ٤/ ٢٧٢ .

(٢) نفح الطيب : ٤/٢١٩ .

قد ضاق صدر المعالي اذ نعيت لها * وقيل : انّ عليك القيد قد ضاقا .

أنىّ غلبت وكنت الدهر ذا غلب * للغالبين وللسبّاق سبّاقا .

قلت الخطوب أذلّتني طوارقها * وكان عزمك للأعداء طرّاقا .

متى رأيت صروف الدهر تاركة * اذا انبرت لذوى الأخطار أرماقا .

فنبأ أسره الفاجع قد أقلق مشارق الأرض ومغاربها ، وتقرحت قلوب الناس هنا وهناك حزنا وألما من فعل الدهر المولع بتحطيم العظماء ، فبينما كان ابن عباد ملء سمع الدنيا وبصرها اذا به يحويه سجن ضيق ، ويطوقه قيد ثقيل يطوى أخباره وآثاره .

وهكذا ظل المعتمد فى سجنه الى أن مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ودفن بأغمات وعندما وافى العيد من تلك السنة زار الشاعر أبو بكر بن عبد الصمد (١) قبر سيده المعتمد وطاف به وخرّ على تربه ولثمه وأنشد (٢) :-

ملك الملوك أسامع فأنادى * أم قد عدتك عن السماع عواد ؟

لما خلت منك القصور ولم تكن * فيها كما قد كنت فى الأعياد .

أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا * وتخذت قبرك موضع الانشاد .

---

(١) هو أبو بحر يوسف بن أبى القاسم خلف بن أحمد بن عبد الصمد . أصله من كورة جيان ، وجده الأول السمح بن مالك أحد أمراء الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل اليها . وبيتهم مشهور بالعلم والأدب والنباهه . وأبو بحر هذا شاعر وناثر مبدع ، وذو رويّه بديهه ، كان من جملة شعراء المعتمد بن عباد . / أنظر الذخيره ، ق ٣ ، ج ٢ ص ٨٠٩ ، المغرب فى حلى المغرب : ٢ / ٢٠٣ .

(٢) أورد جزءا منها صاحب القلائد : ٢٤ ، وأوردها بطولها مصطفى عوض الكريم فى كتابه الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين : ٣١ - ٣٤ .

قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى * نيران حزن أضرمت بفؤادى .
فاذا بدمعى كلما أجريته * زادت علىّ حرارة الأكباد .
فالعين فى التسكاب والتهتان والـ * أحشاء فى الاحراق والايقاد .
يا أيها القمر المنير أهكذا * يمحى ضيا النيّر الوقاد .
ماكان ظنى قبل موتك أن أرى * قبرا يضم شوامخ الأطواد .
الهضبة الشماء تحت ضريحه * والبحر ذو التيار والازباد .

ويستمر الشاعر فى ذكر صفات الأمير الراحل التى هى فى نظره مثال للكمال الانسانى فهو قائد الفرسان والكتائب يرى الهيجاء روضا يانعا ، وغبارها فى أنفه أطيب من دخان النّد العابق . وهو محل الجود والندى متهلل الوجه لقصّاده فى كل الظروف ، أما العلوم والآداب فهو حامل لوائها والعليم بأخبارها :

من يفهم المعنى الخفى ومن له * صدق الحديث وصحة الايراد .

ثم يدور الزمان دورته ويلعب بابن عباد ، وهذا ليس عجيبا لأن الأيام دول بين الناس وفى التاريخ أكبر دليل :

حتى اذا ما الدهر أظهر حقده * والدهر للأحرار ذو أحقاد .
ألقت بأيديها معاقلك التى * طلت من العقبان والآساد .
وتهدمت أركان كلّ سياسة * وانهد حول الملك كلّ عماد .
حازت بنو العباس ملك أمية * وهم ذوو الأعداد والأمداد .
والدهر أذهب تبعا وجنوده * وأزال ملك الأرض عن شدّاد .

ثم يستطرد الشاعر فى ذكر النعم التى أولاه اياها المعتمد أيام حكمه باشبيلية ، والتى مهما رثى وبكى فلن يوفيها حقها :-

كم نعمة خضراء قد ألبستنى * ومواهب واليتها وأيادى .
أغرقتنى فى بحرك الطامى الذى * منع الظماء ورد كل ثماد . (١)
وسللت فى نصرى سيوف مكارم * تركت سيوف الهند غير حداد .
عادت بحارا اذ سقيت ضحا ضحى * وغدت هضابا اذ رفعت وهادى .
وأقمتنى لما رأيت حوادث الـ * أيام قد أسرفن فى اقصادى .
فالجفن بعدك ليس يدرى ماالكرى * فى دمعة منهلة وسهاد .
وكأن قلبى فوق مخلب طائر * وكأن جنبى فوق شوك قتاد .
ان لم تطب فيك المراثى والثنا * منى فلست بطيب الميلاد .
ولقد تمازج حبكم بجوانحى * كتمازج الأرواح بالأجساد .
ولقد رثيت وماقضيت حقوقكم * والله يعلم مايكن فؤادى .

والشاعر فيما يبدو صادق العاطفة ، يتحدث عن أمير أحبّه وعن واقع عاشه فى كنفه ، وقد مزج فى رثائه بين العبرات المنسكبة حزنا وألما وبين المدح لشخصية المعتمد . التى أمدته بكثير من مادة شعره . وأما عن تأثير هذه القصيده فى سامعيها فيقول الفتح بن خاقان : (٢) " .... وهى قصيدة أطال انشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس اليه وأحفلوا ، وبكوا لبكائه وأعولوا وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ، مديمين البكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم وأقرحوا مآقيهم بفيض شجونهم ......" .

---

(١) الثماد : الماء القليل . الصحاح (ثمد) .
(٢) قلائد العقيان : ٣٥ .

قضية ابن عباد فى اطارها الحقيقى :-

لقد شغلت هذه القضية جانبا كبيرا من جوانب الأدب والتاريخ فى الأندلس والمغرب على وجه الخصوص ، فاننا لا نكاد نجد كتابا فى هذين الفنين يخلو من ذكرها ومن الخوض فيها ، ومن هنا فقد كثرت الآراء والأحكام التى تصم يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة والخشونة ، ودولة المرابطين عامة بالجهل والتخلف ومحاربة الآداب والعلوم غير الشرعية ، ولعل هذه الأحكام ترجع الى عاملين اثنين هما ، الشعر ، ووجود المؤرخين المعادين لهذه الدولة . فالشعر الذى نظمه المعتمد نفسه أو شعراؤه الذين فقدوا مصدر رزقهم بأسره عمل عمل السحر فى نفوس الناس لما كان يحوى من مبالغات كبيرة فى وصف الآلام والأحزان الرهيبة التى كان يعانيها المعتمد وبناته الصغار من جراء السجن وقلة الزاد ، والمعاملة السيئة القاسية ، وقد قدمنا فيما سبق طرفا من هذا الشعر . أما المؤرخون فأشهرهم عبد الواحد المراكشى صاحب كتاب " المعجب فى تلخيص أخبار المغرب " الذى صور اعجاب ابن تاشفين ببلاد الأندلس ، وطمعه فى الاستيلاء عليها لأجل ذلك ، فقد قال عن عودته بعد الزلاقة : " ..... ورجع أمير المسلمين الى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغنى أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى فكيف الحيلة فى تحصيلها " ؟ (١) ويروى أيضا أن أمير المسلمين كان يقول للمعتمد هلم ماجئنا له من الجهاد ، وجعل يتأفف من الاقامة بالأندلس ويتشوق الى مراكش ويقول : " كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف . وهو فى ذلك كله يسر حسوا فى ارتغاء " (٢)

---

(١) المعجب : ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٣ ، ومعنى المثل أنه يعتقد خلاف مايقول ، كالذى يتظاهر بأخذ الرغوة يحتسى اللبن من تحتها .

الى غير ذلك من أشباه هذه الروايات التى لا يوثق بصحتها فقائلها مؤرخ موحدى مؤمن بالعقيدة الموحدية لدرجة أنه يذكر المعجزات التى لا تصدق من المهدى (١)، والتى أعلن عدد من المؤرخين شكهم فيها . فهل ينتظر من مثل المراكشى أن يذكر جهاد المرابطين واخلاصهم وهم أعداء قومه ومهاديه ؟ ولعل الذى جعل أمير المسلمين يتأنف من الاقامة فى الأندلس - على فرض صحة ذلك - هو مارأى من اللهو والعبث والتبذير الذى كان عليه المعتمد بن عباد كبير أمرائها مما دفعه الى القول (٢) : " الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل (أى المعتمد) أنه مضيع لما فى يديه من الملك ، لأن هذه الأموال التى تعينه على هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا المقدار منهم على وجه العدل أبدا ، فأخذه بالظلم ، وأخرجه فى هذه النزهات . وهذا من أفحش الاستهتار . " واذا كان يوسف عبر الى الأندلس بدافع الطمع وحب السيطرة فلماذا لم يحتلها مباشرة بعد معركة الزلاقة التى جعلت أهل الأندلس يلهجون بحبه والدعاء له ولو أراد ذلك لما وجد مقاومة ، ولكنه أعطى أمراء الطوائف فترة خمس سنوات فلما بان عجزهم واختلافهم ، استفتى أمير المسلمين بشأنهم الفقهاء وعمل برأيهم وهو ازالة هؤلاء الحكام انقاذا للمسلمين وأرضهم ، ذلك أن الأندلس لو لم تنضو تحت لواء المرابطين لسقطت لا محالة فى يد النصارى الملازمين لها كالمستظل ، والذين استشرى طمعهم بعد احتلالهم طليطلة . ثم اننا لو نظرنا الى الدعاء الذى استفتح به يوسف بن تاشفين جوازه الى الأندلس لقدرنا قيمة أقوال المراكشى السابقة حيث قال عندما ركب سفينته : " اللهم ان كنت تعلم

---

(١) أحمد بدر ، من كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : ٢٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ٢/٤٨٥ .

(٣) روض القرطاس : ٩٣ .

أن في جوازي هذا خيرا وصلاحا للمسلمين ، فسهّل علىّ جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعّبه علىّ حتى لا أجـــوزه . "

ولو أننا الآن نظرنا الى أحداث هذه القضية نظرة شاملة بعيدة عن تأثير العوامل المختلفه لأ مكننا التعرف على واقع الحالة التي كان يعيش فيهـــــا المعتمد بالمغرب ولأ نصفنا أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مما يتهم به مـــن الغلظة والقسوة والأ نانيه . ولا بد أن أن نذكر بادئ ذي بدء أن المعتمـــد كان يعيش في الأ ندلس منغمسا في الملذات والشهوات يهز عطفيه خيــــلاء وسط ذلك الحشد من الشعراء الذين خلدوا فيه من الأ مداح " مالو مـــدح به الليل لصار أضوأ من الصباح (١) . فلم تكن حياة المرابطين لتعجبه ولو وضعـوه في قصر أمير المسلمين نفسه ، وهل يرضى المعتمد المتنعم بخبز الشعير ولبن الابل اللذين كانا غذاء أمير المسلمين الدائم كما يشهد بذلك المستشرق أشباخ بالرغم من عدائه الشديد للمرابطين . اذ يقول : " قد بلغ من اعتدالـــه ، وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ولا يشرب سوى لبنهـــا (٢) ". وقد كان أمير المسلمين يكنّ للمعتمد شيئا من الا حترام لمشاركته في الحـــروب التي خاضها المرابطون في الأ ندلس ، ولذا فقد أمر ابن تاشفين قائده بـترك اشبيليه حتى يفرغ من جميع امارات الطوائف ثم يعرض على المعتمد التحول الــى المغرب بأهله وماله ، فان فعل والا نازله (٣) . فلما أبى المعتمد التحول كان مـن أسره ماسبق ايضاحــه . وعن معاملة هذا الأسير يحدثنا زميله في الأســـر عبد الله بن بلقين أمير غرناطـــه الذي أسره المرابطون قبل المعتمد واستقـــر في مدينة مكناسة حيث وافاه المعتمد هناك ، وانتقلا معا الى أغمـــات (٤) .

---

(١) نفح الطيب : ٣ / ٢٢٥ .

(٢) تاريخ الأندلس : ١/ ٧١ .

(٣) الوفيات : ٢/ ٤٨٧ .

(٤) التبيان : ١٧١ .

وفى ذلك يقول : (١) وأمرنا أن نستوطن أغمات ، فأتيناها ، ولقينا من أمير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصغرى فى الحريم ، ولم يزل يعتقدنا من انحاصه كيف ماهيأ الله على يديه ، ووجدناه بعد الله أرفق بنا وأحسن مذهبا فينا من الناس أجمعين ، ومن كل من سبق اليه منا احسان . "

ولم تكن أغمات أنذاك مدينة مهملة أو صغيرة فقد كانت عاصمة المرابطين قبل مراكش تشتهر ببساتينها الفسيحة وأسواقها التجاريه الضخمه ، وقد (٢) كانت للمعتمد حرية الاتصال بالناس ، وكان الشعراء - وهم الطبقه المفضلة لديه - على اتصال دائم به ، فمنذ أن وصل مدينة طنجه فى طريقه الى (٣) أغمات تلقاه الشعراء الطحفون والمكدون وأسمعوه بعض أشعارهم فيه فأعطاهم مما كان معه من المال وقال :- (٤)

شعراء طنجة كلهم والمغرب * ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب .

سألوا العسير من الأسير وانه * بسؤالهم لا حق فأعجب وأعجب .

وأما عندما استقر فى أغمات فقد زاره شعراؤه الثلاثة ابن اللبانة وابن حمديس الصقلى وعبد الصمد وأنشدوه من أشعارهم الشئ الكثير ، ومكثوا عنده فى حرية تامة بل ان بعضهم كابن اللبانة أنشده شعرا لا يمكن أن يسمح بمثله

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢) عباس الجرارى ، الأدب المغربى : ١/ ١٢٣ نقلا عن البكرى فى المسالك والممالك ص ١٥٣ .

(٣) مدينة قديمة بالمغرب على ساحل البحر المتوسط ، افتتحها عقبة بن نافع ، وكانت قصبة بلاد البربر ، ومنها يجوز أهل المغرب الى شواطئ الأندلس . / الروض المعطار (طنجه) .

(٤) عوض الكريم ، الأدب والأندلس فى عهد المرابطين : ٣٦ .

فى تلك الظروف فى أى زمان أو مكان ، وذلك أنه مدح المعتمد فأراد أن يجيزه بما معه من المال فرفض الشاعر وقال من قصيدة طويلة :- (١)

وعيدك سوف توسعنى سرورا * اذا عاد ارتقاؤك للسرير .
وسوف تحلّنى رتب المعالى * غداة تحلّ من تلك القصور .
تأهب أن تعود الى طلوع * فليس الخسف ملتزم البدور .

وله أيضا :

ليت لى قوة أو اوى لركن * فترى للوفاء منى سرا .

وشاعره أبو بحر عبد الصمد الذى أنشد على قبره وبكى واحتشد الناس من حوله فى مشهد كبير صارخ . فهل نجد أكثر من هذا القول والفعل دليلا على الحرية التى كانت متاحة للمعتمد وشعرائه ، واذا أضفنا الى هذه الحرية بعض جوانب اهتمام ابن تاشفين بأسيره كأمره لطبيبه الخاص أبى العلا بن زهر (٢) بعلاج اعتماد الرميكيه زوجة المعتمد استطعنا أن ندرك مدى المبالغات التى أحاطت بهذه القضية ، واستطعنا أيضا أن نرد أقوال المؤرخين المبالغين (٣) فى الماضى والحاضر ، كقول ابن الأثير : عن بنى عباد : " وفعل أمير المسلمين بهم أفعالا لم يسلكها أحد من قبله ولا يفعلها أحد ممن بعده الا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة .... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره " .

وعذر ابن الأثير فى هذا الكلام أنه ينقل عن كتاب السلوك فى وعظ الملوك لابن اللبانة شاعر المعتمد وصنيعته الآنف الذكر ، وكلامه لا يلتفت اليه لأنه

---

(١) المعجب : ٢٢١ .
(٢) الذخيره : ق٢ ، ج١ ، ص٢٢٧ .
(٣) الكامل فى التاريخ : ١٩٠/١٠ .

خصم همه تشويه سمعة أمير المسلمين . ولم يعلق ابن الأثير على مانقلـــــــه شيئا فتحمل بذلك وزر ماصنع .

ومن المحدثين المستشرق رينهارت دوزى الذى يقول : " ان معاملة ابـــن (١) تاشفين للمعتمد كانت قاسية ومقيتة " . وقد تبعه فى هذا الرأى المؤرخ محمد عبد الله عنان الذى يقول : " .... ولم يكن مقامه (أى المعتمد) بأغمـــات (٢) معتقلا عاديا بل كان سجنا شنيعا بكل معانى الكلمه ، ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضييق فلم يكن يطلق لهم مايكفيهم من النفقه ، وكان المعتمـــد وزوجه الرميكيه ، وأبناؤه الأمراء ، وبناته الأقمار يرتدون الثياب الخشنـــه ."

وقال أيضا : " ..... وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين المعتمـــد (٣) بن عباد وآله بهذه القسوه المروعه ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لا حول لهـــم ولا قوه ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه أن تمتد هذه القســـوه الى الولد الضعاف والنساء والبنــات . "

ولا أدرى من أين أتى عنان بهذه المعلومات الا أن يكون ذلك من تأثـــــير مبالغات الشعر الذى قيل فى هذه القضيه ، أو من متابعة هذا الرجل لجملـــة المستشرقين الدارسين لتراث الأندلس ، والذين كان ديدنهم الطعن فى الجوانب المختلفه لدولة المرابطين . لا لشئ الا أنها دولة اسلامية مجاهدة حطمـــت شوكة النصارى ردحا من الزمن ، وقضت على مظاهر الفسق والفجور التى كـــانت تعج بها الأندلس يقول دوزى : "كان مجئ المرابطين الى بلاد الأنـــدلس (٤)

---

(١) تاريخ مسلمى اسبانيا : ١٦٨/٣ .

(٢) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٥٧ .

(٣) المرجع نفسه : ٣٦٥ .

(٤) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين : ٤٤٠ .

نذيرا بانقلاب بعيد المدى ، فقد دالت دولة الحضاره وقامت الهمجيه على أنقاضها ، أما حسن الادراك فقد حلت محله الخرافات ، ذهب التسامح وسيطر التعصب .... فبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء في دور العلم ومناقشاتهم في الفلسفه ، ونشيد الشعراء ، وغناء أهل الموسيقى بدأنا لا نسمع الا أصوات الفقهاء وصليل السيوف . "

ويقول أشباخ : "كان المرابطون يعملون على سحق جميع العلوم والفنون التي بلغت ذروتها في ظل السياده العربيه ، فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ، ويحرقون كتبهم ، ويعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعريه الأندلسيه التي كانت تجد متعتها في قريض الفروسيه ، والقصص العادي ، وكانت قراءة هذه الكتب تحظر ويعاقب عليها بأشد العقوبات . "(١) ويعلق الدكتور مجيد السعيد على هذا النص بقوله : "اننا لا ندري ماذا يقصد المؤلف بقصص الفروسيه والقصص العادي ؟ ومن أين أتى بهذا النص ؟ وهل كان لدى الأندلسيين قبل المرابطين مثل هذا الفن ؟ الذي نراه أن الرجوع الى كتب التراجم والسير ، وكتب الأدب المؤلفه خلال هذا العصر ومابعده ماتنم أسماء أعلام برزوا في علوم مختلفه يعتبر خير رد على أشباخ ويبين خطل ماذهب اليه "(٢) .

والواقع أن عصر المرابطين كان عصرا زاهرا بالعلم والأدب ويكفي أنه عصر ابن بسام والفتح بن خاقان ، وعصر ابن خفاجه شاعر الأندلس ، وعصر الموشحات والأزجال ، التي يعتبرها المستشرق فارسيه غومث انحطاطا

---

(١) تاريخ الأندلس : ١/٤٩٣ .

(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : ٦٣ .

فى الذوق نتيجة لتعصبه ضد العصر الذى ازدهرت فيه . يقول كرد على عن المرابطين واهتمامهم بالناحية الفكريه : (١) " .... فاجتمع لهم فى بلاطهم بمراكش من الكتاب ، وفرسان البلاغة ، وأقطاب العلوم ، مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار ، حتى أشبهت حضرتهم حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم . " ولو أردنا أن نستقصى ذلك تفصيلا لاحتجنا الى كثير من الصفحات التى لا يتسع لها المجال .

وبعد فهذا قليل من كثير من الآثار التى انتجتها قضية المعتمد بن عباد ولا تزال الى اليوم حية تخوض غمارها الأقلام وانى لأرجوه أن أكون قد وضعتها فى اطارها الحقيقى أو فى قريب منه .

رثاء امارة بنى الأفطس :-

الى الشمال من امارة اشبيلية كانت تقوم امارة بنى الأفطس على رقعة كبيرة من الأرض تمتد من غرب طليطله حتى المحيط الأطلسى وكانت مدينة بطليوس (٢) عاصمة هذه الامارة تقع فى وسط تلك الرقعه ، أما أمراؤها بنو الأفطس فهم من قبائل المغرب البربريه ، ولكنهم ينتسبون الى قبيلة تجيب العربية واشتهروا بهذا النسب ومدحتهم به الشعراء (٣) ، وينكر ذلك عليهم المؤرخ ابن حيان وأولهم عبد الله بن مسلمه المعروف بابن الأفطس الذى

---

(١) كرد على ، غابر الأندلس وحاضرها : ٩٠ .

(٢) مدينة جليلة فى بسيط من الأرض ، بنيت فى عهد الأمويين ، وتحيط بها الأسوار المنيعة ويجرى فى شرقها نهر تقوم عليه قرى كثيره خصبه . / الروض المعطار (بطليوس) .

(٣) الحلة السيراء : ٢/٩٧ .

كان وافر الحزم والسياسه استطاع أن يصمد عدة سنوات فى الحروب التى دارت بينه وبين جاره ابن عباد بسبب أطماع الأخير الى أن توفى سنة سبع وثلاثين وأربعمائه وخلفه ولده محمد الملقب بالمظفر وكان عالما وفارسا (١) اشتبك مع ابن عباد فى معارك كانت الدائره عليه وتوغل ابن عباد فى أراضيه ، ولم ينقذه الا مساعى ابن جهور حاكم قرطبه ونجاحه فى توقيع الصلح بين الطرفين سنة ثلاث وأربعين وأربعمائه ، وقد اشتهر المظفر بالعلم والأدب ، وله التأليف الكبير المسمى بالمظفرى فى خمسين مجلدة احتوى على الأخبار والسير والآداب ، والطرف المستمله ، والنكت البديعه . (٢)

وقد استغل النصارى القشتاليون الخلافات القائمه بين الأمراء الأندلسيين وأغاروا على أطراف امارة بنى الأفطس من الشمال والغرب واحتلوا بعض الأجزاء واستوطنوها وأخذوا يهددون ابن الأفطس الذى لم يجد بدا من دفع الجزيه لهم لعجزه عن دفعهم بسبب انشغاله بحرب ابن عباد ، وظل الأمر كذلك الى أن توفى المظفر وخلفه ولده يحيى المنصور الذى نشب النزاع بينه وبين أخيه المتوكل حيث كان يرى أنه أحق بالحكم من المنصور واستمر النزاع عدة أعوام اضطربت خلالها الامارة اضطرابا كاد يودى بها لولا أن انتهى الخصام بموت يحيى فجأة سنة أربع وستين وأربعمائه ، فتولى عمر المتوكل الحكم مكانه بهدوء وسلام . وكان المتوكل أديبا وشاعرا كبيرا ، وكان يضاهى المعتمد بن عباد فى فخامة البلاط

---

(١) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٨٤ .

(٢) البيان المغرب : ٣/٢٣٦ .

وجلب الشعراء والعلماء والمغنين وغيرهم ويصفه الفتح بن خاقان بقولـه (١) :

" ملك جنّد الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود وأمر الأيام فأتمرت وطافت بكعبته الآمال واعتمرت ، الى لسن وفصاحه ، ورحب جناب للوافد وساحه ، ونظم يزرى بالدر النظيم ، ونثر تسرى رقته سرى النسيم ، وأيام كأنها لحسنها جمع ، وليال كان فيها على الأنس حضور مجتمع ، راقت اشراقا وتبلجا ، وسالت مكارمه أنهارا وخلجا " .

ويقول لسان الدين بن الخطيب (٢) : " .... وكان المتوكل ملكا عالى القدر ، مشهور الفضل ، مثلا فى الجلالة والسرور ، من أهل الرأى والحزم والبلاغه ، وكانت مدينة بطليوس فى مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم . "

وقد شهدت الاماره فى عهده شيئا من الاستقرار والأمن الى أن استولى القشتاليون على طليطله وبعث ملكهم الى المتوكل يطلب منه تسليم بعض الحصون والقلاع مع أداء الجزيه ، فرفض المتوكل ذلك ورد على ملك قشتاله برسالة حازمة منها (٣) : " ..... وأما نحن ان قلّت أعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه الا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك ، وجلاد تبصره فى ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسومين ، فنقوى عليك ونستعين .... " ثم بعث المتوكل قاضيه أبا الوليد الباجى ليطوف بحواضر الأندلس ويحضهم على الوحدة لمدافعة العدو ، فقام بالمهمة وماوسعه ذلك ، ولكن هيهات أن يستجيب الأموات (٤) عندئذ استقر رأى المتوكل بن الأفطس والمعتمد على استدعاء

---

(١) قلائد العقيان : ٤١ .

(٢) أعمال الأعلام : ١٨١ .

(٣) الحلل الموشيه : ٣٧ .

(٤) الحلة السيراء : ٢/٩٨ .

المرابطين ، فكان قد وصهم وحدوث معركة الزلاقة . كما سبق بيانه . ولما أراد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين انقاذ الأندلس وازالة هؤلاء الأمراء وبدأ باشبيليه ، شعر ابن الأفطس بالخطر فسلك مسلك ابن عباد من قبل وهو الاستغاثة بالاذفونش ملك قشتاله وبذل له ثلاث مدن هامه من أملاكه ، (١) وكان لهذا التصرف الأرعن أثره في نفوس الناس ، فانحرفوا عن المتوكل ، وكتب أعيانهم الى المرابطين يستدعونهم ، فتحرك في أوائل سنة ثمان وثمانين وأربعمائه جيش مرابطي من اشبيليه واخترق أراضي بطليوس بسرعه الى أن وصلوا الى مأوى المتوكل فاقتحموه وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس وضربوا أعناقهم ، وهكذا انتهت امارة بني الأفطس في بطليوس بعد أن دامت قرابة خمس وسبعين سنه . (٢)

وقد رثى هذه الامارة وأصحابها وزيرهم الشاعر الأديب عبد المجيد ابن عبدون (٣) ، بقصيدة طويله اشتهرت باسم البسامه حشد فيها جملة كبيرة فمن أصابتهم حوادث الأيام في مختلف العصور (٤) . يقول :-

---

(١) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٦٨ .

(٢) أعمال الأعلام : ١٨٦ .

(٣) هو ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري . من أهل مدينة يابره ، كان أديب الأندلس في عصره شعرا وكتابة وترسلا مع العلم بالخبر والأثر ومعاني الحديث . تولى الوزارة لبني الأفطس حتى انقضاء دولتهم ثم انتقل الى خدمة المرابطين ، له كتاب في نصرة أبي عبيد على ابن قتيبه ، وروى عن الأعلم الشنتمري انظر الصلة : ٢/٣٨٨ - ٣٨٩ ، فوات الوفيات : ٢/٣٨٨ ، دائرة المعارف الاسلاميه ١/٢٢٥ .

(٤) القصيده في المعجب : ١٢٩ - ١٤٠ .

الدهر يفجع بعد العين بالأثـر * فما البكاء على الأشباح والصـور ؟

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظـة * عن نومة بين ناب الليث والظفـر .

فالدهر حرب وان أبدى سالمـة * والبيض والسود مثل البيض والسمر (١) .

ولا هوادة بين الرأس تأخذه * يد الضراب وبين الصارم الذكـر .

فلا يغرنك من دنياك نومتهـا * فماصناعة عينيها سوى السهـر .

ماالليالى أقال الله عثرتنـا * من الليالى وخانتها يد الغيـر .

فى كل حين لها فى كل جارحة * منا جراح وان زاغت عن البصـر .

تسر بالشئ لكن كى تغر بـه * كالأيم ثار الى الجانى من الزهـر (٢) .

كم دولة وليت بالنصر خدمتهـا * لم تبق منها ، وسل ذكراك من خبر .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذه المقدمة الرزينة التى تنم عن حكمة ومعرفـة بأحوال الدهر وتقلبات الأيام التى لا تفتأ فى حركة مستمرة تأتى بكل عجيب لا يخطر على بال من غفل واغتر بمسالمتهاالأيام فى نظر الشاعر عدو شاكـى السلاح ، واقف بالمرصاد لمحو العين والأثر لكل حى مهما تنعم ولكل دولـة وان ازدهرت وشمخت والأمثلة على ذلك تفوق كل حصر :-

هوت بدارا وفلت غرب قاتلـه * وكان عضبا على الأملاك ذا أثـر (٣) .

واسترجعت من بنى ساسان ماوهبت * ولم تدع لبنى يونان من أثـر (٤) .

---

(١) البيض والسود : هى الأيام والليالى ، والبيض والسمر : هى السيـوف والرماح .

(٢) الأيم : الحيه . الصحاح (أيم) .

(٣) قام بشرح هذه القصيدة ابن بدرون الشلبى الأندلسى ، وعلى شرحـه المخطوط بمركز البحث العلمى اعتمدت فى تفسير النواحى التاريخيـه .
دارا : هو آخر ملوك الفرس الأوائل ، وقاتله هو الاسكندر ذو القرنين الذى تغلب على سائر الملوك ومات من بضع وثلاثين سنه . / انظـر لوحه ٣-٤ ، الأثر : فرند السيف . / اللسان (أثر) .

(٤) بنو ساسان : هم الأكاسره من ملوك الفرس ، وساسان جدهم ، وحكموا أربعة قرون . لوحه : ٦ .

وألحقت أختها طسما (١) ، وعاد على * عاد وجرهم منها ناقض المسرور .
وما أقالت ذوى الهيئات من يمن * ولا أجارت ذوى الغايات من مضر .
ومزقت سبأ فى كلّ قاصية * فما التقى رائح منهم بمبتكر .

يسير الشاعر بتسلسل هرمى ذاكرا الأقوام الذين أناخ عليهم الدهر وأبادهم ، ويبدأ بالأمم القديمة الغابرة ، كالفرس الأوائل والأكاسرة واليونانيين ، ثم ينتقل الى قبائل العرب البائدة كطسم وجديس ، وعاد وجرهم وغيرهم من القبائل اليمانية والمضرية التى عاشت حينا من الدهر فى خفض وترف ورياسة ، ثم عفت وأصبحت أحاديث وأخبارا . وينتقل بعد ذلك الى العصر الجاهلى قائلا :

وأنفذت فى كليب حكمها ، ورمت * مهلهلا بين سمع الأرض والبصر .
ولم تردّ على الضّليل (٢) صحته * ولا ثنت أسدا عن ربّها حجر .
ودوّخت آل ذبيان واخوتهم * عبسا ، وغصت بنى بدر (٣) على النهر .

---

(١) طسم وجديس من قبائل العرب البائدة . كان موطنهما باليمامة ، ويحكمهما ملك من طسم اسمه عملوق شديد الظلم والعسف ، وكان مصرعه بتدبير امرأة من جديس ، فكان فى ذلك ابادة القبيلتين . / المخطوط السابق ، لوحة ٨ .
جرهم : قبيلة يمانية هاجرت الى الحجاز ، وأصهر اليهم اسماعيل عليه السلام ثم بغوا وضلوا فأهلكهم الله . المرر : القوة .
(٢) الضليل : هو أمرؤ القيس ، ذهب يستعدى قيصر الروم على بنى أسد قتلة أبيه فهلك هناك .
(٣) بنو بدر : هما حمل بن بدر وحذيفة بن بدر من سادة ذبيان ، دهمتهما خيل عبس وهما على ماء اسمه جفر الهباءة وذلك أثناء حرب داحس والغبراء ، المصدر السابق ، لوحة : ٥٥ .

وألحقت بعدىّ بالعراق على * يد ابنه أحمر العينين والشّعر (١) .

وأهلكت ابرونرا بابنه درمست * بيزدجرد الى مرو فلم يحر (٢) .

والشاعر قد جعل القصيدة ميدانا لذكر ثقافته التاريخية الواسعه التى كانت من الروافد الأساسيه التى يجب أن يلمّ بها من يتولى الوزارة والكتابة كابن عبدون ، فنراه يفيض فى ذكر أيام العرب وحوادث الأشراف منهم وممن عاصرهم من الفرس وغيرهم ، ثم يتدرج الى العصر الاسلامى منذ بداية معاركته الأولى :-

يوم القليب بنو بدر فنوا وسعى * قليب بدر بمن فيه الى سقر .

ومزّقت جعفرا بالبيض واختلست * من غيله حمزة الظلام للجزر .

وأشرفت بخبيب فوق فارعة * وألصقت طلحة الفيّاض بالعفر .

وخضّبت شيب عثمان دما وخطت * الى الزّبير ولم تستحى من عمر .

ولا رعت لأبى اليقظان صحبته * ولم تزوّده الا الضّيح فى الغمر (٣) .

وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن * وأمكنت من حسين راحتى شمر .

---

(١) عدى بن زيد الشاعر قتله النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان لعدى ولد اسمه زيد سعى بالنعمان لدى كسرى حتى قتله . لوحه : ٦٠ .

(٢) أبرويز بن هرمز من ملوك الفرس غدر أباه واستولى على العرش ثم كانت نهايته على يد ولده شيرويه ، يزدجرد هو الملك الذى فر أمام المسلمين فى القادسيه وعقد حلفا مع الترك والصغد ولكنهم أسلموه فقتل بمرو . لوحه ٦٥ . ، يحور : يرجع .

(٣) هو عمار بن ياسر ، الضّيح : اللبن حيث طلب ماء فجئ بلبن فشربه وقتل بعد ذلك سنة ٣٦ هـ يوم صفين . لوحه : ٦٨ .

وبعد عصر الراشدين يأتي لذكر حوادث العصر الأموي :-

(١)
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن * أتت بمعضلة الألباب والفكـــر .

فبعضنا قائل ماغتالـــه أحـــــد * وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر .

وأردت ابن زياد بالحسين فلـــم * يبوء بشسع له قد طاح أو ظفر .
(٢)
وعممت بالنبي فودى أبي أنـــس * ولم ترد الردى عنه قنا زفـــر .

ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا * راعت عياذته بالبيت والحجـــر .

واظفرت بالوليد بن اليزيد ولـــم * تبق الخلافة بين الكأس والوتـر .

ثم يعرج بعد ذلك على العصر العباسي ذاكرا لكثير من عظمائهم الذيـــن عصفت بهم يد الحدثان :

ولم تعد قضب السفاح نائيــــة * عن رأس مروان أو أشياعه الفجر .
(٣)
وأسلبت دمعة الروح الأمين علـــى * دم بفخ لآل المصطفى هـدر .
(٤)
وأشرقت جعفرا والفضل ينظـــره * والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر .

---

(١) ابن هند : معاوية بن أبي سفيان ، وفي البيتين اشارة الى ارتيـــاب بعض المسلمين في ميتة الحسن بن علي ، واتهامهم معاويه بتدبيرهـا ليكون العرش من بعده لولده يزيد . / المصدر السابق ، لوحه : ٧٣ .

(٢) أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفهري ، وزفر بن الحارث الكلابي مـــن أصحابه . كان يدعو لابن الزبير . التقى بجيوش الأمويين بمرج راهــط سنة ٦٤هـ ودارت الدائره عليه فقتل وفر عنه زفر . / لوحه : ٨٠ .

(٣) فخ : موضع قريب من مكه ، قتل فيه ثلاثة من أبناء وأحفاد الحســن بن علي في زمن الخليفة المهدي العباسي / لوحه : ١١٦ .

(٤) يشير في هذا البيت الى مصرع البرامكه على يد الرشيد ، وجعفـــر والفضل هما ابنا يحيى البرمكي . وقصتهم مشهوره .

وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت * لجعفر بابنه والأعبد الغدر (١) .

وروعت كل مأمون ومؤتمن * وأسلمت كل منصور ومنتصر .

وأوشقت في عراها كل معتمد * وأشرقت بقذاها كل مقتدر .

وبعد هذه المقدمات التاريخية الطويلة يصل ابن عبدون الى غايته من القصيدة وهي رثاء بني الأفطس فيقول :-

بني المظفر والأيام مابرحت * مراحلا والورى منها على سفر .

سحقا ليومكم يوما ولا حملت * بمثله ليلة في مقبل العمر .

من للأسرة أو من للأعنة أو * من للأسنة يهديها الى الثغر .

من لليراعة أو من للبراعة أو * من للسماحة أو للنفع والضرر .

أو دفع كارثة أو روع آزفة * أو قمع حادثة تعيا على القدر .

ويح السماح وويح البأس لو سلما * وحسرة الدين والدنيا على عمر (٢) .

سقت ثرى الفضل والعباس هامية * تعزى اليهم سماحا لا الى المطر (٣) .

ثلاثة ماارتقى النسران حيث رموا * وكل ماطار من نسر ولم يدر .

ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا * عني ، مضى الدهر لم يربع ولم يجر (٤) .

---

(١) جعفر المذكور هو جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل الخليفة العباسي تآمر عليه ولده المنتصر مع بعض العبيد وقتلوه . لوحه / ١٢٨ .

(٢) هو عمر المتوكل بن المظفر آخر أمراء بني الأفطس .

(٣) الفضل والعباس هما ولدا المتوكل اللذان قتلهما المرابطون عند فتح بطليوس .

(٤) يربع : يقف / الصحاح (ربع) .

وهنا نلاحظ اختلاف نغمة الشاعر عن السرد التاريخي السابق ، ففي رثائه لقومه بني الأفطس نجد مسحة خفيفة من الحزن تبدو من خلال حديثه عن صفاتهم المجيده ، وعزهم الباذخ الذى انهار بعد أن كانوا ملوكا على الأسرّة ، فرسان السيف والقلم ، تفيض أيديهم وأنفسهم كرما وسماحه .

فعلى هؤلاء تبكي الدنيا ، ويندب الشاعر المآثر التى خبرها عن قرب مرددا مستفهما بتفجّع :-

أين الجلال الذى غضّت مهابته * قلوبنا وعيون الأنجم الزّهر .
أين الاباء الذى أرسوا قواعده * على دعائم من عز ومن ظفر .
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه * فلم يرد أحد منهم على كدر .
كانوا رواسى أرض الله منذ نأوا * عنها استطارت بمن فيها ولم تقر .
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت * هذى الخليقة يالله فى سدر (١) .
من لى ولا من بهم ان أظلمت نوب * ولم يكن ليلها يفضى الى سحر .
من لى ولا من بهم ان أطبقت محن * ولم يكن وردها يفضى الى صدر .
من لى ولا من بهم ان عطلت سنن * وأخفيت ألسن الآثار والسّير .

وتظهر من خلال هذه الأبيات براعة الشاعر فى استعمال التكرار المفضى الى معان رثائية متعددة ومبتكره تضع المرثيين فى ذروة الكمال الانسانى ، وبخاصة تلك الأوصاف المعنويه التى يخرجها الى حيز الماديه فهم الذين أرسوا قواعد الاباء ، وصفوا شرائع الوفاء ومناهله .

وقد لعب خيال الشاعر دوره فى ابراز صور العظمة التى تفرد بها بنو الأفطس فهم : أوتاد الأرض ورواسيها ، وبفقدهم تزلزلت أركانها ، وهم

---

(١) السدر : تحيّر البصر / المصدر نفسه (سدر) .

مصابيح هداها ، فلما انطفأت ترددت الخليقة فى دياجير الحيرة والاضطراب وتكالبت عليها المحن التى لا تنتهى ، وازاء ذهاب فضائل هؤلاء الأمراء لا يجد شاعرهم أوسع من الصبر :-

على الفضائل الا الصبر بعدهم * سلام مرتقب للأجر منتظر .

وبعد ، فلعل ابن عبدون وقومه بنى الأفطس مدينون بشهرتهم الى هذه القصيده التى طار ذكرها فى آفاق الأدب العربى ، وكثر الثناء عليها وبولغ فى تقديرها ، فالمراكشى يصفها بأنها القصيدة الغراء ، والعقيلة العذراء التى " أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلّت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر اليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقل وجرير ... سلك فيها أبو محمد - رحمه الله - طريقة لم يسبق اليها ، وورد شرعة لم يزاحم عليها ، فلذلك قل مثلها لا بل عدم ، وعزّ نظيرها فيما توهّم ولا علم " (١) .

ومما لا جدال فيه أن القصيده ذات أسلوب رصين مشرق رشيقة الألفاظ جيدة المعانى والأفكار ، موشحة بالبديع والترصيع ، ولكن - فيما يبدو - أن تفضيلها لم يأت من هذا الجانب ، وانما من جانب الطريقة التى اتبعها الشاعر فى نظم الحوادث التاريخيه التى تدل على علم واسع ، وثقافة راسخه . أضف الى ذلك أن الأدباء والنقاد فى عصر ابن عبدون كانوا يحتفون بالآثار الأدبيه المنثورة والمنظومة لا لقيمتها الفنية ، وانما لما تحوى من اشارات تاريخيه تفسح المجال للشرّاح والمفسرين ليبدءوا فيها ويعيدوا . وخير مثال على هذا القول رسالتا ابن زيدون - المعاصر لابن عبدون - الجديّة والهزلية فقد

---

(١) المعجب : ١٢٨ .

شرحت كل منهما بسفر مستقل (١) كما برزت فى الأندلس فى هذا العصر الأراجيز التاريخيه ، حيث ينظم الشاعر حوادث التاريخ شعرا فى قوافى وبحور متعدده وأشهر من يذكر فى هذا المجال الشاعر الراجز أبو طالب عبد الجبار (٢) الذى نظم أرجوزة طويله (٣) بدأها بالتحميد ثم التفكير فى ملكوت الله ثم بدء الخليقة من لدن آدم - عليه السلام - مرورا بالرسل الكرام مفصلا أخبارهم ثم الخلفاء الأربعه وسيرتهم ، فبنى أميه - فالعباسيين ، ثم يعرج على الأندلس فيذكر حكم الأمويين ثم ملوك الطوائف فالمرابطين حتى حكم على بن يوسف بن تاشفين الذى تولى الحكم سنة خمسمائه من الهجره ، وقد ذكر صاحب الأرجوزه كلامه فيها بأنه "فى معنى ماتضمنته كتب التاريخ (٤) ؛ قطفت عيون زهرها ، والتقطت مكنون دررها ، واقتصرت على أقلها دون أكثرها مما لا يسع جهله ، وحذفت كل حديث يتغلغل ، وخبر يتسلسل ، الا مازدت حلاه رونقا ، ومجتلاه تألقا ...." .

---

(١) شرح الرسالة الجديه خليل بن أيبك الصفدى بكتاب سماه "تمام المتون" وشرح الرسالة الهزليه جمال الدين بن نباته المصرى بكتاب سماه "سرح العيون" وهما محققان مطبوعان .

(٢) من أهل جزيرة شقر بنواحى بلنسية ، كان يعرف بالمتنبى ، من أبرع أهل وقته أدبا ، وأعجبهم مذهبا وأكثرهم تفننا فى العلوم ، وأجاده فى المنثور والمنظوم . ولم تمدنا المصادر بتفاصيل عن حياته / انظر الذخيره : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٩١٦ ، الخريده - قسم شعراء المغرب والأندلس : ٢ / ١١٠ .

(٣) انظر الذخيره : ق ١ ج ٢ ص ٩٢٠ - ٩٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٩١٩ .

ولعل أصول هذا الاتجاه الجديد فى الشعر ترجع الى المشرق ، حيث كان أبو تمام يضمن قصائده شذرات من التاريخ ثم توسع فى ذلك الملك الشاعر عبد الله بن المعتز فنظم أرجوزته التاريخية الشهيره (١) التى ذكر فيها أحوال الخلفاء العباسيين ، والمتلاعبين بالخلافة فى منتصف القرن الثالث الهجرى ووصف فتنهم ومنكراتهم بشئ من التفصيل .

وفى تقديرى ان الذين أعجبوا بقصيدة ابن عبدون كان اعجابهم بالشاعر لا بالشعر ، فالقصيدة تخلو من العاطفة الصادقة الفياضة بالألم والحزن الذى يمثل الروح فى قصائد الرثاء .

فجاء تأثيرها ضعيفا فى النفوس اذا ماقيس بتأثير قصائد شعراء المعتمد السابقة ، التى تفيض بالأشجان والحسرات والصدق لأنها صادرة عن أنفسهم واحساسهم بعكس ابن عبدون الذى كان يصدر عن ثقافته ولسانه ولذا فلاعجب أن نراه بعد هلاك قومه بنى الأفطس يعمل فى بلاط أعدائهم المرابطين .

ولعل أبيات القصيده الأخيره تدل على أن هدف شاعرنا كان اظهار البراعة والتفوق الأدبى وذلك عندما يقول :

قرطت آذان من فيها بفاضحة * على الحسان حصى الياقوت والدّرر .
سيارة فى أقاصى الأرض قاطعة * شقا شقا هدرت فى البدو والحضر ..
مطاعة الأمر فى الألباب قاضية * من المسامع مالم يقض من وطر .

---

(١) ديوان ابن المعتز : ٤٨١ - ٥٠٥ .

نشأة امارة بني صمادح في المريّة :- (١)

لمّا سقطت الدولة الأموية في الأندلس استبد موالي المنصور بن أبي عامر بحكم مدينة المرية وماجاورها . ولمع في عصر الطوائف اسم الفتى (خيران العامري) قائدا وسياسيا وأديبا ، استطاع أن يحافظ على مافي يده حتى توفي ثم خلفه أخوه الفتى (زهير العامري) وكان خطيرا داهية شديد البأس ، وسّع امارته حتى بلغت حدود طليطله شمالا . ثم قرر غزو غرناطه على أثر موت أميرها . فسار اليها بجمع كبير ولكنه هزم وقتل في هذه الوقعه . فغدت المريه بلا حاكم ، فاجتمع وجوه أهلها على استدعاء حاكم بلنسية آنذاك عبد العزيز ابن أبي عامر لكونه صاحب الحق في ميراث موالي أسرته ، فجاء وضبط أمورها ، ولكنه اضطر الى العوده الى بلنسية ، ووكل أمر تدبير المريه الى وزيره أبي الأحوص معن بن صمادح التجيبي كنائب له فيها . ولكن هذا الوزير سرعان ماأخذ يمهد ويخطط للاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالمريه ، فتم له ماأراد وجاهر بخلع الطاعة لعبد العزيز ، وأيده الناس في ذلك . وتم هذا الأمر في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائه . (٢)

قال ابن حيان عن ابن صمادح " .... فكان شر خليفة استخلف ، لم يكد يواري وجهه عبد العزيز عنه حتى خان الأمانة ، وطرده من الامارة ، ونصب

---

(١) مدينة حصينة بالأندلس ، بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ تقع على شاطئ البحر المتوسط ، وتكثر فيها الأوديه الجاريه التي تسقى بساتينها ، وتشتهر بصناعات الحرير والمعادن . وكانت مراكب التجار تقصدها من الشام ومصر . / الروض المعطار (المريه) .

(٢) البيان المغرب : ١٦٨/٣ .

له الحرب ، فضرّب فى اللؤم ماشاء ، وتنكب ابن أبى عامر التوفيق لاستدعائه الذئب الأزل على ثلته ، وستدعى الذئب أظلم . وكان من العجب أن تملاها ابن صمادح ، وخلفها ميراثا فى عقبه " . (١)

واستمر معن فى الحكم زهاء عشرة أعوام ثم توفى وخلفه ولده محمد الذى اتخذ على عادة أمراء الطوائف - الالقاب الفخمه فتلقب بالمعتصم بالله الواثق بفضل الله ، ولم يكن المعتصم من رجال الحرب الا انه استطاع أن يحافظ على امارته ضد الثورات الداخليه التى كان يحركها عبد العزيز بن أبى عامر والحروب الخارجيه مع المعتمد بن عباد الذى استطاع أن ينتزع بعض أراضى الاماره فيما بعد . وثابت للمعتصم أطماع فى الاستيلاء على أراضى جارته غرناطه وذلك بتدبير اليهودى يوسف بن النغراله وزير غرناطه . فاستولى على بعض حصونها الشرقيه ، ولكن المؤامره كشفت وقتل الوزير اليهودى وفشلت الخطه . (٢) على أن أهم ماعنى به هو تشييد القصور الفخمة وحماية دولة الشعر والأدب فقد شيد قصره الشهير المعروف "بالصمادحيه" حيث يشرف على البحر وتحيط به الجنات والبساتين ومنه يستطيع مشاهدة مدينة المرية كلها . وفى بلاط هذا القصر كانت تقوم جامعة أدبيه وعلميه تنافس بلاط اشبيليه وبطليوس . (٣) يقول ابن بسام . :" ولم يكن أبو يحيى (المعتصم) هذا من فحولة ملوك الفتنة ، أخلد الى الدعة واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه

---

(١) الذخيره : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣١ .

(٢) التبيان : ٥٣ .

(٣) الذخيره : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ .

ويبرز فيه غير أنه كان رحب الفناء ، جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعطت الى حضرته الرحال ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت ...... " .

وقال ابن خاقان : (١) " ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها .... لم تخل أيامه من مناظره ولا عمرت الا بمذاكره ومحاضره ، الا ساعات أوقفها على المدام ..... وكانت دولته مشرعا للكرم نفقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفقت بحار الكلام ..... " .

وقد كان المعتصم وبنوه جميعا ، معز الدولة ، ورفيع الدولة ورشيد الدولة من أهل الأدب والشعر (٢) ، كما كانت ابنته أم الكرام من أشهر شاعرات العصر (٣) ، وبالاضافة الى الشعر ورعاية الشعراء فقد كان للمعتصم يوم من أسبوع يخصصه للعلماء والفقهاء يتناظرون فيه بمسائل الفقه والتفسير والحديث ونتيجة لهذه الحياة الوادعة لم يكن المعتصم من المتحمسين لاستدعاء المرابطين ، ولكنهم لما عبروا الى الأندلس شارك في استقبالهم ونال حظوة عند ابن تاشفين استغلها في الطعن على المعتمد وغيره ، وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائه توجهت القوات المرابطيه الى المريه لاكمال مشروعها في ازالة الامارات المفككه المنحله فحاصرتها ، وكان المعتصم آنذاك يعاني من مرض كان خاتمة حياته ، فقال عبارته المشهورة (٤) " نغّص علينا كلّ شيء حتى الموت " وهكذا هلك المعتصم بعد حكم دام أربعين سنة ، ودخلت المريه تحت راية المرابطين .

---

(١) قلائد العقيان : ٥٣ .
(٢) انظر أخبارهم وأشعارهم في الحلة السيراء : ٧٨ - ٩٦ .
(٣) نفح الطيب : ٤/ ١٧٠ .
(٤) الخريده : ٢/ ٨٨ .

وقد رثى هذه الامارة وأميرها الشاعر أبو الحسن بن الحاج (١) فى مخمسة منها قوله بعد الغزل (٢) :-

يارَبَّ أرض قد خلت قصورها * وأصبحت آهلة قبورها .
يشغل عن زائرها مزورها * لا يأمل العودة من يزورها .
هيهات : ذاك الورد ممنوع الصّدر .

تنتحب الدنيا على ابن معن * كأنها ثكلى أصيبت بابن .
أكرم مأمول ولا أستثنى * أثنى بنعماه ولا أثنى .
والروض لا ينكر معروف المطر .

عهدى به والملك فى ذماره * والنصر فيما شاء من أنصاره .
يطلع بدر التمّ من أزراره * وتكمن العفّة فى ازاره .
ويحضر السؤدد أيان حضر .

قل للنوى جدّ بنا انطلاق * مابعدت مصر ولا العراق .
اذا حدا نحوهما اشتياق * ومن دواء العلل الفراق .
ومن نأى عن وطن نال وطر .

---

(١) هو ذو الوزارتين جعفر بن ابراهيم بن أحمد بن سعيد بن الحاج . أصله من لورقه (مدينة على البحر تجاور المريه) ، وهو من بيت جلالة ووزاره . كان مقدما فى النظم والنثر ، ومن رؤساء الأدباء ، وكانت له صلة بالمعتمد بن عباد وقد عمّر طويلا وتوفى بعد سنة خمسمائه ./ انظر : المطرب : ١٣٧ ، بغية الملتمس : ٢٤١ ، الخريده : ٢/ ١٤١ .
(٢) نفح الطيب : ٤/ ١٠٤ - ١٠٥ .

والمخمسة فيما أحسب تقصد الى اظهار شاعرية كاتبها فى المقام الأول ، فعاطفة الحزن والتأثر النفسى بالحدث لا تكاد تظهر ، والصور الرثائيه باهتـه لا روح فيها ، ومن العجب أن الشاعر بدأ هذه المخمسة بالغزل ووصف المحبوب وليالى الأنس به ثم مكابدة الشوق :-

من لى بمجبول على ظلم البشـر * صحّف فى أحكامه حاء الحـور .
مرّبنا يسحب أذيال الخفـر * ماأحسد الظبى له اذا نفـر .
وأشبه الغصن به اذا خطـر .

كافورة قد طرزت بمسـك * جوهرة لم تمتهن بسـلك .
نبذت فيها ورعى ونسكـى * بعد لجاجى فى التقى ومحكى .
فاليوم قد صح رجوعى واشتهـر .

سقى الحيا عهدا لنا بالطـاق * معترك الألباب والأحـداق .
وملتقى الأنفس والأشـواق * أيأس فيه الدهر عن تلاقـى .
وربما ساءك دهـر ثم سـرّ .

وهكذا يستمر على هذا المنهج فى خمسة المقاطع الأول من القصيده ثـم يعرج على رثاء ابن صمادح كنوع من الواجب يراه الشاعر لمن أحسن اليـه " والروض لا ينكر معروف المطر " .

وبعد الرثاء يذكر رحلته وركوبه البحر ميمما شطر بغداد فى أربعـة مقاطع :

يوم عدل الملك الرضـىّ * الهاشمىّ الطاهر النقـىّ .
والمجتبى من ضئضئ(١) النبـىّ * من ولد السفّاح والمهـدىّ .
فخـر معدّ ونـزار ومضـر .

---

(١) الضئضئ : الأصل . / الصحاح : (ضأضأ) .

ولا نلاحظ فى مفارقته للديار التى ذاق حلاوة العيش فيها أى أسف أو حنين بل نجده قد ملّها الى مغادرتها : "ومن نأى عن وطن نال وطر" .

أما أسلوب القصيده فهو سهل فيه رقة وعذوبه . وتبدو الصنعة البلاغيه فيه واضحة ولكنها لا تشوبه بتعقيد ولا توعر .

الفصل الرابع
رثاء الأندلس عامـــــة

سنتناول في هذا الفصل القصائد التي قيلت في رثاء الاندلس الاسلامية عامة، وتسير هذه القصائد في مسارين : المسار الأول يمثل القصائد التي قيلت بعد سقوط عدد كبير من قواعد الأندلس الهامة بيد النصارى، وذلك في الفترة الممتدة من بداية القرن السابع الهجري الى مابعد منتصفه، وهي فترة الغروب الاخير لدولة الموحدين في المغرب والاندلس، وقد سقطت خلالها : قرطبة واشبيلية وجيان وبلنسيه وبطليوس وغيرها كثير[1]. وانحصر الوطن الاندلسي الذي كان يشمل نصف الجزيرة الاسبانية في رقعة صغيرة هي مملكة غرناطة التي لم تكن بعيدة عن الخطر الداهم ايضا . هذه الحالة الخطيرة اكدت في النفوس وقوع الانهيار النهائي للصرح الشامخ، فتفجرت ينابيع البكاء ونظمت قصائد الرثاء .

أما المسار الثاني فيمثل القصائد التي قيلت بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الاندلس في نهاية القرن التاسع الهجري حيث عادت الاندلس كلها دار كفر، واكره المسلمون على اعتناق النصرانية .

ومن اشهر قصائد المسار الاول نونية ابى البقاء الرندى[2] التي قالها عندما تنازل ابن الاحمر محمد بن يوسف ملك غرناطة عن عدد كبير من

---

(١) غنان، نهاية الاندلس: ٢٠ .

(٢) هو ابو البقاء او ابو الطيب صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن شريف الرندى (نسبة الى مدينة رنده)، واصله من قبيلة نفزه البربرية كان فقيها حافظا وفرضيا متفننا في معارف شتى، بلغ الذروة في التصرف بمنثور الكلام ومنظومه . كان يتردد على غرناطة ويمدح بني الاحمر ويلتقي بوزيرهم لسان الدين بن الخطيب، ومن آثاره كتاب " الوافي في نظم القوافي" وكتاب " روضة الانس ونزهة النفس" وتوفي سنة ٦٨٤هـ . انظر الاحاطة ٣/٣٦٠، رضوان الداية، تاريخ النقد الادبي في الاندلس: ٤٥، عبد الله كنون، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ٦/ ٢٠٥ - ٢٢٠ .

الحصون والمدن المسورة بلغ اكثر من مائة وخمسين موضعا[1] للنصارى مقابل ان يحتفظ بعرش غرناطة ولو تحت سيادة فرناند و ملك النصارى القشتاليين وكان ذلك في سنة خمس وستين وستمائة، وكانت هذه الخطوة من قبل ابن الاحمر ليست الاولى من نوعها بل سبقتها اخرى في سنة ثلاث واربعين وستمائة حيث قدم الجزية وسلم عددا من المدن واشترك مع النصارى في حصار المدن الاسلامية واهمها اشبيليه، وقد اشرنا الى ذلك في فصل سابق ولعل ابن الاحمر كان يقصد من معاهداته هذه ان تتاح له فرصة الاستعداد وانشاء القوة التي تمكنه من مواجهة النصارى، وذلك بجمع الحشود التي تلجأ اليه فارة من المدن الساقطة، وعن طريق طلب النجدة من المرينيين في المغرب الذين عبرت كتائبهم فعلا وجاهدت في سبيل الله . ولكن النصارى كانوا يرون في ابن الاحمر الخصم الذى يجب تحطيمه واذلاله بسرعة قبل ان يكون له شأن، ولذلك شددوا الضغط عليه فتقهقر امامهم وشرب الكأس المرة حتى الثمالة .

يقول الرندي[2] :

لكل شيء اذا ماتم نقصان — فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول — من سره زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لاتبقي على احد — ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة — اذا نبت مشرفيات وخرصان[3]
وينتضي كل سيف للفناء ولو — كان ابن ذى يزن والغمد غمدان[4]
اين الملوك ذوو التيجان من يمن — واين منهم اكاليل وتيجان
واين ماشاده شداد في ارم — واين ماساسه في الفرس ساسان

---

(١) الذخيرة السنية: ص١٢٧ .

(٢) النفح : ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٣) المشرفيات : السيوف، الخرصان : جمع خرص وهو الرمح . اللسان (شرف، خرص) .

(٤) غمدان : قصبة صنعاء، وفيها قصر ابن ذى يزن . البكرى، معجم ما استعجم (غمدان) .

واين ماحازه قارون من ذهب		واين عاد وشداد وقحطان
اتى على الكل امر لامرد له		حتى قضوا فكان القوم ماكانوا
وصار ماكان من ملك ومن ملك		كماحكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله		وام كسرى فما آواه ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب		يوما ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر انواع منوعة		وللزمان مسرات واحزان

يفتتح الشاعر قصيدته بمقدمة تنبض بالحكمة ، والمعرفة اليقينية بالحقيقة الخالدة وهي ان لابد لكل شيء من نهاية تودى به مهما بلغ من العظمة والشموخ ، فحال الدنيا مجبول على الكدر ، وصفوها قليل مهما طال امده ، والدهر موكل بتحطيم ذوى الشأن على مر العصور والايام ويسرد لنا الشاعر نماذج من الذين سل عليهم الدهر سيفه ، فاصبحوا احاديث وذكريات في زوايا التاريخ بعد ان ملأوا الدنيا حينا من الوقت باخبارهم واكاليلهم وتيجانهم ، فاين ملوك اليمن ؟ واين ملوك الفرس اهل العمران والسلطان واين قارون ؟ .... وهكذا يستمر في تعداد فواجع الدهر المنوعة حتى يصل الى ماهي جزيرة الاندلس . ولعل هذا التسلسل التاريخي الذى يورده الشاعر يذكرنا بصنيع ابن عبدون في قصيدته البسامة التي مرت بنا في الفصل السابق ، ولعل مانالته تلك القصيدة من شهرة جعلت ابا البقاء يستضيء بنورها في ابيات قصيدته الاولى وبخاصة عند حديثه عن فعل الدهر وتقلب الايام ، وذكر الاقوام انفسهم ، كقوله : " دار الزمان على دارا وقاتله " .

وقول ابن عبدون : هوت بدارا وفلت عرب قاتله .

ويقول ابو البقاء :

يمزق الدهر حتما كل سابغة		اذا نبت مشرفيات وخرصان

ويقول ابن عبدون :

فالدهر حرب وان ابدا مسالمة		والبيض والسود مثل البيض والسمر

فالتشابه واضح في المعاني والالفاظ، وربما كان لوحدة الموضوع وهو رثاء دولة كبرى او دول ـ اثر في هذا التشابه . فالرندى يرثي الاندلس كلها وابن عبدون يرثي عصر الطوائف كله ممثلا في بني الافطس . وعندما يصل ابو البقاء الى غايته من القصيدة وهي رثاء الاندلس يبكي بحرارة مصير الاسلام ومعاقله الغاربة قائلا :

وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة امر لاعزاء له ... هوى له احد وانهد ثهلان
اصابها العين في الاسلام فامتحنت ... حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماشأن مرسية ... واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم، فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وماتحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكي الحنيفية البيضاء من اسف ... كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
ياغافلا وله في الدهر موعظة ... ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة انست ماتقدمها ... ومالها مع طول الدهر نسيان

ان مصيبة الاندلس لاتشبهها مصيبة من حيث الضخامة والشمول ، فهي تمزق لشعب عريق ثابت الجذور في ارض افتتحها وغرس فيها حضارة الاسلام العظيم ، التي اثمرت واينعت في شتى المجالات العلمية والادبية والعمرانية ومن هنا كان الكيد الشديد لهذا الاسلام حتى اصيب في النهاية بما لاعزاء له ، والشاعر يتلمس اسباب هذه المحن فيرجعها الى العين الحاسدة التي اصابت قواعد الاندلس واركانها فابتليت باهل الصليب الذين جاسوا خلالها وعمروها بالكفر، فالمساجد قد عادت كنائس تقرع فيها النواقيس

والمحاريب والمنابر تنوح وتئن من جور الصلبان المنصوبة فوقها . هذه الصورة القاتمة لماآلت اليه مدن الاندلس العظمى ـ قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، اشبيلية عملت عملها في قلب الشاعر ونفسه ، ولكنه لم يستسلم لاحزانه بل فزع الى طلب النجدة ، ورفع صوته مناديا اخوانه المسلمين من اهل المغرب :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم باوطانهم عز وسلطان
اعندكم نبأ من اهل اندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى واسرى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم ... وأنتمُ ياعباد الله إخوان
الا نفوس ابيات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان

ولهجة الشاعر في استصراخه فيها حدة وصرامة ، لانه يخاطب قوما يقع عليهم عبء الدفاع عن جيرانهم واخوانهم في الاندلس ، وهو ينكر عليهم تقاعسهم عن الجهاد ، وتفضيلهم لعيش الدعة والامان مع سماعهم اصوات الاستغاثة من المستضعفين . وبخاصة انهم فرسان وشجعان يقدرون على تلبية النداء .

ثم يشرح بعد ذلك ماحل باولئك المستضعفين من الذل والعذاب بحيث لايبقى بعد ذلك عذر لمتقاعس :

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... احال حالهم كفر وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم ... عليهم من ثياب الذل الوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الامر واستهوتك احزان
يارب ام وطفل حيل بينهما ... كما تفرق ارواح وابدان

وطفلة امثل حسن الشمس اذ طلعت — كأنما هي ياقوت ومرجـــان
يقودها العلج للمكروه مكرهـــة — والعين باكية والقلب حـيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمــد — ان كان في القلب اسلام وايمان

أن روعة هذه القصيدة تكمن في صدق عواطف الشاعر واحاسيســه الانسانية، فجاءت قصيدته قطعة من نفسه، يحس القارئ عند قراءتها انه انتقل الى ذلك الجو، ووقف امام تلك المآسي الدامية يتأملها بغصـــة ومرارة، فالناقوس يجلجل على انقاض الاذان الصامت والمساجد الشامخة تتقد حسرة وهي تحول الى كنائس، وقد زاد من تأثير هذه القصيدة في النفوس ما اشتملت عليه من شعور اسلامي فياض يحرك النفوس ويدفعها الى نجدة البلاد واهلها، وبخاصة عند ما يذكر بكاء الاسلام لفراقه قواعده التي الفها والفته، او عند ما يصف المشهد الحي لحالة اهل الاندلس حـين اصبحوا في قبضة الاعداء، فقد غدوا عبيدا يباعون بعد السيادة ناهيك عن القتل والاسر، وهتك الاعراض المصونة . والمعاني الرثائية والصور في هذه القصيدة مطروقة من قبل في شعر رثاء الدول في الاندلس ولكـن اسلوب الشاعر العذب الذي يميل الى الحماس والنزعة الخطابيـــة وطريقة عرضه للافكار موشحة بظلال كئيبة من الحزن، كل هذه الاسباب هي التي خلدت هذه القصيدة واكسبتها الشهرة على مر الاجيال . ولشهـرة هذه القصيدة وذيوعها فقد زيدت فيها ابيات كثيرة فيما بعد . وقد نبـه المقري[1] الى ذلك بقوله ـ بعد ان سرد القصيدة ـ :

" انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بايدي الناس زيادات فيهـــا ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما اخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريـف وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ماكتبه، ومن له ادنـى ذوق علم ان مايزيدون فيها من الابيات ليست تقاربها في البلاغة، وغالـب ظني ان تلك الزيادة لما اخذت غرناطة وجميع بلاد الاندلس، اذ كـان اهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب، فكان بعضهم لما اعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات . . . . . " .

---

(١) النفح : ٤/٤٨٨ .

وقد عرض لهذا النص ونص آخر من كلام المقري في وصف الرندي الاستاذ محمد عبدالله عنان ، واستشف منهما ان المقري قد وهم في تعيين العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة ، يقول[1] : " وقد التبس الامر على المقري في تعيين العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة والذي عاش فيه ناظمها صالح بن شريف ، فوصفه بانه خاتمة ادباء الاندلس ، وذكر في نفح الطيب ان ابياتا اخرى اضيفت اليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرهما ليست من نظم صاحبها لانه توفي قبل سقوطها (اى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقري بان ابا الطيب عاش في اواخر ايام مملكة غرناطة (اواخر القرن التاسع الهجري) . بيد انه واضح من سياق القصيدة وذكر القواعد الاندلسية التي تبكيها وهي بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان واشبيلية ، وهي التي سقطت كلها في يد النصارى بين سنة ٦٣٥هـ و ٦٥٠هـ ، ان الشاعر قد عاش في هذا العصر . ومن جهة اخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة انها نظمت حين نازل ابن الاحمر للنصارى سنة ٦٦٥هـ عن عدد كبير من القواعد الاندلسية . وقد توفي الرندي بعد هذه الاحداث بعشرين عاما في سنة ٦٨٤هـ ."

والمدقق فيما قاله الاستاذ عنان يرى ان المقري بريء مما اتهمه به فوصف المقري للرندي بانه[2] " خاتمة ادباء الاندلس " لا يلزم على الاطلاق ان يكون الموصوف بذلك خاتمة او آخرا ، فهذا الوصف يطلقونه في كل عصر على الفضلاء والمبرزين من الادباء والعلماء فيقولون خاتمة العلماء وبقية اولي الفضل ، وآخر قضاة العدل وغير ذلك[3] ، ثم ان المقري نقل هذا الوصف عن ابن عبدالملك المراكشي ولم يبتدعه ابتداعا ، ومن ناحية اخرى فان عنان يرجع الضمير في كلمة (سقوطها) الواردة في نصه الى غرناطة ، وهذا

---

(١) نهاية الاندلس : ٥٠ .
(٢) ازهار الرياض : ١/٤٧ .
(٣) الذيل والتكملة : بقية السفر الرابع : ١٣٧ .

اعتساف منه لتأييد رأيه بما لم يقله المقرى اولا ، والضمير يرجع على كل ماذكر في النص وليس على غرناطة وحدها ثانيا .

اما عن امر الزيادات في هذه القصيدة فاننا نجد الشهاب الخفاجي الذى عاش من (٩٧٧ - ١٠٦٩ هـ) يترجم لمن يسميه بالسيد يحيى القرطبي[١] وماكان من وقعة الاعداء بالمسلمين واسر يحيى وارساله هذه القصيدة الى السلطان سليمان العثماني[٢] مستنجدا وناعيا حال الاندلس، وقد اورد الشهاب القصيدة مزيدا عليها واحدا وعشرين بيتا عما في نفح الطيب ولم يشر لنسبتها الى ابى البقاء الرندى ، والذى يبدو ان يحيى القرطبي هذا شهد السقوط النهائي للاندلس، وذهاب عاصمتها الاخيرة (غرناطة) وفتك النصارى بالمسلمين واجبارهم على التنصير ، فاضاف هذه الزيادة التى ذكر فيها غرناطة وبسطه ومالقه وغيرها من مدن مملكة بني الاحمر، ثم وجه القصيدة الى السلطان سليمان راجيا مساعدته . ولعل يحيى القرطبي لم يقصد نسبة القصيدة الى نفسه ، لانه لامجال للفخر بذلك في تلك الظروف العصيبة ، وانما رأى بلاغة القصيدة وعمق تأثيرها في النفوس، بالاضافة الى ذكرها لعدد من القواعد الاندلسية الذاهبة ، فاكمل سلسلة هذه القواعد متحسرا عليها وعلى مافيها من العلماء والمعالم الاسلامية التى ازيلت ، ثم اضاف في آخرها عدة ابيات في الحث على الجهاد والترغيب فيه فرسم بذلك صورة متكاملة لما اصبحت عليه الاندلس ووضعها بين يدى الخليفة العثماني ليوقفه على الواقع المر .

وممن تعرض لرثاء الاندلس في هذه - اى القرن السابع الهجرى - حازم القرطاجني[٣]

---

(١) ريحانة الالباء: ١/٣٧٠ .

(٢) هو سليمان بن سليم خان العثماني ، ولى سنة ٩٢٦هـ، وتوفى ٩٧٤هـ وهو السلطان الحادى عشر من آل عثمان . الشذرات: ٨/٣٧٥ .

(٣) هو حازم بن محمد بن حسن بن خلف بن حازم الانصارى القرطاجني يكنى ابا الحسن ، وهو من قرطاجنة الاندلس لا من قرطاجنة تونس. ولد سنة ٦٠٨هـ، تعلم على والده ثم على شيوخ مرسيه حتى غدا فقيها =

في مقصورته[1] التي مدح بها المستنصر بالله السلطان الحفصي في تونس ويستهلها بذكر ماكانت عليه الاندلس من القوة والمنعة بفضل الموحدين اسلاف الحفصيين رهط الممدوح . يقول[2] :

قادوا الى اندلس كتائبا — أمامها النصر العزيز قد قدى[3]

وصبحوا الاراك بجيش غطفى — آذيه اذ فنش لما ان غطا[4]

فلم يدع جهادهم للشرك من — دار ولم يترك لهم من مدرى[5]

ثم دعاهم ربهم فابتدروا — الى محل القرب منه والرضى

وبرحيل هؤلاء المجاهدين عن الدنيا تبدل الحال ، وقل النصير واصبحت الاندلس فريسة سهلة للاعداء .

واصبحت من بعدهم فريسة — لمن بغى ، وفرصة لمن بعا[6]

فانشأت ايدى الجياد فوقها — غيماكثيفا غير شفاف الغمى[7]

= مالكيا ، نحويا بصريا واديبا شاعرا ، ومن شيوخه أبو علي الشلوبين وروى عنه جماعة يقاربون الفا . رحل الى مراكش بعد سقوط قرطبة سنة ٦٣٣هـ ، ثم تركها الى تونس حيث المستنصر الحفصي قبلة الادباء والعلماء وظل في كنفه الى ان توفي سنة ٦٨٤هـ . ومن آثاره كتاب منهاج البلغاء وسراج الادباء ، ديوان شعر ، ورسائل في النحو وغيرها . انظر السيوطي ، بغية الوعاة (١ : ٤٩١) ، المكناسي درة الحجال (١ : ٢٥٤) ، منهاج البلغاء (ص ٥٣ - ٥٤) .

(١) المقصورات : من المطولات في الشعر العربي ، تكون على الروى المقصور وتكون في الغالب من بحر الرجز ، وتحتوى على عدة اغراض شعرية الى جانب غرضها الرئيسي . انظر مهدى علام ، حوليات كلية الاداب (عين شمس) مجلد ١ (ص١٩) سنة ١٩٥١م .

(٢) حازم القرطاجني : قصائد ومقطعات (ص٦٥) .

(٣) قدى : اسرع . تاج العروس (قدى) .

(٤) الاذى : الموج . المصدر نفسه (اذى) ، غطا : استطال وتمادى . المصدر السابق (غطا) .

(٥) مدرى : مايدرأ به عن النفس . الصحاح (درأ) .

(٦) بعا : اصاب مغنما . اللسان (بعا) .

(٧) الغمى : غمى كل شيء اعلاه ، والمراد انه لايرى من خلاله لكثافته .

قد طبق الافاق من اندلـــس ودار في ارجائها دور الرحـــى
فاشرق الشرق بما اشجى الملا وما اغص كل جـــو ومـــلا
ود مرت تدمير سحب فتنـــة وبارق من مطلع البغي بغـــى (١)
ومحقت قرطبـــة كمثـــل مـــا محق البـــدر السرار ومحـــا (٢)
وصار للوحشة كـــل مـــنزل قد كان للانس بحمص يعتـــرى (٣)
واخترمت وسطى الثغور وثبـــة من كل ضار طالما رب الضـــرا (٤)
طوفان هيجاء اطاف هيجـــه بها فلم يدع عـــرى الا عـــرا (٥)
وفتنة عمياء ســـال سيلهـــا ففض شمـــل المسلمين وعمـــى
فمن رد طاح جفاه فوقـــه وفعلت به المهـــاد قد جفـــا (٦)
فكم صدى فيها وهـــام مجتلـــى يشكو الصدى مابين هام في جثـــى (٧)

ان طوفان العدو المدمر قد انهال على مدن الاندلس الزاهرة أمثال قرطبـــة واشبيلية وتدمير وغيرها ، وحولها الى انقاض وخرائب لايشاهد فيها الا الدماء والاشلاء الممزقة ، هذا المنظر الكئيب الباكي اثار حزن كل من رآه حـــتى الانهار والاودية .

---

(١) تدمير : من كور الاندلس ، سميت باسم ملكها تدمير بن غندرس . الـــروض المعطار (تدمير) .
(٢) السرار : آخر ليلة او ليلتين في الشهر وتكون شديدة الظلمة . الصحاح (سرر) .
(٣) يعترى : يغشى . الصحاح (عرا) .
(٤) دب الضرا : اى مشى طريق المكر والخداع . المصدر السابق (ضرا) .
(٥) العرى : الساحات ، عرا : اعترى . الصحاح (عرا) .
(٦) رد : قتيل ، جفاه : جفأه رماه وصرعه . التاج (جفأ) .
الفوق : خروج النفس عند الاحتضار . الصحاح (فوق) .
(٧) صدى : موضع السمع من الرأس . اللسان (صدى) ، الصدى : العطش .
الجثى : الحجارة المجموعة . الصحاح (جثا) .

فقد بكت انهارها بمدمــع — هام من الوجد لهام ما ارتــوى
فالنهر الابيض يبكي شجــوه — بكل دمع مستفيـض مارقــا (١)
وقد بكى النهر الكبير صنــوه — اذ لم يطق يروي صدى هام زقا (٢)
وكاد شقر ان يفيض عندما — غيظ بعيث الشقر في كل عـرى (٣)
وكم بها من سلك لهو قد حوى — كرس فلك سمطه فيما حـوى
قد ندبت امصاره انصـــاره — اذ لا أذاة من عدو تشتكـي
فيالها من درر تخرمــت — بالغر من در السلوك تفتـدى
اضحت على ايدي العدى منثورة — وارخص الاشراك منها ماغــلا
واحتويت ذخائر الدين التي — قد طالما اعيا العدى أن تحتوى

انه تصوير جميل من الشاعر لعظم النكبة وشمولها ، حيث سرى التأثـر الى الانهار فعبرت عن حزنها بفيض من الدمع المتدفق في مجاريها ، وكـاد بعضها يغيض ماؤه وينضب ، لما اصابه من جراء زوال حواضر الملك التي يجرى من تحتها ، والتي كانت منارا للاسلام قبل ان يلفها ظلام الكفر ، وهذا اللـون من بعث الحياة في الجمادات ، واضفاء صفات الاحياء عليها لـ وجعلهــا تشعر وتحس بما حولها ، يعطي شعر الرثاء وبخاصة في الاندلس ـ ابعـاد ا جمالية تشارك طبيعة الاندلس الجميلة في صنعها مع خيال الشاعر .

ثم ينتقل القرطاجني ليقف متأملا حال الظاعنين عن بلادهم نجـاة بانفسهم قائلا :

قسمت الحاظي ودمعي عندما — تقسمت نفسي النواحي والنـوى
مابين ظعن سطرت جمالهــا — ود من جمالها قد امحــى (٤)

---

(١) النهر الابيض : يجرى في الجنوب الشرقي من الاندلس.
(٢) النهر الكبير: هو نهر الوادي الكبير الواقع في شمال غرب الاندلس وتقع عليه قرطبة واشبيلية وغيرهما . الهامة : طائر خرافي كان العـرب يعتقدون انه روح القتيل الذي يذهب دمه هدرا يظل يصيح حـتى يدرك ثأره. اللسان (صدى) .
(٣) شقر: نهر بالاندلس منه اخذت مدينة شقر اسمها . الروض المعطـار (شقر) ، الشقر : الخيل .
(٤) ظعن : جمع ظعينة وهو الهودج . الصحاح (ظعن) .

دار سفي قر الاعاصير علـــي ... مر الاعاصير بها مقاقد سفـــي
ألووا بكل مغـــرم كأنمـــا ... قد لويت اضلعـة علـى لـوى (١)
من كل ساهي الفكر مغشي على ... فواده من كثرة الوجد غمـــي
تململوا فوق ذرى اكوارهـــم ... كأنما باتوا على حـد المدى (٢)
قد وسم الحب جسوما منهـــم ... بشمطة من المشيـب وجــلا
اعدت جسوم العيس اجسام لهم ... قدكدن لا يبصرن من فرط الضوى
واعدت الانفس منها انفـــس ... منهم فرقت من غـرام وهـوى

ان الشاعر يحاول الغوص في نفوس اولئك المشردين ليحلل الاحاسيس والمشاعر الدقيقة التي تحويها تلك النفوس الحزينة، ومن ثم يعرضها علينا في صورة ادبية رائعة وان كان الاسراف في استخدام الصنعة البلاغية قد ذهـب بكثير من حسنها ، فالألم و القلق النفسي الذى تخفق به قلوب الظاعنيـن الحيارى قد وسم جسومهم بالضعف والانهاك الذى انتقل بدوره الى العيـس التى تحملهم فاضناها واشعل نيران الشوق والوجد في نفوسها فرقت بعـد غلظتها ، وهذه الومضات الشعرية الموحية التي تغني عن كثرة تفاصيل ماتعانيه النفوس تدل على مقدرة الشاعر وجودة ملكته وافتنانه في المعانى .

وبعد ذلك يتلمس الشاعر اسباب هذه النكبات فيستنتج ان ذلك بسبب الظلم و الطغيان الذى يمارسه الناس، فيعاقبهم الله جزاء ذلك ، ويضـرب الامثال على ذلك من الامم البائدة والاثار الشاهدة . يقول :

فاصغر الاشياء قد أثرّ فـــي ... اعظمها بالعون من رب العـــلا
قد اهلك الاحبوش طير قد رمى ... جيوشهم بمكـة بمـا رمـــي
وهد قدما هدهد بنبـــأ ... ماكان هدهاد لبلقيس ابتـني (٣)

(١) اللوى : العلم او الراية . الصحاح (لوى) .
(٢) المدى : جمع مديه وهي السكين اوالشفرة. المصدرالسابق (مدى) .
(٣) هو الهدهاد بن شرحبيل بن غالب . احد ملوك اليمن . وبلقيس ابنته . انظر قصائد ومقطعات: ٦٤ .

وقد اعاد الفأر سد مارب د كما كأن لم يبنه من قد بني
والقت النمروذ عن كرسيه بعوضة عدت عليه اذ عدا (١)
وقلما مد المدى لمن غدا في الظلم والعد وان ممد ود المدى
وكيف لا يخاف عقبى البغي من رأى عقاب الله فيمن قد بغى ؟

ثم يتوجه القرطاجني الى خليفته المستنصر بالله الحفصي داعيا اياه الى انقاذ الاندلس مهونا عليه ذلك الامر بعد ان اطنب في مدحه يقول :

ولو سما خليفة الله لها لافتكها بالسيف منهم وافتدى
ففي ضمان سعده من فتحها دين على طرف العوالي يقتضى
فقد اشادت السن الحال به حمي على استفتاحها حي على
أثاى العدى ماكان مرؤوبا بها وهوالذى يرجى به رأب الثأى (٢)
يزجي اليها كل ريح زعزع عاتية عاصفة بمن عتا
تبكي الاعادى بعد طول ضحكها وتضحك الاضبع من بعد الضهى (٣)

وبعد ، فلاريب ان القرطاجني شاعر كبير، وصاحب نفس طويل في الشعر مكنه من تأليف مقصورته التي بلغت الف بيت، ولعله كان يأمل ان تحرر الدولة الحفصية الاندلس وتعيد ماذهب منها الى حيز الاسلام وقد سعى لتقوية هذا الامل عن طريق مدح الحكام الحفصيين ، وعرض حال الاندلس من خلال ذلك . وهذا مانراه في مقصورته التي مرت بنا، وفي قصائده الاخرى (٤)، وهو بهذا متأثر بالمتنبي الذى يعتبره رأس شعراء العربية لما في طريقته من ابداع في الجمع بين الاسلوب الشعرى القائم على التخيل والاسلوب الخطابى القائم على الاقناع (٥).

---

(١) النمروذ بن كنعان اول من لبس التاج من الملوك، وهو الذى حاج ابراهيم ـ عليه السلام ـ في ربه كما في سورة البقرة، الاية : ٢٥٨ .
(٢) الثأى : الخرم والفتق، الصحاح (ثأى) .
(٣) الضهى : الضهيا : المرأة التي لاتلد ، والارض التي لاماء فيها ولانبات. اللسان (ضها) ولعله اراد هنا الجوع .
(٤) انظر القصيدة الصادية الطويلة في الديوان: ص٦٦ .
(٥) منهاج البلغاء وسراج الادباء، ٢٩٨ - ٣٠٠ .

اما مايلاحظ على رثائه للاندلس الوارد في المقصورة من هدوء العاطفة وضعف صوتها ، فهذا راجع الى طبيعة المقصورة القائمة على الصنعة البلاغية التي هي قوام نظرة حازم للشعر . فالشعر عند حازم ملكة وصناعة مكتسبة ، ولكن هذه الملكة (الطبع) بحاجة الى عناية تحقق نموها وتصقلها ، وذلك بالعلم باسرار الصناعة الشعرية ، ولايكون ذلك الا بالمعرفة التامة بعلم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع ، وهذا العلم يحتاج الى طول دربة ومران ، فالمتنبي - وهو امام الشعر - لم يستقم شعره الا عن مزاولة الصناعة عشرين عاما ، ثم زاول بعد ذلك زمنا طويلا وقد توفي وهو يصيب فيها ويخطيء[١]. وقد جعل القرطاجني من المقصورة معرضا لثقافته البلاغية والنحوية ، فنراه يحشد فيها الوانا متعددة من المحسنات اللفظية والبديعية حتى بدت لوحة زخرفية لامعة ، كما نلاحظ وفرة المفردات وغرابتها في كثير من الاحيان ، والغوص وراءها وتتبعها .

اما قول الحبيب ابن الخوجة[٢] ان القرطاجني لم يعان من الشعر الا المدح والغزل والوصف والزهد ، ولانجد له هجاء ولارثاء ، فهذا لايعني انه لم يقل في رثاء الاندلس ، وطنه الذاهب قصائد مستقلة كاملة ، فربما كان ذلك ، لان شعر حازم - في الغالب - لم يجمعه ديوان . اما مايسمى بديوان حازم الذي حققه عثمان الكعاك فلاي مثل الاجزاء بسيطا جمعه من المصادر المختلفة بالاضافة الى مخطوط صغير اكتشفت بعده مخطوطات اخرى[٣] .

وللقرطاجني شعر في رثاء الاندلس وانتثار سلكها ، وهو جزء من قصيدة مدح ، يقول بعد ان وصف ايام انسه الماضية حين كانت الاندلس آمنة مطمئنة[٤] :

---

(١) المصدر السابق: ص٦٨ .
(٢) انظر قصائد ومقطعات: ص٥٥ .
(٣) مقدمة منهاج البلغاء: ص٧٣ .
(٤) ديوان حازم القرطاجني : ص٤٦ - ٤٧ .

فاوحشت بعد ايناس وصار بهـــا ... صرف الحوادث طلابا بـــأوتار
كانت نوائب ادنى ماجنته نـــوى ... ادنى جناياتها تهييج افكـــار
وعضُّ ظفر باسنان على زمـــن ... قد عض او قرع اسنان باظفـــار
ابقى المنازل اصفـــارا وغادرها ... من كان فيها ، شريدا حلف اسفار
كانوا كطير باوكـــار فصيرهـــم ... زمانهم فوق طير ذات اكـــوار
عرفت من بعد انكار معاهد هـــم ... فكدت انسى اصطباري بعد تذكاري
ابكي لمعرفة العهد القديم ومـــا ... انكرت من خطب دهر طارق طـار
شيبت موارد انسى بعد ماخلصت ... جمامها الزرق من شوب واكـــدار
كم اوجه للمنى غر تغمت بهـــا ... في ازمن مثلها غـــر واعصـــار
ثم انتحت ازمن بُهْمٌ مبدِّلـــة ... حالا بحال واطـــوارا باطـــوار
ففرقت شمل احباب وشمـــل منى ... والّفت شمل اعـــداء واشـــرار
ومذ تفرقت الامال ما اجتمعـــت ... لى في دجى الليل أشفار باشفار
ولو تيقظ من اغفائه املـــــي ... ماواصل اليأس ايقاظي واسهـــاري

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في مدح صاحبه الذى عقد عليه الامال فـــي ايقاظ آماله قائلا :

وليس يوقظ آمالي سوى يقـــظ ... ينمي لمجد ابى اليقظان عمـــار (١)
محمد بن سعيد خير ماسعـــدت ... به المنى بين ايـــراد واصـــدار (٢)
السيد المَذْحِجي المكتسى حللا ... من العلا جددا ليست باطمـــار
حاطت حجابته الدنيا بما ضربت ... دون الحوادث من حجب واستـــار
ناهيك من جنة للدين واقيـــة ... وصارم في يد الاسلام بتـــار
وهضبة من هضاب الحلم راجحة ... وروضة من رياض العلم معطـــار

---

(١) يقصد الصحابي عمار بن ياسر رضي الله عنه .
(٢) هو احد القادة في الدولة الحفصية بتونس .

سمت الى ابعد الغايات همته ... فادركتها وليست ذات اقصار
فليس يرجو سوى اجر ونيل علا ... وليس يحذر غير الاثم والعار

الذي يبدو ان هذه القصيدة قد قيلت بعد امد ليس بالقصير من رحيل الشاعر عن الاندلس لانه يتحدث بصيغة الماضي " كانت نوائب" ، " كانوا كطير عرفت من بعد انكار معاهدهم" وغير ذلك مما هو واضح في القصيدة فقصيدته هذه بمثابة ذكرى مؤلمة هزت من الشاعر جانب الندم والاسف على الايام السعيدة التي قضاها في ربوع تلك الديار حين كان الشمل مجتمعا والمورد عذبا . ونراه يطلق لذاكرته العنان فتسرح بعيدا شارحة ـ بالكلمات الشعرية ـ حالته من خلال المفارقة بين ماضيه المشرق وحاضره الذي تشتت فيه الامال والاصحاب، مما اورثه سهرا دائما وهما ملازما كاد يفضي به الى اليأس لولا استجارته بذلك الممدوح محمد بن سعيد .

والابيات لا تخلو من عاطفة ومشاعر وجدانية ، ولكنها مشوبة بغلبة الطابع الفردي ، والمصلحة الشخصية عليها .

ومن قصائد المسار الاول ـ ايضا ـ قصيدة للشاعر ابن فرقد[1] القرشي يرثي فيها جزيرة الاندلس حينما شاهد ضياع اجزاء كبيرة منها . يقول[2] :

الاسعد منجز ذو فطن ... يبكي بدمع معين[3] هتن
جزيرة اندلس حسرة ... لا غالب من حقود الزمن
ويندب اطلالها آسفا ... ويرثي من الشعر ماقد وهن

---

(١) هو ابراهيم بن خلف بن محمد بن عمر بن فرقد القرشي العامري ، من اهل موره وهي بلدة تتبع طليطلة ، وتقع في جنوبها الشرقي ولد ومات في عهد الموحدين ، كان متفننا في معارفه : محدثا راويه ، فقيها حافظا ، وشاعرا كاتبا . دون برنامجا في ذكر شيوخه ، وله رجز مشهور في الفرائض ، وترسل منوع . الاحاطة ١/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق : ص٣٦٦ .

(٣) المسعد : المعين . اللسان (سعد) .

ويبكي الايامى ويبكي اليتامى ... ويحكي الحمام ذوات الشجن
ويشكو الى الله شكوى شج ... ويدعوه في السر ثم العلن

الى ان يقول :

وكانت رباطا لاهل التقى ... فعادت مناطا لاهل الوثن
وكانت معاذا لاهل التقى ... فصارت ملاذا لمن لم يدن
وكانت شجى في حلوق العدا ... فاضحى لهم مالها محتجن

هذا ماذكره ابن الخطيب من القصيدة ، واشار الى انها طويلة غير انى لم اعثر على بقيتها فيما توفر لدى من المصادر الاندلسية ، وقد علق على القصيدة بقوله (١) : "ولدى خلاف فيمن افرط في استحسانها ، وهى عندى ليست بذات عاطفة متوهجة ، فهو يسلك مسلك المقابلة بين حالين : حال حكمها ايام المسلمين ، والان ايام اهل الوثن النصارى . واللون العام المسيطر عليها الحسرة والندبة" . والامر ـ كما يبدو من الابيات ـ على نحو ماذهب اليه ابن الخطيب فالشاعر يمعن في البكاء والتحسر ، ولا يكتفي ببكائه هو بل يبحث عن معين يذرف دمعه بسخاء لانه يعتقد ان دمعه لايفي بعظم المصاب ، ايبكي لليتامى ام للايامى ، ام لدولة الشعر والادب التى ذوت وتبدد شمل اهلها بعد ان اصبحت الاندلس ـ مصدر الهامهم ـ ملاذا لاهل الوثن ، والابيات لاتخلو من عاطفة صادقة غير انها ساكنة يائسة لايصدر عنها انفعال غاضب يبحث عن مسببي النكبة منبها الناس لما هم عليه من الفساد وموجها سهام اللوم والتقريع اليهم .

اما قصائد المسار الثاني التى ترثي الاندلس بعد سقوط غرناطة ـ آخر المعاقل الاسلامية هناك فاول ماتطالعنا قصيدة الفقيه الصنهاجي المشهور بالدقون (٢) ، وقدم للقصيدة بقوله :" انه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء باخذ

---

(١) الاحاطة : ١/ ٣٦٧ .
(٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي . خطيب جامع القرويين ، اخذ عن اعلام من المشرق والمغرب ، وكان اديبا نحويا وعالما بعلوم الفقه والرواية والحديث . وقد توفي بفاس سنة ٩٢١ هـ . انظر ابن القاضي : درة الحجال : ١/ ٩٢ ، جذوة الاقتباس : ٨/ ١٣٢ ، محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية : ١/ ٢٧٦ .

الحمراء، قرعت باب الندبة، لما تقدم من الصحبة، فقلت ابياتا صدرت من قلب كئيب مبكية لكل لبيب اريب، وسميتها بالموعظة الغراء باخذ الحمراء. . . ."
يقول (١) :

امنت من عكس آمال واحوال ... وعشت مابين اعمام واخوال
ولا ابتليت بما في القلب من نكد ... فالجسم مشتغل من غير اشغال
وكيف لا وبقاع الدين خالية ... من ارض اندلس من اجل اهوال
عمت فغمت قلوب المسلمين فيا ... للمسلمين من اعداء وانكال
جاشت بها من جيوش الكفر مادرست ... بهم معالم اخيار واقيال (٢)

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى الموضوع، فيطلق زفرة حارة من قلب يشتغل بالوان من النكد والاحزان على ما ابتليت به ارض الاندلس من الاهوال والنكبات التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، فالامر ليس ذهاب ارض وتشتت امة فحسب وانما هو زوال دين ساد قرونا ، وتحطم حضارة وسلطان ذو جذور راسخة .

اما اهلها الذين دارت عليهم الدائرة ومزقهم جيش الكفر فهم :

اهل الشجاعة اهل العلم اهل تقى ... اهل النفاسة في قول وافعال
عنهم وفيهم احاديث النبي بدت ... وهم معاقل قول الله للتالي
رهبان ليل وفرسان النهار فمن ... يلمم بساحتهم يظفر بآمال
لاعيب فيهم سوى ان المضاف لهم ... يسلو عن اهل واوطان واموال
فهل ترى بعد هذا النفس سائلة ... وكيف تسأل عن وصف وعن حال
تالله لازال مافي القلب من اسف ... ولو اكون حليف المنزل الخالي
او يفتح الله في نصر يمن به ... فالله باق يقي من كل محتال

---

(١) القصيدة في ازهار الرياض ١/ ١٠٤ - ١٠٨ .
(٢) الاقيال : الملوك دون الملك الاعظم، والقيل من ملوك حمير.
الصحاح (قول) .

ويواصل الشاعر هناحسراته وهو يتذكر اولئك القوم وماهم عليه من الصفات الحميدة والاخلاق الفاضلة، ونلاحظ تركيزه على الجانب الديني فيهم فهم اهل التقى والعلم، وفيهم احاديث النبي بدت وهم رهبان بالليل فرسان في النهار مع الكرم والشجاعة وسداد الرأي والفعل. وهذا بلا شك من تأثير ثقافة الشاعر الدينية فهو فقيه قبل كونه شاعرا.

ثم ينتقل بعد ذلك لوصف مشهد الاعداء الصليبيين بزعامة ملكهم فرناند و وماكان معهم من العدد وادوات الدمار وما الى ذلك :

قد رام اطفاء نور الله مجتهدا ... وباذلا كل ماقد حاز من مال
سطا بجيش كموج البحر في عدد ... نعم، وفي عدد من رهط ابطال
مويدا باجتماع المصر يتبعه ... شر الخلائق مسرورا باقبال
يسبي المسامع بالانفاط[(١)] مشبهة ... وقع الصواعق في هد وزلزال
يبني ليهدم ما الاسلام شيده ... والوصف يعجز من يدعي بقلقال[(٢)]
فهو المقاتل في الابراج منتقل ... الف النحوس وتغيير وترحال
فاستوطن المرج[(٣)] لا ينوي الرحيل ولا ... يخشى المغيث بسهل او باجبال

وامام هذا العدو الجبار الذي يسعى جاهدا لاطفاء نور الله بما لديه من عدد وعديد، ونار وحديد لم يكن للمسلمين جيش يقف امامه، ولم تكن كلمتهم واحدة، وانما تفرقت بهم السبل حسب المطامع والاهواء وامتلأت قلوبهم بالاضغان لبعضهم مما سهل استسلامهم :

---

(١) الانفاط : آلات تقذف اللهب والحجارة ويصحبها دوي كالرعد، تهدم الاسوار وتحرق ماوقعت عليه . انظر عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام: ص١٢٨ .

(٢) القلقال : الفصيح اللسن ، او كثير الاسفار . اللسان (قلل) .

(٣) هو مرج غرناطة، الواقع في جنوبها الغربي ويجري فيه بعض الانهار وهو من اخصب بقاع الارض تربة واكثرها اشجارا . الروض المعطار (اغرناطه) ، عنان ، نهاية الاندلس: ص٢٣٦ .

والمسلمون من الاضغان قد ملئت ... قلوبهم وابوا تسديد اخـــلال[1]
والحق مختلف والحمق مؤتلــف ... والكل منصرف عن نصر ابطـــال
وهم لديه كطير وهو ينتفـــه ... والطير يرجو البقا مع كيد قتـال
اذا تجرد من ريش يطـير بـــه ... اضحى يدافع عن روح باوصـال
سدوا مسالك ارزاق ومنفعـــة ... كدودة القز في نسج لسربـال
ثم استغاثوا : الافرسان عاديـة ... قال الصدى : لست ذا رمح ونبال
والصيف ضيعت ما اقلت من لـبن ... ففارق الجبح من تدخين نحال[2]
وارحل بنحلك نحو الغرب في كرم ... من قبل وضعك في قيد واغـلال
فاستمكن الرعب في الاكباد واتفقت ... بعد اختلاف علي تأمين ارذال

وهذه الابيات تعبر بصدق عن الواقع المؤلم الذى كانت تمر به مملكـــة غرناطة في جميع نواحيها فهي وثيقة تاريخية هامة تلخص تاريخ حقبة من الزمن ساد فيها النزاع والخلاف بين حكام بني الاحمر اصحاب غرناطة بسبـــب الاطماع والمصالح الشخصية التى طغت علي الاهتمام بالصالح العام واتسعت شقة الخلاف في سنة ثمان وستين وثمانمائة ومابعدها ، وذلك حين توفـــي السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصرى وآل الامر الى ولده ابى الحسن الذى اساء السياسة ومال الى الترف فنازعه اخوه محمد بن سعد المعـــروف بالزغل (اى الشجاع) وايده جزء كبير من المملكة التى كانت تنتحر ببطء مــن جراء المعارك الطاحنة بين الفريقين ، وقد كان كل من المتنازعين لايجـــد غضاضة في التحالف مع النصارى اعداء دينه باذلا لهم شروطا سخية فـــي سبيل الحصول علي المساعدة للوقوف في وجه اخيه ، وتجسد الصراع فـــي انقسام مملكة غرناطة الى قسمين متناحرين سنة اثنتين وتسعين وثمانمائـــة[3] حينئذ ادرك النصارى ان فرصتهم الذهبية قد لاحت ، فقابلوا فرقة المسلمين

---

(١) اخلال : جمع خلل وهي الثغرة ، او الفرجه بين الشيئين . الصحـــاح (خلل) .
(٢) الجبح : خلية النحل . اللسان (جبح) والنحال : القائم علي امر النحل .
(٣) عنان ، نهاية الاندلس : ص٢١٤ .

باتحاد كبير وهو اتحاد مملكتي قشتاله وارجون تحت زعامة الملكية الكاثوليكيين (فرناند و وايسبيلا) . واخذا على الفور في التخطيط لاحتلال غرناطة آخر عاصمة اسلامية في الاندلس، فاتجها الى تقويض اطراف المملكة من الغرب كمدينة مالقه وماحولها من الحصون المنيعة التي كانت عقبة في طريق تقدمهم واستطاعوا بعد جهد جهيد وصمود شديد من اهلها ان يحتلوها وانقطعوا بذلك كل اتصال بين الاندلس والمغرب . ثم توفي السلطان ابو الحسن وخلفه ولده ابو عبد الله الذي حاول مدافعة النصارى ، ولكنه وقع في اسرهم في احدى غزواته ولم يطلقوا سراحه الا بشروط قاسية منها تقديم الطاعة ودفع جزية كبيرة وغير ذلك[1].

وظل الامر يضطرب والنصارى يبتلعون المناطق شيئا فشيئا ، وصرخات الاستغاثة تتعالى ، وتنادى المسلمين في الشرق والغرب، ولكنها لم تلق صدى ولاجوابا ، وقد شرحنا ذلك في الفصل السابق ، وبعد ذلك تقدمت جيوش النصارى نحو مدينة غرناطة وضربت حولها حصارا شديدا ، الا انها كانت من الحصانة بمكان اضافة الى وجود اعداد هائلة من المدافعين وجلهم من الذين فروا الى غرناطة حين احتلت مدنهم ، واستمر الحصار زهاء سبعة اشهر حتى نضبت الموارد ، واخذ الخور والضيق يدب الى نفوس الناس وفي مقدمتهم سلطانهم ابو الحسن ، ومن جانب آخر اخذ النصارى يرسلون الوعود والشروط المغرية للقوم على التسليم وهي تتضمن حرية الدين والمال وحرية الانتقال وعدم دفع المغارم وغيرها كثير[2] .

ولم يلبث اهل غرناطة ان قبلوا ذلك واستسلموا ، فدخلها النصارى واظهروا حقدهم الدفين على الاسلام واهله فسرعان مارفعوا الصلبان وحولوا الجوامع الى كنائس وبدأوا باجبار المسلمين على التنصر او الرحيل ولم ينفذوا شيئا من الشروط التي قطعوها على انفسهم . والى هذا يشير الشاعر بقوله :

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٣ .

(٢) انظر نفح الطيب ٤: ٥١٠ - ٥٢٥ .

واحتل غرناطة الغـراء قد عدمت — حب الحصيد ونصر اللـه والآل
كأنها الشمس في افق العلى كسفت — فهل على طلل ترمي بابطـال
وهل تعود ليال قد سلفن بهـا — ونحن لا نشتكي تنكيد ضـلال ؟
وهل يعود لها الدين الذي انست — به وقد ايست من فتح ابدال ؟ (١)
فاصبحوا لا ترى الا مساكنهـم — كمثل عاد وماعاد باشكـال
فلا المساجد بالتوحيد عامـرة — اذ عمروها بناقـوس وتمثـال
ولا المنابر للوعـاظ بـارزة — للامر والنهي او تذكير آجـال
ولا المكاتب بالصبيـان آنسـة — تتلو القرآن باسحـار وآصـال
آه على الدين والدنيا ومانفعـت — آه اذا صدرت من قلب بطـال

وهنا نرى الشاعر يعود الى تذكر ماكانت عليه غرناطة قبل ذهابهـا فيطلق الاهات والزفرات التي لم تعد تغني شيئا بعد التحول الخطر فـي حياة المدينة ، فاهلها الصالحون تفرقوا ايدى سبأ ، ومساجدها غدت عامـرة بالتثليث بعد التوحيد ، والمنابر غدت محطا للنواقيس والتماثيل ومكاتب الصبيان التي كانت مراكز اشعاع اسلامي قد هجرت واسدل عليها ثوب بال من النسيان والطمس ، ومادام الحال هكذا ، وكان ماكان فان على المسلمين من اهـل المغرب اذ لم ينجدوا اخوانهم ايام الحصار ، عليهم ان يكرموهم الان عندما يفرون اليهم فنرى الشاعر يتوجه الى اهل بلده (فاس) حاضا اياهم على مواساة اولئك المشردين وحسن معاملتهم يقول :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنـا — فالدهر ذو دول فاسمع لامثـال
واذ ولا قدرة تدني المنى فلهـم — حق الجوار ولات وصف باهمـال
نلقاهم ولنا بشـر ومعـذرة — ورحمة ياحماة العـم والخـال
ولا نذد عن ورود الحوض وارده — ولا ندع قول ذي نصح واجمـال
اخوانكم رفعوا ايدى الضراعة مع — كسر القلوب فلا تقلوا باخمـال
وقل لوال تلطف في مغارمهـم — يلطف بك الله اذ تدعي لاحمال

---

(١) الاولياء الصالحين الذين يستنصر بهم ، وفي البيت دلالة على التواكـل وترك العمل مما ادى الى ضياع الاندلس .

ثم يتخذ الشاعر من الحالة التي آل اليها اولئك الناس بعد الامن والغنى ، يتخذ من ذلك سبيلا ليوجه الى قومه زواجر الوعظ ، ويأمرهم بتقوى الله ـ عز وجل ـ واخذ الحذر من العدو وبذل الجهد في جمع شمل المسلمين :

هذا النذير جهارا جاء ينذرنا ... والاذن في صمم عن قيل او قال
ونحن في غفلة عما يراد بنا ... نمشي على مهلة من طول امهال
يا اهل فاس اما في الغير موعظة ... ان السعيد لموعوظ بامثال
فقل تعالوا الى نصح وتذكرة ... فالامر جد فلا تصحب لمكسال
كيف الحياة مع الحيات قد نفحت ... على السواحل او همت بارسال
ولا سبيل الى الترياق غير تقى ... والحزم في سعة من قبل اعجال
والاخذ بالجد في جمع القلوب على ... بذل النصيحة او ابراء ادخال
والزهد في هذه الدنيا وزخرفها ... والامر بالعرف مع تحسين مقوال
ولا نوم في امان الروم منزلة ... خوفا على الدين اوبعدا من انذال
فمن يبت في امان الكلب منتصبا ... لسخط مولى ، ولا عذر باثقال
واربا بنفسك من ارض تهان بها ... فحيثما كنت لا تخشى من اقلال
فالموت عندي خير من حياة فتى ... قد اكتسى بعد عز ثوب اذلال
والهجرة الان قد عادت كما سبقت ... فافهم تفاصيل اقوال واجمال (1)

---

(1) بعد سقوط غرناطة بسنوات قليلة بدأ النصارى سياسة تنصير المسلمين قهرا ومن ابى ذلك قتل او احرق ففرت الوف من المسلمين بدينها الى فاس وتلمسان ووهران ، فتسلط عليهم الاعراب في الطريق فقتلوا كثيرا منهم ونهبوا اموالهم ، فرجع بعضهم الى الاندلس ، وتقاعس الجميع عن الهجرة . انظر ازهار الرياض ١: / ٦٨ .

وهنا اصدر فقيه المغرب في القرن التاسع الهجري ابو العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي فتواه المسماه :" اسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ومايترتب عليه من العقوبات والزواجر" . وفيه يوجب الهجرة على الاندلسيين ، يقول فيه " . . . ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية ـ لعنه الله ـ على معاقلهم وبلادهم الا تصور العجز عنها بكل وجه =

واحتل بذهنك ولتسمع نصائح من قد طب من حب لم يوصف بمحتال(1)

ثم يختم قصيدته بتأريخ ذهاب غرناطة بقضاء الله وقدره الذى لاراد له، يقول :

في صدر سبع على التسعين زائدة شمس الجزيرة غابت بعد اكمال
وبلغ الكلب ماقد شاء من ارب اذ لم يجد ذائدا عن ديننا الغالي
ليقضي الله امرا كان قدره والامر لله في قول وافعال
وقد وعظت ولو اسمعت لانتشرت سحائب الدمع لم تقلع عن انزال
فليشتغل كل مسكين بمهجته والله يحفظنا من كل مهوال

ان اهم ماتميزت به قصيدة هذا الفقيه الشاعر هو العاطفة الدينية الدفاقة، حيث كانت هي الخيط الرئيسي الذى ربط جميع اجزاء القصيدة فحزنه العميق، واصراره على هذا الحزن والبكاء حتى الموت لم يكن من اجل تراب الاندلس، وانمابسبب جلاء الاسلام - بنظامه وشريعته - عن تلك البقاع، وعندما يوصي بالعطف على المهاجرين والاحسان اليهم يعتبر ذلك واجبا اسلاميا توجبه الاخوة في العقيدة اضافة الى حق الجوار المأمور به شرعا . كما اننا نحس في القصيدة قوة النفس وعلو الهمة عند شاعرها، فهو رغم حزنه الشديد لم يتملكه الخور والجزع فيشتغل بالعويل والندب، وانما اتخذ من المحنة سبيلا، وشاهدا حيا يقرع بهاآذان مستمعيه من اهل فاس بزواجر الوعظ

= وحال، لاالوطن والمال فان ذلك كله ملغى في نظر الشرع. قال تعالى (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوافيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا . .) النساء: ٩٦ - ٩٧ . والظالمون انفسهم في الاية هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها . فلا تجد في تحريم هذه الاقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من اهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز . . فهوتحريم مقطوع به كتحريم الميتة ولحم الخنزيروقتل النفس، فمن جوز هذه الاقامة واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين . انظر اسنى المتاجر: ص٢٦ - ٢٨ .

(1) معناه: صنعةحاذق لانسان يحبه، ويضرب في التنوق في الحاجةواحتمال التعب فيها . الميداني، مجمع الامثال: ١/ ٣٩٧ .

وداعيا اياهم الى التقوى وجمع الشمل في مواجهة العدو واصلاح النفوس والبعد والحذر من تطلعات العدو والمتربص الذي يرمي الى اذلال المسلمين في دينهم وانفسهم غير اننا مع ذلك لانجد في القصيدة استصراخا او طلب نجدة بل اكتفى الشاعر بالحض على حسن معاملة المهاجرين ، والتلطف في اخذ المغارم منهم وما الى ذلك . ولعل جواب ذلك يكون بالنظر الى الحالة التي كانت عليها دولة بني مرين صاحبة اليد الطولى في انجاد الاندلس فيما سبق . فهي اليوم - في ظروف سقوط غرناطة - تمر بمرحلة ضعف وتفكك ، وظهور زعامات جديدة متمثلة ببني وطاس الذين تمكنوا فعلا من الاستيلاء على الحكم في فاس سنة ست وسبعين وثمانمائة[1] . ثم ان الشاعر قد نظم قصيدته في وقت متأخر عن هذا التاريخ ، فلم يكن حوله من يستصرخه .

واسلوب القصيدة سهل سلس ، والفاظها مألوفة ، ومعانيها خالية من التعقيد ، كما خلت من الصنعة البلاغية الا مايرد عفوا ، لاشتغال الشاعر بالحدث التاريخي الهائل ، لذا نجد القصيدة سجلا حافلا للحوادث التاريخية التي كانت تجرى على ارض الاندلس . ولم ينس الشاعر استعمال الحكمة والمثل وبخاصة عندما يعظ ، لان ذلك من خصائص اسلوب الوعظ والارشاد وذلك كقوله " الصيف ضيعت اللبن " ، "صنعة من طب لمن حب" وغير ذلك . وقد استفاد الشاعر - ايضا - من اقوال من سبقه من الشعراء ، فقوله :

كيف الحياة اذا الحيات قد نفخت على السواحل او همت بارسال

مأخوذ من قول الزاهد ابن العسال .

من جاور الشر لايأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفط

---

(١) انظر السلاوى ، الاستقصاء : ٢/ ١٤٨ .

وبالجملة فالقصيدة من جيد مارثيت به الاندلس بعد غروب شمسها فهي على طولها لم تسئم القارىء لبراعة الشاعر في الانتقال من مجال الى مجال آخر، داخل اطار الرثاء، ولئن خلت بعض الشيء من الصور المتخيلة فانها كانت غنية بعواطفها واحاسيسها الانسانية.

ومن روائع مارثيت به دولة الاندلس الزائلة قصيدة بليغة طويلة لشاعر مجهول تتبع فيها سقوط قواعد مملكة بني الاحمر مدينة بعد اخرى، وقد بدأ بمدينة رندة (١) قائلا (٢):

احقا خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد اظلمت ارجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها

احقا خليلي ان رندة اقفرت ... وازعج عنها اهلها وعشيرها

وهدت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها

وكانت عقابا لاينال مطارها ... ومعقل عز، زاحم النسر صورها (٣)

هوت رندة الغراء، ثم حصونها ... وانظارها شنعاء، عز نظيرها

---

(١) مدينة اندلسية قديمة البناء، بها آثار كثيرة، وهي تقع على نهر ينسب اليها، ويأتيها الماء من قرية بشرقيها ومن جبل بغربيها، فيوافيها الماء الى داخلها فيكسبها خصوبة وجمالا. الروض المعطار (رنده) وقد كان سقوطها بيد النصارى في سنة ٨٩٠ هـ حينما كان الاضطراب الشامل يسود جميع مابقي من الاندلس، وقد وجه النصارى القشتاليون حملة قوية الى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة (ولاية مالقه) واستولوا على عدة حصون في منتصف الطريق بين مالقه ورنده، وبذلك تمكنوا من عزل رنده التي كانت حصن الاندلس من الغرب، فحاصروها وضربوها بالانفاط حتى هدموا اسوارها، فاضطر اهلها الى التسليم لصعوبة وصول المدد اليهم وبعدهم عن العاصمة (غرناطة)، وكان سقوط هذه المدينة ضربة شديدة للمسلمين حيث استولى القشتاليون على سائر القواعد والحصون الموجودة في تلك المنطقة بعد ذلك بسهولة.
انظر، عنان، نهاية الاندلس: ص ٢٠٦.

(٢) الطاهر احمد مكي، دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة: ص ٣٧٦ ومابعدها.

(٣) الصور: العصفور الاليف، يقال عصفور صوار الذي يجيب اذا دعي. الصحاح (صور).

وقد كن عقدا زين القطر نظمهـــا ... فقد فتح الان البلاد نثيرهـــا
وفرق شمل المؤمنين لهيبهـــا ... وقطع من ارحامهم زمهريرهـــا
تسلمها حزب الصليب وقادهـــا ... وكانت شرودا لا يقاد نفورهـــا
وقد ذهبت اديانها ونفوسهـــا ... وقد دفرت تحت السباء دثورها (١)
فباديها الاسلام حتى تقطعـــت ... مناسبها . واستأصل الحق زورهـا
فاصبحت الصلبان قد عبدت بهـا ... تماثيلها دون الاله وصورهـــا
لقرع النواقيس اعتلى بمنارهـــا ... كرائه اصوات يروع صريرهـــا

الذي يبدو من هذه الابيات ان الشاعر كان ممن شهد الاحـــداث المؤلمة التي اودت بقواعد الاندلس، وعايشها عن قرب واطلاع، فهو يصدر عن عاطفة هدها المصاب الفاجع، فيصرخ في دهشة افقدته صوابه متسائلا عمـا يحدث وهل حقا حدث ماحدث، وكأنه يجهل ذلك. ولعل سبب ذهولـه كان عدم توقعه لحدوث مثل هذه الكارثة لمدينة حصية منيعة كرنده، لــذا نراه يكرر استغرابه " احقا خبا من جو رندة نورها "، " احقا خليلي ان رندة اقفرت" . ويستعمل الالفاظ الفخمة ذات الصدى المجلجل :" وهدت مبانيها وثلت عروشها"، " هوت رندة الغراء . . ."، " وكانت عقابا لاينال مطارها . ." الخ . ولايلبث الشاعر ان يفيق من شروده ليرى الاسلام وقد هد ركنـــه وزحزح من مكانه ليقوم مكانه دين الصليب بتماثيله الشركية ونواقيسه ذات الاصوات الكريهة . ثم يسبح الشاعر في بحر من الالام والعذاب النفسي وهو يتذكـر احبته اهل تلك المدينة وماحل بهم فيقول :

فياساكني تلك الديار كريمـــة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرهـــا
احقا اخلائي القضاء اباد كـــم ... ودارت عليكم بالصروف دهورهـــا
فقتل واسر لايفادى وفرقـــة ... لدى عرصات الحشريأتي سفيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعهـــا ... ولا تنقضي اشجانها وزفيرهـــا

---

(١) السباء : الاحراق بالنار . الصحاح (سبأ) .

ونفس على هذا المصاب حزينة — يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
وقلب صريع ماج فيه بلاؤه — سويداءه سوداء جسم ثبورها
سأبكي ومايجدي على الفائت البكا — بعبرة حزن ليس يرقا عبورها
شآبيب دمع بالدماء مشوبة — يساجل قطر الغاديات دورها
عويلا يوافي المشرقين بريحه — وثكلا باقمار قد اطفيء نورها
فواحسرتا كم من مساجد حولت — وكانت الى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من صوامع اوحشت — وقد كان معتاد الاذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى — وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم من لسان كان فيها مرتل — وحفل بختم الذكر تمضي شهورها

ان الشاعر لابد ان يكون قد عاش في مدينة رندة شطرا من حياته لذا فان ذكرى تلك المدينة واهلها تثير اشجانه واحزانه، فتنطلق شآبيب الدمع من عينيه ممزوجة بالزفرات الحارة المنبعثة من قلبه الصريع . اننا نحس فعلا لوعة الثكل التي يعانيها الشاعر وبخاصة عندما يأخذ في تفصيل ماحدث لاحبابه اهل رندة جميعا رجالا ونساء، واطفالا . . . يقول :

وكم طفلة حسناء فيها مصونة — اذا سفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا — وقد زانها ديباجها وحريرها
فاضحت بايدي الكافرين رهينة — وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لطمت - واحر قلبي - خدودها — وقد اسبلت - وادمع عيني - شعورها
وان تستغث بالله والدين لاتغث — وان تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وقد حيل مابين الشقيق وبينها — واسلمها آباؤها وعشيرها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها — على الذل يطوى لبثها ومسيرها
وشيخ على الاسلام شابت شيوبه — يمزق من بعد الوقار قتيرها (١)
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة — تود لو انضمت عليها قبورها

---

(١) القتير : الشيب . الصحاح (قتر) .

لها روعة من وقعة البين ، دائم	اساها ، وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير حيز من حجر امه	فاكباد ها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه	وهل يتبع الشيطان الا صغيرها
كروب واحزان يلين لها الصفا	عواقبها محذورة وشرورها

وهو هنا يرسم لنا صورة ذات ظلال سوداء متشعبة عمادها الحركة وصدق الوصف الذى يلفح الوجوه بحرارته رغم مرور مئات السنين عليه ، وهذه الحرارة والانفعال الصادق هى التى اكسبت المعانى والصور الرثائية روحا وطرافة ، وان كانت معاده قد قالها شعراء رثاء المدن من ذى قبل ونتيجة لهذه المآسي المؤلمة نرى الشاعر يتمنى ان لم يكن ولد فضلا عن تمنيه الموت ولكن رغم ذلك لا يزال عنده بصيص من امل شاحب لم يقو على الوقوف بعد :

فياليت امى لم تلدنى وليتنى	بليت ولم يلفح فؤادى حرورها
وماخير عيش يعذب الموت دونه	ويغبط قل الاهل فيه كثيرها
فياليت شعرى بعد ماصح موتها	ايرجى على رغم العداة نشورها ؟
ويا ملة الاسلام هل لك عودة	لارجائها يشفى الصدور صدورها ؟
وهل نسمع الاذان صوت الاذان فى	معالمها تعلو بذاك عقيرها
ويالعزاء المؤمنين لفاقة	على الرغم ، اغنى من لديها فقيرها
لاندلس ارتجت لها وتضعضعت	وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها	مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها	واحجارها مصدوعة وثغورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت	ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدى الاسى وجمادها	يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلو ان ذا الف من البين هالك	لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقه الدين الذى جاءها به	بشير الانام المصطفى ونذيرها

ان الاندلس كلها في مأتم كبير لفقد هذه المدينة العظيمة ، وانطفاء نور الاسلام الذى ماكان يسطع من جنباتها ، فالمدن والثغور والاندلسية قد لبست ثوب الحداد ، والتهائم والنجود تتفجع ، والحجارة تتصدع والرواسي الشامخات تكاد تذوب وتندك ، والانهار يغيض ماؤها .

هذه اللوحة الحية للجماد ابدعها الشاعر منسجمة مع نفسه المنفعلة بالحزن والتي لاترى حولها الا باكيا موتورا ، وهذا يزيد من اهمية المدينة المرثية وشدة تأثير سقوطها .

ثم ينتقل الشاعر الى رثاء قاعدة اخرى من قواعد الاسلام في غرب الاندلس هي مدينة مالقه(1) وماتبعها :

فمالقة الحسناء ثكلى اسيفة قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها(2)
وجزت نواصيها وشلت يمينها وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغربية الجنن التي تقيها فاضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجلها بيمينها ومن سريان الداء بان فطورها(3)

---

(1) تقدم التعريف بهذه المدينة في الفصل السابق . وكان سقوطها بيد النصارى سنة ٨٩٢هـ وذلك انه بعد سقوط رندة اصبح القشتاليون يهددونها من الغرب ، واستغلوا فرصة الحرب المحتدمة بين ابي عبدالله وعمه المعروف بالزغل ووجهوا حملةقوية الى بلش مالقة (وهي منطقة حصينة تقع شرقي مالقة) وحاول الزغل انجادها ولكنه فشل فسقطت بلش في السنة المذكورة ، واستمر النصارى في زحفهم فاحتلوا حصن تمارش، وحصن مونتميور حتى اشرفوا على ثغرمالقة من كل صوب ، فضربوا حولها حصارا شديدا من البر والبحر ، ودافع اهلها دفاعا مريرا لمدة ثلاثة اشهر ، ولم ينجدها الزغل خوفا من غدر ابن اخيه ، وتركهال مصيرها وهو يذوب حسرة والما فاستسلمت في النهاية ودخلها النصارى دخول الفاتحين فنهبوا واحرقوا وسبوا النساء والاطفال وفرضوا على اهل المدينة شروطا قاسية . انظر نهاية الاندلس (ص٢١٧) وتصف الرواية ذلك بقولها " وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب ، وتذهل له النفوس ، وتبكي لمصابهم العيون ". مجهول ، اخبار العصر (ص٢٧ - ٢٨) .

(٢) الحجور : النواحي والارجاء . اللسان (حجر) .

(٣) الفطور : مفردها الفطر وهو الشق . اللسان (فطر) .

وبالله ان جئت المنكب[(١)] فاعتبر — فقد خف ناديها وجف نضيرها
وسكرها قد بدل اليوم علقما — لها رجة ، نار الهيام تثيرها
وعن على الاقليم فابك ربوعها — بسحب يضاهي المعصرات غزيرها
وودع بها وفد النعيم فانها — لها ادمع فيض الدموع يميرها[(٢)]

ولعلنا نلاحظ هنا مقدرة الشاعر على التفنن في جلب الاوصاف الحية لما اصيبت به المدينة الثكلى ، فكأنه يرثي لحال امرأة حسناء فقدت بنيها فجزت شعرها اسفا ، ولازمها حزن فظيع افقدها الحركة . اما المنكب فامرها يدعو الى الاعتبار مما اصابها من التدمير والهلاك على الرغم من منعتها وقوة حصونها وتلك ارادة الله النافذة لا محالة . ثم يأتي دور مدينة المرية[(٣)] مسقط رأس الشاعر فيرثيها بقوله :

وما انس لا انس المرية انها — قتيلة اوجال ازيل عذارها[(٤)]
فلقد احرق الثكل المصابين اصبحت — تأجج من حر الوجيف بحورها
فيا اصدقائي ودعوها كريمة — او استودعوها من اليه امورها
منازل آبائي الكرام ومنشيء — واول اوطان غذاني خيرها
واقروا عليها من سلامي تحية — تجددها آصالها وبكورها

---

(١) المنكب : مدينة حسنة متوسطة الحجم ، وهي مرسى الاندلس ، وتشتهر بحصنها المنيع الذي لا يرام ومنها الى غرناطة اربعون ميلا ، وبها خرج عبد الرحمن الداخل عند دخوله الاندلس سنة ١٣٨ هـ . الروض المعطار ـ المنكب . وقد سقط هذا الثغر الحصين في يد النصارى سنة ٨٩٥ هـ وذلك بعد ان سقطت مالقة وجميع ماحولها من الحصون وانقطع بذلك المدد البحري عن الاندلس ، قرر فرناند و نزع مابقي في ايدي المسلمين من المناطق وهي تنحصر في (ثغر المرية والمنكب) حيث فرت اليهما جموع كثيرة من اهل مالقة وغيرها ، فسار فرناندو الى المنكب بعدسنة من الاعداد وحاصرها ثلاثة اشهر حتى اضعفها فاستسلمت على شروط كثيرة ، ووعود مغرية للقادة والامراء فيها . انظر نهاية الاندلس : ص ٢٢٤ .

(٢) يميرها : يغذيها . اللسان (مير) .

(٣) اما المرية فهي ثغر حصين يقوم على جبلين بينهما خندق . وقد تقدم التعريف بها في الفصل الثاني ، وقد سقطت في نفس السنة التي سقطت فيها المنكب حيث لم يبق الا هي امام العدو فحاصرها ، ودكها حتى استسلمت على شروط كثيرة خادعة .

(٤) في كلمة (عذارها) جاءت الالف قبل الروي ، وهي المرة الوحيدة بين تعاقب الياء والواو .

وهنا نرى الشاعر وقد ودع مدينته الوداع الاخير بعد ان فقد كل امل في رجوعها الى حيز الاسلام، ثم ذهب - في اسف شديد - يبحث عن الاسباب التي ادت الى هذه الطامة فيجدها في اضاعة حقوق الله، والاسراف في المعاصي . يقول :

اضعنا حقوق الرب حتى اضاعنا ... وفضت عرى الاسلام الا يسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها ... من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما انالنا ... كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا ... وبؤنا باحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا ... وعاثت بنا اسد العدا ونمورها

ومن جراء هذا العصيان، والتفريط في جنب الله فقد عوقبوا بالخذلان فلم يقيض الله لهم ناصرا وسلط عليهم عدوا كاسرا يصفه الشاعر بقوله :

نعم سلبوا اوطاننا ونفوسنا ... واموالنا فيئا ابيحت وفورها
علوها بلا مهر وما غمزت لهم ... قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق ... علينا فوفت للصليب نذورها
وقد كشرت ذؤبانها وكلابها ... وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت الى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات اخذ مالنا قبل بها ... جنايات اخذ قد جناها مثيرها

ثم يختم الشاعر سلسلة الاسى برثاء واسطة عقد الاندلس، وعاصمة آخر مملكة اسلامية فيها وهي غرناطة . يقول :

ألا ولتقف ركب الاسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها (١)

---

(١) المأوى : يقصد جنة المأوى اخذا من الاية (عندها جنة المأوى) سورة النجم : ١٥ ، تستطيرها : اى تطيرها اليها . الصحاح (طير) .

محل قرار الملك غرناطة التي | هي الحضرة العليا زهتها زهورها
فما في العراقين العتيقين مثلها | ولا في بلاد الله طرا نظيرها (١)
ترى للاسى اعلامها وهي خشع | ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وامامها | وزائرها في مأتم ومزورها
لها حال نفس قد اصيبت فؤادها | وبتت لها اليمنى وحم ثبورها
فانفسها في الصعق دون افاقة | كنفس كليم الله اذ دك طورها (٢)
وقد ذعرت تلك البنيات حولها | فهن بواكي الاعين الرمد مورها (٣)

لقد كان لغرناطة - في نفوس المسلمين عامة - مكانة عظيمة، ولكونها هي الجانب الوحيد الذي بقي صوت الاسلام مسموعا فيه، ولكن من المحال ان تصمد تلك المدينة وحدها وسط خضم زاخر من وحوش الصليبيين الحاقدين، وبخاصة بعد ان جردوها من جميع الحصون والارباض التي من الممكن ان تشكل خط دفاع اول عنها، ولذا فقد جاءت النتيجة الحتمية لهذا المسلسل الدامي وسقطت غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة. فكان لذلك رنة حزن دوت في ارجاء العالم الاسلامي الذي لم يفعل شيئا اكثر من ذلك. ولعلنا نلاحظ خفوت صوت الموسيقى الشعرية، لمناسبة موقف الذل والبؤس الذي جلل اعلام غرناطة الشوامخ، كما استعمل الشاعر الالفاظ الدالة على الضعف والانكسار كقوله : " ترى للاسى اعلامها وهي خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها" . وقوله : " ومأمومها ساهي الحجى وامامها ...." " وقد ذعرت تلك البنيات حولها ....." الخ .

---

(١) المقصود عراق العرب وعراق العجم .
(٢) يشير الى قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك . قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . الاية سورة الاعراف : ١٤٣ .
(٣) مار الدمع : سال وجرى . اللسان (مور) .

وفي معرض حديثه عن حال غرناطة يعرج الشاعر على ذكر بعض المناطق التي سقطت قبل غرناطة بزمن يسير فيقول :

وقد رجفت وادي الاش (1) فبقاعها — سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
وبسطة ذات البسط ماشعرت لما — دهاها ، واني يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها — وماكمابدت من ذا المصاب نحورها

ثم يختم الشاعر قصيدته بصرخة استنفار يوجهها الى المسلمين لعل وعسى ....:

معاشر اهل الدين هبوا لصعقة — وصاعقة واري الجسوم ظهورها
اصابت منار الدين فانهد ركنه — وزعزع من اكنافه مستطيرها
ودبت افاعيها الى كل مؤمن — وعض باكباد التقاة عقورها
انادي لها عجم الرجال وعربها — نداء سراة القفر اذ ضل غيرها
واستنفر الادنى فالادنى فريضة — على زمر الاسلام جلت اجورها
الا واستعدوا للجهاد عزائما — يلوح على ليل الوغى مستنيرها
باسد على جرد من الخيل سبق — يدع الاعادي سبقها وزئيرها
بانفس صدق موقنات بانها — الى الله من تحت السيوف مصيرها

---

(1) الملاحظ هنا ان الشاعر لم يراع الترتيب الزمني ، فان بسطه سقطت قبل وادي اش بعدة اشهر واود هنا ان اسير حسب نسق الحوادث فاتحدث عن بسطة وسقوطها ثم عن وادي آش . فبسطة مدينة حصينة ذات اسوار تتبع لمنطقة جيان ، وهي متوسطة المقدار وكثيرة السكان ، وذات خصوبة عالية . انظر الروض المعطار (بسطة) . ولماكانت هذه المدينة من امنع ولايات غرناطة الشرقية ، فقد سار اليها فرناندو سنة ٨٩٥هـ وحاصرها بشدة ، ولكنها صمدت وقاوم اهلها مقاومة الابطال بقيادة القائد (يحيى النيار) ولما طال الحصار وفتك بالناس الجوع والمرض ، جنحوا الى المفاوضة وبذل لهم فرناندو كعادته من الشروط والوعود ما حملهم على التسليم ومغادرة المدينة نحو وادي آش . وبهذا يكون فرناندو قد بسط سلطانه على قواعد =

وضرب كأن الهام تحت ظلالها حثالة نور الورد ذر ذرورها
وطعن يرى الخطي في مهج العدا كأقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى ان تتقوا الله تنصروا وتحظوا بآمال يشوق غريرها
فلا يخذل الرب المهيمن امة تدين بدين الحق وهو نصيرها
وان انتم لم تفعلوا فترقبوا بوادر سخط ليس يرجى فتورها
وايام ذل واهتضام وفرقة يطاول آناء الزمان قصيرها

ولعل الشاعر يشير في اول هذه الابيات الى بداية المحاولة الآثمة التي قام بها الاسبان لتنصير المسلمين وذلك نحو سنة خمس وتسعمائة حينما استعملت الكنيسة الكاثوليكية كل وسائل الضغط على فرناند و وايسبيلا ليشرعا في نقض شروط تسليم غرناطة التي منها حرية العقيدة وممارسة الشعائر - ولينفذا سياسة التنصير التي اعدتها الكنيسة بحجة ان بقاء المسلمين على اسلامهم وسط المجتمع النصراني يشكل خطرا على امنه وبالفعل استجاب الملكان لذلك واصدرا قرارا بتنصير المسلمين قسرا واستدعى الكردينال خمنيس رأس الكنيسة الاسبانية الى غرناطة لينفذ المهمة (١) .

ولهذا نرى الشاعر يستنجد باهل الدين من المسلمين ليقفوا في مواجهة الصاعقة التي هدت ركن الدين ، وسعت لاستئصال جذوره بكل الطرق .

اما قوله : الا واستعدوا للجهاد عزائما . . . . الى آخر الابيات فلعله يشير بذلك الى الثورة التي حاولت بعض الاحياء الاسلامية القيام بها كحي البيازين (حي غرناطة الشعبي الواقع في شمالها الشرقي) وذلك ردا

= الاندلس الشرقية كلها ولم يبق خارج طاعته سوى وادى آش مدينة الزغل الذى رأى عبث المقاومة ، فسار الى معسكر فرناند و وقدم الطاعة والخضوع وعقد معه معاهدة سرية فيها المنح والامتيازات الخاصة به بعد تسليم المدينة ، وتم التسليم فى اواخر سنة ٨٩٥ هـ ودخلها النصارى وغادرها الزغل الى المغرب . انظر نهاية الاندلس : ص ٢٢٧ .

(١) انظر نهاية الاندلس : ص ٣١٥ .

على قرار التنصير الذى اتخذ من هذا الحى مركزا للمنصرين ، وحول المسجد الجامع فيه الى كنيسة ، كما قامت ثورة اخرى في منطقة جبلية وعرة بجوار منطقة رندة فالحقوا بالحملة النصرانية التي جاءت لقمعهم هزيمة شديدة ، اضطرت ملكي اسبانيا الى استعمال اللين مع الثائرين حتى هاجروا الى المغرب (١) والشاعر ما ان رأى قبسا بسيطا من الجهاد يحاول الاشتعال حتى اخذه الحماس وراح يحرض على اخلاص النية للهوتجريد السيوف والرماح في وجه العدو الكافر ويحذر من التقاعس الذى يجلب سخط الله ، ويدعو الى تحكم العدو في مصير المسلمين وانزلاقهم في ذل لانهاية له ، وهذا ماحصل فعلا في الاندلس بعد ان اخمد فيهاصوت الجهاد الى الابد . ولعلنا نلاحظ ان القصيدة وقفت عند هذه الواقعة في الاشارة الى الحوادث التاريخية ولم تتجاوزها ، مما له دلالة على انهاآخر ما ادركه الشاعر عند نظمه قصيدته ، وهنا يمكننا ان نستنتج ان القصيدة قيلت في سنة اربع وتسعمائة او خمس وتسعمائة .

ويبدو ان الشاعر قد يئس من نصرة البشر ، فتوجه الى الله بهذا الدعاء الخاشع :

اله الورى ، ندعوك ياخير مرتجى ... لكالحة هز الصليب سرورها
وشقت جيوب المؤمنين واسخنت ... عيونهم والكفر ظل قريرها
وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ ... اذا لم يكن منك التلاقي ظهيرها
افث دعوات المستغيثين انهم ... ببابك موقوفو الحشاشات بورها
وارسل على هذا العدو رزية ... يروح ويغدو بالبوار مبيرها

وبعد ، فالقصيدة من اروع ماقيل في رثاء الاندلس ، فقد اضفى عليها صاحبها من ذوب نفسه التي يمتزج فيها انفعال الحزن والالم بانفعال

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٢٥ .

الغضب والحماسة ، فنراه قد حلق في عالم شعري هو في جانب منه كهف مظلم تتمزق فيه نفس الشاعر وهو يشاهد مسقط رأسه ، ومرتع شبابه وقواعد الاسلام العظيمة تهوى في جحيم الصليبية الحاقدة ، فيبكي بكاء الثكلى ويندب كالنائحة . فيسرى منه هذا الشعور ليشمل المدن والحجارة والانهار والجبال . . . فتنخرط كلها في موكب حزين مضطرب . وهذه الطبيعة الحية ذات الوجدان والشعور التي تبرز في هذه القصيدة وغيرها من الادب الاندلسي كانت المرتكز التي قامت عليه النظرية الرومانتيكية في الشعر عند الغربيين فيما بعد .

اما الجانب الاخر من العالم الشعرى الذى عاش فيه الشاعر فتتخلله ومضات مضيئة تنعش نفس الشاعر بعض الشيء ، فيمد بصره بعيدا ، وتدور في نفسه آمال كبيرة ، فيندفع ليغذيها بحض الناس على التقوى وطاعة الله واصلاح النفوس بحملها على الجهاد في سبيل الله الذى هو الطريق الوحيد للعزة الابدية .

اما اسلوب الشاعر فهو رصين محكم ، مشرق العبارة قويها ، ولعلنا نستشف من هذا ان القصيدة قد قيلت بعد سقوط غرناطة بزمن يسير قبل ان تفعل السياسة النصرانية فعلها في محاربة اللغة العربية ومسخها ، كما حدث بذلك فيما بعد ايام الموريسيكيين : المضطهدين والشاعر - كما يتضح من القصيدة - ذو نفس طويل وشاعرية فذة ، وطبع ابتعد به عن الجرى وراء الصنعة البلاغية ، كما نلاحظ التأثر بقصيدة ابى البقاء الرندى في رثاء الاندلس ، فقول شاعرنا المجهول :

فواحسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت الى البيت الحرام شطورها
ووأسفا كم من صوامع اوحشت ... وقد كان معتاد الاذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها

مستوحى من قول ابى البقاء :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن الا نواقيس وصلبان
حتي المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

وقول الشاعر :

وكم من طفلة حسناء فيها مصونة ... اذا اسفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها
فاضحت بايدي الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستوحى من قول الرندي :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

اما بالنسبة للشاعر فلم يتحقق احد من الباحثين من شخصيته على وجه اليقين ، يقول الاستاذ عبد الرحمن الحجي الذى نشر القصيدة[1] : "قصيدة بليغة من الادب الاندلسي الرائع، تصف احسن وصف المأساة الاندلسية لم نعثر على قائلها ، وقد طبعها لاول مرة الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤م مع ترجمة فرنسية وبعض التعليقات ، وذكر فيها انها من جملة قصائد بعثت الى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة . وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير محمد بن علي الدكالي السلوى فذكر لي ان صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ولعله ابو جعفر بن خاتمة[2]

---

(١) مجلة الرسالة ، العدد : ١٣١ ، السنة الرابعة مج ١ ، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م .

(٢) هو ابو جعفر احمد بن علي بن خاتمة الانصاري الاندلسي . من اهل المرية . شاعر كاتب مترسل ، وفقيه مصنف ، جلس الى الشيوخ حتى اتيح له التدريس في جامع المرية فدرس علم العربية وغيره . قال فيه صديقه ابن الخطيب " هو حسنة من حسنات الاندلس ، وطبقة في النظم والنثر" وقد كان يعد من وجوه العصر الثامن وادبائه المعدودين . توفي سنة ٧٧٠هـ وله كتاب مزية المرية وهو مفقود ، وكتاب " ايراد اللآل من انشاد الضوال" . انظر الاحاطة : ١ / ١١٤ ، الكتيبة الكامنة : ص ٢٣٩ - ٢٤٥ ، نثير الجمان : ص ١٧٥ .

ولعل شكيب ارسلان[1] اطلع على هذا الكلام فاورد جزءا من القصيدة ونسبها ايضا لابن خاتمة، وذكر انه نظمها سنة اربع وتسعمائة او بعدها بقليل . ولكن الواقع التاريخي يثبت بطلان هذه النسبة لان ابن خاتمة المذكور توفي سنة سبعين وسبعمائة اي قبل سقوط المدن المذكورة في القصيدة بنحو قرن وربع القرن ، كما ان ابن خاتمة لم يكن شاعرا مغمورا فقد طبقت شهرته الاندلس في زمانه، فهو يقارن بلسان الدين بن الخطيب واضرابه اضف الى ذلك ان ديوان شعره قد وصلنا بخط يده وهي النسخة التي صنعها سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وهي تخلو من ذكر القصيدة تماما[2].

اما ماقيل من انها وجهت الى السلطان العثماني . فليس في القصيدة اى اشارات تدل على ذلك، وقد عرضنا في فصل سابق للقصيدة الطويلة التي ارسلها الموريسيكيون للسلطان بايزيد العثماني . واخيرا فمن غير المتوقع ان نعثر على شخصية قائل هذه القصيدة التي قيلت في تلك السنوات العجاف، وبخاصة انها تتعرض للعدو المسيطر .

---

(١) انظر الحلل السندسية : ٣/٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٢) حقق الديوان الدكتور رضوان الداية، وطبع في دمشق سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

البـــاب الثالـــث

دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأمصار

الفصل الأول
رثاء الدول والأمصار بين التأثروالتأثير

قبل ان اتحدث عن تفاصيل رثاء الدول والامصار في الشعر العربي اود في هذا الفصل ان اتناول بالبحث نشأة هذا الشعر، فقد دارت تساؤلات كثيرة بين الباحثين في الشعر العربي ، مشرقية واندلسية حول المهد الاول الذي ولد فيه شعر رثاء الدول والامصار الذي اشتهر في الاندلس خاصة بصورة كبيرة ، فهل هو غرض شعري ابتدعه الاندلسيون ؟ او انه كان معروفا في المشرق ، وتناوله شعراء الاندلس على سبيل المحاكاة والتقليد عندما حلت ببلادهم النكبات ؟ وقد تضاربت الردود والاجوبة حول هذا الموضوع فذهب بعضها الى أن الأدب الأندلسي بجملته لم يأت بجديد ، ولم تكن له الشخصية المميزة ، بل هو تقليد لادباء المشرق ودوران في فلكهم وضمن آفاقهم ، ومن اصحاب هذا الرأي الدكتور شوقي ضيف الذي يقول (1) :

" ونحن لا نبالغ اذا قلنا بان شخصية الاندلس في الادب العربي ليست من القوة كما ينبغي . . . . فقد كانت الكتلة الاندلسية تنساق نحو التقليد المشرقي بكل مافيه ، وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة . اما بعد ذلك فصورته كله بما فيها من افكار واخيلة واساليب هي الصورة المشرقية . . . . وما أراني أبعد إذا قلت أن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها في ذلك شأن الاقاليم الاخرى" .

ولا يخلو هذا القول - في نظري - من المبالغة والمغالاة ، فبالرغم من أن الادب المشرقي ظل انموذجا يحتذى عبر عصور الأندلس الأدبية - على تفاوت في الاحتذاء بين الفترات الزمنية - برغم ذلك فان للأدب الأندلسي شخصية متميزة وطابعا خاصا ، . . . . . ولا ندري

---

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ص ٤١٢ .

ماذا نسمي ابتكارهم لفن الموشحات، وافتنانهم في اختراع الصور النابضة من شعر الطبيعة حتى كاد هذا اللون يكون وقفا عليهم لجودته وكثرة شعرائه وماهو بالصورة الساذجة التي يشير اليها الدكتور شوقي ضيف، فالشاعر الاندلسي امتزج بطبيعة بلاده الساحرة حتى نراه لاينفك عن ذكرها واستعمال صفات اجزائها في اغراض لاتمت الى الطبيعة بسبب كالمدح والرثاء كقول ابن خفاجة في المدح (١) :

لذكرك ماعب (٢) الخليج يصفق — وباسمك ماغنى الحمام المطوق

ومن اجلك اهتز القضيب على النقا — واشرق نوار الربى يتفتق

وكقوله ايضا في الرثاء البعيد كل البعد عن وصف الطبيعة وموحياتها :

في كل ناد منك روض ثناء — وبكل خد فيك جدول ماء

ولكل شخص هزة الغصن الندى — غِبَّ البكاء، ورنة المكاء (٣)

يامطلع الانوار . . ان بمقلتي — اسفا عليك، كمنشأ الانواء

كما لاننسى ايضا بروز الاندلسيين الى حد كبير في مجال رثاء الدول والمدن وتفردهم في ابتداع شعر الاستصراخ والاستغاثة حتى غدا فنا قائما بذاته انطبع بطابعهم، ولعل الدكتور شوقي ضيف يريد من الادب الاندلسي ان يتميز باغراضه واساليبه تميزا كاملا عن ادب المشرق بحيث يبدو ادبا آخر له مقوماته ومجالاته الخاصة . وهذا امر عسير، ومن غير المتوقع حدوثه. وذلك لان الاندلس كانت جزءا من الدولة الاسلامية في كثير من الفترات. واهل تلك الجزيرة ماهم في غالبيتهم وبخاصة اهل الشعر والادب ـ الاجزءا من القبائل العربية التي دخلت ايام الفتح او في

---

(١) ديوان ابن خفاجة : ص ١٨ .

(٢) العب : شرب الماء وتتابع جرعه . القاموس المحيط (عب) .

(٣) غب البكاء : البكاء الشديد الذى يكون بعد شوق وانقطاع، المكاء : طائر له صوت رنان . الصحاح (مكا) .

زمن الامويين ، وتجمعهم باهل المشرق وحدة الاصل ، ووحدة العقيدة واللغة . اضف الى ذلك ان هؤلاء الشعراء والادباء الذين ذاع صيتهم في الاندلس قد تتلمذوا على مؤلفات المشارقة وتثقفوا بها ؛ فلا عجب ان يسيطر الطابع المشرقي على آثارهم ومؤلفاتهم الادبية وغيرها ، فهم في الواقع كانوا يستقون من منبعين احدهما مشرقي والاخر ينبع من داخل جزيرة الاندلس. ولعل ادباء الاندلس وجدوا انفسهم مدفوعين الى ورود مناهل الادب المشرقي لان ماحولهم من بلاد اوروبا آنذاك لم يكن فيها من العلم والادب مايدفع الاندلسيين الى اخذه والاستغناء به عن ادب المشرق .

وذهب فريق آخر من الباحثين الى القول بان رثاء الدول والامصار فن اندلسي المنشأ لم يظهر في المشرق الا في فترات متأخرة، وماوجد منه يوصف بالضعف والتكلف . يقول احمد امين[1] : " لقد رأينا مدنا في المشرق تتساقط تساقط اوراق الشجر، تستوجب الرثاء والبكاء، كما سقطت بغداد في يد التتار، وازالوا كل مافيها من مظاهر مدنية وحضارة، وفعل التتار فيها مالا يقل عما فعله الاسبانيون في الاندلس، وغزا هولاكو وتيمورلنك ونحوهما الشام، واسقطوها بلدا بلدا ، فما رأينا عاطفة قوية، ولارثاء صارخا ، ولاادبا رقيقا ، ولاتاريخا مسجلا ، كالذي رأيناه في الاندلس، فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى واشد لم نبعد عن الصواب".

ويعلق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا الكلام بقوله[2]: " وعبارة استاذنا الكبير - رحمه الله - على شيء من التناقض اولا واخيرا ، اذ ان قوله فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى واشد لم نبعد عن الصواب، قد يبدو متعارضا مع قوله فما رأينا رثاء صارخا ، ولاادبا رقيقا ولاتاريخا مسجلا . . لان القول الاخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو اقل

---

(١) ظهر الاسلام: ٣ /٢٨٧ .
(٢) الادب الاندلسي بين التأثر والتأثير، ص ٢١١ .

من لون الاندلس، والقول الاول يكاد يحكم بعدمه . . مع ان المتصفح لكتب الادب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعا في كل محنة تجد . ولم يتعرض امثال الطبرى وابن الاثير والمسعودى لمحنة ما الا رووا عنها في كتب التاريخ ـ فضلا عن كتب الادب الخالص ـ نماذج رائعة فيها الرثاء الصارخ والادب الرقيق والتاريخ المسجل".

ويذهب بطرس البستاني الي ان العاطفة الوطنية ضعيفة في شعر بكاء المدن في المشرق حتي لانكاد نلمح لها خيالا الا في النادر، واشار الى ان الفرق واسع بين شعراء الاندلس وشعراء العباسيين من حيث حب الوطن والتعلق به (١).

ويشارك الدكتور محمد مجيد السعيد هذا الفريق، فيشير الي ان بكاء الدول والمدن الزائلة ولد بالاندلس بفعل الكوارث التي عاشتها، والمحن التي قاستها، فقيلت القصائد لتخليد مآثرها، وبرزت المشاعر الوطنية التي تدعو الي الجهاد، والوقوف في وجه الاطماع والتوسع في حين تأخر ظهور مثل هذا الفن في المشرق حتي سقوط بغداد، اما قبل ذلك فالشعر المشرقي يكاد يخلو تماما من امثال هذا اللون سوى ماقيل في الاستعبار والاستذكار، وايوان كسرى (٢).

والناظر في هذه الاراء يجد انها تكاد تجمع علي سبق الاندلس في هذا المضمار، وتكاد تنكر ظهور مثل هذا الشعر قبل سقوط بغداد سنة ست وخمسين وستمائة علي يد المغول . والواقع ان الزعم بتأخر شعر الرثاء كل هذه الفترة قد يكون مجانبا للصواب، وفيه اجحاف شديد بحق شعراء المشرق . اذ اننا نجد قصائد رائعة في رثاء بغداد ايام فتنة الامين والمأمون في اواخر القرن الثاني الهجرى، كقصيدة ابي يعقوب الخريمي الطويلة

---

(١) ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث: ص٩٧ .
(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص٣٠٨ .

التي صورت المأساة اصدق تصوير بعيدا عن الصخب والتكلف، فصاحبها شاعر مطبوع شعر بهزة عظيمة عند ما رأى مدينته العظمى تصبح اطلالا وخرائب، فاطلق هذه الزفرات الحارة . ولكن لا ادرى لماذا ادارت كتب الادب ظهرها لهذه القصيدة، حتى كادت تنسى بالرغم من جودتها ، فلم يوردها كاملة الا الطبرى في تاريخه(1) . ولعل ذلك راجع لخمول ذكر صاحبها بسبب بعده عن دواوين الخلفاء والرؤساء وعدم مدحه لهم تعففا عن التكسب بالشعر .

او ربما كانت الدولة تدفع الناس لنسيانها رأبا للصدع ولأما للجرح بين بني العباس، وقصيدة هذه حالها في المشرق من الصعب ان نفترض انها وصلت الى الاندلس، ولكن لا يجوز لنا اغفالها فهي - ولا ريب - رائدة في مجالها . وكذلك قصيدة ابن الرومي في رثاء مدينة البصرة حينما دمرها الزنج في منتصف القرن الثالث الهجرى فقد بكاها بحرارة وصدق ، ووثب خياله فيها وثبات جميلة معبرة لم يسبق اليها ، وذلك حين صور مشهد المحشر الرهيب يوم القيامة وقد وقف معاصرو نكبة البصرة خاشعين من الذل ، والجبار - عز وجل - يقرعهم ويبكتهم :

ياعبادى اما غضبتم لوجهي ذى الجلال العظيم والاكرام؟
اخذلتم اخوانكم، وقعدتم عنهم - ويحكم - قعود اللئام؟
كيف لم تعطفوا على اخوات في حبال العبيد من آل حام؟
لم تغاروا لغيرتي ، فتركتم حرماتي لمن احل حرامي
ان من لم يغر على حرماتي غير كفء لقاصرات الخيام

او حينما يصور عتاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم في ذلك الموقف العصيب :

---

(١) اورد ابن قتيبة ابياتا منها في الشعر والشعراء ٢/ ٨٥٥ ، وجاء الجاحظ بابيات منها اقل في كتابه الحيوان : ٨/ ٢٢٥ ، د/ ٢٠

امتي . اين كنتم اذ دعتني حرة من كرائم الاقوام
صرخت "يا محمداه" فهلا قام فيها رعاة حق مقامي
لم اجبها اذ كنت ميتا فلولا كان حي اجابها عن عظامي

انها صور بديعة مؤثرة تدفع سامعها الى العمل الايجابي ، فيهب للجهاد في سبيل الله والدفاع عن حرماته ، لينجو بذلك من الخزي والعذاب ، وهذا مايسعى اليه الشاعر .

واكاد اذهب الى ابعد من هذا كله ، الى العصر الجاهلي حيث البكاء على الأطلال والزمن الذى يدل على العاطفة الصادقة لدى العربي نحو منازله وصحرائه ، فكيف يكون حال هذا الشاعر البدوى لو كان يعيش في مدينة ، والمت بها نكبات الدهر ، لاشك انه سيتدفق كالسيل باكيا وراثيا في قصائد رنانة ، وقد قدمنا في الفصل الخاص برثاء الممالك في الجاهلية نماذج لهذا الشعر .

اما قول القائلين بان العاطفة الوطنية في شعر المشارقة ضعيفة ولاتكاد تلمح فهو ليس على اطلاقه ، لان لدينا من القصائد ذات العاطفة الصادقة والمشبوبة مايضاهي رثاء الاندلسيين ان لم يفق الكثير من قصائده فبالاضافة الى قصيدتي الخريمي وابن الرومي نجد الشعر الذى قيل في رثاء بيت المقدس عندما سقط بيد الصليبيين في اواخر القرن الخامس الهجرى وبخاصة قصيدة ابى المظفر الابيوردى التي يصف فيها مالاقته المدينة المقدسة من الاهوال العظام باسلوبه المثير الذى ابكى عيون سامعيه دما وصور الحدث تصويرا اصاب الناس بالذهول والدهشة تمهيدا لحثهم على نصرة اخوانهم . ونراه قد الم بطرف من صور ابن الرومي ومعانيه حينما يتخيل النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى تقاعس الامة عن الجهاد والدفاع عن حرمات الله التي انتهكها الصليبيون وعملوا بالمدينة المقدسة واهلها اعمالا :

يكاد لهن المستجن بطيبة	ينادي باعلي الصوت يا آل هاشم
اري امتي لا يشرعون الى العدى	رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
فليتهم اذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فعاطفته الاسلامية متأججة ثائرة، تنادى المسلمين عربا وعجما للدفاع عن الوطن الاسلامي مهما بعدت اصقاعه .

وهناك ـ ايضا ـ الشاعر الفقيه عمارة اليمني الذى ظل يرثي الخلافة الفاطمية بمصر بشعر يفيض بالصدق وحرارة المشاعر، فقد كان هذا الشاعر محبا لاولئك القوم بالرغم من كونه سنيا وهم شيعة، وقد ملك عليه هذا الحب وجدانه، حتى كانت قصور الفاطميين هي مبعث وجده واشجانه بعد ان اقفرت من اهلها، حتى اورده ذلك موارد الهلاك، بعد ان لم يطق رؤية الايوبيين في تلك الربوع فذهب يدبر الخطط ضدهم حتى ظفروا به فقتلوه .

وبعد فلعل في هذه الامثلة والمناقشات مايثبت وجود شعر رثاء الدول والامصار في المشرق قبل سقوط بغداد بقرون عدة، كما ان فيها مايرد القول بضعف العاطفة الوطنية عند الشعراء المشارقة.

اما ماقيل في رثاء بغداد والشام عندما دمرتا على يد التتار، فلا يخلو ايضا من صدق العاطفة فقد هز النبأ الهائل ـ سقوط الخلافة الاسلامية وتدمير عاصمتها بغداد ـ نفوس جميع المسلمين وادمت قلوبهم تلك الصور البشعة من القتل والحرق والسحق الهمجي لكل شيء، فانبرى الشعراء يبكون البلاد والعباد، ولكن شاب قصائدهم الاسراف في الصنعة البلاغية كالجناس والطباق والمقابلة، والتضمين الى غير ذلك . فهذا الشيخ شمس الدين الكوفي يفتتح احدى مراثيه بقوله :

ان لم تقرح ادمعي اجفاني — من بعد بعدكم فما اجفاني
انسان عيني مذ تناءت داركم — ماراقه نظر الى انسان
مالي وللايام شتت شملها — حالي وخلاني بلا خلان

فهذه الابيات وغيرها يشم منها رائحة التكلف فتبدو العاطفة ضعيفة شاحبة وسط هذا الجناس المتلاحم . ولعل السبب في ذلك اسلوب العصر الذى انحدر فيه الفهم العام لمدلول الشعر عند النقاد والشعراء، فحكم بالجودة للقصائد التي تحوى قدرا كبيرا من المحسنات اللفظية والبديعية وتظهر مقدرة قائلها على الزخرفة واستعمال الوان ثقافته في شعره. ومن الجدير بالذكر ان الذين برزوا في رثاء بغداد والشام لم يكونوا شعراء منقطعين للشعر وانما هم بين واعظ، ومؤرخ، كابن العديم، وطبيب كبهاء الدين الغزولي .

ولعل الذى حمل النقاد على وصف مراثي المشارقة لمدنهم بضعف العاطفة هو نظرهم باعجاب الى عواطف الشعراء الاندلسيين نحو بلادهم فالاندلسيون - بحق - من شعرهم يتعلم حب الوطن، فهو ممتزج بدمائهم وارواحهم، والاندلس تظل قبلة شاعرها اني ذهب ومهما اغترب، وحنينه اليها يبقى مشتعلا مرتلا في قصائد شجية تبقى انموذجا شامخا على مر الايام ولاعجب في ذلك، فطبيعة وطنهم الساحرة ذات فضل كبير عليهم في شحذ قرائحهم واكسابها الخيال الجميل، والامر الثاني يكمن في وقوع الاندلسيين المسلمة في وسط نصراني يعمل جاهدا لسحق الامة الاسلامية وطردها من تلك البقعة، الامر الذى ولد عند الاندلسيين شعورا قويا بانهم يملكون علقا نفيسا تتطلع اليه عيون الطامعين فازدادت العاطفة الوطنية في نفوسهم تأججا، فما تسقط مدينة الا رأيت الشعراء يسارعون في بكائها وتسجيل مآثرها مع الدعوة لرأب الصدع والحث على الوحدة، والتوجه الى اخوانهم المسلمين يناشدونهم النصرة لاحساسهم بان طمع العدو لن يتوقف عند مدينة او سلسلة من المدن .

وفي نظري ان البحث عن سابق ولاحق ، ومؤثر ومتأثر بين المشرق والاندلس في فن رثاء الدول والامصار امر يحتاج الى اعادة نظر ، وربما حدث شيء من ذلك بين شعراء القطر الواحد ، كما هو الحال عند الاندلسيين في احتذاء قصيدة ابي البقاء الرندي لشهرتها الكبيرة .

والذي يدفعني الى انكار التأثر والتأثير على نطاق واسع هو ان هذا الفن يختلف عن باقي الفنون والاغراض الشعرية التي يمكن ان نطبق عليها حكم التأثر والتأثير . اذ ان الصادق منه يقوم على جيشان العاطفة والانفعالات الداخلية عند الشاعر ، وهذه العاطفة تكمن بسكون في نفس كل شاعر - على تفاوت في رهافة الاحساس وعمقه - فاذا ماحدثت النكبة ، واصيب الوطن اشتعلت نيران هذه العاطفة ، فتفجرت ينابيعها الثره . فمثل هذا الشعر اذن لابد ان يكون مبثوثا في كل ادب ، ماوجد الشعراء ، ووجدت النكبات التي تحرك وجدانهم ، وهذان الامران لايخلو منهما زمان من الازمنة على مدى الدهر كله . اما تكرر معاني الرثاء وتشابهها في كثير من القصائد ، والذي قد يحمل الباحث على القول بالاتباع فان سببه هو تكرر المأساة نفسها ، فماذا عسى ان يقول الشاعر الذي يشاهد مدينته او دولته التي عاش في ظلها ، تستباح وتدمر من قبل الاعداء ، لاشك انه سيبكي للدمار والخراب الذي صبغ المدينة ، ويرثي لحال القتلى والاسرى ، ويصور مصارع الضعفاء من الاطفال والنساء والشيوخ بحيث يؤثر في السامع ويستدر عطفه وعبرته ، وتشابه هذا الواقع المؤلم في كل مدينة تسقط لايكون مبررا لاهماله او تجنبه من قبل الشاعر اللاحق بحجة انه قيل من قبل . على ان الجدة والطرافة لدى الشاعر الملهم تبرز في صوره واخيلته والوانه .

وحاصل القول في هذه القضية ان رثاء الدول والمدن مبثوث في الشعر العربي ككل في المشرق والاندلس ، ولكنه اشتهر بالاندلس حتى اقترن ذكره بادبها لما يلي :

اولا : تتابع الاحداث المأساوية . فقد ظلت الحروب مشتعلة بالاندلس على مدى خمسة قرون تقريبا ، يتخللها فترات سلام مؤقت مادام المسلمون هم المسيطرين ولا تلبث الحرب ان تعود جذعة عندما يجد النصارى من انفسهم قوة تمكنهم من الهجوم على المسلمين .

وقد كانت الحروب تصطبغ بالصبغة الدينية الخالصة ، فهى تطاحن من اجل البقاء بين عقيدتين اسلامية ، ونصرانية . لذلك نجد المعانى الاسلامية هى اهم مايتفجع عليها الشاعر ويتأسف ، كالمساجد التى سرعان ماتحولت الى كنائس تنصب على محاريبها الصلبان المعدة لهذه الغاية فور السقوط ، وكالمدارس ومعاهد العلم التى تهدمت وماالى ذلك .

وهذا الامر لم يوجد فى شعر المشرق بهذه الصورة الا حينما سقط بيت المقدس وفعل الصليبيون به تلك الافاعيل المعهودة عنهم ، اما التتار فهم جيش هلكة وتدمير ، وليس لديهم عقيدة ينشرونها ، فشعراء المشرق تعرضوا لذكر التدمير فقط من غير ذكر للتغيير . وذكر مصير الاسلام والتفجع عليه ، مع كثرة المدن العظمى الساقطة اكسبت شعر الشاعر الاندلسى لونا خاصا من التأثير فى نفوس قارئيه وسامعيه على مر الازمان .

ثانيا : ان معظم المؤرخين الاندلسيين الذين اوردوا لنا الاشعار التى قيلت فى رثاء الاندلس هم ادباء وشعراء فى الوقت نفسه ، فكان ان مزجوا الحوادث التاريخية بالادب مزجا يشعر القارىء بتفاعلهم مع الاحداث التى اوفوها حقها من التحليل الدقيق كفعل ابن بسام صاحب " الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة" ، وابن سعيد صاحب "المغرب فى حلى المغرب" ، ولسان الدين ابن الخطيب صاحب " الاحاطة فى اخبار غرناطة" . . . وغيرهم كثير وكثير .

ونحن هنا لاننكر دور مؤرخى المشرق فى ايراد الاشعار اثناء سرد الحوادث ، فكثير من شعر رثاء المدن والدول فى المشرق جاء فى كتب التاريخ كتاريخ الطبرى ، وتاريخ المسعودى مروج الذهب ، والكامل فى التاريخ لابن الاثير وغير ذلك . ولكن طريقة المؤرخين الاندلسيين كانت اشهر فى ابراز الشعر والاهتمام به .

الفصل الثاني
دراسة شكل قصيدة الرثـــاء

من الصعوبة بمكان ان يضع الباحث خصائص ومميزات لاى غرض من اغراض الشعر العربي ينفرد بها ولا يشاركه غيره فيها ، وذلك لطبيعة هذا الشعر الذى تغلب عليه الغنائية ، وتتداخل اغراضه وتتفرع عن بعضها ، فالرثاء مثلا يرجع الى المديح لانه مدح الاموات ، وكذلك الغزل والوصف . . . الخ (1)

وفي شعر رثاء الدول والامصار تزداد المشكلة تعقيدا لان هذا الشعر لا يمثل وحدة متكاملة يمكن دراستها من خلال تسلسل القصائد والاساليب والظروف المتشابهة . فنحن بازاء حشد من القصائد التي قيلت في رثاء المدن والدول الساقطة والمدمرة على مدى قرون طويلة ومتباعدة ، اضف الى ذلك انه لا يوجد شعراء مكثرون في هذا الفن ، نستطيع بتتبع شعرهم وتحليله تكوين فكرة متبلورة عن سمات هذا اللون الشعرى ، فاكثر الذين وردت اشعارهم في هذا البحث لم يزيدوا على ثلاث قصائد او نحوها في المناسبة الواحدة . فلابد ـ والحالة هذه ـ من تناول كل قصيدة على حدة وقد فعلت هذا في جميع القصائد التي مرت بنا . ولكن اريد هنا ان اشير بشيء من التفصيل الى الظواهر البارزة التي تشترك فيها معظم القصائد التي بين ايدينا من ناحية الشكل والمضمون .

اما من حيث الشكل فيشمل الحديث المباحث التالية :

---

(١) يقول ابن رشيق القيرواني : " الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ، فالى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب ، وماتعلق بذلك من محمود الوصف ، كصفات الطلول والاثار ، والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الاخلاق كالامثال والحكم والمواعظ . . . والهجاء ضد ذلك كله . . " . العمدة ١/ ١٢١ .

المبحث الاول : مقدمات القصائد

تنوعت المقدمات في شعر رثاء الدول والامصار تبعا لمقدرة الشاعر ودرجة تأثره بالحدث، ومن اشهر هذه الانواع :

(١) المقدمة الطللية :

وهي مقدمة تقليدية فرضت سيطرتها على الشعر من ايام الجاهليين وظل سلطانها مستمراعبر العصور الادبية، فتجد الشاعر يقف على مدينة زاهرة اصيبت بالدمار واستبيح اهلها، يأخذ في مناجاة الاطلال ومناشدتها عن الاحباب ويستوقف الصاحب والرفيق، ويدعو بالسقيا وما الى ذلك. كقول ابن ابى هاشم فى رثاء دولة بني طولون :

يامنزلا لبني طولون قد دثرا سقاك صوب الغوادي القطر والمطرا
بالله عندك علم من احبتنا ام هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

وقول ابن منقذ في شيزر :

حيا ربوعك من ربا ومنازل سارى الغمام بكل هام هامل
وستقك ياد ارالهوى بعد النوى وطفاء تسفح بالهتون الهاطل
ابكيك ام ابكي زمانى فيك ام اهليك امشرخ الشباب الراحل

وقول شمس الدين الكوفي في رثاء بغداد عندما دمرها المغول وقضى على الخلافة الاسلامية فيها :

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم فتكلمت لكن بغير لسان

وفي قصيدته الاخرى يضمن مقدمته اشطرا كاملة عن شعر الاطلال حين يقول :

قف في ديار الظاعنين ونادها (يادار ماصنعت بك الايام)
اعرضت عنك لانهم قد اعرضوا (لم يبق فيّ بشاشة تستام)

وهذا ابن شهيد الاندلسي، شاعر الاندلس المطبوع، عاش في بيئة لاتمت الى الصحراء واطلالها بصلة، وعندما اراد رثاء قرطبة، حاضرة اوروبا كلها في ذلك الوقت، لم يجد مناصا من البدء بذكر الطلول مراعاة لتقاليد الشعر التي حرم ابن قتيبة(1) على الشعراء المتأخرين الخروج عنها .

يقول ابن شهيد :

مافي الطلول من الاحبة مخبر فمن الذى عن حالها نستخبر؟
لاتسألن سوى الفراق فانه ينبيك عنهم انجدوا ام اغوروا

ويقول ابن لبّون في رثاء امارته الغاربة :

خليلي عوجابي على مسقط اللوى لعل رسوم الدار لم تتغيرا
فاسأل عن ليل تولى بانسنا واندب اياما تقضت واعصرا

اما السهيلي فيسائل قريته المحتلة قائلا :

---

(1) يقول ابن قتيبة بعد ذكر بنية القصيدة على ذكر الديار والدمن ثم النسيب فوصف الرحلة والتعب حتى الوصول الى الغرض وهو المدح .. يقول :" وليس لمتأخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الاقسام، فيقف على منزل عامر، او يبكي عند مشيد البنيان لان المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي . . .".
انظر الشعروالشعراء : ١/ ٧٤ - ٧٦ .

يادار اين البيض والآرام ام اين جيران على كرام؟
راب المحب من المنازل انه حيي فلم يرجع اليه سلام

ولعل هؤلاء الشعراء وغيرهم كانوا يرون في المقدمة الطللية مظهرا من مظاهر الاصالة التي يجب المحافظة عليها ، ولذلك نجد في مابين ايدينا من اشعار الرثاء - وبخاصة في الاندلس - اسماء بعض الاماكن والمناطق في جزيرة العرب تتكرر كثيرا لالذاتها وانما لانها اصبحت رموزا يقترن ذكرها بالشوق والوجد والحنين الباكي ، وهذا الامر ابتدأه الشعراء القدماء في حنينهم الى مغانيهم ثم شاع في الشعر العربى كله واصبح رمزا ، ومن تلك الرموز كلمة نجد واللوى ، والمشقر ، وثبير ، وجبل الريان وغيرها .

يقول ابن عميرة الاندلسي في رثاء بلنسية :

ويندب عهدا بالمشقر فاللوى واين اللوى منه واين المشقر ؟

ويقول ايضا :

يحن الى نجد ، وهيهات حرمت صروف الليالي ان يعود الى نجد
فياجبل الريان لارى بعدما عدت غير الايام عن ذلك الورد

ونحن هنا لانعيب على الشعراء وقوفهم التقليدى بالاطلال ، بقدر مانبين ان الشاعر المغلق اذا تصدى لموضوع الرثاء ، لاينبغي له ان يكبت نفسه ويفقدها قيمتها بالجرى وراء غيره في الشكل او الموضوع ، لان ذلك لايسمح للعواطف - التي هي عماد هذا الشعر - ان تنطلق معبرة عن نفسها في انسياب طبيعي يريح نفس الشاعر المشحونة بالالام ، ويبلغ من السامعين ، او القارئين درجة عالية من التأثير .

(٢) مقدمة الحزن والشكوى :

وفي هذه المقدمات يمهد الشعراء لقصائدهم الرثائية بشدة وقع الحدث على انفسهم حيث اورثهم الالم والنكد والسهر .... الخ . وهذا النوع كثير جدا في شعر رثاء الدول والامصار ، ومنه قول العبلي في رثاء الدولة الاموية :

تقول امامة لما رأت ... نشوزي عن المضجع الانفس
وقلة نومي على مضجعي ... لدى هجعة الاعين النعس
ابي ماعراك؟ فقلت الهموم ... عرون اباك فلا تبلسي
عرون اباك فحبسنه ... من الذل في شر مامحبسي

وقول ابن الرومي في رثاء البصرة :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام
اي نوم من بعد ماحل بالبصـ ... ـرة ماحل من هنات عظام
اي نوم من بعد ما انتهك الزنـ ... ج جهارا محارم الاسلام

اما الابيوردي فنجده يمزج الدمع بالدم حزنا على خراب بيت المقدس ووقوعه بيد الصليبيين :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

ويشاركه - ايضا - في الموضوع نفسه شهاب الدين بن المجاور بقوله :

اعيني لاترقي من العبرات ... صلي في البكاء الاصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها ... توقد مافي القلب من جمرات
وياقلب اسعر نار وجدك كلما ... خبت بادكار يبعث الحسرات
ويافم بح بالشجو منك لعله ... يروّح ما القى من الكربات

ويتخذ علاء الدين الاوتاري من السهاد مؤنسا له يلازمه في شدته بعد ان جفاه الرقاد على اثر نكبة دمشق ، يقول :

لك علم بما جرى ياسهادى | من جفوني على افتقاد رقادى
لم اجد عند شدتي مؤنسا لي | غير سهدى ملازما لسوادى
وحبيب العين الرقاد جفاها | مذ رآها حليفة الانكاد

ويذرف ابو المطرف بن عميرة الاندلسي الدمع مدرارا ، ويغرق في بحر زخار من الاحزان ويغرق معه غيره وذلك في مقدمة رثائه لبلنسية :

مابال دمعك لايني مدراره | ام مالقلبك لايقر قراره
اللوعة بين الضلوع لظاعن | سارت ركائبه وشطت داره
ام للزمان اتى بخطب فادح | من مثل حادثة خلت اعصاره
بحر من الاحزان عب عبابه | وارتج مابين الحشا زخاره
في كل قلب منه وجد عنده | اسف طويل ليس تخبوا ناره

ويقول الدقون في مطلع رثائه للاندلس :

امنت من عكس آمال واحوال | وعشت مابين اعمام واخوال
ولا ابتليت بما في القلب من نكد | فالجسم مشتغل من غير اشغال
وكيف لا وبقاع الدين خالية | من ارض اندلس من اجل اهوال

وهذه المقدمات اكثر مناسبة لاشعار الرثاء من المقدمات الطللية لانها ذات اتصال مباشر بنفس الشاعر واكثر ملائمة للارتباط بالموضوع الاصلي حيث لايظهر اثر الانتقال واضحا في القصيدة .

(٣) مقدمة شكوى الدهر، وذكر الحكمة والعبرة:

وفي هذه المقدمات يذكر الشعراء تقلب الدهر وتلونه، وفتكه بالامم العظيمة، الامر الذى يوجب التيقظ واخذ العبرة.

يقول عثمان القرشي في رثاء دولة بني امية:

من يأمن الدهر ممساه ومصبحه | في كل يوم له من معشر جزر
بعد ابن مروان اودى بعد مقدرة | دانت لهيبتها الامصار الكور
ثم الوليد فسل عنه منازله | بالشام والشام معسول له خضر
وفي سليمان آيات وموعظة | وفي هشام لاهل العقل معتبر

ويقول الخريمي في رثاء بغداد:

قالوا: ولم يلعب الزمان ببغـ | داد وتعثر بها عواثرها
اذ هي مثل العروس باطنها | مشوق للفتى وظاهرها
فلم يزل والزمان ذو غير | يقدح في ملكها اصاغرها

اما عمارة اليمني فيشكو الدهر شكوى العاجز لانه يرى ضرباته القاصمة التي لاينجو منها من وجهت اليه. يقول في رثاء الدولة الفاطمية:

رميت يادهر كف المجد بالشلل | وجيده بعد حسن الحَلْي بالعطل
سعيت في منهج الدهر العثور فان | قدرت من عثرات الدهر فاستقل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل | سقيت، مهلا اما تمشي على مهل

وفي رثاء حلب يقول ابن العديم:

هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم | وان رمت انصافا لديه فتظلم
اباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا | واصمت لدى فرسانها منه اسهم
وافنى بني ايوب مع كثر جمعهم | ومامنهم الامليك معظم
وملك بني العباس زال ولم يدع | لهم اثرا من بعدهم وهم هم

وعلى هذا النمط من تعداد الاقوام الذين اناخ عليهم الدهر منذ غابر الزمان ، قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء امارة بني الافطس والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر | فما البكاء على الاشباح والصور
انهاك انهاك لا آلوك موعظة | عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة | والبيض والسود مثل البيض والسمر

ثم يأخذ في ذكر الاشخاص المشهورين الذين مضوا في التاريخ من لدن الفرس واليونان الى ان يصل الى بني الافطس وانقضاء دولتهم بالاندلس في القرن الخامس الهجرى .

اما البحتري فيكشف عن علاقة العداء المستحكمة بين الدهر وذوى الشأن ، فهو مولع بتحطيمهم وا تعاسهم ، يقول :

صنت نفسي عما يدنس نفسي | وترفعت عن جدا كل جبس
وتماسكت حين زعزعني الدهـ | ـر التماسا منه لتعسي ونكسي
وكأن الزمان اصبح محمو | لا هواه مع الاخس الاخس

وممن سلك سبيل الحكمة في مقدمة رثائه الحصرى القيرواني في رثاء القيروان حيث يقول :

موت الكرام حياة في مواطنهم | فان هم اغتربوا ماتوا وما ماتوا

وهو يعبر عن تجربة صادقة ، فقد اضطر الى التشرد بعد خراب بلده وجاز الى الاندلس مادحا متكسبا . وتكثر مقدمات شكوى الدهر وفعله بالاقوام في الشعر الجاهلي ، كقول عدى بن زيد العبادى :

ايها الشامت المعير بالدهـ | ـر أأنت المبرأ الموفور
ام لديك العهد الوثيق من الـ | ـايام ام انت جاهل مغرور

اين كسرى كسرى الملوك ابو سـا ... سان ام اين قبله سابـور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الـر ... وم لم يبق منهم مذكـور

وهذا النوع من المقدمات يكسب القصيدة شيئا من الرزانة والوقار اذ ان الشاعر فيها يبدى تجلدا ويكظم المه، وحزنه عندما يتأسى بذكر حوادث الدهر الرهيبة في مختلف العصور .

(٤) مقدمة تقوم على التذكير بحتمية الموت :

يسلك الشاعر هذا السبيل في مقدمته عندما يكون الحادث هائـلا فيأخذ الشاعر الاسى والاسف حتى يذهل لفترة، ثم يتذكر نهاية كل حـي فيبدأ بذكره . يقول ابن الذئبة في رثاء دولة حمير :

لعمرك ماللفتى من مفـر ... مع الموت يلحقه والكبـر
لعمرك ماللفتى صحـرة ... لعمرك ما ان له من وزر
ابعد قبائل من حمـير ... اتوا ذا صباح بذات العبر
بالف الوف وحرابـة ... كمثل السماء قبيل المطـر

ويقول ابن اللبانة في رثاء امارة بني عباد في الاندلس :

لكن شيء من الاشياء ميقـات ... وللمنى من منائيهن غايـات
والدهر في صفة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات

ويقول ابو البقاء لرندى مفتتحا نونيته الشهيرة في رثاء الاندلس :

لكل شيء اذا ماتم نقصـان ... فلا يغر بطيب العيش انسـان
هي الامور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته ازمـان
وهذه الدار لاتبقي على احـد ... ولا يدوم على حال لها شـان

ولتأكيد حتمية الموت نرى بعض الشعراء يطلق لفظ الموت على المدينة المدمرة حين لاترجى عودتها ثانية . يقول السميسر في رثاء الزهراء :

وقفت بالزهراء مستعبرا ... معتبرا اندب اشتاتا
فقلت يازهرا الا فارجعي ... قالت وهل يرجع من ماتا ؟
فلم ازل ابكي وابكي بها ... هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى ... نوادب يندبن امواتا

ويقول ابن المعتز في رثاء سامراء :

قد اقفرت سر من را ... ومالشيء دوام
فالنقض يحمل منها ... كأنه آجام
ماتت كما مات فيل ... تسل منه العظام

والمجهول في رنده :

فياليت شعرى بعد ماصح موتها ... ايرجي على رغم العداة نشورها
ويامِلة الاسلام هل لك عودة ... لارجائها يشفي الصدور ورودها

هذه هي انواع المقدمات التي برزت فيما جمعته من شعر رثاء الدول والامصار، وهناك قصائد كثيرة اعتمد قائلوها الدخول المباشر في الموضوع، وهي من اصدق القصائد عاطفة تحس فيها حرارة الانفعال كلما قرأتها ، ومن امثلتها قول بعضهم في رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع، وحمى مباح ... وسيف قاطع، ودم صبيب

وقول ابن العسال في رثاء بربشتر :

ولقد رمانا المشركون بأسهم | لم تخط لكن شأنها الاصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها | لم يبق لا جبل ولا بطحاء
كم موضع غنموه لم يرحم به | طفل ولا شيخ ولا عذراء

او قول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس عند ما غربت شمسها :

احقا خبا من جو رندة نورها | وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد اظلمت ارجاؤها وتزلزلت | منازلها ذات العلا وقصورها
تسلمها حزب الصليب وقادها | وكانت شرودا لا يقاد نفورها

وغير هذا كثير . . . كقصائد ابن الابار في بلنسية، ورثاء اشبيلية وغير ذلك .

المبحث الثاني : الالفـــاظ

الكلمة عنصر رئيسي من عناصر البناء الشعري ، بل هي ركن ركين لكـل عمل ادبي . ومن هنا جاء الاحتفاء بها عند الادباء والنقاد . فالشاعـــر يحرص دائما على توفير الالفاظ التي تنسجم تمام الانسجام مع معانيه ، ولكنـــه لا يوفق في جميع الحالات . ذلك لانه ملتزم بلغة لابد له من الوقوف عنـــد قواعدها وحدودها ، وهذا الامر لا يبيح له ان يخترع اللفظ الذي يريـــده او يشتقه في كل حال . كما انه مرتبط باوزان وقواف تتطلب نوعا خاصا مـــن المعالجة . عندئذ لابد ان يعول الشاعر على معجمه اللغوي لانتخـــاب الالفاظ التي تناسب غرضه ، ثم يجتهد في توفير جو من الالفة والالتئام بـين هذه الالفاظ بحيث يسمح لها ان تشع اكبر قدر من المعاني الكلية المتداخلة بالاضافة الى شحنة من الصور والظلال والايقاعات الموحية التي تتناســـق مع الجو الشعوري الذي يريد ان يرسمه . وبهذا يستطيع الشاعر المبـدع ان ينتج من الكلمات العادية قطعا سحرية يعطيها من روحه قوة وحيوية حـــتى يجعلها تتسع لمشاعره وعواطفه واحاسيسه التي يريد نقلها الى السامعـــين . فالكلمات لها في ذاتها دلالات معينة ، فقد يكون للكلمة الواحدة من الفضل والمزية في موقع من مواقع الكلام ماليس للكلمة نفسها في موقع آخر ، والكلمة هـــي الكلمة ، والجرس هو الجرس ، والحروف هي الحروف(١) . فالكلمات اذن ليســت مجرد رموز للافكار والمعاني وانما هي كائنات حية يجري فيها الشاعر عملـــه فهي اشبه ماتكون بالالوان عند الرسامين ، على طبيعة اختيارها وتناسقهـــا يتوقف النجاح او الاخفاق .

وفي شعر رثاء الدول والامصار ـ الذي بين ايدينا ـ نلاحظ تركـــيز الشعراء على الالفاظ الموحية ذات الدلالة الشعورية ، والمعاني المكثفـــة

---

(١) انظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز : ٣٢ - ٣٥ .

المتشابكة ليستطيعوا تفريغ همومهم واحزانهم ونقلها الى السامعين اولتأكيد معنى من المعاني الرثائية وبلورته بصورة بعيدة عن الجفاف .

يقول الخريمي في رثاء بغداد :

قفراء خلاء تعوى الكلاب بها ... ينكر منها الرسوم زائرها
واصبح البؤس مايفارقها ... الفا لها والسرور هاجرها

فاختياره الموفق للالفاظ المتقاربة اشاع جوا من الشعور بالوحشة يجعل السامع يقف واجما مفكرا في العظمة المحطمة ، فهو ازاء طلل حزين مقفر اضحى مأوى للكلاب بعد ان كان قبل مدة قصيرة سريرا للملك . فالقفر والخلاء يكملان بعضهما في إعطاء معنى الخلو من كل انس بحيث يتصور السامع انه واقف ببيداء موعبة ، وليزيد الرعب قوة جعل الكلاب تعوى بها والعواء غير النباح الطبيعي ، ولا يفعله الكلب الاعند خوفه او الم ، ثم جاء بالطباق بين البؤس الملازم والسرور المفارق ليعمق معنى الوحشة بمزيد من السكون والصمت الرهيب .

اننا نلاحظ سيلا من المعاني يقفز الى الاذهان من جراء تناسق الاصوات ، ونلاحظ هذا - ايضا - جليا في رثاء البحترى للقصر الجعفرى حيث يقول :

ولم ار مثل القصر اذ ريع سربه ... واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل استاره وستائره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره

وفي وقوفه على ايوان كسرى كذلك :

فكأن الجرماز من عدم الانـ ... ـس واخلاله بنية رمس
لو تراه علمت ان الليالي ... جعلت فيه مأتما بعد عرس

وهو ينبيك عن عجائب قـــوم لايشاب البيان فيهم بلبـــس
يتضني من الكآبـة اذ يبـــ د ولعيني مصبح او ممســـى
مزعجا بالفراق عن انس الـــف عز او مرهقا بتطليق عـــرس

ففي الابيات الاولي نجد ان الصورةالتيبرزت من خلال تشابكالعلاقات بين الالفاظ وانسجامها قد انطبعت في ذهن السامع او القارىء بشكل حركة مضطربة مرتجفة تزيد من سرعة دقات القلب .

وقد تمكن البحتري من رسم هذه الصورة باستخدامه لمعجم الالفـــاظ البدوي الصحراوي ، فالسرب والاطلاء والجآذر ريعت وذعرت ، والقصر هنـــا بيت من الشَّعَر يصاح فيه بالرحيل علي سمت اهل البادية . وكلمتـــــا الروع والذعر تحمل معاني نفسية كبيرة للخوف والحيرة والتحفز ، فهذا الموقـف يشبه العقدة في القصة ثم تنحل هذه العقدة في البيت الثاني بالعبـــارة النابضة (صيح بالرحيل) اذ ان الرحيل هو الذي يعقب الحيرة والتحفـــز وبخاصة بالنسبة للاطلاء والجآذر التي لا حول لها ولاقوة .

ولفظ (صيح) بجرسه الرنان اعطي صورة نشطة للسرعة المصحوبـــة بالضجيج والاضطراب وهتك الاستار والستائر ، ولو استعمل جملة (نودي) مثلا بدل صيح لما ناسبت عبارة (علي عجل) التي في الشطر الثاني لما فيها من البطء اضافة الي عدم الانسجام الصوتي .

وبعد ان يغدو القصر خاويا خربا تهدأ الحركة ، فيأتي مجال الالفاظ العذبة الرقيقة لبيان ماكان يحويه ذلك القصر ايام سؤدده من العظائـــم كبشاشة الخلافة ، وزهرة الملك ، وبهاء الدنيا كلها . . .

والملاحظ ان هذه الالفاظ توحي - ايضا - بالهدوء والدعة ، فالطلاقـة والبشاشة ، البهاء ، والعيش الغض . . . . وذلك لتظهر المفارقة المحزنـــة من خلال حالة الرعب والاضطراب الراهنة وحالة الامن والرفاه السابقة .

ومثل هذا التناسق الصوتي الجميل نجده - ايضا - في الابيات السينية حيث صنع البحتري من الالفاظ العادية المألوفة صورة ناطقة للايوان ، وهـــذه

هي مهمة الشاعر العبقري ان يفجر ماهو مألوف لينتج منه جديدا ، وبذلك تجتمع له الاصالة والطرافة . فالايوان ضخم عظيم الصنعة ينبيء بعظمة الباني ، غير انه موحش ناطق بصمت المقابر . والشاعر هنا يحاول تجسيم هذا الصمت الكئيب من طريق الالفاظ الموحية بمعاني البؤس ، فيأتي بالطباق بين العرس والمأتم ، حيث تفتح هاتان اللفظتان للسامع آفاقا يتطلع من خلالها الى الانقلاب المريع الذى حصل للايوان فصبغه بكآبة المفارق للاحباب او النادم على تطليق عرسه . ولما كانت هذه الكآبة مستمرة استمرار الايام ومتجددة على الدوام جاء بالطباق الاخر " مصبّح او ممسّى " كما نلاحظ ان الشاعر استعمل كلمات : الفراق ، الازعاج ، الارهاق التي هي من خواص الاحياء ليلون الصورة بما يزيدها تأثيرا في النفوس .

واحيانا تأتي الفاظ الشاعر مشبعة بالدلالة النفسية ، وذلك عندما يكون هو نفسه قد غرق في لجة الحدث الفاجع ، حيث يتسرب شعوره الداخلي الى الفاظ قصيدته ، كقول ابن الرومي في وصف ماحل باهل البصرة على يد الزنج :

ووجوه قد رملتها دماء	بابي تلكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذل قسرا	بعد طول التبجيل والاعظام
فتراها تسفي الرياح عليها	جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات	باديات الثغور لا لابتسام

ان اختياره للوجوه ـ تلك الاجزاء العزيزة لبني الانسان ـ له دلالته النفسية لان الوجوه هي المواضع التي تظهر عليها مختلف الانفعالات ، والتي جاء الشاعر بطرف منها هاهنا . ومن ثم ينفذ ابن الرومي من خلال وصف الوجوه الى تكوين صورة عامة للاذلال والقهر .

فتلك الوجوه التي كانت موضعا للتبجيل والاعظام لطختها الدماء وامتزجت بها الرمال ، ووطئت بالهوان ، وكلمة وطئت جاءت متمكنة في موضعها فاشعت بكل مايخطر على البال من معاني الذل والارغام ، كما انها

ذات دلالة نفسية لدى الشاعر والمستمع، فهي قطعة من نفس الشاعر ومهما حاولت ان تستبدل بها كلمة اخرى فلن تجد ، واذا وجدت فلن يكون الوقع متماثلا . والمستمع او القارئ يدرك بذوقه وحسه مرامي هذه الكلمة ومدى تأثيرها ولكنه لايمكن ان يفرغ كل ما احاط به من معانيها اذا اراد التعبير عن احساسه بواسطة الكلمات . وكذلك بالنسبة لكلمة خاشعات وانسجامها مع باكيات وباديات فانها نبضة الم من قلب الشاعر الذى احس بالذلة والخسف نتيجة لتمثله تلك التجربة المريرة .

ويقول المجهول في رثاء طليطلة :

لقد خضعت رقاب كن غلبا	وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل	وسامح في الحريم فتى غيور
اديلت قاصرات الطرف كانت	مصونات مساكنها القصور
وكان بناءو بالقينات اولى	لو انضمت على الكل القبور
لقد سخنت بحالتهن عين	وكيف يصح مغلوب قرير

وهنا ـ ايضا ـ يريد الشاعر ان يبرز مقدار الذى الذى لحق بالناس من جراء سقوط مدينتهم بيد الكفار، فجاء بلفظ الخضوع الذى يحمل معنى الانحناء، والطاعة واسنده الى الرقاب التي كانت مشرئبة بالعز نافرة من الضيم فتقبلته وسلمت له امرها على الرغم من مقتها له ، وهنا تكمن دلالة كلمة الخضوع اذ ان اكراه الانسان على مالايحب او مالايطيق هو ابشع انواع الذل والقهر والتحطيم النفسي . . . وهكذا تستمر الابيات مصورة تهدم القمم الشامخة . فعزيز القوم يستمرئ الذل ، والفتى الكريم الغيور يغضي على انتهاك المحارم . ولاتخفى الدلالة النفسية لهذه الالفاظ، فهي تشف عن الالام والهموم العظيمة لتي تتلجلج في نفس الشاعر والتي لايتردد معها في تمني الموت ليهرب من جحيم شقائها .

وفي رثاء الاندلس بعد استكمال سقوطها يقول المجهول الاخر :

منازلها مصدورة وبطاحها — مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها — واحجارها مصدوعة وثغورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت — ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدى الاسي وجمادها — يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلو ان ذا الف من البين هالك — لذابت رواسيها وغاضت بحورها

وفي القصيدة نفسها يقول :

ترى للاسى اعلامها وهي خشع — ومنبرها مستعبد وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وامامها — وزائرها في مأتم ومزورها
لها حال نفس قد اصيب فؤادها — وبتت لها اليمني وحم ثبورها
فانفسها في الصعق دون افاقة — كنفس كليم الله اذ دك طورها
وقد رجفت وادى الاثى فبقاعها — سكارى وما استاكت بخمرثغورها

ان المتأمل لهذه الابيات يدرك ان قائلها قد التصق ببلاده التصاقا شديدا ، فقلبه متصدع لهوانها ، ونفسه منكسرة لذلها وضياعها ، ونلمس اثر ذلك جليا في تعاطفه مع الكلمات التي استعملها ، فقد جاءت رقيقة مفعمة برنين الاسي ، ومتشابكة الوشائج يجرى من خلالها سيل من المشاعروالمعاني فهذا الجرس الحزين للسجع الذى ينساب سليقة في البيتين الاولين يسمعنا زفرات المنازل والبطاح المصدورة ، وعويل المدن والثغور الموتورة والحجارة المصدوعة . والطباق الحاصل من لبس ثوب الحداد وخلع الملابس الزاهية وتمزيقها يجعل السامع يتيه في آفاق بعيدة من التفكير ليتصور المعاني التي رافقت هذا التحول الخطير الذى كادت ـ لروعته ـ تغيض البحار وتخر الجبال هدا . ثم نرى لسان الشاعر الحانية تمر على الصوامت فتبعث فيها الحياة ، ولكن بدون صخب ولا ضجيج :

ترى للاسى اعلامها وهي خشع ومنبرها مستعبد وسريرهـــا
ومأمومها ساهي الحجى وامامهـا وزائرها في مأتم ومزورهـــا

انه الخشوع والخضوع الذى يلف الاعلام الشامخة والمنبر المنيف ثـم المأتم الحزين الذى يلف الجميع في شرود مستعبر، فكلمة خشع اثارت في الذهن معني الوجوم والاستغراق في التفكير لاخذ العبرة والعظة.

ويقول اسامة بن منقذ في رثاء قومه حينما اهلكتهم الزلازل :

ذهبوا ذهاب الامس مامن مخبر عنهم، وزالوا كالظلال الزائل
وبقيت بعدهم حليف كآبـــة مستورة بتجمـل وتحامـل
سعدوا براحتهم وها انا بعدهم في شقوة تضني وهم داخـل

فاستعماله لعبارة (ذهاب الامس) ومناسبتها لزوال الظـلال اعطت المعني الذى يريده قوة وزخما حيويا . يقف السامع معه على صورة الاضمحلال التام الذى لاترجي بعده عودة، ولذا حق لنفس الشاعـر ان تحالف الكآبة والهم المستمر الذى يحاول اخفاءه بالصبر والتحمل. وجـاءت كلمة (مستورة) حسنة الموقع لمناسبتها للذهاب واليأس حيث لا فائدة مـن الاعلان والبوح .

ومن الالفاظ ذات الدلالة النفسية - ايضا - قول الغزولي في رثـاء دمشـق :

لهفي على وادى دمشق ولطفه وتبدل الغـزلان بالثـيران
وشكا الحريق فؤادها لمـا رأت نور المنازل ابدلت بدخـان
كانت معاصم نهرها فضيـة والان صرن كذائب العقيـان
ماذاك الاتركهم ولجت بهـا فتخضبت منها باحمر قـان
كزهت جداولها حوافر خيلهـم فتسابقت هربا كخيل رهـان

انه يريد ان يبين فظاعة الاعمال التي ارتكبها جنود التتار بحق المدينة واهلها فاظهر ذلك عن طريق تأثر الوادى والنهر والمنازل .... ففؤاد المدينة يشكو من حرارة اللهب ومرارة الدخان وماهذه الشكوى الا صدى لشكوى فؤاد الشاعر المشتعل الما وحزنا ، وهذه الجداول التي اشمأزت من حوافر خيل المغول ثم ولت هاربة بسرعة ، ماهي الا صورة للكراهية والخوف الكامنين في نفس الشاعر ونفوس الناس .

ويعبر ابن شرف القيرواني عن شعوره بالوحشة من ديار القيروان المقفرة بقوله :

كأن الديار الخاليات عرائس	كواسد قد ازرت بهن الضرائر
اذا اقبل الليل البهيم تمكنت	بها وحشة منها القلوب نوافر
ويمتد عمر الصوت فيها وربما	تجود مرارا بالكلام المقابر

فقد شبه الديار الزاهرة بعد تجردها من كل مظاهر الزينة والجمال بالعرائس اللواتي تهدم جمالهن لتبذلهن ولا همالهن الزينة بسبب كيد الضرائر لهن ، وكلمة العرائس هنا شفت عما كانت عليه ديار القيروان من الجمال والحضارة قبل خرابها . اما الان فالصورة صورة الصمت الموحش الذي يزداد وحشة عندما يوافي الليل بظلامه ، وفي وسط هذه الوحشة التي تروع اللب والقلب ليس هناك مايمكن ان يؤنس الا الكلام ، فاقفل الشاعر هذا الباب بعبارة (يمتد عمر الصوت) حيث لاصدى ولا جواب وبذلك تستكمل الوحشة حتى تفوق وحشة المقابر .

اما الحصرى القيرواني فيأتي بصورة جديدة لشعوره بالوحشة بعد خراب القيروان ايضا ، يقول :

ما ان سجا الليل الا زادني شجنا	فاتبعت زفراتي فيه انات
ولا تنفست انفا في الرياض ضحى	الا بدت حسراتي المستكنات

وكم دعيت لبستان فجدد لـــي | وجدا وان كان في معناه سلوات
ولو تراه اذا غنت بلابلــــــه | اشكو البلابل لو تغني الشكايات
اني لا ظمأ والانهــار جاريـــة | حولي واضحي ودون الشمس دوحات

انه هنا لايقف وسط ديار خالية، ولااطلال صامتة، وانما يتجول وسط الرياض والحدائق النضرة بين خرير الانهار وشدو البلابل، فهل استمتـــع بشيء من ذلك ؟ كلا لقد اثارت تلك المناظر اشجانه، فراح يمضغ آلامـــه ويطلق زفراته، وقد ادى تجانس الالفاظ وتلاؤمها دوره في تجميل الصـــورة وتناسقها، فالليل هو كهف الاحزان والهموم - كما هو معروف عند الشعراء- فقد اطلق فيه الحصري زفراته واناته، ولكن هذا الشجن هل ينقضـــــى مع انقضاء الليل ؟ لا انه مستمر متجدد، ولذلك جاء بوقت الضحى - الـــذى هو وقت النشاط والسرور - وفي الرياض ايضا، ومع ذلك زاد الزفرات حســرات وشكايات .

ومن الصور الجديدة في الرثاء استخدام عناصر الطبيعة واستغـــلال صفاتها وخصائصها، كقول ابن اللبانة في رثاء المعتمد بن عباد عنـــــد سقوط امارته :

بكاك الحيا والريح شقت جيوبها | عليك وناح الرعد باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى | حدادا وقامت انجم الجو افحما
وحار ابنك الاصباح وجدا فما اهتدى | وغار اخوك البحر غيضا فما طمى

لقد صنع الشاعر من الاشياء المحسوسة المألوفة لكل الناس - كالريـــح البرق، المطر، النجوم . . . . صورة بديعة جعلت الكون كله في مأتم لانقضاء ملك ابن عباد، فكيف تم له ذلك؟

والجواب انه احسن اختيار الكلمات التي تثير اصواتا متناسقةمتجانسة ووفر لها مجالا ملائما بمقدرته الشعرية وذكائه . فالريح تشق الجيوب، وشق الجيب لابد ان يرافقه نواح فجعل الرعد ينوح معلما باسم المرثي . واستعمال

صوت الرعد في النواح امر ابتدعه الشاعر ليوافق الشق ، والا فقعقعة الرعد تقترن عند الشعراء بالصواعق ، وتستخدم في مجال الحرب والقوة وما الى ذلك . ثم يستمر في اكمال صورة المأتم عن طريق سلب الخواص الايجابية للاشياء المستخدمة ، فالبرق يتمزق ثوبه الزاهي فيظلم ، والضحى المشرق والنجوم المشعة تفقد كل قدرة على الاشعاع . . . . والاصباح لايهدى السارين لما به من الوجد . . . . وهكذا .

ومثل هذه الصور المتعددة بالقصيدة الواحدة ، والالفاظ الشعرية الموحية بالمعاني المكثفة تكثر في شعر الاندلسيين بصفة خاصة وتستأثر بكبير عنايتهم مما جعل المستشرق غارسيه غوس يقول عنهم[1]: " . . . . وعاشوا اعمارهم مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ، ومن ثم لم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التغيير الاشياء تمس المعاني مثلهم في ذلك مثل اترابهم من المشارقة ، فحاولوا ان يعطوا هذه المعاني صورا جديدة عن طريق تقطيرها في انابيب بلاغية ، واوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية التي تشبه ان تكون قصورا حمراء لفظية . . . . ولم يكن هذا الشعر الاندلسي مترعا بالاخيلة فحسب ، بل كان مثقلا بها حمل منها فوق مايطيق ، بل بلغ من حشد المعاني فيه ان استعصى معظمه على الحفظ والبقاء وكاد يعسر على الفهم الكامل" .

ونحن لاننكر اهتمام شعراء الاندلس باللفظة الشعرية ، وكثرة الصور عندهم الى حد ما ، ولكن ذلك لم يكن الى الدرجة التي يصعب معها فهم القصائد وحفظها ، فالسهولة والوضوح يسمان الشعر الاندلسي ويغلبان عليه ، ونادرا ماتجد فيه مضامين فلسفية تحتاج الى كد ذهن . على ان هذا لايعني السطحية بحال . ولعل الذى دفع غومس الى رأيه ذاك هو طبيعة الشعر العربى ـ ومنه الاندلسي ـ الذى يهتم باستقلال البيت ووحدته ومن هنا كثرت الصور والمعاني وتجاورت في غير اندماج كامل .

---

(١) الشعر الاندلسي : ص٢٥ .

ويقول ابن اللبانة - ايضا - في بني عباد :

تبكي السماء بدمع رائح غادي ... على البهاليل من ابناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها ... وكانت الارض منهم ذات اوتاد
وكعبة كانت الامال تعمرها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ياضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويامؤمل واديهم ليسكنه ... خف القطين وجف الزرع بالوادي
ضلت سبيل الندى يا ابن السبيل فسر ... لغير قصد فما يهديك من هادي

وفي صورته هنا شبه كبير من سابقتها ، فهي صورة المجد الزائل والمآثر العظيمة التي افتقدت بزوال بني عباد من دنيا الناس . وقد جاء المطلع مناسبا للمقام لما فيه من الفخامة وقوة الجرس . فالسماء تبكي بدمع مدرار لا ينقطع . وقد تعمد الشاعر جعل السماء تبكي وتذرف الدمع ولم يجعلها تسح السوابل وتسقي الاثار ، وذلك لمناسبة لفظة البهاليل المجلجلة بالهالة العظيمة ، ثم يضيف الى البهاليل لفظة اخرى تزيدها قوة وهي لفظة الجبال .

ومن الجدير بالذكر ان وصف الميت بانه جبل قديم في الشعر العربي وبخاصة في شعر النساء لشعورهن بالضعف والحاجة الى الحماية.(١) ولكن ابن اللبانة لم يكتف بالسير على طريق السابقين ، وانما جاء بصورة جديدة اوسع واشمل في المعنى ، وذلك لحسن الموقع الذي اختاره لكلمة الجبال ومناسبته لما بعده . فاذا كان الشاعر القديم يصف مرثيه بالجبل لعلاقته الشخصية به فان شاعرنا جعل بني عباد جبالا حقيقية تثبت الارض وتمنعها ان تميد ، ولهذا جاء بعبارة (هدت قواعدها) لتوحي بعظم الخطب وشموله

---

(١) كقول فاطمة بنت الاحجم في رثاء زوجها :
قد كنت لي جبلا الوذ بظله ... فتركتني اضحى باجرد ضاح
انظر عبد البديع صقر ، شاعرات العرب ، ص ٢٩٦ .

لجميع الناس فذوو الامال لم يعد لهم امل يرجون تحققه ، والضيوف وابناء السبيل تفرقت بهم السبل ، واوحشتهم المنازل .

ولعلنا نلاحظ الفرق بين هذه الصورة والصورة التي رسمها ابن حمديس الصقلي باستخدام لفظ الجبال في رثاء ابن عباد ايضا ، يقول :

ولما رحلتم بالندى في اكفكم　　وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد اتت　　الا فانظروا هذي الجبال تسير

فالالفاظ هنا اقل اشعاعا وايحاء بمعاني النكبة ، واين قول ابن حمديس (قلقل) ، و(هذي الجبال تسير) من قول ابن اللبانة (على الجبال التي هدت قواعدها . . . .) ان كلمة (قلقل) لاتعطي معنى العنف والسحق الذي يستحقه موقف مثل هذا قامت فيه القيامة ، وعبارة (هذي الجبال تسير) لم تكن متمكنة في موقعها لان الشاعر جاء بها مضطرا ليكمل معنى الشطر الاول ، اذ لابد للقيامة من شاهد هو مسير الجبال .

واما قول ابي بكر بن عبد الصمد في الموضوع نفسه :

يا ايها القمر المنير اهكذا　　يمحى ضياء النير الوقاد
ماكان ظني قبل موتك ان ازر　　قبرا يضم شوامخ الاطواد

فقد استعمل لفظ الاطواد بدل الجبال لما فيه من معنى العلو والفخامة ليناسب الشموخ الذي ازدرده قبر ضيق ، الامر الذي لم يخطر على بال الشاعر لغرابته . ولعل المنعم للنظر في البيتين يجد تناسبا دقيقا وخفيا في معنى الرفعة والعلو جاء من قوله " القمر المنير" الذي فيه معنى العلو والضياء ، وذهاب نور القمر ناسب ضم القبر للاطواد الشوامخ .

وهو هنا يذكر القبر لان البيتين من قصيدة قيلت بعد موت ابن عباد اما قصائد ابن اللبانة وابن حمديس فقيلت عندما استولى المرابطون على الاندلس كلها ، وساقوا بني عباد وغيرهم اسارى الى المغرب .

واذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والاستصراخ نجد الشعراء يستعملون نوعين من الالفاظ : نوع تغلب عليه الفخامة وقوة الجرس عند ما يكون الموقف يتطلب بث الحماس والنخوة في نفس المستغاث به ، واشعاره بقدرته على النجدة ، ونوع آخر طابعه الرقة والسلاسة ، عند ما يقف الشاعر موقف الملهوف المستجدي للغوث من طريق تعداد الفواجع والمصائب النازلة ببلاده وقومه .

ومن النوع الاول قول ابن عياش :

اقيموا الى العلياء عوج الرواحل	وقود وا الى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر	وشد وا على الاعداء شدة صائل
فما العز الا ظهر اجرد سابح	تموت الصبا في شدة المتواصل
وابيض مأثور كأن فرنده	على الماء محبوك وليس بسائل
بجيش يظل الطير في حجراته	وتحجب عنه الشمس سحب القساطل
ويطلع ليل النقع فيه كواكبا	من البيض او من مرهفات المناصل
ويضحي به بحر الدماء مفجرا	باسمر عسال وابيض ناصل

فالسجع والتصريع في مطلع القصيدة مع افعال الامر : اقيموا ، قودوا قوموا ، شدوا . . . . ذات الاحرف الشديدة اشاعت حالة من الشعور بالقوة تجذب المخاطب جذبا وتدفعه الى الشد على الاعداء . وتستمر الموسيقى قوية والالفاظ فخمة ، للمحافظة على الحالة نفسها فيأتي الشاعر بلفظ (العز) الذي يشتمل على معان كثيرة ، ويجعله متمثلا في الحرب والجهاد . ويرسم من الالفاظ الحربية صورة متحركة نشطة لذلك العز ، فالاجرد السابح يطير سابقا الريح ، والفرند المحبوك ، والابيض الناصل والاسمر العسال تلمع في ليل من القتام وتهوي مفجرة بحور الدماء .

ويقول ابن حمديس في حث قومه على حرب الاعداء :

زبانية خلقوا للحروب | يشبون نيرانها بالوقود
مساعرهم مرهفات بنين | لهد الجماجم من عهد هود
هم المخرجون خبايا الجسوم | اذا ضربوا بخبايا الغمود
تخط حوافر من جرد هم | محاريب مبثوثة في الصعيد
تخر رؤوس العدى في الوغى | لها مسجدا ياله من سجود

والشاعر هنا لايستعمل اسلوب الحث المباشر كسابقه، وانما يلجأ الى اذكاء مشاعرهم والهابها عن طريق الوصف الموحي بالقوة، والخبرة والشجاعة، فهم زبانية حروب . وهذه اللفظة تحمل معنى الامتزاج ولهذا جاء بعدها بعبارة " خلقوا للحروب" التي يتبادر الى الذهن عند سماعها طائفة من معاني الاعتياد والممارسة وعدم الرهبة . . . الخ ولمناسبة كونهم زبانية جاء بلفظ مساعر، وجعلهن مرهفات تهد الجماجم لترتبط بلفظ الحروب، ولتكتمل صورة الممارسة والخبرة الحربية جاء بمظهر من مظاهر قوة الفرسان تلك هي الخيل الجرد التي تحفر الصعيد بحوافرها على شكل محاريب تسجد فيها رؤوس الاعداء . ولفظة محاريب اعطت لحوافر خيلهم صفة الصلابة والقوة التي تناسب الجو العام للابيات.

ومن النوع الثاني سينية ابن الابار في الاستنجاد بالامير الحفصي ومنها:

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا | ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست | فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مماتعانيه حشاشتها | فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
ياللجزيرة اضحى اهلها جزرا | للحادثات وامسى جدها تعسا
صل حبلها ايها المولى الرحيم فما | ابقى المراس لها حبلا ولا مرسا
واحيي ماطمست منها العداة كما | احييت من دعوة المهدى ماطمسا
هذى رسائلها تدعوك من كثب | وانت افضل مرجو لمن يئسا

فالشاعر هنا يقف فزعا مرعوبا امام الامير الحفصي ، ويحاول ان يثير عاطفته بالمثير المناسب، فلم يجد افضل من البداية بشرح الحالة الراهنة التي تستدعي علاجا فوريا ، فقال : (ادرك بخيلك) ، ثم جعل هذه الخيل هي خيل الله ليعطيها صفة الاستعداد للدفاع عن ارض المسلمين اينما كانت، ويتبع ذلك بقوله : (هب لها من عزيز النصر) ولفظ هب يوحي بقدرة الامير على منح النصر بسهولة. ثم تخفت الموسيقى بعد ذلك وترق الالفاظ لتناسب المجال الذي يحلق فيه الشاعر فنجد الكلمات : حاشاشتها ، البلوى ، جزرا للحادثات. . . . حيث نقف من خلال اشعاعاتها على المعاني الجزئية الكثيرة التي تتدافع لتكون صورة البلاء الشامل المستمر الذي لاينجلي الابنجدة الامير ، فيقول الشاعر في استعطاف وخضوع (صل حبلها ايها المولى الرحيم) والوصل فيه معنى المودة و العطف، ولايكون الا من قادر على ضعيف فناسب ان يخاطبه بلفظ المولى الرحيم.

واما لسان الدين بن الخطيب فيسلك مع المستغاث به سبيل المدح حين يقول :

قصدناك ياخير الملوك على النوى	لتنصفنا فما جنى عبدك الدهر
كفلنا بك الايام عن غلوائها	وقد رابنا منها التعسف والكبر
ولما اتينا البحر يرهب موجه	ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر
ووصفك يهدى المدح قصد ثوابه	اذا ضل في اوصاف من دونك الشعر

فالابيات كلها مدح ،ولعل ابن الخطيب وجد ان المدح هو الطريق الامثل لهز اريحية ذلك الملك ، فجعله صورة متكاملة للعظمة ، فلعزته القى الدهر بالقياد ، وهذه صورة جديدة للدهر ، ففيما مر بنا من شعر رأينا الدهر هو المتسلط الذي يسدك عروش جبابرة الملوك ، اما هنا فهو عبد يقتص منه سيده انصافا لمن ظلمهم ، وقد مهد الشاعر لهذه الصورة بانتقاء الفاظ الشطر الاول ، فقوله (قصدناك ، على النوى) يدل على اصطفائه

لذلك الملك من بين ملوك الدنيا على الرغم من بعده ، ثم يستمر في بسط الاوصاف التي ليست في مقدور البشر كقوله : (كففنا بك الايام . . . .) ، (ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر . . .) (ووصفك يهدى المدح . . .) وهو يريد من ذلك افراد هذا الملك بصفات لا يستطيع احد بلوغها ، ومن ثم فلا قوة تقف في طريقه ، فهو اذن خير منجد للمستغيثين وذلك هو مطلب الشاعر .

المبحث الثالث: الاوزان والقوافي

الموسيقى الشعرية عصب حيوى في بناء اسلوب القصيدة العربية، وتلاحم اجزائه، فهي تمتزج بالالفاظ امتزاجا يصعب معه الفصل بينهما، ومن حقهما ان يدرسا معا، ولكنا فصلنا بينهما هنا لامر تقتضيه الدراسة التفصيلية فحسب. والدارس للشعر العربى يدرك قيمة الجرس الناتج عن وقع اللفظة في الاذن وكيف يزيد موسيقى القصيدة جمالا وقوة. ومن هنا جاءت عناية الشعراء ببعض المحسنات البديعية كالجناس والمقابلة ورد العجز على الصدر اكثر من غيرها، وذلك لما فيها من رنة موسيقية ذات تأثير حسن وبخاصة اذا جاءت عفوية. فما الجناس الا تفنن في طرق ترديد الاصوات في الكلام حتى يكون له نغم موسيقى تستلذه الاسماع، اما المقابلة فلها دورها في شد اواصر التناسق الموسيقى حينما تعمل على توازن كل لفظ مع اللفظ المقابل له في العبارة التالية. وكذلك في رد العجز على الصدر الذى يقوم على ترديد كلمة او كلمات بعينها في صدر البيت وعجزه. فانه بالاضافة الى اظهار العناية بالكلمة المكررة لفظا ومعنى يزيد من رنة الاوزان. كقول ابن الابار:

صل حبلها ايها المولى الرحيم فما   أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا

فترديد كلمة (حبل) في الشطرين زاد نغمة البيت، ومهد للقافية (مرسا) التي هي بمعنى الحبل ايضا.

وقول ابن شهيد:

مافي الطلول من الاحبة مخبر   فمن الذى عن حالها نستخبر

وغير ذلك كثير. واحيانا يستعين الشاعر بتكرار بعض الحروف، أو الكلمات التي تكسب البيت لونا من الموسيقى تستريح له النفس وتقبل عليه

كتكرر حرف السين في شطر بيت البحتري ـ مثلا . " صنت نفسي عما يدنس نفسي . . . ." فانه رغم كثرة وروده قد حسن موسيقى الشطر لكونه وقع في مواضع موفقة منه من غير تعمد من الشاعر اوان النظم .

وفي الغالب يتحقق نجاح الشاعر عندما يوفق لبحر يلائم معانيه والفاظه ، لانه قد حصل بذلك تكامل بين اجزاء القصيدة الرئيسية. فالى اي مدى تحقق هذا التكامل في شعر رثاء الدول والامصار ؟ انه من الاستعراض الشامل لاوزان القصائد والمقطوعات الرثائية التي وردت في هذا البحث، تبين ان اكثر البحور التي ركبها شعراء المراثي كانت من ذات الاوزان الطويلة، والتفاعيل الكثيرة كالبحر الطويل(١) والبسيط(٢) وغيرهما ، فقد جاءت على البحر الطويل اربع وعشرون قصيدة، وعلى البسيط ثلاث وعشرون ، وهذان البحران من دائرة عروضية واحدة(٣) .

ويليهما في نسبة الشيوع البحر الكامل(٤) ، والوافر(٥) ، فعلى الكامل جاءت ثماني عشرة قصيدة وعلى الوافر سبع قصائد ، وهما ايضا من دائرة عروضية واحدة . ثم بعد ذلك تتفرق القصائد على عدد من البحور كالخفيف(٦) والمتقارب(٧) والرجز(٨) والسريع(٩) . . . بنسب متفاوتة ولكنها اقل عددا مما تقدم

---

(١) وزن البحر الطويل :
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن　　　فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

(٢) وزن البحر البسيط :
مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن　　　مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد : ٣/١٦٣ ، عبد العزيز عتيق ، علم العروض والقافية : ٢٦

(٤) وزنه : متفاعلن متفاعلن متفاعلن　　　متفاعلن متفاعلن متفاعلن

(٥) وزنه : مفاعلتن مفاعلتن فعولن　　　مفاعلتن مفاعلتن فعولن

(٦) وزنه : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن　　　فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
وجاءت عليه تسع قصائد .

(٧) وزنه : فعولن فعولن فعولن فعولن　　　فعولن فعولن فعولن فعولن
وجاءت عليه اربع قصائد .

(٨) وزنه : مستفعلن مستفعلن مستفعلن　　　مستفعلن مستفعلن مستفعلن
وعليه خمس قصائد .

(٩) وزنه : مستفعلن مستفعلن فاعلن　　　مستفعلن مستفعلن فاعلن
وعليه ثلاث قصائد .

ولم تستخدم مجزوءات البحور الا على نطاق ضيق جدا حيث جاءت عليها مقطوعتان فقط الاولى من مجزوء الرمل[1] ، والثانية من مجزوء البسيط[2] .

وامام هذه الظاهرة لابد ان نتساءل ، هل يمكن ان توجد علاقة بين انفعالات الشاعر النفسية ووزن قصيدته ؟

ان نظرة فاحصة للحالة التي يكون فيها الشاعر تكشف عن وجود مثل هذه العلاقة ، فالشاعر الذي يشهد مدينته وهي تتحطم وتنهار على ايدي الاعداء ، تتحطم في نفسه كل الامال ، وتسود الحياة في عينيه ، ويصبح عيشه في دوامة مضطربة من الهم والحزن والالم . ولهذا فهو بحاجة الى وزن طويل يتسع لما في صدره من انات و زفرات يود اطلاقها ليشفي نفسه من احراقها فيأتي شعره من البحر الطويل او البسيط الذي يمكنه مع انشادها التأوه واعادة النفس بعد كل بيت او في وسطه . كقول المعتمد بن عباد من الطويل :

غريب بارض المغربين اسير   سيبكي عليه منبر وسرير

اننا نتصوره هنا وقد جلس مكتئبا ينظر في حاله ، فاذا هو غريب اسير وتمتد به الذكرى فيرى منبره وسريره يبكيانه في صفار يائس . وهنا لابد ان تكون حالته هذه ، وذكراه تلك قد ولدتا في نفسه سلسلة طويلة من الهموم والاحزان لايحتملها البحر الطويل ، ومن هنا جاء نجاح القصيدة وقوة تأثيرها .

وقوله ايضا من البحر نفسه :

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي   سوارح لاسجن يعوق ولا كبل

---

(١) وزنه : فاعلاتن فاعلاتن   فاعلاتن فاعلاتن

(٢) وزنه : مستفعلن فاعلن مستفعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن

فهو يبكي من هول سجنه وقيده عند ما اثار شجنه سرب من القطا طليق يمرح في الفضاء الرحب . فالمفارقة الكبيرة الحاصلة من الموقفين شحنت نفسه بآلام محرقة قذفها في البحر الطويل ايضا .

واما الوراق عند ما يقول :

من ذا اصابك يابغداد بالعين　　　الم تكوني زمانا قرة العين

فهو في حالة ذهول وتعجب مصحوبين بالاحزان السوداء لما اصاب بغداد من الخراب بعد ان كانت "قرة العين" زمنا طويلا ، وعبارة قرة العين تحمل معاني كثيرة عند تدقيق النظر فيها . ولهذا اجاء البحر البسيط لتحمل عليه هذه المعاني بكل ماتثيره من انفعالات هادئة .

ويزيد الدكتور ابراهيم انيس الامر تفصيلا بقوله[(١)]: " .... اننا نستطيع ونحن مطمئنون ان نقرر ان الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من اشجانه ماينفس عنه حزنه وجزعه ، فاذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية ، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم ساعة الهلع والفزع لايكون عادة الا في صورة مقطوعة قصيرة لاتكاد تزيد ابياتها عن عشرة . اما تلك المراثي الطويلة فاغلب الظن انها نظمت بعد ان هدأت ثورة الفزع ، واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر" .

ثم يشير الى ان الانفعال النفسي الحاد الذى يصاحب الشعر الداعي الى شن حرب لايمكن الشاعر من الاسترسال واطالة القصيدة[(٢)].

واول مايلفت النظر في كلام الدكتور انيس انه يقرر ان الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع .... الخ فهل الشاعر هو الذى يختار البحر قبل ان ينظم ؟ ثم يختار المعاني والالفاظ المناسبة

---

(١) موسيقى الشعر : ١٧٨ .
(٢) المرجع نفسه : ١٧٩ .

اختيارا ؟ في نظري ان هذا الاختيار هو عمل المتكلفين من الشعراء، امـــا الشعراء المطبوعون ذوو التجربة الصادقة فان الانفعال يقذف مايجيش فـــي صدورهم على السنتهم بشكل كلام موزون على احد بحور الشعر . وللشاعـــر بعد ذلك ان ينقح ويصحح ويستبدل بالالفاظ غيرها كما يشاء اما البحرفيبقى وزنه كما ولد .

وقوله بان الاوزان الطويلة تناسب النفس الهادئة اليائسة ينطبق علـــى كثير من قصائد الرثاء التي نحن بصددها واما مايقرره بان الشعر الـــذى يتأثر بالانفعال النفسي يتطلب بحرا قصيرا ، وان الفظم حينئذ لايكون الاعلى شكل مقطوعة قصيرة فهذا لم ينطبق تماما على المواقف الشعرية الانفعالية فـي القصائد التي وقفنا عليها . فهذا ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عبـــاد المنقطع اليه ، يشهد عن كثب سقوط دولة سيده الذى احبه حبا جمـــا ويبلغ الانفعال عنده ذروته وهو يقف مع الواقفين على شاطئ النهر ينظـــر بعين منكسرة الى ملكه الذى القى في السفينة اسيرا مكبلا ، وفى ذلك قـــال قصيدته التي مطلعها :

تبكي السماء بدمع رائح غـــادى   على البهاليل من ابناء عبـــاد

وهي من البحر البسيط ذى التفعيلات الثمان ، وقد نيفت علـــى الخمسين بيتا ، وكذلك قصيدة ابن الابار السينية التي قالها امام الامـــير الحفصي والرعب ملء جوانحه وفرائصه ترعد من هول ماتعانيه مدينته بلنسيـة على يد الصليبيين ومع ذلك جاءت القصيدة من بحر البسيط وقد بلغت اكثـــر من سبعين بيتا ومطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسـا   ان السبيل الى منجاتها درسا

وقصيدة لسان الدين بن الخطيب التي انشدها مستنجدا باهـــل المغرب عندما اشتد الحصار النصراني لما تبقى من الاندلس في اواخرايامهـا والتي بدأها بقوله :

اخواننا لاتنسوا الفضل والعطفا   فقد كاد نور الله بالكفر ان يطفا

وهي من بحر الطويل وابياتها تزيد على الثلاثين ، وكان ابن الخطيب في ذلك الوقت وزير الاندلس المشار اليه ، وممن تمسه النكبة مسا مباشرا وقصيدة ابن الابار وابن الخطيب ـ كما هو ملاحظ ـ فيها دعوة ملحة لشن الحرب على الاعداء ، ومع ذلك اصطبغتا بطول النفس والامتداد . ولعل سبب ذلك ان النفس حينما تنفعل تجيش بمعان وصور كثيرة تتدافع متدفقة لتمد الشاعر بقوة الاستمرار والاندفاع ، ولربما نظم الشاعر قصيدة طويلة قبل ان يهدأ ذلك الجيشان وينضب فيضه .

وكأني بالدكتور انيس قد احس بعدم شمول قواعده المتقدمة فعقب على عباراته السابقة بقوله (1) :

" ويحسن بعد كل هذا الا نفرض قواعد معينة يلتزمها الشاعر في تخير وزن من الاوزان تحت تأثير عاطفة خاصة ، وعلى ناقد الادب ان يبحث هذا بحثا مستقلا في كل قصيدة . . . . " .

على انه من الانصاف ان نشير هنا الى المقطوعتين اللتين سبق ذكرهما فقد انطبقت عليهما تقريبا قاعدة الدكتور انيس من حيث الوزن وعدد الابيات . فالاولى للوراق الشاعر البغدادي الذي شهد بغداد وهي تحترق في فتنة الامين والمأمون ، ورأى الناس يقتلون بعشوائية همجية فيقف صارخا في رماة المنجنيق بانفعال عنيف :

يارماة المنجنيق   كلكم غير شفيق
ماتبالون صديقا   كان او غير صديق
ويلكم تدرون ماتر   مون مرار الطريق

---

(1) المرجع نفسه : ٢٨٠ .

والمقطوعة لم تتجاوز ثلاث ةابيات وهي من مجزوء الرمل ، ونحس فيهـــا فعلا حدة التعنيف الذي تزداد معه ضربات القلب .

والمقطوعة الثانية لفتى من فتيان بغداد ـ ايضا ـ هاله ان يرى سفلـة الناس واوباشهم يملكون زمام الامور ، فيفرضون الضرائب ويهجمون علـى البيوت الآمنة لسلب كل مايقع تحت ايديهم من مال ومتاع، وكان احد زعمــاء تلك الفئة يعرف بـالهرش وجامع الضرائب يعرف بزريح وفيهما وفي اعمالهمـا التي ارغمت الناس على الهرب من اوطانهم متعللين بشتى الاعذار يقـول شاعرنا :

اظهروا الحج وماينوونـه	بل من الهرش يريد ون الهـرب
كم اناس اصبحوا في غبطـة	وكل الهرش عليهم بالعطـب
كل من راد زريح بيتـه	لقي الذل ، ووافاه الحـرب

وهي ايضا ثلاثة ابيات، ومن مجزوء البسط . ولاشك ان الشاعر يصدر عن انفعال قوي وحقيقي ،اذ انه واحد من اولئك الناس الذين حل بهم البلاء واجبروا على دفع المغارم دون ذنب او جريرة.

اما بالنسبة للقوافي فليس ثمة نظام معين في استخدامها ، فقـد استعملت معظم حروف الهجاء غير انه من الملاحظ اكثار الشعراء من استخدام القافية المكسورة، مع تعدد احرف الروي ، كالقاف والراء والسين والنون . . . الخ وقد بلغ عدد القصائد ذات الروي المكسور سبعا واربعين قصيدة ويلـي ذلك الروي المصحوب بالف الاطلاق حيث استعمل خمس عشرة مرة اما الـروي المضموم فاستخدم مايقرب من اربع وعشرين مرة، وابتعد الشعراء عن القوافـي الساكنة الا قليلا ، لانها توحي بالجفاف والصمت الذي لايوافق حال الشاعـر المتفجع .

---

(١) بلغ عدد القوافي الساكنة اربع قواف .

ولعل تفضيل الشعراء للكسر راجع الى الانكسار الذى اصاب انفسهم من جراء الحوادث التي عاشوها وتمثلوها ، لان الكسرة عندما تأخذ امتداد حرف الروي تلطفه وتجعله مستساغا ، ولو كان في طبيعته شيء من الثقل كحرف القاف مثلا[1] . اضف الى ذلك ان الصوت الناتج من اشباع الكسرة فيه معنى الانين والتفجع الذى يلائم موضوع الرثاء .

اما الف الاطلاق فانها تعين الشاعر على مد صوته صارخا مستغيثا او باكيا منفعلا يحاول تعميم مايشعر به من حزن والم على جميع من يسمعه .

---

(١) كقول الشاعر :

بكيت دما على بغداد لما   فقدت غضارة العيش الانيق

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين

يكثر شعراء رثاء الدول والامصار من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما يهتمون بتضمين الابيات الشعرية والحوادث التاريخية وتبرز هذه الالوان في شعر الاندلسيين بروزا يفوق شعر المشرق بكثير وذلك راجع لسببين فيما اعتقد :

اولهما : ان قرب الاندلس من العدو، واستمرار الجهاد فيها ساعد على بروز الناحية الدينية في شعرهم، فطفق الشعراء يحضون على الجهاد ويؤلفون القلوب، ويحذرون من التفريط في بلاد الاسلام، مستمدين ذلك من آيات القرآن واحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وثانيهما : ان اسلوب الشعر الاندلسي او الادب الاندلسي بعامة كان يقوم على كثرة الاقتباس والتضمين ، والغوص في التراث التاريخي الاسلامي وغير الاسلامي للاستفادة من احداثه الحقيقية والخيالية حينما يناسب مجال القول . كما كان الاحتفاء بالابيات الشعرية المشرقية والقصائد الذائعة احد مقومات ذلك الاسلوب، ومن هنا كثرت المعارضات الشعرية، واشتهر تخميس القصائد المشهورة وشرحها وما الى ذلك . وقد كان النقاد الاندلسيون يحكمون بالجودة والسبق للاعمال الادبية التي تحفل بالشيء الكثير من تلك الالوان لانها تكشف عن ابعاد ثقافة الاديب في مجالات متعددة، وكأن النظرة هنالك كانت للاديب لا للادب نفسه. وخير مايمثل ذلك قصيدتا ابن عبدون وابي البقاء الرندى ورسالتا ابن زيدون الجدية والهزيلة . فاذا كان هذا هو حال الادب بصفة عامة، فما بالك بالشاعر الذى يرثي بلاده المقهورة الغاربة، ويبكي امته المتشردة الهالكة او يقف امام الملوك والسلاطين طالبا عونهم ونجدتهم . لاشك انه سينثر كل مافي كنانته من ثقافة اسلامية وتاريخية وشعرية ليظفر بالتأثير المنشود ، واى تأثير هو اشد من تأثير القرآن الكريم على النفوس المسلمة، ولهذا نجد الشاعر الاندلسي يستعمل التعبير القرآني ، ويستوحي معانيه على وجوه مختلفة :

ففي حالة الاعتبار من تقلب الدهر يقول الشاعر الدقون :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنا ... فالدهر ذو دول فاسمع لامثال
والزهد في هذه الدنيا وزخرفها ... والامر بالعرف مع تحسين مقوال

فهو هنا يخاطب اهل مدينة فاس، بعد ان وصل اليها الاندلسيون لاجئين ، حين تم سقوط الاندلس، داعيا اياهم الى الاحسان لهولاء المشردين ، فلا يجد افضل من التذكير بمصائب الايام التي لا يؤمن جانبها وهو بذلك يستوحي قوله تعالى[1] :

(ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين) .

وقوله تعالى[2] :

(وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون) .

واما البيت الثاني الذي يدعو فيه لالانة الجانب والسماحة، وطيب الكلام فمأخذو من قوله تعالى[3] :

(خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) .

وعندما يعتبر الشاعر ايضا بفناء الاشياء العظيمة يلجأ الى القرآن الذي فيه خبر من قبله ، فيجد بغيته .

يقول حازم القرطاجني :

قد اهلك الاحبوش طير قد رمى ... جيوشهم بمكة بما رمى
وهدّ قدما هدهد بنبأ ... ماكان هدهاد لبلقيس ابتني

وهو هنا يشير الى قدرة الله المطلقة على فعل مايشاء، فهو سبحانه

---

(١) سورة آل عمران ، الاية : ١٤٠
(٢) سورة العنكبوت، الاية : ٤٣
(٣) سورة الاعراف، الاية : ١٩٩

يسلط على الجبابرة المتغطرسين عذابا مهلكا بواسطة اضعف جنده كقصة ابرهة الحبشي الذى اراد غزو الكعبة معتزا بجيشه وقوته فرماه الله بطير تقذفه بحجارة صغيرة حتى تمزق ذلك الجيش وباء بالخسران .

يقول تعالى[1] : (الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل . الم يجعل كيدهم في تضليل . وارسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) .

وفي البيت الثاني يشير الى قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس، وكيف استطاع الهدهد - بامر الله - ان يكون سببا في تدمير مملكة بلقيس على ضخامتها وعظم بنائها[2].

واحيانا يحاول الشاعر طرد اليأس من نفسه ونفوس السامعين ، ويأخذ في بث شيء من الامل في النصر والرجوع الى الوطن الذى اخرج منه فيجد في الايات الطريق الذى يجب اتباعه لمن اراد تحقيق ذلك . يقول الشاعر المجهول :

يمين هدى ان تتقوا الله تنصروا   وتحظوا بامال يشوق غريرها
فلا يخذل الرب المهيمن امة   تدين بدين الحق وهو نصيرها

فقوله مستوحي من قوله تعالى[3] : (يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) . ومن قوله تعالى[4] : (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

ويقول لسان الدين ابن الخطيب :

رويدك بعد العسر يسران ابشرى   بانجاز وعد الله قد ذهب العسر

---

(١) سورة الفيل .
(٢) انظر سورة النمل : الايات : ٢٠ - ٤٤
(٣) سورة محمد ، الاية : ٧
(٤) سورة النحل ، الاية : ١٢٨

وهو مستمد من قوله تعالى[(١)] : (فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا) واحتذاء لقول عمر - رضى الله عنه -[(٢)] : " . . . . انه لن يغلب عسر يسرين " .

ويحاول الحصرى القيرواني من خلال رثائه للقيروان ان يدافع يأسه ببيان تغير احوال الدنيا ، فليس بمحال اذن ان ترجع بلده القيروان الى عهدها السابق من العز والحضارة ، يقول :

ولم يزل قابض الدنيا وباسطها   فيما يشاء له محو واثبات

وهو يستضيء بقول الله تعالى[(٣)] : (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) .

ويستمد الشعراء - ايضا - من القرآن الكريم معاني مؤثرة عندما يصفون ماحل بالناس من حولهم من بلاء ، وحينما يصفون خراب المدن وافعال الاعداء بها ، يقول الخريمي عن اهل بغداد :

كأنما اصبحت بساحتهم   عاد وستهم صراصرها

فاي صورة للاهلاك الشامل ابلغ من تصوير القرآن لمصرع عاد الذى يحتذيه الشاعر هنا . يقول تعالى[(٤)] : (واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القدم فيها صرعى كأنهم اعجار نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية) .

ويقول ابن شرف القيرواني في وصف حالة اهل القيروان وما لاقوه من العذاب الحسي والنفسي :

---

(١) سورة الانشراح ، الاية : ٥ ، ٦

(٢) الامام مالك ، الموطأ ، كتاب الجهاد : ٢ / ٤٤٦ .

(٣) سورة الرعد ، الاية : ٢٩

(٤) سورة الحاقه ، الاية : ٦ - ٨

بعد يوم كأنما حشر الخلـــــق حفاة به عوارى رجلـــــي
ولهم زحمة هنالك تحكـــــي زحمة الحشروالصحائف تتلى
وعجيج وضجة كضجيـــــج الـ خلق يبكون والسرائر تبلـــى

وهو يستمد في وصفه هذا من وصف القرآن الكريم والحديث الشريف لاهوال يوم القيامة حيث الموقف الرهيب في المحشر وتطاير صحف الاعمال وغير ذلك . يقول تعالى[1] : (يوم تبلى السرائر) . ويقول -ايضا[2]- : (واذا الصحف نشرت) ويقول الرسول -صلى الله عليه وسلم[3]-:" يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا[4] . . . . الحديث" .

وفي وصف الاعداء وغدرهم يقول ابن رشيق القيرواني :

نقضوا العهود المبرمات واخفروا ذمم الاله ولم يفوا بضمان

فالغدر ونقض العهد واخفار الذمم من صفات الكافرين التي بينها القرآن الكريم بقوله[5] : (كيف وان يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم الا[6] ولا ذمة يرضونكم بافواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون) . وبقوله تعالى[7] : (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لايتقون) .

ويقول ابن العسال :

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها في كل يوم غارة شعـــواء

---

(١) سورة الطارق ، الاية : ٩
(٢) سورة التكوير ، الاية : ١٠
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق : ٩٢/٨ .
(٤) غرلا : غير مختونين . اللسان (غرل) .
(٥) سورة التوبة ، الاية : ٨
(٦) الال : العهد والقرابة . الصحاح (ألل) .
(٧) سورة الانفال ، الاية : ٥٥ - ٥٦

وعبارة "جاسوا خلال ديارهم" هي عبارة قرآنية وردت في قوله تعالى[١] (فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) .

وهي تحمل معنى شاملا للقهر والتدمير لا يتأتى لغيرها .

ويقول الشاعر الاندلسي المجهول في وصف حالة المدن الاندلسية التي استباحها العدو :

فانفسها في الصعق دون افاقة　　　كنفس كليم الله اذ دك طورها

فهو يستأنس هنا بقصة سيدنا موسى - عليه السلام - حينما ذهب لميقات ربه والتي اوردها القرآن الكريم يقول تعالى[٢] : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين) .

وكلمة الصعق توحي بعظم الخطب وجلال الموقف الذى لا تحتمله النفس، واذا كان موسى - عليه السلام - قد افاق من صعقته فان الشاعر جعل لتلك المدن المنكوبة انفسا لا تفيق ابدا .

اما شاعر طليطلة المجهول - ايضا - فيقول في وصف الهزيمة النفسية والخور الذى اصاب الناس :

ونلقى واحدا ويفر جمع　　　كما عن قانص فرت حمير

وهو ينظر في هذا الى قوله تعالى في وصف الكافرين[٣] : (فمالهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة[٤]) .

---

(١) سورة الاسراء، الاية : ٥
(٢) سورة الاعراف، الاية : ١٤٣
(٣) سورة المدثر، الاية : ٥١
(٤) القسورة : الاسد ، او الماهر من الصيادين . الصحاح (قسر) .

وفي مواقف الاستغاثة والحث على الجهاد يبرز عند الشعراء الاهتمام بسور القتال كسورة التوبة وسورة محمد - عليه الصلاة والسلام - حيث فيهما التفاصيل الكثيرة عن الجهاد واحكامه مما يتيح المجال للشاعر ليبدئ في تلك المعاني ويعيد اذ هو في موقف يحتاج معه الى كل مؤثر يمس القلوب ويثير المشاعر . يقول ابن سهل الاندلسي :

ان الاله قد اشترى ارواحكم　　　بيعوا ، ويهنكم ثواب المشترى

والبيت فيه حض شديد على الاقدام ، والموت في سبيل الله طلبا لما اعده - تعالى - من التكريم للشهيد في جنات النعيم . يقول سبحانه[1]: (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

ويقول ابن الابار للامير الحفصي :

طهر بلادك منهم انهم نجس　　　ولا طهارة مالم تغسل النجسا

والبيت يشتمل على التعبير القرآني الذى يصف المشركين بانهم نجس بكل ماتحمله هذه الكلمة من معاني النجاسة الحسية والمعنوية . يقول تعالى[2] : (يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم) . والشاعر عندما يصف الاعداء بانهم نجس يبعث في نفس الامير حماسة قوية للاسراع في ازالة هذا النجس الذى ماخالط شيئا الا افسده .

اما شاعر طليطلة فيدعو بالحاح الى الحرب ونبذ السلم لان الحرب وحدها هي الكفيلة برد الحقوق الى اصحابها . يقول :

---

(١) سورة التوبة ، الاية : ١١١
(٢) سورة التوبة ، الاية : ٢٨

ولا تجنح الى سلم وحارب   عسى ان يجبر العظم الكسير

والبيت مستمد من قوله تعالى[١] : (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم[٢] اعمالكم) . ونلاحظ ان الاية التي يعتضد بها الشاعر تؤيد موقفه اشد التأييد فهي تسمى الدعوة الى السلم في الوقت الذي يحتاج الى الشدة مهانة ، والشاعر كان في موقف ليس له علاج الا الحرب فقد سقطت طليطلة ومسخ النصارى كل معالمها الاسلامية واتخذوها عاصمة فأى سلم يمكن ان يعيد تلك المدينة الى حيز الاسلام ؟ ؟

ويخاطب ابن المرابط سلطانه مذكرا له بان يتزود بالاعمال الصالحة في هذه الحياة لانه مقبل على سفر طويل يحتاج الى زاد وافر . يقول :

او ماعلمت بانه لابد من   زاد لكل مسافر فتزود

سفر عليك طويل ايامه   لم تستعد لطوله فاستعدد

وهو متأثر بقوله تعالى[٣] : (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يااولي الالباب) .

ثم يبين من اين يكتسب هذا الزاد بقوله :

هذا الجهاد رئيس اعمال التقى   خذ منه زادك لارتحالك تسعد

فالجار كان بهيوصي المصطفى   جبريل حقا في الصحيح المسند

والبيت الاول مستمد من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يرويه معاذ بن جبل رضى الله عنه - ومنه[٤] : (. . . قال الا اخبرك برأس الامر كله وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يارسول الله ، قال : رأس الامر

---

(١) سورة محمد ، الاية : ٣٥

(٢) يتركم : ينقصكم . الصحاح (وتر) .

(٣) سورة البقرة ، الاية : ١٩٧

(٤) الجامع الصحيح ، كتاب الايمان : ١٢/٥ ، احمد بن حنبل ، المسند : ٢٣١/٥ .

الاسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد . . . . الحديث) . رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وذروة سنامه اعلى شيء فيه ومن هنا قال الشاعر عنه : رئيس اعمال التقى .

اما البيت الثاني فمستلهم من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : (مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه) .

ولقد استغل الشاعر مجاورة الاندلسيين لاهل المغرب الاقوياء فاخذ يضرب على هذا الوتر الحساس من خلال ايراد الاثار النبوية، والايات القرآنية التي تبين عظم حقوق الجار ووجوب نصرته .

ثم يبين مصير المجاهدين في سبيل الله، وهو الافضاء الى احدى الحسنيين : الشهادة او النصر . يقول :

وارضوا باحدى الحسنيين واقرضوا حسنا تفوزوا بالحسان الخرد

وبيته مستمد من قوله تعالى[2] : (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين . . . . الاية) . ومن قوله تعالى[3] : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون) .

ويقول ابن المرحل حاضا اهل المغرب على نصرة الاندلس :

فاسترحمتكم فارحموها انه لايرحم الرحمن من لايرحم

فالشاعر يستعطف القلوب ويسترحمها فلايجد ابلغ من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التأثير على النفوس التي ترجو رحمة ربها والحديث : عن اسامة بن زيد قال، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -[4] :

---

(١) صحيح البخارى، كتاب الادب : ٩/٨ .
(٢) سورة التوبة، الاية : ٥٢
(٣) سورة البقرة، الاية : ٢٤٥
(٤) صحيح البخارى، كتاب الجنائز : ٧١/٢ .

(انمايرحم الله من عباده الرحماء) . ومن حديث ابي هريرة[1] : (. . . . . من لايرحم لايرحم) .

وبعد الاسترحام تشتد عاطفة الشاعر فيحاول دفعهم الى القتال دفعا بصيغة الامر فيقول :

حدوا السلاح انفروا وسارعوا   الى الذى من ربكم وعدتم

وهو في هذا ينظر الى قوله تعالى[2] : (انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) . وقوله[3] : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين) .

وعند ما تستجاب دعوة الشاعر من قبل المستنجد به ، وتتحرك الجيوش الجرارة صوب الاندلس ، يقول مهددا النصارى المتغطرسين :

اليوم يدرى كل شيطان بها   ان قد رمتهم بالشعاع الانجم

فهو وعيد شديد للنصارى ، وتفخيم لقوة المسلمين التي شبهها بالشهب المحرقة حيث لاقبل لاحد بمقاومتها ، وهو بهذا يغترف من معين القرآن الكريم ، اذ يقول - عز وجل - على لسان الجن[4] : (وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا) .

واما بالنسبة للحوادث التاريخية فقد اكثر الشعراء من ذكرها وذلك على سبيل الاعتبار وتهوين الخطب على نفوسهم ونفوس الناس بالتأسي ولاظهار الثقافة وسعة العلم باحداث الزمان ، ولهذا نجد الشاعر مهما تأخر

---

(١) المصدر السابق ، كتاب الادب : ٨/٧ .
(٢) سورة التوبة ، الاية : ٤١
(٣) سورة آل عمران ، الاية : ١٣٣
(٤) سورة الجن ، الايتان : ٨ ، ٩

عصره يرجع الى التاريخ منذ بدايته ، ومن لدن نوح - عليه السلام - مـــرورا بالاحداث المشهورة حتى يصل الى ماقبل الاسلام بقليل فيعرج على ذكر عظمة دولتي الفرس والروم وكيف تولى الدهر ازالتهما من الوجود ، وفي هــذا المجال نلاحظ تشابها كبيرا بين الشعراء سواء في المشرق او في الاندلس مع الاختلاف في العاطفة لدى كل شاعر .

يقول عدي بن زيد العبادي :

وتبين رب الخورنق اذ أشـ	رف يوما وللهدى تفكـــير
سره حاله وكثرة مايمـــ	لك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه فقال : وماغبـ	طة حي الى الممات يصير

والشاعر هنا بصدد ذكر الممالك الزائلة . التي عاشت ببذخ حينا مــن الدهر ، وينفذ من ذلك الى بيان تفاهة الدنيا وسرعة زوال لذاتها ومتعهــا ويضرب لنا مثلا بالنعمان الاكبر صاحب الملك العظيم ، والقصور الفخمــة الذي ادرك حقيقة هذه الحياة وانها لا تدوم على حال ، فانخلع من ملكــه وترك حياة الترف واللهو ، ولبس المسوح وساح في الارض زاهدا مترهبا (1) .

ويقول عمارة اليمني في رثاء الفاطميين :

باللهزر ساحة القصرين وابك معي	عليهما لا على صفين والجمـــل

فهو يشير الى معركتي الجمل وصفين اللتين وقعتا في خلافة الامام علي ابن ابي طالب - رضي الله عنه - وكانتا بداية لمسلسل دموي افنى آلافــا عديدة من المسلمين ، ارتجت لها الدولة الاسلامية آنذاك . والشاعر هنــا يريد ان يبين عظم المصيبة التي حلت بالناس من جراء زوال الدولة الفاطميـة فجعلها اشد وقعا واعظم اثرا من حروب الفتنة تلك . ولعله اختار صفــين والجمل دون غيرهما من معارك المسلمين ، لمناسبة مقام قصيدته ، فهو يرثـي

---

(1) انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٣ / ٢٠٣ .

دولة شيعية تعتبر الامام علي امامها ، وقد كان له الدور البارز في هاتين المعركتين .

ويصور ابن اللبانة العلاقة الحميمة التي بينه وبين المعتمد بن عباد بقوله :

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا ومن ولهي احكي عليك متمما

ومالك ومتمم هما ابنا نويرة بن حمزة اليربوعي التميمي وقد كان بينهما من المحبة والود والصفاء مايفوق الوصف ، فلما قتل مالك على يد جيش المسلمين لارتداده عن الاسلام[1] - فيما يقال - حزن عليه متمم وظل يبكيه شعرا طيلة حياته ، وقد استغل ابن اللبانة هذه الحادثة فاسقطها على نفسه وعلى المعتمد وذلك لشهرتها ومجرد قوله " ومن ولهي احكي عليك متمما " يسد مسد كلام كثير في تأكيد استمرار الولاء والاخلاص الى آخر لحظات حياته .

ويقول ابن العديم في تتابع الدول وافناء الدهر لها :

اباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا واصمت لدى فرسانها منه اسهم
وافنى بني ايوب مع كثر جمعهم وما منهم الا مليك معظم
وملك بني العباس زال ولم يدع لهم اثرا من بعدهم وهم هم

ويقول ابو بكر بن عبد الصمد :

---

(١) كان مالك بن نويره عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه ، فلما بلغه ان الرسول قبض امسك الصدقة وفرقها في قومه ، فسار اليهم خالد بن الوليد وحاربهم ووقع مالك في الاسر فقتله ضرار بن الازور صبرا بامر خالد ، وهناك روايات تنفي ردته وتزعم ان قتله كان خطأ . والله اعلم . انظر : ابن حجر : الاصابة : ٣٣٦/٣ ، ابن قتيبة الشعر والشعراء : ٣٣٧/١ ، القرشي ، جمهرة انساب العرب : ٧٤٢/٢ وقد اورد رثاء متمم له .

حازت بنو العباس ملك امية وهم ذوو الاعداد والامداد
والدهر اذهب تبعا وجنوده وازال ملك الارض عن شداد

واذا ماوصلنا الى قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الافطس نجد ان الحوادث التاريخية التي اوردها قد شغلت اكثر من نصف القصيدة، وقد بدأها بذكر الامم الغابرة كالساسانيين واليونانيين ثم سار بتسلسل زمني منتظم معرجا على ملوك اليمن وقبائل العرب البائدة ثم على ايام العرب في الجاهلية ثم معارك الاسلام والفتن التي حصلت في آخر عصر الراشدين ثم يذكر الدولة الاموية فالعباسية ومافيها من فتن ماحقة كفتنة البرامكة، وفتنة الامين والمأمون وغيرهما . ولكثرة هذه الاشارات التاريخية وتنوعها، فقد قام ابن بدرون الاندلسي بشرحها في مجلد كامل وقد اشرنا الى هذا في فصل سابق .

وجاء بعد ابن عبدون ابو البقاء الرندى الذى سار على الطريقة نفسها ولكنه لم يطل في مقدمته التاريخية كما اطال ابن عبدون ولم يفصل الحوادث ويسلسلها على العصور المختلفة وانما جاء بامثلة مشهورة كابن ذى يزن وملوك اليمن والساسانيين، ثم يذكر قارون وخزائنه التي لم تفده عندما رماه الدهر بقوارعه ،وينتقل بعد ذلك الى ملوك الفرس دارا وكسرى صاحب الايوان العظيم الذى حطمته فجائع الدهر، واخيرا يأتي بمثل كبير لسعة الملك والسيادة وهو سليمان - عليه السلام - الذى ملك الدنيا وخضعت لامره الجن والريح باذن الله تعالى . ومع ذلك زال وكأنه لم يكن .

ولعل اهتمام هذين الاديبين الكبيرين بهذه النواحي التاريخية يوقفنا على ماكان لها من شأن في تخليد القصائد .

ويقول حازم القرطاجني :

وقد اعاد الفأر سد مأرب دكا كأن لم يبنه من قد بنى
والقت النُّمروذ عن كرسيه بعوضة عدت عليه اذ عدا

والشاعر هنا يحذر من عواقب البغي والتطاول على الله - عز وجل - وكأنه يريد ان يبين السبب الاكبر في ضياع الاندلس وهو ارتكاب المعاصي والبعد عن طاعة الله، ويستشهد بحادثتين من حوادث التاريخ القديم كان الاعراض عن الهدى الرباني فيهما سببا في جلب العقاب الاليم الشامل.

الاولى حادثة سد مأرب العظيم الذى بناه ملوك دولة سبأ في اليمن بهندسة عجيبة بحيث يحجز خلفه بحيرة كبيرة من المياه المنحدرة من الاودية فكان القوم يشربون منه ويسقون زروعهم حتى اصبحوا يعيشون في جنات وارفة الظلال كثيرة الثمار، ولكن عندما جاءهم الرسل من عند الله كذبوهم وانكروا نعم الله ونسبوها الى قوتهم وجهدهم، فعاقبهم الله باضعف مخلوقاته وهو الجرذ الذى نقب ذلك السد حتى اذا جاء السيل العظيم جرفه وجرف معه الجنات واغرق الارض والناس.(١)

والحادثة الثانية هي حادثة الملك المتجبر النمروذ بن كنعان بن سام الذى كان يدعي الالوهية ويفسد في الارض ويحرق من لايطيعه بالنار، ولما جاءه ابراهيم - عليه السلام - اخذ يجادل ويماري في الله، فسلط الله عليه وعلى جنوده البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت احداها في دماغ النمروذ فاكلته، فكان اعز الناس عنده من يضرب رأسه بمطرقة او بحذاء حتى يهدأ مابه. ومكث في هذا العذاب اربعين يوما.(٢)

---

(١) انظر : معجم البلدان، مادة (مأرب)، ابو حيان، تفسير البحر المحيط : ٢٦٨/٧، عند قوله تعالى عن سبأ : (فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط واثل وشيء من سدر قليل). سورة سبأ، الاية : ١٦ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي : ١٠٩٢/٢، عند قوله تعالى : (الم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه.......الاية).
سورة البقرة، الاية : ٢٥٨ .

واذا ما انتقلنا الى استفادة شعراءالمراثي من الابيات المشهورة في الشعر العربي نجد انهم تفننوا في ذلك فتارة يحتذون البيت وينسجون على منواله وتارة اخرى يأخذون البيت بلفظه كله او نصفه ويدخلونه في القصيدة حينما يبرز مكانه المناسب، ونلاحظ على الاندلسيين ـ خاصة ـ الاحتفاء بمعارضة ابيات الشواهد النحوية والبلاغية وتضمينها . ويمكننا هنا ان نقسم الابيات التي بين ايدينا حسب موضوعات الرثاء كما يلي :

اولا : الحنين الى الوطن الذي اخرج منه الشاعر، وشدة شوقه اليه، وبكاءه على ايامه الجميلة التي قضاها في ربوعه، يقول ابن عميرة الاندلسي في شوقه الى مدينته بلنسية :

ملاعب افراس الصبابة والصبا　　　نروح اليها تارة ونبكر

وهو من قول زهير بن ابي سلمى :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله　　　وعُري افراس الصِّبا ورواحله (١)

ولابن عميرة ايضا :

تغير ذاك العهد بعدي واهله　　　ومن ذا على الايام لايتغير

وهو صدى لقول كثير عزة :

وقد زعمت اني تغيرت بعدها　　　ومن ذا الذي ياعز لايتغير (٢)

ويقول المعتمد بن عباد في تذكر ايامه الخوالي وعيشه اللاهي باشبيلية :

فياليت شعري هل ابيتن ليلة　　　امامي وخلفي روضة وغدير

---

(١) ديوان زهير : ٦٤ .
(٢) ديوان كثير : ١٠٧ .

وهو من قول جميل بثينة :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة　　بواد القرى اني اذن لسعيد[١]

ويقول ابن شرف القيرواني متشوقا الى القيروان ومن فيها : :

واذا تجدد لي اخ ومنـــادم　　جددت ذكر اخاء خل اول

وهو متأثر بقول ابي تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى　　ما الحب الا للحبيـــب الاول[٢]

ويقول :

منازل ابائي الكرام ومنشـــئي　　واول اوطان غذاني خيرهـــا

وهو احتذاء لقول الاعرابي في الحنين الى موطنه منعج

بلاد بها حل الشباب تميمـــتي　　واول ارض مس جلدي ترابهـــا[٣]

اما ابن عميرة فيعرض عن لائميه على البكاء والوجد قائلا :

اقلوا ملامي او فقولوا واكثـــروا　　ملومكم عما به ليس يقصـــــر

ونشم من قوله رائحة كبرياء المتنبي في قوله :

ملومكما يجل عن المـــلام　　ووقع فعاله فوق الكـــلام[٤]

---

(١) ديوان جميل : ١٦ .
(٢) ديوان ابي تمام : ٤/٣٠٣ .
(٣) معجم البلدان (منعج) .
(٤) ديوان المتنبي : ٤٨٢ .

ثانيا : الابيات الحربية . كقول ابن حمديس الصقلي :

ويارب براق النصال تخالــــه من النقع ليلا مشرق الشهب داسا

وقول ابن عياش :

ويطلع ليل النقع فيه كواكبــــا من البيض او من مرهفات المناصل

وكلا لبيتين من وحي بيت بشار المشهور :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنـــا واسيافنا ليل تهاوى كواكبـــه (١)

ويقول ابن المرابط في حض اميره على الجهاد ، والتأكيد على وقـــوع النصر وان تأخر بعض الشيء :

لا تغترر بنسيئة الاجل الـذى ان لم يحن لك نقده فكأن قد

وهو من قول النابغة الذبياني :

أفد الترحل غير أن ركابنـــا لما تزل برحالنا وكأن قــد (٢)

ثالثا : تضمين الابيات والاشطر ، وقد اكثر الشعراء من ذلك اظهـار ا للثقافة ، ولان البيت المضمن او الشطر غالبا يأتي في موقع متمكن من القصيـدة فيزيدها روعة ويساعد في جلاء المعاني التي يريدها الشاعر . يقول ابــن المعتز العباسي في مدينته سامراء :

غدت سر من رأ   في العفاء كأنها (قفا نبك من ذكرى حبيب ومـنزل)
واصبح اهلوها شبيها بحالهــا (لمانسجتها من جنوب وشـمأل)
واذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله (يقولون لا تهلك اسى وتحمـــل)

---

(١) ديوان بشار : ٣١٨/١ . وفيه (رؤوسهم بدل رؤوسنا التي هي روايـــة الاغاني وغيره) .
(٢) ديوان النابغة : ٣٠ .

والاشطر الاخيرة في هذه الابيات هي بعض صدور واعجاز معلقة امرىء القيس المعروفة [(١)] .

ويقول ابن خفاجة في رثاء مدينته :

كتبت يد الحدثان في عرصاتها (لا انت انت ولا الديار ديار)

والشطر الاخير لابي تمام من بيته المعروف :

لا انت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الاوطار [(٢)]

ويقول ابن خلصة في بلنسية :

لو انها نطقت قالت لفقدهم (بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا)

وعجز البيت لزهير بن ابي سلمى من قوله :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودرك اشتياقا اية سلكوا [(٣)]

ويقول ابن المرابط عن الاندلس :

كم جامع فيها اعيد كنيسة فاهلك عليه اسى ولا تتجلد

وعجز البيت لطرفة بن العبد وقد اجرى عليه ابن المرابط بعض التغيير والبيت بتمامه من معلقة طرفة :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك اسى وتجلد [(٤)]

اما السهيلي فيأتي ببيت كامل لابي نواس خلال ابياته في رثاء بلده والبيت هو :

يادار مافعلت بك الايام ضامتك والايام ليس تضام [(٥)]

---

(١) انظر ديوانه : ٨ - ٩ .
(٢) ديوان ابي تمام : ٢/١٦٦ .
(٣) ديوان زهير : ٤٧ .
(٤) ديوانه : ٦ .
(٥) ديوانه : ٤٠٧ .

الفصل الثالث

دراسة مضمون قصيدة الرثاء

من خلال دراستنا للمعاني والافكار والظواهر التي يحويها شعر رثاء الدول والامصار استطعنا ان نقف على بعض الموضوعات او الظواهر التي تبرز بجلاء في هذا الفن بشكل عام وسنتناولها هنا بشيء من التفصيل ، وهي كما يلي :

المبحث الاول : الواقعية

شعر رثاء الدول والامصار واقعي بطبيعته فهو يسجل حوادث تاريخية او ظواهر انسانية واجتماعية مشاهدة في المجتمع البشرى ، ولكنه لا يوافق تماما المذهب الواقعي الذى يجمد عند الرصد المجرد للظواهر دون اى تدخل لعواطف الشاعر واحاسيسه ، لان ذلك يبعد بالشعر عن مفهومه الحقيقي كفن مؤثر كما يحصر الشاعر في مجال ضيق من القول لا يحس معه بقيمة شاعريته وفعالية ابداعه . ولا اخال الشاعر الصادق الذى يقف على مدينته المنكوبة او دولته الزائلة راثيا باكيا ، ومفصلا لدقائق الحادث وملابساته يستطيع ان يكون حيادى الاحساس والوجدان ، وان استطاع ان يقيم التحليل مقام التخييل ، والمنظور محل الموهوم الى حد ما . وذلك لان الشاعر في مثل ذلك الموقف يكون تعبيره - في الغالب - صادرا من منبع العاطفة الدفاق الذى لا يمكن للحياد والتجرد ان يقاوماه . ومن جانب آخر فان الشاعر الراثي عندما يستمد عناصر تجربته الشعرية من احداث التاريخ لا حرج عليه في الخروج عن حرفية التاريخ وتخيل ماليس في الواقع مع المحافظة على جوهر الفكرة . ان الواقعية التي نلمسها في شعر رثاء الدول والامصار هي الواقعية الروحية التي[1] تعكس الواقع بحقائقه وتتسع لكل مايحدث بداخل

---

(١) عز الدين اسماعيل ، الاسس الجمالية في النقد العربي : ٣٨٠ .

الشاعر من افكار وآلام ومشاعر . يقول ابو عدى العبلي في رثاء دولة بني امية :

افاض المدامع قتلى كدى	وقتلى بكثوة لم ترمس
وقتلى بوج وباللابتين	من يثرب خير ما انفس
وبالزابيين نفوس ثوت	وقتلى بنهر ابي فطرس
اولئك قوم تداعت بهم	نوائب من زمن متعس
اذلت قيادى لمن رامني	والزقت الرغم بالمعطس

فالشاعر يصدر عن واقع تاريخي تجرى احداثه امام عينيه ، فهو يتحدث عن مصارع قوم رآهم وعايشهم ، ويذكر اسماء الاماكن التي لقوا فيها حتفهم بمنطق بعيد عن الخيال ، ولكنه لم يقدر على منع عاطفته من التدخل ، فراح يشرح اثر ذهاب اولئك القوم على نفسه وحاله كما نلاحظ حزنه وجزعه من نوائب الزمن المتعسة لكل سعيد .

ويقول ابو يعقوب الخريمي في وصف مشهد من مشاهد الويلات التي حدثت في بغداد اوان فتنة الامين والمأمون :

ياهل رأيت الثكلى مولولة	في الطرق تسعى والجهد باهرها
في اثر نعش عليه واحدها	في صدره طعنة يساورها
تنظر في وجهه وتهتف بالثكل	وجارى الدموع حادرها
غرغر بالنفس ثم اسلمها	مطلولة لا يخاف ثائرها

فهي صورة حقيقية يشاهدها الشاعر عن كثب ، ويعبر عنها بلفظ (رأيت) التي تضع المنظر باجزائه امام عينيك وتشعرك بان هذا المنظر ماهو الاجزء بسيط من المناظر المتعددة المشابهة له والتي يتمزق الشاعر لها اسفا وحسرة . كما نلاحظ في آخر قصيدة الخريمي هذه تأكيده على واقعيتها وانها بعيدة عن المبالغات والاخيلة الجامحة حين يقول :

لا طمعا قلتها ولا بطرا — لكل نفس هوى يؤامرها
سيرها الله بالنصيحة والـ — خشية فاستد مجت مرائرها
جاءتك تحكي لك الامور كما — ينشر بز التجار ناشرها

وهو في البيت الاخير يخاطب طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون المنتصر، مؤكدا له هدف قصيدته السامي وهو جلاء الحقيقة المأساوية التي تعرضت لها مدينة بغداد عسى ان يكون ذلك سببا في وقف تلك الحرب المدمرة.

ويقول البحتري في بكاء القصر الجعفري :

اذا نحن زرناه اجد لنا الاسى — وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ووحشته حتى كأن لم يقم بـه — انيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة — بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها — وبهجتها والعيش غض مكاسره
واين عميد الناس في كل نوبة — تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره
تخفى له مغتاله تحت غـرة — واولى لمن يغتاله لو يجاهره

ان الشاعر يصدر عن تجربة واقعية عاشها، فهو يصف لنا القصر الجعفري الذي كان ينادم صاحبه الخليفةالمتوكل ايام حكمه، ثم لم يلبث الزمان ان دار دورته فاغتيل المتوكل غدرا والشاعر بين يديه، وهدم القصر الزاهر وهجر واوحش، ولكن البحتري لازال يزوره ويتجرد لديه انفعال الحزن والاسى كلما وقف عليه . وهذا مايمكن ان نسميه بالصدق الشعوري[1] حيث تنطلق الشرارة العاطفية عند التقاء التيار النفسي المتدفق من اعماق نفس الشاعر بالتيار الحسي المنطلق من الحدث الخارجي المثير للانفعال. ومن هذا الضرب قول ابن الرومي في رثاءالبصرة ووصف اعمال الزنج الوحشية :

---

(١) انظر: انور المعداوي، نماذج فنية من الادب والنقد: ٣٠ .

ان هذا من الامور لامـــر كاد ان لايقوم في الاوهـــام
لرأينا ـ مستيقظين ـ امـورا حسبنا ان تكون رؤيا منـــام
اقدم الخائن اللعين عليهـا وعلى الله ايمـــا اقـــدام
وتسمى بغير حـق امامـــا لاهدى الله سعيه من امـام

الى ان يقول :

بينما اهلها باحسن حـــال اذ رماهم عبيدهم باصطـلام
دخلوها كأنهم قطع الليـــ ـل اذ راح مدلهم الظـــلام
اى هول رأوا بهم اى هـول حق منه يشيب رأس الغـــلام
اذ رموهم بنارهم من يمـين وشمال وخلفهـــم وامـــام

ان الانفعال والدهشة قد بلغت مداها عند الشاعر من خلال معاينته لعظائم الامور التي ارتكبت والتي لم يكن يتوقع ان تصورها له الاحلام، وذلـك كاقدام الزنج بهذه الصورة الرهيبة على اجتياح مدينة البصرة واحراقهـــا والفتك باهلها بابشع الوسائل والشاعر يذكر بعض الاشارات التاريخية كقولـه عن صاحب الزنج :" وتسمى بغير حق اماما" اذ انه انتحل هذا اللقب فعـــلا ليظهر سلطته بمظهر ديني، وقوله ـ ايضا ـ في وصف عملية الاحراق :

اذ رموهم بنارهم من يمـين وشمال وخلفهم وامـــام

فهذا الطوق المحيط من جميع الجهات يؤكده المؤرخون كالطبرى وغيره والبيت كما هو ملاحظ من ابلغ الابيات المكونة للتيار الحسى لانه يجســـم الحدث الخارجي وينصهر بالتالي في نفس الشاعر فتتفجر عواطفه الشعوريـــة الصادقة، ولعله من هنا يتضح الفرق بين الصدق الشعورى الحقيقي الواقعـي والصدق الفني الذى يلغي الواقع ويعتمد على نظرة الشاعر نفسه للحـــدث او للشخص .

وتظهر النظرة الواقعية في رثاء بهاء الدين البهائي لدمشق ايـــام التتار حيث يقول :

لو عاينت عيناك جامع تنكــــز والبركتين بحسنها الفتـــــان
وتعطش المرجين من اوراد هـــا وتهدم المحراب والايـــــوان
لانت جفونك بالدموع ملونـــــا د معا حكى اللولو على المرجان
قطرات جفن ترجمت عن حرقـــتي فكأنهن قلائد العقيـــــان
ابني امية اين يمن وليد كــــم والمفل تفتل فى ذرى الاركان
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا القوا عرابد هم على النســوان

فهو يذكر بعض المعالم البارزة في دمشق والتي صب التتار جحيمـــه عليها فاحالها الى خرائب وانقاض . تلك المعالم كالمساجد والحصون وغيرهـا يراها الشاعر تدنس وتحرق امامه فيذرف الدموع الممزوجة بالدماء من الالـــم والقهر، ونراه يبتعد عن الخيال لانه لاداعي له هنا حيث الواقع الموحـــي هو الذى يعبر عن نفسه على لسان الشاعر، ومالجوء الشعراء الى الخيـــال الالتقريب الحقائق المحجبة بعيدا عن دنيا الواقع . ويصف الشاعر هارون بن هارون زحف النصارى على اشبيلية بقوله :

ويمموا حمص في جمع يضيق بـــــه ذرع الفضا بالرهفات الماع فاكتتما
واستوطنوا القبر في الوادى وقام لهم جسر من الفلك لاتشكو به السأمـا
فكم اسارى غدت في القيد موثقـــة تشكو من الذل اقداما لها حطمـا
وكم صريع رضيع ظل مختطفـــــا عن امه فهو بالامواج قـد فطمـــا
ياعين فابك على حمص وقـل لهـــا منك البكاء اذا ماترسليه دمــــا
سطا بها الكفر اذ قل النصير بها فمن معز بها الاسلام ماسلمـــا

فالشاعر الاشبيلي يمر بتجربة واقعية مريرة، فهو يرى جموع الكفـــار الهائلة تزحف على مدينته وتحاصرها ، وتعمل الجسور البحرية لاقتحامهـــا وتفتك بالناس صغارا وكبارا قتلا واسرا دون ان يجدوا نصيرا من المسلمـــين فلاحيلة للشاعر اذن سوى البكاء والندب والرثاء .

وعلى الطريقة نفسها يسير الفقيه الدقون في وصف جيش النصارى المهاجم لاخر معاقل الاندلس بزعامة فرناند و اذ يقول :

سطا بجيش كموج البحر في عدد — نعم و في عدد من رهط ابطال
مؤيدا باجتماع المصر يتبعه — شر الخلائق سروا باقبال
يسبي المسامع بالانفاظ مشبهة — وقع الصواعق في هد وزلزال
يبني ليهدم ما الاسلام شيده — والوصف يعجز من يدعي بقلقال
والمسلمون من الاشغان قد ملئت — قلوبهم وابوا تسديد اخلال
والحق مختلف والحمق مؤتلف — والكل منصرف عن نصر ابطال

فهو يصف عدد الجيش وقوته وماكان يملك من ادوات الدمار كالانفاظ وغيرها مما يعجز عنه الوصف في تقويض بنيان الاسلام ،ثم يبين حالة المسلمين السيئةمشفقا عليهم من الفرقة والاختلاف والقعود عن الجهاد مما ادى بهم في النهايةالى الطرد من بلادهم .

اما شاعر طليطلة المجهول فيصف لنا موقفا محزنا اشعل قلبه عندما رأى فريقا من اهل مدينته طليطلة يصرون على البقاء تحت نير النصارى المغتصبين ويرضون بدفع المغارم . يقول :

كفى حزنا بأن الناس قالوا — الى ابن التحول المسير
انترك دورنا ونفر عنها — وليس لنا وراء البحر دور
ولاثم الضياع تروق حسنا — بناكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء — فلا قر هناك ولا حرور
يؤدى مغرم في كل شهر — ويؤخذ كل صائفة عشور
فهم احمى لحوزتنا واولى — بناء وهم الموالي والعشير
لقد ذهب اليقين فلا يقين — وغر القوم بالله الغرور
فلادين ولادنيا ولكن — غرور بالمعيشة ماغرور
رضوا بالرق يالله ماذا — رآه وما اشار به مشير

فالشاعر يعرض لنا مشهد الذل الذى تسرب الى نفوس القوم حيث غرهم طيب العيش ولو كان فيه رقهم، وهو يقف موقف المعالج لهذا الامر الخطير ويشارك مشاركة فعالة في تذكير قومه باوامر الدين التي تجاوزوها بفعل تزيين الشيطان لهم، ويعلن انكاره - بصوت عال - لما هم فيه من الزيغ والمهانة من اجل اللذات الدنيئة .

وفي بعض الاحيان يصدر الشاعر عن تجربة واقعية عاشها بكامل احساسه ورأى احداثها ماثلة امامه، ولكنه بدلا من سرد الاحداث بحجمها اثناء الرثاء يأخذ في المبالغة وتضخيم الحدث الى حد كبير، فهل نعتبر هذا زيفا وخروجا عن حدود الصدق والواقع ؟ ولنأخذ مثالا على ذلك قول ابن رشيق القيرواني في رثاء القيروان :

اعظم بتلك مصيبة ماتنجلي ... حسراتها او ينقضى الملوان
لو ان شهلانا اصيب بعشرها ... لتدكدت منها ذرا شهلان
حزنت لها كورالعراق باسرها ... وقرى الشام ومصر والخرسان
وتزعزعت لمصابها وتنكدت ... اسفا بلاد الهند والسندان
وعفا من الاقطار بعد خلائها ... مابين اندلس الى حلوان
وارى النجوم طلعن غير زواهر ... في افقهن واظلم القمران
والارض من وله بهاقد اصبحت ... بعد القرار شديدة الميلان

ان المبالغة في وصف حادث خراب القيروان ظاهرة في الابيات ولا يمكن لاحد ان ينكرها . ومع ذلك فالشاعر في حقيقة الامر واقعي وليس بمزيف ولا مهول لانه يعبر عما يرى ويحس ولاشك ان رويته ادق واحساسه اعمق ممن هم ليسوا بشعراء، ولذلك فهو يرى مالا يرون ، يرى الاشياء ضخمة هائلة فيعبر عنها بما يناسبها حسب رويته لها . فيأتي شعره في نظر الناس غاصا بالمبالغات دون ان يدرى هو انه يبالغ. ولعل هذا هو المقصود بالكذب الذى كان يستحسنه القدماء من النقاد كقول قدامة بن جعفر[1]: " وقد بلغني عن

---

(١) نقد الشعر : ٦٥ .

بعضهم انه قال : احسن الشعر اكذبه . . . . " . فابن رشيق نظر الى بلده الذى احبه كل الحب وقد غدا خربا منكر الهيئة بعد الجمال والازدهار فهاله الامر وتصور المصيبة هذا التصور الكوني الواسع فهي تدر احزانا متواصلة لاتنقضي حسراتها ابد الدهر والدنيا بجميع جهاتها قد تملكها الاسف والنكد ، والسماء أظلمت اقمارها والارض اضطرب قرارها . ويقول ابن اللبانة في غروب دولة المعتمد بن عباد واخذه اسيراً الى المغرب في الفلك :

نسيت الا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كاموات بالحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لولؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت اوجه تمزيق ابراد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها ... تلك القطائع من قطعات اكباد

ويقول :

انفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كتمت ... سريرة العالم العلوى اغمات

ان ابن عباد كان يمثل العصب الحيوى في حياة الشاعر اضف الى ذلك انه كان ذا سلطان وهيلمان كبيرين ، فلما كانت نهايته على تلك الصورة من الاهانة والذل اصيب الشاعر بصاعقة من الحزن والفزع ، فتصور ان الكون كله يتحطم وينهار وسط الضجيج والتمزيق والعويل ولذلك فهو ينفض يديه عن الدنيا ومن فيها . وهو في هذا كله صادق الاحساس واقعي التعبير لانه في غمرة التجربة المريرة الحية ، فالمشهد المرعب المثير يجرى امامه ، فيرى عن كثب آماله وهي تبدد وتصفد وتدفن في الحاد النفي والاسر .

واذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والحث على الجهاد نجد انـــه ذو صبغة واقعية ايضا لانه منطلق من شعراء احسوا بالخطر المحدق باوطانهم فذهبوا يبحثون عن النصير فى لهفة والم، وان كنا نلاحظ على شعرهـــم الاطناب فى مدح المستغاث به فذلك امر يقتضيه الموقف وتنطق به العاطفـــة الثائرة . يقول ابن سهل الاندلسي مستصرخا عرب المعقل فى افريقيـــا لنجدة الاندلس :

اضحى الهدى يشكو الظما ولانتم ... ظل ورى كالربيـــع الممطـــر
وعلا الجزيرة غيهب وغمود كـــم ... مطوية فوق الصباح المسفـــر
الدين ناداكم وفوق سروجكـــم ... غوث الصريخ وبغية المستنصر
لم يبق للاسلام غير بقيـــــة ... قد وطنت للحادث المتنكـــر
جدوا ونموا بالجهاد اجوركـــم ... ماخاب قصد مشمـــر وشمـــر
عند الخطوب الفكر بيد و فضلكـــم ... والنار تخبر عن ذكـــاء العنبر
لو صور الاسلام شخصا جاءكـــم ... عمدا بنفس الوامق المتخـــير
لو انه نادى لنصر خصكـــم ... ودعاكم يا اسرتي يامعشـــرى

فهو ينطلق من واقع ملموس، واقع الاسلام الذى يهدف النصارى فـــى المقام الاول الى القضاء عليه، واجلائه عن ارض الاندلس، ولقد مرت بنا مواقـــف كثيرة في هذا البحث كان النصارى فيها يحولون المساجد الى كنائس بمجـــرد ان تطأ اقدامهم ارض المدينة الاسلامية الساقطة ثم يبحثون عن كل مايتعلـــق بالدين الاسلامي كالمدارس والكتاتيب والكتب فيمحقونها على عجل ، ولعلنـــا نلاحظ اثر ذلك جليا فى قلة الكتب الاسلامية التي وصلتنا من تراث الاندلـــس بالنسبة لكثرة ما الف فى مختلف الفنون منه . فابن سهيل يأخذ فى شرح حالـــة الاسلام فى البلد المستغيث وماهو فيه من الضعف والذبول ، ويتوجه الـــى المستغاث بهم يحثهم على النجدة مستعينا بحقائق النصوص الاسلامية الـــتى تدعو للحث على الجهاد وتبين عظم الاجر والغنيمة المترتبين على ذلك ، ثـــم يستمر فى حثهم فيصفهم بانهم اهل الاسلام وحماته الشجعان الذين عليهـــم

دون غيرهم يقع عبء نصرته والدفاع عنه .

ويقول ابن الابار في استصراخ الحفصيين لنجدة بلنسية :

هذي رسائلها تدعوك من كثب　　وانت افضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية　　منك الامير الرضي والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها　　عبابة فتعاني اللين والشرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن ابي　　حفص مقبلة من تربه القدسا
وقد تواترت الانباء انك من　　يحيي بقتل ملوك الصفر اندلسا
طهر بلادك منهم انهم نجس　　ولا طهارة مالم تغسل النجسا
واوطيء الفيلق الجرار ارضهم　　حتى يطأطيء رأسا كل من رأسا

فالشاعر كان هو الرسول من لدن امير مدينة بلنسية الى الحفصي فهو اذن صاحب قضية تشغل باله، والانظار متطلعة اليه ترجوان يأتي على يديه الفرج ، ولذلك نراه يحشد كل الاسباب التي تمكنه من تحقيق هدفه فيخاطب الامير في واقعية مشيرا الى الرسائل والرسل التي تفد اليه وماتتكبده من المشاق كخوض البحار وقطع القفار، وهي تخصه دون سواه لانه قد تيقن لديها ان هذا الامير هو الذي سيطهر الاندلس من رجس النصارى، والشاعر بهذا يعطي الامير الحفصي دفعة ساخنة من الحماس وبخاصة حينما يجعل الاندلس تسلم قيادها وولاءها له، فلابد له بعدئذ من تحمل هذه التبعة، فليعد الفيالق ويجرد السيوف في الحال .

وهناك نوع من القصائد الرثائية الواقعية جاءت في ثوب قصصي ، حيث يقوم الشاعر بوصف الحصار والهجوم والسقوط واحوال الناس بشكل متسلسل ومفصل ، وذلك كقصيدة ابي الحسن المراغي في رثاء مراغة حينما اجتاحها التتار . يقول :

او مارأيتم ان طوفان الـــردى اخذ المرافق من هجوم تتـــار
فظهيرة الاحد ابتداءحصارهــم الاخذ في الاثنين شر نهـــار
هجموا وقد اخذوا اا عاليسورها بمجانق يمطـــرن بالاحجـار

فهو هنا يؤرخ لحادث الهجوم على اسوار المدينة، ثم يسقط السور :

بسقوطه ارتفع الغبار وراع اهـــ ل الحق فانحدروا من الاسوار
لما رأى الكفار سورا خاليــــا وهوى ببرج تساقط منهـــــار
صعدوا اليه رافعين لواءهـــم قصاد فل الزمـرة الابــــرار

وبعد سقوط السور والبرج الذي يعتبر بمثابة بداية للقصة نصل الـــى العقدة وهي اقتحام الاعداء للمدينة، والى اين يلجأ الناس العزل ؟ ثـــم يأتي الحل :

لجأت الى دار الهمام امام ديــ ن الله آلاف من الاخيـــار
فاجارهم ووقاهم فـــــي داره قاض لحق اجــارة وجــوار
واطاب قلبهم بطيب وعـــوده اذ قال احميكم انا فـيداري
فحماهم يوما وليلـــة كامــــلا عن ناب قوم كالكلاب ضـواري

ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد ، فدار القاضي لم تكن بعيـــدة عن متناول يد اولئك الضواري وسرعان ماحاصروها ورموها بوابل القذائف ثـــم دخلوها فكانت الخاتمة المأساوية لكل من فيها :

وعلا ليمنعهم اعالـــــيداره فلهم تيسر فتح باب الـــدار
دخلوا وقد ظفروا بمن فيداره من نسوة ومشايــــخ وذراري
قتلوا جميعهم بادني خطـــة مامن مجير عندهم ومجـــار

ونلاحظ ان الشاعر يعبر عما يجرى امامه كما هو دون اى استخدام للخيال او المبالغات الكبيرة .

وفي استغاثة الموريسكيين بالسلطان العثماني بايزيد نجد ـ ايضا ـ السرد القصصي لمجريات الاحداث . يقول شاعرهم :

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا	ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بانفاط عظام كثيرة	تهدم اسوار البلاد المنيعة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا	ولم نر من اخواننا من اغاثة
وقلت لنا الاقوات واشتد حالنا	اطعناهم بالكره خوف الفضيحة
على ان نكون مثل من كان قبلنا	من الدجن من اهل البلاد القديمة
ونبقى على آذاننا وصلاتنا	ولا نتركن شيئا من امر الشريعة
الى غير ذلك من شروط كثيرة	تزيد على الخمسين شرطا بخمسة

وبعد هذا الدخول بالاكراه في طاعة النصارى هل انتهت الحرب واحترمت المواثيق ؟ كلا :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهودا كان قد غرنا بها	ونصرنا كرها بعنف وسطوة

وهكذا تستمر القصيدة في شرح مايلاقيه المسلمون من التعذيب والتضييق ، ونحس ان الشاعر كان يعتصره الالم وهو يتحدث عن هذا الواقع المر الذى يعيشه هو ومن معه .

المبحث الثاني : التكـــرار

ان شعر الرثاء هو شعر العاطفة في المقام الاول ، فهي التي تحـدد معالم القصيدة وتظهر جمالها من حيث اختيار المعاني وتصويرها في ثـــوب لائق بها من الالفاظ .

وظاهرة التكرار التي نشاهدها في شعر رثاء الدول والامصار تهـدف الى تقوية تلك العاطفة و مساعدتها على الاستمرار ، حيث تظل انفعـــالات الحزن والحنين والاستغراب وغيرها في تكرر متواصل لفترة طويلة ، ومن خـلال ذلك تمد الشاعر بفيض زاخر من معينها الثر . يقول ابن رشيق القيروانـــي (1) : " واولى ماتكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجيعة وشدة القرحة التي يجدهـا المتفجع ، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد " .

ولا ننسى ايضا ماللتكرار من فائدة في تقوية موسيقى القصيدة واظهـــار كوامن وزنها ، وقد اشرنا الى هذا فيما سبق . وعند التدقيق فـــــــي القصائد المشتملة على التكرار نجد الشعراء يستخدمونه بصور شتى ، فاحيانـا يكررون عبارات تصل الى شطر بيت ، واحيانا اخرى يكررون حرفا او كلمــــة مع مراعاة التجانس والانسجام بين مايلي هذا الحرف او تلك الكلمـــة فـــي ايضاح المعنى ورسم الصورة التي يريدها الشاعر .

يقول ابن ابي طالب الاعمى في رثاء بغداد :

ابيني لنا اين الذين عهدتهـــم ... يحلون في روض من العيش زاهر ؟
واين الملوك في المواكب تغتدي ... تشبه حسنا بالنجوم الزواهـــر ؟
واين القضاة الحاكمون برأيهـــم ... لورد امور مشكلات الاوامـــر ؟

فهو يكرر كلمة (اين) التي يستفهم بها - في ذهول وحزن - عن مصير سادة البلاد من الملوك اولي المواكب والقضاة اصحاب المواهب في حـــــل

---

(1) العمدة : ٢ / ٦١ .

المشكلات من الامور والنوازل .

وهو عند ما يتفجع على هذين الصنفين من الناس بواسطة التكرار يوحي بالصورة الكلية لخراب المدينة وهلاك الناس، لان الشاعر سيبقى مستمرا في تساؤله باستغراب مؤلم اين . . . واين . . . واين . . . الخ وان لم يظهر كل ذلك في شعره .

ويقول ابن عبدون في رثاء بني الافطس :

اين الجلال الذى عمت مهابته — قلوبنا وعيون الانجم الزهر
اين الاباء الذى ارسوا قواعده — على دعائم من عز ومن ظفر
اين الوفاء الذى اصفوا شرائعه — فلم يرد احد منهم على كدر

وهنا ـ ايضا ـ يكرر (اين) ويأتي بعدها بعبارات شديدة الالتحام ببعضها، فالجلال، والاباء، والوفاء تكون مجتمعة معنى اخلاقيا ذا هالة عظيمة اراد الشاعر ان يظهرها بطرق متعددة، ثم يحاول تضخيم تلك الهالة ببيان اثار المرثيين على المجتمع عامة فيكرر مجموعة من الحروف والادوات تتجاوز نصف الشطر حيث يقول :

من لي ولا من بهم ان اظلمت نوب — ولم يكن ليلها يفضى الى سحر
من لي ولا من بهم ان اطبقت محن — ولم يكن وردها يفضي الى صدر
من لي ولا من بهم ان عطلت سنن — واخفيت السن الاثار والسير

وبعد المكرر يأتي بعبارات : اظلمت نوب، اطبقت محن، عطلت سنن التي تشترك في الصفات السلبية، حيث تجعل الناس بدون وجود بني الافطس كما مهملا لا يقدرون على دفع ملمة او كشف محنة .

وفي بعض الاحيان نجد الشاعر يستهل قصيدته بالتكرار وذلك ليشيع جوا عاطفيا حزينا يشد انتباه السامعين لما سيقوله بعد ذلك كقول ابن الرومي :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنـــام — شغلها عنه بالدموع السجام
اى نوم من بعد ماحل بالبصـــ — ـرة ماحل من هنات عظـــام
اى نوم من بعد ما انتهك الزنـــ — ج جهارا محارم الاســـلام

انها صرخة استنكار وفزع يطلقها الشاعر في وجه النوم . فاى نـــوم يمكن ان يتسلل الى الجفون المشتغلة بالدمع، والنفوس المعذبـــــة بالاحزان والهموم ؟ ان مرجل الانفعالات المؤلمة ليغلي في نفـــــس الشاعر ويفور حتى يجعله يهذى كالمحموم، ويتلهف مرددا اسم البلـــد الذى يرثيه وصفاته :

لهف نفسي عليك ايتها البصـــ — ـرة لهفا كمثل لهب الضـــرام
لهف نفسي عليك يامعدن الـــ — ـخيرات لهفا يعضني ابهامـــي
لهف نفسي عليك ياقبة الاســـ — ـلام لهفا يطول منه غرامـــي
لهف نفسي عليك يافرضة البلـــ — ـدان لهفا يبقى على الاعـــوام
لهف نفسي لجمعك المتفانـــي — لهف نفسي لعزك المستضـــام

فهو يكرر كلمة (لهف) في كل بيت مرتين مما يدل على الاضطـــراب والقلق النفسي، ثم الحسرة العميقة التي يذكيها تكراره لاداة النداء (يا) مع مايليها من الصفات الفخمة المتناسقة في المعاني والموسيقـــــــى يامعدن الخيرات، ياقبة الاسلام، يافرضة البلدان، والتي تجعـــــل البصرة في مقام عظيم الاهمية جدير بتلهف الشاعر والمه.

وقصيدة ابن الرومي تعتبر فريدة في بابها من ناحية التكرار، فقـــد اكثر منه كثرة ملحوظة واستعمله بين كل فترة واخرى وكأنه يجعل منه فاصلـــة انتقال من موقف الى آخر ضمن الاطار العام للقصيدة . فنراه في الموقـــف التالي يدخل في اعماق الحادث مبينا شموله لكافة اهل البصرة، فتزدحـــم نفسه بالمعاني والمشاعر، التي لايجد افضل من التكرار وسيلة لنقلها الينا.

يقـــول :

كم اغصوا من شارب بشـــراب | كم اغصوا من طاعم بطعـــام
كم ضنين بنفسه رام منجـــا | فتلقوا جبينــه بالحســـام
كم اخ قد رأى اخاه صريعـــا | ترب الخد بين صرعى كرا م
كم اب قد رأى عزيز بنيــــه | وهو يعلى بصارم صمصـــام
كم رضيع ـ هناك ـ قد فطمـــوه | بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة ـ بخاتم الله بكـــر ـ | فضحوها جهرا بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سب وهـــا | بارزا وجهها بغير لثـــام

فتكرار (كم) التى تفيد التكثير يبين شدة الهول الذى لقيـــه الناس، كما يبين شدة الالم الذي تنضح به نفس الشاعر وهو يعدد الاجزاء التفصيلية للنكبة العامة . انه يكرر ويعيد ليفرغ مايحويه صدره مـــن الانفعالات، وفي الوقت نفسه يحرص على نقل تلك الانفعالات والمشاعـر الى مستمعيه على الصورة التي يريدها من الحرارة والتأثير، ففى وصفـــه لما لقيته النساء من المهانة يقول :

من رآهن فى المساق سبايـــا | داميات الوجوه للاقـــدام
من رآهن فى المقاسم وسط الزنـ | ـج يقسمن بينهم بالسهـــام
من رآهن يتخذن امـــاء | بعد ملك الاماء والخدام

فعبارة (من رآهن) التى يكررها الشاعر، تجعل السامع او القارئ يحس بانه (اى الشاعر) يتمزق وتعتصر قلبه مرارة الارغام، فيجد نفســـه ينتقل الى ذلك الجو، بمشاعره وعواطفه ويمر بنفس التجربة التى عاشهـــا الشاعر بالرغم من الفترة الزمنية الطويلة بينهما . وبخاصة ان قضيـــة اسر النساء واذلالهن ذات خطورة شديدة فى نفوس العرب .

ثم يستمر ابن الرومى في وصف افعال الزنج الشنيعة محـــاولا استقصاءها من كل جانب ليبرز عظم النكبة فيقول :

رب بيع هناك قد ارخصوه طال ماقد غلا على السوام
رب بيت هناك قد اخربوه كان مأوى الضعاف والايتام
رب قصر هناك قد دخلوه كان من قبل ذاك صعب المرام
رب ذى نعمة هناك ومال تركوه محالف الاعدام
رب قوم باتوا باجمع شمل تركوا شملهم بغير نظام

اننا نحس هنا برنة موسيقية حزينة تنساب من خلال التكرار الذى يهيجه تذكر خراب البيوت العامرة والقصور الزاهرة، ونشاهد بعد ذلك الشاعر وهو يعض اصابعه ندما واسفا حين لم تعد نفسه تطيق صبرا او تحتمل وقع المآسي .

ان الشاعر الراثي حين ينطلق من عاطفة صادقة ويكون مرهف الشعور فانه في الغالب لن يستغني عن التكرار لانه عامل مهم في استقصاء الجزئيات والصفات والفضائل وما الى ذلك . يقول ابن المجاور باكيا خراب المسجد الاقصى :

على المسجد الاقصى الذى جل قدره على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والهدى على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي انافت بما في الارض من صخرات
على القبلة الاولى التي اتجهت لها صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور واكرم عامر واشرف مبنى لخير بناة

لاشك ان للمسجد الاقصى منزلة عليا في نفوس المسلمين ، فهو قبلتهم الاولى ، وموضع معراج الرسول - عليه الصلاة والسلام - الى السماوات العلى ، وثالث الحرمين الشريفين . . . الخ ولذا فان الشاعر عندما يصطدم بما حل بهذا المكان المبارك يتضاعف في نفسه جيشان الانفعالات ، ويثب الى ذهنه كثير من المشاهد التي يود رثاءها ، فلابد حينئذ من التكرار للمحافظة على كمال الصورة . وشاعرنا في هذه الابيات يكرر الحرف (على)

وكأنه يرى انه مهما بكى وندب فلن يستطيع ان يحيط بتلك المعالم الجليلة ايبكي على موضع الصلوات المقفر من رواده ، ام على مكان الوحي وسلم المعراج ، ام على الصخرة ومشهد الابدال . . . . ولذلك فهو يهيج العالم كله على البكاء :

لتبك على القدس البلاد باسرها وتعلن بالاحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي اختها وتشكو الذى لاقت الى عرفات
لتبك على ماحل بالقدس طيبة وتشرحه فى اكرم الحجرات

وتكراره لكلمة (لتبك) المقترنة بلام الامر يدل على ثورة نفسه وعظم تصوره للفاجعة ، فلم يعد يرضيه بكاء اهل القدس ومن حوله ، بل لابد للعالم كله ان يعلن حداده ، ولابد لمكة والمدينة وهما افضل البلاد قاطبة عند المسلمين ، ان تشاركا فى هذا المأتم الكبير ، ولاسيما انهما ترتبطان بالقدس بروابط ووشائج قوية وقديمة .

اما ابن المرابط فيصف احوال الاسرى الاندلسيين بقوله :

كم من اسير عندهم واسيرة فكلاهما يبغى الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة فيهم تود لو انها فى مُلْحَد
كم من تقي فى السلاسل موثق يبكي لاخر فى الكبول مقيد

وهذه الابيات من قصيدة يستصرخ بها الشاعر بني مرين لنجدة الاندلس المهددة بغزو النصارى ، فالتكرار هنا احد عوامل التأثير المنشود . وبخاصة انه يكرر (كم) التى تشير الى الكثرة ويتفجع معها على اولئك الاسرى الضعاف من النساء والولدان ، والشيوخ الاتقياء الذين تركوا بيد النصارى يفتنون بتعذيبهم واذلالهم دون ان يجدوا من يفتديهم .

ان اعادة مثل هذه المشاهد ملونة باحاسيس الشاعر على مسامع المستغاث به تحرك من نفسه ساكنا ، وتدفعه الى الاستجابة .

وفي استغاثة المويسكين بالسلطان العثماني نلاحظ تكرار لفظ السلام في مطلع القصيدة عشر مرات، ومن ذلك قول الشاعر :

سلام كريم دائم متجدد — اخص به مولاى خير خليفة
سلام على مولاى ذى المجد والعلا — ومن البس الكفار ثوب المذلة
سلام على مولاى من دار ملكه — قسنطينة اكرم بها من مدينة
سلام على القاضي ومن كان مثله — من العلماء الاكرمين الاجلة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا — باندلس بالغرب في ارض غربة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت — شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت — على جملة الاعلاج من بعد ستره
سلام عليكم من عجائز اكرهت — على اكل خنزير ولحم لجيفة

ولعل الشاعر فعل هذا اعلانا عن خضوعه المسبق وتذلله بين يدى السلطان عسى ان يستمع لما يقول ويعى ، فالمويسكيون كانوا في حالة من القهر والذل لاتطاق ، فقد اكرهوا على اعتناق دين النصارى ، وكل من عرف عنه انه فعل امرا يمت الى الاسلام بصلة يقتل او يحرق حيا ، وقد ذهبت كل محاولاتهم لطلب النجدة ادراج الرياح . فالشاعر هنا سفير امة فقدت هويتها وفي نفسه من الالام والاحزان ماتنوء به الجبال ، وهذه آخر المحاولات التي يمكن ان تجدى نفعا فبدأ قصيدته بهذا التكرار ليعلن عن هدفه ، وهو استجداء النصرة ، وذلك باشاعة جو من التعظيم والتبجيل للسلطان ثم يتبعه بعرض شامل للحالة المزرية والنفوس المعذبة في الاندلس من جراء حكم النصارى الحاقدين حيث التعذيب والاستهتار بقيم الاسلام والاكراه على فعل المحرمات وغير ذلك .

ثم ينتقل الشاعر الى عنصر آخر ربما يكون له اثر في اثارة غيرة السلطان ، وهو فعل النصارى بالقرآن والمساجد ، فيقول متأوها :

واحرق ماكانت لنا من مصاحف ... وخلطها بالزبل او بالنجاسة
وآها على تلك المساجد سورت ... مزابل للكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت ... نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها ... لقد اظلمت بالكفر اعظم ظلمة

وهذه التأوهات المتكررة، واللوعة النابعة من الوجدان الصادق تدلان على مقدار الخذلان الذى لقيه اهل الاندلس، كما ان الشاعر عندما يضع هذه الصورة امام السلطان بتلك الروح الملتهبة يطلب منه حلا عاجلا يدفع به اليأس والاستسلام الذى بدأ يتسرب الى آلاف النفوس .

المبحث الثالث : الجماعيـــة

الشاعر فرد يعيش في مجتمع كبير تربطه به علاقات ووشائج قويـــة فهو لا يمكن ان يبقى في برجه العاجي منغلقا على نفسه بعيدا عـــن آلام الناس الذين يعيش بينهم ، وكيف له ان يفعل ذلك ، وهو الذى ولد مهيأ ليكون لسان حال امته بما منح من رهافة حس ، ودقة شعور . والـــروح الجماعية التي نلمسها في شعر رثاء الدول والامصار تكشف عن مـــدى العلاقة التي كانت تربط بين الشاعر ومجتمعه ، فعندما يصاب الوطـــن الذى يحتضن الجميع بكارثة عامة تودى به ، وتشتت اهله تثور عاطفـــة الشاعر وتدفعه الى القول ، فيكون اول همه التعبير عن آلام قومه الذيـــن عاشرهم زمنا وعن تشردهم وسببهم وما الى ذلك ، دون ان يندب الطبقـة الحاكمة او يبكي لمصيرها الا لماما . يقول الوراق :

لم يبق في بغداد الا امـــرؤ ... حالفه الفقر كثير العيـــال
لا ام تحمى عن حماهـــا ولا ... خال له يحمى ولا غير خـــال
ليس له مال سوى مطـــرد (١) ... مطرده في كفه رأس مـــال
هان على الله فاجـــرى على ... كفيه للشقوة قتل الرجـــال

فالشاعر هنا بازاء حالة اجتماعية اوجدتها الحرب ، تلك هي الهجرة الجماعية التي ادت الى اقفار بغداد من سكانها ، فالذى يستطيـــع الهرب نجاة بنفسه فعل ، حتى لم يبق فيها الا الضعاف والفقراء الذيـــن لم يجدوا حيلة فاستسلموا لقدرهم ، او المجرمون واللصوص الذين يقتنصون الفرص في مثل هذه الاوقات لاثارة الفوضى والرعب والقتل في سبيـــل النهب والسلب .

فهذا الاحساس بمصائب الناس هو الذى يغذى قصائد الرثـــاء

---

(١) المطرد : رمح قصير يطعن به الوحش . الصحاح (طرد) .

ويجعلها ذات تأثير متجدد . وينطق ابو ناظرة السدوسي بلسان شعب البصرة المشرد حين يقول :

اری کل قوم لا يزال مظنة | منازلهم من آيب ومؤوب
سوانا فانا حشو كل مدينة | والقاؤها من نازح وقريب
ذ ود اوجه فيها كواب واعين | بواك وفقر ظاهر وشحوب
فذو العز منا مستكيل وذ والغفى | كأن لم يكن ذا رتبة وركوب
فما حل بالاسلام مثل مصابنا | وسلطاننا للدين حق غصوب

الى ان يقول :

وماكل بصري شكا بمفند | ولا كل بصرى بكى بمعيب
ولو انه بصريا بكى كنه شجوه | بكى بدم حتى الممات صبيب

فهو هنا جزء لا يتجزأ ممن يتحدث عنهم ، لانه يشاركهم الويلات والنفى ، ويحس بما يدور فى انفسهم ويعبر عنه ، فنراه ينطق بلسان الجمع :" سوانا فانا حشو كل مدينة" ، فذو العز منا . . ." ، " فما حل بالاسلام مثل مصابنا . . . ." ولهذا نجد شعوره بالنكبة عظيما اليما حيث شمله مع من شمل التغير المفاجىء للحياة ، فذل واستكانة بعد عز وسلطان وفقر وشحوب بعد غنى ونضارة عيش ، وتقلب دائم وهجرة مستمرة فى شتى البلاد مع نضوب الامل فى العودة الى الوطن . كل هذا يشعل قلب الشاعر ويقرح اجفانه ، فيطلق العنان لكل بصرى لكى يجتهد كل الاجتهاد فى البكاء غير آبه بلوم اللائمين وعذلهم .

والى نحو هذا يذهب ابن شرف القيرواني فى رثائه لحال المشردين من اهل القيروان ، حين يقول :

فاذا نجّت المقادير منهم | راجلا بالخلاص يحمل رحلا
لقى الهون فى المذلة انى | كان من سائر البلاد وحلاّ

ليس يلقى الا امرأ مستطيلا ... طالبا عنده حقودا وذحلا
فترى اشرف البرية نفسا ... ناكسا رأسه يلاطف نذلا
فهم كلما نبت بهم ار ... ض مطايا الفراق خيلا ورجلا
مزقوا في البلاد شرقا وغربا ... يسكبون الدموع هطلا ووبلا
لا يلاقى النسيب منهم نسيبا ... يتعزى به ولا الخل خلا

وابن شرف - ايضا - كان من الذين شردوا ومارسوا تجربة الغربة عمليا بعد خراب موطنه القيروان ، وان كان قد لقي بعض المكانة عند ملوك الاندلس فذلك عن طريق احراق بخور المدح والملق والتكلف في البلاطات الكثيرة المختلفة . فهو هنا يتميز غيظا والما على الكرامات الابية التي تمتهن عندما يضطر اصحابها الى فعل ماليس من شيمهم ولا من اخلاقهم في سبيل كسب رضى اولئك الوحوش الذين يعيشون وسطهم والذين امتلأت قلوبهم بالحقد على هؤلاء المشردين ، واعتبروهم فريسة ساقها القدر اليهم .

ولعل الفتك الشنيع والتخريب الهائل الذى لاقته القيروان على يد العرب الهلاليين جعل شعراءها ينظرون الى الناس جميعا نظرة سوء وتشاؤم ، ويصورون الغربة بصورة موحشة مخيفة . فالحصرى القيروانى يبدأ رثاءه للقيروان بقوله :

موت الكرام حياة في مواطنهم ... فان هم اغتربوا ماتوا وماماتوا
اصبحت في غربتي لولا مكاتمتي ... بكتني الارض فيها والسماوات

ويقول ابن رشيق القيرواني في تشرد قومه :

يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حتى اذا سئموا من الارنان
خرجوا حفاة عائذين بربهم ... من خوفهم ومصائب الالوان
هربوا بكل وليدة وفطيمة ... وبكل ارملة وكل حصان

وممن وصف حال المهاجرين المشردين - ايضا - حازم القرطاجني اذ يقول :

من كل ساهي الفكر مغشي على — فؤاده من كثرة الوجد غمي
تململوا فوق ذرى اكوارهم — كأنما باتوا على حد المدى
اعدت جسوم العيس اجسام لهم — قد كدن لا يبصرن من فرط الضوى
واعدت الانفس منها انفس — منهم فرقت من غرام وهوى

وهذا الوصف الدقيق لحال اولئك الهائمين على وجوههم الظاعنين باستمرار الى غير قرار، يبين مدى ارتباط الشاعر بمجتمعه وولائه له، ومن هنا ينتج الادب الهادف الذى يخدم قضايا الامة ويعبر عن آلامها وآمالها . فالقرطاجني عندما يعبر عن الانفس التي شفها الوجد والاجسام التي هزلت من كثرة الاسفار والمشاق حتى انتقلت عدواها الى العيس لكثرة الملازمة ودوام الارتحال، عندما يعبر عن هذا يشعرك بحدبه على اولئك الناس ومشاركته الوجدانية لهم، بالرغم من كونه بعيدا عنهم، وينعم بعيش رغيد .

اما ابن العسال في رثاء مدينة بربشتر فيصف لنا حالة اهلها عندما وقعوا في قبضة النصارى بقوله :

كم موضع غنموه لم يرحم به — طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من امه — فله اليها ضجة وبغاء
ولرب مولود ابوه مجدل — فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة في خدرها محجوبة — قد ابرزوها مالها استخفاء
وعزيز قوم صار في ايديهم — فعليه بعد العزة استخذاء

فهو يصور القسوة والوحشية التي عامل بها النصارى الحاقدون ضعاف المسلمين من الاطفال والنساء والشيوخ . والجدير بالذكر ان التركيز على مصير الاطفال والنساء امر نلمسه عند معظم شعراء رثاء الدول

والمدن لأن ذلك اشد اثارة للنفوس والعواطف عند السامعين ، وافسح مجالا لتفجع الشاعر وبكائه . يقول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس بعد سقوطها :

وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها على الذل يطوى لبشها ومسيرها
وشيخ على الاسلام شابت شيوبه يمزق من بعد الوقار قتيرها
وكم من صغير حيز من حجر امه فاكباد ها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه وهل يتبع الشيطان الاصغيرها

ونلاحظ هنا انه زاد على سابقه امرا جديدا ، وهو تغير الاديان وخصه بالصغير لسرعة تقبله للاشياء الجديدة ، مما يجعل الامر اكثر خطورة وألما للنفس المسلمة .

وقد لهج الشعراء بالبكاء على مصاب هؤلاء الضعاف ، وردد وا ذلك على مسامع المستغاث بهم لشدة وقعه وتأثيره . يقول ابن المرحّل :

ان امام البحر من اخوانكم خلقا لهم تلفت اليكم
ونحوكم عيونهم ناظرة لا تطعم النوم وكيف تطعم؟
والروم قد همت بهم ومالهم سواكم ردء فاين الهمم
كلهم ينظر في اطفاله ود معه من الحذار يسجم
اين المفر لا مفر انما هو الغياث او إسارا ودم

ويدخل في اطار الروح الجماعية - ايضا - تفجع الشعراء ، على الشعائر الدينية والمعالم الاسلامية التي يعطلها الكفار ويعبثون بقدسيتها عند ما تقع تحت ايديهم ، وذلك لان الدين امر يهم كل فرد من الامة ، بل هو الاساس المتين الذي يقوم عليه المجتمع الاسلامي . وعند ما يصاب هذا الدين مثلا - بشعائره ومعالمه - بالنكبات الجسام تهتز المشاعر وتضطرب القلوب فينبري الشعراء للتعبير عن هذه الموجة من الاحاسيس ايمانا منهم

برسالتهم في تخليد عظمة الاسلام ومجد الامة .

يقول احدهم في رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسجد جعلوه ديرا ... على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق ... وتحريق المصاحف فيه طيب
اما لله والاسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب

فهو يصور لوعة الدين وبكاءه لاستباحة حماه وتخريب معالمه ومن اهمها المساجد التي هي هدف النصارى الاول ، فيحولونها فورا الى اديرة وكنائس ، كما يقومون بتدنيس كل مقدس عند المسلمين ، فهذا القرآن كتاب الله الاعظم ودستور المسلمين يمزق ويحرف ويراق عليه دم الخنزير داخل المساجد نكاية بالمسلمين وزيادة في آلامهم وتعذيبهم النفسي ونرى الشاعر يستفظع ذلك وينادي المسلمين شيبا وشبانا للدفاع عن حرمات الله ، ويتعجب من تخاذلهم وانصرافهم عن ذلك .

ويقول ابو البقاء الرندي في رثاء الاندلس :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

انها صورة مؤثرة جدا لفداحة الخطب الذي حل بالاسلام ، فقد طوي ذكره ولواؤه من بلاد الاندلس بكاملها . بعد ان انست به قرونا طويلة فالمساجد الشامخة بالتوحيد ونور العلم ، اضحت كنائس تعلق في محاريبها الصلبان ، وتجثم فوق منابرها نواقيس يسري منها ظلام الشرك الاسود محاولا اطفاء كل نور قد ينبعث من هنا اوهناك ، انه تحول جذري خطير ، ماتت فيه

حضارة قرون زاهرة، وتشرد فيه شعب طالما ردد التاريخ اصداء جهاده فلمثل هذا تبكي العيون وتنخلع القلوب وتنظم قصائد الرثاء الحارة اللافحة .

وفي شعر الاستغاثة وطلب النجدة كان للحديث عن الاسلام والمساجد مجال خصب للتأثير في نفوس ولاة الامور المسلمين ، وقد افتن الشعراء في ذلك ، فطورا يلزمون المستغاث به الحجة ويضعونه امام واجبه المباشر في الذود عن حمى الدين ويجعلونه هو المسؤول امام الله والامة عن ذهاب بلاد الاسلام اذا قصر وتخاذل . يقول ابن سهل في استصراخ عرب افريقيا :

الدين ناداكم وفوق سروجكم غوث الصريخ وبغية المستنصر
لم يبق للاسلام غير بقية قد وطنت للحادث المتنكر
والكفر ممتد الطوالع والهدى متمسك بذناب عيش اغبر

الى ان يقول :

كم نكروا من معلم، كم دمروا من معشر، كم غيروا من مشعر
كم ابطلوا سنن النبي وعطلوا من حلية التوحيد ذروة منبر
اين الحفائظ مالها لم تنبعث اين العزائم مالها لا تنبرى؟
ايهزمنكم فارس في كفه سيفا ودين محمد لم ينصر؟

واحيانا يكون الحث عن طريق التصوير الموحي لفعل الاعداء بمعالم الاسلام كقول ابن الابار :

يا للمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا اثناءها جرسا
لهفي عليها الى استرجاع فائتها مدارسا للمثاني اصبحت درسا
سرعان ماعاث جيش الكفر واحربا عيث الدبا في مغانيها التي كبسا

فهذا العرض الذي يوحي باهتزاز مصير الامة، وتغيير معالم شخصيتها بتدمير المشاعر وابطال السنن يحدث وقعا قويا في النفوس المسؤولة .

واحيانا اخرى يعمد الشاعر الى اظهار فضل المستغاث به وابراز خدمات اسلافه القديمة في سبيل الاسلام ومن ثم يدفعه لاكمال تلك المآثر والمحافظة عليها ، كقول ابن طفيل :

بكم نصر الاسلام بدء فنصره   عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بماقامت اوائلكم به   ولا تغفلوا احياء تلك المناقب
وقد جعل الله والنبي وآله   ومهديه منكم بلا عيب عائب

المبحث الرابع : اسباب النكبات

عند مطالعتنا لشعر رثاء الدول والامصار تطالعنا ظاهرة تلمس الشعراء للاسباب التي ادت الى حدوث الكوارث المتمثلة بسقوط الدول وزوالها ، ودمار المدن ووقوعها في يد الاعداء من الثائرين والكافرين ومايتبع ذلك من ويلات وآلام . ولكن الملاحظ ان مايذكرونه من اسباب لايمس جوهر الحقيقة التي ترويها كتب التاريخ بل يذهبون الى ذكر اسباب عامة تكاد تتشابه في اطارها العام الا في النادر ، فهل كان الشعراء لايدركون حقائق الضعف السياسي وخيانة الحكام وضعفهم وما الى ذلك ؟

الواقع ان الشعراء كانوا من اعلم الناس بما يدور في مجتمعاتهم فقد كان منهم الوزراء والسفراء ، وخدام البلاط . . . ، ولكن جبروت الحكام وشدة نقمتهم على الناقدين والمعارضين جعلت الشعراء يجنحون الى جعل العين ، والمعاصي والمقادير هي سبب السقوط والدمار .

يقول الوراق :

من ذا اصابك يابغداد بالعين	الم تكوني زمانا قرة العين ؟

ويقول احد الشعراء :

بكيت دما على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الانيق
اصابتها من الحساد عين	فافنت اهلها بالمنجنيق

والشاعران يبكيان بغداد في فتنة الامين والمأمون ، وسبب الفتنة معروف ومشهور ، وهو الطمع في الاستئثار بالخلافة من اجل المصالح الشخصية الذاتية ، دون النظر فيما يجره ذلك على الامة ، فكانت العاقبة تدمير عاصمة الخلافة بغداد ، وقتل الالاف من الابرياء وتشرد الكثير من مختلف فئات الناس. وعندما تلجلج القول في صدر الشاعرين حملا العين الحاسدة تبعة ذلك كله على سبيل الاعتبار والعظة من زوال الاشياء

وتبدلها ، ولم يوجها اللوم الى اى من الطرفين المتنازعين طلبا للسلامة ولم يفعلا كما فعل الخريمي حين قال في الموقف نفسه واصفا السبب الحقيقي الذى اشعل الفتنة :

فلم يزل والزمان ذو غير	يقدح في ملكها اصاغرها
حتى تساقت كأسا مثملة	من فتنة لا يقال عاثرها
وافترقت بعد الفة شيعا	مقطوعة بينها اواصرها
يا هل رأيت الاملاك ماصنعت	اذ لم يرعها بالنصح زاجرها
اورد املاكنا نفوسهم	هوة غي اعيت مصادرها
ماضرها لو وفت بموثقها	واستحكمت في التقى بصائرها

فهو هنا يصرح بالسبب المباشر الذى شهده هو وعلمه الناس جميعا من حوله ، وهومجافاة الحكام للتقوى ، وضربهم بالمواثيق المبرمة عرض الحائط ، مع عدم وجود الناصحين المخلصين ، فكل حاكم كانت بطانته تزين لهانه احق بالامر من صاحبه . فجزء كبير من مسؤولية بيان الحقيقة اذن يقع على الشاعر نفسه ، وقل من يفعل ذلك منهم ، وانى اعتقد ان قصيدة الخريمي هذه قد حوربت حتى اننا لانجد لها ذكرا الا في احدى زوايا تاريخ الطبرى . على ان الشاعر يضيف الى هذا السبب سببا آخر هو المعاصي التي تمادى الناس في ارتكابهم لها فعاقبهم الله تعالى ، ولعله قصد بهذا اشراك الرعية مع الحاكم في الافساد وجلب المصائب ، حتى يخفف النقمة عليه . يقول :

امهلها الله ثم عاقبها	لما احاطت بها كبائرها
كم قد رأينا من المعاصي ببغدا	د فهل ذو الجلال غافرها
رق بها الدين واستخف بذى ال	فضل ، وعز النساك فاجرها
وخطم العبد انف سيده	بالرغم واستعبدت حرائرها
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتز امر الدروب ذاعرها

ويقول ابن رشيق القيرواني في نكبة القيروان :

نظرت لها الايام نظرة كاشح ترنو بنظرة كاشح معيان
حتى اذا الاقدار حم وقوعها ودنا القضاء عدة واوان
اهدت لها فتنا كليل مظلم واراد ها كالناطح العيدان

وفي رثاء قرطبة يقول بعضهم :

ابك على قرطبة الزين فقد دهتها نظرة العين

ويشير الرندي الى سبب محنة الاندلس بقوله :

اصابها العين في الاسلام فامتحنت حتى خلت منه اقطار وبلدان

ان الشاعر هنا قد يكون واقعا تحت تأثير امرين ، اولهما تقييد حرياته عن التعبير الصحيح تحت طائلة الارهاب، وثانيهما شعور الشاعر بان سبب المصاب قد اصبح معلوما لدى الجميع فلاجدوى من ذكر خيانة الحاكم وجهله وغفلته ، بل يذهب الشاعر ليفتش عن اسبب غامضة يرضي بها انفعالات نفسه، فيجد في العين رمزا خفيا لقوة رهيبة ربما تفعل الاعاجيب . اما الذين ذهبوا الى ان المعاصي والذنوب هي سبب الداء فمنهم ابو اليسر التنوخي الذى يقول في رثاء بغداد ايام التتار:

والله يعلم ان القوم اغفلهم ماكان من نعم فيهن اكثار
فاهملوا جانب الجبار اذ غفلوا فجاءهم من جنود الكفر جبار

وهذا السبب ربما يكون اوجه من سابقه واكثر واقعية، لان حقائق التاريخ تثبت ان كثيرا من المصائب العامة الطامة، كان سببها المعاصي وكفران النعم، وصرفها في غير محلها ، ولقد اشار القرآن الكريم الى هذا

بقوله[1] : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

وفيما يخص بغداد ، فقد حبيت بنعم كثيرة ، واترف اهلها ايما ترف ، واسرفوا في الملذات والشهوات المحرمة ايما اسراف ، ومالوا الى الدعة واللهو ، فمن حفلات غناء وطرب ، الى شعر خمرى وغلمانى عابث ماجن ، الى غير ذلك . وكانت النتيجة ضعفا عاما في الحاكم والمحكوم وظهر العجز عن القيام بواجب الاستخلاف في الارض ، فجاءت السنة الالهية لتزيلهم عن ذلك بايدى اقوام موغلين في الوحشية والقسوة . فبينما كانت بغداد ترقد في خمائل ناعمة من العيش جاءها العقاب على يد المغول الجبابرة الذين لم يعرفوا النعيم ، ولا ذاقوا حياة الترف واللهو ، فدمروها تدميرا لا زال التاريخ يرتجف من هوله .

ويقول ابن هارون في رثاء اشبيلية :

ياجنة زجرتنا عن زخارفها	ذنوبنا فلزمنا البث والندما

وابن العسال في رثاء مدينة بربشتر :

لولا ذنوب المسلمين وانهم	ركبوا الكبائر مالهن خفاء
ماكان ينصر للنصارى فارس	ابدا عليهم فالذنوب الداء
فشرارهم لا يختفون بشرهم	وصلاح منتحلى الصلاح رياء

والمجهول في رثاء طليطلة :

انأمل ان يحل بنا انتقام	وفينا الفسق اجمع والفجور
واكل للحرام ولا اضطرار	اليه فيسهل الامر العسير
يزول الستر عن قوم اذا ما	على العصيات ارخيت الستور

---

(١) سورة النحل ، الاية : ١١٢ .

وهنا - بلا شك - كان للمعاصي والكبائر التي ارتكبت جهـــــرا دور فعال في تكالب العدو على مدن الاندلس واحتلالها ، وبما كـــان الشعراء يقصدون الحكام ومن حولهم باهل الكبائر ، لانهم - وبخاصـــة ملوك الطوائف - كان ينهبون اللذات نهبا ويتوسعون في القتل وسفـــك دماء شعوبهم دون رحمة ، وهم مع ذلك جبناء يتهافتون على رضـــى النصارى باغلى الاثمان ، مما دفع ابن العسال الى القول بلامبـــالاة بالعواقب :

ماتت قلوب المسلمين برعبهم — فحماتنا في حربهم جبنـــاء

وابن شرف القيرواني يصف حال قومه بقوله :

جار فيهم زمانهم واولو الامـــ — ـــر ففروا يرجون في الارض عدلا

وهذه الحقيقة التي تتغلت في كثير من الاحيان على السنة الشعراء تدل على الثورة التي يحملونها ضد اولئك الحكام الجبناء المستهترييـــن بكل شيء ، وربما نستشف من ذلك ان كثيرا من الشعر الذي يكشف عـــن مثل تلك الثورة قد وئد ساعة مولده ، كما وئدت اسماء كثير من الشعـــراء فاصبحنا نجد كثيرا من الشعر - وبخاصة في الاندلس - يروى لمجاهيــــل ويقول المجهول في رثاء الاندلس :

اضعنا حقوق الرب حتى اضاعنا — وفضت عرى الاسلام الا يسيرهـــا
وملتنا لم نعرف الدهر عرفهـــا — من النكر فانظر كيف كان نكيرهـــا
بما قد كسبنا نالنا ما انالنـــا — كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا — وبؤنا باحوال ذميم حضورهـــا
بعصياننا استولى علينا عدونا — وعاشت بنا اسد العدا ونمورهـــا

والشاعر هنا فى لحظة يأس والم وتفكير عميق فى المصير الذى آلت اليه الاندلس، حيث اضحت بلاد كفر وضلال . فتقفز الى ذهنه جملة من الاسباب التى ادت الى ذلك، ولكنه يرى فى ندم واسف ان العصيان والتفريط فى حقوق الله، هو الجامع لها كلها، فتقصير الحاكم فى واجبه، وخيانته للامة هو اضاعة لحقوق الله، وفساد الرعية وهجرها للطريق القويم هو تفريط وغفلة ايضا . وهذا، وذاك هما السبب فى حدوث الهزيمة والشقاء .

وارجع بعض الشعراء سبب الكوارث الى القضاء والقدر، كقول الاعمى :

كأن لم تكن بغداد احسن منظرا ... وملهى رأته عين لاه وناظر
بلى هكذا كانت فاذهب حسنها ... وبدد منها الشمل حكم المقادر

والاوتارى فى دمشق حين التتار :

حرقوها وخربوها وبادت ... بقضاء الاله رب العباد

وابن العديم فى حلب :

ولكنما لله فى ذا مشيئة ... فيفعل فينا مايشاء ويحكم

وابن عميرة فى بلنسية :

وفرقهم ايدى سبا واصابهم ... على غرة منهم قضاء مقدر

ولعل لجوء الشعراء فى كثير من الاحيان الى ذكر نفوذ القضاء وقوة القدر، راجع لرغبتهم فى الهروب من ذكر الاسباب المادية التى ادت الى الحادث الاليم، كالتقصير والنزاع والخيانة وماالى ذلك. كما ان ذكر القدر يوحى بالعجز التام والتسليم المطلق لامر الله، فيعزى الشاعر نفسه بذلك، ويخفف وقع الالم على نفوس السامعين حين يدركون ان الامر خارج عن طاقتهم .

الخاتمة

لقد حملني تتبعي لقصائد رثاء الدول والأمصار في ادبنا العربي على العيش في عصور تاريخية وادبية مختلفة ، ففي كل عصر - منذ الجاهلي والى آخر التاسع الهجري - اقف عند كل قصيدة اجدها ، محللا لها تحليلا ادبيا ، وتاريخيا زمنيا بغية الكشف عن اسباب السقوط او الدمار وعن الهيئة التي وقع عليها الحادث ، وجاء وصفها في قصائد الشعراء وقد تبينت من هذا ان هناك علاقة وثيقة بين الشعر وعلم التاريخ فكلاهما مؤثر في الاخر متأثر به . فالشعر في كثير من الاحيان يعالج امورا لم تأت عليها اخبار التاريخ لسبب من الاسباب ، وربما اغفلت عمدا لغرض من الاغراض . فهو يمثل في هذه الحالة لونا جديدا من الوان الاغناء التاريخي يمكن الاطمئنان اليه في تقويم كثير من الاحداث التي سجلت في غير عصورها ، وفسرت بغير اسبابها ، وعولجت باساليب بعيدة عن الموضوعية . فالشاعر عندما يكون شاهد عيان لسقوط دولته او مدينته ثم يقف على اطلالها راثيا ، فانه يأتي بدقائق ولفتات ربما يُعتمد عليها في استنتاجات جديدة لم تخطر ببال المؤرخين . ولهذا نجد كتب التاريخ ومعاجم البلدان لا تمر بحادثة او تصف مدينة الا اوردت ماقيل فيها من الشعر .

واما من ناحية تأثير علم التاريخ في الشعر فربما يكون اقل من تأثير الشعر فيه ، لانه تأثير غير مباشر ، اى لايمس جوهر فكرة الرثاء مثلا ولكنه موجود على كل حال . فدراسة ظروف العصر السياسية والاجتماعية تساعد كثيرا على فهم الجو العام الذى كان الشاعر يعيشه عند النظم وبالتالي يمكن تحليل مايرمي اليه من اشارات وايحاءات .

هذا وهناك جملة من النتائج التي حققها هذا البحث يمكن للقارىء ان يتبينها من خلال مطالعته لفصول الرسالة ، وسأثبت هنا اهمها :

ففي العصر الجاهلي وجدت لدينا قصائد في رثاء الاثار الدارسة كحصون الحميريين والتبابعة في اليمن وقصور الاكاسرة والمناذرة في الحيرة، كما وجدت طائفة كبيرة من القصائد الجاهلية ترثي الممالك والامم التي هلكت في غابر الدهر، ولكن هذه الاشعار - في الغالب - تقصد الى اظهار تجربة الشاعر وحكمته، وتجري مجرى العظة والعبرة في غير عاطفة حية مشبوبة، لان العربي في جاهليته لم يعرف سكنى الحواضر والمدن، واذا الم بها في اسفاره فعلى عجل، الامر الذي جعل وقوفه بالاطلال وبكاءه على المرابع والدمن، والرسوم اصدق من رثائه ذاك.

ثم توصل البحث الى ان ايوان كسرى ظل رمزا للعظمة الزائلة عبر عصور الادب العربي الطويلة، وكان الوقوف عليه وبكاؤه يتخذ تعلة من قبل الشعراء لرثاء اقوامهم الهالكين في مجال لايمكن به التصريح كفعل آدم بن عبد العزيز الذي كان في الحقيقة يرثي قومه الامويين وهو في دولة اعدائهم العباسيين، والبحتري الذي كان يبكي المتوكل القتيل وهو يعيش تحت حكم قاتله. ومن المحتمل جدا ان قصيدتيهما قد تأثرت لاحقتهما بالسابقة او تأثرتا بسينيتي ابي عدي العبلي وابي العباس الاعمى في رثاء دولة بني امية.

واذا ماتقدمنا قليلا الى الامام في العصر العباسي حيث برزت مدرسة الصنعة البيانية في الشعر واصبحت هي علامة الجودة القصيدة اورداءتها، وجدنا ان هذا الاسلوب ايضا يفرض نفسه على شعر الرثاء فقد مرت بنا قصائد في رثاء بغداد والشامحين دمرهما المغول، مثقلة بالسجع والزخارف اللفظية والمعنوية بحيث ادت الى طمس صوت العاطفة فيها وتخفيف حدة الانفعال. فحكمنا على شعرائها - من منظور عصرنا - بالتكلف، وقد لايكونون كذلك، لانهم محكومون بنمط معين، وليس بمقدور كل شاعر ان يخرج عن طوره وان يسبق عصره.

وتبعا لثقافة الشعراء وتفاوت قدراتهم، ومدى تحررهم او اتباعهم فقد تباينت طرق رثائهم فمنهم من سلك الطريقة التقليدية، فوقف بالمدن والعواصم وقوفه بـ الاطلال الداثرة فاستوقف الركب، وخاطب الرفيق، ودعا بالسقيا . . . . . ثم انتقل الى الغرض الاصلي فركز على ابراز ماقي صدره من آلام، واحزان لفراق الاحبة وهجر الديار . ومنهم من يكون ثائر المشاعر مضطرب النفس لشدة وقع الحدث، فيفتتح القصيدة بالرثاء والتفجع، ويرفع صوته بالاهات مباشرة، ثم يأخذ في رسم صور حية لمشاهد الدمار والخراب، وينطلق محللا نفسيات الناس المشردين والذاهلين كما يحس ويرى . وبعضهم يبدأ القصيدة بداية هادئة رزينة مذكرا بقضاء الله وقدره الذى لاراد له، او مشيرا الى احاطة الموت بكل ماهو حي وما الى ذلك؛ وقد اتبع بعضهم طريقةابرز فيها ثقافته التاريخية فساق في قصيدته مصائر عظماء الاقوام منذ القدم وكيف فنوا وكأن لم يكونوا شيئا، ولاينسى ايراد العبرة والعظة ويكثر من ذكر الايات القرآنية والاحاديث النبوية التي تدعم مايقول .

واذا ما انتقلنا الى الاندلس نجد ان حرب النصارى ضد المسلمين كانت تتخذ الطابع الديني الصليبي، ولهذا ظلت المعارك مشتعلة على مدى قرون طويلة الى ان انتهت بالفاجعة العظمى، حيث سقطت الاندلس كلها نهائيا بيد النصارى، وتركها المسلمون الى غير رجعة.

وقد واكب الشعر الرثائي هذه الحرب في مسيرتها الطويلة الشاقة، فوقف الشعراء عند كل مدينة وامارة تدمر او تسقط بيد الاعداء باكين لحالها، وواصفين فجائع شعبها المسلم بمقدساته ومعالمه وشعائره فنسمع صراخ المساجد يعلو مع ارتفاع الصلبان فوق مآذنها، ونشاهد بكاء المنابر ونفور المحاريب من اصوات النواقيس التي ارغمت على احتضانها وهذه الروح الاسلامية طبعت شعر رثاء المدن والممالك في الاندلس بطابع من صدق الشعور وحرارة العاطفة، واكسبته شهرة جعلت الكثيرين يقصرون هذا اللون الادبي على اهل تلك الجزيرة وينسبونه اليها . .

على ان جهد شعراء الاندلس لم يقتصر على المشاركة الوجدانية فحسب وانما تعدى ذلك الى المشاركة الفعالة، فاحدثوا غرضا شعريا جديدا هو الاستصراخ والحث على الجهاد لانقاذ البلاد والعباد من خطر النصارى المحدق، فعبروا البحر مرات كثيرة الى مراكش حيث الموحدون، ثم بنو مرين من بعدهم، والى تونس حيث بنو حفص وغيرهم وفي معظم رحلاتهم كانوا سفراء صدق يؤثرون فيمن يخاطبون، فيعودون وبرفقتهم الجيوش الجرارة المجاهدة، والمؤن الكثيرة والاسلحة. .

وفي باب الدراسة التفصيلية لخصائص شعر رثاء الدول والامصار وظواهره، توصلت الى اثبات وجود شعر رثائي غزير في المشرق يشارك شعر الاندلس في حرارة العواطف وصدق الوطنية، وقد محّصت الاقوال التي كانت تنكر وجود مثل هذا الشعر او التي كانت ترميه بالضعف والجمود عند العظة والعبرة مع ضعف العاطفة وانعدام صدقها وبينت خطأها واجحافها، واستنتجت ان سبب تلك الاقوال المجحفة ربما يعود الى تشتت هذا الشعر في بطون كتب التاريخ ومعاجم البلدان وان القصائد المشهورة منه تعد في حكم النادر بالاضافة الى عدم اعتناء كتب الادب به كما يجب .

كما توصلت - ايضا - الى ان القول بسبق الاندلس في ابتداع هذا اللون من الشعر ثم انتقاله بعد ذلك الى المشرق تقليدا واتباعا ليس بسديد ، وان عملية التأثر والتأثير بشكل واسع لا تنطبق عليه، لانه فيض عاطفة انسانية، ومعانيه تكاد تتشابه ويشترك فيها الجميع، ودواعيه متوفرة في كل البلاد .

ومن الملاحظات الهامة كثرة تردد بحور الشعر ذات التفاعيل الكثيرة - كالطويل والبسيط - في شعر الرثاء وذلك لملائمتها واتساعها لزفرات الشعراء وآهاتهم المتوالية، التي يقذفها مرجل الانفعال على السنتهم بشكل مستمر، ومع هذا النوع من البحور نلاحظ كثرة القوافي المطلقة والمحركة بالكسر وذلك لانها تساعد على مد الصوت بالأنين

والعويل او بالصراخ الغاضب المستنجد ، كما تبين من شواهد هذا البحث ضعف القول بان الشاعر لاينظم عند الانفعال الحاد الا ابياتا قليلة ومن بحر قليل التفاعيل .

وهناك ظاهرة اخرى لها انتشار واسع عند شعراء الرثاء ، ذلك هي ظاهرة التكرار وذلك لما له من دور في مساعدة الشاعر على تفريغ مايحمل من شحنات الالم تدريجيا حتى تسكن نفسه ، كما يستخدم في ابراز ضخامة النكبة حين يظهر الاطراف والاجزاء المتناثرة في صورة مجتمعة . كما لا ننسى عمله في تقوية موسيقى القصيدة عن طريق وقع الجرس الناتج عن تكرار الحروف والالفاظ .

واثبت البحث ـ ايضا ـ واقعية شعر الرثاء وابتعاده عن شطحات الخيال ، لان الشاعر يتحدث ويصف امورا يشاهدها امامه ، وتجارب يعيشها بروحه واحساسه ، اما من ناحية المبالغة ، فالشاعر لايقصدها وانما تأتي تبعا لتصوره ورؤيته للاشياء على نحو لايدركه الناس العاديون .

واما مانلمسه من اسباب غير حقيقية يوردها الشعراء للنكبات والحوادث فان سببها سياسة القمع والتنكيل بالمعارضين التي كان الحكام الخونة الجبناء ينتهجونها . وهكذا دائما عندما يكون الحاكم او الامير خوارا رعديدا مع الاعداء ، تجده يستأسد على الرعية فيقتل ويسفك الدماء ويكبت الحريات وما الى ذلك ، وهذا مادعى شعراء رثاء الدول والامصار الى اللجوء الى ذكر العين والحسد ، والقضاء والقدر والمعاصي وغيرها على انها اسباب كل مايقع من كوارث ومحن .

ثبت المصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة :

ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي .

١ - ديوانه ، مخطوط بالخزانة الملكيه بالرباط رقم ٤٦٠٢ .

ابن بدرون : أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله الشلبي .

٢ - شرح قصيدة ابن عبدون (البسامه) مخطوط بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٨١ أدب .

ابن خيره المواعيني : محمد بن ابراهيم الاشبيلي .

٣ - ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب . مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط برقم ٢٦٤٧ .

ابن الشعّار الموصلي : أبو البركات مبارك بن أبي بكر .

٤ - عقود الجمان في شعراء هذا الزمان ، مخطوط بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٣٥٤ تراجم .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

٥ - القرآن الكريم .

ابن الأبّار القضاعي .

٦ - التكمله لكتاب الصله ، نشر عزت العطار ، ط القاهره ١٩٥٦م .

٧ - الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط القاهره ١٩٦٣م .

٨ - المعجم في أصحاب الصدفي ، ط مدريد ١٨٥٨م .

ابن أبى دينار : أبو عبد الله أحمد بن أبى القاسم الرعينى .

٩ - المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمّام ، ط تونس ١٩٦٧م .

ابن أبى زرع : ١٠ - الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ط الرباط ١٩٧٣م .

ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الشيبانى .

١١ - الكامل فى التاريخ ، ط بيروت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

١٢ - اللباب فى تهذيب الأنساب ، ط بيروت ، د . ت .

ابن الأثير : المبارك بن محمد الجزرى .

١٣ - النهاية فى غريب الحديث ، تحقيق الزاوى والطناحى ، ط القاهره ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

ابن الأحمر : أبو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى .

١٤ - نثير الجمان فى من نظمنى واياه الزمان ، تحقيق رضوان الدايه ، ط دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

الادريسى : أبو عبد الله بن ادريس .

١٥ - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ط ليدن ١٨٦٤م .

الأزدى : أبو زكريا يزيد بن محمد .

١٦ - تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيبه ، ط القاهره ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

الأصفهانى : حسين بن محمد الراغب .

١٧ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ، ط بيروت ١٩٦١م .

الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين .

١٨ - الأغانى ، مصوره عن طبعة دار الكتب المصريه .

الأصفهـــانى : أبو عبد الله محمد بن حامد العماد الكاتب .

١٩ - خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكـــــرى فيصل ط دمشق ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م ، وقسم شعراء المغرب والأندلـس تحقيق أذرتاش آذرنوش والعروسى المطوى ومحمد المرزوقـــــى ، ط تونس ١٩٧١ - ١٩٧٢م .

الأعشـــى : ميمـون بن قيس .

٢٠ - ديـوانـه ، ط بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م .

امرؤ القيـس :

٢١ - ديوانـه ، تحقيق أبى الفضـل ابراهيم ، ط القاهره ١٩٦٩م .

ابن ايـاس : محمـد بن أحمـد .

٢٢ - بدائع الزهور ووقائع الدهـور ، ط القاهره ١٩٥١م .

البحترى : الوليد بن عبيد الطائـى .

٢٣ - الحماسه ، ط القاهره ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

٢٤ - ديوانـه ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، ط القاهره ١٩٧٢م .

البخارى : محمد بن اسماعيـــل .

٢٥ - صحيح البخارى ، ط القاهره ١٣٧٦هـ .

ابن بسام : أبو الحسن على الشنتريـنى .

٢٦ - الذخيره فى محاسن أهل الجزيره ، تحقيق احسان عباس ، ط بــيروت ١٩٧٦ - ١٩٧٩م .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك .

٢٧ - الصله ، ط القاهره ١٩٦٦م .

البغدادى : أحمد بن على (الخـطيب) .

٢٨ ـ تاريخ بغداد ، ط بيروت د . ت .

البكرى : أبو عبيد الأنسى .

٢٩ ـ سمط اللآلى ، ط القاهره ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣١م .

البكرى : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى .

٣٠ ـ معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، ط القاهره ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥م .

٣١ ـ المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، ط باريس ١٩١١م .

البلاذرى : أحمد بن يحيى .

٣٢ ـ فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، ط القاهره ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣٢م .

البهاء زهير : أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى .

٣٣ ـ ديوانه ، ط بيروت ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م .

البيهقى : ابراهيم بن محمد .

٣٤ ـ المحاسن والمساوئ ، ط بيروت ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م .

البلوى : أبو محمد عبد الله .

٣٥ ـ سيرة ابن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، ط دمشق ١٣٥٨هـ .

ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف .

٣٦ ـ المنهل الصافى ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى ، ط القاهره ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م .

٣٧ ـ النجوم الزاهره فى ملوك مصر والقاهره ، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٣م .

أبو تمام : حبيب بن أوس الطائى .

٣٨ - ديوانه ، شرح الخطيب التبريزى ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط القاهره ١٩٦٤م .

الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابورى .

٣٩ - ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط القاهره ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الكنانى .

٤٠ - البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهره ١٣٩٥هـ .

٤١ - رسائل الجاحظ ، " " ، ط القاهره ١٩٦٥م .

ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى .

٤٢ - رحلة ابن جبير ، ط ليدن ١٩٠٧م .

الجراح : أبو عبد الله محمد بن داود .

٤٣ - الورقه ، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، ط القاهره ١٩٥٣م .

ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على .

٤٤ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ط حيدر أباد ١٣٥٨هـ .

الجوهرى : اسماعيل بن حمّاد .

٤٥ - الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط القاهره ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م .

حسان بن ثابت الأنصارى .

٤٦ - ديوانه ، تحقيق وليد عرفات ، ط بيروت ١٩٧٤م .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد الأندلسى .

٤٧ - جمهرة أنساب العرب ، ط القاهره ١٩٦٢م .

الحموى : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى .

٤٨ - معجم الأدباء ، ط القاهره ١٩٢٧م بعناية المستشرق مرجليوث .

٤٩ - معجم البلدان ، ط بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م .

الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الأزدى .

٥٠ - جذوة المقتبس ، ط القاهره ١٩٦٦م .

الحميرى : محمد بن عبد المنعم .

٥١ - الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٥م .

٥٢ - صفة جزيرة العرب ، تحقيق بروفنسال ، ط القاهره ١٩٣٧م .

الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحيى بن العماد .

٥٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط بيروت د - ت .

أبو حيان : محمد بن يوسف الغرناطى .

٥٤ - تفسيره المسمى بالبحر المحيط ، ط دار الشعب بالقاهره د - ت .

ابن خاتمه : أحمد بن على الأنصارى .

٥٥ - ديوانه ، تحقيق محمد رضوان الدايه ، ط دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

ابن خاقان : الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى .

٥٦ - قلائد العقيان . نشر المكتبه العتيقيه بتونس . د . ت ، بعناية محمد العنابى .

٥٧ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ، ط القاهره ١٣٢٥ هـ .

الخريمى : أبو يعقوب اسحاق بن قوهى .

٥٨ - ديوانه ، تحقيق جواد الطاهر ومحمد المعيبد ، ط بيروت ١٩٧١م .

ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد السلمانى ، لسان الدين .

٥٩ - الاحاطة فى أخبار غرناطه ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط القاهره ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٦٠ - أعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، ط الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .

٦١ - ديوان الصّيب والجهام والماضى والكهام ، تحقيق محمد الشريف قاهر ، ط الجزائر ١٩٧٣م .

٦٢ - الكتيبة الكامنه فى من لقيناه بالأندلس من المائه الثامنه ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٦٣م .

٦٣ - اللمحه البدريه فى الدوله النصريه ، ط بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .

٦٤ - نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادى - وعبد العزيز الأهوانى ط القاهره د - ت .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن على .

٦٥ - تاريخه المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط القاهره ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م .

ابن خفاجه أبو اسحاق ابراهيم الأندلسى .

٦٦ - ديوانه ، تحقيق مصطفى غازى ، ط الأسكندريه ١٩٦٠م .

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد .

٦٧ - وفيات الأعيان ، ط بيروت ١٩٧٢م .

ابن الدباغ : عبد الرحمن بن محمد الأنصارى .

٦٨ - معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، ط تونس ١٩٢٠م .

ابن دحيه : عمر بن الحسن بن على .

٦٩ - المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق مصطفى الابيارى وحامد عبد المجيد ، ط القاهره ١٩٥٥م .

ابن رسته : أحمد بن عمر .

٧٠ - الأعلاق النفيسة ، ط ليدن ١٨٩١م .

ابن رشيق : أبو على الحسن بن رشيق القيروانى .

٧١ - ديوانه ، جمعه عبد الرحمن ياغى ، ط بيروت د - ت .

٧٢ - العمده فى نقد الشعر ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ط بيروت ١٩٧٢م .

ابن الرومى : على بن العباس بن جريج .

٧٣ - ديوانه اختيار وتصنيف كامل كيلانى ، ط القاهره د - ت .

الزبيدى : محمد مرتضى .

٧٤ - تاج العروس ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

الزمخشرى : أبو القاسم محمود بن عمر .

٧٥ - أساس البلاغه ، ط القاهره ١٩٦٠م .

ابن الزيات : محمد بن عبد الملك .

٧٦ - ديوانه ، تحقيق جميل سعيد ، ط القاهره د - ت .

السخاوى : محمد بن عبد الرحمن .

٧٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ط بيروت د - ت .

٧٨ - المقاصد الحسنه فى بيان كثير من الأحاديث المشتهره على الألسنه ، تحقيق محمد عبد الله الصديق ، ط القاهره ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

ابن سعيد : أبو الحسن على بن موسى المغربى .

٧٩ - الغصون اليانعه فى محاسن شعراء المائه السابعه ، تحقيق ابراهيم الأبيارى ، ط القاهره ١٩٦٧م .

٨٠ - القدح المعلّى فى التاريخ المحلّى ، تحقيق الابيارى ، ط القاهره ١٩٥٩م .

٨١ - المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، ط القاهره ١٩٦٤م .

ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي .

٨٢ - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، ط القاهره ١٩٧٤م .

السلاوي : أبو العباس أحمد الناصري .

٨٣ - الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ولدى المؤلف : جعفر ومحمد ، ط الدار البيضاء ١٩٥٤م .

ابن سهل : ابراهيم الاشبيلي .

٨٤ - ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

السهيلي : عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي .

٨٥ - الروض الأنف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط القاهره ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن .

٨٦ - بغية الوعاة ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط القاهره ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

٨٧ - تاريخ الخلفاء ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط القاهره ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

الشهاب الخفاجي : أحمد بن محمد بن عمر .

٨٨ - ريحانه الألباء ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ط القاهره ١٣٨٦هـ .

ابن شهيد : أبو عامر أحمد بن عبد الملك .

٨٩ - ديوانه ، تحقيق يعقوب زكي ، محمود مكي ، ط القاهره .

٩٠ - رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، ط بيروت ١٩٤٦م .

ابن صاحب الصلاه : عبد الملك .

٩١ - تاريخ المن بالامامه على المستضعفين ، تحقيق عبد الهادى التازى . ط بغداد ١٩٧٩م .

الصفدى : خليل بن ايبك .

٩٢ - نكت الهيمان فى نكت العميان ، ط القاهره د ـ ت .

٩٣ - الوافى بالوفيات ، ط أوربا ١٩٧٤م بعناية ديدرينغ .

صفوان : أبو البحر بن ادريس التجيبى .

٩٤ - زاد المسافر ، تحقيق عبد القادر محداد ، ط بيروت ١٩٣٩م .

الضبى : أحمد بن يحيى بن عميره .

٩٥ - بغية الملتمس ، ط مدريد ١٨٨٤م .

الضبى : أبو العباس المفضل بن محمد .

٩٦ - المفضليات ، تحقيق يعقوب لايل ، ط بيروت ١٩٢٠م .

الطبرى : محمد بن جرير .

٩٧ - تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، ط القاهره ١٩٦٩م .

الطرطوشى : أبو بكر محمد بن الوليد .

٩٨ - سراج الملوك ، ط الأسكندريه ١٢٨٩م بعناية أنطون غندور .

ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا .

٩٩ - الفخرى فى الآداب السلطانيه ، ط القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد .

١٠٠ - العقد الفريد ، تحقيق ، محمد سعيد العريان ، ط القاهرة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م .

عبد الله بن بلقين : الأمير الغرناطي :-

١٠١ - التبيان أو (مذكرات الأمير عبد الله) ، تحقيق بروفنسال ، ط القاهره ١٩٥٥م .

ابن العبرى : غريغور يوسى الملطى :

١٠٢ - تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨م بعناية أنطون اليسوعى .

العجلونى : اسماعيل بن محمد .

١٠٣ - كشف الخفا ومزيل الألباس ، ط حلب د - ت بعناية أحمد القلاش .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن .

١٠٤ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، هذبه عبد القادر بدران ، ط - بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

العسقلانى : أحمد بن على .

١٠٥ - الدرر الكامنه ، تحقيق محمد جاد الحق ، ط القاهره ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

١٠٦ - الاصابه فى تمييز الصحابه ، ط القاهره ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .

العسكرى : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل .

١٠٧ - ديوان المعانى ، ط القاهره ١٣٥٢ هـ .

ابن عطيه : أبو محمد عبد الحق بن غالب المحاربى .

١٠٨ - فهرس ابن عطيه ، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهى ، ط بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

ابن العمرانى : محمد بن على بن محمد .

١٠٩ - الانباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، ط ليدن ١٩٧٣م .

عياض : أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى :-

١١٠ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، تحقيق أحمد بكير محمود ط ليبيا ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .

الغبرينى : أبو العباس محمد بن أحمد بن عبد الله .

١١١ - عنوان الدرايه فى من عرف من العلماء فى المائه السابعه ببجايه ، تحقيق عادل نويهض ، ط بيروت ١٩٦٩م .

١١٢ - المختصر فى أخبار البشر ، ط القسطنطينيه ١٢٨٦ هـ .

ابن فرحون : ابراهيم بن على بن محمد .

١١٣ - الديباج المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، ط القاهره ١٩٧٢م .

ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الرحمن بن محمد الأزدى .

١١٤ - تاريخ علماء الأندلس ، ط القاهره ١٩٦٦م .

ابن الفوطى : عبد الرزاق بن أحمد الصابونى .

١١٥ - الحوادث الجامعه والتجارب النافعه ، نشره مصطفى جواد ، ط بغداد ١٣٥١ هـ .

القالى : أبو على اسماعيل بن القاسم البغدادى .

١١٦ - الأمالى ، ط القاهره ١٩٢٦م - ١٣٤٤ هـ .

ابن قتيبه : أبو عبد الله محمد بن مسلم الدينورى .

١١٧ - الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد شاكر ، ط القاهره ١٩٦٦م .

قدامه بن جعفر .

١١٨ - نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط القاهره ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م .

القرشـــى : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب .

١١٩ - جمهرة أشعار العرب ، تحقيق محمد على الهاشمى ، ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

القرطاجنى : حازم بن محمد الأنصارى .

١٢٠ - ديوانه ، تحقيق عثمان الكعاك ، ط بيروت ١٩٦٤م .

١٢١ - قصائد ومقطعات ، تحقيق الحبيب بن الخوجه ، ط بيروت - ١٩٧٢م .

١٢٢ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق الحبيب بن الخوجه ، ط تونس ١٩٨١م .

القفطـــى : جمال الدين بن أبي الحسن يونس .

١٢٣ - انباه الرواه ، ط القاهره ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على .

١٢٤ - صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ط المؤسسه المصريه للتأليف والترجمه والنشر .

١٢٥ - مآثر الانافه فى معالم الخلافه ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط الكويت ١٩٦٤م .

ابن القلانسى : أبو يعلى حمزه .

١٢٦ - ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م .

الكتانـــى : عبد الحى بن عبد الكريم .

١٢٧ - فهرس الفهارس ، ط بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م بعنايه احسان عباس .

الكتبي : محمد بن شاكر .

١٢٨ - فوات الوفيات ، تحقيق عباس ، ط بيروت ١٩٧٤م وتحقيق محيي الدين عبد الحميد ، ط القاهره ١٩٥١م .

ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن عمر .

١٢٩ - البدايه والنهايه ، ط بيروت ١٩٦٦م .

ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك .

١٣٠ - تاريخ الأندلس ، نشره مختار العبادى بصحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمدريد مج ١٣ سنة ١٩٦٥م - ١٩٦٦م .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد .

١٣١ - التعازي والمراثي ، تحقيق محمد الديباجي ، ط دمشق ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

١٣٢ - الكامل في اللغه والأدب ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط القاهره

مجهول :-

١٣٣ - أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، ط جوتنجن ١٨٦٣م ، بعناية المستشرق ميللر .

مجهول :-

١٣٤ - الحلل الموشيه في ذكر الأخبار المراكشيه ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، ط الدار البيضاء ١٣٩٩هـ .

مجهول : -

١٣٥ - الذخيره السنية فى تاريخ الدوله المرينيه ، ط الجزائر ١٩٢٠م ، تحقيق محمد بن أبى شنب .

المراكشي : أحمد بن محمد بن عذارى .

١٣٦ - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق بروفنسال ، ط بيروت ١٩٦٧م .

المراكشى : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصارى .

١٣٧ - الذيل والتكملة ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٦٥م .

المراكشى : عبد الواحد بن على .

١٣٨ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ، ط القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

المرتضى : على بن الحسين العلوى .

١٣٩ - أمالى المرتضى ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط بيروت ١٩٦٧م

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين .

١٤٠ - مروج الذهب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط بيروت ١٩٧٣م .

ابن المعتز : عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسى .

١٤١ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .

١٤٢ - طبقات الشعراء ، ط القاهرة ١٩٦٨م .

المقدسى : شهاب الدين بن محمد المعروف بأبى شامه .

١٤٣ - الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط بيروت د - ت .

المقدسى : مطهر بن طاهر .

١٤٤ - البدء والتاريخ ، نشره كلمان هوار ، ط باريس ١٨٩٩م .

المقرى : أحمد بن محمد التلمسانى .

١٤٥ - أزهار الرياض فى أخبار عياض ، تحقيق الابيارى والسقا و شلبى ، ط القاهرة ١٣٥٨هـ .

١٤٦ - نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

المقريزى : أبو العباس تقى الدين أحمد بن على .

١٤٧ - اتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء ، تحقيق محمد حلمى أحمد ، ط القاهره ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

١٤٨ - الخطط المقريزية ، ط القاهره ١٣٢٤هـ .

١٤٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عاشور ، ط القاهره ١٩٧٢م .

المكناسى : أبو العباس أحمد بن محمد .

١٥٠ - جذوة الاقتباس فى ذكر من حلّ من الاعلام مدينة فاس ، ط الرباط ١٩٧٣م .

١٥١ - درة الحجال فى أسماء الرجال ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، ط تونس ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

مالك بن أنس : امام دار الهجرة .

١٥٢ - الموطأ ، ط القاهره ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .

١٥٣ - لسان العرب ، ط بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

ابن منقذ : أبو المظفر أسامه بن مرشد الكنانى .

١٥٤ - الاعتبار ، ط جامعة برنستون بالولايات المتحده الامريكيه ١٩٣٠م ، بعناية فليب حتى .

١٥٥ - ديوانه ، تحقيق أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، ط القاهره ١٩٥٣م ..

١٥٦ - المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازى ، ط القاهره ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

الموسوى : محمد باقر الأصبهانى .

١٥٧ - روضات الجنات ، تحقيق أسد الله اسماعيليان ط . طهران ١٣٩٢ هـ .

الميدانى : أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى .

١٥٨ - مجمع الأمثال ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة ١٣٧٩هـ .

ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب الوراق .

١٥٩ - الفهرست ط طهران ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

أبو نواس : الحسن بن هانئ .

١٦٠ - ديوانه ، تحقيق أحمد عبد الحميد الغزال . ط بيروت .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك .

١٦١ - السيره النبويه ، تحقيق السقا والابيارى وشلبى ، ط القاهره ١٩٥٥ .

الهمذانى : رشيد الدين .

١٦٢ - جامع التواريخ (تاريخ المغول) ، تعريب عبد المعطى الصياد وآخرون ، ط القاهره د ت .

ابن واصل : أبو عبد الله محمد بن سالم المازنى .

١٦٣ - مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهره ١٩٦٠م .

الونشريشى : أبو العباس محمد بن يحيى .

١٦٤ - أسنى المتاجر فى بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، نشره حسين مؤنس بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية - مدريد ١٩٥٧م .

اليافعـــى : أبـو عبد اللـه بن أسعـد بن سليمان .

١٦٥ - مرآة الجنات ، ط بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

اليمـــنى : عماره بن أبى الحسن الحكمـى .

١٦٦ - أخبار اليمن ، تحقيق محمد بن الأكوع الحوالى ط القاهـــــره ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

١٦٧ - ديوانه ، تحقيق ذى النون المصرى . ط القاهره د . ت .

اليونيـــنى : قطب الدين موسى بن محمد .

١٦٨ - ذيل مرآة الزمان ، ط الهند ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

المراجـــع الحديثـــه :-

ابراهيم أنيـــس :

١٦٩ - موسيقى الشعر ، ط القاهره ١٩٧٢م .

ابراهيم العـــدوى :

١٧٠ - العرب والتتار ، ط القاهره ١٩٦٣م .

احسان عبـــاس :

١٧١ - فن الشعر ، ط بيروت ١٩٥٥م .

أحمد أمـــين :

١٧٢ - ظهر الاسلام ، ط القاهره ١٩٦٦م .

أحمـــد بدر :

١٧٣ - من كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ط دمشق ١٩٧٨م .

أحمـــد توفيـــق :

١٧٤ - المسلمون فى جزيرة صقليـــه ، ط تونس ١٩٦٥م .

أحمـــد سوســـه :

١٧٥ - رى سامراء ، ط بغداد ١٩٤٨م .

أحمد شوقى :

١٧٦ - الشوقيات ، ط القاهره ١٩٧٠م .

أحمد بن عامر :

١٧٨ - الدولة الحفصية ، ط تونس ١٩٧٤م .

آنخل جنثالث بلنثيا :

١٧٩ - تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهره ١٩٥٥م

أميليو غارسيه غومس :

١٨٠ - الشعر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهره ١٩٦٩م .

أنور المعداوى :

١٨١ - نماذج فنيه من الأدب والنقد .

بطرس البستانى :

١٨٢ - أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث ، ط بيروت ١٩٦٤م .

جواد على :

١٨٣ - المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط بغداد ١٩٧٨م .

حسن ابراهيم حسن :

١٨٤ - تاريخ الدوله الفاطمية ، ط القاهره ١٩٥٨م .

حافظ حمدى :

١٨٥ - الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ط القاهره ١٩٥٠م .

ستيفن رنسيمان :

١٨٦ - تاريخ الحروب الصليبيه ، ترجمة الباز العرينى ، ط بيروت ١٩٦٧م .

سعد اسماعيل شلبى :

١٨٧ - ابن حمديس الصقلى ، ط القاهره ١٩٧٧م .

سعد زغلول عبد الحميد :

١٨٨ - محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والأندلس ، ط بيروت ١٩٧٣م .

سعيد عاشور :

١٨٩ - بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧م .
الحروب الصليبيه ، ط القاهره ١٩٧٨م .

شوقى أبو خليل :

١٩٠ - معركة العقاب ، ط دمشق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

شوقى ضيف :

١٩١ - دراسات فى الشعر العربى المعاصر ، ط القاهره ١٩٧٣م .

١٩٢ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ط القاهره ١٩٦٠م .

الطاهر أحمد مكى :

١٩٣ - دراسات أندلسيه فى الأدب والتاريخ والفلسفه ، ط القاهره ١٩٨٠م .

عبد الرحمن على الحجى :

١٩٤ - أندلسيات ، ط بيروت ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٩م .

١٩٥ - التاريخ الأندلسى ، ط دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .

عبد الرحمن ياغى :

١٩٦ - حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ط بيروت ١٩٦١م .

عز الدين اسماعيل :

١٩٧ - الأسس الجماليه فى النقد العربى ، ط القاهره ١٩٥٥م .

عبد العزيز سالم :

١٩٨ - تاريخ مدينة المريه الاسلاميه ، ط بيروت ١٩٦٩م .

١٩٩ - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ط بيروت ١٩٦٢م .

٢٠٠ - قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ط بيروت ١٩٧١م .

عبد العزيز عتيق :

٢٠١ - علم العروض والقافيه ، ط بيروت ١٩٧٤م .

عبد الكريم التواتى :

٢٠٢ - مأساة انهيار الوجود العربى فى الأندلس ، ط الدار البيضاء

١٩٦٧م .

عبد الكريم خليفه :

٢٠٣ - ابن حزم الأندلسى : حياته وأدبه ، عمّان د . ت .

عبد الله علاّم :

٢٠٤ - الدولة الموحديه فى عهد عبد المؤمن بن على ، ط القاهره

١٩٧١م .

عبد الله كنون :

٢٠٥ - ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ط بيروت د . ت .

عمر موسى باشا :

٢٠٦ - أدب الدوله المتتابعه (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)

ط دمشق ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧م .

على الجارم :

٢٠٧ - قصة العرب فى اسبانيا ، ط القاهره ١٩٦٨م .

على محمد حموده :

٢٠٨ - تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى ط القاهره

١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م .

علي مصطفى المصراتي :

٢٠٩ - ابن حمديس الصقلي ، ط طرابلس لبنان ١٩٧٢م .

فليب حتي وآخرون :

٢١٠ - تاريخ العرب المطول ، مطابع الغندور ١٩٦٥م .

فؤاد الصياد :

٢١١ - المغول في التاريخ ، ط القاهره ١٩٧٥م .

أبو القاسم كرو :

٢١٢ - عصر القيروان ، ط تونس ١٩٧٣م .

محمد ابراهيم حور :

٢١٣ - الحنين الى الوطن في الأدب العربي ، ط القاهره ١٩٧٣م .

محمد رجب البيومي :

٢١٤ - الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه بالرياض ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

محمد رضوان الدايه :

٢١٥ - ابن خفاجه ، ط القاهره ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

٢١٦ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ط دمشق ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٢١٧ - مختارات من الشعر الأندلسي ، القاهرة ١٩٧٢ .

محمد زغلول سلام :

٢١٨ - الأدب في العصر الأيوبي ، ط القاهره ١٩٨٠م .

محمد صبيح :

٢١٩ - القدس معاركها الكبرى ، ط القاهره ١٩٧٠م .

محمد عبد الله عنان :

٢٢٠ - الآثار الأندلسيه الباقيه في أسبانيا والبرتغال ، ط القاهره ١٩٦٦م .

٢٢١ - تراجم اسلاميه شرقيه وأندلسيه ، ط القاهره ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م .

٢٢٢ - دول الطوائف ، ط القاهره ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م .

٢٢٣ - عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، ط القاهره ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .

٢٢٤ - لسان الدين ابن الخطيب ، ط القاهره ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

٢٢٥ - مواقف حاسمه فى تاريخ الاسلام ، ط القاهره ١٩٦٢ - ١٣٨٢ هـ .

٢٢٦ - نهاية الأندلس ، ط القاهره ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م .

محمد عبدالله حتامله :

٢٢٧ - التنصير القسرى لمسلمى الأندلس ، ط عمان ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .

محمد فريد المحامى :

٢٢٨ - تاريخ الدوله العليه العثمانيه ، ط بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .

محمد كرد علي :

٢٢٩ - خطط الشام ، ط بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

٢٣٠ - رسائل البلغاء ، ط القاهره ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م .

٢٣١ - غابر الأندلس وحاضرها ط القاهره ١٩٢٣م .

محمد كمال الدسوقى :

٢٣٢ - الدولة العثمانية والمسألة الشرقيه ، ط القاهره ١٩٧٦م .

محمد مجيد السعيد :

٢٣٣ - شعر ابن اللبانه الدانى ، ط البصره ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

٢٣٤ - الشعر فى عهد المرابطين بالأندلس ، ط الكويت ١٩٨٠م .

محمد محمد مخلوف :

٢٣٥ - شجرة النور الزكيه ، ط بيروت ١٣٤٦ هـ .

محمد المرزوقى :

٢٣٦ - أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ط تونس ١٩٦٧م ٠

محمود العابدى :

٢٣٧ - قدسنا ، ط القاهره ١٩٧٢م ٠

محمود الهجرسى :

٢٣٨ - محمد بن عبد الملك صاحب التنور ، سلسلة أعلام العرب ، ط الدار المصريه للتأليف والترجمه والنشر ٠

مخائيل شاروبيم :

٢٣٩ - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، ط بولاق ١٣١٥ هـ - ١٨٩٨م ٠

مصطفى عوض الكريم :

٢٤٠ - الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين ، ط السودان ١٩٦٨م ٠

مصطفى محمد الشكعه :

٢٤١ - رحلة الشعر من الأمويه الى العباسيه ، ط بيروت ١٩٧٩م ٠

ول ديورنت :

٢٤٢ - قصة الحضارة ٠ ترجمة محمد بدران ، ط القاهره ١٩٦٤م ٠

يوسف أشباخ :

٢٤٣ - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عنان ط القاهره ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨م ٠

يوسف الياس الدبس :

٢٤٤ - تاريخ سوريا ، ط بيروت ١٩٠٢م ٠

يونس السامرائى :

٢٤٥ - سامراء فى أدب القرن الثالث الهجرى ، ط بغداد ١٩٦٣م ٠

الدوريّـــات :

عبد الرحمن الحجي :

٢٤٦ - (رثاء الأندلس لشاعر مجهول) ، مجلة الرساله مج ١ سنـــة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م .

عبد اللـه كنون :

٢٤٧ - (أبو البقاء الرندى وكتابه الوافى فى نظم القوافـــى) ، صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمدريد ١٩٥٨م - ١٣٧٨هـ .

ليفى بروفنسال :

٢٤٨ - (السيد القمبيطور) دائرة المعارف الاسلاميه (مـــادة السيد) ج ١٢ .

مهدى علاّم .

٢٤٩ - (مقصورة حازم) ، حوليات كلية آداب عين شمس سنة ١٩٥٣م) .

الفهرســـــت

الموضـــــوع	الصفحـــــــه
المقدمـــــــه	١ - ١٦ .
التمهيد : الأوطان ومكانتها فى نفوس الشعراء .	١٦ - ٤٠ .
البــاب الأول :	
رثاء الدول والأمصار فى المشرق	٤٠ - ١٨٦ .
الفصـل الأول : رثاء الدول والأمصار فى العصر الجاهلـــــى .	٤١ - ٥١ .
الفصل الثانى : رثاء الدولة الأمويـــــه	٥١ - ٦٤ .
الفصل الثالث : رثاء الدول والأمصار حتى عصـر السلاجقـــــه .	٦٤ - ١٥٨ .
المبحث الأول : الثورات والفتن الداخلية فى الدولة العباسيه :-	
* فتنـة الأمين والمأمون وتدمير بغـــداد .	٦٤ - ٨١ .
* الثورة على المتوكل وهدم قصره الجعفرى .	٨١ - ٨٦ .
* الوقـوف على ايـوان كسـرى .	٨٦ - ٩٥ .
* رثاء البصرة عندما دمرت فى ثورة الزنـــج	٩٥ - ١١٤ .
* ماقيل من الشعر فى رثاء العواصم بعـــد انتقال الخلافة عنها .	١١٥ - ١٢٠ .
المبحث الثانى : رثاء الدوله الطولونيه والفاطميه	١٢٠ - ١٤٠ .
خراب المدن بالحوادث الطبيعية	
وماقيل فى ذلك من الشعر .	١٤٠ - ١٤٤ .

المبحث الثالث : الشعر يرثي سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين .	١٤٥ - ١٥٧ .
الفصل الرابع : تدمير بغداد والشام على يد التتار ورثاء الشعراء لهما .	١٥٨ - ١٨٥ .
الباب الثاني :	
الشعر العربي ورثاء الأندلس والمغرب .	١٨٦ - ٤٥٤ .
توطئـــه .	١٨٧ - ١٩٠ .
الفصل الأول : رثـاء المدن .	١٩١ - ٢٨٦ .
الفتنة البربريه وتدمير قرطبـه .	١٩١ - ٢٠٣ .
عصر الطوائف بداية السقوط	٢٠٤ - ٢٠٦ .
رثاء بربشتر .	٢٠٦ - ٢١٢ .
رثاء طليطلة	٢١٢ - ٢٢٦ .
رثاء بلنسية	٢٢٧ - ٢٤٨ .
رثاء اشبيليه	٢٤٩ - ٢٥٤ .
رثاء سهيل	٢٥٤ - ٢٥٥ .
رثاء صقليه ومدن المغرب	٢٥٥ - ٢٨٦ .
رثاء جزيرة صقليه	٢٥٥ - ٢٦٣ .
رثاء القيروان	٢٦٤ - ٢٨٢ .
رثاء مراكش	٢٨٣ - ٢٨٦ .
الفصل الثاني : شعر الاستغاثة والحث على الجهاد .	٢٨٧ - ٣٥٩ .

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

الموضوع	الصفحه
الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسية :	٣٦٠ - ٤١٦ .
رثاء امارة مربيطر .	٣٦٠ - ٣٦٣ .
رثاء امارة بني عباد	٣٦٣ - ٣٩٨ .
رثاء امارة بني الأفطس	٣٩٨ - ٤١٠ .
رثاء امارة بني صمادح	٤١١ - ٤١٦ .
الفصل الرابع : رثاء الأندلس عامه	٤١٧ - ٤٥٤ .
الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأمصار	٤٥٥ - ٥٥١ .
الفصل الأول : رثاء الدول والأمصار بين التأثر والتأثير .	٤٥٦ - ٤٦٥ .
الفصل الثاني : دراسة شكل قصيدة الرثاء	٤٦٦ - ٥١٨ .
المبحث الأول : مقدمات القصائد	٤٦٦ - ٤٧٥ .
المبحث الثاني : الألفاظ	٤٧٥ - ٤٩٠ .
المبحث الثالث : الأوزان والقوافي	٤٩١ - ٤٩٩ .
المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين	٥٠٠ - ٥١٨ .
الفصل الثالث : دراسة مضمون قصيدة الرثاء	٥١٩ - ٥٥١ .
المبحث الأول : الواقعية	٥١٩ - ٥٢٩ .
المبحث الثاني : التكرار	٥٣٠ - ٥٣٧ .
المبحث الثالث : الجماعيه	٥٣٨ - ٥٤٥ .
المبحث الرابع : أسباب النكبات	٥٤٦ - ٥٥١ .
الخاتمه :	٥٥٢ - ٥٥٦ .
ثبت المصادر والمراجع	٥٥٩ - ٥٨٣ .
الفهرست	٥٨٤ - ٥٨٦ .